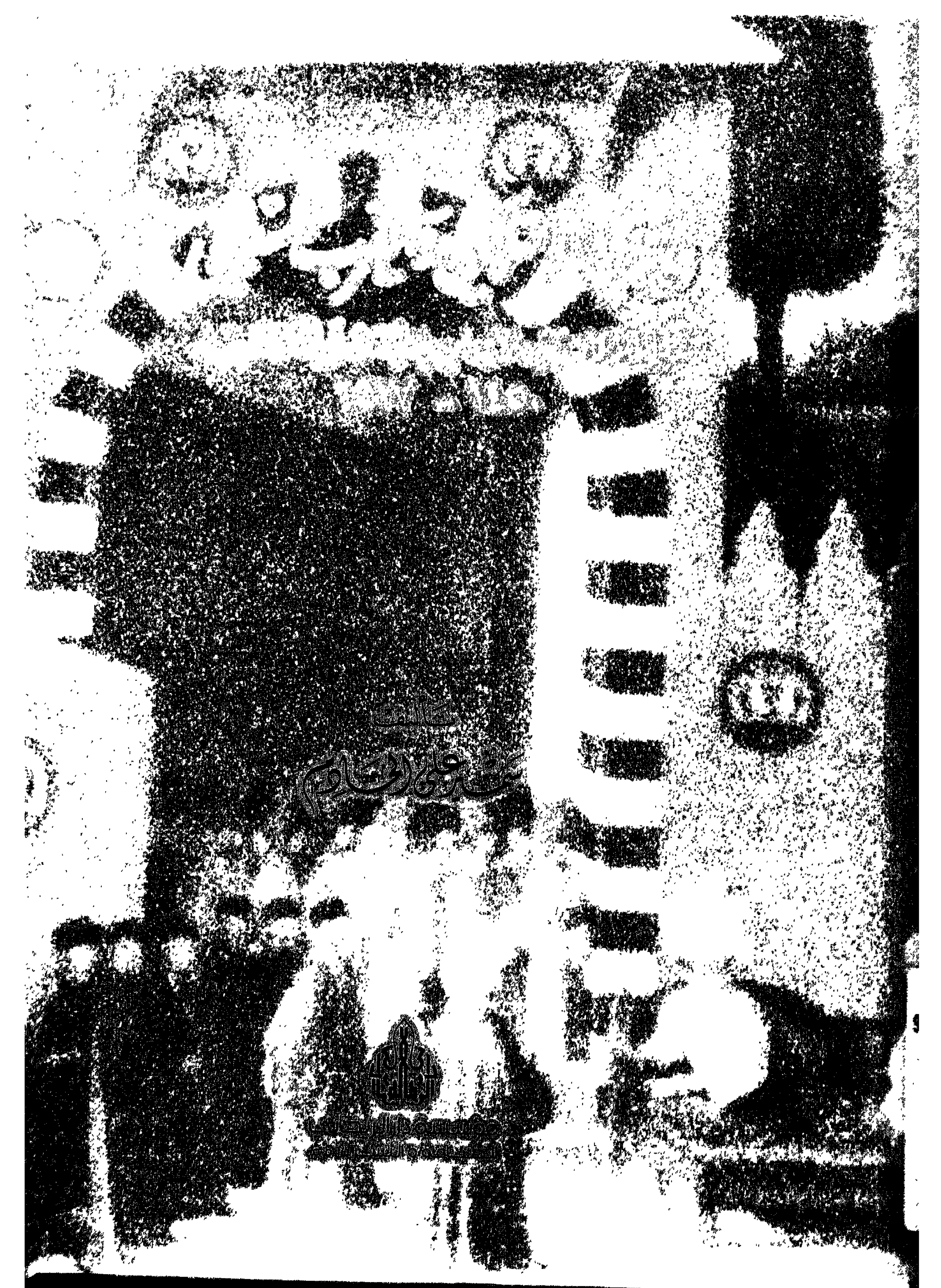
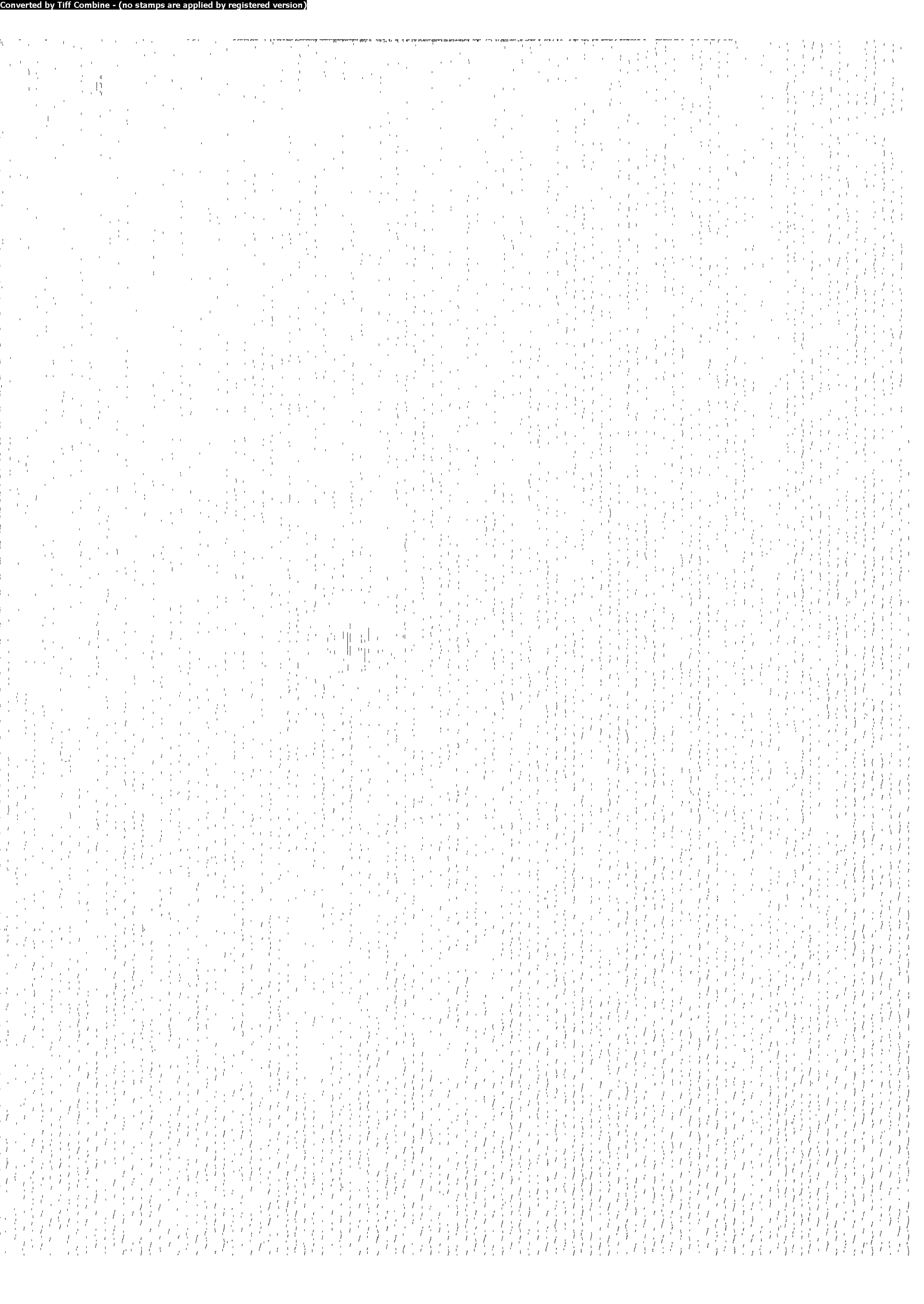


[illegible] الإسلامي والعربي [illegible]
[illegible] أول [illegible]
[illegible] هذا التاريخ بين الدولة [illegible]
[illegible] الإيطالية [illegible]
١٥٢٠ - ١٥٦٦ والأمير [illegible]
[illegible] إلى [illegible]
[illegible] بين [illegible] والجمهوريات
الإيطالية، أي البندقية وجنوى وفلورنسا وروما
وغيرها [illegible] في سلطنة [illegible] في
القرن السادس عشر [illegible]
الأجزاء [illegible] شمل العلاقات بين
الدول [illegible] والفرنج أي بين الشرق
والغرب [illegible]
[illegible] العلمية [illegible]
[illegible] الطرقات التجارية المطروقة وأنواع [illegible]
المستعملة والقصور [illegible]
والمساعدات [illegible] والبضائع [illegible]
والإمكانيات والنتائج الحاصلة على كل من
مصر [illegible] والمدن الإيطالية [illegible]
[illegible] يوم الثلاثاء الواقع في ١٠
حزيران ١٩٨٨ في كلية الآداب والعلوم
الإنسانية - الفرع الأول - الجامعة اللبنانية في
بيروت مناقشة هذه الأطروحة [illegible] أن
كاتبها العقيد الركن المهندس البحري [illegible]
على الحصول شهادة الدكتوراه اللبنانية في
التاريخ [illegible] من المرتبة [illegible]
وهذه هي أول شهادة دكتوراه لبنانية تمنح من
الجامعة اللبنانية كلية الآداب والعلوم الإنسانية
- الفرع الأول والكتاب [illegible] عن الرسالة
[illegible] أمور [illegible] أهمها [illegible] التي [illegible]
[illegible] والصور واللوحات [illegible] التي [illegible]
بها الكتاب [illegible] والأعلام التي
[illegible] فيها [illegible] للكتاب [illegible]
الكثير [illegible] على الكتاب [illegible]
[illegible]





الشرق الإسلامي والغرب المسيحي

عبر العلاقات بين المدن الإيطالية وشرقي البحر المتوسط

١٤٥٠ - ١٥١٧

الطبعة الأولى
١٩٨٩م

اهداءات ٢٠٠٠

المرحوم/ علي أمين
الصحفي الشهير

الشرق الإسلامي والغرب المسيحي

عبر العلاقات بين المدن الإيطالية وشرقي البحر المتوسط

١٤٥٠ - ١٥١٧

تأليف

سمير علي الخادم



مؤسسة دار الريحاني
للطباعة والنشر ش.م.م.



الإهـــدَاء

إلى العميدة الدكتورة زاهية قدورة أستاذة الكل التي أرجو أن ينصفها الدهر فتصبح وزيرة للثقافة .

مع محبتي وامتناني .

سمير الخادم

هذه الدراسة هي بالأساس رسالة جامعية لنيل شهادة دكتوراه دولـة في التاريخ في الجـامعة اللبنـانية كليـة الآداب والعلوم الإنسانيـة ـ الفرع الأول وقد نال صاحبها على تقدير جيد من الدرجة القصوى كمـا استحق تهنئة اللجنة الفاحصة .



الملك الأشرف السلطان قانصوه الغوري (١٥٠١ - ١٥١٧م).



تقرير العميدة الدكتورة زاهية قدورة

رئيسة قسم التاريخ في كلية الآداب والعلوم الإنسانية في الجامعة اللبنانية الفرع الأول

ورئيسة لجنة مناقشة أطروحة الدكتوراه في التاريخ التي تقدم بها الطالب سمير الخادم

تقدم الطالب سمير الخادم برسالة لنيل درجة دكتوراه في التاريخ في كلية الآداب ـ الفرع الأول ـ الجامعة اللبنانية بموضوع : علاقات المدن الإيطالية وشرقي المتوسط في الفترة ما بين ١٤٥٠ ـ ١٥١٧ م . وذلك بعد أن استوفى الشروط العلمية التي تؤهله للمثول أمام هذه اللجنة أو الهيئة الموقرة. ويكون بذلك الطالب سمير الخادم أول من تقدم لنيل هذه الدرجة من هذه الكلية ، أي من الفرع الأول من كلية الآداب والعلوم الإنسانية .

والسيد سمير الخادم حائز على ليسانس من كلية الآداب ، هذه ، بتقدير جيد جداً ، وعلى دبلوم دراسات عليا من الكلية ذاتها بدرجة جيد جداً أيضاً وفي كلتيهما كان الأول في دفعته .

كان السيد سمير الخادم منذ بدء دراسته طالباً منضبطاً مجلياً متفوقاً في دروسه وسلوكه الجامعي ، مما فتح له باب الانتساب إلى قسم الدكتوراه ، والعمل بجدية ورصانة طيلة سنوات عدة ، لانهاء رسالته هذه التي نحن بصدد مناقشتها من قبل اللجنة المختصة المؤلفة من الأساتذة الدكاترة :

د . زاهية قدورة ـ مشرفة .

د . عبد المجيد ـ النعنعي ـ عضو .

د . عبد الرؤوف سنو ـ عضو .

د . عمر التدمري ـ عضو .

د . وجيه كوثراني ـ عضو .

لقد اتسمت الرسالة بطابع البحث العلمي الرصين فعالجت المواضيع بدقة وعمق وهي تستند إلى الحقائق المستمدة من الأصول ، والوثائق والمراجع المتعددة عربية وأجنبية مما ساعد على الوصول إلى نتائج واستنتاجات جديدة وطريفة .

ومما ساعد الطالب سمير الخادم على الرجوع إلى مختلف المصادر والمراجع كونه يتقن بالإضافة ألى لغته العربية ، اللغة الفرنسية والإنكليزية والإيطالية مما أتاح له العودة إلى الحقائق من خلال أصولها ، مما أغنى الرسالة ، وجعل المضمون شاملاً فجمع في ثناياه مختلف الآراء والمعلومات .

وبعد أن استمعنا إلى مختلف المناقشات والآراء من قبل الأساتذة الأجلاء يبقى القول في أن الملاحظات التي أبديت لا تُنْقِصُ من قدر الجهد الذي بذله السيد سمير الخادم ولا من القيمة العلمية للأطروحة ، وإن ما ذكر في معرض النقد ليس أكثر من ملاحظات وشوائب نرجو تصحيحها وتعديلها عند مراجعة الرسالة وطبعها ويكون بذلك قد أضاف الباحث سمير الخادم إلى المكتبة العربية بحثاً علمياً طريفاً وجديداً وجدياً يشكر عليه ، ويستحق تهنئة اللجنة الفاحصة .

رئيسة اللجنة زاهية قدورة

بيروت في ١٢/٦/٨٨

المقـدّمَة

العلاقات بين المدن الإيطالية وشرقي البحر المتوسط ١٤٥٠ - ١٥١٧

تهدف هذه الدراسة إلى إبراز طبيعة العلاقات الإيطالية وعندما نقول الإيطالية يعني ذلك المدن والجمهوريات الإيطالية ، أي البندقية وجنوى وفلورنسا وبيزا وغيرها مع الشرق ، مصر وسوريا أي سلطنة المماليك في القرن الخامس عشر حتى أوائل القرن السادس عشر . وهذه العلاقات ما هي إلاّ جزء هام من إطار كبير شمل العلاقات بين الدولة المملوكية والفرنج أي بين الشرق والغرب . وطبيعة هذه العلاقات قديمة ومتشعبة قدم الحملات الصليبية .

انتهى القرن الثالث عشر بتصفية الإمارات الصليبية في فلسطين وشهد القرن الرابع عشر ردة الفعل لهذه النتيجة الحاسمة في المعسكر الغربي وتمظهر ذلك بما قامت به البابوية في روما من الدعوة إلى تحريم الاتجار مع سلطنة المماليك ، مهددة بتوقيع قرارات الحرمان من الكنيسة على كل من يخالف أوامرها من تجار الفرنج كافة وعمدت البابوية إلى تنفيذ سياستها بقوة السلاح عن طريق إرسال السفن المسلحة بهدف التصدي لمراكب التجار الفرنج الذين كانوا لا يتقيدون بأوامر الكنيسة وقراراتها . استراتيجياً كانت الكنيسة الكاثوليكية ترى أن مجرد امتناع الفرنج عن الاتجار مع سلطنة المماليك سيؤدي حتماً إلى حرمانها من المورد الرئيسي لثرائها وقوتها ، وبالتالي إضعافها وسهولة القضاء عليها . ومتى تم ذلك أصبح بإمكان الغرب استعادة بيت المقدس دون صعوبة . باعتبار أن تجارة المرور بين الشرق والغرب في العصر الوسيط كانت

المورد الرئيسي لسلطنة المماليك بما كانت تجبيه من رسوم ومكوس وبما كانت تقوم به من وساطة تجارية .

ما هو موقف المدن الإيطالية من هذه الدعوة ؟

إن مصالح الجمهوريات والمدن الإيطالية ، ذات السيادة البحرية في المتوسط ، قد تعارضت مع هذه الفكرة وعمدت إلى متابعة تعاملها مع الشرق بسبل شتى لطغيان الكسب المادي على الوازع الديني ، مستفيدة من جهة ، من الجهود التي بذلتها السلطات المملوكية من جانبها لتفشيل هذا الحصار الاقتصادي ، بالترحيب بتجار الفرنج عامة وتجار البندقية وجنوى وفلورنسا خاصة وحسن معاملتها لهم ومنحهم الكثير من الامتيازات التجارية التي تضمنتها المعاهدات التي عقدت مع دولهم وجمهورياتهم ومن جهة أخرى عن طريق التماس السماح من قداسة البابا بمعاودة التعامل التجاري مع مصر خوفاً من أن يؤدي إلى خراب المدن الإيطالية خاصة البندقية. وبالفعل سمح البابا كليمون السادس Clément VI للبندقية بإرسال شوانيها إلى الاسكندرية وبقية ديار السلطنة على شرط أن لا تنقل سوى البضائع المرخصة (غير الحربية) وفي سبيل الحصول على الترخيص المطلوب عمدت البندقية إلى دفع مبالغ طائلة إلى حاشية البابا (منتصف القرن الرابع عشر) .

وإزاء فشل مخططات المقاطعة وإحباط محاولات الاستيلاء على مصر بعد الحملة التي قام بها بطرس الأول ملك قبرص ضد الاسكندرية في عام ١٣٦٥ واضطراره للانسحاب من المدينة بعد بضعة أيام من احتلالها لدى اقتراب وحدات المماليك الزاحفة من القاهرة ، عمد الإفرنج (الأوروبيون) إلى ما يسمى بحرب الاستنزاف عن طريق القيام بعمليات التخريب الواسعة بالموانىء المصرية والشامية لشل الحركة التجارية فيها . وبهذا نشطت القرصنة في شرقي حوض البحر المتوسط . وامتلأ القرن الخامس عشر بأخبار غارات القراصنة الكتلان بالتعاون مع القبارصة وفرسان الاسبتارية برودوس على

السواحل والثغور المصرية والشامية والتربص لسفن التجار المسلمين من مشارقه ومغاربه في عرض البحر .

إن نجاح حرب الاستنزاف هذه دفعت السلطات المملوكية إلى رفع التحدي وضرورة الاستيلاء على جزيرتي قبرص ورودوس اللتين اتخذ القراصنة من أخوارهما أوكاراً لتعبثهم وتجرمهم .

ومن ثم كانت الغزوات الانتقامية التي قام بها المماليك ضد الجزيرتين ، هذه الغزوات التي انتهت باستيلائهم على قبرص في عهد السلطان برسباي وبإخفاقهم في احتلال رودوس في عهد السلطان حقمق .

ألهب غزو قبرص ، والتهديد بغزو رودوس العلاقات المملوكية مع الفرنج وعاد الغرب بعد فشل المماليك بغزو رودوس مراراً إلى التخطيط والتحضير لمشاريع الهجوم المعاكس ضد سلطنة المماليك وعلى نطاق عام وواسع عن طريق ضم الحبشة إلى الكنيسة الكاثوليكية والتحالف معها للقيام بحملة مزدوجة للاطباق على مصر براً وبحراً ومن الجنوب والشمال في وقت واحد . ومما شجع الفرنج على المضي في هذه المخططات أن الحبشة قد أصبحت في ذلك الوقت مسرحاً لحرب صليبية نظراً لما كان يحدث من وقت لآخر من نشوب القتال بين ملوك الحبشة المسيحيين وملوك دول الطراز الإسلامية .

وهذه الروح أيضاً هي التي دفعت البرتغاليين إلى بذل الجهود الجدية لكشف طريق للوصول إلى الهند والحبشة غير طريق البحر الأحمر عبر مصر ، وذلك لكي تحقق لهم انتزاع تجارة الشرق من يد سلطنة المماليك وحرمانها من أهم مواردها . وكان نجاح البرتغاليين في اكتشاف هذه الطريق في السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر أحد أهم العوامل التي أدت إلى سقوط سلطنة المماليك .

إزاء هذا الوضع ما هو دور التجار من الفرنج الذين كانوا يرتادون أسواق مصر والشام أو الذين كانوا يقيمون في أراضي السلطنة المملوكية وما هو دور قناصل الفرنج الذين كانوا يشرفون على شؤون التجار بالمدن والثغور المصرية والشامية ؟

لا شك في أن التجار والقناصل الذين كانوا يتمتعون بحرية الإقامة والتنقل قد أسهموا إلى حد بعيد في ازدهار حركة التجارة ما بين الشرق والغرب إلَّا أنهم كانوا أيضاً عيوناً للبابوات وملوك الفرنج ينقلون إليهم أخبار السلطنة وأحوالها [١] .

ولا شك أيضاً أن الرهبان الفرنسيسكان المقيمين بالأراضي المسيحية المقدسة وهم من الفرنج قد قاموا برسالتهم الدينية إلَّا أنهم كانوا يقومون أيضاً بتأمين الاتصال ما بين البابوات وملوك الفرنج من جهة وملوك الحبشة من جهة ثانية وذلك عن طريق الرهبان الأحباش المقيمين معهم بالقدس[٢] .

وهكذا طغت عليهم الصبغة السياسية ، واضطرت السلطات المملوكية من جانبها ، عندما كانت تحدق بها الأخطار ، إلى أن تنظر إليهم من هذه الزاوية . فأصبحوا في نظرها يمثلون من الناحية السياسية البابوية وأمم الفرنج ، وأصبح لهم وضع بقية الطوائف الأخرى المقيمة معهم بالقدس .

وانقضى القرن الخامس عشر دون أن يستطيع البابوات وملوك الفرنج تحقيق مشروعاتهم ، إذ غدا تنفيذها وهما من الأوهام خاصة وإن السلطات المملوكية اكتشفت خطط التآمر ضدها بين ملوك الحبشة ، فقامت بتشديد

---

(١) دراج . أ ، المماليك والفرنج ، القاهرة ١٩٦١ ، ص ١١ .

Heyd. W., Histoire du Commerce du Levant au Moyen-âge Leipzig, 1886-88, Vol. II. p. 481.

(٢) دراج . أ ، المصدر السابق ، ص ١٢ .

الرقابة على طريق الاتصال بين أوروبا والحبشة وعدم السماح للفرنج ، سواء أكانوا تجاراً أم رهباناً أم رسلاً بالمرور عبر أراضيها في طريقهم إليها . كما أن ملوك الحبشة قد تخلوا آخر المطاف عن هذه الروح والمخططات وآثروا عودة العلاقات الطيبة بين مصر والحبشة ورعاية المصالح المشتركة بينهما والتمسك الشديد بالرابطة التي تربطهم بالكنيسة القبطية .

ومع انقضاء القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر استمر قراصنة الفرنج في شن غاراتهم وتجرمهم على المرافىء والسواحل المصرية والشامية وعلى سفن المسلمين في عرض البحر . ولم يكن سلاطين المماليك يملكون من وسيلة للمطالبة باستعادة أسرى المسلمين والأموال والبضائع ، التي كانت تقع غنيمة في أيدي هؤلاء القراصنة سوى الالتجاء إلى تطبيق مبدأ المسؤولية الجماعية إزاء قناصل الفرنج وتجارهم المقيمين بدولتهم ، فكان السلطان يأمر بالقبض عليهم والتحفظ على أموالهم وبضائعهم وأحياناً أخرى كان يلجأ إلى القبض على الرهبان الفرنسيسكان المقيمين بدير صهيون بالقدس ، وتهديد الفرنج بغلق كنيسة القيامة في وجوه حجاجهم . كما كان يكلف هؤلاء الرهبان بإرسال بعضهم كسفراء لدى البابا وملوك الفرنج كوسيلة من الضغط السياسي عليهم .

وكانت السلطات المملوكية مجبرة على الالتجاء إلى هذه الإجراءات لأنها لم تكن تتبادل التمثيل السياسي مع دول الفرنج وجمهورياتهم ، فليس لها مصالح خاصة تدعوها إلى ذلك . وإنما كان الأمر على عكس ذلك ، فهذه الدول وهذه الجمهوريات هي التي كانت تسعى بأموالها وتجارها وقناصلها إلى أسواق مصر والشام حرصاً على المكاسب الباهظة التي كانت تجبيها من الاتجار معها .

ولما كانت العلاقات المملوكية ـ الإيطالية عميقة الجذور ومتشعبة قدم الحملات الصليبية ، فقد ارتأيت دراستها من خلال النقاط التالية :

الفصل الأول : الطرق التجارية .
الفصل الثاني : الأسطول .
الفصل الثالث : الذهب والفضة والعملات النقدية .
الفصل الرابع : السفارات والمعاهدات .
الفصل الخامس : البضائع المتبادلة .
- الفلفل والبهار (تجار الكارمية)
- الرقيق .
- السلع المتبادلة الأخرى .
الفصل السادس : مصير سلطنة المماليك .

وضعت الدراسة في إطار زمني محدد ١٤٥٠ - ١٥١٧ ونحن قد اتخذنا من عام ١٤٥٠ منطلقاً لدراستنا نظراً لتحول الطرقات التجارية الدولية إلى ديار سلطنة المماليك الآمنة نتيجة لاضطراب الأوضاع وحالة عدم الاستقرار في آسيا الصغرى وجهات البحر الأسود بسبب تعاظم نفوذ العثمانيين الذين انتهوا بالاستيلاء على القسطنطينية عام ١٤٥٣ .

بالإضافة إلى أن السنين الأولى في النصف الثاني للقرن الخامس عشر تعتبر نقطة تحول هامة بسبب إخفاق المماليك في السيطرة على جزيرة رودوس مما أتاح للفرنج اتخاذ زمام المبادرة فشنوا عدة هجمات على الموانىء والثغور المملوكية في المتوسط مما دفع السلطان للقيام بأعمال انتقامية ضد القناصل والتجار الإيطاليين وغيرهم القاطنين في الإسكندرية وبيروت والقدس كوسيلة لدرء تلك الهجمات على بلاده .

أما سنة ١٥١٧ فهي تشكل صفحة جديدة في تاريخ الشرق وهي نقطة تحول هامة تشير إلى نهاية سلطنة المماليك واستيلاء العثمانيين على القاهرة ونحن قد توقفنا عندها حتى لا ندخل في دراسة جديدة واسعة ومتشعبة .

وقد بدا لي واضحاً من خلال قراءتي لما كتبه المؤرخون والرحالة

المسلمون والأجانب في الفترة التي نتناولها أن سلطنة المماليك كانت دولة قوية مرهوبة الجانب ولذا جاءت علاقاتها واتفاقياتها مع المدن والجمهوريات الإيطالية بمثابة عطاء من سلطان مترفع إلى سائل متواضع .

كما ساعدني ذلك على تكوين صورة مشرقة عن واقع الحال في سلطنة المماليك التي نجحت عموماً في جعل ميزان المدفوعات التجاري دائماً لصالحها ، والوقوف على الأسباب الحقيقية التي منعت المدن والجمهوريات الإيطالية من نقل التكنولوجيا الجديدة في صناعة السفن والأسلحة النارية إلى مصر وسوريا وهي أسباب عديدة تعود بمجملها إلى تقيد المدن والجمهوريات الإيطالية بقرارات البابوية وإلى قيامها بلعبة مزدوجة Double Game تهدف إلى وضع مصالحها التجارية فوق كل اعتبار ولو أدى ذلك إلى إلحاق الضرر بسلطنة المماليك .

وقد تبين لي أن هناك أسباباً أخرى تعود إلى مجتمع المماليك العسكري نفسه الذي تشبث بأسلحته التقليدية رافضاً تقبل فكرة التطور التكنولوجي لجهة استعمال السلاح الناري والذي كان من أهم الأسباب التي أدت إلى انحدار سلطنة المماليك أمام التفوق العثماني .

تقع هذه الدراسة في أربعمائة واثنتي وأربعين صفحة وهي تشمل بالإضافة إلى الفصول الستة ملحقاً للخرائط يبين مجمل الطرقات البرية والبحرية المعروفة في تلك الفترة ، وقد ساعدني على كتابة هذه الدراسة بموضوعية وعمق ناحيتان أساسيتان :

١ ـ معرفتي للغة الفرنسية والإنجليزية والإيطالية مما أتاح لي العودة إلى الجذور ، إلى المصادر العربية والإسلامية وإلى المصادر والمراجع الأجنبية الأساسية والأصيلة والعائدة بشكل خاص للمدن والجمهوريات الإيطالية .

٢ ـ كوني ضابطاً بحرياً تدرجت في أرقى المدارس العالمية وسافرت بحراً حول

العالم فقد أتاح لي ذلك التعمق في معرفة علوم البحار والطرقات البحرية والشواطىء مما ساعدني كثيراً على رسم طرقات التجارة البحرية بدقة واتقان ، إن كان ذلك في المحيط الهندي والبحر الأحمر والخليج العربي أم في البحر المتوسط فجاءت واضحة ومطابقة للواقع ومستندة إلى الخبرة والمعرفة .

وقد تجلى هذا في الحديث عن أسطول المماليك في الفترة التي تهمنا فقد جاء وافياً ومبتكراً وبينت أسباب ازدهار أسطول المماليك ونوعية المراكب المستعملة والمعروفة آنذاك وهذا نوع من التجديد ، كما أنني ذكرت التباين في نوعية المراكب المستعملة في كل من البحر الأحمر والبحر المتوسط وتطرقت إلى الحديث عن القواعد البحرية وذكرت وضع مدينة بيروت ومدينة طرابلس بشكل لم يتطرق إليه أحد من الكتاب العرب .

أما فيما يتعلق بالأساطيل الإيطالية فلعلّ التجديد في ذلك هو الحديث عن الرحلات الموسمية المعروفة «بالمدة» Muda وهي الفترة التي تقضيها المراكب الإيطالية (البندقية) في المرافىء الإسلامية لإكمال حمولتها وقد أسهب الكتاب في تفسير معنى كلمة «المدة» إلاّ أن التفسير العربي هو الأصح .

أما في باب الذهب والفضة والعملات النقدية فقد جاء هذا الفصل زاخراً بالمعلومات الدقيقة والاستشهادات العديدة وأوضحت النظام النقدي في سلطنة المماليك وبينت كيفية ضرب الدنانير والدراهم والفلوس وعلّلت الأسباب الحقيقية الكامنة وراء تدهور قيمة الفلوس مستنداً في ذلك إلى المصادر المتعددة ، خاصة إلى ما جاء في كتابات المقريزي وأهمها كتاب إغاثة الأمة في كشف الغمة .

ولعلّ أهم ما توصلت إليه هو وقوف السلطات المملوكية آنذاك وراء

ارتفاع الأسعار خاصة لجهة صرف الدينار إزاء الفلوس النحاسية ، تماماً كما يحدث اليوم بالنسبة لارتفاع سعر صرف الدولار الأميركي إزاء العملة المحلية اللبنانية . وقد بينت أيضاً أنه كما يلعب الدولار اليوم دوراً عظيماً كوحدة نقد قوية ومتداولة عالمياً ، كذلك لعب النقد البندقي المعروف «بالدوكاتو» دوراً بارزاً آنذاك وكان مقبولاً وثابتاً يتعامل به الناس في الشرق والغرب على السواء حتى استحق اسم دولار العصور الوسطى .

والجدير بالذكر أنه في حين اعتمدت المدن الإيطالية وخاصة البندقية على الذهب والفضة في معاملاتها تحولت سلطنة المماليك في أيامها الأخيرة إلى اعتماد نظام التعامل بالفلوس النحاسية حتى أضحى الدينار وكأنه عملة أرستقراطية لا تتعامل بها عامة الشعب وإنما طبقة الأعيان وكبار التجار والنخبة الخاصة من مجتمع المماليك المميز ، ومما يلفت الانتباه أن التضخم قد استشرى مفعوله فغلت الأسعار بشكل مريع وبشكل اضطر معه الناس إلى التعامل بالفلوس النحاسية عن طريق الوزن وليس عن طريق المعاددة ولا نستبعدنّ أن نصل إلى هذا الدرك من الانهيار الاقتصادي في أيامنا هذه .

أما البعثات ما بين المماليك والمدن الإيطالية فقد جاءت صورتها مشرقة ومتجددة ، والواقع أن البعثات بصورة عامة ما بين المماليك والمدن الإيطالية كانت قليلة لعدم رغبة المماليك في إرسال سفارات متعددة إلى الغرب . ولعلَّ أهم هذه البعثات المملوكية سفارة ابن محفوظ إلى فلورنسا والتي لم تشر إليها المصادر العربية إلَّا قليلاً في حين أسهبت المراجع الإيطالية في وصف هذه السفارة خاصة لما اصطحب معه ابن محفوظ من هدايا وحيوانات غريبة إلى حاكم فلورنسا وكان من نتيجة هذه السفارة اتفاقية وقعها السفير الفلورنسي دي لاستوفا مع السلطان قايتباي ٨٩٤ هـ/ ١٤٨٩ م وهناك سفارات أخرى أرسلها المماليك إلى جنوبي أوروبا وأهمها سفارة الراهب مارو داسان برناردينو إلَّا أن أهم السفارات المملوكية إطلاقاً هي سفارة الأمير تغري بردي الترجمان إلى البندقية مع أن المصادر العربية قد أهملت هذه السفارة إلَّا أن المصادر الإيطالية

وخاصة البندقية قد تحدثت الكثير عنها ووصفت تغري بردي وما رافقه من المماليك والقضاة وصفاً دقيقاً وقد تبين أن الأمير تغري بردي لم يكن لديه الصلاحيات الكافية لتوقيع أية اتفاقية فاضطر لأخذ موافقة السلطان قبل إبرام معاهدة مع البندقية ولذلك كانت إقامته في أوروبا طويلة وكان من نتيجة ذلك أن وقع اتفاقية سنة ١٥٠٧/٩١٣ وكانت كلها لصالح البندقية ويقال إن الأمير تغري بردي قد خان مصالح سيده لقاء بذل المال له ولذلك لم يعمد السلطان الغوري على الاعتراف بتلك الاتفاقية وتصديقها ، ويبدو أن السلطان قد غضب على ترجمانه الأمير تغري بردي بسبب هذه الاتفاقية فنعته بالخسيس وزجه في السجن ، وقد تبين أن من أسباب إعفاء تغري بردي من منصبه وتوقيفه قيامه بمراسلة أمم وملوك الفرنج وتزويدهم بمعلومات خطيرة حول أوضاع السلطنة . غير أنه بدا لي أن السبب الرئيسي في اعتقال الأمير تغري بردي هو مسؤوليته المباشرة عن مقتل الأمير محمد قريب السلطان في خليج اياس (إسكندرونة) حين باغته فرسان الاسبتارية وهو يقطع الأخشاب فقتلوا الأمير واستولوا على مراكبه وأخشابه وكان تغري بردي قد أقنع السلطان أن يأمن جانبهم فغدروا بقريبه .

وقد أدرجت نص الاتفاقية بالإيطالية ونصها المترجم إلى العربية لأن النص الأصلي بالعربية هو مفقود باعتبار أن السلطان لم يعمد إلى تصديقها وبالتالي إلى نشرها وتعميمها عن طريق المراسيم والمناشير . وقد ظلَّ ظل هذه الاتفاقية مسيطراً على كافة الإتفاقيات التي عقدت فيما بعد بين سلطنة المماليك والبندقية خاصة إتفاقية السفير البندقي دومنيكو ترفيزان والسلطان الغوري المعروفة بالإتفاقية الشاملة (١٥١١/١٥١٢) وكانت نصراً كاملاً للبندقية في كل بند من بنودها باعتبار أن هذه الإتفاقية قد جعلت من البنادقة يتصرفون في معاملاتهم مع السلطان على أساس الند للند في حين كانت الإتفاقيات السابقة تبدو وكأنها عطاء من سلطان مترفع إلى سائل متواضع ، فالتسهيلات التي كانت تعطى للدول الأوروبية وللتجار الفرنج وخاصة الإيطاليين لم تكن بمثابة

امتيازات كما نفهمها اليوم ولكن بمثابة تسهيلات وعطاءات من السلطات المملوكية لحماية طوائفهم وتجارتهم وهذا نوع من التجديد أظهرته باعتبار أن السلطان قد عمد كم من مرة على إلغاء عطاءاته وصدقاته هذه فألقى القناصل والتجار الإيطاليين في غياهب السجون وقام بالترسيم على بضائعهم حين يشعر بقيام هؤلاء التجار والقناصل أو دولهم بما يضر بمصالح السلطنة أو أمور المسلمين .

أما فيما يتعلق بالسلع المتبادلة ما بين سلطنة المماليك فقد كتب الكثير الكثير عنها غير أن التجديد لدينا هو في تبويب هذه السلع المتبادلة بالنسبة للمدن الإيطالية التي كانت تتعامل مع السلطنة ، كالبندقية وجنوى وفلورنسا وأنكونا وصقلية والتجديد جاء أيضاً لدى الحديث عن تجارة الفلفل وتجار الكارمية وهم تجار التوابل ، فقد أدرجت أسماءهم وأنسابهم وشرحت الدور الذي قاموا به وتحدثت عن مجتمعهم وشهرتهم وشرحت كيف أضر تجمعهم عندما عمد السلطان إلى احتكار تجارة التوابل ، وقد جاءت ملاحظاتي حول الكارمية عميقة ومفعمة بالمعلومات الوافية والدقيقة بحيث لم يسبقني إلى هذا الشرح الكامل أحد من قبل مع أن الكتّاب الأجانب قد تطرقوا إلى هذا الموضوع بكثير من التفصيل غير أنني قد تميزت عنهم بالعودة إلى المصادر والمراجع العربية الأصيلة فأوردت الاستشهادات المتعددة التي أخذتها مباشرة من النصوص العربية .

وما يقال عن الكارمية يقال عن الرقيق فمجتمع المماليك هو مجتمع عسكري غالبية أفراده كانوا من الأرقاء الذين جلبوا من نواحي البحر الأسود . والجديد في الرسالة هو ما تحدثت عنه حول مجتمع المماليك وكيفية شراء الرقيق وأسعارهم وتربيتهم وأسمائهم وأنسابهم والعلاقة فيما بينهم وبين سيدهم والتاجر الذي كان يسمى (بالخواجا) وعن الدور الهام الذي قامت به كل من البندقية وجنوى في تجارة الرقيق وعملية نقلهم بحراً من كافا وتانا في البحر الأسود إلى مصر .

وقد أظهرت أن المدن الإيطالية كانت تستجلب عـدداً كبيراً من الأرقـاء كسلطنة المماليك غير أن الإيطاليـين كانوا يرغبون في الاناث لمتعتهم والخدمة في المنازل في حين كان المماليك يفضلون الذكور للانخراط في الجيش .

ومع أن المماليك قد عززوا جبهة الهند فعمروا المراكب وسبكوا المدافع وأحدثوا وحدات حملة البنادق ومنهـا الطبقـة الخامسـة إلاَّ أن جهودهم بـاءت بالفشل لتفوق البرتغاليـين عليهم من الناحية التقنية ولعدم رغبة وخبرة المماليك الفرسان في ركوب البحر ولعـدم مساعـدة البندقيـة لهم مساعـدة فعالـة بسبب قرارات الكنيسة .

أما على الجبهة العثمانية فقد فشل المماليك أيضاً بسبب عدم استعمالهم للأسلحة النارية . وقد أبرزت عاملاً مهماً كان له الانعكاس الأكبر على مصير سلطنة المماليك ألا وهو طبيعة تكوين مجتمع المماليك العسكري ورفضه لكل شكل من أشكال التغيـير والتطور التكنولوجي خاصة لجهـة استعمال الأسلحـة الجديدة وقد عنينا بذلك استخدام السلاح الناري . ففي رأينا تعنّت المماليك في بغض التكنـولوجيـا الجديـدة وأحجام المـدن الإيـطاليـة عن تقـديم هـذه التكنولوجيا المتوفرة لديها إلى سلطنة المماليك أدّيـا إلى سقوط هـذه السلطنة أمام ضربات العثمانيـين الـذين أحسنوا استخـدام السلاح النـاري ونضيـف أن سلطنـة المماليـك هي قبل زوالهـا كانت تعتبـر لحقبة طـويلة من الزمن مـركز الحضارة والسلطة في شرقي المتوسط .

استغرق إعداد هذه الدراسة حوالي السبع سنوات ولـم يكن بـاستطاعتي إتمامها بنجاح لولا تـوجيه ورعـاية العميـدة الدكتـورة زاهية قـدورة رئيسة قسم التاريخ في الجامعة اللبنانية التي أشارت علي بالعـودة إلى الأصول والتي أكن لها عميق تقديري وامتناني لتفضلها بقبـول الإشراف على رسـالتي وتزويـدي بملاحظاتها وإرشاداتها القيمة .

وإني أشكر الدكتـور أحمد أبـو حاقـة مديـر كلية الآداب ـ الفـرع الأول لمساعدته وتشجيعه لي .

كما أنتهز هذه المناسبة للتعبير عن شكري وامتناني للدكتور كمال الصليبي رئيس قسم التاريخ السابق في الجامعة الأميركية في بيروت الذي أشار عليَّ باختيار هذا الموضوع وشجعني على دراسة اللغة الإيطالية ، كما أخص بالشكر والتقدير الدكتور سمير صيقلي رئيس قسم التاريخ الحالي في الجامعة الأميركية في بيروت والذي قرأ لي الفصل الأول والثاني والثالث واستفدت من ملاحظاته وتوجيهاته. ولا أنسى أن أخص بشكري وامتناني أستاذي الدكتور طريف الخالدي من الجامعة الأميركية قسم التاريخ الذي أشار عليَّ بانتقاء المراجع والمصادر المناسبة وساعدني في تبويب فصول الرسالة حتى جاءت في صورتها النهائية. ولا بدّ لي من توجيه الشكر إلى الدكتور رونكاليا من المركز الألماني للدراسات الشرقية في بيروت لملاحظاته وإرشاداته ومساعدته لي في تذليل الكثير من المصاعب العائدة للغة الإيطالية .

وإنني أتوجه بالشكر إلى كل من الدكتور عبد المجيد النعنعي .
والدكتور عبد الرؤوف سنو.
والدكتور وجيه كوثراني .
والدكتور عمر تدمري .

كلهم من الجامعة اللبنانية ـ كلية الآداب ـ الفرع الأول والذين قرأوا رسالتي وتكرموا بإعطائي الملاحظات والتوجيهات خاصة فيما يتعلق بالمراجع والمصادر والعودة إلى الأصول التي أخذت بها عن طيب خاطر وامتنان .

كما أخص بالشكر والامتنان السيدة س . نعمة أمينة سر قسم التاريخ في الجامعة الأميركية لمساعدتها الجمة لي ولطبعها مشروع رسالتي مع المصادر ولما سببته لها من عناء .

كما أتوجه بشكري إلى العاملين في مكتبة الجامعة الأميركية في بيروت وخاصة السيدة نعماني لمساعدتهم لي وتعاونهم معي على أكمل وجه .

وأخيراً أتقدم بشكري وامتناني لزوجتي الحبيبة ناهدا لتوفيرها الأجواء

الملائمة ولتشجيعها الدائم لي لمواصلة البحث والكتابة لإتمام هـذه الدراسـة بالرغم من الظروف الصعبة التي نمر بها .

الجامعة اللبنانية ـ كلية الآداب والعلوم
الإنسانية ـ الفرع الأول
بيروت في ١٤/٦/١٩٨٨
العقيد الركن المهندس البحري سمير الخادم

الفصل الأول

الطرقات التجارية

أ ـ الطرقات البرية والطرقات البحرية

يهدف هذا الفصل إلى دراسة الطرقات البرية والطرقات البحرية التي كانت تربط شرقي المتوسط ، مصر وسورية بالمدن والجمهوريات الإيطالية في الفترة الواقعة ما بين سنة ١٤٥٠ وسنة ١٥١٧ أي تاريخ نهاية سلطنة المماليك . وسوف نتطرق في هذا الفصل إلى دراسة الطرقات التي كانت تربط سلطنة المماليك بالشرق الأقصى ، الهند والصين ، منبع المنتجات الشرقية ، والهدف من ذلك هو تتبع خط سير السلع المختلفة في طريقها من موطن إنتاجها مرورا بعدن وهرمز حتى أسواق الشام والإسكندرية ومن هناك حيث تحمل بحراً إلى أسواق البندقية وجنوى وفلورنسا وغيرها من المدن والجمهوريات الإيطالية ولا بد من التساؤل كم من أيدٍ تناقلت سلعة ما قبل وصولها من أعماق الهند إلى الريالتو Rialto سوق البندقية الشهير ؟!

لإيضاح ذلك لا بدَّ أولاً من دراسة طرقات البحر المتوسط ومن ثم دراسة الطرقات الأخرى .

طرقات البحر المتوسط :

إن الطرقات عبر البحر المتوسط وحوله هي أساس وحدته وقد عبَّر عن ذلك لوسيان فابفر Lucien Febvre قائلاً : « البحر المتوسط هو بمجموع

طرقاته »(١) وقد عنى بذلك الطرقات البرية والطرقات البحرية ، الطرقات على طول مجاري الأنهار وعلى محاذاة السواحل وكلها تشكل شبكة من المواصلات تميز بها البحر المتوسط وقد ساعدت مدنه في فتح تلك الطرقات كما أدت طرقاته إلى إنشاء بعض من مدنه (٢) . والحقيقة أنه في الفترة التي تهمنا أي القرن الخامس عشر والسادس عشر تميز البحر المتوسط عن بقية أنحاء العالم بشبكة طرقاته المتطورة وأهمها شبكة الطرقات البحرية للنقل وكانت في غالبيتها طرقات ساحلية بحتة خلال الجزء الأكبر من القرون الوسطى بالإضافة إلى ذلك كانت هناك الطرق البرية المتشعبة والمتعرجة التي تربط باستمرار جنوى وفلورنسا وروما ونابولي والبندقية بالقسطنطينية عبر راجوزا وسبالاتو Spalato والاوزكوب Uskub وكاتورا Cattora ودوراتزو Durazzo وسالونيكا Salonica في أوروبا الشرقية .

ومن القسطنطينية كانت تتشعب الطرقات عبر انطاكية وجبال طوروس إلى دمشق أو حلب ، ثم إلى القاهرة مروراً بفلسطين ومن هناك إما إلى البحر الأحمر والمحيط الهندي عبر عدن فالشرق الأقصى وإما نزولاً على محاذاة النيل إلى الإسكندرية ومنها بحراً إلى شمالي إفريقيا أو جنوبي أوروبا وإيطاليا خاصة . ولا يغربنّ عن بالنا طريق القوافل القادمة من مصر وبلاد الشام إلى مكة المكرّمة وكذلك طريق القوافل التي تربط البصرة وبلاد ما بين النهرين بحلب .

وهذه الطرقات بمجملها من برية وبحرية كانت تشكل حلقة مغلقة أدت إلى ازدهار التجارة وزيادة التمازج الحضاري ما بين المدن الإيطالية وشرقي المتوسط .

ونحن ضمن هذا النطاق سوف ندرس الملاحة الساحلية Coastal navigation والقوافل Caravans .

---

(١) Febvre. L., Annales d'histoire sociale, 11th January, 1940, p. 70.

(٢) Braudel. F., The Mediterranean and the Mediterranean World in the Age of Philip II, Vol. I, New York, 1972. p. 276.

الملاحة الساحلية :

تميز البحر المتوسط في الفترة التي تهمنا بالملاحة الساحلية القريبة من الشاطىء ومن خصائصها الانتقال من مرفأ إلى مرفأ ومن جزيرة إلى جزيرة دون الابتعاد عن الشاطىء كثيراً أو دون فقدان رؤية اليابسة بالعين المجردة لفترة طويلة .

وقد برع الإيطاليون في هذا النوع من الملاحة وكانت مراكبهم وقطائعهم تبحر إلى شرقي المتوسط والجة الشواطىء ومتجنبة عرض البحر . وقد استعمل الإيطاليون للدلالة على هذا النوع من الملاحة كلمة كوستاجار Costeggiare أي السير بمحاذاة الشاطىء وعلى مهل(٣) .

حتى الأساطيل البحرية الحربية لم تشذ عن هذه القاعدة فكانت تسير على محاذاة الشاطىء وتجري المعارك الحربية على مرأى من اليابسة وهذا ما حصل في معركة بولا Pola (١٣٧٨)(٤) وفي معركة ديو (١٥٠٩)(٥) وفي معركة لبونتو Lepanto (١٥٧١)(٦) .

---

(٣) نصح دوج البندقية ج . تبالدي J. Tebaldi، دوق فرارا Duke of Ferrara أن يبحر بمحاذاة الشاطىء وعلى مهل Costegiando .

انظر : A. d. S., Modena, Venezia 77 IX, f 43.

وعكس السير بمحاذاة الشاطىء هو الإبحار في عرض البحر Venire de longo. وقد ذُكر أن المراكب المحملة بالحبوب في قبرص كانت تأتي إلى البندقية في عرض البحر دون المرور بجزيرة كارفو.

«Sono venute de longo a Venetia senza tacar Corphu» . A.d.S. Venice. Senato Mar. 19, f 34, 28th December, 1517.

انظر : Braudel. F., Op. Cit., p.103 .

(٤) Lane. F., Venice, A Maritime Republic, The Johns Hopkins University Press, Baltimore, 1981, p. 191.

(٥) ماهر . س، البحرية في مصر الإسلامية، القاهرة ١٩٦٧ ، ص ١٣٢ .

(٦) Lane. F., Op. Cit., p. 369

حتى إن فن الملاحة في تلك الفترة وكما يعرف عند الإيطاليين بآرتي دي نافيجار Arti di navigare ما كان سوى وصف للطرق المحاذية للشاطىء[7] .

وهذا لا يعني أن المراكب البحرية ما كانت تبحر في أعالي البحار بل على العكس ، كانت تضطر أحياناً كثيرة للابتعاد عن الشاطىء في سفرها من مضيق مسينا باتجاه سوريا عن طريق رأس ماتابان Cap Matapan مروراً بجزيرة كريت وجزيرة قبرص . كما كانت المراكب الإيطالية تتجه مباشرة من جزيرة رودوس إلى الإسكندرية أحياناً إذا ما أسعفتها الرياح ولكنها لم تكن مضطرة لذلك .

وهذا لا يعني أن الملاحة في أعالي البحار لم تزدهر بسبب قلّة مهارة الإيطاليين التقنية ، بل على العكس كان الإيطاليون أسياداً في الملاحة وكانوا أساتذة البرتغاليين والأسبان الذين اكتشفوا العالم الجديد . غير أن طبيعة شواطىء المتوسط جعلت البحارة بالاجمال ومنهم الإيطاليون يميلون إلى الملاحة الساحلية لقرب المرافىء والجزر من بعضها البعض ولتأمين الحيطة المناسبة عندما تشتد الرياح وتسوء الأحوال الجوية وللإفلات بسهولة من قبضة القرصان إلى بر الأمان .

بالإضافة إلى ذلك كان هذا النوع من الملاحة يتيح المجال للتجار الإيطاليين من التبضع والتسوق خلال سفرهم إلى أسواق سوريا ومصر فيحملون إليها منتجات صقلية ورودوس وكريت والقسطنطينية ومدن البحر الأسود وقبرص وغيرها . وبالمقابل تحمل هذه المراكب إلى تلك المدن والجزر ما تزخر به أسواق الإسكندرية وبيروت وبقية الثغور في سلطنة المماليك من سلع شرقية ومحلية وبشكل كانت طبيعة حمولة المركب تتغير وتتبدل أثناء الطريق بسبب أعمال البيع والشراء والمقايضة العديدة أثناء الرحلة التي كانت

---

(٧) Braudel. F., Op. Cit., p. 104.

تمتـد إلى عدّة شهـور . ولم يشذ عن هـذه القاعـدة سوى المـراكب المحملة بالحبوب والتوابل أو الملح(٨) والتي كانت تتجه إلى مقاصدهـا دون تغيير في طبيعة ما تحويه عنابرها من سلع بسبب عدم اللجوء إلى المتاجرة أثناء الطريق وكما هي الحال المتبعة في أيامنا هذه .

ـ المعلومات الأولية حول طرق المواصلات ما بين الشرق والغرب :

إن المعلومات الأولية حـول طرق المـواصلات مـا بين الشرق والغـرب والعائدة لدراستنا نستقي مصادرها من كتابات الرحالة المشهور ابن خرداذبة التي جمعها في كتابه المعروف « المسالك والممالك » وفيه وصف أوروبا وطرقاتها إلى الشرق وكما كانت تتراءى لجغرافي عاش في شرقي المتوسط (فارس) في منتصف القرن التاسع .

ـ مسلك تجّار الروس الصقالبة :

وما يهمنا من ذلك هو معرفة ما كان يقوم به التجار الروس الصقالبة ، فقد كانوا يأتون ببضائعهم إما براً أو بحراً إلى القسطنطينية ومنها يذهبون إلى بغداد عن طريق مدينة الخزر وبحر جرجان . وربما حملوا تجارتهم من جرجان إلى بغداد على الإبل وكانوا يؤدون الجزية هناك لادعائهم أنهم نصارى .

أما طريقهم البرية فكانت من فرنسا أو إسبانيا إلى بلاد المغرب ومنها إلى مصر فالرملة فدمشق فالكوفة فبغداد فبلاد فارس ثم إلى السند والهند فالصين .

وربما جاؤوا من بلادهم (روسيا) في طريق آخر يمر شرقي القسطنطينية

---

(٨) Depping. G., Histoire du Commerce entre le Levant et l'Europe depuis les croisades jusqu'à la fondation des colonies d'Amériques, Paris, 1830, Tome I, p. 143, p. 145. p. 183, Tome II, p. 240;
Ashtor. E., Levant Trade in the Later Middle Ages, Princeton University Press, 1984, pp. 461, 503.

إلى خليج مدينة الخزر ثم عبر بحر قزوين إلى بلخ وما وراء النهر[٩] ثم إلى الصين :

«فأما مسلك تجار الروس

فهم جنس من الصقالبة فإنهم يحملون جلود الخز وجلود الثعالب السود والسيوف من أقصى صقلبة إلى البحر الرومي فيعشرهم صاحب الروم وإن ساروا في تنيس نهر الصقالبة مروا بخليج مدينة الخزر فيعشرهم صاحبها ثم يصيرون إلى بحر جرجان فيخرجون في أي سواحله أحبوا وقطر هذا البحر خمس مائة فرسخ وربما حملوا تجارتهم من جرجان على الإبل إلى بغداد ويترجم عنهم الخدم الصقالبة ويدَّعون أنهم نصارى فيؤدون الجزية .

فأما مسلكهم في البر فإن الخارج منهم يخرج من الأندلس أو من فرنجة فيعبر إلى السوس الأقصى فيصير إلى طنجة ثم إلى إفريقيا ثم إلى مصر ثم إلى الرملة ثم إلى دمشق ثم إلى الكوفة ثم إلى بغداد ثم إلى البصرة ثم إلى الأهواز ثم إلى فارس ثم إلى كرمان ثم إلى السند ثم إلى الهند ثم إلى الصين ، وربما أخذوا خلف رومية في بلاد الصقالبة ثم إلى خليج مدينة الخزر ثم في بحر جرجان ثم إلى بلخ وما وراء النهر ثم إلى وُرُت تُغُزْغُر ثم إلى الصين »[١٠].

ـ مسلك التجار اليهود الراذانيّة :

وما يهمنا من ذلك أيضاً هو معرفة ما كان يقوم به التجار اليهود الراذانية

---

(٩) إن البلاد الواقعة ما بين النهرين سرداريا وعموداريا تعرف ببلاد ما وراء النهر في المصادر العربية وبـ Transoxiana في المصادر الأجنبية .
انـظر : Lopez. R. S., Medieval Trade in the Mediterranean World, New York, Columbia University Press, 1955, pp. 32 - 33.

(١٠) ابن خرداذبة ، كتاب المسالك والممالك ، ليدن ، ١٣٠٩ هـ ، ص ١٥٤ ـ ١٥٥ .

الذين كانوا يتكلمون العربية والفارسية والرومية والفرنسية والإسبانية والسلافية ، فقد كانوا يسافرون من الشرق إلى الغرب ومن الغرب إلى الشرق براً أو بحراً وكانوا يأتون من جنوب أوروبا ويبحرون حتى الفرما في مصر ومن هناك يحملون بضائعهم على ظهور الجمال ويسيرون إلى القلزم ومن هناك يبحرون إلى جدة ومن هناك إلى السند والهند فالصين . ومن هناك يعودون بما اشتروا إلى القلزم في البحر الأحمر ثم إلى الفرما على البحر المتوسط حيث يعودون من حيث أتوا وربما عرجوا في طريقهم إلى القسطنطينية أو إلى فرنسا لبيع بضائعهم .

وهناك طريق آخر إلى الشرق يسلكه التجار اليهود إن شاؤوا فيبحرون بتجارتهم من فرنسا في المتوسط إلى أنطاكية ومنها إلى بغداد ، ومنها إلى إيلات فعمان ومنها إلى السند والهند والصين :

« مسلك التجار اليهود الراذانيّة

الذين يتكلمون بالعربية والفارسية والرومية والإفرنجية والأندلسية والصقلبية وأنهم يسافرون من المشرق إلى المغرب ومن المغرب إلى المشرق براً وبحراً يجلبون من المغرب الخدم والجواري والغلمان والديباج وجلود الخز والفراء والسمّور والسيوف ويركبون من فرنجة في البحر الغربي . فيخرجون بالفرما ويحملون تجارتهم على الظهر إلى القلزم وبينهما خمسة وعشرون فرسخاً ثم يركبون البحر الشرقي من القلزم إلى الجار وجدة ثم يمضون إلى السند والهند والصين فيحملون من الصين المسك والعود والكافور والدار صيني وغير ذلك ، مما يحمل من تلك النواحي حتى يرجعوا إلى القلزم ثم يحملوه إلى الفرما ثم يركبوا في البحر الغربي فربما عدلوا بتجارتهم إلى القسطنطينية فباعوها من الروم وربما صاروا بها إلى ملك فرنجة فيبيعونها هناك وإن شاؤوا حملوا تجارتهم من فرنجة في البحر الغربي فيخرجون بأنطاكية ويسيرون على الأرض ثلث مراحل إلى الجابية ثم يركبون في الفرات إلى بغداد ثم يركبون في

دجلة إلى الابلة ومن الابلة إلى عمان والسند والهند والصين كل ذلك متصل بعضه ببعض »[١١] .

طرقات القوافل :

في هذا الإطار لا بد من ذكر الطرقات والمسالك التي كانت تتبعها القوافل قاطعة الصحراء العربية من جانب إلى جانب وواصلة البحر المتوسط بالشرق الأقصى . والقوافل بحد ذاتها كانت عمليات معقدة ولكنها أدت إلى تنشيط تجارة السلع الثمينة ما بين الشرق والغرب وإن كان ذلك لا يخلو من روح المخاطرة والمغامرة .

ولعلَّ أهم وأعظم القوافل هي قوافل الحجاج إلى مكة المكرمة . فقد كانت هذه القوافل مختلطة وبالإضافة إلى نقل الحجيج كانت تحمل الملح والعبيد والنحاس والذهب والتوابل والعطورات والحرير وكل ما يمتّ إلى سلع الكماليات بصلة .

والحقيقة أنه كانت توجد في شرقي المتوسط منطقتان رئيسيتان لمرور القوافل ، الأولى التي تصل مكة المكرمة عن طريق دمشق والقاهرة والثانية التي تصل حلب ببغداد عن طريق نهر دجلة .

وكانت هذه الشبكة من الطرقات تؤدي إلى المحيط الهندي وبالتالي الشرق الأقصى عبر الخليج العربي (الفارسي) أو عبر البحر الأحمر وكانت جدة مركز تجمع الحجيج هي آخر مرفأ يصل البحر الأحمر بالمحيط الهندي فالهند والصين . ومرة أخرى قد يتساءل المرء كم من مرة تناقلت الأيدي آنية من فضة أو قطعة من حرير جلبت من الهند قبل وصولها إلى أسواق حلب ودمشق والقاهرة أو البندقية وجنوى ؟

---

(١١) ابن خرداذبة، المصدر نفسه، ص ١٥٣ ـ ١٥٤ .
انظر أيضاً : Lopez, Op. Cit., pp. 31 - 33 .

وإننا لنجد أنه من الضروري الإشارة إلى الطريق المؤدية من دمشق إلى مكة المكرمة وإلى الطريق المؤدية من القاهرة إلى مكة المكرمة أيضاً لما لهاتين الطريقين من أهمية بالنسبة للحجيج والتجارة .

فقد ذكر ابن خرداذبة أن الطريق من دمشق إلى مكة هي :

« من دمشق إلى منزل ، ثم إلى منزل ، ثم إلى ذات المنازل ، ثم إلى سرغ ثم إلى تبوك ، ثم إلى المحدثة ، ثم إلى الأقرع ، ثم إلى الجُنينة ، ثم إلى الحِجْر ، ثم إلى وادي القرى ، ثم إلى الرُحيبة ، ثم إلى ذي المروة ، ثم إلى المرّ ، ثم إلى السويداء ، ثم إلى ذي خُشُب ، ثم إلى المدينة ، ثم إلى المنازل التي قد مرّ ذكرها إلى مكة »[١٢] .

كما ذكر أن الطريق من مصر إلى مكة هي :

« من الفسطاط إلى الجُبّ ، ثم إلى البُوَيب ، ثم إلى منزل ابن بَندقة ، ثم إلى عَجْرود ، ثم إلى الذنبة ، ثم إلى الكُرسي ، ثم إلى الحفر ، ثم إلى منزل ، ثم إلى أَيْلة ، ثم إلى حقْل ، ثم إلى مَدْين ، ثم إلى الأغراء ، ثم إلى منزل ، ثم إلى الكِلاَبَة ، ثم إلى شَغْب ، ثم إلى بَدا ، ثم إلى السّرحتين ، ثم إلى البيضاء ، ثم إلى وادي القرى ، ثم إلى الرّحيبة ، ثم إلى ذي المروة ، ثم إلى المرّ ، ثم إلى السويداء ، ثم إلى ذي خُشُب ، ثم إلى المدينة ، ثم إلى المنازل التي قد مرّ ذكرها إلى مكة »[١٣] .

وقد أشار القلقشندي في «صبح الأعشى» ، في حديثه عن الطريق من القاهرة إلى مكة أنها قسمت إلى مراحل ومن عادة الحجاج أن يقطعوا مرحلتين في يوم وليلة بسبب الأحمال وسير المشاة والمسافة كلها تقطع في شهر واحد بما فيها أيام الإقامة الستة في العقبة والينبع . وأما من يسافر على ظهور الجمال بسرعة وخفة فإنه قد يقطعها بمدة أحد عشر يوماً :

(١٢) ابن خرداذبة، المصدر نفسه، ص ١٥٠ .
(١٣) ابن خرداذبة، المصدر نفسه، ص ١٥٠ .

« وكما ضبطت تلك بالمراكز فقد ضبطت هذه بالمراحل . وعادة الحُجاج أنهم يقطعون في كل يوم وليلة مرحلتين بسير الأثقال ودبيب الأقدام ، ويقطعونها كلها في شهر ، بما فيه من أيام الإقامة في العقبة والينبع نحو ستة أيام . أما من يسافر على النُجب مُخِفًّا مع الجدّ في السير فإنه يقطعها في نحو أحد عشر »(١٤) .

وإذا كانت حركة القوافل بطيئة إلاَّ أنها كانت جادة وخيرة . وقد لاحظ بيلوتي Piloti de Crète أن القوافل القاصدة مكة المكرمة كانت عبارة عن أعداد هائلة من الجمال تحمل أثقالاً عظيمة والكثير من التجار والحجاج(١٥) .

ب ـ التجارة الدولية وشرقي المتوسط :

ـ تجارة جنوبي أوروبا مع سلطنة المماليك :

إن ديمومة تجارة جنوبي أوروبا مع سلطنة المماليك في الفترة التي تهمنا كانت من أهم العوامل الفاعلة والمؤثرة في ازدهار وتنشيط التجارة الدولية في كل من مصر وسوريا . فالتجار الأوروبيون كانوا يجلبون أموالاً طائلة إلى أسواق الثغور الإسلامية في شرقي المتوسط حيث كانوا يشترون ما يحتاجون إليه وبنفس الوقت يعرضون ويبيعون منتوجاتهم الزراعية والصناعية . وكان التجار الإيطاليون شغوفين في زيارة الأسواق التجارية في كل من مصر وسوريا بهدف الحصول على الفلفل والتوابل والسلع الشرقية الشديدة الطلب في الأسواق

---

(١٤) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، القاهرة ١٣٣١ هـ ـ ١٩١٣ م، الجزء ١٤، ص ٣٨٥ .

(١٥) «A tremendous number of camels carrying great loads, and as many merchants as pilgrims». Quoted by Gaston Wiet, «Les marchands d'épices sous les sultans mamlouks», cahiers d'Histoire Egyptienne, VII, (1955), p. 91.

انظر أيضاً :

Staffa. S. J., Conquest and Fusion: The social evolution of Cairo a. d. 642-1850, Leiden, 1977, p. 167.

الأوروبية . وهكذا راجت التجارة الدولية في شرق حوض المتوسط بالرغم من المصاعب العدّة التي كانت قد اعترضتها فيما مضى .

وأهم هذه المصاعب كان سقوط عكا في أيدي المماليك سنة ١٢٩١ . وقد أدى ذلك إلى هيجان شعور المسيحيين في أوروبا اللاتينية ضد سلاطين مصر باعتبار أن سقوط عكا يعني سقوط آخر المعاقل الصليبية في الأراضي المقدسة . ولذلك فقد عمد البابا نيقولا الرابع (١٢٨٨ ـ ١٢٩٢) في جهود حثيثة إلى تعطيل التجارة ما بين دول جنوبي أوروبا وسلطنة المماليك وذلك لمنع تزويد السلطنة بالأسلحة والحديد والخشب وكافة المواد الاستراتيجية التي يحتاجها السلطان لجيشه وأسطوله بهدف إضعاف السلطنة ليسهل التغلب عليها(١٦) .

وقد أدت تدابير الكنيسة هذه إلى تعديل طرق التجارة الدولية في شرقي المتوسط وكذلك الطرق التي تربط هذه المنطقة بالخليج الفارسي (العربي) والمناطق المجاورة خلال النصف الثاني من القرن الثالث عشر .

ونتيجة لذلك أمست قبرص ولاجازو Lajazzo (على خليج أياس في آسيا الصغرى) وهي آخر المعاقل المسيحية في شرقي المتوسط من أهم المراكز للتجارة الدولية . ففي فماغوسطا ولاجازو كان بإمكان التجار الأوروبيين شراء كافة السلع الشرقية التي كانوا قد اعتادوا على شرائها من الإسكندرية ودمشق . كما كان التجار المسلمون يأتون إلى هناك لعرض التوابل ومنتجات الشرق المسلم . إن بروز لاجازو كمركز تجاري كان نتيجة لاحتلال العراق من قبل التتار فأصبحت هذه المدينة نهاية Terminus إحدى الطرق التجارية المهمة التي كانت تربط الخليج الفارسي (العربي) بالبحر المتوسط . ونتيجة لذلك أيضاً ازدهرت بعض المدن في بلاد القرم وعلى

---

(١٦) Heyd. W., Histoire du Commerce du Levant au Moyen-âge, II, Leipzig, 1886, 88. 23, 34, 25.

شواطىء البحر الأسود وأهمها طرابزون Trebizond وخاصة كـافا Caffa وتـانا Tana حيث نشطت الجاليات التجارية ولعبت دوراً هاماً في تجارة غربي آسيا .

ومن ثغور البحر الأسود التي كانت طرقات القـوافل تصلهـا بوسط آسيـا وأفغـانستان كـان الإيطاليـون يحصلون على منتجـات الهنـد والشـرق الأقصى بالإضافة إلى الرقيق والمنتوجات المختلفة من جنوب روسيا(١٧) .

وبالرغم من قرارات الكنيسة بحـظر التعامـل التجاري مـع المماليـك ، وبالرغم من ازدهار بعض الطرقات التجارية خارج ديار السلطنة التي تأثرت فعـلاً بتلك القرارات إلاَّ أن العلاقات التجارية ما بين جنوبي أوروبا وسلطنة المماليك لم تنقطع أبداً . وقد ذكر مارينو سانوتـو Marino Sanuto المعروف بـالمتقدم L'ancien ، في خططه الهادفة إلى استرجاع الأراضي المقدسة ، لائحة بالسلع التي كان التجار المسيحيون يجلبونها إلى مصر وكـانت تشمل بعضـاً من تلك المواد التي فرضت عليها البابوية حظراً شاملاً(١٨) .

ج ـ طرقات التجارة الدولية :

بعد سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣ وتقدم العثمانيـين في قلب أوروبا ، عـاود تجار جنـوبي أوروبا استعمـال الطريق البحـريـة المعـروفـة عبـر البحـر المتوسط والتي تنتهي بالمرافىء المصرية والشامية حيث تتكدس منتجات الهند والصين .

وقد فضّل التجار الإيطاليون الطريق البحـرية تلك وأقـاموا مـع سلطات

---

(١٧) Ashtor. E., A Social and Economic History of the Near-East in the Middle Ages. London, 1976, pp. 297, 299.

(١٨) Ashtor. E., Ibid., p. 299.
Sanuto. M., Liber Secretorum Fidelium Crucis, Super Terrœ Sanctœ, Recupera_tione et Conservatione. Massada Press, Jerusalem, 1972, p. 24 .

المماليك معاهدات أعطتهم امتيازات عديدة ظلت سارية المفعول حتى احتلال العثمانيين لمصر عام ١٥١٧[١٩] .

والواقع كانت طرقاً دولية متعددة تربط جنوبي أوروبا بالشرق الأقصى والهند عبر القسم الشرقي من البحر المتوسط ونحن سوف نقتصر في دراستنا هذه على الطرق الدولية الواصلة من الصين والهند والتي تمر عبر سلطنة المماليك وفي الفترة التي تهمنا أي ما بين سنة ١٤٥٠ وسنة ١٥١٧ .

الطريق الرئيسي الأول :

وهو أقدم الطرق وأشهرها ويربط بحرا الصين والهند بالبصرة عبر المحيط الهندي والخليج الفارسي (العربي) . ومن البصرة تؤدي هذه الطريق براً وعلى مجاري الأنهار إلى بغداد .

ومن بغداد تتفرع طريقان بريتان : الأولى تتجه شمالاً نحو ديار بكر والثانية تتجه غرباً إلى دمشق ومنها إلى الثغور والمرافىء على الشاطىء الشرقي للبحر المتوسط . وتتبع هذه الطريق الساحل جنوباً باتجاه مصر فتمر في عكا وغزة وتخترق صحراء سيناء وصعوداً حتى القاهرة ومنها نزولاً عبر النيل إلى الإسكندرية .

ومن دمشق تتفرع طريق برية شمالاً إلى حلب ومنها إلى آسيا الصغرى ، حيث تلتقي بالطريق القادمة من قلب آسيا باتجاه القسطنطينية ومنها إلى أوروبا عبر البلقان .

وقد فقدت طريق حلب القسطنطينية أهميتها وانقطع اتصالها بالطرقات الآتية من أعماق آسيا خلال غزوات المغول في القرن الثالث عشر غير أنه لدى

---

(١٩) Depping. G., Histoire du Commerce, Tome I, p. 194;
فهمي . ن. ز، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب، القاهرة، ١٩٧٣ ، ص ١١٧ .

سيطرة العثمانيـين على آسيا الصغرى ووطدوا الأمن في تلك النواحي أعيد فتح طريق حلب اسطمبول وبشكل أصبحت معه هذه الطريق البديل المفضل لكافة طرقات التجارة الشرقية عندما تتعرض لعبـث القرصان وفساد قطاع الطرق .

وعلى الطريق الرئيسي الأول لا بد لنا من ذكر أهم المرافىء والمدن التي تشكل محطات تجارية كعُمان[٢٠] وهرمز وسيراف وقيس والبصـرة في الخليج الفارسي (العربي) وبغداد .

الطريق الرئيسي الثاني :

وهـو الطريق البحـري الذي يمتـد من الصين إلى الهند مـروراً بجزيـرة سيـلان حيث يلج سواحـل المالابـار ومنها يعبـر المحيط الهندي إلى جـزيـرة سوقطرا ومنها إلى عدن محطة التوابل المشهورة ومن عدن إلى جدة مروراً بزبيد عبر البحر الأحمر ومن جدة يتفرع الطريق إلى طريقين واحدة تـذهب إلى ينبع فالطور فالسويس ومنها إلى القاهرة فالإسكندرية بـالنيل . والثـانية تـذهب إلى عيذاب على ساحل البحر الأحمر الغربي ومنها إلى قوص[٢١] ومنها براً إلى قنا فالفسطاط فالقاهرة نزولاً إلى الإسكندرية ومن هناك إلى جنوبي أوروبا بحراً . .

ومن عدن هناك طريق برية تسير بمحاذاة شاطىء البحـر الأحمر صعـوداً إلى مكـة المكرمـة فالمـدينة المنـورة ثم تبوك ثم ايلة (ايـلات) فـإلى دمشق

---

(٢٠) ذكر القلقشندي في صبح الأعشى، جزء ١، ص ٢٤٧، أن مدينة عمان «هي فرضـة بلاد البحرين وإليها تنتهي مراكب السند والهند والزنج».
لمزيد من التفاصيل حول عمان والبحرين والخليج الفارسي (العربي) انظر :
ـ الادريسي ، كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، روما، ١٩٥٥، جزء ١ ص ٦٤ ـ ٦٥.

(٢١) القلقشندي، المصدر نفسه، جزء ١، ص ٢٤٣ ـ ٢٤٤.
ـ لمزيد من التفاصيل حول مرافىء ومدن الطريق الرئيسي الثاني انظر :
الادريسي، نزهة المشتاق، جزء ١، (زبيد) ص ٥٢ ـ ٥٣، (عدن) ٥٤ ـ ٥٥ (جزيرة سرنديب) ص ٧٢ ـ ٧٣، (مدينة خانفو) ص ٨٤.

وحمص وحلب ومن دمشق تتفرع إلى المرافىء والثغور الشامية كطرابلس وبيروت وعكا حيث ترد المراكب من جنوب أوروبا .

وكانت تعترض استعمال هذا الطريق صعوبتان كبيرتان :

الأولى عائدة إلى المسافات الشاسعة التي تفصل الصين والهند عن البحر الأحمر بالإضافة إلى وجود التيارات البحرية القوية والمعاكسة لاتجاه هبوب الرياح على مدار السنة تقريباً(٢٢) .

والثانية عائدة إلى وجود التشعبات المرجانية بكثرة في البحر الأحمر ممّا يعيق الملاحة ويعرض المراكب للخطر(٢٣) .

وقد تمكن البحارة المسلمون من التغلب على الصعوبة الأولى الناجمة عن المسافات الكبيرة وهي العدو الأول للبّحار وذلك باستخدام المراكب الكبيرة واتقان فنون الملاحة وعلوم الفلك والجغرافيا والبيئة للتمكن من السفر بأمان عبر المحيط الهندي وبحر الصين خلال أشهر أيلول وتشرين الأول ونيسان وآيار للاستفادة من الرياح الموسمية الملائمة وتجنب العواصف والأعاصير(٢٤) .

أما الصعوبة الثانية فقد تمّ التغلّب عليها عن طريق الابحار بعيداً عن

---

(٢٢) أشار ابن ماجد في كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد، باريس ١٩٢١ - ١٩٢٣، ص R 88 إلى وجوب الانتباه إلى التيارات الناجمة عن المد والجزر والرياح.

Hourani. G.F., Arab Seafaring in the Indian Ocean in Ancient and Early Medieval Times, Beirut, 1963, p. 74 .

(٢٣) ذكر ابن ماجد المصدر السابق، ص V .87 شعب الزقر وشعب أم دهرش وشعب الجار والمطحن والقرن وغيرها .

Hourani. G. F., Op. Cit., p. 96.

(٢٤) ابن ماجد المصدر السابق، ص 71 r (الفايدة الحادية عشر في المواسم) .
Hourani. G. F., Op. Cit., pp. 74 - 75 .

التشعبات المرجانية والتيارات البحرية الخطرة وأيضاً عن طريق بناء المراكب الكبيرة والقوية القادرة على الابحار في مثل هكذا بحر[٢٥] .

إن هذا الطريق البحري كان البديل عن الطريق الأول الذي ذكرناه إذا ما تعرض للانقطاع بسبب المضايقات المختلفة . ولذلك فقد كانت السلطات المملوكية تسعى دائماً لضمان سلامة الطريق البحري خاصة في أجزائه وفروعه التي تمر في أراضيها أو الأماكن التابعة لسلطتها بهدف جعل طريق التجارة ما بين الشرق والغرب مفتوحة من جهة وبهدف تأمين حماية التجار والحجاج من جهة ثانية[٢٦] .

وكان سلاطين المماليك يجنون الأموال الطائلة من سيطرتهم على هذا الطريق بسبب قيامهم بدور الوسطاء ما بين تجار الشرق وتجار الغرب في مرحلة أولى وبسبب تعاطيهم التجارة أنفسهم في مرحلة ثانية. وقد عمدوا إلى احتكار تجارة الفلفل والتوابل ووضعوا حداً لتجار الكارمية . غير أن سياسة الاحتكار هذه لم تنجح ونتج عن ذلك ارتفاع أسعار التوابل والسلع الشرقية الأخرى. ومع

---

(٢٥) ذكر ابن ماجد، المصدر السابق، ص 88V كيف أن والده ماجد عليه الرحمة والغفران كان ينتقل من جزيرة إلى جزيرة حتى يدخل جدة .

عاشور. ش، مصر في دولة سلاطين المماليك البحرية، القاهرة، ١٩٥٩، ص ٢٠٨ ؛
Depping. G., Histoire du Commerce, Tome I, p. 47;

فهمي. ن. ز ، طرق التجارة، ص ١٢٤ ـ ١٢٥ .

(٢٦) القلقشندي، صبح الأعشى، جزء ١٣، ص ٣٤٠ ـ ٣٤١ ؛

المقريزي، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، القاهرة ١٩٣٦ ـ ١٩٥٨، جزء ١ ص ٣٤٠ ـ ٣٤١؛

Fabri. F., Evagatorium, Vol. I, II, 1480 - 1483, Vol. I. Part II, pp. 642 - 646, from the library of Palestine Pilgrims' text society, Vol. VII.

ذلك فقد كانت المرافىء والثغور الشامية والمصرية تعج بالتجار الأجانب خاصة الإيطاليين[٢٧] .

الطريق الرئيسي الثالث :

وهو الممتد من قلب آسيا عبر جبال الهند إلى بخارى حيث تتجمع القوافل القادمة من الصين . وإذا كان هذا الطريق لا يمر في ديار سلطنة المماليك إلاَّ أنه لعب دوراً مهماً في التبادل التجاري ما بين الشرق والغرب .

ومن بخارى كانت تتفرع طريقان : الأولى باتجاه بحر قزوين ونهر الفولغا وبلغاريا ثم جنوبي أوروبا .

والثانية باتجاه البحر الأسود ومرافئه فالقسطنطينية ثم أوروبا . وكانت هذه الطريق في غالبيتها تحت سيطرة العثمانيين ومنها تتفرع طرقات ثانوية برية ، واحدة باتجاه حلب والثغور الشامية على الشاطىء الشرقي للبحر المتوسط وأخرى إلى بغداد وديار بكر وثالثة قليلة الاستعمال إلى أرمينيا وآسيا الصغرى .

وقد قُطع هذا الطريق الرئيسي الثالث عدّة مرات خلال النصف الثاني من القرن الثالث عشر وتوقفت التجارة الدولية في المدن والمرافىء الواقعة عليه بسبب الصراع ما بين العثمانيين والتركمان من جهة والعثمانيين والصفويين من جهة أخرى . كما تأثرت الطرقات الثانوية المتفرعة عنه بعد سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣ .

وكانت القوافل القادمة من الصين والهند عبر هذا الطريق تحمل التوابل والأفاويه كما كانت تحمل من فارس وشيراز وأصفهان وكردستان قطع القماش والحرير ومن بلاد ما وراء النهر الديباج والسجاد .

كما كانت القوافل تحمل من الغرب من بلاد البلغار وشواطىء نهر الفولغا

---

(٢٧) Depping. G., Histoire du Commerce, Tome II, P. 249; Ashtor , E., Levant trade in the Later Middle Ages, p. 271 .

الجلود والفراء والقمح والأسماك المقددة والرقيق . وكان أسياد هذه التجارة البنادقة والجنويون والفلورنتيون الذين كانوا ينقلون بضائعهم من مصب نهر الفولغا إلى القسطنطينية والثغور الشامية(٢٨) .

غير أن موقف السلطات العثمانية كان له الأثر البالغ على حركة التجارة الدولية عبر هذا الطريق وعلى التجار أيضاً . فبالإضافة إلى ما سببته الحروب ما بين العثمانيين والأوروبيين من أضرار ، فقد عانت التجارة صعوبات عديدة عائدة إلى الإجراءات العثمانية الصارمة ، من تفتيش دقيق وضرائب باهظة وتحظيرات شديدة بالإضافة إلى عمليات النهب أحياناً . كل هذه الأسباب أقلقت التجار الأوروبيين وجعلت حكوماتهم توعز إليهم بالتوجه إلى شرقي المتوسط والتعامل مع المرافىء والثغور الشامية والمصرية الواقعة تحت سيطرة السلطات المملوكية .

واستناداً إلى هايد فإن العثمانيين لم يكن لهم الحس التجاري بل كان هدفهم الغزو والحرب ضد المدن والجمهوريات الإيطالية الغنية خاصة البندقية لإقدامها على مساعدة بيزنطة أثناء الصراع من أجل القسطنطينية(٢٩) .

الطريق الرئيسي الرابع :

لسنا هنا في مجال ذكر كل المناطق والثغور التي يمر بها هذا الطريق ولكن المهم أن هذا الطريق كان يربط الصين بحراً بالهند عبر كانتون التي كانت تسمى خانفو . وكانت المراكب تعبر خليج تونغكنغ Tongking إلى جزيرة صنف ثم تعبر مضيق ملقا Malacca حيث تتوقف في مرفأ كالابار في ماليزيا ومن

---

(٢٨) Pernaud. R.,' Les Villes Marchandes au XIVème et XVème siècles'. Impérialisme et Capitalisme au Moyen-âge. Paris 1948. Tome II, pp. 56, 65; Heyd. W., Histoire du Commerce, Tome I, pp. 529, 530 - 533.

(٢٩) فهمي . ن. ز، طرق التجارة ومحطاتها، ص ١٥٥ .
Heyd. W., Histoire du Commerce, Tome II, p. 427 .

هناك إلى سيلان جزيرة الزمرد والمعروفة لدى المسلمين بسرنديب وقد تعبر المراكب مباشرة من ماليزيا إلى ثغور ساحل المالابار في الهند ككولام مالي وكلكوتا وغيرها ومن مرافىء بومباي تعدّ المراكب إلى السند عبر بحر العرب[٣٠]. وهناك يلتقي الطريق الرئيسي الرابع بالطريق الرئيسي الأول باتجاه الخليج الفارسي (العربي) وبالطريق الرئيسي الثاني باتجاه البحر الأحمر .

وقد عرف عن بحر الصين أنه شديد الخطورة بسبب كثرة التشعبات المرجانية والأعاصير فيه . كما أن الملاحة من المحيط الهندي إلى الخليج الفارسي (العربي) كانت محفوفة بالأخطار بسبب تواجد القراصنة المعروفين والتشعبات المرجانية المتعددة . وكان هؤلاء القراصنة يجوبون في « بوارجهم » المحيط الهندي وسواحل جزيرة سيلان والقسم الجنوبي من البحر الأحمر وقد اتخذوا من جزيرة سوقطرا وكراً من أوكارهم .

وكان على المراكب التجارية أن تنقل على متنها من أجل تأمين حمايتها من عبث القرصان، مقاتلين يحسنون رمي النار الإغريقية[٣١] .

---

(٣٠) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص ٧٢ ـ ٧٣، ص ٨٤ ؛
Hourani. G. F., Arab Seafaring, pp. 71-72 .

(٣١) Hourani. G.F., Ibid., p. 70.

المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، باريس، ١٨٦١ ـ ١٨٧٧، جزء ٣، ص ٣٦ ـ ٣٧ .

ابن خرداذبة، كتاب المسالك والممالك، ص ٦٠ ، في حديثه عن البحرين قال ابن خرداذبة عن أهلها : « وأهلها لصوص يقطعون على المراكب ولا زرع لهم » .

وقد تحدث الإدريسي عن القرصان ما بين البحرين وعمان ، كتاب نزهة المشتاق جزء ١، ص ٦٤ ـ ٦٥ فقال «القطربة وهي جزيرة عامرة سكنها قوم نصارى لكن زيهم عربي وهم يتكلمون بالعربية ويدعون أنهم عرب وهم أهل غدر ونكاية يقطعون بالمراكب المارة الآتية فيما بين البحرين والبصرة إلى قرب عمان وهم أخبث عدو يلقى في البحر » .

وتجدر الإشارة إلى أنه عند طرفي هذا الطريق كانت تقوم دولتان عظيمتان ومشهورتان في عالم التجارة ، ففي الطرف الشرقي كانت الصين حيث حكمت سلالة منغ Ming من سنة ١٣٦٨ حتى سنة ١٦٤٣ . وفي الطرف الغربي كانت سلطنة المماليك في مصر وسوريا والتي ظلّت مسيطرة من سنة ١٢٥٠ حتى سنة ١٥١٧ .

ولا بد من القول أن هذا الطريق كانت تزداد أهميته كلما ساءت أحوال الطريق البري المؤدي من الصين إلى آسيا الصغرى عبر الهند بسبب الحروب والأحداث المختلفة .

وكانت المراكب الصينية القادمة من الشرق تصل إلى جدة التي كانت بالنسبة إليها أبعد مرفأ في البحر الأحمر . وكانت هذه المراكب تتوقف في بنادر وثغور الخليج الفارسي (العربي)[٣٢] إلاَّ أن معظم رحلاتها كانت تتوجه بالأساس صوب البحر الأحمر[٣٣] .

د ـ الطرقات البحرية التي سلكها الإيطاليون في المتوسط :

عنينا بهذه الطرقات ، الطرقات البحرية التجارية التي سلكها الإيطاليون في البحر المتوسط بهدف الاتجار مع سلطنة المماليك وقد تميزت هذه الطرقات بكونها طرقات بحرية ذات نقاط توقف متعددة قبل وصولها إلى الثغور الإسلامية في شرقي المتوسط على عكس الخطوط البحرية المباشرة التي نعرفها اليوم . فمراكب المدن والجمهوريات الإيطالية كانت تبحر من الغرب إلى الشرق ، إلى مصر وسوريا وأنطاكية عبر مرافىء معروفة تتوقف فيها للتزود بالماء والمؤن أو للاحتماء من العواصف والقرصان .

---

(٣٢) Heyd . W., Histoire du Commerce, Tome I, pp. 28, 29.

(٣٣) فهمي . ن. ز، طرق التجارة ومحطاتها، ص ١٦١ ـ ١٦٢ ؛
Heyd . W., Op. Cit., Tome I, pp. 379, 425.

وكانت فترة التحميل المسموح بها للمراكب الإيطالية في ثغر الإسكندرية وغيره المعروفة بالمدة Muda تتحكم بمواعيد ومسلك المراكب والقوافل الإيطالية .

وقد ذكر بيلوتي Piloti أن الكميات الكبيرة من التوابل كانت تصل الإسكندرية عن طريق القاهرة في شهر أيلول(٣٤) ولذلك كانت مواعيد المراكب والقوافل البحرية ثابتة . وقد أكّد هذه المعلومات فليكس فابري Felix Fabri فذكر أنه لدى عودته من زيارة الأراضي المقدسة في خريف سنة ١٤٨٣ كان يرغب في السفر على متن أحد المراكب البندقية التي ترد الإسكندرية لتحميل التوابل .

وقد ذكر أن موعد إقلاع المراكب البندقية كان يرتبط بموعد وصول مراكب الهند Les Vaisseaux des Indes المحملة بالتوابل إلى الطور في البحر الأحمر. وأضاف أنه لدى انطلاق قوافل التوابل من الطور إلى القاهرة في أوائل تشرين الأول كانت المراكب البندقية في انتظارها في الإسكندرية(٣٥) . كما ذكر أرنولد فون هارف Arnold Von Harff (١٤٩٧) أن التوابل كانت تصل مرتين في السنة إلى الطور ، مرة في شهر أيلول ومرة في شهر آذار(٣٦) . لذلك كانت القوافل والمراكب الإيطالية ترد مرتين على الأقل في السنة لتحميل هذه التوابل .

---

(٣٤) Piloti. E., Traité d'Emmanuel Piloti de Crète, ed. Dopp., Le Caire, 1950, p. 82 (fol. 51 r°).

(٣٥) Fabri. F., «Evangatorium», II, p. 522 ;
Heyd. W., Op. Cit., Tome II, p. 447.

(٣٦) Harff. A. V., The Pilgrimage of... 1496-1499, ed. by M. Letts. London, (Hak-LuytSociety 1946), 2d ser., n. 94, pp. 71, n. 5, 139, 149; Heyd. W., Op. Cit., Tome II, p. 447.

البندقية :

كـان لمراكب وقـوافل البنـدقية خـطان معروفـان ، خط رومانيـا والخط المعروف بما وراء البحر Oltremare. فرومانيا بـالنسبة للبنـادقة لم تكن تعني فقط شبه الجزيرة اليونانية وجزر بحر إيجه بل كانت تعني كافة الأراضي والثغور التي كانت جزءاً من الأمبراطورية البيزنطية .

وكانت المراكب تبحر من البندقية إلى « رومانيا » بقوافل موسميـة ولمدة محددة وكانت القسـطنطينيـة هي محط رحال هـذه القوافـل حيث تجلب سلع ومنتوجات البحر الأسود . وكانت نقطة التوقف الرئيسية للقوافل هي نغروبونتي Negroponte في بحر إيجه حيث تزدهر تجارة بلاد اليونان . وكـانت القوافـل والمراكب العائدة من القسطـنطينية ، تتـوقف بعد تخـطي رأس ماتـابان Cape Matapan في مـودون Modon وكـورون Coron في المـورا Morea لتحميـل منتجات تلك المنطقة قبل توجهها شمالاً إلى راجوزا Ragusa فالبندقية .

أما خط ما وراء البحر Oltremare ، وقد عني بذلك السـواحل الـواقعة شرقي وجنوب شـرقي بحر إيجـه وبشكل خـاص قبرص ، سـوريا ، فلسـطين ومصر ، فكانت تبحر عليه القوافل الذاهبة للاتجار مع سلطنة المماليك وكانت هناك قوافل الخريف وقوافل الربيع .

والجدير بالملاحظة أن مراكب رومانيا ومراكب ما وراء البحر كانت تنطلق من البندقية معاً ولا تفترق إلاّ بعد تجاوز رأس ماتابان ورأس ماليا Cape Malea في شبه الجزيرة اليونانية حيث تصعب الملاحة بسبب تعارض الرياح وشدّتها .

وبعد ذلك كانت تتجه قافلة ما وراء البحر إلى كانـديا Candia عـاصمة جزيرة كريت ومنها شرقاً إلى رودوس وقبرص . وكانت عكا هي نهاية المطاف حيث كانت طرقاتها تؤدي إلى صفد ودمشق وسبب ذلك أن عكا قد شهدت إبان الغزوات الصليبية ازدهاراً منقطع النظير حتى أن مـراكب الحجاج كـانت تنزل ركابها إلى الجنوب من عكا بسبب قربها من القدس غير أنه بعد انتهاء الحملات

الصليبية فقدت عكا أهميتها التجارية ولم تعد مركز تجمع القوافل وملتقى الطرقات التجارية التي كانت تستجلب إليها ثروات آسيا[٣٧] ، بل أصبحت بيروت والإسكندرية حاضرتي التجارة الجديدتين . وكانت مراكب البندقية تأتي أولاً إلى بيروت ثم إلى الإسكندرية . وكانت الإسكندرية أهم من بيروت ولذلك كانت تأتي إليها المراكب مباشرة من جزيرة كورفو Corfu . والواقع أنه بعد سقوط القسطنطينية وتقدم العثمانيين في أوروبا ، عمدت البندقية إلى تغيير شبكة طرقاتها البحرية بعد فقدانها لمودون Modon وكورون فأصبحت كورفو المركز الجديد للتجارة ولها خط مباشر مع الإسكندرية [٣٨] . ولم يكن لكورفو أي اتصال مباشر مع الشواطىء الغربية لشمال إفريقيا غير أنه اعتباراً من سنة ١٤٣٢ كانت تخصص مراكب ثلاث تسمى مراكب الخط galee di traffico للذهاب إلى طرابلس الغرب وتونس (Barbarie) لتحميل منتجات تلك البلاد المرسلة إلى مصر[٣٩] وكانت تلتحق هذه المراكب بالقافلة الرئيسية الراسية في مرفأ الإسكندرية فتشارك في تحميل السلع إلى البندقية وتنتظر عودة المراكب من بيروت وبعدها تعود المراكب كلها في قافلة واحدة إلى البندقية حيث يعاد تصدير البضائع والسلع منها إلى أوروبا براً أو بحراً في البحر الأدرياتيكي عبر مضيق مسينا إلى نابولي ومالطا وجنوب سردينيا وعبر مضيق جبل طارق إلى لشبونة في البرتغال وبوردو في فرنسا وإلى شمال أوروبا وبريطانيا .

ولا بد من ذكر كلمة في شأن قبرص . فإن هذه الجزيرة كانت تلعب دوراً مهماً بالنسبة للإيطاليين عموماً والبنادقة خصوصاً . فقد كانت قبرص تشكل

---

(٣٧) Lane. F. C., Venice a Maritime Republic, Baltimore, 1981, pp. 68-70.

(٣٨) Heyd. W., Op. Cit., Tome II, pp. 79-80;
فهمي . ن . ز ، طرق التجارة ومحطاتها، ص ١٧٩ - ١٨٠ .

(٣٩) Heyd. W., Op. Cit., Tome II, p. 453.

مستودعاً مناسباً لبضائعهم وملاذاً يلجؤون إليه هرباً من غضب السلطان أو نقمته أو كلما ضاقت بهم المحن(٤٠) .

- جنـوى :

كانت مراكب جنوى تشكل أسـطولين : واحد مخصص للشـرق والآخر للغرب . كانت طريق أسطول الشرق تمتد جنـوباً من جنـوى إلى نابـولي فعبر مضيق مسينا إلى جزيـرة كريت ومنهـا شمالاً إلى القسـطنطينيـة عبر الـدردنيل والبوسفور ومن هناك إلى مرافيء وثغور البحر الأسود حيث كانت تتجه المراكب الجنوية إما شمالاً إلى بلاد البلغار أو إلى كافا Caffa في شبه جزيرة القرم وإما جنـوباً إلى طـرابزون Trebizond والمـرافيء الأخرى في القسم الجنـوبي من البحـر الأسود حيث تلتقي الـطريق البريـة القادمـة من أوروبا عبـر بحر مـرمرة بالطريق البرية القادمة من الهند ، إلى تبريز(٤١) حيث تتفرع منها طريق ثانويـة تتجه جنوباً إلى أنطاكية ثم إلى دمشق ومنها تمتد على الشاطيء الشرقي للبحر المتوسط باتجاه القاهرة(٤٢) .

وقد نظّم الجنويون قوافلهم إلى الشرق تماماً كما فعل البنادقة فقد كانت مراكبهم تبحر سنوياً في الخامس عشر من تمـوز وعليها مبـالغ كبيـرة من النقد بالإضافة إلى الزيت والصابون والفاكهة والمـرجان وسبـائك الفضـة(٤٣) . أما طريق أسطول الغرب فكانت تمتد على محاذاة الشـواطيء الفرنسيـة الجنوبيـة حتى مـرسيليا ثم إلى بـرشلونة ومنهـا إلى هولنـدا (البلاد الـواطئة) وإنجلتـرا وألمانيا(٤٤) . وكانت مراكب أسطول الغرب ترد أحياناً إلى البندقية في الفترات

---

(٤٠) فهمي . ن . ز ، المصدر نفسه ، ص ١٨١ ؛
Depping. G., Histoire du Commerce, Tome I, pp. 106, 108.

(٤١) Heyd. W., Commerce du Levant, Tome II, p. 49

(٤٢) فهمي . ن. ز، المصدر السابق، ص ١٨٢ - ١٨٣ .

(٤٣) Depping. G., Histoire du Commerce, Tome II, p. 325.

(٤٤) Heyd. W., Op. Cit., Tome II, pp. 720, 724, 727, 732.

التي لا تنشب فيها نزاعات ما بين جنوى والجمهورية .

بالإضافة إلى ذلك كانت هناك قافلة تنطلق من جنوى باتجاه تونس وتتجه شرقاً على محاذاة الشاطىء حتى الإسكندرية ومنها إلى المرافىء الشامية ومن تـونس كانت أيضـاً تتجه المـراكب الجنويـة غربـاً عبر مضيق جبـل طارق إلى الشواطىء الغربية لإفريقيا(٤٥) .

ـ فلورنســا :

بعد انضمام بيزا إلى فلورنسا قامت المراكب الفلورنتية بالإبحار لأول مرة إلى القسطنطينية عام ١٤٣٦ وقد حدد قناصلة البحر Consoli de Mare بتاريخ ٢٧ آذار ١٤٤٧ نقـاط توقف المـراكب القاصـدة القسطـنطينيـة وهي Modon ونغربونتي Negreponte وغاللبيولي ذهـاباً بـالإضافـة إلى جزيـرة خيو وجـزيرة رودوس إياباً(٤٦) .

وكانت مراكب فلورنسا تتوقف أيضـاً في جزيـرة خيو ورودوس وكـانديـا ومودون في طريقها إلى الإسكندرية وبيروت . واعتباراً من سنة ١٤٦٠ حوّلت فلورنسا المراكب المخصصة للاتجار مع تونس للسفر بخط دائري يمر بالإضافة إلى تونس بالإسكندرية ورودوس وكانت هذه الخطوة هي إجراء مماثل لمراكب الخط « galee di traffico » الذي أنشأته البندقية(٤٧) .

وكـان لفلورنسا وكـلاء في كريت ورودوس والمـرافىء المملوكيـة على

---

(٤٥) فهمي . ن . المصدر السابق ص ١٨٢ ، ديل. ش، البندقية جمهورية الأرستقراطية، تعريب أحمد عزت عبد الكريم، القاهرة، ١٩٤٨ ، ص ٢٠ ـ ٢١ .

(٤٦) Amari. N., I Diplomi Arabi, Del Archivio Fierentino in Firenze, MDCCCXIII, p. 51 ;
Heyd. W., Op. Cit., Tome II, p. 300 .

(٤٧) Heyd. W., Ibid., P. 301; Amari. N., Op. Cit., p. 442

المتوسط . وكان الفلورينو ، العملة الذهبية الفلورنسية ، يتمتع بمكانة مرموقة كنقد دولي(٤٨) .

وكانت بعض المدن الإيطالية، بالرغم من سقوط القسطنطينية والعلاقة المميزة ما بين سلطنة المماليك والجمهوريات الإيطالية ، تفضل التعامل مع السلطات العثمانية .

فمدينة أنكونا Ancona على البحر الأدرياتيكي حافظت على علاقات طيبة مع العثمانيين. وقد وصلت مراكبها إلى اسطمبول عام ١٤٧٥ ، كما حصلت على امتيازات الاتجار مع المدن التركية . وخلال الحرب الدائرة ما بين السلاطين العثمانيين والبنادقة حظي تجّار أنكونا بحسن الضيافة العثمانية واختاروا لأسفارهم رودوس كمركز تجمع لمراكبهم وبضائعهم(٤٩) .

وقد تميز بحارة أنكونا بمعرفتهم الجيدة للبحار واشتهرت عائلات بنكازا Benincasa وفردوتشي Freducci بوضع الخرائط البحرية التي ما تزال محفوظة حتى الآن(٥٠) .

سينّا Siena :

حتى هذه المدينة الصغيرة في مقاطعة توسكانا كانت ترسل مراكبها أحياناً إلى قبرص ولكن سينّا كانت تفضل الحصول على السلع الشرقية من البندقية وصقلية . والواقع أن سينا كانت مهتمة بأسواق فرنسا وأسبانيا وبريطانيا والمانيا لتصريف المنسوجات التي اشتهرت بها أكثر من اهتمامها بأسواق سلطنة المماليك غير أن سينّا نجحت في إقامة علاقات مباشرة وجيدة مع العثمانيين في سنة ١٤٨٩ وكان لسينا قنصلية في اسطمبول مارست أعمالها حتى سنة

---

(٤٨) Cipolla . C., Money, Prices and Civilization in the Mediterranean World , Princeton, 1956, p. 21.

(٤٩) Heyd. W., Histoire du Commerce, Tome II, p. 345.

(٥٠) Depping. G., Op. Cit., Tome II, p. 330

١٥٠١ حين عهـدت سينا إلى جمهـورية فلورنسـا مهمة رعـاية شؤون جـاليتها الصغيرة في العاصمة العثمانية(٥١) .

(٥١) Heyd. W., Op. Cit., Tome II, p. 347.

فهمي . ن. ز ، طرق التجارة ، ص ١٨٣ ـ ١٨٤ .

لمزيد من التفاصيل حول طرقات ومدن وجزر البحر المتوسط انظر :

- بيري ريّس ، بحرية PIRI REIS, BAHRIJE.

Berlin 1926.

(البندقية) ص ٤٢٢ ـ ٤٢٣ ، (قبرص) ص ٧٧٦ ، (مالـطة) ص ٥٠٩ ، (الدردنيـل) ص ٩٣ ، (خليج سالونيك) ص ١١٨ ، (مرسيليا) ص ٥٩٠ ، والواقع أن كتاب البحرية هو أقدم دليل للبحر المتوسط والبحر الايجي portolano فقد جمع بيري ريس كتابه مما حصل عليه من المعلومات التاريخية والجغرافية والبحرية عن المناطق التي زارها خلال فترة ١٤ سنة . ولد بيري ما بين سنة ١٤٦٥ و ١٤٧٠ وعمل مع عمه أمير البحر المشهور كمال ريّس وهـو في سن الثانيـة عشر. اشتـرك في المعارك ضـد البندقيـة (١٥٠٠ ـ ١٥٠٢)، وما بين سنة ١٥١٦ ـ ١٥١٧ اشترك بأمرة عدة مراكب عثمانية في الهجـوم على مصر وتحت أمـرة كافـر باي احتـل الإسكندريـة وصعـد من النيـل إلى القاهرة ، مع بعض مراكبه ورسم خريطة مفصلة لها .

وقد قدم بيري ريّس كتابه سنة ٩٢٧ هـ ـ ١٥٢١ إلى السلطان سليمان القانـوني وقد قال : إن سبب تأليف هذا الكتاب مرده إلى الرغبة في تسهيل عمل البحارة لأن قراءة هذا الكتاب تزيد من مهارة المرء بتعلم تلك الفنون وعلى المرء أن يقرأ ويستعلم عن مختلف أنحاء العالم وعليه أيضاً « أن يراها بأم عينه » (بحرية ، ص ١) .

انظر أيضاً : Afetinan. A, Life and Work of Piri Reîs

Ankara 1975 , pp. 13, 14, 17.



الفصل الثاني

الأسـطـول

في هذا الفصل سوف ندرس وضع أسطول المماليك ونعرض سياسة سلطنة المماليك واستعماله، كذلك ندرس وضع أساطيل المدن والجمهوريات الإيطالية خاصة البندقية ونعرض سياسة هذه المدن والجمهوريات إزاء أساطيلها واستعمالها .

وفي الفترة التي تهمنا عزف المماليك عن الاهتمام بالأسطول بصورة دائمة ومتواصلة إلاَّ في المناسبات التي اضطروا فيها لاستخدام الأسطول في غزواتهم كغزو قبرص وغزو رودوس أو في درء الأخطار عن تجارتهم ومصالحهم كما حدث في البحر الأحمر والمحيط الهندي لدى قدوم البرتغاليين. ولذلك بقي أسطول المماليك قطاعاً مهملاً من قطاعات الجيش لعدم اهتمام السلطنة به ولعدم رغبة المماليك الفرسان بطبعهم الخدمة على متن المراكب والسفر لمدد طويلة .

أما المدن والجمهوريات الإيطالية فكان الأسطول عماد قوتها وعصب حياتها . فالأسطول كان موضع اهتمام الدولة لأنه يؤمن حماية البلاد ويوطد سلطتها في مستعمراتها كما أنه يحمي تجارتها وبالتالي مواردها ومصالحها .

ولذلك كانت للمدن والجمهوريات الإيطالية أساطيل دائمة ودار الصناعة فيها كانت تعمل باستمرار لبناء مراكب جديدة تسد حاجة الدولة إليها . بالإضافة

إلى ذلك كان الإيطاليون بعكس المماليك مفطورين على ركوب البحر وبارعين في قيادة السفن واستعمال أسلحتها .

ولذلك فقد كان أسطول المدن والجمهوريات الإيطالية عاملاً إيجابياً ساهم في بقائها واستمرارها . أما في سلطنة المماليك فلم يكن استعمال الأسطول حاسماً بل على العكس ساعد سوء استعمال الأسطول إلى تداعي السلطنة أمام صدمة العثمانيين .

أ ـ أسطول المماليك

المعلومات الأولية حول أسطول المماليك في مصر :

لحظ المقريزي في ذكره المواضع المعروفة بالصناعة Arsenalوهي اسم لمكان قد أعدّ لإنشاء المراكب البحرية التي يقال لها السفن واحدتها سفينة ، أن السفن في مصر على نوعين نيلية وحربية ، فالنيلية تنشأ لتستخدم في النيل لحمل الغلال والبضائع وغيرها وأما المراكب الحربية فتنشأ لغزو العدو وقتاله وتشحن بالسلاح والمقاتلة وتسير من الإسكندرية ودمياط وتنيس والفرما لقتال الروم والفرنج في البحر المتوسط . وكان يقال لهذه المراكب الحربية الأسطول وهي كلمة ليست بعربية :

« فالصناعة اسم لمكان قد أعدّ لإنشاء المراكب البحرية التي يقال لها السفن واحدتها سفينة وهي بمصر على قسمين نيلية وحربية ، فالحربية هي التي تنشأ لغزو العدو وتشحن بالسلاح وآلات الحرب والمقاتلة فتمرّ من ثغر الإسكندرية وثغر دمياط وتنيس والفرما إلى جهاد أعداء الله من الروم والفرنج وكانت هذه المراكب الحربية يقال لها الأسطول ولا أحسب هذا اللفظ عربياً »[1] .

---

(١) المقريزي ، كتاب الخطط والآثار في مصر والقاهرة والنيل وما يتعلق بها من الأخبار. بولاق ـ القاهرة ١٢٧٠ هـ ـ ١٨٥٣ ، جزء ٢ ، ص ١٨٩ .

والمعلومات الأولية عن أسطول المسلمين في مصر نستقيها أيضاً من كتاب الخطط للمقريزي الذي ذكر أنه أول ما أنشىء الأسطول بمصر في خلافة أمير المؤمنين المتوكل على الله عندما نزل الروم بدمياط سنة ٨٥٢/٢٣٨ فاحتلوها وقتلوا كثيراً من المسلمين وسبوا النساء والأطفال ، فوقع الاهتمام من ذلك الحين بأمر الأسطول وصار من أهم ما يعمل بمصر : « فأنشئت الشواني برسم الأسطول وجعلت الأرزاق لغزاة البحر كما هي لغزاة البر وانتدب الأمراء له الرماة فاجتهد الناس بمصر في تعليم أولادهم الرماية وجميع أنواع المحاربة وانتخب له القواد العارفون بمحاربة العدو وكان لا ينزل في رجال الأسطول غشيم ولا جاهل بأمور الحرب هذا وللناس إذ ذاك رغبة في جهاد أعداء الله وإقامة دينه لا جرم أنه كان لخدام الأسطول حرمة ومكانة ولكل أحد من الناس رغبة في أنه يُعدّ من جملتهم فيسعى بالوسائل حتى يستقرّ فيه »[٢] .

وقد قويت العناية بالأسطول في مصر بعد سنة ٩٦١/٣٥٠ أيام المعز لدين الله فأنشأ المراكب الحربية واقتدى به أبناؤه فكثر الاهتمام والاعتناء بالأسطول وبنيت المراكب في القاهرة على النيل وفي الإسكندرية ودمياط فبلغ عدد الشواني الحربية والشلدنيات والمسطحات نحواً من ستماية قطعة وقد استقر هذا العدد فيما بعد نحو ثمانين شونة وعشر مسطحات وعشر حمّالة وكانت جريدة قواد الأسطول إذا خرجوا لا تقل عن خمسة آلاف مقاتل[٣] . وقد اهتم السلطان صلاح الدين الأيوبي أيضاً بأمر الأسطول وأفرد له ديواناً وعيّن لهذا الديوان الإقطاعات وعيّن له الخراج وهو أشجار من سنط لا تحصى كثرة في الهنساوية وسفط ريشين والأشمونيين وغيرها لا يقطع منها إلاّ ما تدعو الحاجة[٤] .

---

(٢) المقريزي ، المصدر نفسه ، جزء ٢ ، ص ١٩١ .
(٣) المقريزي ، المصدر نفسه ، جزء ٢ ، ص ١٩١ .
(٤) المقريزي ، المصدر نفسه ، جزء ٢ ، ص ١٨٤ .

ومع خبوة جذوة الجهاد الديني أزيح الأسطول عن سلّم الأولويات للدولة في مصر فقلّ الاهتمام بالأسطول وصار لا يفكر بأمره إلاَّ عند الحاجة إليه . فإذا دعت الضرورة إلى تجهيزه كانت السلطات تعمد على جمع الرجال بالقبض عليهم من الطرقات ووضعهم في السلاسل نهاراً والسجن ليلاً حتى لا يهربوا ولا يعطوا إلاَّ الشيء القليل من الخبز أو نحوه وربما عوملوا معاملة الأسرى من الأعداء ، فصارت خدمة الأسطول مدعاة للمهانة وعاراً سب به الرجال وإذا قيل لرجل في مصر يا أسطولي غضب غضباً شديداً(٥) .

والمماليك منذ تملكهم بمصر أهملوا أمر العناية بالأسطول حتى مجيء السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري الذي أمر بمدّ الشواني الحربية وقطع الأخشاب لعمارتها واحترز على الخراج ومنع الناس من التصرف في أخشابه وتقدم بصناعة الشواني في الإسكندرية ودمياط والقاهرة فبلغ مجموعها زيادة على الأربعين قطعة فيما عدى الحراريق والطرائد فإنها كانت عدة كثيرة ، وقد سيّر الظاهر بيبرس سنة ٦٦٩/ ١٢٧٠ مراكبه يريد قبرص ولكن الشواني صدمت شعباً بالقرب من الجزيرة فتكسرت ووقع بالأسر كل من فيها .

وفي شهر المحرم سنة ٧٠٢/ آب ١٣٠٢ وخلال سلطنة الناصر محمد بن قلاون جهزت الشواني بالعدد والسلاح والنفطية والزاد وسارت أربع مراكب من بولاق إلى طرابلس فانضمت إليها مراكب أخرى ثم أبحر الأسطول باتجاه جزيرة أرواد وكانت من أعمال قبرص فاستولى عليها المماليك بعد أن هدموا أسوارها وأسروا كثيراً من أهلها(٧) .

غزو قبرص :

وبالرغم من الجهود المتواصلة لبناء مراكب جديدة في دور الصناعة في

---

(٥) المقريزي ، المصدر نفسه ، جزء ٢ ، ص ١٩٤ .

(٦) المقريزي ، المصدر نفسه ، جزء ٢ ، ص ١٩٤ .

(٧) المقريزي ، المصدر نفسه ، جزء ٢ ، ص ١٩٥ .

المقص وفي الروضة المسماة بالجزيرة وفي الإسكندرية ودمياط وفي الثغور الشامية خاصة طرابلس فشلت محاولات المماليك المتكررة للاستيلاء على جزيرة قبرص حتى عهد السلطان برسباي .

والواقع أن المماليك لم يكن باستطاعتهم نسيان أو التغاضي عما قام به بيار لوزنيان Pierre Lusignan ملك قبرص عندما احتل الإسكندرية سنة ١٣٦٥ وعاث فيها فساداً . ولذلك كانوا يتحينون الفرص للانتقام والوثوب على قبرص . وفي هذه الأثناء كثرت تعديات الفرنج على السواحل والثغور الإسلامية في شرقي المتوسط ففي شعبان سنة ٨٢٥/ تموز ١٤٢١ استولى الفرنج بالقرب من الإسكندرية على مركب تجاري تزيد قيمته على المئة ألف دينار وفي رجب سنة ٨٢٧/ آيار ١٤٢٣ تناهى إلى سمع السلطان برسباي أن مركبين للمسلمين قد استولى عليهما الفرنج بالقرب من دمياط . وكان هذان المركبان ينقلان بضائع كثيرة وأكثر من مئة شخص. وقد غضب السلطان لذلك وأمر بالتحفظ على أموال التجار الفرنج وبضائعهم في دمشق والإسكندرية ودمياط وأن يرجأ سفرهم إلى بلادهم حتى عودة الأسرى المسلمين وأموالهم . وفي أثناء ذلك أرسل السلطان دورية بحرية قوامها غرابان سارا من ساحل بولاق عبر النيل إلى ساحل الإسكندرية ومنها إلى طرابلس حيث سار معهما عدة أغربة مشحونة بالمقاتلة : « ويسيروا في البحر المالح لعلهم يجدون من يتجرم في البحر من الفرنج وهذه أول غزوة جهّزها السلطان الملك الأشرف برسباي رحمه الله »[٨] . وقد عاد الغزاة في شهر ذي الحجة سنة ٨٢٨/ تشرين الأول ١٤٢٥ من قبرص بعد أن هاجموا مدينة اللمسون (ليماسول) وأحرقوا ما أحرقوا ونهبوا ما نهبوا وأسروا ثلاثة وعشرين رجلاً : « فسرّ الناس بعودهم وسلامتهم وتشوق كل أحد للجهاد »[٩] .

---

(٨) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة . جزء ١٤ ، تحقيق الدكتور جمال محرز والأستاذ فهيم شلتوت ، القاهرة ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م، ص ٢٦٨ .

(٩) ابن تغري بردي ، المصدر نفسه ، جزء ١٤ ، ص ٢٦٨ .

وفي شهر محرّم سنة ٨٢٨/ تشرين الثاني ١٤٢٤ كان السلطان قد بدأ بالتحضير لغزو واحتلال قبرص فأمر بالشروع في بناء المراكب الجديدة في جزيرة الفيل في نهر النيل بالقرب من القاهرة وكان العمل في ورشة البناء مستمراً ومتواصلاً وتحت إشراف السلطان شخصياً الذي زار الورشة في الحادي عشر من صفر سنة ٨٢٨/ الثالث من كانون الثاني ١٤٢٥ بهدف تفقد المراكب(١٠) .

وفي شهر جمادى الآخر سنة ٨٢٨/ نيسان ١٤٢٥ أخذ السلطان في تجهيز الغزاة وعيّن جماعة كبيرة من المماليك السلطانية والأمراء لهذه الحملة بينما العمل كان يجري على قدم وساق في بولاق لإنجاز الطرائد والأغربة(١١) .

وقد أنفق السلطان في الغزاة فأعطى مبلغ عشرين ديناراً لكل واحد منهم ثم نودي من أراد الجهاد فليحضر لأخذ النفقة وهذا يدل على أن مقاتلي البحرية لم تكن لهم صفة دائمة كمقاتلي جيش البر من المشاة والفرسان .

---

(١٠) ابن تغري بردي، المصدر نفسه، جزء ١٤، ص ٢٧١ .

(١١) ابن تغري بردي، المصدر نفسه، جزء ١٤، ص ٢٧٥ .

الأغربة: مفردها غراب وهو مركب استعمله الرومان والقرطاجيون وفيما بعد المسلمون وقد سمي بهذا الاسم كونه يبدو في الماء كالطائر في الهواء . وقد استعمل لنقل مشاة الأسطول وهو يسير بواسطة الأشرعة والمجاذيف (١٨٠ مجذافاً) وكان يحمل عادة جسراً من الخشب يتيح للمقاتلين العبور والانتقال إلى مراكب العدو للالتحام والقتال بالأساليب البرية .

الطرائد: ومفردها طراد. وتسمى بالفرنسية Tartane وبالإيطالية Tartana وهي مراكب صغيرة نسبياً ولكنها سريعة وجليلة الفائدة وهي تستعمل أيضاً لنقل الخيل ولكن سعتها لا تستوعب أكثر من ٤٠ حصاناً.

انظر: ماهر . س ، البحرية في مصر الإسلامية، القاهرة، ١٩٦٧، ص ٣٥٣ ـ ٣٥٤ ص ٣٥٩ ـ ٣٦٠.

وفي السابع من شعبان سنة ٨٢٨/٢٥ حزيران ١٤٢٥ ، أبحرت الأغربة الجديدة وعددها ثمانية بحضور السلطان من بولاق عبر نهر النيل إلى دمياط ومنها في البحر المتوسط إلى طرابلس حيث تمّ تحميل ثلاثمائة حصاناً أرسلت من مصر وانضم إلى المراكب عدد كبير من المماليك والعساكر الشامية والمتطوعة وسار الأسطول من هناك في بضع وأربعين مركباً إلى جهة الماغوصة فماغوسطا Famagusta فلما نزل المقاتلون فيها أظهر حاكم الماغوصة الطاعة للسلطان وأخبرهم أن صاحب قبرص قد استعد لقتالهم . وفي اليوم التالي شنّ المماليك الغارات على غربي قبرص فأحرقوا الضياع وقتلوا وأسروا ونهبوا الشيء الكثير . ثم ساروا بعد ثلاثة أيام إلى الملاحّة وهي إلى الجنوب من الماغوصة فقتلوا ونهبوا أيضاً، ثم ركبوا البحر فتصدى لهم الفرنج في عشرة أغربة وقرقورة كبيرة[١٢]، فأرسى المماليك مراكبهم في ساحل الملاحّة وقاتلوا الفرنج قتالاً برياً وكأنهم على اليابسة وعندما يأس الإفرنج من استدراج المماليك إلى عرض البحر انسحبوا ولم تكن المعركة حاسمة . في اليوم التالي أنزل المماليك خيولهم وقاتلوا أخا ملك قبرص الذي أقبل عليهم في عسكر كثير فهزموه وساروا إلى المغارات فأخذوا يقتلون ويحرقون ويأسرون وينهبون القرى حتى ضاقت مراكبهم عن حمل الأسرى والغنائم فألقى كثير منهم ما أخذه إلى الأرض ثم عادوا إلى مصر وأرسوا في الطينة قريباً من قطيا وثغر دمياط ثم ساروا إلى القلعة للمثول أمام السلطان ومعهم الأسرى (١٠٦٠ أسير) والغنائم وهي على مائة وسبعين حمالاً وأربعين بغلاً وعشرة جمال. وقد علّق ابن تغري بردي الذي وصف عودة الغزاة بقوله:

---

(١٢) القرقورة: ويقال القراق والقرقور Carrack والاسم مأخوذ من الإيطالية Caricare ومعناها حمل .

والقرقورة هي من سفن القرون الوسطى المتعددة الصواري والشرع والمعدة لتموين الأساطيل بالزاد والمتاع والذخيرة وهي تبحر في مختلف الأحوال الجوية لكبرها وقوة بنيانها وكانت تستعمل كسفينة تجارية بإمكانها تأمين حمايتها الذاتية لكثرة المدافع عليها.

انظر: ماهر. س، المصدر نفسه، ص ٣٦٢ ـ ٣٦٣.

«فإنه كان يوماً مشهوداً لم يعهد مثله في الدولة التركية »(١٣) .

إن نجاح العمليات البحرية ضد قبرص أدى إلى إذكاء روح الجهاد لدى العامة والجند وشجع السلطان للتحضير للحملة الثالثة ضد قبرص لوضعها نهائياً تحت سيطرته وقد بلغ من همة السلطان أنه أشرف شخصياً على عرض المجاهدين وأنفق فيهم مالاً كثيراً. والملفت للنظر هو عدم التفات المجاهدين لأخذ المال بل كان الفرد منهم يقف في مجلس السلطان يتساعى لأخذ الدستور من السلطان للتوجه إلى الجهاد وربما تكرر وقوف بعضهم الأربع أو الخمس مرات من عظم ازدحام الناس على أعيان المماليك ليكتبوهم في حملة المجاهدين في المراكب المعينة للغزو. وقد اضطر السلطان في نهاية الأمر إلى الاعتذار عن قبول المزيد من المطوعة لعدم وجود مراكب إضافية لحملهم مما حمل البعض على السفر من غير دستور : « ولما أن السلطان لا ينعم لأحد بالتوجه بعد أن استكفت العساكر ، سافر جماعة من غير دستور، وأعجب من هذا أنه كان الرجل ينظر في وجه المسافر للجهاد يعرفه قبل أن يسأله لما بوجهه من السرور والبشر الظاهر بفرحه للسفر ، وبعكس ذلك فيمن لم يعيّن للجهاد ، هذا مع كثرة من تعين للسفر من المماليك السلطانية وغيرهم ما أرى هذا إلاّ أن الله (تعالى) قد شرح صدرهم للجهاد وحبهم للغزو وقتال العدو ، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ولم أنظر ذلك في غزوة من الغزوات قبلها ولا بعدها »(١٤) .

وقد خرج المجاهدون في الثاني من شهر رجب سنة ٨٢٩/ ١١ آيار ١٤٢٦ من القاهرة من ساحل بولاق إلى الإسكندرية ودمياط ورشيد . وليس لدينا معلومات دقيقة عن عدد المراكب المشتركة في هذه الحملة الكبيرة غير أنه بالنظر إلى وجود عدد كبير من أمراء الألوف وأمراء الطبلخانات وأعيان الخاصكية وجماعة كبيرة من أعيان أمراء دمشق وغيرها خصوصاً وأن عدد أمراء

(١٣) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جزء ١٤، ص ٢٨١ .
(١٤) ابن تغري بردي، المصدر نفسه، جزء ١٤، ص ٢٨٧ .

الألوف قد بلغ على الأقل خمسة ، أربعة من مصر وواحد من دمشق ، لذلك يمكننا الاستنتاج أن عدد المراكب المشتركة كان ضخماً وقد فاق بكثير الأعداد التي اشتركت في الهجوم على قبرص في المرات السابقة .

وقد تعيّن الأمير إينال الجكمي أمير مجلس وهو من مقدمي الألوف ، مقدم العساكر في المراكب في البحر، كما تعيّن مقدم العساكر في البر الأمير تغري بردي المحمودي الناصري رأس نوبة النوب وهو من أمراء الألوف .

وأثناء السير باتجاه قبرص التقت طلائع الأسطول المملوكي بالقرب من ثغر رشيد دورية استطلاع بحرية للإفرنج مؤلفة من أربعة مراكب حاولت اعتراضهم وحصل اشتباك بحري طيلة الليل وحتى صباح اليوم التالي وعندما وصلت بقية المراكب التي تشكل الجزء الأكبر في أسطول المماليك وانضمت إلى طلائعه المتقدمة أدرك الإفرنج أنهم قد وقعوا في فخ فأوقفوا المناوشات وانسحبوا إلى عرض البحر مدركين أن لا طاقة لهم بمحاربة هذا العدد الضخم من المراكب .

وقد تابع أسطول المماليك سيره حتى وصل إلى قلعة اللمسون (ليماسول) فأخذها المماليك عنوة ثم ساروا براً وبحراً إلى الأفقسية (نيقوسيا) بعد أن بلغهم أن صاحبها قد استعد لقتالهم بعد أن جاءته نجدة كبيرة من ملوك الفرنج . وقد تصدى للمماليك براً ملك قبرص غير أن قواته انكسرت أمام صدمة المماليك ووقع ملك قبرص جينوس نفسه أسيراً بأيدي المماليك. وأثناء تقدم الأسطول بحراً باتجاه نيقوسيا اعترضته وحدة بحرية للإفرنج قوامها أربعة عشر مركباً مشحونة بالسلاح والمقاتلة ، منها سبعة أغربة وسبعة مراكب مربعة القلاع فحصلت معركة بحرية عنيفة انسحب على أثرها الإفرنج بعد أن خسروا مركباً مربعاً .

وعلى أثر ذلك أصبح طريق نيقوسيا مفتوحاً أمام المماليك فدخل المدينة المماليك السلطانية والمطوعة وأقاموا فيها يومين وليلة واحدة . وقد أقام

المماليك سبعة أيام بالملاحّة ثم ركبوا المراكب عائدين إلى جهة الديار المصرية في الثاني عشر من رمضان سنة ٨٢٩/ ١٩ تموز ١٤٢٦ ومعهم الملك جينوس وكثير من الأسرى والغنائم التي ضاقت مراكبهم عن حملها فتركوا قسماً كبيراً منها على الشاطىء .

ولما بلغ السلطان خبر أخذ قبرص ودقت البشائر في القاهرة وسائر مدن السلطنة ثم ندب السلطان جماعة كبيرة من المماليك السلطانية بالتوجه إلى ثغر رشيد ودمياط والإسكندرية لحفظ مراكب الغزاة العائدين. وسبب ذلك أن الغزاة قد وصلوا إلى ثغر الإسكندرية وثغر دمياط والطينة وحدانا وجماعات لكثرة المراكب واختلاف الرياح، ثم رسم السلطان أن تؤخذ جميع المراكب إلى ثغر الإسكندرية لتحفظ بها : « خوفاً من أن يطرقهم طارق من الفرنج مما يأتي صاحب قبرص من نجدات الفرنج ـ وكان هذا من أكبر المصالح ـ »[١٥] .

وكان دخول الغزاة إلى بولاق يوماً حافلاً فطلعوا إلى القلعة ومعهم الأسرى والغنائم ومتملك قبرص الملك جينوس بن جاك أمامهم وهو منكس الأعلام . وقد بلغ عدد الأسرى أكثر من ألف أسير وهم من رجال الفرنج ومن النساء والصغار من أهالي قبرص[١٦] . هذا وقد استعرض السلطان بالقلعة وهو في موكب عظيم من الأمراء والخاصكية ، الغنائم بتمامها وكمالها ثم الأسرى ، ثم تقدم الأمراء الغزاة فحيوه بأن قبلوا الأرض بين يديه وعلى مراتبهم وكان آخرهم الأمير إينال الجكمي مقدم العساكر .

---

(١٥) ابن تغري بردي، المصدر نفسه، جزء ١٤، ص ٢٧٩ .

(١٦) ابن تغري بردي، المصدر نفسه، جزء ١٤، ص ٢٩٩ .

ذكر بيلوتي Piloti أن عدد الأسرى بالإضافة إلى الملك نفسه قد بلغ ٩٩٤ أسيراً من النساء والفتيات والرجال من مختلف الطبقات.

انظر Dopp. P. - H, L'Egypte au commencement du Quizième siècle d'après le Traité d'Emmanuel Piloti de Crète, Le Caire, 1950, p. 80.

ثم أمر السلطان بإحضار متملك قبرص ليتحقق من شكله ، فتقدم ومشى « وهو بقيوده ورأسه مكشوفة ، وبعد أن مشى خطوات أمر بتقبيل الأرض ، ثم قام ، ثم قبل الأرض ثانياً بعد خطوات ، وأخذ يعفر وجهه في التراب ، ثم قام يتمالك نفسه وقد أذهله ما رأى من هيبة الملك وعز الإسلام فسقط ثانياً مغشياً عليه »(١٧) .

وقد علّق بيولوتي على ذلك بقوله : إن مغامرات ملك قبرص دفعت سلطان مصر إلى احتلال الجزيرة وأخذه أسيراً مع خلائق كثيرة إلى القاهرة وبذلك وضع السلطان سمعة وشرف المسيحيين في الحضيض وكل ذلك بسبب سوء تصرف الحكومة التي كانت في بلاط الملك(١٨) .

ثم طلب السلطان أن يتقدم قادة المراكب لمكافأتهم فكانوا كثراً لأن مجموع المراكب المصرية والسورية قد فاق المئة مركب ما بين أغربة وقراقير وزوارق : « ثم طلب السلطان مقدمي عساكر الغزاة من أمراء مصر والشام والخاصكية ، المقدم كل واحد منهم على مركب ، وكانوا كثيراً جداً ، لأن عدة مراكب الغزاة المصريين والشاميين زادت على مائة قطعة ، وقيل مائتان وقيل أكثر أو أقل ما بين أغربة ، وقراقير ، وزوارق وغير ذلك »(١٩) .

ولا بد من التوقف قليلاً حول هذا العدد الضخم من المراكب المشتركة في غزوة قبرص . فأسطول المماليك في هذه الفترة لم يكن بهذه الضخامة لجهة عدم اهتمام المماليك به ولعدم قدرة السلطان أن يبني بهذه السرعة العدد الكافي من الأغربة والقراقير وهي مراكب كبيرة الحجم إجمالاً .

وقد أعطى بيولوتي التفسير الشافي لذلك بأن ذكر بأن السلطان لو كان

---

(١٧) ابن تغري بردي ، المصدر السابق ، جزء ١٤ ، ص ٣٠١ .

(١٨) Dopp. P. - H., **Op. Cit.**, p. 80.

(١٩) ابن تغري بردي ، المصدر السابق ، جزء ١٤ ، ص ٣٠١ .

بإمكانه الحصول على الأخشاب اللازمة لاستطاع بناء حوالي المئة شانيا (galées) نظراً لتوفر بقية المعدات التي يحتاجها الأسطول . ونظراً لوجود حوالي الألف زورق Sermes ما بين كبير وصغير في نهر النيل فقد عمد السلطان إلى استخدام هذه الزوارق النيلية في نقل عساكره لاحتلال جزيرة قبرص وأسر ملكها وبهذا تمكن من ذلك دون أن يكون لديه سوى بضع أغربة وقطائع(٢٠) .

وكان من نتيجة هذه الحملة أن دانت قبرص لحكم السلطان برسباي . أما الملك جينوس فقد التزم بعض قناصلة الفرنج بدفع المال لفدائه دون تحديد المبلغ وذلك إرضاء للسلطان الذي أصرّ أن يدفع له مبلغ ٥٠٠ ألف دينار لإطلاق سراح الملك الأسير .

وبعد عدة لقاءات ما بين التراجمة والقناصل تقرّر الصلح بموجب البنود التالية :

١ ـ يتعهد الملك جينوس بدفع مبلغ ٢٠٠ ألف دينار للسلطان منها مئة ألف عاجلة ومنها مئة ألف آجلة يدفعها الملك بعد عودته إلى بلاده . وقد ضمن قناصلة الفرنج الملك في ذلك .

٢ ـ يدفع الملك جينوس كل سنة عشرين ألف دينار جزية للسلطان .

٣ ـ يتعهد السلطان بحماية الملك جينوس من أذى طائفة البنادقة وطائفة الإفرنج(٢١) .

---

(٢٠) «Et si vous dis certainement que dedans le flume du Caire se trouve le nombre de plus de. XV. M. sermes, entre grandes et petites. Et avecque cette puis-sance decerme mist sez gens dessus l'isole de Cipre, et si conquesta le roy avecquez le demorant de tout le peuple, nonobostant que il avoit alcune galiottes et naves, mais avecques celles avroit peu pou faire ...» .

انظر : Dopp. P. - H, Op. Cit., p. 109

(٢١) ابن تغري بردي، المصدر السابق، جزء ١٤، ص ٣٠٣ ـ ٣٠٤.
Heyd. W., Histoire du Commerce du Levant au Moyen-Age, Leipzig. 1886, Tome II, p. 475.

حملة رودوس :

الخطوة التالية للسلطان كانت التحضير لغزو رودوس معقل الفرسان الاسبتارية Knights Hospitallers وكان الفرسان في رودوس يقومون بتنفيذ سياسة البابوية القاضية بمنع الاتجار مع المماليك وخاصة تزويد مصر بالمواد الحربية ولذلك كانت مراكبهم تجوب مياه شرقي البحر المتوسط لهذه الغاية .

وقد شعر صاحب رودوس انطوان فلوفيان Antoine Fluvian بالخطر فأرسل موفداً إلى السلطان يسأله بعدم ارسال عساكره إليه وأنه سينفذ ما يطلبه السلطان منه : « وفيه (ذي القعدة ٨٣٠/ أيلول ١٤٢٦) قدم رسول صاحب رودوس الفرنجي فأركب فرساً وفي صدره صليب واطلع إلى القلعة وقبل الأرض بين يدي السلطان وسأل عن مرسله صاحب رودوس أنه طلب الأمان ، وأنه يسأل أن يعفى من تجهيز العساكر (الإسلامية) إليه وأنه يقوم للسلطان بما يطلب منه ، وكان السلطان تكلم قبل تاريخه في غزوة رودوس المذكورة »[٢٢] .

ولم تنجح هذه السفارة لأنه في الخامس من شهر شعبان سنة ٨٣٢/ الحادي عشر من آيار ١٤٢٨ هاجمت خمس أغربة مشحونة بالمقاتلين الإفرنج والسلاح ميناء الإسكندرية وباتت فيها وفي اليوم التالي رد المعتدون على أعقابهم بعد وصول نجدات كبيرة للمسلمين[٢٣] .

وفي أثناء ذلك كانت الاستعدادات لغزو رودوس تجري على قدم وساق وكان السلطان يشرف شخصياً على سير التمارين . ففي يوم الثلاثاء ثامن ذي الحجة ٨٣٣/ الثامن عشر من تموز ١٤٣٠ حضر السلطان مناورة بحرية قام فيها غرابان بتمارين حربية في النيل : « ثم في يوم الثلاثاء ثامن ذي الحجة ركب

---

(٢٢) ابن تغري بردي ، المصدر السابق ، جزء ١٤ ، ص ٣٠٦.
Dopp. P. H., **Op. Cit.**, p. 73. n. 4 p. 80. n. 1.

(٢٣) ابن تغري بردي ، المصدر نفسه ، جزء ١٤ ، ص ٣٢٦.

السلطان من قلعة الجبل ونزل إلى بيت ابن البازري المطل على النيل بساحل بولاق ، وسار بين يديه غرابان في النيل حربية ، فلعبا كما لو حاربا الفرنج »[٢٤] .

وقد توفي السلطان برسباي دون تحقيق رغبته في غزو رودوس . غير أن السلطان الجديد حقمق أعدّ حملة في سنة ٨٤٤/ ١٤٤٠ ضد رودوس وذلك رداً على تعبث الفرنج بالقرب من ساحل رشيد إذ ورد الخبر على السلطان بأن أربعة شواني للفرنج قاربت رشيد وأخذت أبقاراً وغيرها[٢٥] . ولهذا السبب وقع اهتمام السلطان بتجهيز حملة لغزو الفرنج[٢٦] . فعيّن عدة من المماليك السلطانية وأبحر أسطول المماليك من بولاق وكان مؤلفاً من خمسة عشر غراباً :

« وسافروا من ساحل بولاق في يوم الاثنين تاسع شهر ربيع الأول (٨٤٤/ ٨ آب ١٤٤٠)، وكان جملة من انحدر من ساحل بولاق ، خمسة عشر غراباً فيها المماليك السلطانية والمطوعة وسبب هذه التجريدة كثرة عبث الفرنج في البحر ، وأخذها مراكب التجار ، وهذه أول بعثة بعثها الملك الظاهر من الغزاة »[٢٧] .

وقد توجه الأسطول من بولاق عبر النيل إلى دمياط ومنها إلى قبرص فاستقبلهم صاحبها حنا الثاني ابن جينوس وفي قبرص انضم إليهم غرابان فيهما المقاتلة ومضوا إلى جزيرة رودوس وكان أهلها قد استعدوا لقتالهم . فحصلت مناوشة خفيفة بينهم ولم تكن المعركة حاسمة بل عمد المماليك إلى القتل

(٢٤) ابن تغري بردي، المصدر نفسه، جزء ١٤، ص ٣٤٦.

(٢٥) ابن تغري بردي، المصدر نفسه، جزء ١٥، ص ٣٣٤.

(٢٦) المقصود بهؤلاء الفرنج بقايا الصليبيين بجزيرة رودوس وهم فرسان الاسبتارية، انظر زيادة، المحاولات الحربية للاستيلاء على جزيرة رودوس، مجلة الجيش، القاهرة، ١٩٤٦.

(٢٧) ابن تغري بردي، المصدر نفسه، جزء ١٥، ص ٣٤١.

والنهب والأسر وعادوا إلى دمياط : « وأعلموا السلطان بأنه لم يكن لهم طاقة بأهل رودوس »[٢٨] .

وتابع السلطان اهتمامه بغزو رودوس فأرسل تجريدة ثانية بقيادة اثنين من أمراء الألوف وهما الأمير إينال العلائي الناصري والأمير تمرباي رأس نوبة النوب ولم يذكر عدد المراكب المشتركة إلاّ أن ابن تغري بردي أشار إلى اشتراك عدد كبير من المماليك السلطانية والأمراء و « منهم عدة كبيرة من المطوعة بأبهج زي، من العدد والسلاح»[٢٩] . ولم تكن هذه الحملة ناجحة إذ لم يتمكن المماليك من النيل من جزيرة رودوس بسبب العواصف وما اعترضهم من مقاومة من أهل الجزيرة فعادوا في نفس السنة بعد أن دمروا قشتيل البرج Chateau Raoux أو البرج الأشهب ، وهو حصن واقع على جزيرة صغيرة بجوار ساحل آسيا الصغرى الغربي وهو تابع لفرسان الأسبتارية المتسلطين على رودوس . وبالرغم من تفشي وباء الطاعون في مصر إلاّ أن السلطان كان مصمماً على مهاجمة رودوس ولذلك فقد عيّن حملة كبيرة بقيادة الأمير إينال العلائي الدوادار الكبير الملقب بالأجرود وقد ضمّت هذه الحملة حجماً كبيراً من الأمراء والخاصكية والمماليك السلطانية والمطوعة ولم يعرف عدد المراكب المشتركة إلاّ أننا نستنتج أن عدة المراكب كانت وافرة باعتبار أن السلطان قد عيّن جماعة من أعيان الخاصكية كلاً منهم مقدماً على غراب أو زورق ومعه عدة من المماليك السلطانية وغيرهم فكانت عدة المماليك السلطانية في هذه الغزوة تزيد على ألف مملوك ، هذا خارج عمن سافر من المطوعة وما أضافه إليهم السلطان من أمراء ومقاتلة البلاد الشامية .

وفي يوم السبت ١٦ ربيع الأول سنة ٨٤٨/ ٢ تموز ١٤٤٤ ، خرج الغزاة من القاهرة ونزلت المراكب من ساحل بولاق إلى الإسكندرية فدمياط وأبحرت

---

(٢٨) ابن تغري بردي، المصدر نفسه، جزء ١٥ ، ص ٣٤٣.

(٢٩) ابن تغري بردي، المصدر نفسه، جزء ١٥، ص ٣٥٢.

من هناك إلى طرابلس حيث انضمت إليها وحدات أخرى ومن طرابلس توجه الأسطول إلى رودوس وكانت عملية الأبرار سهلة فحاصر المماليك المدينة حصاراً شديداً ورموا عليها بالمكاحل والمدافع وكان أهل رودوس قد استعدوا لذلك فاستمر القتال عدة أيام وذهبت فرقة كبيرة من المماليك وتفرقت في قرى الجزيرة وبساتينها تنهب وتحرق وتسبي « ومدينة رودوس لا تزداد إلّا قوة لشدة مقاتليها ولعظم عمارتها وقد تأهبوا للقتال ، وحصنوا رودوس بالآلات والسلاح والمقاتلة »[٣٠] .

وقد أبلى أهل رودوس بلاء حسناً في الدفاع عن مدينتهم ، ففي البحر هاجموا المماليك في عدة كبيرة من المراكب وضايقوهم أشد المضايقة وفي البر صمدت المدينة تحت الحصار أولاً ثم عمد أهلها إلى الإغارة على مواقع المماليك فباغتوا جماعة من أعيانهم في وضع الاستراحة وفتكوا بهم ونتيجة لذلك أدرك المماليك أن ليس باستطاعتهم أخذ رودوس لمنعتها فأجمعوا على العودة ورفعوا الحصار عن المدينة وركبوا مراكبهم وعادوا إلى ثغر دمياط والإسكندرية ووصلوا القاهرة يوم الخميس ثاني عشر رجب من سنة ٨٤٨/ ٢٦ تشرين الأول ١٤٤٤ وكان غالبهم مريضاً[٣١] .

وقد علّق السخاوي على ذلك بقوله إن الغزاة لم يحققوا غايتهم بل عادوا دون نتيجة وكذلك فقد خفت همتهم للجهاد : « وبالجملة فلم يتّم للعسكر قصد ولا رجعوا بطايل ولهذا فترت همتهم عن الجهاد في تلك المدة لهذه الجهة والله عاقبة الأمور »[٣٢] .

إن إخفاق المماليك في السيطرة على رودوس كان نقطة تحول هامة وكان له الأثر السلبي البالغ على سلطنة المماليك . فعلى صعيد مسرح العمليات

---

(٣٠) ابن تغري بردي، المصدر نفسه، جزء ١٥، ص ٣٦١.

(٣١) ابن تغري بردي، المصدر نفسه ، جزء ١٥، ص ٣٦٢.

ابن أياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، القاهرة ١٩٧٢، جزء ٢، ص ٢٤٣.

(٣٢) السخاوي، التبر المسبوك في ذيل السلوك، القاهرة ١٨٩٦، ص ٨٩.

البحرية اتخذت السلطات المملوكية مواقف دفاعية فأهمل أسطول المتوسط واهتمت السلطات بإقامة تحصينات دفاعية ساحلية في الإسكندرية ودمياط ورشيد . ونتيجة لذلك اتخذ الإفرنج زمام المبادرة وشنوا عدة هجمات على الموانىء والثغور المملوكية في المتوسط(٣٣) . وقد أعيى السلطان ذلك ولم يكن له أي خيار في الرد على أعمال القرصنة تلك سوى القيام بأعمال انتقامية جماعية ضد القناصل والتجار الأوروبيين والرهبان القاطنين في الإسكندرية وبيروت والقدس ، كوسيلة ضغط لدرء تلك الهجمات على بلاده .

وفي جزيرة قبرص اضطربت الأوضاع أيضاً واضطر السلطان إلى إرسال المزيد من الحملات (التجاريد) للسيطرة على الوضع وإعادة الأمور إلى نصابها . وقد أدرك السلطان ضرورة إعادة تجديد الأسطول وكان في حاجة ماسة إلى الأخشاب ، ولذلك أرسلت وحدة بحرية في سنة ٨٦١/ ١٤٥٦ إلى الجون عند فم خليج القسطنطينية من الجهة الشمالية في آسيا الصغرى لقطع وجلب الأخشاب . وقد نجحت هذه الوحدة في مهمتها وعادت إلى مصر محملة بالأخشاب المطلوبة بعد أن اشتبكت مع وحدة بحرية للفرنج فتمكنت من إغراق مركب للعدو وأخذ مئة وخمسين أسير من بينهم قنصل جنوى نفسه . وقد سرّ السلطان لذلك وطلب مبلغ مئة ألف دينار من القنصل لافتداء نفسه من القتل . غير أن السلطان أطلق سراح القنصل فيما بعد مقابل مبلغ من المال لم تحدد قيمته وبعد وساطة وتعهد قناصل الدول الأوروبية(٣٤) . وفي أثناء ذلك تناهى إلى سمع السلطان الجديد الظاهر خشقدم (١٨ رمضان ٨٦٥/ ٢٧ حزيران ١٤٦١ - ١٠ ربيع أول ٨٧٢/ ١٩ تشرين أول ١٤٦٧) ورود أخبار مفادها أن خلافات واضطرابات قد حصلت في قبرص بسبب النزاع على العرش

---

(٣٣) دراج . أ ، المماليك والفرنج ، القاهرة ١٩٦١ ، ص ٦٧ - ٦٨ .

(٣٤) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، في ملوك مصر والقاهرة ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، الجزء ١٦ ، ص ١٠٩ ، ص ١١٢ .

ما بين جاكم بن جاك وشقيقته شارلوت صاحبة شرينة بعد وفاة الملك . وكـان على المماليك أن يناصروا جاكم الضعيف ضد أخته شارلوت التي توجهت من شرينة إلى رودوس طلباً للنجدة ولذلك طلبـوا الدعم من القـاهرة قبـل وصول قوات الفرنج من فماغوسطا التي تسيطر عليها جنوى ومن رودوس التي يسيطر عليهـا فرسـان الأسبتارية : « . . . وانه يستحث السلطان في إرسـال عسكـر بسرعة قبل مجيء نجدة لهم من الفرنج أهـل الماغـوصة الجنـوية وإلى أهـل شيرنية من غير الجنوية »[٣٥] . وقد أدى وصـول جاكم بن جـاك[٣٦] فجأة إلى القاهرة وتعيـينـه من قبل السلطان نـائباً لـه في قبرص إلى تفـاقم الأمور بسبب معارضة الملكة شارلوت ومن يناصرها من الفرنج فساءت الأمور إلى حد خطير في قبـرص وازداد تجرم وتعبث فـرسان الأسبتـاريـة على السـواحـل الشـرقيـة للمتـوسط فاستـولـوا على بضـائـع عـائـدة لتجـار مغـاربـة وأسـروا عـدداً من المسلمين[٣٧] . ولوضع حد لهجمات الفرسان ولدرء ما كان يحيق بقبرص من أخطار بسبب الخلاف على وراثة العرش أمر السلطان ببناء مراكب جديدة على عجـل يرسلهـا صحبة جـاكم ملك قبرص الجـديد وقـد عين سنقـر الأشـرفي الزردكاش مسؤولاً عن عمارة المراكب فقام سنقر المذكور بـالمهمة أسـوأ قيام فـاشترى الأخشـاب ظلماً وتعسفـاً بأبخس الأثمـان وجمع من عمله هـذا ثروة طائلة : « وفي يوم الخميس أول ذي القعدة (٨٦٣/ ٣٠ تموز ١٤٥٩) شرع السلطان في عمارة مراكب برسم الجهاد ، وإرسال جاكم صحبتهم إلى قبرص وجعل المتحدث على عمارة المراكب المـذكور سنقـر الأشرفي الـزردكاش ،

---

(٣٥) ابن تغري بردي، المصدر نفسه، جزء ١٦، ص ١٢٤ .

(٣٦) ابن أياس، بدائع الزهور في وقائـع الدهـور، جزء ٢، ص ٣٥٤. وصف ابن أيـاس الملك جاكم بقوله: «كان حسن الشكل، صغير السن، جميل الهيئة».

(٣٧) دراج . أ ، المماليك والفرنج، ص ٩٨ ـ ٩٩ .

زيادة. م. م.، المحاولات الحربية للاستيلاء على جزيرة رودوس، مجلة الجيش، القاهرة، ١٩٤٦، ص ٢٠٤.

المعروف بقرق شبق ، فباشر سنقر المذكور عمل المراكب أقبح مباشرة، من ظلم وعسف ، وأخذ الأخشاب بأبخس الأثمان إن وزن ثمناً . . . بحيث أنه جمع من هذا المال الخبيث جملة كبيرة . . .»[٣٨] وفي شهر شعبان ٨٦٤/ حزيران ١٤٦٠ عرض السلطان المماليك السلطانية وعيّن منهم جماعة للجهاد في قبرص وقوى الاهتمام بسفر المجاهدين . ثم أمر السلطان أن يتوجه الأمير كزل السوداني والمعلم برسباي الأشرفي للتوجه إلى الإسكندريةوصحبتهما مائة وخمسون مملوكاً من المماليك السلطانية لأخذ ما هناك من المراكب والتوجه بها إلى ثغر دمياط وانتظار وصول المجاهدين من القاهرة لتبحر المراكب من ميناء دمياط كلها دفعة واحدة وقد أنفق السلطان على المجاهدين من المماليك السلطانية فأعطى لكل مملوك مبلغ خمسة عشر ديناراً .

وقد عمد السلطان إلى النزول من قلعة الجبل في مركب عظيم إلى جزيرة أوري ، والمعروفة بالوسطى وهي بساحل النيل بالقرب من بولاق ، لتفقد ما عمر من المراكب التي لم يذكر ابن تغري بردي عددها . وبعد أن نظر السلطان المراكب أخلع إلى سنقر شبق وعلى جماعة من العمال ولم يبتهج الناس لنزول السلطان لعظم ما قاسوه من الظلم في بناء المراكب وقلة الإنصاف في حق العمال من أرباب الصنائع. وما جعل الناس تسكت على مضض هو أن : « الأمر منسوب إلى نوع من أنواع الجهاد »[٣٩] .

وفي يوم الثلاثاء سابع عشر شوال سنة ٨٦٤ / ٧ آب ١٤٦٠ سافر الغزاة في النيل إلى ثغر دمياط وكان مقدم العساكر في البر الأمير يونس الاقبائي الدوادار الكبير ومقدم العساكر في البحر الأمير قانم صفر خجا المؤيدي التاجر

---

(٣٨) ابن تغري بردي، المصدر السابق، جزء ١٦، ص ١٣٣.
انظر أيضاً ابن أياس، المصدر السابق، جزء ٢ ، ص ٣٥٤.
(٣٩) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جزء ١٦، ص ١٥٠ ؛
ابن أياس، بدائع الزهور، جزء ٢، ص ٣٦٢.

أحد مقدمي الألوف بالديار المصرية ومعهما الأمير سودون الإينالي المؤيدي المعروف حاجب الحجاب وهؤلاء الثلاثة كانوا من أمراء الألوف وقد رافقهم العديد من أمراء الطبلخانات وأمراء العشرات وأكثر من خمسماية نفر من المماليك السلطانية فيما خلا المطوعة وطواقم المراكب والخدم[٤٠] .

وقد نزل الأمير يونس مع عساكره في قبرص فرتب الأمور وأبقى جماعة من المماليك السلطانية ومماليك الأمراء وجعل مقدمهم جانبك الأبلق الظاهري الخاصكي وذلك حماية ودعماً للملك جاكم صاحب قبرص وقد ترك الأسطول قبرص على جناح السرعة لكثرة الأوبئة. وأثناء العودة هبت عليه ريح عظيمة فتشتت المراكب ووصلت تباعاً إلى السواحل المصرية وقد مات الكثير من المماليك بسبب المرض[٤١] . ولم تبتهج العامة لعودة الأسطول على هذا النحو وقد لام الناس العساكر لعودتهم إلى القاهرة دون تحقيق نتيجة تذكر وتعجبوا من إقدام السلطان على مكافأة مقدمي العسكر وأمراء الغزاة بالخلع الثمينة .

وبعد هذه الحملة قل الاهتمام بالأسطول في المتوسط بحيث أمسى بالكاد يفي بالأغراض الدفاعية للسلطنة مما دفع السلطان إينال إلى إرسال اثنين من أمرائه وهما الأمير بردبك الدوادار الثاني والأمير ناصر الدين نقيب الجيش إلى الطينة بالقرب من الإسكندرية (جمادى الأول ٨٦٥ / شباط ١٤٦١) لاختيار مكان يصلح لعمارة برج هناك[٤٢] .

---

(٤٠) ابن تغري بردي، المصدر السابق، جزء ١٦، ص ١٥١ .

(٤١) ابن أياس، بدائع الزهور، جزء ٢، ص ٣٦٣.

(٤٢) ابن تغري بردي، المصدر السابق، جزء ١٦، ص ١٥٤ .

ابن أياس ، بدائع الزهور، جزء ٢، ص ٣٦٦، ذكر ابن أياس أنه لما مرض السلطان إينال، أرسلوا خلف الأمير بردبك صهر السلطان « وكان توجه إلى الطينة ، هو والناصري محمد نقيب الجيش ، ليكشفا عن مكان على ساحل البحر المالح لينشىء به السلطان برجاً لأجل طروق الفرنج للسواحل ».

ولما جاء السلطان الظاهر خشقدم (٨٦٥/ ١٤٦١ ـ ٨٧٢/ ١٤٦٧) رأى أن الوضع في قبرص لا يمكن السكوت عنه لتردي الأحوال بالجزيرة فعيّن حملة جديدة إليها شملت أربعة عشر أميراً ونحواً من خمسماية مملوك من المماليك السلطانية بالإضافة إلى المطوعة والخدم وأرباب الصنائع وغيرهم وكان على رأس هذه الحملة الأمير بردبك الظاهري حاجب الحجاب .

وقد أبحر الأسطول ، في يوم الاثنين أول شهر رجب ٨٦٧ / الثاني والعشرين من آذار ١٤٦٣ ، من بولاق عبر النيل إلى ثغر دمياط ومنها إلى قبرص وبعد ثمانية أشهر عاد الأسطول من قبرص بغير أذن السلطان ومن دون تسوية الأمور في الجزيرة . مما أدى إلى غضب السلطان غضباً شديداً[٤٣] وإلى تسارع الأحداث في الجزيرة ولغير مصلحة المماليك ، وتفسير ذلك أن ملك قبرص جاكم Jacques II le Bastard هاجم الماغوصة (فماغوسطا) وانتزعها من أيدي الجنويين بعد حصار وبذلك تمكن هذا الملك بعزيمته ومواهبه العسكرية من ضمّ هذه المدينة مجدداً إلى مملكته (١٤٦٤)[٤٤] .

وقد عمد الملك إلى تسليم فماغوسطا وقلعتها إلى الأمير جانبك الأبلق المقيم في قبرص فأساء الأمير جانبك إلى أهل الماغوصة ومدّ يده لأخذ الصبيان الحسان من أهلهم أعيان المدينة فشق عليهم ذلك وقالوا له : « نحن سلمناكم البلد بالآمان ، وقد حلفتم لنا أنكم لا تفعلوا معنا بعد أخذكم المدينة إلاّ كل خير وأنتم مسلمون فما هذه الحال ؟»[٤٥] . ولم يرتدع الأمير جانبك واستمر على ما هو عليه بالرغم من نهيه عن هذه الأعمال من قبل الملك مما اضطر جاكم إلى المجيء إليه وقتله مع خمسة وعشرين مملوكاً من المماليك السلطانية .

---

(٤٣) ابن أياس ، بدائع الزهور، جزء ٢ ، ص ٤١٦ .

(٤٤) Heyd.W., Histoire du Commerce. Tome II, p. 423.

(٤٥) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جزء ١٦ ، ص ٢٨٣ .

ولتبرير ما حدث أرسل ملك قبرص موفداً إلى السلطان في القاهرة في الثالث والعشرين من جمادى الأخير سنة ٨٦٨/ ٣ آذار ١٤٦٤ لشرح ما قام به جانبك من أعمال لا تشرف السلطنة ولتطمين جناب السلطان بأن ملك قبرص جاكم الذي احتل فماغوسطا ما هو إلّا نائب بها عن السلطان(٤٦) . والواقع أن ملك قبرص كان يرغب في تثبيت نفسه على عرش الجزيرة ولذلك عمد إلى التقرب سنة ١٤٦٦ من حكومة البندقية فطلب إليها أن تختار له زوجة مناسبة فاقترحت عليه الشابة من أصل بندقي كاترين كورنارو Catherine Cornaro فتمّ الزواج منها في خريف ١٤٧٢ ولكن الموت عاجل الملك فتوفي في السادس من تموز سنة ١٤٧٣ فاستغلت البندقية ذلك وأجبرت الملكة على التنازل لها عن الجزيرة في سنة ١٤٨٩(٤٧) .

وبذلك أصبحت جزيرة قبرص عملياً تحت سيطرة وإشراف البندقية التي مهدت إلى إرضاء وإسكات سلطان المماليك عن طريق دفع الجزية سنوياً إلى السلطان وقدرها ٨٠٠٠ دوكات تؤخذ عيناً(٤٨) .

سياسة المماليك الدفاعية البحرية في شرقي المتوسط :

يبدو أن سلطات المماليك لم يكن لها خيارات أخرى سوى القبول بالأمر الواقع في جزيرة قبرص بعد وقوعها تحت نفوذ البندقية التي تعهدت بدفع الجزية السنوية المقررة للسلطان . ولما كان أسطول المماليك غير قادر على حسم الأمور في قبرص وطالما كانت الجزية تدفع في مواعيدها فقد بقي الأمر على حاله واستمر لسنوات عديدة . والواقع أن السلطان الجديد الملك الأشرف قايتباي الذي تولى السلطنة في شهر رجب سنة ٨٧٢ / شباط ١٤٦٨ كانت لديه

---

(٤٦) ابن تغري بردي، المصدر نفسه، جزء ١٦، ص ٢٨٥ .
ابن أياس، بدائع الزهور، جزء ٢، ص ٤١٨ .

(٤٧) Heyd. W., **Op. Cit.**, Tome II, pp. 423 - 424.

(٤٨) Heyd. W., **Ibid.**, Tome II, p. 545.

اهتمامات أخرى غير مسألة قبرص فقد اضطربت الأحوال في شمالي شرق السلطنة بسبب شاه سوار ولذلك أعطى السلطان الأولوية للعمليات العسكرية في البر. وإذا تتبعنا أخبار بداية عهد السلطان قايتباي لوجدناها خالية تقريباً من التجاريد البحرية أو من ذكر الأسطول وذلك لاعتماد المماليك لسياسة الدفاع عن السواحل والثغور الإسلامية. فمن جهة كانوا لا يخرجون إلاَّ لملاحقة أو لرد اعتداءات الفرنج ومن جهة ثانية أقاموا الأبراج والدفاعات لحماية الثغور المهمة خاصة رشيد والإسكندرية . ففي شهر صفر ٨٧٧/ تموز ١٤٧٢ قبض نائب ثغر الإسكندرية على جماعة من الفرنج كانوا يتعبثون بسواحل البحر فلما عرضوا على السلطان في القاهرة رسم بسجنهم بالمقشرة فأسلم جماعة منهم[٤٩] .

وفي ربيع الآخر ٨٧٧/ أيلول ١٤٧٢ قبض القاضي شرف الدين الأنصاري ومعه مئة مملوك في جهة الطينة على مركب من مراكب الفرنج كانت تعبث بالمسافرين[٥٠] . وكان السلطان قد أمر في ذي الحجة ٨٧٦/ آيار ١٤٧٢ بإنشاء البرج العظيم بالقرب من ثغر رشيد فجاء في غاية الحسن والإمكان[٥١] .

وقد تتابعت هجمات الفرنج على السواحل المصرية فأسروا عدداً من المسلمين بالقرب من الإسكندرية وبثغر دمياط فعيّن السلطان في شهر محرّم ٨٧٨/ ١٤٧٣ الأمير قجماس الإسحاق أحد مقدمي الألوف وأمره بملاحقة الإفرنج « فخرج بعد العصر وسافر في البحر في عدة مراكب ، وأمره السلطان بأن يتبع الفرنج حيث ساروا »[٥٢] .

وفي شهر رمضان سنة ٨٨٠/ كانون الأول ١٤٧٥ احتال بعض تجار

---

(٤٩) ابن اياس، بدائع الزهور، جزء ٣، القاهرة ١٩٦٣ ، ص ٧٥.
(٥٠) ابن اياس ، المصدر نفسه، جزء ٣، ص ٧٩.
(٥١) ابن اياس، المصدر نفسه، جزء ٣، ص ٧٢.
(٥٢) ابن اياس ، المصدر نفسه ، جزء ٣، ص ٨٩.

الفرنج على بعض تجار الإسكندرية فأسروهم وكان بينهم تجار السلطان ابن عليبه وابن يعقوب وغيرهما وقد عمل تجار الفرنج على إخراج التجار المسلمين من الإسكندرية وسلموهم إلى رئيس فرسان الأسبتارية في رودوس . وقد تأثر السلطان لهذه الحادثة وكتب مراسيم شريفة لنائب ثغر الإسكندرية بالقبض على جميع تجار الفرنج من إيطاليين وغيرهم بسائر السواحل الإسلامية فقبض عليهم وأودعوا في الحديد وألزموا بمكاتبة ملوكهم لإطلاق سراح التجار المسلمين الأسرى . وقد تمّ تسوية هذه الحادثة عن طريق دفع فدية كبيرة لصاحب رودوس لإطلاق سراح التجار . « وفيه (محرم ٨٨١/ حزيران ١٤٧٦) جاءت الأخبار من الإسكندرية بأن الإفرنج قد أطلقوا من كان عندهم من التجار الذين كانوا أسروهم ، وقد اشتروا أنفسهم بمال له صورة حتى أطلقوهم »[٥٣] .

إزاء هذا الوضع قرّر السلطان زيارة الإسكندرية (ربيع الأول ٨٨٢/ حزيران ١٤٧٧) لتفقد دفاعاتها وبناء برج فيها . « ثم إنه توجه إلى نحو مكان المنار القديم الذي كان بثغر الإسكندرية ورسم بأن يبنى على أساسه القديم برجاً »[٥٤] .

كما أمر السلطان بإقامة سلسلة من حديد زنتها نحواً من مائتي وخمسين قنطاراً في البحر عند فم ثغر دمياط بالقرب من برج الملك الظاهر بيبرس البندقداري : « وكانت هذه السلسلة قديماً هناك ثم بطل أمرها فجددها الأمير يشبك الدوادار في هذه السنة وحصل بها النفع لطرد مراكب الفرنج الكبار »[٥٥] .

وفي سفرته الثانية إلى الإسكندرية (جمادى الأولى ٨٨٤ / تموز

---

(٥٣) ابن أياس، المصدر نفسه، جزء ٣، ص ١١٩ .
(٥٤) ابن أياس، المصدر نفسه، جزء ٣، ص ١٣١ .
(٥٥) ابن أياس، المصدر نفسه، جزء ٣، ص ١٥٠ .

١٤٧٩) قام السلطان قايتباي بتفقد البرج الذي أنشأه فجاء من محاسن الزمان ومن أعظم الأبنية وأجل الآثار الحسنة : « وأنشأ بهذا البرج مقعداً مطلاً على البحر ينظر من مسيرة يوم إلى مراكب الفرنج وهي داخلة إلى المينا ، وجعل بهذا البرج جامعاً بخطبة ، وطاحوناً وفرناً وحواصلاً ، وأشحنهم بالسلاح ، وجعل حول هذا البرج ، مكاحلاً معمرة بالمدافع ليلاً نهاراً بسبب أن تطرق الفرنج للثغر على حين غفلة ، وجعل به جماعة من المجاهدين قاطنين به دائماً، وأجرى عليهم الجوامق والرواتب في كل شهر . . . وقيل إن السلطان أصرف على بناء هذا البرج زيادة على المائة ألف دينار »[٥٦] .

وقد اقتصرت أعمال قايتباي على هذا الحد ولم يرد أي ذكر للأسطول إلاّ مرة واحدة عندما أمر السلطان (ربيع الأول ٨٨٣/ حزيران ١٤٧٨) بإرسال تجريدة إلى الجون في آسيا الصغرى لإحضار الأخشاب وطلب من مقدم المراكب وردبشي أن يعرّج في طريقه على قبرص لمطالبة صاحبها بالجزية قبل توجهه لقطع الأخشاب [٥٧] .

جبهة المحيط الهندي والبحر الأحمر :

مع وصول قانصو الغوري إلى عرش السلطنة سنة ٩٠٦/ ١٥٠٠ واجهت السلطات المملوكية صعوبات إضافية عائدة إلى قرصنة وتعبث البرتغاليين في المحيط الهندي . والواقع أن أخبار تعدي البرتغاليين على التجار المسلمين في الشرق الأقصى وصلت القاهرة لكن السلطات المملوكية لم تهتم لهذه الأخبار في البادىء بل حاولت التقليل من أهميتها إما بسبب استخفافها للخطر البرتغالي في المحيط الهندي وعدم استيعابها لجدية المواجهة وإما بسبب التعتيم على ما يجري هناك من أمور مخافة أن يؤثر ذلك على تجارة الشرق

(٥٦) ابن اياس ، المصدر نفسه ، جزء ٣، ص ١٥٥ ـ ١٥٦ .
(٥٧) ابن أياس ، المصدر نفسه، جزء ٣، ص ١٤٤ .

خاصة الفلفل فيدبّ الاضطراب في أسواق السلطنة حيث يتوافد إليها التجار الأوروبيون .

والواقع أنه في أواخر القرن الخامس عشر نجح البرتغاليون في الوصول إلى المحيط الهندي عن طريق رأس الرجاء الصالح . وكان وصول القائد البرتغالي فاسكو دي غاما Vasco De Gama بمساعدة البحار العربي أحمد بن ماجد إلى كلكوتا حدثاً جغرافياً بالغ الأهمية على صعيد تجارة الشرق لأن البرتغاليين أقدموا فور وصولهم على مهاجمة المراكب الإسلامية المحملة بالتوابل إلى عدن وجدة وإغراقها كما هددوا باجتياح موانيء البحر الأحمر وتخريبها بهدف قطع طريق التجارة الدولي البحري الذي يربط المحيط الهندي بالبحر الأحمر وبالتالي تحويل تجارة الشرق عن طريق القوة من أسواق الإسكندرية ودمشق إلى أسواق لشبونة(٥٨) .

الإشارات الأولى عن نشاطات البرتغاليين في كلكوتا وصلت إلى البندقية من الإسكندرية والقاهرة عبر قناصلها وبالرغم من كونها كانت مشوهة وغير كافية إلّا أنها كانت مصدر قلق متصاعد بالنسبة للجمهورية وللسلطان الغوري على حد سواء(٥٩) . وبناء على شكاوى التجار المسلمين ومكاتبات ملوك الهند وبتشجيع من البندقية عمد السلطان إلى بناء وتسليح أسطول جديد لدرء خطر البرتغاليين فأرسل يحضر الأخشاب من خليج أياس في آسيا الصغرى كما طلب من البندقية تزويده بمواد بناء الأسطول(٦٠) .

---

(٥٨) فهمي ، ن. ز ، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب ، ص ٢٧١ - ٢٧٢ ؛

Heyd. W., Historie du commerce du Levant au Moyen Age, Tome II, pp.507 - 510.

(٥٩) Heyd. W, Ibid. Tome II, pp. 516.

(٦٠) El - Abbady and Salem, Moslem Sea Power in Egypt and Syria.Beirut,1972, pp.266.

ولم يكن بإمكان السلطان السكوت عن تعديات البرتغاليين في المحيط الهندي خاصة وأنهم هدفوا من وراء عملياتهم البحرية إيجاد أسواق جديدة لتوسيع تجارتهم من جهة وتخريب وضرب تجارة المسلمين عن طريق إغراق مراكبهم التجارية من جهة أخرى . ولذلك قرّر السلطان في ربيع الآخر سنة ٩١١/ أيلول ١٥٠٩ إرسال تجريدة إلى الهند « بسبب تعبث الفرنج بسواحل الهند »[٦١] . وبالرغم من أن ابن أياس قد وصف بإسهاب حملة الهند فذكر أن العسكر الذي خرج في هذه التجريدة كان ملفقاً أي مختلطاً ما بين أولاد ناس وبعض مماليك سلطانية ومغاربة وعبيد سود رماة وتراكمة وغير ذلك وصحبتهم جماعة كثيرة من البنائين والنجارين والعمال لبناء السور والأبراج في جدّة إلاّ أن ابن أياس لم يذكر عدد المراكب التي أعدها السلطان في السويس وكل ما ذكر أن السلطان قد عيّن الأمير حسين المشرف باش المماليك والتركمان والعبيد والخواجا نور الدين علي المسلاتي باش المغاربة وقد توجه الجميع إلى السويس في يوم الاثنين سادس شهر جمادى الآخرة سنة ٩١١/٥ تشرين الثاني سنة ١٥٠٥ لأخذ المراكب من هناك إلى جدة : «وقد جهّز لهم السلطان عدة مراكب مشحونة بالزاد والسلاح »[٦٢] ولا ندري بالضبط عما إذا كان السلطان قد بنى هذه المراكب في السويس أم أنه جمعها هناك من ثغور البحر الأحمر ولا ندري بالضبط ما هو عدد هذه المراكب ونوعيتها وكل ما نعرفه أن عدد مراكب الأسطول الذي تمّ تجميعه في جدة بلغ حوالي الخمسين مركباً بقيادة الأمير حسن نائب جدة وقد أصبحت هذه القوة جاهزة للتدخل في المحيط الهندي اعتباراً من سنة ١٥٠٧[٦٣] .

في المرحلة الأولى قام الأمير حسن ببناء أبراج على سواحل جدة وسور

---

(٦١) ابن اياس ، بدائع الزهور ، الجزء الرابع ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ٨٢.

(٦٢) ابن أياس ، بدائع الزهور ، جزء ٤، ص ٨٥.

(٦٣) Heyd. W. Histoire du Commerce. Tome II, p. 536.

ثم احتل سواكن واحتاط على ما فيها من بهار وغيره وجهّز مراكبه للخروج إلى عدن بسبب تواجد مراكب البرتغاليين في بحر الحجاز وقد بلغ عدد مراكبهم حوالي العشرين مركباً عملت على قطع الطريق على مراكب تجار الهند في الأماكن المخفية وأخذ ما معهم من البضائع « حتى عز وجود الشاشات والازر من مصر وغيرها من البلاد »(٦٤) .

المعركة الأولى مع البرتغاليين كانت ناجحة جزئياً وتفسير ذلك أن الأميرال لورنزو دالميدا Lorenzo d'Almeida قائد الأسطول البرتغالي في المحيط الهندي قام باحتلال جزيرة سوقطرا وهاجم عدن وتوجه إلى سواكن في البحر الأحمر بهدف مهاجمة جدة بمراكبه العشرين : ولكنه انسحب من البحر الأحمر لدى اكتشافه أسطول المماليك على مقربة من سواحل جدة . كانت وحدات المماليك مؤلفة من ثلاثة عشر مركباً : ستة أغربة وغليون(٦٥) واحد وستة مراكب كبيرة وقد تمكن الأمير حسن من تعقب أسطول البرتغاليين ومفاجأته في كانون الثاني سنة ١٥٠٨ في مكان بالقرب من شول القريبة من سواحل المالابار . قتل الأمير دالميدا في الاشتباك الدامي ودمّر مركبه لكن المعركة لم تكن حاسمة لأن أسطول البرتغاليين تمكن من الانسحاب ثم عاد بعد موسم الأمطار بقيادة دالميدا الأب نائب ملك البرتغال في الهند وأنزل بأسطول المماليك هزيمة ساحقة في شباط ١٥٠٩ في موقعة ديو القريبة أيضاً

---

(٦٤) ابن اياس، المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ١٠٩ .

(٦٥) الغليون Galleon : هو أرقى ما وصل إليه فن صناعة السفن الحربية في القرن السادس عشر . وهو سفينة ذات أربعة صواري وليس لها مجاذيف وتحتوي على ساحتين للقتال في المقدمة والمؤخرة . ويبلغ طول الغليون ثلاثة أمثال العرض ويعتبر من السفن الشراعية الممتازة ذات الأسلحة الثقيلة . وقد ساعد طول الغليون وقلة عمقه على سرعة حركته ولذا أطلق عليه اسم سفينة السباق وكانت المقاتلة لا تحبذه لأن ساحته المنخفضة كانت تعرضهم لخطر الاعتداء الساحلي . انظر : ماهر . س ، البحرية في مصر الإسلامية . القاهرة : ١٩٦٧ . ص ٣٦٠ .

من سواحل المالابار . وقد أحرقت معظم المراكب الإسلامية وأغرقت وتمّ الاستيلاء على البعض منها وما بقي منها تمكن من الانسحاب مع الأمير حسين إلى جدة[٦٦] .

وقبل أن تصل أخبار الكارثة مسامع السلطان ، نزل الغوري من القلعة في السادس والعشرين من شعبان ٩١٤/٢٤ تشرين الثاني ١٥٠٨ إلى نحو طرّا على شاطىء النيل وأحضروا بين يديه ستة أغربة كان ناظر الخاص القاضي علاء الدين قد جلبها إلى الجزيرة الوسطى بالقرب من القاهرة بعد الانتهاء من عمارتها في رشيد . وقد لعبت المراكب أمام السلطان في النيل ورمت أمامه بالمدافع فسرّ السلطان وأخلع على ناظر الخاص وعلى رئيس المراكب وجماعته الخلع السنية[٦٧] . والملاحظ أن مهمة بناء المراكب وتجهيزها كانت من اختصاص ناظر الخاص فالقاضي علاء الدين هو الذي ذهب أيضاً إلى جدة لتجميع وتجهيز المراكب لوضعها تحت أمرة الأمير حسن[٦٨] .

والسؤال المطروح ما هو سبب بناء هذه المراكب الستة في رشيد وعدم بنائها في السويس حيث الخطر أعظم ؟ .

الواقع أن هذه المراكب قد عمّرت في رشيد وعلى البحر المتوسط لسببين الأول هو جلب الأخشاب من آسيا الصغرى لبناء المزيد من المراكب في السويس والسبب الثاني رد غارات الفرنج خاصة فرسان الأسبتارية على السواحل والثغور الإسلامية في السلطنة .

ففي ذي القعدة سنة ٩١٤/ شباط ١٥٠٩ جاءت الأخبار من الطينة بأن الأمير تمرباي الهندي المشرف على عمارة الأبراج هناك تحارب مع مركب

---

(٦٦) ماهر . س ، المصدر نفسه ، ص ١٣٢ ؛ Heyd. W., Op. Cit., p. 536.

(٦٧) ابن أياس ، بدائع الزهور ، جزء ٤ ، ص ١٤٢ .

(٦٨) ابن أياس ، نفسه ، جزء ٤ ، ص ١٢٤ .

للفرنج كان يتعبث بالسواحل فملكه وأسر من فيه من الإفرنج وكان عددهم سبعة وعشرين نفراً[٦٩] .

وفي رجب سنة ٩١٥/ تشرين الأول ١٥٠٩ جاءت الأخبار من الإسكندرية بأن الأمير محمد الذي عينه السلطان باش المراكب الستة قد توجه إلى خليج أياس في آسيا الصغرى (الجون) بسبب إحضار الأخشاب وهناك صادف مراكب للفرنج يعبثون في البحر ويقطعون الطريق على التجار فتحارب معهم وانتصر عليهم وقتل منهم جماعة كثيرة وأسر من بقي منهم وعاد بالأخشاب وبما غنم وهو أشياء كثيرة بنحو مائة ألف دينار[٧٠] .

وقبل ذلك كان السلطان قد أرسل كبير التراجمة الأمير تغري بردي إلى رودوس لإطلاق سراح أسرى المسلمين وإلى البندقية لإبرام اتفاقية تجارية وطلب معونة عسكرية لبناء الأسطول . « وفيه (ذو القعدة ٩١١/ آذار ١٥٠٦) سافر تغري بردي الترجمان إلى نحو بلاد الفرنج وأخذ معه كتاب البترك، وكان قد تزايد تعبث الفرنج بالسواحل وأخذ أموال التجار »[٧١] . وبالرغم من أن تغري بردي قد تمكن من إطلاق سراح الرهائن في رودوس إلَّا أنه لم ينجح في الحصول على أية مساعدة من البندقية . ونحن سوف نعرض بالتفصيل لهذا الموضوع في الفصل الرابع لدى الحديث عن العلاقات الدبلوماسية ما بين المماليك والمدن والجمهوريات الإيطالية .

ولدى ورود الأخبار إلى القاهرة في صفر ٩١٥/ أيار ١٥٠٩ بهزيمة الأمير حسين وكسر الأسطول على يد البرتغاليين ونهب المراكب ، تنكّد السلطان وأوفد الأمير علان لدى السلطان العثماني لطلب المعونة العسكرية لتسليح الأسطول كما أرسل قريبه الأمير محمد إلى خليج أياس (الجون) مرة ثانية

---

(٦٩) ابن أياس ، المصدر نفسه ، جزء ٤، ص ١٤٦ .
(٧٠) ابن أياس ، المصدر نفسه ، جزء ٤ ، ص ١٦٣ .
(٧١) ابن أياس ، المصدر نفسه ، جزء ٤، ص ٩٠.

لقطع مزيد من الأخشاب من أجل عمارة الأسطول في السويس. وقد شجع السلطان على ذلك ورود مكاتبات من ملوك الهند تتضمن سرعة تجهيز تجريدة إلى جهات الهند بسبب تعبث الفرنج هناك من حين كسروا الأمير حسين وقد « بلغت عدة المراكب التي يعبثون في السواحل نحواً من خمسين مركباً »[٧٢] .

ولم يكن الحظ حليفاً لقريب السلطان الأمير محمد هذه المرة فقد هاجمه أسطول فرسان الأسبتارية بقيادة زعيمهم أندريه دامارال André d'Améral في آب ١٥١٠ في خليج أياس في آسيا الصغرى في المكان المعروف حالياً بخليج اسكندرونة وقضى على معظم مراكبه وقد قتل الأمير محمد في المعركة مع غالبية مماليكه وقد عمد الفرسان إلى سحب ما بقي من المراكب والأخشاب المقطوعة إلى رودوس . وبالرغم من تهديدات السلطان بقتل التجار الأوروبيين ورهبان الفرنسسكان وغلق كنيسة القيامة بالقدس في حال عدم إرجاع المراكب والأسلحة إلاّ أن فرسان الأسبتارية لم يعطوا السلطان آذاناً صاغية ولم يكترثوا لطلباته بل على العكس استمرت تعديات وهجمات الفرنج على السواحل والثغور المصرية والسورية[٧٣] .

وفي شوال سنة ٩١٦/ كانون الثاني ١٥١١ وصلت عدة مراكب إلى بولاق من عند السلطان العثماني وفيها أسلحة (زردخاناه) لتجهيز أسطول الغوري قوامها :

- مكاحل ٣٠٠
- نشاب ٣٠٠٠٠
- بارود مطيب ٤٠ قنطار
- مقاذيف خشب ٢٠٠٠ مقذاف

(٧٢) ابن أياس ، المصدر نفسه ، جزء ٤ ، ص ١٨٥ .
(٧٣) دراج . أ ، المماليك والفرنج ، ص ١٤٢ .

وغير ذلك من « نحاس وحديد وعجل وحبال وسلب ومراسي حديد . . مما تحتاج إليه المراكب »[٧٤] .

وبالفعل نزل السلطان في الثالث من صفر ٩١٧/ الثاني من أيار ١٥١١ للكشف على المراكب التي عمرها وجهزها وكانت مراكب كثيرة لم يـذكر ابن أياس عددها ومن بينها غراب زين بالصناجق[٧٥] .

ومرة ثانية نزل السلطان في شهر صفر المذكور وتوجه إلى طرا بالقرب من القاهرة حيث عرض المركب الكبير الغليون الذي عمره في بولاق وسار الغليون في النيل ورمى أمام السلطان بالمدافع .

ولا بدَّ من الإشارة هنا إلى أن السلطان الغوري كان يقوم إلى جانب تعمير المراكب بسبك المدافع وتجربتها وكانت هذه العملية تسير جنباً إلى جنب مع مراحل بناء الأسطول .

ففي السادس من جمادى الآخرة سنة ٩٠٦/ ١١ أيلول ١٥١٠ انتهى السلطان من مكاحل سبكها وفي الثالث عشر منه (جمادى الآخر / ١٨ أيلول) جرّب السلطان هذه المكاحل في الريدانية أول مرة ثم بـالقرب من القلعـة في المرة الثانية .

ولسنا هنا في مجال وصف مراحل تجارب المدافع والأسلحة النارية إلاَّ أننا أردنا أن نشير إلى عزم وهمـة السلطان في تجهيز وحـدات الأسطول بهـذه المدافع التي صحت تجربتها بعض الشيء في العشرين من جمادى الآخر سنة ٩١٧/ السـادس عشر من أيلول ١٥١١[٧٦]. واعتباراً من هذا التـاريخ سـارت عملية سبك المدافع وتجربتها بنجـاح وعلى قدم وسـاق وقد خصصت غـالبية المدافع لتسليح الأسطول بالدرجة الأولى . بالإضافة إلى ذلـك عمد السلطان

(٧٤) ابن أياس ، بدائع الزهور ، جزء ٤ ، ص ٢٠١ .
(٧٥) ابن أياس ، بدائع الزهور ، جزء ٤ ، ص ٢١٢ .
(٧٦) ابن أياس ، المصدر نفسه ، جزء ٤ ص ٢٣٨ .

في شهر شوال سنة ٩١٦/ كانون الثاني ١٥١١ إلى إنشاء وحدة عسكرية من مشاة الأسطول عرفت بالطبقة الخامسة وزودت بالأسلحة النارية. ومع كون أفراد هذه الطبقة كانوا من عناصر وضيعة « ما بين تراكمة وأعجام وأولاد ناس وغير ذلك من الطوائف »(٧٧) . إلاّ أن أمر هذه الطبقة قد تعاظم بسبب حاجة الأسطول إليها . وتوالت عمليات تجربة المدافع والكشف على المراكب في جمادى الآخرة وشعبان ورمضان سنة ٩١٧/ تموز وتشرين الأول وتشرين الثاني ١٥١١ .

وقد ذكر ابن أياس أن السلطان قد سبك في ربيع الأول سنة ٩١٨/ أيار ١٥١٢ نحواً من سبعين مكحلة ما بين كبار وصغار من نحاس وحديد وكانت تجربتها ناجحة لم يخطىء منها سوى واحدة فانشرح السلطان في ذلك اليوم للغاية(٧٨) .

وفي يوم الأربعاء ثالث عشر شهر جمادى الآخر ٩١٨/ السابع والعشرين من آب ١٥١٢ نزل السلطان وركب في أحد الأغربة التي عمَّرها ثم تفقَّد المركب الكبير الغليون الذي فرغ من بنائه وصرف عليه نحواً من عشرين ألف دينار وكان له ثماني مراسي لكبره .

وفي هذه الأثناء (رمضان ٩١٨/ تشرين الثاني ١٥١٢) حضر إلى القاهرة الرئيس حامد المغربي الذي كان السلطان قد أرسله إلى اسطمبول وصحبته عدة مكاحل نحاس وحديد وأخشاب وحبال وغير ذلك أشياء كثيرة أرسلها السلطان العثماني إلى الغوري في مراكب موثوقة (٧٩) .

وفي محرّم عمّر السلطان مركباً آخر في بولاق على صفة المركب القديم المسماة بالذهبية ولعلَّها سفينة تجارية . ولما فرغ العمل منها أمر أن تُزيَّن

(٧٧) ابن أياس ، المصدر نفسه ، جزء ٤، ص ٢٠٦ .
(٧٨) ابن أياس، المصدر نفسه ، جزء ٤، ص ٢٦٥ .
(٧٩) ابن أياس ، المصدر نفسه ، جزء ٤، ص ٢٨٥ .

بالصناجق ونصبوا فيها النفوط حتى يشاهدها السلطان على هذه الهيئة[٨٠] .

وفي هذه الأثناء ٢٢ ربيع أول ٩١٩/ ٢٩ أيار ١٥١٣ حضر هجان من مكة في مدة تسعة أيام وأخبر بأن الفرنج (البرتغاليين) قد ملكوا كمران وهي من ضياع الهند وانهم يحاصرون سواكن وان الشريف بركات أمير مكة قد خرج إلى جدة للدفاع عنها وقد تنكد السلطان لهذا الخبر وكانت ردة فعل السلطان أن عيّن فوراً ثلاثمائة إنسان من الطبقة الخامسة وفيهم رماة بالإضافة إلى جماعة من المماليك السلطانية ورسم لهم أن يتوجهوا إلى السويس لحماية وتسليح المراكب التي يعمّرها السلطان هناك . كما أمر السلطان الأمير معلباي الزردكاش الكبير ومعه ثلاثين إنساناً من الزردكاشية بأن يتوجهوا إلى السويس صحبة المكاحل الجديدة الخاصة بالأسطول كما عيّن معهم جماعة من النجارين والحدادين وعيّن معهم جماعة من الرماة بالبندق الرصاص وجماعة من النفطية[٨١] .

كما عيّن السلطان (ربيع أول ٩١٩/ ١٥١٣) الأمير حسين بأن يتوجه إلى جدة ويستقر في نيابتها على عادته كما أرسل معه بعض الزردكاشية ورماة البندق الرصاص والنفطية للبقاء في جدة بانتظار التجريدة . وكان خطر البرتغاليين قد تزايد في المحيط الهندي والبحر الأحمر وكانوا يقطعون الطريق على التجار المسلمين ويأخذون بضائعهم وقد بلغ عدد مراكب البرتغاليين في تلك الجهات نحواً من عشرين مركباً[٨٢] فكثرت الإشاعات بسفر السلطان إلى

---

(٨٠) ابن أياس ، المصدر نفسه ، جزء ٤ ، ص ٢٩٨ .
(٨١) ابن أياس ، المصدر نفسه ، جزء ٤ ، ص ٣٠٧ ، ص ٣١٠ .
(٨٢) ابن أياس ، المصدر نفسه ، جزء ٤ ، ص ٣٣١ ؛
Ayalon. D., Gunpowder and Firearms in the Mamluk Kingdom, London, 1956. p.79;
Depping.G., Histoire du Commerce entre le Levant et L'Europe, depuis Les Croisades jusqu'à la Fondation des Colonies d'Amérique. Paris MDCCCXXX. Tome II, pp. 268 - 269.

السويس . وقد حرج السلطان على بيع خشب السنط acacia بسبب عمارة المراكب في السويس كما عزّ وجود الكبريت(٨٣) . وكانت الإشاعات بسفر السلطان صحيحة ففي الثامن من محرم ٩٢٠/٢٥ أذار ١٥١٤ توجه السلطان إلى السويس بصحبة ثلاثماية من خاصكيته وجماعة من الأمراء المقدمين . وفي السويس استقبله الرئيس سلمان العثماني الشاد على عمارة الأغربة ومعه نحواً من ألفي إنسان فكشف السلطان على المراكب وكانت نحواً من عشرين غراباً . وأنزلوا إلى البحر بحضرة السلطان الأغربة التي انتهى العمل منها وقيل إن تكاليف هذه المراكب بما فيها من أسلحة قد بلغت نحواً من أربعماية ألف دينار دفعها السلطان من ماله . وكانت كافة الأغربة مماثلة باستثناء مركب سمي بالغراب الكبير الذي برسم الباش . . . .

ولعل هذا الغراب الكبير هو نوع من الغليون خصص للقيادة(٨٤) . كانت زيارة السلطان للسويس قصيرة ولكنها عجلت في جهوز الأسطول في البحر الأحمر . وعندما عاد السلطان إلى القاهرة، تلقى رسالة من الأمير حسن نائب جدة يستحثه فيها بإرسال تجريدة قبل أن يملك البرتغاليون (الفرنج) سواحل الهند وحتى جدة . وبالفعل عيّن السلطان في الثالث عشر من جمادى الأولى ٩٢٠ / التاسع من تموز ١٥١٤ حملة إلى الهند وفي الرابع من محرّم ٩٢١/ التاسع عشر من شباط ١٠١٥ عرض السلطان الطبقة الخامسة وكتب جميع من فيها إلى الهند ووعد برفع رواتبهم من ألف وخمسماية درهم إلى ألفي درهم « إذا بيضوا وجوههم في هذه السفرة . . فارتفعت الأصوات له بالدعاء »(٨٥) .

---

(٨٣) ابن أياس المصدر السابق ، جزء ٤، ص ٣٣٥.

(٨٤) ابن أياس ، المصدر نفسه ، جزء ٤، ص ٣٦٦، انظر أيضاً :
ماهر . س . ، البحرية في مصر الإسلامية، ص ٣٦٠ .

(٨٥) ابن أياس ، بدائع الزهور ، جزء ٤، ص ٤٤١.

وبعد أن نفق السلطان على العسكر المعين للهند نفقة السفر فأعطى لكل مملوك خمسين ديناراً ، جلس في الميدان في العاشر من رجب ٩٢١/ الواحد والعشرين من آب ١٥١٥ وعرض العسكر وهم باللباس الكامل، فأخلع على الرئيس سلمان العثماني كاملية مخمل أحمر بصمور وقرره باش المراكب المجهزة للهند . وكان عديد هذه الحملة حوالي الستة آلاف إنسان منهم خمسة آلاف وثلاثمائة وأربعة وأربعون بحارة ومقاتلون تراكمة ومغاربة وأربعماية وخمسون من الطبقة الخامسة .

وقد خرج الجميع من القاهرة وتوجهوا إلى الريدانية ومنها إلى السويس للذهاب إلى جدة بالمراكب العشرين التي أنشأها السلطان « وقد أشحنها بالمكاحل والمدافع والبارود وغير ذلك من الزاد بسبب العسكر »[٨٦] .

والجدير بالملاحظة أن هذه الحملة القوية لم يرافقها أي أمير من أمراء الألوف مع أن العديدين منهم كانوا قد عينوا للذهاب والاشتراك في حملات أقل شأناً من هذه الحملة إلى سوريا وقبرص وغيرها[٨٧] . ولعل السبب هو مقت المماليك ركوب البحر خاصة وان طبيعة القتال ضد البرتغاليين هي قتال بحري بحت آثر المماليك ترك زمام القيادة فيه للرئيس سلمان العثماني .

المهم ان أسطول المماليك غادر السويس إلى جدة ومنها إلى جزيرة كمران وجعلوها مركزاً للأسطول ثم توجهوا إلى عدن وأشرفوا على أخذها وبالقرب من ميناء عدن حصلت معركة بحرية غير حاسمة ما بين أسطول المماليك وأسطول البرتغاليين بقيادة الأميرال الفونسو دالبوكرك Alphonso d'Albuquerque[٨٨] وكان هذا الاشتباك من آخر المناوشات ما بين المماليك

(٨٦) ابن أياس ، المصدر نفسه، ص ٤٦٧ .

(٨٧) Ayalon. D., Op. Cit., p. 80.

(٨٨) Depping. G., Op. Cit., Tome II. p. 270.

انظر أيضاً ابن أياس، بدائع الزهور ، جزء ٥، القاهرة، ١٩٦١، ص ٨٣.

والبرتغاليـين ذلك أن الخلاف قد نشب ما بين الأمير حسين نائب جدة والرئيس سلمان العثماني حول أمرة الأسطول وتوزيع الغنائم فافترقا وذهب كل في حال سبيله .

وفي هذه الأثناء كان السلطان الغوري منشغلاً في معركة الحياة أو الموت ضد العثمانيـين في مرج دابق . ولما مات السلطان الغوري فتك الرئيس سلمان بالأمير حسين لما كان بينهما من عداوة ، ويقال إنه هـو الذي أغـرق المراكب بحسين نائب جدة(٨٩) . وقد استغل البـرتغاليـون انشغال الممـاليك بـالزحف العثمـاني وموت الأميـر حسين فتقدمـوا باتجـاه جدة غيـر أن الـرئيس سلمـان العثماني اعترض تقدمهم بما بقي لديه من مراكب ودفعهم خارج البحر الأحمر إلى المحيط الهندي الذي أصبح كلياً تحت سيطرتهم(٩٠) .

وبعد هذه الحادثة لم يعد يسمع أي ذكر لأسطول الممـاليك في البحـر الأحمـر حتى دخول العثمـانيـين إلى مصر . والـواقع أن استعـدادات الغوري البحرية في جبهة السويس لم تضع حداً لسيطرة البرتغاليـين وكان من نتيجة هذا الصراع أن تأثرت التجارة إلى حد بعيد ما بين الهند وسلطنة المماليك .

ففي جدة خفت حركة التجارة مما أدى إلى تدني كمية ونوعية البضائـع الواصلة إلى الثغور المصرية والشامية مما اضطر التجار الأوروبيون إلى هجرها إلى أسواق لشبونة (٩١) . وقد ذكر ديبنغ Depping أن الركود قد أصاب تجارة الشرق حتى أن التوابل القادمة من الهند إلى ديار السلطنة كانت تكفي بالكـاد الاستهلاك المحلي وكانت أسعارها مرتفعة كما هي الحال في أوروبا(٩٢) .

---

(٨٩) ابن أياس ، المصدر نفسه ، جزء ٥، ص ٢٠٣ .
(٩٠) ماهر . س. ، البحرية في مصر الإسلامية. ص ١٣٢ - ١٣٣ .
(٩١) دراج . أ ، المماليك والفرنج ، ص ١٥٥ - ١٥٦ .
(٩٢) Depping. G., Histoire du Commerce entre le Levant et L'Europe. Tome II, p. 270.

المراكب التجارية :

لم نفرد في بحثنا عن أسطول المماليك باباً خاصاً حول المراكب التجارية والسبب يعود إلى أن المراكب الحربية والمراكب التجارية في الفترة التي تهمنا كانت تعمر بنفس الطريقة وبنفس المواد إلاَّ أن المراكب الحربية كانت تتميز عن المراكب التجارية بكبرها أحياناً لتستوعب عدداً أكبر من المقاتلين أو بسرعتها أحياناً أخرى لتتمكن من مطاردة واعتراض المراكب العدوة أو بأسلحتها في غالب الأحيان التي كانت تشمل المكاحل (المدافع) وآلات النفط وغيرها .

وكان من الصعوبة التمييز بين المراكب الحربية والمراكب التجارية الكبيرة. وكان كل مركب يشمل على ساحة قتال في المقدمة وأحياناً على ساحتين للقتال في المقدمة والمؤخرة. وكان لكل مركب برج (Forecastle) لتسهيل قيادة المركب والإشراف على مناورته . وهذا المفهوم Concept لبناء وشكل المراكب كان عاماً وموحداً في البحر المتوسط والبحر الأحمر والمحيط الهندي . وبالإضافة إلى ذلك كانت السفن التجارية الكبيرة ذات الحمولة الغالية تزود بالمقاتلين والأسلحة لحماية نفسها ضد خطر القرصان ومفاجآت البحر . وخير دليل على ذلك المراكب التجارية الكبيرة خاصة السلطان الغوري التي نهبها وأغرقها دي غاما في المحيط الهندي بالقرب من سواحل المالابار سنة ١٥٠٣ وكانت مجهزة بالأسلحة الحربية وعليها حمولة كبيرة من الفلفل والزنجبيل والقرفة وغيرها من البضائع الثمينة[٩٣] .

كما كانت المراكب التجارية وحتى المراكب النيلية الصغيرة تستعمل في الأغراض الحربية ، ففي غزوة قبرص استخدم السلطان برسباي الزوارق النيلية

---

(٩٣) Thenaud . J. Le Voyage d'Outremer (Egypte, Mont Sinay, Palestine), publié et annoté par Ch. Schefer, Paris, MD CCC LXXXIV, p. XL VII, n. 2.

لنقل جنوده إلى الجزيرة[٩٤] . وفي البحر الأحمر ذكر ابن تغري بردي أن تمراز البكتمري المؤيدي المصارع شادبنـدر جدة لمّا عصى أمر السلطان جقمق سنة ٨٥٤/ ١٤٥٠ سرق ما تحصّل لديه من أموال واشترى مركباً مروساً بألف دينار وأشحنها بالسلاح والرجال وسافر منها إلى جهـة اليمن ومنها إلى الهنـد لشراء الفلفل[٩٥] . ولعلَّ هذه المركب المروسة هي أشبه بالشيني Galère المشهور بطوله الذي كان يحمل حوالي المئة وخمسين رجلاً ويجـذف بمئة مجـذاف ، ولذلك فقد استعمل الأمير تمراز مركبه المروسة كمركب حربي وتجـاري على السواء .

كما ذكر ابن تغري بردي أنه لدى خروج الغزاة من ثغر دمياط إلى قبرص في ذي القعـدة سنة ٨٢٨/ أيلول ١٤٢٥ ، « تبعهم خـلائق من المطوعـة في سلورة »[٩٦] . والسلورة هي نـوع من المراكب متـوسطة الحجم تستعمـل في الحرب والسلم على السواء ولها ثلاثة أشرعة وتحتوي عادة على أربعين مجذافاً وهي سريعة الحركة[٩٧] . ولما كانت أشكال السفن متشابهـة إلى حد مـا فقد كان من الصعب التمييـز ما بين السفن الحربية والتجارية بالإضافة إلى أن طراز السفن كان واحداً في العصر الواحد وفي حقبة معينة .

ولمـا كانت سلطنـة المماليـك في الفتـرة التي تهمنـا تـطل على البحـر المتوسط وعلى البحر الأحمر وكانت لها أساطيل بحرية في كليهما ، فقد كانت دور صناعتها تقوم بإعداد سفن خاصة لكل منهما وإن كان هناك اختلاف هام في طريقة بناء مراكب البحر المتوسط ومراكب البحر الأحمر .

---

(٩٤) Dopp. p. -H, L'Egypte au commencement du Quinzième Siècle d'après le Traité d'Emmanuel Piloti de Crète, p. 109.

(٩٥) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقـاهرة ، القـاهرة ١٩٧١ ، جـزء ١٥ ، ص ٤٢٦ .

(٩٦) ابن تغري بردي ، المصدر نفسه ، القاهرة ١٩٦٣ ، جزء ١٤ ، ص ٢٦٩ .

(٩٧) انظر ، ماهر . س . ، البحرية في مصر الإسلامية ، ص ٣٤٧ .

فمراكب المتوسط كانت تسمى المراكب المسمارية وكانت كبيرة وتعمّر بالخشب والحديد . أما مراكب البحر الأحمر فكانت تعمر بخشب الساج (Teak) وخشب جوز الهند دون اللجوء إلى استعمال المسامير وذلك بربط وخياطة أجزائها بعضاً إلى بعض . ولعل سبب طريقة الربط والخياطة يعود إلى سهولة الحصول على مواد الربط والخياطة في تلك الجهات حيث يتعذر الحصول على الحديد والبرونز لصنع المسامير . والواقع أن طريقة الربط والخياطة قد استمرت في البحر الأحمر لعدة قرون بعد أن انتشر استعمال المسامير في العالم. والسبب يعود إلى حاجة مراكب البحر الأحمر إلى أنواع خاصة من الخشب يمتاز بصلابته إلى جانب مرونته حتى يستطيع مقاومة وتحمل العوامل والتأثيرات الجوية والبحرية القاسية ، فابن بطوطة تحدث عن صعوبة السفر إلى البحر الأحمر فقال : « وهذا البحر لا يسافر فيه بالليل لكثرة أحجاره وإنما يسافرون فيه من طلوع الشمس إلى غروبها ويرسون وينزلون إلى البر فإذا كان الصباح صعدوا المركب وهم يسمون رئيس المركب الربان ولا يزال أبداً في مقدم المركب ينبه صاحب السكان على الأحجار وهم يسمونها النبات »[٩٨] .

ولذا كانت ألواح الهياكل تصنع من خشب الساج وخشب جوز الهند كما كانت سفن البحر الأحمر تخاط بحبال الليف وهي في غالبها من صنع أهل عيذاب ملفقة الإنشاء ولا يستعملون فيها المسامير[٩٩] .

---

(٩٨) ابن بطوطة ، تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، باريس ١٨٧٤ ، جزء ٢ ، ص ١٦٢ - ١٦٣ وعن البحر الأحمر (بحر القلزم) قال ابن ماجد إنه « أوسخ بحور الدنيا وسلكه الناس أكثر من بحور جميع الدنيا لأجل البيت العتيق وزيارة النبي ﷺ ولأجل المعاش والمراح والمجيء بالطعام ». انظر :

ابن ماجد، كتاب الفوائد ، باريس ١٩٢١ - ١٩٢٣ ص r 87

(٩٩) ماهر. س. ، المصدر السابق ، ص ١٩٢ - ١٩٣ .

Hourani. G. F., Arab Seafaring in the Indian Ocean in Ancient and Early Medieval Times. Beirut. 1963, p.92r

وقـد علل ابن جبير أن الغـاية من صنـع المراكب الملفقـة الإنشاء التي لا يستعمل فيها المسمار البتة في البحر الأحمر والمخيـطة بأمـراس من القنبار وهو قش جوز النارجيل والمدهونة بدهن القرش هي لجعلها أكثر طراوة وليـونة بسبب كثرة الشعاب المرجانية في هذا البحـر : « ومقصدهم في دهـان الجلبة ليلين عودها ويرطب لكثرة الشعاب المعترضة في هذا البحر ولذلك لا يصرفون فيه المركب المسماري »(١٠٠) .

وقد اختلف الرحالة والمؤرخون في الأسباب التي من أجلهـا استعملت الخيوط والألياف في بناء وشد مراكب البحر الأحمر والمحيط الهندي بـدلاً من المسامير . وقد ناقش هذه الأسباب المؤرخ ج . ف . حوراني فذكر أن امتناع الناس عن استعمال المراكب المسمارية يعود إلى أسـطورة قديمـة مفادهـا أن هنـاك جبـالاً من مغنـاطيس في البحـر تجـذب السفن المثبتـة بـالحـديـد إلى حتفها(١٠١) .

---

(١٠٠) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ليدن، ١٨٥٢، ص ٦٨ .
أما الادريسي في نزهة المشتاق فقد كان أكثر شمولاً في حديثه عن صناعة المراكب الخشبية وكيف تدهن بدهن السمك فقال :
« وكل ما في بحر الهند والصين من المراكب السفريـة صغاراً كـانت أو كباراً فـإنها منشأة من الخشب المحكم نجره وقد حمل أطراف بعضه على بعض وهنـدم وخرز بالليف وجلفط بالدقيق وشحم البابة والبابة دابة كبيرة تكون في بحـر الهند والصين منها يكون طوله نحواً من مائة ذراع في عرض عشرين ذراع ينبت على سنام ظهرها حجـارة صدفيـة وربما تعـرضت للمراكب فكسـرتها وحكي أيضـاً الـربـانيـون أنهم يرشقونها بالسهام فتتنحى عن طريقهم وذكروا أيضاً يتصيدون ما صغر منها فيطبخونها في القدور فيذوب جميع لحمها ويعود شحماً مذاباً وهذا الدهن مشهور ببلاد اليمن في عدن وغيرها من المدن الساحلية وفي بلاد فارس وسـاحل عـمـان وبحر الهنـد والصين وهو عدتهم في سد خروق المراكب بعد خرزها» انظر :
الادريسي ، كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، روما ١٩٥٥ ص ٩٤ .

(١٠١) Hourani. G. F., Arab Seafaring, p. 95.

وقد ذكر القزويني أن السبب هو خوف الملاحين من جبال المغناطيس وهي جبال كثيرة قد علا الماء عليها ، فلهذا « المراكب المستعملة في هذا البحر لا يجعل فيها شيء من الحديد خوفاً من أن يجذبها المغناطيس »(١٠٢) . وأضاف حوراني أن بعض الرحالة والمؤرخين قد عزا عدم استعمال المسامير بسبب شدة ملوحة البحر الأحمر كالمسعودي الذي قال : « إن استعمال الخيوط بدلاً من المسامير في تثبيت الألواح لا يكون إلاّ في البحر الحبشي ، لأن مراكب البحر الرومي والعرب ، كلها ذوات مسامير ، ومراكب الحبشي لا يثبت فيها مسامير الحديد لأن ماء البحر يذيب الحديد فترق المسامير في البحر فتضعف ، فاتخذ أهلها الخياطة بالليف بدلاً منها وطليت بالشحم والنورة »(١٠٣) . وذكر حوراني أيضاً ، استناداً إلى المسعودي وابن بطوطة وابن جبير أن الهياكل المخيطة تكون مرنة ، فإذا اصطدمت بالشعاب المرجانية في البحر الأحمر أو غيره كانت أقل تعرضاً للكسر من المراكب المسمارية . كما أنها تستطيع الرسو على الشواطىء الرملية في سواحل المالابار في الهند وغيرها(١٠٤) . وأضاف إن السبب الحقيقي لاستمرار تعمير المراكب المخيطة يعود للتكاليف المرتفعة في بناء المراكب المسمارية وإلى تمرس وحذق أهل البحر الأحمر في بناء هذا النوع من المراكب فحافظوا على عادتهم على مدى الأجيال(١٠٥) . ونحن نضيف أنه كان من الصعب عليهم التخلي بسرعة عما ورثوه من صناعة عن آبائهم وأجدادهم. غير أن وصول البرتغاليين إلى المحيط الهندي والبحر الأحمر أدى إلى إحداث تغيير كبير في نوعية المراكب

---

(١٠٢) القزويني ، عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ، بيروت ١٩٧٨ ، ص ١٧١ .

(١٠٣) المسعودي ، مروج الذهب ، طبعة باريس ١٨٦١ ـ ١٨٧٦ ، جزء ٢، ص ٣٦٥ .

(١٠٤) Hourani, G.F., Arab Seafaring, p. 96.

ماهر. س . ، البحرية في مصر الإسلامية ، ص ١٩٦ .

(١٠٥) Hourani, G.F., **Op. Cit, p. 97.**

المستعملة في هذا المحيط فبدأت صناعة المراكب المخيطة تتقهقر لصالح صناعة المراكب المسمارية التي كانت كبيرة الحجم نصف تجارية ونصف عسكرية لتأمين الحماية الذاتية لنفسها إذا لم تواكبها وحدة من وحدات الأسطول . وبالإضافة إلى تهديد البرتغاليين كانت هناك الصعوبات الكثيرة والناجمة عن مشقات السفر بالبحر . فالمراكب كانت تكتظ بالمسافرين وتضطر إلى التوقف لفترات طويلة في المرافيء الحارة والرطبة حيث تكون تحت رحمة الحكام الذين يطالبون بالمكوس والضرائب التي لا تعرف حداً هذا إذا لم يعمدوا إلى التحفظ على حمولة المراكب لدفع ضرائب إضافية .

علاوة على ذلك كانت العواصف والشعاب والمياه الضحلة في البحر الأحمر والمحيط الهندي أخطاراً دائمة للمسافرين والبحارة على السواء وكان الجميع على غوارب الأمواج الصاخبة وكأنهم « دود على عود » .

ولا يغربنّ عن بالنا ما كان يسببه القراصنة من مهالك للمسافرين والتجار ، فهم بمراكبهم ذات المجاذيف كان بإمكانهم اللحاق بأي مركب شراعي واعتراضه في بحر هادىء ورياح خفيفة ولذلك كان يعمد ربابنة المراكب التجارية إلى اللجوء على أخذ على متن سفنهم مقاتلين يحسنون إطلاق النار والرمي بالنشاب . وفي أحيان قليلة ونادرة كانت السفن التجارية تنعم بالأمان في الأماكن المحمية من قبل بحرية حاكم ما كرّس جهده لتأمين وحماية سبل النقل البحري[١٠٦] .

ولهذا السبب كان للمماليك مراكب مسمارية في البحر الأحمر ، ففي المرحلة الأولى كانوا يفصلون هذه المراكب في الثغور المصرية المطلة على البحر المتوسط ثم ينقلونها براً على ظهور الجمال إلى البحر الأحمر حيث يجمعونها ويسمرونها . وفي ذلك يقول ابن الأثير : « إنهم من عادتهم إذا رأوا الغزو في هذا البحر (الأحمر) يفصلون أجزاء السفن في دور الصناعة في مصر

(١٠٦) Hourani, G.F., **Op. Cit.**, p. 113.

ويحملونها على الجمال إلى الطور إلى ساحل بحر القلزم فإذا سمروها وأكملوا إنشاءها وتأليفها ورفعوها في البحر وركبوها »[١٠٧] .

وقد أكّد ابن أياس وجود المراكب المسمارية في البحر الأحمر عندما تحدث عن غرق مراكب مسمارية كبيرة كانت مخصصة لنقل القمح إلى جدة ومنها إلى مكة المكرمة فقال : « وفي هذا الشهر (شعبان ٩١٢/ كانون الأول ١٥٠٦) جاءت الأخبار من الطور بأن قد غرقت مراكب مسماري كبار فيها قمح للدشيشة التي رتبها الأشرف قايتباي إلى المدينة الشريفة ، وكان في تلك المراكب أصناف بضائع بنحو عشرة آلاف دينار للأتابكي ، فغرق جميعه ، وغرق فيها ما لا يحصى من رجال ونساء وصغار عند بركة غرندل ، فشق ذلك على الناس ولا سيما أهل المدينة الشريفة فإن كان بها الغلاء الشديد »[١٠٨] .

وقد ذكر ابن أياس أن السلطان الغوري قد عمر في شهر محرم ٩١٩/ آذار ١٥١٣ في بولاق مركباً على صفة المركب القديم المسماة بالذهبية فلما فرغ العمل منها أمر أن تزين بالصناجق ووضعوا فيها الطبول والزمور والنفوط[١٠٩] .

والذهبية من المراكب المسمارية كان يستعملها المماليك في نقل القمح وغيره في السويس إلى جدة وربما تعدت البحر الأحمر إلى غيره وهي مركب متوسط حمولته ما بين مئة وأربعمائة طن وله صاريان وأشرعة على شكل شبه منحرف ومن خصائصه أن مؤخرته أعلى وأعرض من مقدمته وكانت جوانبه تزين بالرسوم والنقوش ، ثم بطل استعماله في البحر الأحمر[١١٠] .

وفي المرحلة الثانية عمد المماليك إلى تعمير المراكب المسمارية الكبيرة

---

(١٠٧) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، القاهرة سنة ١٣٠٣ هـ/ ١٨٨٥ م، ص ١٣٩ .
(١٠٨) ابن أياس ، بدائع الزهور ، الجزء الرابع ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ٩٩.
(١٠٩) ابن أياس ، المصدر نفسه ، الجزء الرابع ، ص ٢٩٨ .
(١١٠) ماهر . س . ، البحرية في مصر الإسلامية ، ص ٣٤٣.

خاصة الحربية منها في السويس وغيرها وأرسلوا لذلك البنائين والصناعيين المهرة عندما اشتد خطر البرتغاليين فغدت بوصول مراكبهم الكبيرة galleons ، مياه وشواطىء المحيط الهندي والبحر الأحمر غير آمنة ولم يكن بإمكان أية قوة بحرية في ذلك الوقت إبعاد خطرهم لتأمين سلامة التجارة باعتبار أن المدفعية البرتغالية البعيدة المدى لم تكن تقوى على مجابهتها أية أسلحة معروفة من مكاحل ومجانيق وحراقات وغيرها .

ولا بد من التساؤل هنا كيف كانت مواقيت أسفار البحارة المسلمين ؟

في هذا المجال ذكر المسعودي أن فصل الإبحار الذي كان يسافر فيه المسلمون إلى الجزء الغربي من المحيط الهندي هو عندما تكون الشمس في برج الجوزاء أي في النصف الثاني من شهر تشرين الثاني والنصف الأول من شهر كانون الأول ونادراً ما سافر أي مركب في شهر حزيران .

وكانت المسافة ما بين عدن أو مسقط وكانتون تقطع في مرحلة مئة وعشرين يوماً زيادة عن فترات التوقف وكانت الرحلة تستغرق ستة أشهر أو أكثر للذهاب بما فيها فترات التوقف أثناء الطريق . وبعد تحميل الفلفل والتوابل والحرير والمسك والكافور وقضاء الصيف في كانتون كانت المراكب تعود ما بين شهر تشرين الأول وشهر كانون الأول مستفيدة من الرياح الموسمية Mansoon الشمالية الشرقية لتنهي سفرتها بسلام صيفاً في عدن أو أحد مرافىء البحر الأحمر . وهكذا كانت الرحلة بأكملها تستغرق حوالي السنة والنصف في الذهاب والإياب . وكان من عادة البحارة قضاء الصيف في ديارهم قبل استئناف الرحلة التالية(١١١) .

---

(١١١) المسعودي ، مروج الذهب ، جزء ١ ، طبعة باريس ١٨٦١ ، ص ٣٢٥ ـ ٣٢٧.
Hourani, G.F., **Op. Cit.** pp. 74 - 75.

أما ابن ماجد فقد ذكر في كتاب الفوائد (الفايدة الحادية عشرة في المواسم) أما السفر لا يصح إلا في مواسم معينة وهذه المواسم مرتبطة ارتباطاً « وثيقاً » ببداية =

ولا بد من الإشارة هنا إلى المراكب التجارية القادمة من الشرق خاصة من الصين إلى الثغور الإسلامية في البحر الأحمر وغيره . وكان الجغرافيون والرحالة العرب يطلقون اسم مراكب الصين وسفن صينية ليس على المراكب القادمة من الصين وإنما على المراكب الإسلامية التي كانت تُعنى بتجارة الصين(١١٢) .

= ونهاية الرياح الغالبة في البحر الأحمر والمحيط الهندي وبحر الصين كريح الدبور والسماك والصبا والكوس وغيرها وهي ما يعرف بالرياح الموسمية mansoon وقد ارتكز ابن ماجد في تحديد مواسم السفر بدقة استناداً إلى النيروز (بداية فصل الربيع) نظراً لثبات توارد مواقيت هبوب الرياح بالنسبة لتاريخ هذا العيد . وقد نعت ابن ماجد السفر بالبحر الأحمر والمحيط الهندي بالتتويه نظراً لصعوبة السفر بهما إلى حد قد يتوه المرء قبل أن يصل إلى مبتغاه .

فعن مواسم السفر (ص 71 r - 72 r) قال :
«فيجب أن نذكر مواسم السفري الذي لا يستوي السفر إلا بهما لأن فوات المواسم وتقديمه وتأخيره داع إلى ما لا خير فيه .
أولاً نبدأ بالخروج من بر العرب اعني اليمن وجدة وما يليها مثل باب المندم وبر الزيالع والتهايم وما يتعلق بهم في أيام مبتدأ السماك وكلهم يتعلقون ببعضهم البعض وموسمهم في الأصل في البحر الكبير واحد يخرجون في أول ريح الدبور وفي آخره في مائة وسبعين وتلك الأماكن وفي أول الجايات الخالصة إلى هراميز وقلهات وأطرافها وقد يخالف عليهم الريح في بعض الأحيان فعندهم نفيس في المواسم لمن يجاري البر الهراميز وأما الهند فلا وأما الذي يخرج في أول المائتين لبر قلهات وهراميز فهو ناج .
وأما خير الخروج من باب المندم وما يليه مثل الحديدة وعدن في أول ما به وثمانين النيروز وأما صاحب مليبار وكنكن إن خرج غلق عليه بر الهند وكثرت أمطاره وصلبت أرباحه » وعن مدة السفر إلى الهند فقد ذكر ابن ماجد (ص 72 v) :
« وكان طالب الهند أو هرمز وقلهات والسند كانت تتويهته أربعة أشهر فقط :
وأما الذي يتوه في اليمن يمكث سنة كاملة إذا أراد الهند وإن كان هرموزي يمكث في اليمن سبعة أشهر » .

(١١٢) المسعودي، مروج الذهب، جزء ١، ص ٢١٦، في حديثه عن مصب نهر الفرات =

وقد وصف ابن بطوطة مراكب الصين القادمة إلى الغرب فقال : « مراكب الصين ثلاثة أصناف الكبار منها تسمى (الجنوك) واحدها (جنك) والمتوسطة تسمى « الزو » والصغار يسمى أحدها (الككم) . ويكون في المراكب الكبيرة منها اثنا عشر قلعاً ، فما دونها إلى ثلاث . وقلعها من قضبان الخيزران منسوجة كالحصر ، لا تَحِطُّ أبداً ويديرونها بحسب دوران الريح . وإذا أرسوا تركوها واقفة في مهب الريح . ويخدم في المركب منها ألف رجل منهم البحرية ستماية ، ومنهم أربعماية من المقاتلة تكون فيهم الرماة وأصحاب الدرق ، والذين يرمون النفط ، . . . ولا تصنع هذه المراكب إلاَّ بمدينة الزيتون من الصين أو بصين كلان ، وهي صين الصين . . . مجاذيفهم وهي كبار كالصواري ، يجتمع على أحدها العشرة والخمسة عشر رجلاً ، يجدفون وقوفاً على أقدامهم ، ويجعلون للمركب أربعة ظهور . . . والبحرية يسكنون فيها أولادهم ويزرعون الخضر والبقول والزنجبيل في أحواض خشب . ووكيل المركب كأنه أمير كبير . . . ومن أهل الصين من تكون له المراكب الكثيرة ، يبعث بها وكلاءه إلى البلاد وليس في الدنيا أكثر أموالاً من أهل الصين »[١١٣] .

والحديث عن مراكب الصين يستدعي الحديث بالاجمال عن المراكب القادمة من الشرق فقد كانت هذه المراكب تأتي إلى عدن التي كانت تعتبر حتى أوائل القرن الخامس عشر الميناء الرئيسية التي ترد إليها البضائع الشرقية المارة إلى مصر . غير أن سوء معاملة آل رسول باليمن (٦٢٦ - ٨٥٠ هـ/ ١٢٢٩ - ١٤٤٦) ومكوسهم الباهظة صرفت قادة السفن تدريجياً عن النزول في عدن

= قال : « وكان يقدم هنالك سفن الصين والهند ترد إلى ملوك أخيرة ».

Hourani, G.F., Op. Cit., p. 75.

(١١٣) ابن بطوطة ، تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، طبعة باريس ١٨٧٤ ، جزء ٤، ص ٩١ - ٩٤ . انظر أيضاً : ماهر . س ، البحرية في مصر الإسلامية ، ص ١٩٨ - ١٩٩ .

وتوجهوا بسفنهم إلى جدة. وبعد تدخل السلطان برسباي وإصداره الأمر بحسن معاملة التجار بدأت ميناء جدة تزدهر وازداد عدد السفن التي تفرغ بضائعها فيها من أربع عشرة سفينة في سنة ١٤٢٥ إلى ٨٠ سفينة في السنة التالية . وأصبحت جدة مستودعاً للتجارة الشرقية(١١٤) . وقد عمد السلطان جقمق سنة ٨٤٣/ ١٤٣٩ إلى تنظيم الأمور في ميناء جدة وقضى في معاملة التجار الواردين إليها على أساس شرعي وعلى مقتضى فتاوى أهل العلم(١١٥) .

القواعد البحرية :

وفي نهاية حديثنا عن أسطول المماليك لا بد لنا من قول كلمة موجزة حول القواعد البحرية ونبدأ بالحديث عن قواعد البحر الأحمر .

لم يكن البحر الأحمر مسرحاً هاماً للعمليات البحرية بالنسبة للسلطات المملوكية حتى مجيء البرتغاليين إلى المحيط الهندي وتعديهم على المراكب التجارية الإسلامية . وكانت القلزم في البداية نقطة تجمع البضائع الواصلة من

---

(١١٤) Dopp. P.- H, L'Egypte au Commencement du Quinzième Siècle d'après le traité d'Emmauel Piloti de Crète. P. 42. N.1.

عن هذه الحوادث وقدوم زنوك الصين قال ابن تغري بردي : « ثم في ثاني عشرين شوال هذا (١٢/٩٣٦ حزيران ١٤٣٣) قدم الخبر من مكة المشرفة بأن عدة زنوك قدمت من الصين إلى سواحل الهند ، وأرسي منها اثنان بساحل عدن ، فلم تنفق بها بضائعهم من الصيني والحرير والمسك وغير ذلك لاختلال حال اليمن ، فكتب كبير هذين المركبين الزنكيين إلى الشريف بركات بن حسن بن عجلان أمير مكة وإلى سعد الدين إبراهيم بن مرة ناظر جدة يستأذن في قدومهم إلى جدة ، فكتبا إلى السلطان في ذلك ورغباه في كثرة ما يتحصل في قدومهم من مال ، فكتب لهم السلطان بالقدوم إلى جدة وإكرامهم » .

انظر : ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، جزء ١٤ ، ص ٣٦٢.

(١١٥) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، جزء ١٥ ، ص ٨٤٣.

طرخان. أ. مصر في عصر دولة المماليك الشراكسة (١٣٩٢ ـ ١٥١٧) القاهرة ، ٩٦٠ مكتبة النهضة المصرية ٢٨٦ ـ ٢٩٠ .

البحر الأحمر إلى القاهرة وكانت تتواجد فيها بعض مراكب الحراسة لحماية السفن التجارية .

غير أن السويس حلت محل القلزم منذ القرن الثاني عشر ، وتصلها المراكب التجارية الصغيرة من ميناء جدة وعدن محملة بالتوابل والعطور والعقاقير والأحجار الكريمة والعنبر والمسك ثم تحمل على ظهور الجمال عبر الصحراء إلى القاهرة ومنها عبر النيل إلى الإسكندرية . على أن هذا الميناء التجاري لم يلبث أن هجر وأصبح قاعدة حربية للمماليك على البحر الأحمر وعمرت فيه المراكب الحربية بفضل همة السلطان الغوري الذي نقل إليه الأخشاب والبنائين والصناع والأسلحة من أجل بناء أسطول قوي قوامه ٢٠ غراباً بهدف إبعاد خطر البرتغاليين عن البحر الأحمر والمحيط الهندي(١١٦) .

أما جدة فقد أصبحت في النصف الثاني من القرن الخامس عشر محط رحال سفن الهند والصين وكانت مركز تجمع أسطول المماليك قبل القيام بالحملات البحرية ضد البرتغاليين خاصة تلك التي كانت بقيادة الأمير حسن نائب جدة أيام السلطان الغوري(١١٧) . والحقيقة أن جدة كانت مرفأ تجارياً بحتاً ولم تكن قاعدة بحرية. والمرة الوحيدة التي شوهدت فيها مراكب حربية كانت خلال عهد السلطان برسباي . فقد ذكر بيلوتي Pilotti أنه شاهد في البحر الأحمر مركبين حربيين (Galiottes) لكل واحد منهما عشرون مجذاف كان السلطان برسباي أرسلها من القاهرة مفككة على ظهور الجمال وتم جمعها وتركيبها في جدة من قبل بنائين أرسلوا من مصر . وقد قام هذان المركبان بالابحار إلى عدن وإجبار ملكها ناصر أحمد (١٤٠٠ - ١٤٢٦) برفع التدابير

---

(١١٦) ابن أياس ، بدائع الزهور ، جزء ٤ ، ص ٤٦٧ .

Thenaud. J., Le Voyage d'Outremer, p. 63 n. 1;

فهمي . ن . ز، طرق التجارة الدولية ومحطاتها ، ص ١٣٤ .

(١١٧) ابن أياس ، المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ٤٤١ ، ص ٤٦٧ .

التعسفية التي فرضها على مراكب التوابل والبهار القاصدة جدة[١١٨] .

أما على البحر المتوسط فكان بولاق ميناء القاهرة على النيل هو مركز تجمع المراكب الحربية لعرضها على السلطان فور الانتهاء من تعميرها ولم تكن بولاق قاعدة بحرية بل كانت تجلب إليها المراكب قبل القيام بالغزوات والتجاريد لتمر أمام السلطان وتقوم ببعض التمارين والمناورات الحربية وكانت المراكب تدخل بكثرة إلى بولاق محملة بالسلع والمتاجر من الشرق والغرب ، فتصله السلع من الإسكندرية طريق فرع رشيد . ومن موانىء الشام وتركيا طريق فرع دمياط ، ومن الجنوب سلع الحبشة والنوبة ، وأحياناً البحر الأحمر عن طريق النيل وموانيه الجنوبية . وبالميناء مخازن ومتاجر ووكالات واسعة ، كما يوجد بها رجال السلطة وعمال الجمارك بصفة دائمة لتحصيل الرسوم المستحقة على التجار[١١٩] .

أما ميناء الإسكندرية فكان واجهة مصر على المتوسط وصلة الوصل مع أوروبا عامة وإيطاليا خاصة . والمدينة تزدحم طوال العام بالأجانب الوافدين إليها للتجارة أو للعبور للحج للأماكن المقدسة في سيناء وفلسطين ، ولدول أوروبا والبحر المتوسط بالمدينة قناصل وسفراء ووكالات وفنادق يمارسون فيها حياتهم الخاصة في حرية . وشهدت المدينة أروع أيامها في النصف الثاني من القرن الخامس عشر وخاصة بعد سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣ وتحول طرق التجارة العالمية إليها .

---

(١١٨) Dopp. P.- H. L'Egypte au Commencement du Quinzième siècle, pp. 42-43

(١١٩) ذكر هارف Harff انه لدى وصوله إلى ميناء بولاق في القاهرة تظاهر بأنه تاجر فدفع دوكات عدد اثنين عوضاً عن الخمس دوكات المفروضة على كل حاج للأراضي المقدسة .

Harff. A.V., The Pilgrimage of Arnold Von Harff. in the Hakluyt Society, = Second Series, No. XCIV. 1946., p. 101;

وقد تحدث أرنولد فون هارف عن مرفأ الإسكندرية لدى زيارته لمصر (١٤٩٦) فقال إنه مرفأ واسع جداً وتحدث عن برج الإسكندرية العظيم الذي بناه السلطان قايتباي وذكر أنه لدى مرور المركب البندقي الذي ينقله بالقرب من البرج أنزل الشراع الأكبر احتراماً للبرج ولما يمثّل وتبادل المركب والبرج التحية عن طريق إطلاق عدد من طلقات المدافع . وفي مرفأ الإسكندرية لم يسمح لأحد من ركاب السفينة التي تحمل هارف بمغادرتها باستثناء الربان والترجمان قبل الحصول على إذن المرور من نائب الإسكندرية وكان على كل تاجر أن يدفع دوكات اثنين كرسم مرور وكان على هارف أن يدفع خمس دوكات كحاج يرغب في زيارة الأراضي المقدسة ولكنه ادعى أنه تاجر واكتفى بدفع دوكات اثنين فقط وكانت هذه الخطوة على جانب كبير من الخطورة . وأضاف هارف أن نائب الإسكندرية كان يرسل مندوباً منه إلى المركب ومعه قفص فيه حمام زاجل فيسأل عن هوية الركاب ومقصدهم والبضاعة التي ينقلونها وكان المندوب يكتب كل هذه التفاصيل على ورقة ويضعها تحت جناح حمامة ويطلقها فتطير رأساً إلى قصر النائب فتعلمه بالخبر اليقين(١٢١) .

وقد ورد في كتاب تينو Thenaud (Voyage d'outremer) وصف مسهب للإسكندرية وذكر أن للإسكندرية ستة أبواب غير أن ما يهمنا الباب التي تؤدي إلى الميناء الواقعة قرب البرج الكبير والمعروفة بمرسى البرج . وفي هذه الميناء ترسو المراكب الكبيرة ذات الحمولة العظيمة كمراكب البنادقة والجنويين وتجار راجوزا Ragusa وغيرهم .

والباب الأخرى تؤدي إلى الميناء الثانية المسماة مرسى السلسلة وفيها تتجمع المراكب الوافدة من شمال إفريقيا . وكان النصارى يدفعون عشرة بالمئة

= فهمي . ن . ز، طرق التجارة الدولية ومحطاتها ، ص ١٢٨ .

(١٢١) Harff. A.V., The Pilgrimage of... pp. 92 - 93.

كمكـوس عن بضـائعهم في حين كـان المسلمـون يـدفعـون خمسـة بـالمئـة فقط[١٢٢] .

والغاية من وجود مراكب الإفرنج بالقرب من البـرج حتى تسهل مراقبتهم ومنعهم من الخروج عند الضرورة وذلك بإطلاق المـدافع عليهم من البـرج . وكان أسطول المماليك يجمع ويحفظ في ثغر الإسكندرية قبل الغزو وبعده كما حصل بعد حملة قبرص حين أمر السلطان بأخذ جميـع المراكب الحـربية إلى الإسكنـدرية لتحفظ بهـا خوفـاً من ردة فعل الإفـرنج[١٢٣] . وإلى الشـرق من الإسكندرية وعلى بعد ثمانية أميال يقع ميناء أبو قير بالقرب من بحيرة المعدّية وكان يستقبل المراكب القادمة من سوريا والقاصدة الإسكندرية وكان مرفأ غيـر مأمون[١٢٤] .

أما ميناء رشيد أو (Rosetto) كما يسميه الإيطاليون فيبعد عن البحر ثلاثة أميال ويقع على الفرع الغربي لنهر النيل في القسم المسمى الريف . ومن بلدة رشيد ينتقل المسافرون إلى ميناء الفوة جنوبه ومنها عبر النيل إلى القاهرة[١٢٥] . وكانت سلطات المماليك تحرم دخوله من جهة البحر المتوسط لصفته الحربية وسبب ذلـك مخافـة السلطات المملوكية أولاً أن يتمكن الفـرنـج بعـد دراسـة مجاري النهر من النجاح بإدخـال أساطيلهم الحـربية والصعـود عبر النيـل إلى القاهرة ، وثانياً كان ميناء رشيد القاعدة البحرية الرئيسية لأسطول المماليك على المتوسط وكذلك كان دخول وخروج المراكب الأجنبية غيـر مستحب بتاتـاً لما يشكل ذلك من تهديد وإزعاج للأسطول . ولذا فقد رغب سلاطين الممـاليك

---

(١٢٢) Thenaud., J., Voyage d'Outremer, P. 24, n. 2.

(١٢٣) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جزء ١٤ ، ص ٢٧٩ .

(١٢٤) Thenaud. J., **Op. Cit.**, p. 28 N. 2.

(١٢٥) Harff. A.V., **Op. Cit.**, pp. 96 - 97.

إبعاد ميناء رشيد الحربي عن كل ما يثير الشكوك . ونتيجة لذلك كان يتوجب على التجار والمسافرين الأوروبيين القدوم من الإسكندرية إلى رشيد براً(١٢٦) . وقد ذكر ابن تغري بردي في وصفه لحملة قبرص (٨٢٩/ ١٤٢٦) أن الأسطول الذي خرج من ساحل بولاق إلى جهة الإسكندرية ودمياط قد مرّ في طريقه إلى رشيد ثم أقلع من هناك نحو قبرص(١٢٧) .

أما ميناء دمياط فهو مخرج تجارة مصر لمدن وثغور الساحل الشرقي للبحر المتوسط وقبرص وكريت . ولا تدخل السفن إليه مباشرة لشدة تيار نهر النيل وبسبب ردم جزء من البحر مخافة طروق مراكب الفرنج إليه ولذا لم يعد بإمكان السفن الأوروبية الكبيرة الوصول إليه بل أمست ترسو في البحر قرب مصب النيل وتقوم القوارب بنقل الحمولة ما بينها وبين الميناء . ودمياط كانت مركز تجمع للأسطول أيضاً فمنها كان الأسطول القادم من الإسكندرية وبولاق ينطلق في حملاته إلى قبرص ورودوس(١٢٨) .

أما بيروت وطرابلس على السواحل السورية فكانتا مزدهرتين وكانت المراكب الإيطالية في طريقها إلى الإسكندرية تحمل منهما الصابون والحرير الشامي الشديد الطلب والزبيب وماء الورد(١٢٩) . وقد وصف أرنولد فون هارف بيروت لدى زيارته لها سنة ١٤٩٩ وقال إن لها ميناء جيداً تقصده كافة المراكب وفي بيروت تجار من جنوى وكاتالوينا والبندقية ولهم متاجرهم ومخازنهم. وأضاف إن بيروت ليس لها أسواراً سوى من الغرب جهة البحر حيث

---

(١٢٦) Heyd. W., Histoire du Commerce, Tome II. p. 428.

(١٢٧) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جزء ١٤، ص ٢٨٩ .

(١٢٨) ابن تغري بردي، المصدر نفسه ، جزء ١٤، ص ٢٨٩، جزء ١٥، ص ٣٤٣، ٣٦٠.

(١٢٩) Dopp. P.- H. L'Egypte au Commencement du Quinzième siecle d'après le Traité d'Emmanuel Piloti de Crète. p. 59.

المدينة محمية بالأسوار والأبراج القوية ومن جهة الشمال عند طرف المدينة حيث يوجد أيضاً أسوار وبرج غير مسكون(١٣٠) . وكانت بيروت ملتقى التجار القاصدين دمشق. وكان أكثر ما يشترى من بيروت القطن والقلي والسكر. وكانت البندقية ترسل مراكبها باستمرار إلى بيروت Galee di Baruti ما بين الثامن والخامس والعشرين من آب. واعتباراً من سنة ١٥٠٠ أصبح موعد إبحار هذه المراكب ما بين الخامس عشر من نيسان والخامس عشر من آيار وكانت كل قافلة تضمّ ثلاث أو أربع مراكب . بالإضافة إلى ذلك كانت المراكب المخصصة لسوريا بالإجمال Navi di Soria تنطلق في شهر كانون الثاني وتتوقف في بيروت وفي غيرها من المرافىء السورية ، كما أن المراكب المخصصة لتحميل القطن كانت تنطلق في شهر حزيران أما شواني الخط Galee di Traffico المخصصة للإسكندرية فكانت واحدة منها على الأقل تعدى إلى بيروت وطرابلس(١٣١) .

غير أن بيروت لم تكن ترابط فيها وحدات من الأسطول المملوكي بالإضافة إلى أن قسماً من أسوارها كان مهدماً أو قليل الارتفاع وبإمكان أي كان تخطيها ولذلك كانت الحماية في بيروت غير متوفرة مما دفع عام ١٤٠٣ حاكم جنوى المارشال دي بوسيكو Boucicaut إلى مهاجمتها بأسطول قوامه أربعة عشر مركباً وقد هرب الأهالي من المدينة إلى الجبال بعد أن جاءهم التحذير من البنادقة فدخلها الجنويون وخربوها بعد أن سرقوا خمسمائة بالة من التوابل قيمتها ٣٠٠,٠٠٠ دوكات وعائدة لتجار البندقية (١٣٢) .

أما طرابلس فقد ذكر هارف أن ميناءها هو ميناء جيد تنزل فيه كافة

---

(١٣٠) Harff. A. V. **Op. Cit.**, pp. 232 - 233 .

(١٣١) Heyd. W., Histoire du Commerce, Tome II, pp. 460 - 461.

(١٣٢) Heyd. W., **Ibid.**, Tome II, p. 460.
Dopp.P. - H., **Op. Cit.**, p. 91. N. 2.

البضائع(١٣٣) . وكان التجار الأوروبيون يؤمون طـرابلس حيث يلتقون بـالتجار القـادمين من دمشق وحلب وبعلبك وحمـاة وكـانت المخـازن الكبيـرة الملىء بمختلف السلع تمتـد على طـول المينـاء . وكـانت تـردهـا مـراكب البنـدقيـة المخصصة للثغور السـورية Navi di Soria وتلك المخصصـة لتحميل القـطن بالإضافة إلى شواني الخط Galee di Traffico القادمة من الإسكندرية(١٣٤) .

وكانت طرابلس محصنة وفيها حامية قوية بالإضافة إلى مرابطة وحدة من أسطول المماليك فيها بصورة مستمرة . وكانت طرابلس قـاعدة بحـرية مهمـة يتوقف فيها أسطول المماليك في غزواته ضد قبـرص ورودوس وغيرهـا للتزود بـالماء والأقـوات وكانت تنضم إليـه المراكب الحـربية المـرابطة في طـرابلس بالإضافة إلى العسكر الشامي(١٣٥) .

ولذلك عندما حاول بوسيكو Boucicaut مهاجمة طرابلس بأسطولـه سنة ١٤٠٣ وبدأ بإنزال رجاله إلى اليابسة، اضطر إلى التقهقـر على عجل والعـودة إلى مراكبه لوصول نجدات قوية من المماليـك والعسكر الـطرابلسي إلى نقاط الإنزال. وقد ارتبك الجنويون من هذه المفاجأة غيـر المتوقعـة وخلفوا وراءهـم حوالي الثلاثين من جنودهم تم إلقاء القبض عليهم من قبل السلطات المملوكية فأعدمتهم(١٣٦) .

وإزاء ما حدث تحول المارشال بوسيكو إلى بيروت وخربها ونهبها !

ب ـ الأسطول الإيطالي :

لم يكن لإيطاليا في الفتـرة التي تهمنا أسـطولاً موحـداً كما هي الحـال بـالنسبة لسلطنـة المماليـك . وإنما كـانت هنـالـك أسـاطيـل متعـددة تـابعـة

---

(١٣٣) Harff. A. V, Op. Cit., p. 234.

(١٣٤) Heyd. W., **Op. Cit.,** Tome II, pp. 460 - 461.

(١٣٥) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جزء ٤، ص ١٧٦، جزء ١٥، ص ٣٦٠.

(١٣٦) Dopp. P. - H. Op. Cit., pp. 90 - 91.

للجمهوريات والمدن الإيطالية وكثيراً ما كانت هذه الأساطيل تشتبك فيما بينها تنفيذاً لسياسة ومصالح الحكومات الإيطالية المتضاربة. والسمة البارزة في الأساطيل الإيطالية هي ديمومتها والعناية المتواصلة بها وبشكل يجعلها دائماً جاهزة لتأمين استمرارية التجارة مع الشرق وحمايتها . ولهذا كان الأسطول بالنسبة للجمهوريات والمدن الإيطالية أداة بالغة الأهمية يتوقف عليها ثراء وقوة هذه المدن والجمهوريات وبالتالي بقاؤها .

ولسنا هنا في مجال إجراء دراسة شاملة كاملة عن الأساطيل الإيطالية الحربية والتجارية إنما الهدف من بحثنا إلقاء أضواء على صناعة المراكب وتنظيم الأساطيل وكيفية تسييرها من وإلى الشرق وبشكل أوضح دراسة الأساطيل الإيطالية من خلال علاقتها مع سلطنة المماليك وبالتالي تجارة الشرق في الفترة التي ما بين سنة ١٤٥٠ وسنة ١٥١٧ .

إن وجود الإيطاليين بصفة عامة ما بين عالمين متباينين بيزنطة والديار الإسلامية إلى الشرق والدول اللاتينية والأنجلوسكسونية إلى الغرب ، جعلهم يتعاملون مع الشرق والغرب على السواء من أجل تحقيق المزيد من الأرباح والشهرة عن طريق القيام بدور الوسيط فيما كان يعرف بالتجارة الشرقية . وقد ساعدهم على النجاح في ذلك ناحيتان مهمتان : المهارة الفنية كبحارة تمرسوا على ركوب البحر وتوفر المواد الأولية لبناء المراكب وبالتالي الأساطيل التجارية والحربية . إن طبيعة البلاد الإيطالية وامتدادها على شواطىء البحر جعلت الإيطاليين يركزون جهودهم على البحر وتجارته فتخصصوا في النقل فيه وجنوا الأرباح الطائلة من تجارة الرقيق وتصدير الأخشاب ونقل الحجاج .

ومع مرور الأيام تعددت وتنوعت السلع المتبادلة مع الشرق ونتج عن ذلك تطور وتعدد وسائل النقل البحرية ، فللحجاج كانت الشواني الكبيرة Great galley وللتوابل والسلع الثمينة كانت الشواني الخفيفة والسريعة galley وللقطن كانت المراكب الكبيرة البطيئة الحركة Cog وبالإضافة إلى ذلك كانت

المراكب الحربية لحماية المراكب التجارية كما كانت المراكب التجارية الكبيرة تجهز بالرجال والعتاد والسلاح لحماية نفسها(١٣٧) .

وبالرغم من كون مرسيليا كانت تستجلب عدداً كبيراً من الحجاج إلى الأراضي المقدسة في فلسطين إلّا أن البندقية كانت المركز الرئيسي لتجمع الحجاج الذين كانوا يفدون إليها على مدار السنة للسفر على متن إحدى السفن المتجهة إلى الشرق(١٣٨) .

فمنذ الحملات الصليبية كانت البندقية تستقطب الحجاج من كل مكان الذين كانوا يفضلون السفر على شوانيها التي تبحر قريباً من الشواطيء مما يتيح لهم التمتع بالمناظر والنزول في المرافىء(١٣٩) . ومع أن أسعار السفر على الشواني كانت مرتفعة إلّا أن الحجاج كانوا يرغبونها وكانت هذه المراكب ترد الأراضي المقدسة بمعدل أربع شواني سنوياً وكانت مراكب الحجاج على عكس المراكب التجارية ، مراكب خاصة تديرها وكالات أصحابها من أعيان البندقية إنما تحت إشراف الحكومة (Signoria)(١٤٠) . وهذا لا يعني أن سفر الحجاج إلى الأراضي المقدسة كان مقتصراً على متن الشواني فقط ولكن الحجاج كان بإمكانهم السفر على متن المراكب التجارية العادية القاصدة بيروت أو الإسكندرية . وقد ذكر أرنولد فون هارف أنه سافر على متن مركب تجاري بندقي مسلح إلى الإسكندرية من أجل زيارة الأراضي المقدسة وذكر أن المركب

---

(١٣٧) Lane. C.F., Venetian Ships and Shipbuilders of the Renaissance, Baltimore, The Johns Hopkins Press. 1934, pp. 12, 13, 14, 26, 28, 29.

(١٣٨) Depping. G. B. Histoire du Commerce entre le Levant et L'Europe depuis Les Croisades Jusqu'à la Foundation des Colonies d'Amérique, Tome II, Paris 1830, p. 313.

(١٣٩) Viaggio di Leonardo di Niccolo Frescobaldi Fiorintino in Egitto e in Terra Santa. Ed G. Manzi, Rome, 1818, pp. 67 - 4.

(١٤٠) Lance. C.F., **Op. Cit.**, p. 30.

التجاري المسلح كان يواكب مركباً تجارياً أصغر حجماً لحمايته[١٤١] .

أما تجارة الرقيق فكانت مزدهرة في المدن الإيطالية. وكان الأرقاء من الشعوب السلافية القادمين من رومانيا وألبانيا أو الجركس والتتر وغيرهم القادمين من جهات البحر الأسود يتنقلون على متن مراكب خاصة وكانت القوانين المرعية الاجراء تحظر ، من أجل الحفاظ على صحة وسلامة الأرقاء ، على المركب بسطح واحد من نقل أكثر من ٣٠ عبداً وعلى المركب بسطحين أكثر من ٤٥ عبداً وعلى المركب بثلاثة سطوح أكثر من ٦٠ عبداً[١٤٢] .

وكانت جنوى والبندقية في طليعة المدن الإيطالية المتعاملة في تجارة الرقيق فبالإضافة إلى تأمين حاجات المدن الإيطالية المحلية من الرقيق كانت جنوى والبندقية تسعيان بالرغم من تحظير الكنيسة البابوية في روما إلى نقل الأرقاء بصورة مباشرة أو غير مباشرة من تانا وكافا على البحر الأسود إلى مصر لتلبية متطلبات السلطات المملوكية الملحة العائدة للجيش أو للحريم[١٤٣] .

وإلى جانب تجارة الرقيق اهتم الإيطاليون بشكل خاص بتجارة الخشب فكانت مراكبهم المحملة بالأخشاب من مختلف الأنواع تجد لها أسواقاً رائجة في شرقي المتوسط وشمالي إفريقيا وكان حوض المتوسط في تلك الفترة يشهد ظاهرة قلة الأخشاب نتيجة لقطع الأحراج المتواصل على مدى العصور وكان الإيطاليون وعلى رأسهم البنادقة ، ينعمون في شمالي البحر الأدرياتيكي بمساحات شاسعة من الأحراج الباقية فعمدوا إلى قطع أشجار السنديان من السهول القريبة وأشجار الدردار ash والزان beech على ضفاف الأنهار وأشجار اللاركس Larch والصنوبر والتنوّب Fir المتوافرة بكثرة في أعالي الجبال .

---

(١٤١) Harff. A.V. The Pilgrimage of Arnold Von Harff, London, 1961, pp. 69, 71.

(١٤٢) Heyd. W. Histoire du Commerce du Levant au Moyen - Age. Leipzig. Tome II, 1886. PP. 559 - 560

(١٤٣) Heyd. W., **Ibid,** Tome II, p. 558.

ولما كان الخشب ، خاصة خشب بناء المراكب ، من المواد الاستراتيجية الشديدة الطلب من قبل سلطات المماليك فقد عمدت الكنيسة البابوية إلى تحظير بيعه كالرقيق إلى المسلمين . غير أن الإيطاليين وضعوا نصب أعينهم جناء الربح الوفير فلم يذعنوا تماماً لقرارات البابوية بل عمدوا إلى المتاجرة بالرقيق والخشب للحصول على الأموال الطائلة من ذهب وفضة والتي مكنتهم من شراء السلع الشرقية النادرة والثمينة من أسواق مصر وسوريا والقسطنطينية وإعادة تصديرها إلى جنوبي أوروبا(١٤٤) .

إن توافر الأخشاب بكثرة بالقرب من المدن الإيطالية شجع هذه المدن في المضي في صناعة السفن ومما ساعد على ذلك توافر الحديد والقنّب hemp بأسعار زهيدة فمضى الإيطاليون في بناء المراكب لأغراضهم التجارية والحربية كما عمدوا إلى بيع هذه المراكب لدول وجماعات أخرى . وكان من نتيجة تعمير المراكب والاتجار بالرقيق أن ازدهرت تجارة المدن الإيطالية وانتعش اقتصادها فعمدت إلى بناء المزيد من المراكب المختلفة التي أصبحت مصدر ثرائها وقوتها .

وكان لهذا التطور أن تميزت المدن الإيطالية عن غيرها في صناعة السفن ، فبينما كانت مدن شرقي المتوسط مراكز إنتاج الحبوب والزيوت والقطن وغيرها من المنتجات الزراعية ، كانت المدن الإيطالية مراكز صناعية خاصة صناعة السفن . وقد أدى ذلك إلى تفوق الإيطاليين في هذا المجال

---

(١٤٤) Lane. F., Venice a Maritime Republic, Baltimore. 1981. p.8; Depping, G., Histoire du Commerce, Tome II, pp. 297 - 298.

ذكر ديبنغ Depping أن دوج البندقية بيار كانديانو الرابع Pierre Candiano IV قد أصدر قراراً سنة ٩٧١ منع بموجبه التجار البنادقة من تصدير الواح خشب إلى المسلمين من الدردار frêne يتجاوز طولها الخمسة أقدام وعرضها القدم ونصف وفيما عدا ذلك فقد سمح بتصدير كافة منتوجات الأخشاب .

(١٤٥) Depping. G. **Ibid**. Tome II. pp. 298 - 299.

فاكتسبوا المهارة الفنية كبناة مراكب وكبحارة على حد سواء(١٤٦) . وكانت البقعة من شمالي إيطاليا والتي تضمّ ميلانو وفلورنسا وجنوى والبندقية من أغنى وأخصب وأرقى بقاع حوض المتوسط وكانت البندقية بمثابة القلب النابض لهذه البقعة فإليها تؤدي الطرق التجارية ومنها تنطلق الأساطيل إلى الشرق والغرب(١٤٧) .

وكانت هذه المدن العظمى الأربع بمثابة مراكز صناعية متقدمة تصدر منتوجاتها إلى الشرق خاصة على متن المراكب والأساطيل الجنوية والبندقية وتجلب من هناك التوابل والسلع المختلفة وكان شحن الحبوب من أهم السلع المنقولة بحراً . ولعلَّ أوضح صورة عن ازدهار هذه المدن وترابط مصالحها فيما بينها ما قاله دوج البندقية موسنيجو Doge Mocenigo سنة ١٤٢٣ وهو على فراش الموت فذكر أن البندقية كانت تصدر إلى الشرق حيث تتواجد أسواقها التجارية المزدهرة ، مخمل جنوى وثياب ميلانو المذهبة ، وأثواب فلورنسا الصوفية المشهورة وكانت تستفيد من صناعتهم وتجارتهم(١٤٨) .

وكانت القسطنطينية سوقاً رائجة لمنتوجات المدن الإيطالية وكانت تستهلك لكبرها كل ما يصلها من القمح والحبوب من سواحل البحر الأسود . أما القاهرة فكان وضعها أحسن لتواجدها في رحاب وادي النيل حيث الأرض خصبة والحبوب وفيرة . أما المدن السورية فكانت هي الأخرى لا تشكو من ضائقة لقربها من بلاد حوران وسهل البقاع . أما المدن الإيطالية المكتظة

---

(١٤٦) Lane. F., **Op. Cit.,** p. 8.

(١٤٧) Braudel. F. The Mediterranean and the Mediterranean World in the Age of Philip II, Vol I. London 1972, p. 387.

(١٤٨) Braudel. F., **Ibid.,** pp. 387 - 388;

للإطلاع على النصف الأصلي لدوج البندقية موسنيجو Mocenigo انظر :

Bilanei Generali, 1912, Vol. 1, Tome I, p. 577 ff.

السكان إجمالاً فقد كانت تستورد الحبوب بحراً لضآلة إنتاجها من القمح من جهة ولارتفاع أسعار النقل البري من جهة ثانية . والواقع أن غربي المتوسط كان يعتمد إجمالاً على استيراد القمح الرخيص من الشرق . فالمدن الإيطالية عموماً والبندقية خصوصاً كانت تستورد القمح من مستعمراتها في بحر ايجه كما كانت الجمهورية تجلب القمح أيضاً من مصر . ولذلك عمدت المدن الإيطالية إلى تعاطي نوع من التجارة الدقيقة والمعقدة والتي تُعنى خصيصاً بتجارة شحن القمح بحراً . ولذلك صمّمت المراكب الجنوية والبندقية فجاءت كبيرة وعريضة لتكون مخصصة وقادرة على نقل البضائع الكبيرة الحجم والرخيصة الثمن(١٤٩) . Bulky Cargo .

الشواني والمراكب المستديرة Galleys and Round Ships

إن سمة خصائص النقل البحري في المتوسط الموروثة من أيام الرومان والبيزنطيين والتي استمرت خلال العصور الوسطى هي متابعة استخدام المراكب الشراعية الخشبية الضخمة العريضة والثقيلة البطيئة الحركة في نقل البضائع العادية كالحبوب والقطن والمنتوجات الزراعية وغيرها Bulky Cargoes ، في حين تمّ الاعتماد على المراكب الشراعية المجهزة بالمجاذيف للمهمات التي تتطلب سهولة المناورة وسرعة الحركة . وكانت الشواني ذات المجاذيف تشكل المراكب الحربية التقليدية التي اعتمدت في البحر المتوسط وظلّت حتى القرن السابع عشر العمود الفقري للأساطيل الحربية . ولعلَّ أصدق مثل على ذلك العدد الضخم من الشواني (٢٠٨) التي حشدتها البندقية وحليفاتها ضد العثمانيين في معركة لبونتو Lepanto الشهيرة سنة ١٥٧١(١٥٠) .

---

(١٤٩) Parry. J.H., The Age of Rennaissance. New York. 1964. pp. 52, 53.

(١٥٠) Lane. F., Venice a Maritime Republic, p. 369.

وكان بإمكان هذه الشواني الحربيـة المناورة بـدقة وسـرعة في الأحـوال الجوية العادية تماماً كوحدات الأساطيل البحرية الحديثة ولكنها كانت غير قادرة لخفتهـا على تحمل مصـاعب هيجان البحـر أو اجتياز المسـافات الشـاسعة . وكـانت معظم الشـواني الحربيـة خفيفة الصنـع وطـويلة الشكـل وكـانت تلك المعمرة في دور الصناعـة الإيطاليـة في القرن الخـامس عشر ذات طـول قدره حوالي الـ ١٢٠ قدماً أو أكثر وغاطس بعمق حوالي الـ ١٥ قدماً وعرض بحوالي الـ ٢٢ قدماً . وكانت هذه المراكب عادة ذات صـارية واحـدة مرفـوعة بشكـل أقرب ما يكون إلى المقدمة منها إلى المؤخرة . وكان شراعها الوحيد يستخدم لزيادة السرعة أو لإراحة الجذافين . تلك الشـواني كانت لصغـرها وخفتهـا لا حول لها ولا قوة في بحر شديد الهيجان(١٥١) .

غير أنه منذ أواخر القرن الثالث عشر وفي أوائل القرن الرابع عشر حصل تقدم بارز في تطوير تصـاميم الشواني . فقـد بدأت المـدن الإيطاليـة وخاصـة البندقية في تلك الحقبة ببناء بالإضافة إلى الشواني التقليدية الخفيفة ، عدد من الشواني الكبيرة Great Galleys وهي مراكب عظيمة الحجم ومتينة البناء وذات عنابر أوسع وبحيث لا يتعدى معدل الطول على الغاطس نسبة ٦/١ (Ratio) . وكان بالإمكان استعمال هذه الشواني الجـديدة بفعـالية عـظيمة في العمليـات الحربية كما حصل في معركة لبونتو غير أنه خـلال القرن الخـامس عشر حيث تطورت هذه الشواني وعم استعمالها بكثرة فقـد اقتصر استخـدامها تقـريباً في الأغراض التجارية . وكانت البندقية لوحدهـا تنزل إلى البحـر حوالي عشـرين شانياً كبيراً كل سنة وكانت معظم هذه الشواني تعمر في دار الصناعة البندقي . وكانت تباع أو تؤجر من قبل سلطات الجمهـورية إلى الـوكالات البحـرية التي كانت تديـرها . وكـانت هذه الشـواني تؤمن رحلات منتـظمة مـا بين البندقيـة والقسـطنطينية والإسكندريـة وبيروت وغيرها. وكانت تضطلع بمهمـات نقـل

---

(١٥١) Lane. F., Venetian Ships and Shipbuilders of The Rennaissance, pp. 7 - 8.

الحجيج إلى الأراضي المقدسة إذا سمحت الظروف السياسية بذلك[١٥٢] .

وكانت الشواني الكبيرة ذات ثلاث صواري وتعتمد بصورة رئيسية على أشرعتها في عرض البحر . غير أنه بالنظر لحجمها وثقلها فقد كان بإمكانها التحرك بالمجاذيف لمسافات قصيرة فقط وعند الدخول أو الخروج من المرافىء وفي بحر هادىء أو في الحالات الطارئة . وقد أتاح لها ذلك حسنة انتظام مواعيد الرحلات البحرية والتقيد أكثر من المراكب العادية بمواقيت الإقلاع والوصول بالإضافة إلى ضمان عامل السرعة والأمان في قطع المسافات الطويلة . وكانت هذه المراكب قوية حتى إذا لم تخصص للأغراض الحربية فقد كان بإمكانها الدفاع عن النفس بفعالية فائقة طالما كان الجذافون عليها ينتقون كعناصر مقاتلة يدفع بهم لمساعدة الرماة عندما تدعو الحاجة . ولذلك كانت الشواني الكبيرة واسطة نقل مضمونة ووثيقة. ولهذا كان يتهافت عليها على حد سواء الحجاج لزيارة الديار المقدسة والتجار لنقل بضائعهم . غير أن من أهم مساوىء هذا النوع من المراكب كانت صعوبة وتكاليف إدارتها بالمقارنة إلى صغر حجم البضائع الممكن نقلها. فالشاني المحمل بـ ٢٠٠ أو ٢٥٠ طناً من السلع كان طاقمه لا يقل عن ٢٠٠ بحاراً. وكانت أسعار التأمين أقل على متن هذه الشواني منها على متن المراكب الأخرى في حين كانت أسعار النقل عليها أكثر

---

(١٥٢) Lane. F., **Ibid.** pp. 16 -17.

وصف فليكس فابري Felix Fabri في كتابه Evagatorium الشاني الكبير Great Galley الذي أبحر عليه في زيارته الثانية للأراضي المقدسة سنة ١٤٨٣ فقال : إن لهذا المركب مئة وثمانين مجذافاً يحركها الجذافون وهو قد يستعمل كمركب حربي ولذلك يوجد عليه الرماة الذي يقفون بأقواسهم أمام الطاقات إلى جانب الجذافين . انظر :

The Book of the Wanderings of Brother Felix Fabri in Palsetine and Arabia, Translated by Aubrey Sheward in publications of Palgrave Pilgrims Text Society, London, Vol., I. pp. 126 - 131.

من متن الشواني بصورة عامة تخفيفاً للتكاليف[١٥٣]. وقد عمدت البندقية إلى إلزام مواطنيها بمقتضى القوانين إلى وجوب نقل كافة التوابل والسلع المماثلة على متن الشواني بهدف الحفاظ على سلامة البضائع من جهة وحماية الشواني العائدة للدولة من منافسة المراكب الشراعية الأخرى . غير إن إجراءات الحماية هذه أصبحت غير فعالة عندما فقد البنادقة احتكار تجارة التوابل وعندما نجح المصممون ودور الصناعة في البلاد الأخرى على إنتاج مراكب شراعية متطورة نافست الشواني الكبيرة من حيث المتانة والأمان وبحيث كان تشغيلها لا يتطلب عدداً كبيراً من البحارة ، بعكس الشواني التي كان طاقمها الكبير لا يؤدي فقط إلى زيادة تكاليف النقل عليها وإنما أيضاً إلى تقليل مدى المسافات التي تعمل ضمن نطاقها ، باعتبار أن الشواني لم يكن باستطاعتها بالإضافة إلى حمولتها من البضائع استيعاب حمولات إضافية من المؤن العائدة لتغذية عدد كبير من البحارة خاصة في الرحلات الطويلة البعيدة عن مرأى الشاطىء[١٥٤] .

وبالإضافة إلى ذلك فقد ساعد على تفوق المراكب المستديرة Round Ships على الشواني تغيير طرق التجارة الدولية والأحوال السياسية في بداية

---

(١٥٣) حدّد طاقم الشواني الكبيرة في سنة ١٤١٢ بـ ٢١٠ بحاراً بما فيهم القبطان والطباخ دون ذكر التجار والمسافرين . انظر :

Senato Misti, reg. 49, f. 114 - 5;
Lane. F., **Op. Cit.**, pp. 24 - 26.

ذكر مارينو سانوتو Marino Sanuto في مذكراته Diarii إن شواني البندقية قد عادت في سنة ١٥٠١ من الإسكندرية وعليها حمولة من الفلفل والتوابل قوامها حوالي ٢٥٧٠ بالة وكانت هذه الشواني قد حملت إلى شرقي المتوسط مبالغ نقدية بقيمة ٣٠٠,٠٠٠ دوكات بالإضافة إلى حمولتها من السلع المختلفة. انظر :

Sanuto. M., I Diarii, Venezia. 1879. Vol. II. pp. 165, 172. Vol. IV. pp. 38-39.

(١٥٤) Parry. J. H., **Op. Cit.**, pp. 69, 70, 71.
Lane. F., **Op. Cit.**, p. 27.

القرن السادس عشر ، علاوة على أن البحر المتوسط لم يعد الشريان الرئيسي الذي تنتقل عبره السلع الثمينة من الشرق إلى جنوبي أوروبا . وقد أدى تطوير هذه المراكب الجديدة الكثيرة الأشرعة والكثيرة المدافع الحديثة إلى حرمان الشواني من حسناتها المميّزة خاصة في المعارك البحرية حيث أصبحت قوة النيران من العوامل الحاسمة في تقرير مصير المعركة . وهذا لا يعني أبداً دثور الشواني بل بقيت تعمل بنشاط على الأقل في الفترة التي تهمنا .

على كل حال كان الاختلاف في الشكل ما بين المراكب المستديرة الكبيرة والشواني الطويلة ظاهراً للعيان . فالمراكب المستديرة كانت عالية وعريضة تحركها الأشرعة فقط . في حين كانت الشواني واطئة وضيقة ومجهزة بالمجاذيف . وقد بنيت المراكب المستديرة لتكون ثابتة وقادرة على شحن الحمولات الثقيلة بينما بنيت الشواني لتحقيق السرعة وبالتالي لاستعمالها في الأغراض الحربية ولذلك تعتبر الشواني مراكب حربية بالدرجة الأولى بعكس المراكب المستديرة التي هي في الأساس مراكب تجارية . غير أننا نجد بعض المراكب المستديرة التي بنيت خصيصاً للأغراض الحربية كما أننا نجد بعض المراكب الطويلة التي صممت للتجارة. ومع ذلك اتسمت وظائف هذين النوعين من المراكب بصفات مميزة إن في التجارة أو في الحرب . فالمراكب الطويلة التجارية كانت تنقل البضائع الثمينة والخفيفة في حين تخصصت المراكب المستديرة في نقل الشحنات الثقيلة(١٥٥) . واستناداً إلى هذا التباين في الوظائف التجارية لهذين النوعين من المراكب نظمت تجارة البندقية البحرية فأعطى امتياز نقل التوابل والسلع الخفيفة من الشرق وإلى البندقية حسب مقتضى القوانين إلى الشواني الكبيرة . وقد استندت هذه القوانين على المبدأ القائل بأن السلع الخفيفة والثمينة يقتضي نقلها من الشرق إلى البندقية فقط على متن المراكب المسلحة وقد عني بذلك فيما بعد الشواني الكبيرة أي

---

(١٥٥) Lane. F., Venice and History, Baltimore, 1966, pp. 3, 4.

شواني الدولة التجارية . وقد حصلت إعفاءات لسلع محددة في أوقـات معينة غير أن السلع التي سمح بنقلها على متن المراكب غير المسلحة (المـراكب المستديرة) فقد اضطر أصحابها إلى دفع نفقات نقل إضافية لصالح الشواني . ولكن التوابل المحملة في المرافىء الشرقية ما كانت تنقل إلى البندقية إلاّ على متن الشواني في الفترة الواقعة مـا بين ١٤٣٥ و ١٥١٤ . وفي حال امتـلاء عنابـر تلك الشـواني كانت التـوابل الفـائضة تنقـل على متن مـراكب منتقـاة تبحـر مـع الشواني وتحت إمرتها . وعلى أية حال ما كانت تلك المراكب المذكورة تنقل سوى كميات لا تذكر من التوابل الفائضة وغيرها(١٥٦) .

وكانت حكومة الجمهورية ذاتها تهتم بتفـاصيل تسليـح الشواني وتعيـين قادة الوحدات والأساطيل ومرافىء التوقف وتحديد الحمولة لكل رحلة وذلك من خلال قوانين صارمة تؤجر بموجبها الشواني وتـدار حسب توجيهـات الحكومـة Signoria التي كانت لا ترضى إلاّ باختيار ربابنة الشواني من بين النبلاء(١٥٧) . وقد ذكر ديبنغ Depping إن دار الصناعة Arsenal في البندقية كانت بمثابة قلعة كبيرة تحيطها الأسوار والأبراج وفيها تبنى مختلف المراكب وتجهز وتسلح لتنتشر في البحر المتوسط وكان في هذه الدار معامل الخشب ومشاغل الخياطة لصنع الأشرعة وتحضير الحبال والأفـران لصهر الحـديد وصنـع المراسي والأسلحـة وبالتالي فكل ما تحتاجه المراكب من عتاد وأدوات الملاحة والحرب. وأضاف أنه كانت تصنع في هذه الدار عدة أنواع من المراكب منها الشواني الكبيرة -Gros ses galères المخصصـة لـلأسفـار في المحيط الأطلسي والشـواني المسمـاة

---

(١٥٦) انظر أيضاً : Archivio di Stato di Venezio (A.S.V.), Senato Misti, reg. 47, ff. 19, 128; reg. 48, ff. 12 - 13; reg. 52, f. 14; Marino Sanuto, I Diarii (Venice, 1870 - 1903), vol. XVIII., Col. 178; vol. XXXVI., Col. 382.

(١٥٧) Lane. F., Venice and History. p. 5; A.S.V., Senato Misti, reg., ff. 114 - 115.

Galee Sottili وكان طولها ١٣٠ قدماً ولها ثلاثة أشرعة وهي سهلة المناورة وسريعة وتستعمل عادة في الأغراض الحربية ولذلك فقد كانت جيدة التسليح . أما النوع الثالث من الشواني ويصنف ما بين الشواني الكبيرة والشواني الحربية الآنفة الذكر فقد كان يستعمل خصيصاً في تجارة الشرق وكان يطلق على هذا الشاني اسم Mezzane وله أربعة أشرعة وطاقمه بحدود المائتي رجل وهناك نوع رابع من المراكب الكبيرة والمستديرة التي تسمى Coches وهي ذات حمولة عظيمة وخصصت أيضاً لتجارة الشرق . وذكر دبينغ أيضاً أنواعاً أخرى من المراكب غير أن ما يهمنا أن حكومة البندقية كانت تبيع هذه المراكب للأجانب الذين كانوا يقدمون إلى دار الصناعة مصحوبين بالتراخيص من قبل الدوج Doge .

وكانت الشواني المخصصة للشرق لا تبحر إلّا وعليها الأسلحة والمقاتلون للدفاع عنها وأحياناً كثيرة كانت المراكب التجارية يرافقها شاني حربي . وكان تسليح المراكب وتجهيزها على عاتق حكومة الجمهورية التي كانت تطرحها في المزاد لتأجيرها. وقد حرّمت الجمهورية على التجار التوجه إلى المرافىء الشرقية بمراكبهم المستأجرة طيلة فترة تواجد الشواني الحكومية(١٥٨) .

وقد تحدث أرنولد فون هارف Arnold Von Harff عن دار الصناعة الجديدة لدى مروره في البندقية في نيسان ١٤٩٧ أثناء توجهه لزيارة الأراضي المقدسة فأعطى وصفاً دقيقاً لهذه الدار وذكر كيف تبنى المراكب وتجهز بمختلف الأسلحة والأعتدة ولحظ أن **الأسلحة** التي شاهدها هناك كانت كافية لتجهيز عشرة آلاف مقاتل وهي في الواقع لا تزيد عن حاجة المراكب التي كانت قيد البناء داخل دار الصناعة(١٥٩) .

---

(١٥٨) Depping. G., Histoire du Commerce, Tome II, pp. 314 - 315.

(١٥٩) Harff, A. V., The Pilgrimage of Arnold Von Harff, The Hakluyt Society, =

وبالإضافة إلى الشواني كانت غالبية المراكب التجارية البندقية مؤلفة من المراكب المستديرة التي كان عددها حوالي الثلاثمائة في سنة ١٤٥٠ وكان وزن معظم المراكب بحدود المئة طن وكانت في الغالب تستخدم في البحر الأدرياتيكي لنقل البضائع العادية كالحبوب والزيت والأخشاب والحجارة وغيرها . وكانت حمولتها مماثلة لحمولة الشواني العادية التي كانت لا تتجاوز المئة طن[١٦٠] . ومع كثرة المراكب المستديرة إلَّا أن عدداً محدداً منها كان يبحر إلى الشرق فقط . وكان عدد هذه المراكب حوالي الـ ٣٥ مركباً زنة الواحد منها ٢٤٠ طناً أو أكثر وكانت تتعدى البحر الأدرياتيكي في رحلاتها متبعة الطرق البحرية المعروفة إلى شرقي المتوسط والمؤدية إلى سوريا ومصر والبحر الأسود ، وتؤم نفس المرافىء والثغور التي تردها الشواني غير أنها كانت متخصصة في نقل القطن وحجر الشب Alum من سوريا والنبيذ من جزيرة كريت والرقيق والمواد الغذائية من جهات البحر الأسود والحبوب والزيت والملح من بلاد اليونان وجهات رومانيا وغيرها[١٦١] .

وتجدر الإشارة إلى أن حجم البضائع المنقولة على متن المراكب المستديرة الـ ٣٥ كان يتعدى بكثير حجم البضائع التي كانت تنقلها سنوياً شواني البندقية العشرون . فالمراكب المستديرة كانت تنقل حوالي

= Second Series No. XCIV, London 1946. pp. 61 - 62.

بدأ العمل بدار الصناعة الجديدة اعتباراً من سنة ١٤٧٢ وكانت سعتها مئة شانيا انظر :

Malipiero, Annali Veneti, Archivio Storico Italiano, Vol. VII. (1843), p. 662.

(١٦٠) Lane. F., Venetian Ships and Shipbuilders, p. 246; Braudel, F., The Mediterranean and the Mediterranean World. vol. I. p. 299. p.301 .

(١٦١) Braudel. F., **Ibid.** p. 300 ;
Lane. F., Venice and History. pp. 5 - 6.

الـ ١٥,٠٠٠ طناً من البضائع في حين كانت الشواني تنقل حوالي ٤٥٠٠ طناً فقط . فمن الناحية النظرية كانت الشواني ذات أهمية ثانوية لكن في الواقع كانت الشواني ذات أهمية بالغة الخطورة لتأكيد زعامة البندقية في عالم التجارة في القرن الخامس عشر . كما كانت الشواني تنقل باستمرار سلعاً خفيفة وثمينة على عكس المراكب الأخرى ولهذا إذا أقمنا مقارنة على أساس قيمة البضائع المنقولة بدل حجمها لجاءت النتيجة حتماً لصالح الشواني(١٦٢). وعلى عكس الشواني التي كانت تصنع في دار صناعة الدولة كانت المراكب المستديرة تعمّر في دور خاصة ومن قبل مؤسسات خاصة . ولما شعرت الحكومة البندقية في نهاية القرن الخامس عشر بضرورة بناء المزيد من المراكب المستديرة لجأت إلى دور الصناعة الخاصة ولذلك اتسمت المراكب المستديرة بصفة المراكب المعمرة في الدور المدينة الخاصة . غير أنه بعد سنة ١٤٦٠ وخاصة في العقد الأخير من القرن الخامس عشر ازدادت رحلات الشواني إلى الشرق حتى بلغت أوجها. وكانت تجلب من هناك بانتظام التوابل والسلع الشرقية. وبنفس هذه الفترة انخفض عدد المراكب المستديرة إلى النصف(١٦٣) ، غير أنه اعتباراً من النصف الأول من القرن السادس عشر انخفض عدد الشواني إلى حد ضئيل في حين ازداد عدد المراكب المستديرة بشكل ملفت للنظر لم يسبق له مثيل(١٦٤) .

---

(١٦٢) Lane., F., **Ibid.** p. 7.

(١٦٣) Braudel. F., The Mediterranean, Vol. I, pp. 300 - 301.

ذكر بروديل Braudel أنه في سنة ١٤٥١ جرت مناقشة في مجلس الشيوخ البندقي حول الحاجة إلى إرسال المزيد من المراكب الصغيرة في الرحلات إلى سوريا وكاتالونيا :

«et ad viagia Sirie et Cathallonie omnes magis desiderant naves parvas»,

وعقب بروديل على ذلك بقوله أنه انتصار أول للمراكب الصغيرة. انظر أيضاً :

A.D.S. Venice, Senato Mar, 4, f° 28 v°, 16th January, 1451.

(١٦٤) Lane. F., Venice and History, p.8.

والواقع أن صناعة السفن في الدور الخاصة قد انحطت بشكل صارخ ما بين العام ١٤٦٣ والعام ١٤٨٨ وخاصة في سنة ١٤٨٧ . وللوهلة الأولى يبدو أن هذا الركود يعود إلى ازدهار صناعة السفن لدى العثمانيين، غير أن البنادقة عزوا سبب الانحطاط الرئيسي في صناعتهم إلى الدور المهم الذي لعبته في صناعة المراكب كل من ايستريا Istria وراجوزا Ragusa على الشاطىء الشرقي للبحر الأدرياتيكي . وقد علت أصوات المعارضة ضد راجوزا بشكل خاص بسبب اضطلاعها بدور رائد في عمليات النقل البحري في المتوسط في تلك الفترة . وقد نسب البنادقة ازدياد عدد مراكب راجوزا إلى توافر كميات كبيرة من الخشب والحديد وأعداد كثيرة من البحارة للمنافس الجديد . وبالإضافة إلى ذلك تضرر البنادقة من منافسة مناطق أخرى وبعيدة . فالمراكب من جنوى والبرتغال وبلاد الباسك وحتى من إنجلترا زاحمت مراكب البندقية من وزن ٦٠٠ و ٧٠٠ طن في رحلاتها الطويلة . وكانت المراكب من هذا الحجم ذات أهمية خاصة بالنسبة للجمهورية لاستعمالها كمراكب مساعدة ومراكب تموين وقد أدى بروز البحرية العثمانية إلى جعل الحاجة لتلك المراكب أكثر إلحاحاً . ونتيجة لذلك ولدى إخفاق حكومة البندقية في دفع المؤسسات الخاصة إلى بناء هذا النوع من المراكب بالحجم المطلوب عن طريق مدها بالقروض وزيادة أجور النقل ، اضطرت الجمهورية إلى تعميرها على عاتقها . وبين سنة ١٤٧٥ وسنة ١٤٨٨ بنّت البندقية أربع مراكب تتراوح أوزانها ما بين ٦٠٠ و ٢٤٠٠ طناً ، وما بين سنة ١٤٨٨ وسنة ١٤٩٨ أوصت على ستة تمّ تعمير خمسة منها بزنة ١٢٠٠ طن تقريباً. وهكذا حصلت الجمهورية على المراكب الكبيرة من أجل تدعيم أسطولها الحربي وملاحقة القراصنة وإرسال الإمداد وجلب الحبوب والملح عند الضرورة[١٦٥] .

---

(١٦٥) Lane. F. **Ibid.**, pp. 9 - 10.
A.S.V. Senato Mar reg. 9. ff. 20, 99, 120, 121, 162.
انظر أيضاً : lane. F., Venetian Ships and Shipbuilders , p. 47 .

وكان مجموع وزن المراكب الأربعة التي أنزلت إلى البحر عام ١٤٩٩ بحدود ٥١٠٠ طناً غير أن هذه المراكب لم تستخدم إلّا فيما ندر للأغراض التجارية . حتى أنه خلال الحرب مع العثمانيين من سنة ١٤٩٩ إلى سنة ١٥٠٢ حشدت البندقية جميع قواتها البحرية لمواجهة العدو ولم تترك سوى حوالي ١٩ شانياً من حمولة ٢٤٠ طن أو أكثر للقيام بالرحلات التجارية الطويلة .

ولم تجد محاولة إحياء الصناعات البحرية في سنة ١٤٩٨ نفعاً بسبب الأزمة المستفحلة منذ فترة طويلة وبسبب الركود الذي أصاب صناعة المراكب في البندقية التي كانت بسبب ثرائها وقوتها في تلك الفترة موضع حسد كافة الدول المسيحية .

وقد تجلى هذا الركود في السنين الأولى من بداية القرن السادس عشر بحيث أضحى عدد المراكب المستديرة أقل من النصف عما كان عليه في أواسط القرن الخامس عشر ، كما أن الشواني التجارية التي كانت تبحر بانتظام تام إلى الشرق لم يزد عددها لتعويض النقص الحاصل في قطاع المراكب المستديرة . وإزاء هذا الوضع عمدت البندقية إلى اصلاح الحال عن طريق الاستماع إلى أصحاب دور الصناعة والمراكب الخاصة وتلبية مطالبهم بموجب مشروع قانون ١٥٠٢الإصلاحي . واستناداً لذلك سمح للمراكب الخاصة بتحميل كافة البضائع بما فيها الملح والحبوب باستثناء ثلاثة وهي البضائع المحظر تصديرها بموجب قرارات الكنيسة، والسلع المخصصة للشواني وتجار الأندلس والمغرب من المسلمين وبضائعهم .

وبعد إصدار هذا القانون سنة ١٥٠٧ نشطت صناعة المراكب المستديرة بشكل ملفت للنظر وعلى حساب صناعة الشواني التي أصابها الركود بسبب

= Sanuto. M., I Diarii, Vol. I, p. 803,
Priuli. G., I Diarii e diaristi Veneziani, vol. I., Citta di Castello, 1911, p. 181.

عدم الحاجة الماسة إليها كوسيلة نقل مفضلة وبسبب تكاليفها الباهظة التي ترهق كاهل الجمهورية . وهكذا تمّ بناء عدد كبير من المراكب المستديرة وكان ثلاثة منها على الأقل من الحجم الكبير جداً وقد خصصت للأغراض التجارية(١٦٦) .

وقد تزامنت فترة ازدهار دور الصناعة الخاصة (١٥٠٢ - ١٥٠٧) مع الفترة التي بدأت فيها تظهر نتائج اكتشاف طريق الهند عبر رأس الرجاء الصالح على تجارة البندقية الشرقية . والحقيقة ان الاكتشاف البحري قد أثر في الواقع على حمولات الشواني وليس على البضائع التي تنقلها المراكب المستديرة ، حتى أنه يبدو أن اكتشاف طريق الهند والمحيط الهندي كان بمثابة حافز لتنشيط صناعة السفن الخاصة في البندقية وتفسير ذلك أن المراكب البرتغالية والأسبانية كانت تدخل المتوسط وتأخذ الحمولات بدلاً من الإيطاليين والبنادقة خاصة . غير أنه لدى وصول دي غاما إلى الهند أصبح للبرتغاليين بحار جديدة يذهبون إليها وهكذا من الوجهة العملية خلى المتوسط للبنادقة فعرفت بحرية البندقية التجارية خاصة المراكب المستديرة انتعاشاً خلال السنوات التي أعقبت اكتشاف طريق الهند وهذا لا يعني أن هذا الانتعاش قد تحقق دون صعوبات. فالواقع أن حركة المراكب البندقية قد اضطرت مرات عديدة لتوقيف رحلاتها إلى الشرق خاصة الشواني بسبب الخلافات مع سلطان مصر من جهة وبسبب الصعوبات البحرية والدبلوماسية من جهة أخرى(١٦٧) .

لكن في الواقع هذه الأسباب لم تكن في أساس ركود حركة الشواني

---

(١٦٦) Lane. F., Venice and History. p. 11;

لمعرفة لائحة اسماء المراكب انظر :

A.S.V., Notaturio di Collegio, no. 27, Under Date July 5, 1507; Braudel. F., The Mediterranean, Vol. I. p. 306.

(١٦٧) Heyd. W., Histoire du Commerce, Tome II, pp. 492 - 493.

بالمقارنة مع حركة المراكب المستديرة بل كانت أسباباً عرضية وأن العوامل الحقيقية والمرجحة كانت أعمق بكثير وبإمكاننا أن نعدد ثلاثة عوامل رئيسية هي : التحسينات الثورية التي أدخلت على صناعة الأشرعة في المراكب المستديرة ، تطور المدافع واكتشاف طريق الهند عبر رأس الرجاء الصالح ، وقد حظي العامل الأخير بالدراسات الوافية والاهتمام على حساب العاملين الآخرين اللذين لم يأخذا حقهما من البحث والتدقيق[١٦٨] . قبل اكتشاف طريق الهند كان نصف أسطول الشواني (٩ - ١٠) يترك البندقية سنوياً باتجاه الثغور والموانىء المملوكية وكانت حمولة هذه الشواني العائدة تتكون من التوابل المختلفة بشكل رئيسي وقد جلبت في السنين الأخيرة من القرن الخامس عشر ما مجموعة ٣,٥٠٠,٠٠٠ باونداً سنوياً من التوابل منها ٢,٥٠٠,٠٠٠ باونداً من الإسكندرية لوحدها وكان الفلفل يشكل حوالي ٤٠ - ٥٠ ٪ من مجموع التوابل وقد بلغ ثمن مشتريات البنادقة من الفلفل والزنجبيل في كل من بيروت والإسكندرية سنة ١٤٩٧ حوالي ٢٩٨,٠٠٠ دوكات وسنة ١٤٨٩ حوالي ٢٠٤,٠٠٠ دوكات[١٦٩] .

ولم يتم تحسس النتائج التجارية لاكتشاف طريق الهند في الشرق إلاَّ اعتباراً من سنة ١٥٠٢ . ففي السنوات الأولى من القرن السادس عشر نجح البرتغاليون في زعزعة طرق ومحطات تجارة التوابل في المحيط الهندي والمؤدية إلى أسواق سلطنة المماليك أكثر من نجاحهم في تأمين حاجات أوروبا من التوابل[١٧٠] . وخلال الفترة الواقعة ما بين ١٥٠٨ - ١٥١٤ تدنت كميات

---

(١٦٨) Lane. F., **Op. Cit.**, p. 12.

(١٦٩) Ashtore. E., A Social and Economic History of the Near East in the Middle Ages, London 1976, pp. 327-328.
Lane. F., **Op. Cit.**, pp. 12 - 13.
Sanuto. M., I Diarii, Vol. II pp. 112, 128, 165, 172. Vol. IV, pp. 36 - 38;
Priuli, G., I Diarii di Girolamo Priuli 1494 - 1512, published in Rerum Italilar-um Scriptores (ed., vol. XXIV, pt 3; Citta di Castello, 1911), I. 73, 109.

(١٧٠) Heyd. W., Histoire du Commerce Tome II, p. 535.

التوابل التي كان يجلبها البنادقة من الإسكندرية إلى الربع ، حتى الفلفل أمسى استيراده قليلاً . أما التجارة مع بيروت فقد كانت أقل اضطراباً ولكنها كانت دون الحد المعهود(١٧١) .

وبعد سنة ١٥١٤ لم تذكر المصادر بدقة كميات الحمولات من التوابل التي كانت تجلبها الشواني من الشرق إلى البندقية . كما أنه اعتباراً من هذا التاريخ سمح للمراكب المستديرة بنقل التوابل من الإسكندرية إلى البندقية لأنها كانت تعطي خدمات أفضل بالنظر إلى تكاليف النقل على متنها . وسبب ذلك يعود إلى التغييرات التي طرأت على هذه المراكب بسبب تحسين قلوعها وتطوير أسلحتها النارية . فأضحى لكل مركب ثلاث صواري . وقد ركز الاختصاصيون في النقل البحري خلال العصور الوسطى على أهمية هذا التغيير فعلق أوبنهايم قائلاً إن المراكب الشراعية في سنة ١٤٨٥ هي أقرب في هيئتها إلى مراكب سنة ١٧٥٨ منها إلى مراكب ١٤٢٥(١٧٢) . ولعل التغيير في أشرعة هذه المراكب لم يؤد عملياً إلى زيادة سرعتها إلاّ أنه جعلها سهلة القيادة والمناورة ، ومن وجهة النظر المتعلقة بالأمان فإن الحسنات التي كانت تقدمها المجاذيف للشواني الكبيرة قد استعيض عنها بتلك التي تمنحها الأشرعة الجديدة للمراكب المستديرة .

وإذا كانت الحيطة من أجلّ سمات الشواني الكبيرة والتي كانت من أهم أسباب بقائها واستمرارها إلاّ أن تزايد استعمال المدفعية في الحروب جعل كفة الميزان ترجح لصالح المراكب المستديرة باعتبار أنها إذا ما جهزت بالمدافع وأديرت كما يجب تستطيع تأمين المدافعة المناسبة ضد أي اعتداء تماماً

(١٧١) Lane., F., **Op. Cit.**, p. 12.

(١٧٢) Oppenheim. M., A History of the Administration of the Royal Navy and of the Merchant Shipping in Relation to the Navy, London, 1896, p. 40; Romola and R.C. Anderson, The Sailing Ship, London, 1926, Ch. VII; Lane. F. **Op. Cit.**, p. 16.

كـالشواني المنخفضـة التي كان يتـذمر بحـارتها بسبب عـدم تـأمين الحمـايـة الكـافيـة لهم ضـد طلقـات المـدفعيـة . ومـع ذلـك بقيت الشـواني الخفيفـة العمـود الفقـري لـلأسـاطيـل الحـربيـة في المتـوسط بسبب الحـاجـة إليهـا لاعتراض الشواني العدوة . ولما كانت الشواني الكبيرة باهـظة التكاليف فقـد كانت أسعار النقل على متنها مضاعفة لأسعار المراكب المستديرة غير أنه بالنظر إلى الانطباع السائد بمصداقية الأمان الذي تقدمه الشواني فقد كـان التجار لا يجدون من ضرورة في إجراء عمليات التـأمين على بضائعهم ولهـذا حافـظت الشـواني على وضعها . ولكن عنـدما حـرم تطور الأشـرعة وانتشـار استعمـال الأسلحة النارية والمدافع الشـواني التجارية من تفوقها لجهة الأمان ، لم يعـد باستطاعتها منافسة المراكب المستديرة الزهيدة التكاليف والتي لا تحتاج إلاّ إلى أسلحة دفاعية(١٧٣) .

السيادة البحرية الإيطالية على شرقي المتوسط :

ليس من شـك في أن السيادة البحـرية التي مـارستها المـدن الإيـطاليـة وبـالتحديـد البندقيـة على شـرقي البحـر المتـوسط كـان مـردهـا إلى المهـارة الإيطالية في صناعة بناء السفن وفي إدارة المراكب الحربية والتجارية على حد سواء . وكان لتطور تلك الصناعة الفضل الأكبر في جعل المدن والجمهوريات الإيـطالية تلعب دوراً رائـداً وجـريئـاً في الشـرق على الصعيـدين الاقتصـادي والعسكري . فمنذ الحملات الصليبية ساعدت أساطيل بيزا وجنوى والبنـدقية الصليبيـين . غيـر أن البندقيـة أظهرت قليـلاً من الاهتمام في حيـازة الأراضي وفضلت السيـطرة على البحار التي تستخـدمهـا لتجـارتهـا. وكـانت البنـدقيـة تعتبر القسطنـطينية ذاتهـا أهم قاعـدة لها كمـا كانت تعتبـر جزيـرة كريت ذات أهمية خاصة على الصعيد الاستراتيجي لوقوعها على المداخل الجنوبية الغربية والجنوبية الشرقية لبحر ايجه وعلى الطريق المباشرة من البحر الأيوني إلى مصر

(١٧٣) Braudel. F., The Mediterranean. Vol. I. pp. 306 - 307 ; Lane. F., Venice and History, p. 16.

أو سوريا . وفي سبـل امتلاك كـريت كان على البنـادقة دفـع الأموال الـطائلة والتخلي عن أراض في أماكن عدة وحتى القتال ضد القرصان الجنوى المعروف باسم هنري الصياد Henry the Fisherman ، كونت مالطا ، والذي كان يتلقى الدعم التام من مدينة جنوى واليونان .

وإلى الشمـال من بحر ايجـه وطدت البنـدقية دعـائمها في نغـروبـونتي Negroponte وفي البحر الأيوني حصل البنادقة على مودون Modon وكورون في القسم الجنـوبي من شبـه جـزيـرة المـورا وحصنـوهمـا فـأصبحتـا عينـا الجمهورية ، وطلب إلى كل المراكب العائدة من الشرق التوقف هنـاك لتلقي الأخبار أو إعطاء المعلومات حول نشاط القرصان وحركة القوافل . ومع قبـول راجوزا Ragusa في الفترة التي تهمنا بكونها قاعدة أساطيل البندقية العاملة عند نهاية البحر الأدرياتيكي فقـد أضحى البنادقـة دون منازع القـوة البحريـة الأكثر بروزاً في شرقي المتوسط (١٧٤) .

وقد حاولت البندقية جدياً خارج البحر الأدرياتيكي أن تمارس نـوعاً من السيطرة البحرية «Command of the Sea» بهدف ممارسة نوع من التحكم بالممرات البحرية «Cut-and-dried Command» عن طريق القيام بـدوريات من شـأنها جعل شرقي المتوسط في مختلف الفصول تحت مـراقبتها والتمـركز في نقـاط استراتيجية على طول الطرق التجارية التي تحددها بشكل عام الرياح الغالبة في تلك المنطقة .

والواقع أنه في أوروبا خلال القرون الوسطى لم يكن باستطاعة أحد أن يمارس سيطرة بحرية كاملة على بقعة واسعة في البحر ولكن البنـادقة نجحـوا تقريباً في تحقيق ذلك في البحر الأدرياتيكي . فبذلوا وسع جهدهم في القضاء على القـرصان في زمن الحـرب والسلم على السـواء ، ولـذلـك فقـد سيـروا

---

(١٧٤) Lane. F., Venice, a Maritime Republic, p. 43.

الدوريات من الشواني لجعل البحر آمناً . وكانت هذه الدوريات تواكب المراكب التجارية القاصدة رومانياً وراجوزا في حين كان أسطول البندقية الحربي يعمل في بحر ايجه أو ما وراء البحر «beyond-the-Sea» .

أما مسألة التحكم بالمتوسط ككل أي منع الأعداء من سلوك ممراته وجعل الملاحة فيه آمنة في كل الأوقات للأصحاب فهي صعبة المنال وفي غير متناول اليد فلا البندقية ولا أي من منافسيها كان بمقدوره دحر من يعاديه من المتوسط . وسبب ذلك يعود إلى النقص في الوسائل التقنية من أجل إقامة محاصرة بحرية فعّالة. ولما كانت الطرقات البحرية متعددة فقد كانت المراكب التجارية البطيئة وغيرها تنتقي ما يناسبها من طرقات ولذا كان على الشواني من الصعوبة بمكان أن تقفل كافة الطرقات لقلة عددها من جهة ولكون هذا النوع من المراكب قد صمم وبُني بشكل لا يسمح لها بالبقاء بعيداً عن قواعدها إلى ما شاء الله وفي أحوال جوية رديئة . وبالنظر إلى تلك الظروف فإن السيطرة البحرية التي سعى إليها البنادقة كانت تتمظهر بشكل أساسي في إمكان حماية قوافلهم البحرية التجارية ودعم مستعمراتهم مع القدرة على إلحاق الخسائر في تجارة أعدائهم أو الإغارة على ثغورهم ومستعمراتهم . وهذا ما قامت به البندقية بالفعل في شرقي البحر المتوسط . ولما كان النقل البحري التجاري هو ما كان يصبو إليه البنادقة فقد جعلوا قواعدهم الاستراتيجية المرافىء التي كان بالإمكان تنظيم القوافل فيها واستقبال المراكب للتزود بالماء والمؤن أو طلباً للحماية من هياج البحر وأخطاره .

المنافسة الجنوية :

اهتم الجنويون بادىء الأمر في الشطر الغربي من البحر المتوسط الذي ظلَّ مركزاً حيوياً لتجارتهم ، ثم استغلوا الحملات الصليبية وفتحوا أسواقاً جديدة فيما وراء البحر .

---

(١٧٥) Lane. F., **Ibid.**, pp. 67 - 68.

وقعت الحرب الجنوية ـ البندقية الأولى عقب عدة حوادث جرت في عكا عام ١٢٥٧ فقد أقدم البنادقة على قتل مواطن من جنوى فاهتاج الجنويون وهاجموا ونهبوا الحي البندقي وانتقل القتال إلى دير يفصل ما بين الحيين . كما انقسم الناس في عكا يناصرون هذا الفريق أو ذاك فالبيازنة وفرسان الهيكل وتجار البروفنسال Provencial وقفوا إلى جانب البندقية، في حين انضم العديد من البارونات إلى صف الجنويين . أما في أوروبا فقد حاول البابا وغيره الوساطة ولكن دون جدوى . وبناء على ذلك قررت السلطات البندقية إرسال أسطولها الحربي برفقة القافلة البحرية التي توجهت إلى الشرق في صيف ١٢٥٧ . وكان الهدف من ذلك إعادة الأمور إلى نصابها. قائد الأسطول كان لورنزو تيبولو Lorenzo Tiepolo ابن دوق البندقية فاقتحم مرفأ عكا عبر السلاسل وتقاتل مع الجنويين الذين حاولوا صده ثم أحرق مراكبهم وأخذ الدير المتنازع عليه . وفي السنة التالية وصل أسطول جنوي كبير لكن تيبولو كان قد تحضر لذلك عن طريق تلقي المساعدات وخاصة من البندقية . ولما ظهر الجنويون أمام شواطىء عكا في حزيران سنة ١٢٥٨ ، خرج لملاقاتهم فاتخذ الجنويون ترتيبات دفاعية مما أتاح للورنزو أخذ زمام المبادرة والانقضاض على الجنويين بتشكيلات هجومية . وبالرغم من تفوق الأسطول الجنوي المؤلف من ٥٠ شانياً و ٤ مراكب مستديرة مقابل ٣٩ شانياً و ٤ مراكب مستديرة و ١٠ طرادات[١٧٦] Tarettes إلاّ أن انتصار البنادقة كان ساحقاً ، فقد خسر الجنويون نصف شوانيهم وحوالي الـ ١٧٠٠ قتيل أو أسير واضطروا إلى الهرب إلى صور[١٧٧] .

---

(١٧٦) الطراد سفينة صغيرة سريعة السير والجري .
انظر ماهر. س. ، البحرية في مصر الإسلامية ، القاهرة ١٩٦٧، ص ٣٥٣.

(١٧٧) Lane. F., Venice a Maritime Republic, pp. 73 - 75;
Heyd. W., Histoire du Commerce, Tome I, pp. 349 - 350.

معـــركـة ثـــانيـة حصلت مـــا بين الجنـويـين والبنـــادقـة في ستبـــوزي Settepozzi في بحـر ايجـه سنـة ١٢٦٣ وكـان النصـر للبنـادقـة أيضـاً بسبب تـردد أمـراء البحـــر الجنـويـين لـــرغبتهم في العـودة ســالمين إلى أصحـاب سفنهم والمستثمرين في القطاع الخـاص . ومع أن الصلح قـد عقد في سنـة ١٢٧٠[١٧٨] إلّا أن تكاليف الحرب كانت باهظة بالنسبة لطرفي النزاع وقد نتج عن ذلك أن اضطرت البندقية إلى إرسال قافلة واحدة سنوياً إلى عكا كما ألزمت القافلة المتوجهة إلى رومانيا بعدم تخطي نغروبونتو في بلاد اليونان للتمكن من نجدتها من جزيرة كريت في حال تعرضها للخطر .

وقد حُددت مواعيد الإبحار والطرق المتبعـة بعنايـة فائقـة كما خصصت القوافل التجارية بوحدات من المـواكبة قـوامها من ١٥ إلى ٣٠ شـانياً . هـذا الإجراء أعطى نتائج حسنة ولكنه حرم البنادقة من توفـر شواني جـاهزة لـديهم للقيام بعمليات إغارة على المراكب والمصالح التجـارية لأعـدائهم باعتبـار أن شوانيهم كانت كلها منهمكة في تنفيذ مهمات المواكبة . بالإضافة إلى أن هذا الإجراء كانت له سيئات أخرى علاوة على إرباك الشواني الحـربية وأهمهـا أن المراكب التجارية والحربية المجمعة في قافلة واحدة قد تغري العدو بمهاجمة هذا النوع من الأهداف الكبيرة إذا ما توفرت له الإمكانيات اللازمة . وقد ثبت أثناء سنين الحرب أن مبدأ القوافـل البحريـة كان أقـل إفادة من طـريقة النقـل البحري بالوسائل الخاصة[١٧٩] .

الحرب الجنويـة الثانية ١٢٩٢

أدى سقوط عكا إلى إزدهار لاجـازو Lajazzo في آسيا الصغرى وتحويلها بالتالي إلى مركز للصراع ما بين الجنويين والبنادقة. وبالرغم من أن اتفاقية ١٢٧٠ قد جددت مـراراً، إلّا أن أعمال القـرصنة والمنـافسة التجـارية جعلت طـرفي

(١٧٨) Heyd. W., **Ibid.**, Tome I, p. 354.

(١٧٩) Lane. F., **Op. Cit.**, pp. 76 - 78.

النزاع متحفزين لتحويل أي حادثة بسيطة إلى حرب ضروس بسبب رغبة كل منهما بطرد خصمه من البحر الأسود لتعاظم أهميته . وبعد مناوشة عفوية خسر البنادقة عدة شواني فأرسلوا أسطولاً كبيراً من الشواني لمواكبة القافلة المتوجهة إلى قبرص وأرمينيا سنة ١٢٩٢ وقد توقعوا ظاهرياً إعادة ما حدث في عكا سنة ١٢٥٨ . ولدى وصولهم إلى قبرص استولوا على ممتلكات الجنويين هناك ودمروا جزءاً منها . وعند وصول هذه الأخبار إلى الجنويين في البيرا Pera جهزوا مراكبهم وأخذوا معهم كل ما يمكن تطويعه في رومانيا واتجهوا إلى شرقي المتوسط (beyond - the - Sea) والتقوا مع البنادقة في عرض البحر مقابل لاجازو. كان البنادقة أكثر عدداً ولم يتوقعوا أن يهاجمهم الجنويون فاغتنم الجنويون الفرصة وهاجموا المراكب البندقية التي لم يتح لها المجال لتفريغ حمولتها من البضائع أو حتى المناورة لأخذ ترتيبات القتال فتداخلت المراكب البندقية بعضها في بعض وتمّ النصر للجنويين الذين استولوا على معظم المراكب بما فيها من بضائع(١٨٠) . وقد الهب النصر حماس الجنويين فتابعوا هذه الحرب لتحقيق المزيد من الانتصارات . لكن الفوز في المعارك لم يكن ذا فائدة أكثر مما حققه النصر للبنادقة في الحرب السابقة ولذلك عمد الجنويون تحت ضغط مشاكلهم الداخلية وخوفاً من قوة البندقية التي لم تتزعزع إلى قبول شروط الصلح في سنة ١٢٩٩(١٨١) وبموجب هذه الشروط اعترفت البندقية بسيادة جنوى على الريفييرا Riviera كما اعترفت جنوى بسيادة البندقية على البحر الادرياتيكي . والجدير بالملاحظة أن ضغط التنظيمات السياسية في جنوي كان في أساس حرمانها من انتصاراتها البحرية وقد تجلى ذلك واضحاً خلال القرن التالي(١٨٢) .

---

(١٨٠) Heyd. W., **Op. Cit.**, Tome I, P. 431.

(١٨١) Heyd. W., **Ibid**, Tome I. P. 441.

(١٨٢) Lane. F., **Op. Cit.**, pp. 82 - 84.

الحرب الجنوية الثالثة ١٣٥٠ :

تمحورت الخصومة الجنوية ـ البندقية في بحر إيجه والبحر الأسود والمضائق بينهما . وقد دعّم الجنويون بعد حربهم الثانية مواقعهم التجارية في البيرا وكافا Caffa وجزيرة خيو والأماكن القريبة من مناجم الشب alum .

وقد نافس البنادقة الجنويين بشكل جدي خاصة بعد عام ١٣٢٤ عندما فقدت البندقية الأمل في إقامة إمبراطورية لاتينية في القسطنطينية فسعت إلى توطيد علاقاتها مع أباطرة بيزنطية فمنحتهم الدعم ضد الجنويين، وضد الهجمات العثمانية الخطرة والمتزايدة مقابل الحصول على المزيد من الامتيازات[١٨٣].

حوادث السنة الأولى من الحرب (١٣٥٠) ، كانت مهمة لأنها أظهرت مدى تغير البنادقة في تعاملهم مع الجنويين . الأسطول البندقي كان مؤلفاً من ٢٤ شانيا بقيادة ماركو روزيني Marco Ruzzini الذي فاجأ ١٤ شانيا جنوياً محملة بالبضائع في مرفأ كاسترو Castro بالقرب من نغروبونتو فاستولى على عشر (١٠) منها ولكن الاشتباك اعتبر مشيناً بسبب تمكن ٤ مراكب جنوية من الهرب والتي ما كان باستطاعتها الإفلات لولا قلة الأنضباط في أسطول البنادقة وهذا ما كان يتوقع من أسطول غالبية بحارته من المرتزقة[١٨٤] . وقد أدرك البنادقة أنه ليس باستطاعتهم لوحدهم تجهيز اسطول كبير يكفي لسحق الجنويين ولذلك عمدت حكومة البندقية إلى التطلع إلى حلفائها من الكتلان[١٨٥] والأباطرة البزنطيين ودعوتهم إلى القتال إلى جانبها لقاء بذل المال لهم . وقد تفاءل حكام البندقية بتجميع اسطول كبير Armada قوامه ٨٠ إلى ٩٠ شانيا . وبقوة من هذا الحجم خططوا لاحتلال ممتلكات جنوى في الشرق وإعادة البيرا

---

(١٨٣) Heyd. W., Histoire du Commerce, Tome I, p. 490.

(١٨٤) Lane. F., Venice a Maritime Republic, pp. 175 - 176.

(١٨٥) Heyd. W., Op. Cit., Tome I. p. 503.

وخيو إلى الامبراطور البيزنطي ، وتدمير الأساطيل الجنوية مقابل الريفيرا ومحاصرة جنوى حتى إخضاعها . ولكن الخطة لم تنجح لأن الجنويين أرسلوا أسطولاً مؤلفاً من ٦٤ شانيا بقيادة باغانينو دوريا Paganino Doria قبل أن يتمكن الكتلان أو البنادقة من الجهوز . غير أن الجنويين لم يتمكنوا من منع الأسطول الكتلاني - البندقي من التسلل إلى القرن الذهبي والاتصال بالبزنطيين . فعمد الجنويون إلى تنظيم صفوفهم في مضيق البوسفور وقاتلوا سجالاً البنادقة وحلفاءهم. وقد ادعى كلا الطرفين كسب المعركة(١٨٦) ولكن النصر اعتبر من الناحية الاستراتيجية إلى جانب الجنويين لأقدام الكتلان والبنادقة على الإنسحاب بسبب كثرة ما خسروه فعدلوا عن معاودة مهاجمة البيرا خاصة وأن الجنويين كانوا يتلقون الأمدادات والمقاتلين من السلطان العثماني أورخان الأول(١٨٧) (١٢٨٨ - ١٣٥٩) الذي كان يتحكم بالجانب الشرقي من البوسفور وبحر مرمرة . وكان أورخان يطمع في التوسع في الشطر الأوروبي ولذا لم يرغب في رؤية القوة البحرية البيزنطية أو البندقية تتعاظم . وقد جرت معركة بحرية أخرى مقابل مرفأ صغير بالقرب من مودون يدعى بورتو لونغو Porto Longo تمكن خلالها الجنويون من التسلل عبر الوحدة المولجة بالحماية وانقضوا على المراكب البندقية الراسية قرب الشاطىء والغير محضرة للقتال فغنموها جميعاً وأخذوا كثيراً من الأسرى ومن بينهم الأميرال بيزاني Pisani قائد الأسطول البندقي(١٨٨) غير أن شروط الصلح (١٣٥٥)(١٨٩) لم تكن مماثلة لتلك التي قد يفرضها المنتصر على المنهزم بل جاءت لتجعل كافة الأبواب

(١٨٦) Heyd. W., **Ibid.** Tome I, p. 507.

(١٨٧) اورخان : (نحو ١٢٨٨ - ١٣٥٩). ابن الأمير عثمان . هو مؤسس الأمبراطورية العثمانية ، أنشأ جيشها وقوى سلطته في آسيا الصغرى ، هزم البزنطيين عند بروسا (١٣٢٦) ثم اجتاز البوسفور فاتحاً مكدونيا وتراقيا .

(١٨٨) Lane. F., **Op. Cit.,** p. 179.

(١٨٩) Heyd. W., **Op. Cit.,** Tome I, pp. 508 - 509.

مفتوحة . ولذلك فقد تعهدت كل جمهورية بوقف الهجمات على الأخرى وأن تمتنع كل منها عن إرسال أسطولها إلى تانا في البحر الأسود خلال الثلاث سنوات المقبلة . وقد تمكنت البندقية من الإبلال بعد هزيمة بورتو لونغو بسبب مهارتها في المناورات الدبلوماسية وبسبب مشاكل جنوى الداخلية والعائدة لسيطرة الفيكونتي Viconti حكام ميلانو عليها(١٩٠) .

الحرب الجنوية الرابعة ١٣٧٨ :

إندلعت هذه الحرب نتيجة للجهود المتنافسة للسيطرة على البحر الأسود عن طريق حيازة جزيرة تندوس Tenedos الصغيرة على مدخل الدردنيل . وعندما صُعِّدت العمليات العسكرية على نطاق واسع سنة ١٣٧٨ اختير فيكتور بيزاني Victor Pisani قائداً عاماً للأسطول وأرسل إلى الغرب مع ١٤ شانيا لمهاجمة الجنويين في عقر دارهم . وفي نهاية سنة ١٣٧٨ طلب بيزاني الأذن بالعودة إلى البندقية لتجديد طواقمه والتزود بالمؤن ، لكن مجلس الشيوخ البندقي أمره بقضاء فصل الشتاء في بولا Pola في استريا Istria في القسم الشمالي الشرقي من البحر الأدرياتيكي ليتسنى له التحرك بسرعة لنجدة القوافل . وبعد قضاء فصل الربيع في مواكبة قافلة الحبوب من أبوليا Apulia واجه بيزاني تحدياً من أسطول جنوي قوامه ٢٢ شانيا وهو يرفع شارة تدعوه للقتال وهي عبارة عن بيرق عليه سيف رأسه إلى الأعلى . وكان عدد الشواني الجنوية المرئية ١٦ شانيا في حين اختبأت الست الباقية بهدف مباغتة البنادقة من الخلف . ومع أن التفوق العددي الظاهر كان لصالح بيزاني إلاّ أنه عارض رد التحدي بسبب وضع بعض وحدات أسطوله التي كانت قيد الترميم . ولكن عندما اجتمع مجلس أركان الحرب المؤلف من قادة المراكب عرف بيزاني بميلهم للقتال لأنهم اعتبروا عدم مواجهة العدو جبانة ولذلك امر بيزاني بإعداد

(١٩٠) Lane. F., **Op. Cit.**, p. 179.

أكثر ما يمكن من المراكب على جناح السرعة وقـاد الهجوم شخصيـاً من على متن مركبه . ونتيجة لهذا الهجوم قتل الأميـرال الجنوى وسحقت مـركبه وبـدا النصر إلى جانب البنادقة إلى حين تَدَخُّل وحدة الاحتياط الجنـوية التي كـانت مختبئة فتغير مجرى المعركة لغير صالح البنادقة ، ولما يأس بيزاني من تحقيق النصر انسحب مع خمس أو ست من شوانية طلباً للنجاة . ونتيجة لهذه المعركة قتـل مئات من البنـادقة ووقـع في الأسر المـزيد من ذلـك بما فيهم (٢٤) من النبلاء[١٩١] وقبل نهاية سنة ١٣٧٩ أوشكت الجمهورية أن تتعرض للهجوم أكثر من أية مرة في تاريخها وذلـك عندمـا قامت قـوات مشتركـة من جنوى وبـادوا Padua باحتلال كيوجيا Chioggia في خليج البندقية بعملية خاطفة وحاسمة . عندها طلبت البندقية إجراء مفاوضات ولكن أعداءها أجابوا انهم لن يفاوضـوا حتى يلجموا أحصنة سان ماركـو San Marco وهي أربعة أحصنـة مشهورة من البرونز جلبت من القسطنطينية سنة ١٢٠٤ وتقف حتى اليوم فوق مدخل كنيسة سان ماركو . وفي هذه الأثناء وُضع بيزاني في السجن بتهمة زج الأسطول في معركة لم يتحضر لها وبشكل فوضوي دون إعطاء قادة المراكب الوقت الكافي لأخذ ترتيبات القتال وبتهمة عدم متابعة القتـال والانسحاب من المعـركة قبـل انتهائها . كما عمد مجلس الشيوخ البندقي إلى ارسال ستة شواني بعد هزيمة بولا لدعم الأميرال كارلو زينو Carlo Zeno الذي أرسل منذ حوالي الشهر على رأس قوة مؤلفة من خمسة شواني لضرب وسائل النقل البحري الجنويـة . ولـم يدرك مجلس الشيوخ البندقي ولا الأميرال زينو مدى حاجة الجمهورية المـاسة لتلك الشواني للدفاع عن نفسها .

غير أنه بعـد سقوط كيـوجيا أدركت طبقـة النبلاء في الجمهـورية مـدى حـاجتها للدعم الشعبي للدفـاع عن المدينـة فأطلقت الـوعـود الشتى بـإجـراء

---

(١٩١) Heyd. W., Histoire du Commerce. Tome I, pp. 517 - 520.

Lane. F., Venice a Maritime Republic, pp. 189 - 192.

الإصلاحات السياسية وبإعطاء المكافآت السخية عند انتهاء الحرب كما عمدت إلى إطلاق بيزاني من السجن ارضاء للمواطنين الذين رفضوا ملامته بسبب الهزيمة بل اتهموا قادة المراكب بالتقصير ولاموا مجلس الشيوخ لرفضه طلب بيزاني بالعودة إلى البندقية وإجباره على قضاء فصل الشتاء مع بحارته في بولا كما عزوا الحكم عليه بالسجن بسبب غيرة النبلاء من شعبيته الكبيرة بين البحارة الذين احبوه واعتبروه قائد وأب كل بحارة البندقية :

« Cavo e padre de tuti i marinari de Veniexia » .

وبنتيجة لذلك عيّن دوج(١٩٢) البندقية كونتاريني Contarini نفسه قائداً عاماً للأسطول كما عيّن فيكتور بيزاني رئيساً لأركانه .

هدفت خطة بيزاني في الهجوم المضاد إلى قطع خطوط مواصلات العدو عن طريق إغراق مراكب وزوارق محملة بالحجارة في القنوات والمجاري التي تربط كيوجيا باليابسة والبحر . وهكذا غادرت البندقية في مساء الثاني والعشرين من كانون الأول وهو من أطول ليالي السنة ، المراكب والزوارق المحملة بالحصى تحت حماية الشواني واتجهت إلى كيوجيا بإمرة الدوج المتقدم في السن .

وعند الفجر قامت وحدة بندقية كبيرة بالابحار بالقرب وإلى الجنوب من كيوجيا وقد رُدّت على أعقابها ولكنها نجحت في تحويل الأنظار عن عمليات قطع خطوط المواصلات التي كانت تجري على قدم وساق في أماكن أخرى . ورويداً رويداً تمكن البنادقة من استعادة سيطرتهم على خليجهم وعلى الطرقات المؤدية إليه وأضحى الجنويون في كيوجيا محاصرين أكثر وأكثر وبدأت المؤن والذخائر بالنفاذ ولما استنفد الجنويون ما لديهم بسبب الحصار في كيوجيا استسلموا في حزيران ١٣٨٠ .

---

(١٩٢) Lane. F., **Ibid.**, p. 193.

أثناء المفاوضات من أجل الصلح طلبت البندقية المنتصرة في كيوجيا حق اقتراح شروط الصلح . وبموجب اتفاقية تورين سنة ١٣٨١ Turin Treaty تخلت البندقية عن تحصينات جزيرة تندوس Tenedos وقبلت بعدم اتجار البنادقة والجنويين في تانا على البحر الأسود خلال السنتين القادمتين كما أقرت بحقوق البنادقة المميزة في جزيرة قبرص(١٩٣) .

إن الحرب الجنوية الرابعة من خلال الحكم عليها عبر معاهدة تورين تعتبر هزيمة للبندقية وغير حاسمة كالحروب الثلاث السابقة .

ولكن الأحداث برهنت أن البندقية ، التي صمدت بتطلعاتها ومؤسساتها وحافظت على مستعمراتها دون أن تمس ، قد كسبت بالواقع الصراع الطويل مع جنوى .

وتجدر الإشارة إلى أهمية استخدام المدفعية في الحرب الجنوية الرابعة والمعروفة عموماً بحرب كيوجيا .

فبالرغم من استخدام المدافع في الغرب منذ بداية القرن الرابع عشر إلاّ أن حرب كيوجيا كانت الأولى التي استخدمت فيها المدافع على متن المراكب البندقية . فالمدافع قد ركبت في ابراج الشواني forecastles كما وضعت على المراكب الطويلة الصغيرة نسبياً والتي استخدمت بكثرة في القتال الدائر حول كيوجيا(١٩٤) وبالطبع كانت هذه المدافع ضرورية لصد هجمات المراكب ،

---

(١٩٣) Heyd. W., **Op. Cit.**, Tome I, pp. 525 - 528;
Lane. F., **Op. Cit.**, pp. 195 - 196.

(١٩٤) Lane. F., **Ibid.**, p. 195.

ـ لمزيد من التفاصيل حول استخدام المدافع البحرية في معركة كيوجيا Chioggia انظر :

Montu. C., Storia della artigliera itatliana. rome, 1933, vol. I., pp. 119 ; 21.

وقد ذكر كارلو شيبولا Cipolla ان شواني البندقية التجارية «galere da mercato» =

فبعد أن احتل البنادقة جزيرة تندوس Tenedos ركزوا المدافع لتقوية تحصيناتها . غير أن المدافع الأولى كانت ، إذا ما اطلقت من البر أو البحر على السواء ، غير دقيقة الإصابة وكانت قذائف المدافع من الحجارة غير مرهوبة الجانب بالقياس إلى السهام الفولاذية التي تطلقها الأقواس Crossbows والتي أصيب وجرح بها بيزاني أكثر من مرة . وكانت المدافع تستخدم بشكل رئيسي في دك الأسوار(١٩٥) . وقد قتل القائد الجنوي في كيوجيا، بيارو دوريا piero Doria عندما سقط عليه برج أصيب بطلقة مدفع فوقع(١٩٦) .

معركة مودون Modon ما بين البندقية وجنوى ١٤٠٣ على أثر نهب مدينة بيروت .

بعد تولي جان لومانغر jean le Maingre ، المعروف بمرشال دي بوسيكو de Boucicaut منصب حاكم جنوى في عام ١٤٠١ من قبل ملك فرنسا لويس السادس Louis VI الذي خضعت له هذه الجمهورية سنة ١٣٩٦ أثر بعض الثورات الداخلية فيها ، عمد بوسيكو إلى استئناف مشروعاته الصليبية في

= كانت تحمل على متنها فقط الرماة بالقوس والنشاب (ما بين الـ ٢٠ و٣٠) حتى منتصف القرن الخامس عشر . وفي سنة ١٤٦١ أضيفت المدافع الى تسليح المراكب العادي وأوجبت قرارات الحكومة وجود ستة من سدنة المدافع على متن كل شاني. وفي سنة ١٤٨٦ ارتفع عدد السدنة على متن كل شاني تجاري galera da mercato إلى ثمانية .

انظر :

Cipolla. C., Guns, Sails and Empires : Technological Innovation and the Early Phases of European Expansion 1400 - 1700. New York, 1965, p. 75.

انظر أيضاً :

Sacerdoti. A., Note sulle galere da mercato veneziane nel sec. XV, in Bolletino dell'istituto di storia della societo e dello stato Veneziano. 6 (1962), pp. 80 - 105.

(١٩٥) Cipolla. C. Guns, Sails and Empires, p. 93.

(١٩٦) Lane. F., **Op. Cit.**, p. 194.

الشرق سنة ١٤٠٣ فجمع اسطولاً مكوناً من ١٨ مـركباً (ثمـانية شـواني وعشر مـراكب مستديـرة) وهاجم كـلاً من الإسكندريـة وطرابلس ثم بيـروت(١٩٧) . ولسنا هنا في مجال وصف هذه الحملة ضد الثغور المملوكية ولكن المهم أن إغارة بوسيكو على الإسكندرية وطرابلس لم تكن حـاسمة وذات نتـائج مهمـة لسرعة تدخل المماليك في الإسكندرية من جهة ولمنعه أسوار طرابلس ويقظة حاميتها من جهة ثانية . أما بيروت فقد دخلها الجنويون بسهولة لضعفها بسبب أسوارها المهدمة والواطئة ولهرب أهلها . فعمد الجنويون إلى تخريبها وسرقـة بضائع البنادقة فيها من توابل وغيرها فحملوها على متن مـراكبهم واتجهوا بهـا إلى فماغـوستا حيث باعـوها بـالمزاد(١٩٨) . وقـد توجست السلطات البنـدقية خيفة من هذه الحملة منذ بدايتها ولذا عمدت إلى تعزيز الدفاعات في كل من مودون Modon وكورون Coron في بحر إيجه . كما أوعزت إلى الأميرال كارلو زينو Carlo Zeno قائد الأسطول البندقي باعتراض بوسيكو لدى مروره بالقرب من مودون . وفي الحادي عشر من تشرين الأول ١٤٠٣ ولدى عودة بوسيكو من قبرص وعلى متن مراكبه الأحد عشر ما بقي من التوابل المسروقة التقى بالقرب من سواحل المورا وعلى علو جزيرة سابيانزا Sapienza بالأميرال زينو ولديه أحد عشر شانيا(١٩٩) فـدارت معركة عنيفة بين الطرفين خسر فيها الجنـويون ثـلاثة

---

(١٩٧) Dopp. P.H., L'Egypte au Commencement du Quinzième Siècle, d'après le Traité d'Emmanuel Piloti de Crète, le Caire, 1950, pp. 84 - 93.

(١٩٨) Dopp. P. H. **Ibid.**, p. 91.
Heyd. W., Histoire du commerce, Tome II, p. 275.

(٩٩) ذكر بيولوتي (ص ٩٣) عن طريق الخطأ كان لديه ستة شواني .
«Misser Charlo Zen avecques. vj. galies».
لكن المؤرخين يختلفون مع بيلوتي في هذا الرأي فقد ذكر دي لا فيل لورو De la Ville le Rouex أن زينو كان لديه أحد عشر شانيا ، لمزيد من التفاصيل انظر :
De la Ville Le Rouex. J, La France en Orient au XIV ème Siècle , Expédition du Maréchal Boucicaut, Tome I, p. 452. =

شـواني كما وقـع كثير من القتلى والجـرحى من الطرفين ولـولا تلهي البنادقـة بـالنهب والسلب والتقاعص عن القيـام بواجبهم لقضـوا على كامـل الأسـطول الجنوي . وقد استغل بوسيكو هذا الموقف فقفل عائداً إلى جنوى بما بقي لديه من مراكب وما عليها من توابل[٢٠٠] . وفي طريق عـودتـه عمـد بوسيكـو إلى اعتراض المراكب البندقية العائدة من تانا ومصادرة ما عليها من بضائع . وبعد تدخل أمبراطور القسطنطينية مانويل الثاني Manuel II تمّ الصلح ما بين البندقية وجنوي وتمت تسوية الخلاف بموجب اتفاقية ٢٨ حزيران ١٤٠٦ واتفاقيـة ٣٠ كانون الأول ١٤١٠[٢٠١] .

الرحلات الموسمية المعروفة بالمدة Muda

بعد إنتهاء الحروب والمنازعات الجنوية البندقية ، اعطي اهتمام ملحوظ لنقل البضائع الثمينة بحـراً وقد تـوخت المدن والجمهـوريات الإيـطالية جنـاء الأرباح الطائلة عن طريق فرض الرسوم البـاهظة على تجـارة التوابـل والسلع الشرقية. ولهذا السبب عادت الشواني التجاريـة البندقيـة تطرق مجـدداً أبواب رومـانيا والإسكنـدرية وبيـروت وبلاد الفـلاندر Flanders وكـانت الأسـاطيـل

= وقد أعاد ميشال دي بوارد Michel De Bouärd التدقيق في هذه الأحداث ، انظر :

De Bouärd. M, Les Origines des Guerres d'Italie, La France et L'Italie au Temps du Grand Schisme d'Occident. Paris, E. de Boccard. 1936, pp. 263 - 270.

انظر أيضاً :

Heyd.W., Histoire du Commerce, Tome II, pp. 274 - 275, pp. 469 - 471.

(٢٠٠) تحدث بوسيكو باقتضاب عما أصابه من خسـارة في مذكـراته المعـروفة تحت أسم كتاب الوقائع :

Le Livre des Faicts de Boucicaut, pp. 266 - 267.

انظر : Dopp. P.H., **Op. Cit,** p. 93.

(٢٠١) Heyd. W., **Op. Cit.,** p. 275.

Heyd. W., **Ibid.,** p. 275.

المرسلة إلى تلك النواحي صغيرة وضئيلة المراكب وتتألف من ٢ إلى ٤ شواني إذا ما قورنت بالنسبة لتلك المرسلة في منتصف القرن الرابع عشر والتي كانت تتألف من ٦ إلى ١٠ شواني ، وسبب ذلك يعود إلى الحروب العديدة والطواعين المتكررة والحالة الاقتصادية العامة المتقلصة والتي كان من شأنها جميعاً أن تحدّ من مستوى النشاط التجاري وتقيده[٢٠٢] .

وقد ذكر أرنولد فون هارف لدى زيارته للبندقية عام ١٤٩٧ في طريقه إلى الأراضي المقدسة إن مجلس الشيوخ كان يرسل في ذلك الوقت أربعة عشر شانياً سنوياً إلى كافة البلدان لحمل البضائع إليها والعودة منها بسلع أخرى . وقد عدّد هارف تلك البلدان فذكر أن شانيين قد خصصا للإسكندرية واثنين لبيروت واثنين لطرابلس واثنين لبلاد البربر (شمالي أفريقيا Barbary) واثنين للقسطنطينية واثنين ليافا التي اعتاد الحجاج أن يبحروا كل سنة على متنها للذهاب الى القدس ، واثنين إلى انجلترا واثنين إلى بلاد الفلاندر[٢٠٣] . إن مجموع هذه الشواني يبلغ ١٦ شانياً والحقيقة أن المراكب التي كانت تذهب إلى بيروت وهي نوع من المراكب المستديرة Round Ships كانت هي ذاتها تذهب إلى طرابلس لتحميل القطن والقلي والسكر[٢٠٤] وغيرها وهكذا يصبح عدد المراكب التي ذكرها هارف مطابقاً لعدد المراكب التي أقرها مجلس الشيوخ . وكانت المراكب تبحر إلى الشرق اثنين اثنين كما كانت إحداهما على الغالب شانياً حربياً لحماية المركب التجاري . وقد ذكر هارف أنه قد حصل بمساعدة التجار الألمان في البندقية على أمر من الدوج إلى قبطان المركب المسلح الكبير المخصص لمواكبة المركب الآخر ، وفيه يطلب إليه حسن

---

(٢٠٢) Heyd. W., **Ibid.**, pp. 427 - 430;
Lane. F., Venice a Maritime Republic, pp. 200 - 201.

(٢٠٣) Harff. A.V., the Pilgrimage of Arnold Von Harff, London, 1946, p. 69.

(٢٠٤) Heyd. W., Histoire du Commerce, Tome II, pp. 459, 612, 684, 685.

استقبـال ومعاملة هـارف وأصحابـه[٢٠٥] ، كما ذكـر تينـو أن مجلس الشيـوخ البندقي قد أمر السفير دومنيكو ترفيزان Domenico Trevisan بإصطحاب شاني حربي لمواكبته والبقاء تحت تصرفه طيلة فترة سفارته إلى القاهـرة سنة ١٥١٢ لمقابلة السلطان قانصو الغوري[٢٠٦] .

وكلمـة المدة Muda إستنـاداً إلى التعليمات التجـاريـة الإيـطاليـة عنت أسطولاً أو قافلة كمـا عنت فترة من الـوقت تُحمَّل خـلالها المـراكب . والمدّة Mudua أو Muda أو Muta عنّت أسطولاً من المراكب تبحر معاً سوياً لتـأمين الحماية المتبادلة بمواكبة أو عدم مواكبة المراكب الحـربية . وهـذا هو المعنى الذي أعطاه كـل من دوكانـج[٢٠٧] Du Cange ، واشبورنـر[٢٠٨] Ashburner وقاموس أدلر[٢٠٩] (Edler's Glossary) .

ولكن كلمة المدّة استعملت أيضاً للدلالة على الفترة التي تحمل خلالها حكمـاً سلع معينة في أمـاكن محـددة وعلى متن مـراكب خـاصـة لنقلهـا إلى البندقية . وهـذا التفسير وما نتج عنه من تطبيقات لم يحظ إلاّ باهتمـام قليل . فهايد Heyd ، في كتابه تاريخ تجارة الشرق في القرون الوسطى ، حدّد المدّة كفترة تبادل تجاري بعد وصـول الشواني إلى الاسكنـدرية ولكنـه اعتبر المـدة كتدبير يعمل فيه فقط في مرفأ الإسكندرية[٢١٠] .

---

(٢٠٥) Harff. A.V., The Pilgrimage of... p. 70.

(٢٠٦) Thenaud. J., le Voyage d'outremer, Suivi de la Relation de L'Ambassade de Domenico Trevisan auprès du Soudan d'Egypte, Paris, 1884, p. 247.

(٢٠٧) Du Cange. C., Glossarium Mediae et infimae latinitatis (Niort, 1885).

(٢٠٨) Ashburner. W., The Rhodian Sea - Law, Oxford, 1909, p. CXLVIII.

(٢٠٩) Edler. F., Glossary of Medieval Terms of Business (Italian Series, 1200 - 1600; Cambridge, Mass, 1934); Lane. F., Venice and History, p. 128.

(٢١٠) «L'époque de séjour des navires de Commerce occidentaux à Alexandrie (ou dans d'autre ports) était designée sous le nom de muda (de mutare, échanger), parceque leur présence donnait lieu à une foire spécialement caracterisée par =

ولعل أوضح مثل عن استعمال كلمة المدّة للإشارة إلى فترة من الوقت هو المقطع الذي ورد في مذكرات مارينو سانوتو بتاريخ ٢٦ أيلول ١٥١١ وفيه يذكر أنه يتوجب على المركب نيقولوزا ، بناء على الأوامر المعطاة ، التوجه إلى سوريا في اليوم الثامن من المدة لدى وصولها إلى بيروت :

« Fu posto, per savii ai ordini, che la nave Nicolosa, qual (è) sorapporto e va in soria, habi zorni 8 di muda poi zonta a Baruto» (٢١١).

إن تجاهل هذا المعنى قد يؤدي إلى سوء فهم ممارسة عمليات النقل البحري في جمهورية البندقية . فتعبير مراكب مدة شهر آذار « Navi della muda di Marzo » مثلاً لا تعني دائماً المراكب أو القوافل التي تبحر في آذار ، ولكنها عنت في القرن الخامس عشر عادة المراكب التي كانت تحمل في الشرق خلال شهر آذار . وكقاعدة عامة كانت الشواني التجارية تبحر مع بعضها البعض في قوافل ، في حين كانت المراكب المستديرة (navi) تبحر عادة متفرقة في أيام السلم ومجتمعة في هيئة قوافل عندما تتهددها الأخطار(٢١٢).

وإذا ما سلمنا بأن المدّة هي « الفترة المحددة لتحميل المراكب »، فإن السؤال المطروح هو : ما هي الغاية من فترات التحميل هذه وكيف تمّ تحديدها . كانت المدة تختلف حسب نوع المراكب ونوع البضائع ومكان التصدير. ولما كانت المراكب التجارية تقسم إلى ثلاثة أنواع : الشواني التجارية merchant galleys والمراكب المستديرة الضخمة Round Ships والمراكب الأخرى vessels فقد قسمت البضائع المشحونة إلى ثلاث أصناف : الفئة الأولى وهي السلع الخفيفة « light goods » التي كانت تنقل

= de nombreux échanges , ou encore parce que les navires marchands échangeaient à cette époque leur ancienne cargaison contre une nouvelle ».
Heyd. W. Histoire du Commerce du Levant , Tome II, p. 453.

(٢١١) Sanuto. M., I Diarii, Venice, 1879-1903. Vol. XII, p. 587.

(٢١٢) A.S.V., Senato Mar, reg. 11, 146, July 18, 1482;
Lane. Fl, Venice and History, p. 129.

بصوزة عامة على متن الشواني الكبيرة (الحرير والتوابل وغيرها)، وهناك فئة أخرى من السلع الخفيفة كان بالإمكان شحنها إلى البندقية على متن المراكب المستديرة غير أن تحميلها كان كالفئة الأولى يتمّ فقط في فترات محددة (المدة). أما الفئة الثالثة وهي السلع الثقيلة (Heavy goods) كالحبوب والملح فقد كانت تحمل في أي وقت على متن أي نوع من المراكب لشحنها إلى البندقية(٢١٣).

وفي سنة ١٣٦٠ حددت المدة للمراكب الذاهبة إلى قبرص ما بين ١٥ و٣١ آذار وما بين ١٣ و٣٠ أيلول وكانت هذه التواريخ تتغير من وقت إلى آخر خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر ولكنها كانت تنفذ في فترات معروفة في الربيع والخريف من كل عام وكانت مدة الشواني تتطابق تقريباً مع مدة المراكب المستديرة الخريفية . وكانت المدة Muda لكل رحلة يعاد النظر فيها كل سنة بعد عودة المراكب من الشرق(٢١٤) وكانت سلطات البندقية تشدد في وجوب التقيد بمواعيد المدة بالاتفاق مع السلطات المملوكية ولا تسمح بتمديد إقامة المراكب في الثغور المملوكية عامة والإسكندرية خاصة إلّا عند الاضطرار بسبب سوء الأحوال الجوية التي قد تمنع المراكب من الخروج من المرفأ إلى عرض البحر في اليوم المحدد . وفي هذه الحالة كان يحظر على قبطان المراكب تحميل أية بضائع إضافية(٢١٥) .

ولا بد هنا من التساؤل ما هي الاعتبارات التي كانت تتحكم بتواريخ المدة في ميناء الإسكندرية ؟ الواقع أن الأعتبار الوحيد كان موعد وصول التوابل الشرقية من القاهرة إلى الإسكندرية في نهاية شهر أيلول ، ففي هذا الشهر يكون وفاء النيل وتنقل البضائع الثمينة خاصّة الفلفل إلى الأسكندرية عبر قناة

---

(٢١٣) Lane. F., Ibid., p. 131.

(٢١٤) Lane. F., Ibid., p. 131; Ufficiali al Catteever busta ff. 65 - 72.

(٢١٥) Heyd. W., Op. Cit., Tome II, p. 453.

الفوّة[٢١٦] وهذا الموعد كـان يرتبط بتـوقيت وصول التـوابل من البحـر الأحمر (الطور) إلى القاهرة . ولهذا كانت الشواني البندقية تأتي إلى الإسكندرية في مواعيد ثابتة في شهر أيلول وتنتظر وصول التوابـل لتحملها . وقـد روى هايـد Heyd نقلاً عن فليكس فابري Felix Fabri وبريـدنباخ Breydenbach اللذين كانا يسافران معاً ، إن هذين الرحالتين العائدين من الأراضي المقدسة في أوائل تشرين الأول سنة ١٤٨٣ قد سألا بـالقرب من البحـر الأحمر إحـدى القوافـل العائدة من الطور عما إذا كانت مراكب الهند قد وصلت فأجيبا بأن المراكب قد وصلت بالفعل إلى الميناء منذ عدة أيام وأن البضائع التي جلبتها هي في طريقها إلى القاهرة وأن الشواني البندقية هي أيضاً بانتظارها في الأسكندرية . وقد حدد هايد مواعيد إبحار شواني البندقية من وإلى الإسكندرية[٢١٧] فذكر أن شـواني البندقية كانت تبحر إلى الإسكندرية في مـواعيد منتـظمة مـا بين ٨ و٢٣ أيلول وكانت تغادر الإسكندرية بحمولاتها من التـوابل حـوالي منتصف شهر تشـرين الأول أو في بداية شهر تشرين الثاني[٢١٨].

ولما كانت التوابل تنقل مرتين في السنة إلى الطور واحدة في شهر أيلول والثانية في شهر آذار فقد عمدت البندقية إلى تنظيم الرحلات الموسمية المعروفة بالمدة لتكون المراكب مرتين في السنة في الإسكندرية لتحمل منها التوابل وقد أكد فون هارف ذلك فذكر أنه غادر البندقية على متن أحد الشانيين القـاصدين الإسكنـدرية بتـاريخ ٥ شبـاط ١٤٩٧ موحيـاً بأن وصـول هذين المـركبين إلى الإسكندرية يتزامن مع وصول التوابل من الطور إلى الإسكندرية عبـر القاهـرة

(٢١٦) Dopp. P.H., L'Egypte au Commencement du Quinzème siècle d'après le Traité d'Emmanuel Piloti de Crète, p. 82.

(٢١٧) Heyd. W., **Op. Cit.**, Tome II, p. 447;
Fabri..F., «Evangatorium», Vol. II, p. 522.

(٢١٨) Heyd. W., **Op. Cit.**, Tome II, p. 447.

خلال شهر آذار[٢١٩] . وبالإضافة إلى ذلك فقد توخت البندقية من تحديد فترة تحميل المراكب إرضاء السلطات المملوكية والتقيد بقوانينهـا المرعيـة الاجراء والتي كانت تتشدد باحترام مواعيد المدة لأنها كانت تجني الأرباح الطائلة منها فالبضائـع التي كانت تجلبهـا مراكب المـدة كانت قيمتهـا حوالي ٣٠٠,٠٠٠ دوكات كانت تقايضها بالفلفل والتـوابل وغيـرها . وقـد عمدت سلطات مينـاء الاسكندرية على إجبار البنادقة شراء كميات محددة من الفلفل بأسعار باهظة ، والعمـل أحيانـاً على تـأخيـر إقلاع المـراكب بهدف ابتـزاز المزيـد من المـال منها[٢٢٠] . ففي شتاء ١٥٠٤ ـ ١٥٠٥ وبعد إنقضاء فتـرة طويلة على إنقضـاء موعد إقلاع شواني المدة من ميناء الإسكندرية ، رغب قبطان المراكب الخروج إلى عرض البحر فمنعه السلطان قانصو الغوري من مغادرة الميناء بسبب رفض التجار البنادقة شراء كميات إضافية من الفلفل بأسعار خيالية فما كان من القبطان إلّا أن خرج بمراكبه دون ترخيص تحت وابل من قذائف المدفعية التي أطلقت عليه من برج الإسكندرية وقد نجـح القبطان في إيصـال جميع مـراكبه سـالمة إلى شاطىء الأمان فـاستحق الثناء من حكـومة الجمهـورية لشجـاعته . وبعـد هذه الحادثة سـارعت البندقيـة إلى إرسال سفـارة إلى القاهـرة على جناح السـرعة لإرضاء السلطان وإعادة الأمور إلى مجاريها[٢٢١] . وقد توخت الجمهورية أيضاً من تحديدات المدة تنظيم قوافلها وحماية مراكبها عن طريق استعجال إبحارها في فصل الخريف من ميناء الإسكندرية عائـدة إلى البندقيـة لتجنب السفر في

---

(٢١٩) Harff. A. V., The Pilgrimage of Arnold Von Harff, pp. 71. n. 5, 139, 149; Heyd. W., Op. Cit., Tome II, p. 447.

(٢٢٠) اتفاقية السفير البندقي «ترفيزان» والسلطان الغوري ١٥١١/١٥١٢ .
انـظر : فهمي . ن . ز ، طرق التجـارة الـدوليـة ومحـطاتهـا ، القـاهـرة ١٩٧٣ ، ص ٤١١ ، ٤١٤ .

(٢٢١) Sanuto. M., I Diarii, vol. VI, pp. 136, 149, 150, 170, 199, 267, 296, 331, 464; Heyd. W., Op. Cit., p. 132.

طقس سيء[٢٢٢]. كما كانت المدة هي خير وسيلة لاستخدام المراكب بصورة عملية دون إضاعة الوقت في الموانيء الشرقية بانتظار تحميل البضائع باعتبار أن عملية التفريغ والتحميل لا تتعدى الثمانية أيام في حال جهوز الحمولة[٢٢٣] . وقد اعتبرت البندقية أن تسريع عودة الشواني هو بمثابة حسن تدبير لجهة عملية النقل البحري ورأس مال التجار الذين يستفيدون من تدني أسعار النقل بالإضافة إلى سرعة مردود ما وظفوه لمرات عدة بدل من مرة واحدة . كما أن المدة تتيح للبندقية إظهار عظمة ونفوذ الجمهورية عن طريق تجميع البضائع فيها أثناء المعارض وبشكل يجعل منها سوقاً عالمية تتواجد فيها مختلف السلع وبكميات كبيرة فتجذب التجار إليها من كافة الأنحاء كما تؤكد مصداقية شهرتها . ولما كان عيد الميلاد بمثابة موسم كبير للمعارض الضخمة فقد رسم مجلس الشيوخ البندقي أن تنتهي مدة شواني بيروت والإسكندرية على الأكثر في نهاية شهر تشرين الأول اعتباراً من سنة ١٤٨٣ ليتسنى لها العودة إلى البندقية قبل افتتاح موسم الأعياد حيث اعتاد التجار الألمان القدوم لشراء التوابل[٢٢٤] .

وكما كانت المدة تحدث مواسم تجارية في البندقية كذلك كانت تحدث مواسم مماثلة في المرافيء الشرقية حيث تنشط الحركة التجارية وتتكثف طيلة وجود المراكب وحتى اليوم الأخير من المدة . بالإضافة إلى ذلك كانت المدة تنظم وصول البضائع إلى الأسواق الشرقية وأسواق البندقية وبالكميات المطلوبة كما كانت تتيح التحكم إلى حدٍ ما بسوق العرض والطلب فتجعل الحاجات مؤمنة ومقدرة بشكل منتظم تقريباً[٢٢٥] .

ولا شك أن تقدير قيمة السلع الشرقية المستوردة إلى إيطالية من

(٢٢٢) Lane. F., Op. Cit. P. 132;
Senato Mar., Reg. 11, F. 129; Reg. 14, f. 31.

(٢٢٣) Lane. F., **Op. Cit.**, p. 133; Senato Mar, Reg. 16. ff. 98, 172.

(٢٢٤) Lane. F., **Op. Cit.**, p. 134; Senato Mar, Reg. 11, f. 129.

(٢٢٥) Lane. F., **Op. Cit.**, p. 136.

الإسكندرية خلال فترة المـدة لهـو مثيـر للإهتمـام . وبإمكـاننا تكـوين فكرة واضحة عن ذلك عن طريق تفحّص عدد المراكب المرسلة سنوياً من البنـدقية إلى الإسكندرية . ففي مدة الخريف كانت تصل الإسكندرية عادة قافلة مؤلفة من ٤ إلى ٦ شـواني(٢٢٦) ، كما كـانت هناك قـافلة معروفـة بـاسم غـالي دي ترافيكو galee di traffico مؤلفة من شانين أو ثلاثة ، كانت تلج سواحل شمالي أفريقيا قبل الوصول إلى مصر لتنضم إلى القافلة الرئيسية في الإسكندرية(٢٢٧) . وإلى ذلك يمكن إضافة قافلة نهـاية كـانون الثـاني - أوائل شبـاط والمؤلفة من شانيين إلى أربعة شواني(٢٢٨) . واستناداً إلى هـايد فـإن الشاني المـرسل إلى الإسكندرية لجلب التوابل قد يعود بحمولة من السلع الخفيفة بقيمة ٢٠٠,٠٠٠ دوكات . ولو افترضنا جدلاً أن خمسة من هذه المراكب كانت ترسل سنوياً إلى الإسكندرية لقدرت قيمة البضائع المحمولة إلى البنـدقية بمليـون دوكات على الأقل (٢٢٩) .

وبـالإضافـة إلى الرحـلات الموسميـة (المدة) لا بـد من التـطرق إلى أسطول البندقية المخصص لبيروت والموانىء السورية . ومنذ أن رفـع الحظر لتصدير البضائع إلى ثغور ومرافىء سلطنة المماليك ، أرسلت البندقية بانتظام مراكبها إلى بيروت ، فاعتبـاراً من نهايـة القرن الـرابع عشـر فتح خط شـواني

---

(٢٢٦) Dopp. P. H., L'Egypte au Commencement du Quinzième Siecle d'après le Traité d'Emmanuel Piloti de Crète, p. 97.

(٢٢٧) Mas Latrie. L., Traitées de paix et de commerce et documents divers concernant les relations des Chrétiens avec les Arabes de l'Afrique septentrionale au Moyen Age, Paris, H. Plon. 1865, pp. 258, 268.

(٢٢٨) Harff. A.V., The Pilgrimage of Arnold Von Harff. p. 69.

(٢٢٩) heyd. W., Histoire du Commerce, Tome II, pp. 453 - 454.

بيروت[٢٣٠] Galee di Baruti وحدد موعد إقلاع هذه المراكب حوالي منتصف القرن الخامس عشر ما بين الثاني والخامس والعشرين من شهر آب[٢٣١] وحوالي سنة ١٥٠٠ قُدّم موعد إبحار هذه الشواني إلى ما بين الخامس عشر من نيسان والخامس عشر من آيار[٢٣٢] وكانت كل قافلة تتألف من ثلاثة أو أربعة شواني وأحياناً أكثر ونادراً أقل[٢٣٣].

وبالإضافة إلى خط بيروت فتحت البندقية خط المراكب السورية Navi di Soria وكانت مواعيد الإبحار في شهر كانون الثاني وكانت المراكب تتوقف في عكا وبيروت وطرابلس لنقل الحجاج والبضائع الثقيلة[٢٣٤] وقد خصص أسطول صغير لتحميل القطن السوري عموماً و« الشامي » خصوصاً Dello Sciame di Soria من اللاذقية وبيروت وطرابلس وعكا خلال شهر حزيران[٢٣٥] .

وإذا كانت البندقية قد تبوأت مركز الصدارة في عدد المراكب المرسلة سنوياً إلى الثغور الإسلامية في سلطنة المماليك ، إلّا أنه يجدر بنا القاء نظرة خاطفة على بقية الأساطيل الإيطالية . ونبدأ أولاً بمدينة جنوى التي أنهكتها الحرب مع البندقية من جهة وفقدت نفوذها نتيجة وقوعها تحت السيطرة

---

(٢٣٠) Mas Latrie, Histoire de Chypre, Tome II, pp. 403, 405, 452, 456; Heyd. W., **Op. Cit.,** Tome II, p. 460.

(٢٣١) Mas Latrie, **Op. Cit.,** Tome II, p. 495;
Heyd. W., **Op. Cit.,** Tome II, p. 460.

(٢٣٢) Heyd. W. **Ibid.,** p. 460;
Heyd. W., **Ibid.,** p., 460.

(٢٣٣) وقد ذكر هارف Harff ان مركبين فقط قد خصصا لبيروت وآخرين لطرابلس . انظر:
Harff. A., V. The Pilgrimage of ... p. 69.

(٢٣٤) Heyd. W., **Op. Cit.,** p. 461.

(٢٣٥) Mas Latrie, Histoire de Chypre, Tome II, Paris 1882, p. 373;
Heyd. W., **Op. Cit.,** pp. 461 - 612.

الفرنسية ومع ذلك كان لجنوي أسطولان الأول مخصص للشرق والآخر للغرب وقد كرّست جنوي اهتماماتها في الفترة التي تهمنا باسطول الغرب . أما علاقاتها مع سلطنة المماليك فقد كانت مضطربة ومتوترة بسبب منافسة البندقية لها وبسبب أعمال القرصنة والتعديات التي قام بها الأميرال بوسيكو ضد الموانىء المصرية والسورية سنة ١٤٠٣ حين هاجم كلاً من الإسكندرية وطرابلس وبيروت(٢٣٦) . ولما كانت فماغوسطا في جزيرة قبرص تحت النفوذ الجنوي فقد سعت جنوى لتوجيه مراكبها بشكل رئيسي إلى هذا المرفأ الحيوي وكذلك لم يكن باستطاعة المراكب الجنوية ولوج المرافىء السورية والمصرية بشكل مكثف وبحرية تامة بسبب تضييق السلطات المملوكية عليهم بتحريض من البنادقة ولذلك عمد الجنويون إلى الانضمام إلى الكتلان بهدف طرد البنادقة من أسواق مصر وسوريا ولكن دون جدوى(٢٣٧) ، لأن البندقية كانت لهم بالمرصاد وكان عملاؤها يرصدون حركة المراكب الجنوية الداخلية إلى الإسكندرية وبيروت وطرابلس وهي محملة بالذهب والسلع المختلفة لمقايضتها بالتوابل والقطن(٢٣٨) .

أما فلورنسا فلم تكن حديثة العهد في تعاملها مع سلطنة المماليك غير أن الفلورنسيين كانوا يتجرون مع مصر وسوريا ويقصدون الموانىء الإسلامية على متن الشواني والمراكب البندقية والجنوية والبيزانية ، والحقيقة أن التجار الفلورنسيين كانوا يهتمون بأعمال البنوك والصيرفة أكثر من إهتمامهم بالتجارة بحد ذاتها(٢٣٩) . وبعد سيطرة فلورنسا على بيزا ووضعت يدها على مرفأ ليفورنو قرّر مجلس الشيوخ الفلورنسي الاهتمام مجدداً بإقامة خط للتجارة

---

(٢٣٦) Dopp. P.H., L'Egypte au Commencement du Quinzième siécle, pp. 84 - 93.

(٢٣٧) Heyd. W., **Op. Cit.**, p. 461.

(٢٣٨) Sanuto. M., I Diarii, Vol. I, p. 768; vol, II p. 171; vol. III, pp. 68, 96; vol. IV. pp. 10, 11, 12, 486; vol. V, p. 197.

(٢٣٩) Heyd. W. **Ibid.**, p. 478.

الشرقية ترتاده بصورة منتظمة الشواني المعمرة على نفقة الدولة بهدف تحقيق الأرباح المناسبة عن طريق مقايضة المنتوجات الغربية الصوفية والحريرية بالتوابل والعطورات الشرقية . ولذلك أصدر مجلس الشيوخ الفلورنسي مرسوماً في ١٨ آب ١٤٤٤ كلّف بموجبه قناصلة البحر Consoli del mare بوجوب إتخاذ التدابير الضرورية لإرسال كل سنة شانيين تجاريين لزيارة الإسكندرية والمرافىء المجاورة وقد حدد موعد الإقلاع في المرة الأولى في شهر آذار من سنة ١٤٤٥ وفي فصل الربيع للسنين التالية . واعتباراً من سنة ١٤٤٧ حدّد برنامج الرحلات ونقاط التوقف في الذهاب والإياب للمراكب القاصدة الإسكندرية وبيروت ويافا. وقد عملت الشواني بشكل منتظم حتى سنة ١٤٦٠ عندما تبين للسلطات الفلورنسية أن رحلة واحدة إلى الشرق هي غير كافية ولذلك حوّل خط شواني فلورنسا ـ تونس إلى الشرق فكانت الشواني تبحر في خط دائري وتتوقف في تونس والإسكندرية ورودوس وكان هذا الخط مشابهاً لخط الشواني البندقي(٢٤٠) المعروف باسم galee di traffico . وقد ازدهرت تجارة فلورنسا وتوطدت علاقاتها مع السلطات المملوكية خاصة ما بين السلطان قايتباي ولوران دي مدتشي Laurent de Médicis الذي أرسل سفيره لويجي دي لا ستوفا Della Stuffa إلى مصر سائلاً المزيد من الامتيازات لطائفة الافرنتيين فوافق عليها السلطان بكاملها (١٤٨٩). وكانت هذه الامتيازات تشمل عدم التعرض للمراكب الفلورنسية وعدم إجبارها على تحمل تبعات تعبث القرصان ودفع رسوم الجمارك إلا بعد التفريغ ومنع تعرض القراصنة التراكمة للفلورنسيين وتقديم المعونة لهم في حال مهاجمتهم من قبل سفن القرصان بالإضافة إلى مساعدتهم في إصلاح شوانيهم في كافة الموانىء الإسلامية(٢٤١).

---

(٢٤٠) Heyd. W., **Ibid.**, pp. 300, 487;

(٢٤١) Amari. N., I Diplomi Arabi, Del Archivio Fierentino in Firenze, MDCCCXIII , pp. 48 - 51. =

والملاحظ أن الفلورنسيين لم يكونوا أبداً مسرورين بما لديهم من امتيازات بل كانوا يحاولون دائماً تحسين وضعهم والحصول على المزيد من التسهيلات والامتيازات لهم ولمراكبهم . وبالمقابل لم يعمد الفلورنسيون إلى زيادة عدد مراكبهم القاصدة الثغور المملوكية وبالتالي شحن كميات أكبر من السلع التجارية بل على العكس فإن تجارتهم لم تكن منتظمة كتجارة البنادقة خاصة بعد وفاة قايتباي (١٤٩٦)[٢٤٢] والملفت للنظر أن العلاقات المملوكية الفلورنسية لم يشبها أي توتر خلال عهد قايتباي وحتى نهاية سلطنة المماليك بعكس الطوائف الإفرنجية الأخرى التي اتسمت علاقاتها دائماً بالخلافات المتكررة مع السلطات المملوكية[٢٤٣] .

= - فهمي . ن. ز، طرق التجارة الدولية ومحطاتها، القاهرة، ١٩٧٣ ، ملحق رقم ١٣ ، (الشروط بين فلورنسا والسلطان قايتباي بشأن التجارة الفلورنسية في مصر ودمشق وبيروت ١٤٨٨ م)، ص ٤٤٢ ، ٤٤٤ ، ملحق رقم (١٨): المعاهدة الشاملة بتاريخ ٢٢ شباط ١٤٩٦/١٨ ذي القعدة الحرام، عام ٩٠٠ هـ ، ص ٤٦٠ .

(٢٤٢) Heyd. W., **Op. Cit.,** Tome II, pp. 489 - 490;
Amari. N., Dipl Arab, pp. 184 - 185, 210 - 211.

(٢٤٣) Heyd. W., Histoire du Commerce, Tome II, P. 490.



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثالث

الذهب والفضة والعملات النقدية

يهدف هذا الفصل إلى دراسة مصادر الذهب والفضة والنحاس في كل من سلطنة المماليك والمدن والجمهوريات الإيطالية وإلى عرض العملات النقدية المتداولة في كل من مصر وسوريا وإيطاليا وإلى إبراز العلاقات المملوكية الإيطالية على صعيد العملات وما نتج عن ذلك من انعكاسات كان أبرزها تمكن الدوكاتو[1] البندقي من الرواج في أسواق القاهرة زمن السلطان برقوق ١٣٨٢ ـ ١٣٩٢ لجودته وثبات وزنه بالمقارنة إلى النقود الذهبية المملوكية التي كانت أوزانها عرضة للتبدل بسبب ما أصابها من الزغل. وقد تم تداول الفلورينو الذهبي الفلورنسي في مصر بعد ما اعتبره السلطان برسباي سنة ١٤٢٢ عملة صحيحة ومقبولة.

والواقع أن سلاطين مصر عمدوا مراراً إلى إجراء إصلاحات على صعيد النقد بهدف إبعاد منافسة الدوكاتو البندقي فكان السلطان فرج (١٣٩٩ ـ ١٤١٢) أول من ضرب دنانير ذهبية ذات وزن ثابت عرفت بالدنانير الناصرية نسبةً إلى لقب السلطان فرج الملك الناصر. ولكن هذه الدنانير كانت أقل جودة من الدوكات فصارت تتداول بالوزن فقط حتى عهد السلطان المؤيد (١٤١٢ ـ ١٤٢١) الذي أوقف التعامل بها وضرب دنانير جديدة مسبوكة من

(١) Dopp. P.-H., L'Egypte au Commencement du Quinzième siècle d'après le traité d'Emmanuel Piloti de Crète. Le caire, 1950, pp.49 n.i, 50.

الدنانير الناصرية والدوكات وعرف الدينار الجديد بالـدينار المؤيـدي نسبةً إلى السلطان المؤيد. غير أن الإصـلاح النقدي الحـاسم جرى في عهـد السلطان برسباي (١٤٢٢ ـ ١٤٢٨) الذي أوقف التعامل بكافة الدنانير الذهبية المتداولة وسحبها من الأسواق وضرب منها دنانير جديدة عرفت بالدنانير الأشرفية وكانت على ذات وزن الدوكات البندقية المعروفة والزم كافة الناس بالتعامل بها.

أ ـ النقود في سلطة المماليك.

ـ النقود الذهبية.

تدفق الذهب.

كـانت كميـات كبيـرة من الـذهب تتـدفق في الفتـرة التي تهمنـا (١٤٥٠ ـ ١٥١٧) إلى سلطنـة الممـاليـك من المنـاطق المختلفـة والمجـاورة لحدودها. وكانت مصر تحصل على كميات لا يستهان بها من الذهب من النوبة وخاصة من منـاجم وادي العلاقي المشهـورة والواقعـة ما بين النيـل وشواطىء البحر الأحمر.

غير أن تكاليف الذهب المستخرج كانت تعادل قيمته: «العلاقي: وهي بالقرب من بحر القلزم، ولها مغاص ليس بالجيد وبجبلها معدن ذهب يتحصل منه بقدر ما ينفق في استخراجه»[٢].

---

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، الجزء الرابع القاهرة ١٩١٤ ـ ١٩٢٨، ص ٢٧٣؛ الادريسي، كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، روما ١٩٥٥، ص ٤٠؛
- Ashtor. E., A Social and Economic History of the Near East in the Middle Ages. London 1976. p.80;

ـ أوضح الجغرافي اليعقوبي مواضع كثيرة في مصر كان يستخرج منها الذهب فذكر أن «من أراد المعادن، معادن التبر خرج من أسوان إلى موضع يقال له الضيقة بين جبلين ثم البويب ثم البيضية ثم بيت ابن زياد ثم عذيفر ثم جبل الأحمر ثم جبل البياض ثم قبر أبي مسعود ثم غفار ثم وادي العلاقي، وكل هذه المواضع معادن التبر يقصـدها أصحاب المطالب.. ووادي العلاقي وما حواليه معادن للتبر وكل ما قرب منه يعمل =

غير أن مصدر الذهب الرئيسي لسلطنة المماليك كان المناطق الغنية بالتبر والمسماة بغربي السودان وهي أرض بامبوك Bambuk الواقعة ما بين السودان وفالام Faleme وأرض بور Bure بالقرب من ملتقى نهر تنكيسو Timkisso ونهر النيجر وكان للمسلمين مع هذه البلاد المعروفة لديهم ببلاد التكرور أوغانا تجارة منتظمة وقد أضحى ما كان يستخرج من مناجمها الذهبية الغنية أحد أهم العوامل المؤثرة في اقتصاد سلطنة المماليك.

وكان ذهب «غانا» ينقل إلى الشرق الأدنى عبر عدة طرق. وكانت أبعد الطرق إلى الغرب تلك التي تصل سجلماسة بتلمسان وتؤدي عبر ساحل شمالي أفريقيا إلى مصر. وقد ظلت هذه الطريق مشهورة لأهميتها حتى أن ابن حوقل الجغرافي المعروف قال إن حاكم سجلماسة كان يحصّل أربعماية ألف دينار تؤخذ كضرائب عن السلع المارة في عاصمته وأهمها الذهب(٣).

= فيه الناس، لكل قوم من التجار وغير التجار عبيد سودان يعملون في الحفر ثم يخرجون التبر كالزرنيخ الأصفر ثم يسبك» أنظر:

- اليعقوبي، كتاب البلدان، طبعة ليدن ١٨٩٢، ص ٣٣٤، المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، جزء ٢، بيروت ١٩٦٦، ص ٧٩ فهمي محمد. ع، موسوعة النقود العربية وعلم النميات، فجر السكة العربية القاهرة، ١٩٦٥، ص ١٣١.

(٣) Ashtor. E., Op. Cit., p. 81 ;

Ashtor. E., Les Métaux précieux et la balance des payements du Proche-Orient à la basse époqve, Paris, 1974, PP,17, 20ff;

- ابن حوقل، كتاب صورة الأرض، ليدن، ١٩٣٨، ص ٩٩ - ١٠٠:

«ولم يزل المعتز أيام ولايتها وهو أميرها يجتبيها من قوافل خارجة إلى بلد السودان وعشر وخراج وقوانين قديمة (على) ما يباع بها ويُشترى من إبل وغنم ويقر إلى ما يخرج عنها من نواحي أفريقيا وفاس والأندلس والسوس واغمات إلى غير ذلك مما على دار الضرب والسكة زهاء أربع مائة ألف دينار تختص بها وبعملها»؛

- ابن اياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، جزء ١، القاهرة - بولاق ١٣١٢ هـ، ص ٤٣.

أما الطريق الثانية فتؤدي من ولاتـا Walata إلى تغازة Taghazza ومنهـا إلى طواط فشاطىء البحر المتوسط شمالاً. وهناك طـريقان تصـلان غاو Gao المركز التجاري المهم على نهر النيجر بمصر، فواحدة، تؤدي من هذا المركز إلى تادمكا Tadmekka واوار غلي Ouargla فساحل المتوسط، والأخرى تؤدي إلى تاكدا وهضبة آر Air وتيبستي Tibesti وتصل مصر العليا عبر الطريق واحات كفرا ودخلة وخرجة.

وكان هناك أيضاً طريق تجاري تربط غربي السودان بمصر تؤمها القوافل التجارية جنوبي الصحراء عبر أرض كانم Kanem وشمالي بحيرة التشاد.

وهناك دلائل تشير إلى العلاقات التجارية المكثفة ما بين غربي السودان ومصر ليس فقط فيما جاء في كتابات الجغرافيين العـرب وإنما في أخبـار أبناء تكرور الذين قدموا مصر في تلك الفترة وأقاموا فيها[٤].

وفي وصفه لبلاد التكرور ذكر القلقشندي أنها تقع شرقي إقليم كوكو، إلى الشرق من إقليم مالي وقاعدتها مدينـة تكرور وبينهـا وبين سجلماسـة من بلاد المغرب أربعون يوماً بسير القوافل وأقرب البلاد إليها من بلاد لمتونة بالصحراء آسفي بينهما خمس وعشرون مرحلة:

«وأكثر ما يسافر به تجار الغرب الأقصى إليها الصوف والنحاس والخـرز ويخرجون منها بالتبر والخدم»[٥].

وأضاف القلقشندي أنه في طاعة سلطان بلاد التكرور بلاد مغارة الذهب:

«وهم بلاد همج وعليهم إتاوة من التبر يحمل إليه في كـل سنة ولـو شاء

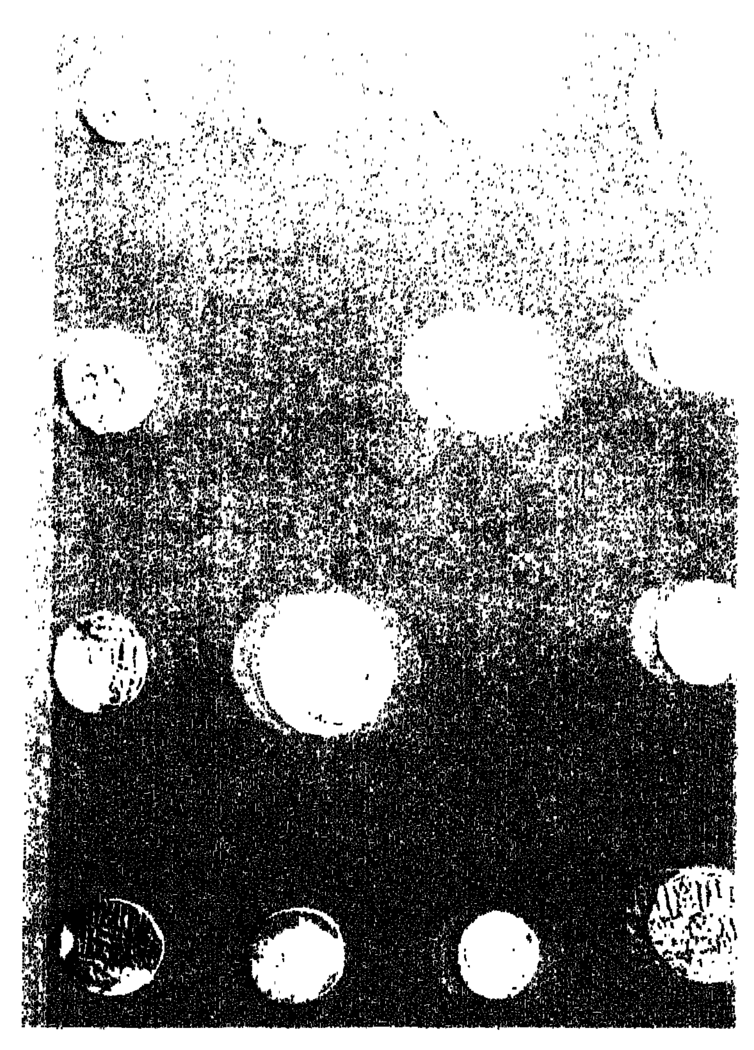
---

(٤) Ashtor. E, Op. Cit., P.81;

ابن حوقل، كتاب صورة الأرض. ص ١٥٣ ـ ١٥٤ ؛

ابن اياس، بدائع الزهور، جزء ١، ص ٤٣.

(٥) القلقشندي، صبح الأعشى، جزء ٥، القاهرة ١٩١٥، ص ٨٦.



النقود في سلطنة المماليك

نماذج من الدنانير والدراهم الفضية المملوكية التي ضربت في عهد السلطان برسباي (١٤٢٢ ـ ١٤٣٨) باستثناء الدينار الذي تظهر في أسفله صورة السبع فقد ضرب في عهد الظاهر بيبرس (١٢٥٩ ـ ١٢٧٧). والمعروف عن السكة السلطانية بالديار المصرية أن يكتب على الدنانير والدراهم المضروبة في أحد الوجهين «لا إله إلّا الله لا شريك له، أرسله بالهدى ودين الحق، ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون» وعلى الوجه الآخر اسم السلطان الذي ضربت النقود في زمنه وتاريخ سنة الضرب.



أخذهم ولكن ملوك هذه المملكة قد جربوا أنه ما فُتحت مدينة من هذه المدن وفشا بها الإسلام، ونطق بها داعي الإسلام، إلا قل بها وجود الذهب، ثم يتلاشى حتى يُعدم، ويزداد فيما يليه من بلاد الكفار فرضوا فيهم ببذل الطاعة وحمل ما قرر عليهم»(٦).

وذكر القلقشندي أيضاً نقلاً عن السلطان منسا موسى سلطان مملكة بلاد التكرور الذي سئل عند قدومه الديار المصرية حاجاً عن معادن الذهب عندهم فقال: «توجد على نوعين: نوع في زمان الربيع ينبت في الصحراء، له ورق شبيه بالنخيل، أصوله التبر، والثاني يوجد في أماكن على ضفاف مجاري النيل، يحفر هناك حفائر فيوجد فيها الذهب كالحجارة فيؤخذ... وكلاهما هو المسمى بالتبر. والأول أفحل في العيار وأفضل في القيمة... وإنه يحفر في معادن الذهب كل حفرة عمق قامة أو ما يقاربها فيوجد الذهب في جنباتها وربما وجد مجتمعاً في سفل الحفرة. وإن في مملكته أمماً من الكفار لا يأخذ منهم جزية، إنما يستعملهم في إخراج الذهب من معادنه»(٧).

وأضاف القلقشندي نقلاً عن السلطان منسا موسى «أن الذهب ببلاده حمى له، يجمع له متحصله كالقطيعة إلا ما يأخذه أهل تلك البلاد منه على سبيل السرقة... (و) وانه إنما يُهادي بشيء منه كالمصانعة، وانه يتكسب عليهم في المبيعات لأن بلادهم لا شيء بها»(٨).

ومن منتوجات بلاد التكرور النحاس الأحمر الذي كان يُجلب من مدينة لكوا فيرسله السلطان منسا موسى على هيئة قضبان إلى مدينة بنبي قاعدة مالي فيبعث من هناك إلى بلاد السودان الكفار: «فيباع وزن مثقال بثلثي وزنه من

---

(٦) القلقشندي، نفس المصدر، جزء ٥، ص ٢٨٧.
(٧) القلقشندي، نفس المصدر، جزء ٥، ٢٨٩.
(٨) القلقشندي، نفس المصدر، جزء ٥، ص ٢٨٩.

الذهب، يباع كل مائة مثقال من هذا النحاس بستة وستين مثقالاً وثلثي مثقال من الذهب»[٩].

ولما كانت بلاد السودان خالية تماماً من مادة الملح فقد كان التجار المسلمون يلجون في قلب أفريقيا وإلى الجنوب من سجلماسة ويستبدلونه بالذهب وقد ذكر القلقشندي أن عملية المقايضة تتم على الوجه التالي: «.. إذا جاء التجار بالملح وضعوه ثم غابوا، فيجيء السودان فيضعون إزاءه الذهب، فإذا أخذ التجار الذهب، أخذ السودان الملح»[١٠] وأضاف القلقشندي أن المعاملة في بلاد التكرور هي بالودع لقضاء الحاجات النازلة من مثل المآكل وما في معناها ولذلك كانت التجار تجلبه إليهم كثيراً فتربح منه الربح الكثير[١١].

وغالب هذا الذهب المتحصل كان يرسل إلى القاهرة.

ولم تقتصر العلاقات ما بين مصر وبلاد التكرور على النواحي التجارية فقط بل كان أعيان مالي يرسلون أولادهم للدراسة في مصر كما كان ملوك تلك البلاد والحجاج المسلمون يتوقفون في مصر في طريقهم إلى مكة المكرمة وكانت كميات ضخمة من الذهب تحمل مع هؤلاء الملوك السود لتوزيعها على السلطات المملوكية ووجهاء مكة المكرمة. وكان ذهب مالي في تلك الفترة يحمل إلى مصر عبر الطريق الصحراوية من نياني Nyani إلى طغّازة ومنها إلى طواط Touat وقد اختار الملك منسا موسى هذه الطريق للقيام بمناسك الحج في مكة المكرمة سنة ١٣٢٤[١٢].

وكانت السلطات المملوكية تعمد إلى التزود بالذهب عن طريق

---

(٩) القلقشندي، نفس المصدر، جزء ٥، ص ٢٩١.

(١٠) القلقشندي، المصدر نفسه، جزء ٥، ص ٢٩١.

(١١) القلقشندي، المصدر نفسه، جزء ٥ ، ص ٢٩٢.

(١٢) Ashtor, E, A Social and Economic History, P.291; Les métaux précieux, P.21 ff.

المصادرات المتكررة فتضع يدها على كميات كبيرة من الذهب المسبوك في شكل حلي وأوان في قصور الأمراء والأعيان والتجار المغضوب عليهم فتعيد ضرب هذا الذهب وتطرحه كنقود للتداول في الأسواق. ومن موارد الدولة الجوالي وهي ما يؤخذ من أهل الذمة عن الجزية المقررة على رقابهم في كل سنة وفي الفترة التي تهمنا ذكر القلقشندي أن الجزية قد نقصت حتى صار أعلاها خمسة وعشرون درهماً وأدناها عشرة دراهم. ولكنها صارت تستأدي معجلة في شهر رمضان، ثم ما يتحصل منها يحمل منه قدر معين في كل سنة لبيت المال(١٣). كما كانت سلطات المماليك تأخذ من التجار وغيرهم على ما يدخلون به إلى البلد من ذهب وفضة، وادخلوا ذلك في باب ما يؤخذ على صورة الزكاة ففرضوا على كل مائة درهم خمسة دراهم كما ألزموا تجار الكارم (التوابل) بدفع الزكاة أيضاً إذا كان لهم بالبلد متجر من بهار وغيره وحال عليه الحول(١٤) غير أن أهم موارد الدولة هو ما كان يحمله إليها تجار المدن والجمهوريات الإيطالية من مبالغ نقدية أوسبائك ذهبية كانت تدفع لشراء التوابل والسلع الشرقية الأخرى. وقد بلغت قيمة المشتروات البندقية في الاسكندرية وبيروت ٤١٢، ٢٠٨ دينار في سنة ١٤٠٤ و٣٩١، ٢٩٨ دوكات في سنة ١٤٩٧(١٥). وبالإضافة إلى المشتروات فقد ألزمت السلطات المملوكية تجار الإفرنج من إيطاليين وغيرهم بدفع الخمس من بضائعهم مع أن المقرر في الشرع أخذ العشر من بضائعهم التي يقدمون بها من دار الحرب إلى دار الإسلام. وقد أدخلت السلطات المصرية ذلك في باب ما يؤخذ من تجار الكفار الواصلين إلى الديار المصرية فقد كانت المراكب الواردة من بلاد الفرنج والروم إلى ثغر الاسكندرية وثغر دمياط تدفع الخمس: «وقد تقرر الحال على أن يؤخذ

---

(١٣) القلقشندي، المصدر السابق، جزء ٣، ٤٦٢.

(١٤) القلقشندي، المصدر السابق، جزء ٣، ص ٤٦٢.

(١٥) Ashtor. E., Op. Cit., pp. 327-328 .

منهم الخمس وهو ضعف العشر على كل ما يصل لهم في كل مرة، وربما زاد ما يؤخذ منهم على الخمس أيضاً»[١٦].

سبك الذهب:

وكان غالبية ما يتحصل من النقود الذهبية الإيطالية كالفيورينو Fiorino الفلورنسي والدوكاتو البندقي وغيرها تسبك وتضرب دنانير ذهبية مملوكية.

وعن معاملة سلطنة المماليك بالذهب فقد كانت بالتداول الدنانير المسكوكة والمضروبة بالديار المصرية أو ما يأتي إليها من الدنانير المسكوكة في غيرها من البلاد كالمدن الإيطالية.

أما الذهب المصري فكان يتعامل به وزناً لاختلال أوزانه وعياره وكانت الدنانير توزن بالمثاقيل وكل سبعة مثاقيل زنتها عشرة دراهم.

والمثقال معتبر بأربعة وعشرين قيراطاً لم يتغير وزنه في جاهلية ولا إسلام وهو مقدر باثنين وسبعين حبة شعير من الشعير الوسط باتفاق العلماء[١٧].

وكان الذهب يسبك بمباشرة النائب في الحكم ويحرر بالوزن، فإن صح الوزن وأجازه النائب ضرب دنانير وإلا أعيد إلى الفرن مرة ثانية وهذه كانت العادة المتبعة ويعزو القلقشندي سبب خلوص الذهب بالديار المصرية أيام الفاطميين أن أحمد بن طولون وجد مدفناً فيه خمسة نواويس فكشفها فوجد في الأوسط منها ميتاً مصبراً في العسل وعلى صدره لوح لطيف من ذهب فيه كتابة لا تعرف والنواويس الأربعة مملوءة بسبائك الذهب. ولما عرض اللوح على راهب شيخ بدير العربة بالصعيد له معرفة بخط الأولين حل لغز الكتابة فجاء بها: أنا أكبر الملوك، وذهبي أخلص الذهب فلمّا بلغ ذلك أحمد بن طولون قال: قبّح الله من يكون هذا الكافر أكبر منه، أو ذهبه أخلص من ذهبه، فشدد في

(١٦) القلقشندي، المصدر نفسه، جزء ٣، ص ٤٥٩.

(١٧) القلقشندي، المصدر نفسه، جزء ٣، ص ٤٣٦.

العيار في دور الضرب، وكان يحضر ما يعلّق من الذهب ويختم بنفسه فبقي الأمر على ما قرره في ذلك من التشديد في العيار. وكانت دار الضرب في الدولة الفاطمية لا يتولاها إلا قاضي القضاة تعظيماً لشأنها[١٨]. ويضيف القلقشندي: «أما في زماننا، فنظرها موكول لناظر الخاص الذي استحدثه «الملك الناصر محمد بن قلاوون» عند تعطيله الوزارة»[١٩].

وعن ضرب الدنانير يحدثنا القلقشندي فيذكر ان الأمير صلاح الدين بن عرام وهو نائب السلطنة في الدولة الأشرفية (الأشرف شعبان) قد ضرب دنانير زنة كل دينار منها مثقال وكتب على أحد الوجهين «محمد رسول الله» وعلى الوجه الآخر «ضرب بالاسكندرية في الدولة الأشرفية شعبان بن حسين عُزّ نصره». ولم تكثر هذه الدنانير ولم تشتهر حتى مجيء السلطان فرج بن برقوق الذي أمر بضرب دنانير زنة كل واحد منها مثقال على زنة الدنانير البندقية والفلورنسية وكتب في أحد الوجهين «لا إله إلا الله محمد رسول الله» وفي الوجه الآخر كتب اسمه فرج وفي وسطه سفطاً مستطيلاً بين خطين وعرفت هذه الدنانير بالناصرية وكثر وجدانها وصار بها أكثر المعاملات إلا أنها صرفت بعشرة دراهم أقل من الدنانير الفلورنسية. وقد رغب الملك الناصر فرج أن تكون دنانيره الناصرية ثابتة الوزن كالدوكاتو البندقي أو الفيورينو الفلورنسي[٢٠] غير أنها جاءت على عكس ذلك وان الغالب فيها نقص أوزانها. وقد علق القلقشندي على ذلك قائلاً: «وكأنهم جعلوا نقصها في نظر كلفة ضربها»[٢١]. والمعروف عن السكة السلطانية بالديار المصرية أن يكتب على الدنانير المضروبة في أحد

---

(١٨) القلقشندي، صبح الأعشى، جزء ٣، ص ٤٦٢.

(١٩) القلقشندي، المصدر نفسه، جزء ٣، ص ٤٦٢.

(٢٠) Dopp.P.H, L'Egypte au Commencement du Quinzième Siècle P.49. n.1;- Gennep. V. A., le Ducat Venitien en Egypte Dans la Revue Numismatique, 4ème Série, Tome I, 1897, pp. 499, 508.

(٢١) القلقشندي، المصدر السابق، جزء ٣، ص ٤٣٧.

الوجهين «لا إله إلا الله لا شريك له، أرسله بالهدى ودين الحق، ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون»[٢٢] وعلى الوجه الآخر اسم السلطان الذي ضرب الدينار في زمنه وتاريخ سنة ضربه[٢٣].

أما ما كان يتعامل به عـادة من الدنانير فهي الدنانير التي كان يؤتى بها من بلاد الافرنج (جنوبي أوروبا) والروم (القسطنطينية) وهي معلومة وثابتة الأوزان وكل دينار معتبر بتسعة عشر قيراطاً ونصف قيراط من الذهب المصري وزنة كل دينار درهم وحبتي خرّوب يرجح قليلاً[٢٤].

وهذه الدنانير هي مشخصة على أحد وجهيها صورة الملك الذي تضرب في زمنه وعلى الوجه الآخر صورتا بطرس وبولس الحواريين وذكر القلقشنـدي أنه يُعبّر عن هذه الدنانير بالافرنتية جمع افرنتي ونسبها إلى فـرنسا في حين أن الـدنانيـر الافرنتيـة تنسب في الواقـع إلى فلورنسا كمـا يعبر عن هـذه الدنـانير بالدوكاتو وهي مـا كان يضـرب في البندقيـة. وأضيف إليها مـا ضرب السلطان الناصر فرج بن برقوق من دنانير على زنتها وعرفت بالناصرية كما ذكرنا إلا أنها كانت تنقص في الأثمان عشرة دراهم عن الدنانير الفلورنسية والبندقية[٢٥].

وأضيف إلى هذه الدنانير ما ضرب أيام الإمام المستعين بالله أبو الفضل العباسي أمير المؤمنين الذي دانت له الأمور عقب وفاة الناصر فرج (١٤١٢) فجاءت دنانيره مماثلة للدنانير الناصرية ولم يتغير فيها غير السكة باعتبار انتقالها من اسم السلطان إلى اسم أمير المؤمنين[٢٦].

غير أن السلطان برسباي (١٤٢٢ ـ ١٤٣٨) في بادرة منه لإصلاح نـظام

---

(٢٢) ليس هذا نظم آية من القرآن الكريم كما يتوهم.

(٢٣) القلقشندي، المصدر السابق، جزء ٣، ص ٤٦٢.

(٢٤) القلقشندي، المصدر نفسه، جزء ٣ ص ٤٣٨.

(٢٥) القلقشندي، المصدر نفسه، جزء ٣، ص ٤٣٨.

(٢٦) القلقشندي، المصدر نفسه، جزء ٣، ص ٤٣٨.

النقد المصري عمد إلى سحب كافة النقود الذهبية المحلية والأجنبية المتداولة في سلطنة المماليك وضرب منها دنانير جديدة عرفت بالدنانير الأشرفية نسبةً للسلطان الأشرف برسباي وكانت على زنة الدوكاتو البندقي وقد توخى برسباي إنزال دينار مصري يكون البديل عن الدوكاتو البندقي الذي أوقف التعامل به لفترة وجيزة(٢٧).

أما سعر صرف الذهب بالديار المصرية فكان متقلباً لا يثبت على حال وغالب ما كان عليه سعر صرف الدينار المصري سنة ١٣٨٨/٧٩٠ وما حولها عشرون درهماً من الفضة والافرنتي حوالي سبعة عشر درهماً وأشار القلقشندي إلى أن سعر صرف الدينار قد زاد وخرج عن الحد في أيامه خاصة في سنة ١٤١٠/٨١٣ ولكنه لم يبلغ ما وصل إليه سعر صرف الدينار إذ بلغ ثمانية وعشرين درهماً من الفضة ونصف أيام الظاهر بيبرس(٢٨). (١٢٥٩/٦٥٨ - ١٢٧٧/٦٧٦)(٢٩).

وقد ذكر القلقشندي نوعاً ثالثاً من الدنانير هو الدينار الجيشي وهو غير متداول بل هو دينار وهمي اصطلحه واستعمله أهل ديوان الجيش في عبرة الاقطاعات أي تقدير قيمتها فجعلوا لكل إقطاع عبرة دنانير، غير أن قيمة هذا الدينار تختلف من إقطاع إلى إقطاع وربما كان متحصل مائة دينار في إقطاع أكثر من متحصل مائتي دينار أو أكثر في إقطاع آخر وسبب ذلك يعود إلى أن الدينار الجيشي في الاقطاعات كان على طبقات مختلفة في عبرة الاقطاعات:

---

(٢٧) Dopp.P.-H, Op-Cit., pp. 49, 50.n.1, Gennep. V.A, Op. Cit.,. p.501

وعن تطور النقد في مصر خلال العصور الوسطى انظر:

De Bouärd. M, L'Egypte contemporaine, Revue de la société Fouad 1er d'économie politique, de statistique et de legislation tome XXX, le Caire, 1939, in 8°, pp. 427 - 459.

(٢٨) القلقشندي، المصدر السابق، جزء ٣، ص ٤٣٨.

(٢٩) المقريزي، كتاب الخطط الآثار في مصر والقاهرة والنيل وما يتعلق بها من الأخبار، جزء بولاق - القاهرة ١٢٧٠ هـ ص ٢٣٨.

«فالأجناد من الترك والأكراد والكتانية دينارهم دينار كامل، والكتابة والعساقلة ومن يجري مجراهم دينارهم نصف دينار والعربان في الغالب دينارهم ثمن دينار، وفي عرف الناس ثلاثة عشر درهماً وثلث، وكأنه على ما كان عليه الحال من قيمة الذهب عند ترتيب الجيش القديم، فإن صرف الذهب في الزمن الأول كان قريباً من هذا المعنى ولذلك جعلت الدية عند من قدرها بالنقد من الفقهاء ألف دينار واثني عشر ألف درهم فيكون عن كل دينار اثنا عشر درهماً، وهو صرفه يومئذٍ»(٣٠).

وفي دار الضرب في القاهرة كانت تطبع بالسكة السلطانية بالإضافة إلى دنانير الذهب دراهم الفضة والفلوس وهي نقود نحاسية وكلها كانت تسبك قضباناً وتقطع من أطرافها وتضرب بالسكة تحت إشراف ناظر الخاص .

الدراهم الفضية :

وهي إما دراهم نُقرة (بيضاء) أم دراهم سوداء .

الدراهم النقرة :

ويكون ثلثاها من فضة وثلثها من نحاس، وتطبع بدور الضرب بالسكة السلطانية على نحو ما تقدم في ضرب الدنانير، ويكون منها دراهم صحاح وكسور الدرهم (قراضيات مكسرة) وهي توزن بالدرهم وهو معتبر بأربعة وعشرين قيراطاً، والدرهم من الدينار نصفه وخمسه، أي سبعة أعشاره أي كل سبعة مثاقيل تساوي عشرة دراهم وزناً(٣١).

وقد ذكر القلقشندي نقلاً عن ابن مماتي في «قوانين الدواوين» إن طريقة صنع الدراهم الفضية النقية وهي التي أطلق عليها اسم الدراهم النقرة تصير على الوجه التالي :

---

(٣٠) القلقشندي ، المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٤٣٨ ـ ٤٣٩ .

(٣١) القلقشندي ، صبح الأعشى ، جزء ٣ ، ص ٤٣٩ .

«والفضة يؤخذ منها ثلثمائة درهم إلى سبع مائة درهم من النحاس، ويسبك ذلك حتى إذا صار ماءً واحداً قلب قضباناً وقطع من أطرافها خمسة عشر درهماً تسبك فإن خلص منها أربعة دراهم ونصف درهم حساباً عن كل عشرة دراهم وإلا أعيدت إلى أن تصح وتختم»[٣٢] .

وقد أضاف صاحب صبح الأعشى نقلاً عن المقر الشهابي ابن فضل الله في «مسالك الأبصار» أن عيار الفضة النقرة الثلثان من فضة والثلث من نحاس[٣٣] وقد علق القلقشندي على ذلك قائلاً: «وهذا هو الذي عليه قاعدة العيار الصحيح كما كان أيام الظاهر بيبرس وما والاها، وربما زاد عيار النحاس في زماننا على الثلث شيئاً يسيراً بحيث يظهره النقد ولكنه يروج في جملة الفضة»[٣٤] .

---

(٣٢) ابن مماتي ، «قوانين الدواوين» (نشر عزيز سوريال ١٩٤٣) ، ص ٤٣٣٣ ؛ القلقشندي ، صبح الأعشى ، جزء ٣ ، ص ٤٦٠ - ٤٦٣ ، إن أنفس كتاب ابن مماتي « قوانين الدواوين » هو الباب التاسع حيث يتناول الكلام عن «دار الضرب» والعمل فيها، وطريقة ضرب السكة بشيء من الإيجاز المفيد ، كما تحدث عن دار العيار وكيف أنها كانت من لوازم بيت المال وتناول اختصاصاتها ومواردها . انظر : فهمي محمد .ع ، موسوعة النقود العربية، ص ١٤ ، ص ٢٢٩ - ٢٣٠ .

(٣٣) ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، مخطوطة أيا صوفيا - إسطنبول، جزء ٢ . رقم ٣٤٣٣ وهذا الجزء ٢٠ توجد صورة ميكروفيلم في الجامعة الأمريكية في بيروت .A.U.B برقم Mic-A-89 وفيه يتحدث ابن فضل الله عن الحيوان والنبات والمعادن وقد أكمل ابن فضل الله حديثه عن المعادن في الجزء ٢١ وهو غير موجود في مكتبة الجامعة الأمريكية في بيروت .

(٣٤) القلقشندي، المصدر السابق، جزء ٣ ، ص ٤٦٢ .
لمزيد من التفاصيل حول طريقة صنع الدراهم الفضية المعروفة بالدراهم النقرة انظر : ابن بعرة الذهبي، الكاملي، منصور، «كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية» وهي مخطوطة في دار الكتب المصرية، الباب التاسع ورقة ٦ ب، الباب الحادي عشر ورقة ٧ أ ، الباب الثالث عشر ورقة ٧ ب ، الباب الخامس عشر ورقة ٨ أ .
انظر أيضاً : فهمي محمد، موسوعة النقود العربية، ص ٢٢٩ - ٢٣٢ .

غير أنه بعد سنة ١٣٩٨/٨٠٠ قلت الفضة وبطل ضرب الدراهم بالديار المصرية إلا في القليل النادر بسبب استهلاكها في السروج والآنية وغيرها وسبب انقطاع وصولها إلى الديار المصرية من جنوبي أوروبا عامة وإيطاليا خاصة وغيرها. وقد عز وجود الدراهم الفضية في التداول بل كادت أن تفقد. وقد ضربت بالشام دراهم رديئة فيها الثلث فما دونه فضة والباقي نحاس أحمر. وطريقة ضرب الدراهم الفضية هي مماثلة للدنانير بأن تقطع القضبان قطعاً صغيرة ثم ترصع، غير أن الدنانير لا تكون إلا صحاحاً مستديرة والفضية قد تكون صحيحة أو متفاوتة المقادير أو غير مستديرة وفيها الدرهم ونصف الدرهم وربع الدرهم، إلا أن صورة السكة على الفضة هي كما في الذهب من غير فرق[٣٥].

الدراهم السوداء:

عرف المقريزي الدراهم السوداء أو السود أو المسودة بالآتي: «وحقيقة الدراهم السود النحاس فيها اليسير من الفضة»[٣٦].

وهذه الدراهم هي من الدراهم الزيوف وهي الفضة المخلوطة، وكانت بقيمتها في المعاملات التجارية فقط ولا تقبلها السلطات الحكومية في معاملاتها وجباياتها البتة وبها كانت معاملة أهل مصر وكانت تعرف بنقد مصر. وقد أدرك المقريزي الاسكندرية وأهلها لا يتعاملون إلا بها ويسمونها الورق، وفي حين كان سعر صرف الدرهم الصحيح ثمانية عشر درهماً بدينار. إلا أن المقريزي لم يحدد سعر صرف الدراهم السوداء فقال: «واختلفت آراء خلفاء مصر وملوكها في مقدار الدرهم اختلافاً لم ينضبط حتى الآن»[٣٧]. أما القلقشندي فتحدث

---

(٣٥) القلقشندي، المصدر نفسه، جزء ٣، ص ٤٦٢.

(٣٦) المقريزي، كتاب إغاثة الأمة بكشف الغمة، القاهرة ١٩٥٧ ص ٤٨؛ القلقشندي، صبح الأعشى، جزء ٣ ص ٤٤٠ ـ ٤٤٤ ص ٤٦٤.

(٣٧) المقريزي، المصدر نفسه، ص ٦٤.

عن الدراهم السوداءوقال إنها كالدنانير الجيشية وذكر أن بـالاسكندريـة دراهم سوداء يتعامل بها الناس وأشار إلى أن كـل درهم أسود معتبـر في العرف بثلث درهم نقرة[٣٨].

وعلى العموم كان ما يصل دور الضرب في مصر وسوريا من الفضة أقل انتظاماً من وصول الذهب ولكن ذلك كان كافياً وغالب ما يصل كان إما من أوروبا أو قلب آسيا. فاعتباراً من سنة ١٣٢٣ توجب على مملكة ارمينيـا الصغرى أن تدفع لسلطان مصر جزية Tribute باهظة كانت على شكل نقود فضية Trams.

ولمـا زاد إنتاج الفضـة في بعض البـلاد الأوروبيـة وفي ألمـانيـا بشكـل ملحـوظ، انخفضت قيمتها فعمـدت المدن والجمهـوريات الإيـطالية خـاصـة البندقية إلى تصدير كميات كبيرة منها إلى سلطنة المماليك. كمـا أنه غـداة غزو المغول للأجزاء الشمالية من شرقي المتوسط أخذت الفضة تتدفق على بلدان الشرق الأدنى ومنها سوريا ومصر وقد استغل السلطان بيبرس هذا الحدث ليزيد عيار الفضة في النقود المتداولة فضرب دراهمه المشهورة فجاءت تحوي على ٧٠٪ من الفضة. وكان من نتيجة هذه البحبـوحة في الفضـة أن انخفض سعر صرف الدرهـم فـأضحى كل دينـار يساوي ٢٨ درهمـاً. وليس أدل على توافـر الفضة وكثرتها سوى الهدايا من آنية وحلي وسروج التي كانت تهدي إلى الأمراء والأعيـان في مجتمـع الممـاليـك والتي كـانت قيمتهـا تقـدر بعـدة آلاف من الدراهم[٣٩] ولما تهافت الأغنياء والطبقة الأرستقراطية إلى صهر الدراهم وصنع الآنية والحلي منها: «وأما الفضة فكانت بمصر تتخـذ حلياً وأواني»[٤٠]، فقـد

(٣٨) القلقشندي، صبح الأعشى، جزء ٣، ص ٤٢٨، لمزيد من التفاصيل انظر:

Sauvaire, Matériaux pour servir à l'Histoire de la Numismatique et de la métrologie musulmanes, Paris 1882, vol II, pp. 102-104, 138. n. 1.

(٣٩) Ashtor. E, A social and Economic History of the Near East P.292; Les Métaux précieux, P. 21 ff.

(٤٠) المقريزي، إغاثة الأمة، ص ٦٤.

أدى ذلك إلى حصول نقص في هذا المعدن فحصل طلب شديد عليه ونتيجةً لذلك ارتفعت أسعار الفضة فاستغل التجار الإيطاليون هذا الظرف وجلبوا كميات كبيرة من النقود والسبائك الفضية إلى سلطنة المماليك وجنوا الربح الكبير باعتبار أن أسعاره في أوروبا كانت بنسبة ١١/١ من سعر الذهب في حين كانت أسعاره في مصر عهد المماليك البحريين بنسبة ٩،٤/١ . وبذلك تمكن المماليك من ضرب دراهم صحيحة وجيدة بوزن ٢،٩٧ غرام وبسعر ٢٠/١ من الدينار[٤١].

وعن ذهاب الفضة والنقص فيها ذكر المقريزي في «كتاب المواعظ والاعتبار» سوق الكفتيين وهو يشمل على عدة حوانيت لعمل الكفت وهو ما تطعم به أواني النحاس من الذهب والفضة فقال: «وكان لهذا الصنف من الأعمال بديار مصر رواج عظيم وللناس في النحاس المكفت رغبة عظيمة أدركنا من ذلك شيئاً لا يبلغ وصفه لكثرته فلا تكاد دار تخلو بالقاهرة ومصر من عدة قطع نحاس مكفت ولا بد أن يكون في شورة العروس دكة نحاس مكفت والدكة عبارة عن شيء شبه السرير يعمل من خشب مطعم بالعاج والأبنوس أو من خشب مدهون وفوق الدكة دست طاسات من نحاس أصفر مكفت بالفضة وعدة الدست سبع قطع بعضها أصغر من بعض تبلغ كبراها ما يسع الأردب من القمح وطول الاكفات التي نقشت بظاهرها من الفضة نحو الثلث ذراع في عرض أصبعين ومثل ذلك دست أطباق عدتها سبعة بعضها في جوف بعض ويفتح

---

(٤١) Ashtor. E, A Social and Economic History, P.492;

Baloq. P. History of the Dirham in Egypt , Revue Numismatique Ser. vi, t.3 (1961), P.139;

Bachara-Gordus, Studies on the fineness of silver coins', Jesho II (1968); P.314 F.

عن سعر صرف الفضة ذكر المقريزي في حديثه عن سوق الدجاجين بالقاهرة أنه «بيع طائر من السمّان بألف درهم فضة عنها يومئذٍ نحو خمسين ديناراً من الذهب». فيكون سعر الدرهم $\frac{١}{٢٠}$ من الدينار.

المقريزي، الخطط والآثار، جزء ٢، ص ٩٦.

أكبرها نحـو الذراعين وأكثـر وغير ذلـك من المنايـر والسرج وإحقـاق الاشنان والطشت والإبريق والمبخرة فتبلغ قيمة الدكة من النحـاس المكفت زيادة على مائتي دينار ذهباً. وكانت العروس من بنات الأمراء أو الوزراء أو أعيان الكتاب أو أماثل التجار تجهز في شورتها عند بناء الزوج عليها سبع دكك، دكة من فضة ودكة من نحاس أبيض..»(٤٢). ويضيف المقريزي أن القاضي علاء الدين بن عرب محتسب القاهرة تزوج بامرأة من بنات التجار تعـرف بست العمائم فلمـا قارب البناء عليها والدخـول بها، أرسلت إليـه بمائـة ألف درهـم فضة خـالصة ليصلح بهـا لها مـا عساه اختـل من الدكـة الفضة، وفي الحـال أمر المحتسب بصناع الفضة وطلائها فأحضروا وشرعوا في إصلاح ما أرسلته ست العمائم من أواني الفضة وإعادة طلائها بالذهب(٤٣).

ويضيف المقريزي أنه قد قلّ استعمال الناس في زمانه للنحاس المكفت وعزّ وجوده بسبب النقص في الفضة وبالتالي ارتفاع أسعارها: «فـإن قومـاً لهم عدة سنين قد تصدوا لشراء ما يباع منه وتنحية الكفت عنـه طلباً للفـائدة وبقي بهذا السوق إلى يومنا هذا بقية من صناع الكفت قليلة»(٤٤).

الفلوس:

كانت الفلوس النوع الثالث من النقود التي تضرب بدور الضرب في ديار سلطنة المماليك، ويعود وضعها في المعاملة بسبب الحـاجة إلى نقـود صغيرة لشراء سلع وحاجيات خفيفة تقل قيمتها عن الدرهم الواحد أو جزء منه:

«وأما الفلوس فإنه لما كان في المبيعات محقرات تقل عن أن تباع بدرهم أو جزء، احتاج الناس من أجل ذلك في القديم والحديث من الزمان إلى شيء

(٤٢) المقريزي، المصدر نفسه، جزء ٢، ص ١٠٥.
(٤٣) المقريزي، المصدر نفسه، جزء ٢، ص ١٠٥.
(٤٤) المقريزي، المصدر نفسه، جزء ٢، ص ١٠٥.

سوى نقدي الذهب والفضة يكون بإزاء تلك المحقرات»[٤٥].

ومنذ قديم الزمان عمد ملوك مصر وسوريا والعراق وفارس وبلاد الروم إلى ضرب نقود نحاسية لتسهيل أمور الناس وقضاء حاجاتهم. وكانت العرب تسميها فلوساً. وقد ضربت الفلوس بكميات يسيرة وكانت صغيرة الحجم وهي لم تقم أبداً مقام الذهب أو الفضة: «ولا يكاد يوجد من هذه الفلوس إلا النزر اليسير مع أنها لم تقم أبداً في هذه الأقاليم بمنزلة أحد النقدين قط»[٤٦] وعن سبب ضرب الفلوس بمصر في أيام السلطان الكامل الأيوبي (٦١٥/١٢١٨ - ٦٣٥/١٢٢٧) قصة طريفة يرويها المقريزي فيقول إن امرأة تعرضت لخطيب الجامع بمصر وهو إذ ذاك أبو الطاهر المحلي تستغيثه:

«ايحل شرب الماء أو لا؟» فقال: «يا أمة الله! وما يمنع من شرب الماء؟» فقالت: «إن السلطان ضرب هذه الدراهم، وإنني أشتري القربة بنصف درهم فيها ومعي درهم، فيرد (السقاء) علي نصف درهم وَرِقاً، فإني اشتريت منه ماءً ونصف درهم بدرهم». وأعقب المقريزي على ذلك بقوله:

«فأنكر (أبو الطاهر) ذلك، واجتمع بالسلطان وتكلم معه في ذلك فأمر بضرب الفلوس»[٤٧]. ومنذ أيام الكامل تتابع السلاطين في ضربها حتى كثرت في أيدي الناس وكانت العامة تتعنت في قبول الفلوس لما يداخلها من القطع

---

(٤٥) المقريزي، إغاثة الأمة بكشف الغمة، ص ٦٦؛
ليس لفظ الفلوس، والمفرد فلس - عربي الأصل، بل هو لفظ يوناني معرّب، وقد أخذته اليونانية قبلاً من اللفظ اللاتيني Follis ومعناه كيس النقود ويقال مثل ذلك بصدد لفظ الدرهم، فقد أخذه العرب من لفظ Diram في الفارسية، وهو يوناني الأصل وكذلك لفظ الدينار وأصله Denarius في اللاتينية. أنظر Fals,Dirham, Dinar.

(٤٦) المقريزي، إغاثة الأمة، ص ٦٦.

(٤٧) المقريزي، المصدر نفسه، ص ٦٦.

التي يأمر السلطان بالتعامل بها. «وكانت الفلوس أولاً تعد في الدرهم الكاملي ثمانية وأربعين فلساً»[٤٨].

ويقسم الفلس أربع قطع يشتري بها: «فتحصل بذلك من الرفق لذوي الحاجات ما لا يكاد يوصف»[٤٩]. ويضيف المقريزي أنه في سنة ٧٥٩/١٣٥٧ في سلطنة الناصر حسن بن مجمد بن قلاوون الثانية سوّل بعض العمال لأرباب الدولة حسن الفائدة، وضمن ضرب الفلوس بمال قرره على نفسه، فأحدثت فلوس عُبِّر عنها بالجدد زنة كل فلس منها مثقال، وهو قيراط من أربعة وعشرين قيراطاً من الدراهم، أما عن طريقة عملها فيقول القلقشندي: «يسبك النحاس الأحمر حتى يصير كالماء ثم يخرج فيضرب قضباناً، ثم يقطع قطعاً صغاراً، ثم ترصع وتسبك بالسكة السلطانية، وسكتها أن يكتب على أحد الوجهين اسم السلطان ولقبه ونسبه، وعلى الوجه الآخر اسم بلد ضربه وتاريخ السنة التي ضرب فيها»[٥٠].

وقد عانى الناس من جراء ذلك لما فيه من الخسارة وصاروا يشترون بدرهم ما كانوا من قبل يشترونه بنصف درهم وقد علق المقريزي على ذلك بقوله: «ثم توطنت نفوس الناس على ذلك إذ هم أبناء العوائد وكانت الفلوس مع ذلك لا يُشترى بها شيء من الأمور الجليلة»[٥١]. ومع ذلك جاءت هذه الفلوس في نهاية الحسن وبطل ما عداها من الفلوس وكانت أكثر ما يتعامل به أهل زمان القلقشندي (٧٥٦/١٣٥٥)[٥٢].

---

(٤٨) المقريزي، المصدر نفسه، ص ٦٩.

(٤٩) المقريزي، المصدر نفسه، ص ٦٩.

(٥٠) القلقشندي، صبح الأعشى، جزء ٣، ص ٤٦٤؛ المقريزي، المصدر السابق، ص ٦٩.

(٥١) المقريزي، إغاثة الأمة، ص ٧٠.

(٥٢) القلقشندي، صبح الأعشى، جزء ٣، ص ٤٤٠.

فلما كانت سلطنة العادل كتبغا (٦٩٤/١٢٩٤ ـ ٦٩٦/١٢٩٦) أكثر الوزير فخر الدين عمر بن عبد العزيز الجليلي من المظالم فضربت الفلوس منقوصة الوزن عن المثقال حتى صار فيها ما هو دون الدرهم وصار تكوينها غير مستدير فتوقف الناس فيها لخفتها، ثم نودي في سنة ٦٩٥/١٢٩٥ أن توزن بالميزان وأن يكون الفلس زنة درهم، ثم نودي على الرطل بدرهمين وكان هذا أول ما عرف بمصر من وزن الفلوس والمعاملة بها وزناً لا عدداً[٥٣].

ولم يستقر سعر صرف الفلوس على حال بسبب صغر الفلوس والتناقض في أوزانها وبسبب غلو النحاس وقلة الواصل منه إلى الديار المصرية وقد حمل التجار الفلوس المضروبة من الديار المصرية إلى الحجاز واليمن وغيرها من الأقاليم للإتجار بها وقد علق القلقشندي على ذلك بقوله: «ويوشك إن دام هذا أن تنفذ الفلوس من الديار المصرية ولا يوجد ما يتعامل به الناس»[٥٤].

ونتيجةً لذلك ولسد النقص الحاصل أضيف النحاس من أينما وجد وخلط بالفلوس فتدنت نوعيتها وهبط سعرها واستقر كل رطل بدرهم ونصف: «ثم نفدت هذه الفلوس من الديار المصرية لخلو النحاس، وصار مهما وجد النحاس المكسور خلط الفلوس الجدد وراج معها على مثل وزنها»[٥٥].

فلما كانت أيام الظاهر برقوق (٧٨٤/١٣٨٢ ـ ٨٠١/١٣٩٨) تولى محمود بن علي الاستادار أمر الأموال السلطانية وضمن دار الضرب بالقاهرة بجملة من المال فبعث إلى بلاد أوروبا لجلب النحاس الأحمر كما اتخذ دار ضرب لعمل الفلوس بالاسكندرية ودام ضرب الفلوس بهما مدة أيامه، فكثرت

(٥٣) المقريزي، المصدر السابق، ص ٧٠.
(٥٤) القلقشندي، المصدر السابق، ص ٤٤٠.
(٥٥) القلقشندي، المصدر نفسه، ص ٤٤٠.

الفلوس بأيدي الناس وراجت رواجاً كبيراً حتى أمست هي النقد الغالب في مصر. ونتيجةً لذلك قلت الفضة لأمرين: الأول بسبب عدم ضربها البتة والثاني بسبب سبك الناس ما بأيديهم من فضة لاتخاذها حلياً[٥٦] .

ومع ذلك وجد الذهب بكثرة بأيدي الناس، بعد أن عزّ وجوده، لكثرة ما كان يخرجه الظاهر برقوق في الانعام على أمراء الدولة ورجالها وفي نفقات الحروب وفي الصلات زمن الغلاء.

ولما مات الظاهر برقوق كان للناس ثلاثة أنواع من النقود يتعاملون بها أكثرها الفلوس وهي النقد الغالب ثم الذهب وهو أقل وجداناً من الفلوس وأخيراً الفضة التي قلت حتى بطل التعامل بها لعزتها.

أما أسعار الصرف في تلك الفترة (٨٠١/١٣٩٨) فكانت:

الدينار الذهب : ثلاثون درهماً من الفضة أو

: مائة وخمسون من الفلوس.

الدرهم الفضة: خمسة دراهم من الفلوس.

الدرهم من الفلوس: أربعة وعشرون فلساً.

وقد بلغ سعر صرف المثقال من الذهب في الاسكندرية بثلاثمائة درهم من الفلوس. وقد علق المقريزي عن ذلك بقوله: «فدهي الناس بسبب ذلك داهية أذهبت المال، وأوجبت قلة الأقوات، وتعذر وصول المطلوبات لاختلاف النقود، وإنه ليخشى من تمادي ذلك أن يحول حال أهل الإقليم»[٥٧] .

---

(٥٦) المقريزي، إغاثة الأمة، ص ٧١.

(٥٧) المقريزي، المصدر نفسه، ص ٧١، لمزيد من التفاصيل أنظر: =

عصر النحاس في تاريخ النقد المملوكي:

والحقيقة أن السمة البارزة للحياة الاقتصادية في كل من مصر وسوريا في السنوات الأخيرة من نهاية القرن الرابع عشر هي اختفاء النقود الفضية. فمنذ سنة ١٣٨٠ أخذ الواصل إلى دور الضرب في ديار سلطنة المماليك من الفضة بالتدني وانعكس ذلك على محتوى الدرهم من الفضة. ففي حين كان الدرهم يساوي ولـ ١٣٠ سنة خلت ١/٢٠ من الدينار إلا أن قيمته انخفضت إلى ١/٢٥ ثم إلى ١/٣٠ من الدينار.

وإذا كان المؤرخون المسلمون قد عزوا نقص الفضة إلى سبك الناس لها أوانٍ وحلياً إلا أن السبب الرئيسي يعود في الواقع إلى اشتداد الطلب عليها في إيطاليا حيث ارتفعت أسعار الفضة بشكل ملحوظ في نهاية القرن الرابع عشر. وقد أدت زيادة كميات النحاس المستخرجة من مناجم المناطق المختلفة في أوروبا إلى تصدير المزيد من هذا المعدن إلى الشرق الأوسط حيث ازداد الطلب عليه لضرب الفلوس لتعويض النقص في الفضة. وكان البنادقة يجلبون النحاس من هولندا وهنغاريا وبلاد الصرب(٥٨). واستناداً إلى ذلك حددت الأسعار في سلطنة المماليك بالنسبة إلى الدراهم النحاسية حتى الأجور والرواتب المحددة بالدنانير أو الدراهم الفضية صارت تدفع بالفلوس وبذلك بدأت مرحلة ما يسمى بعصر النحاس في تاريخ النقد في كل من مصر وسوريا(٥٩).

وقد رافق هذه المرحلة فتن كثيرة وغلاء في عهد السلطان الملك الناصر فرج (٨٠١/١٣٩٨ - ٨١٥/١٤١٢) ففي بلاد الشام اشتد الغلاء بسبب تخريبها

= De Bouärd, Sur l'Evolution Monétaire de l'Egypte Médiévale, Rev. Soc. Econ. Polit, Statis. Legis, XXX, PP. 427-459.

(٥٨) Ashtor. E, A. social and Economic History of the Near East,p. 292; Les métaux précieux, p. 21 ff.

(٥٩) Ashtor. E, Op. Cit., P.105 .

وحرقها من قبل تيمورلنك ودهم الجراد لها، وفي مصر قصر النيل حتى شرقت الأراضي إلا قليلاً وعظم الغلاء والفناء فباع أهل الصعيد أولادهم من الجوع[٦٠]، ولم يعد بإمكان الناس شراء ما اعتادوا عليه بسبب ارتفاع الأسعار الفاحش إذا عمد التجار إلى تسعير السلع على أساس الدينار لتدني القيمة الشرائية للفلوس بسبب طرحها بكميات كبيرة في التداول فنتج عن ذلك أزمة تضخم خانقة. فعمد كثير من الناس على استبدال ثياب الحرير بالثياب الصوفية: «فلما كانت هذه الحوادث وغلت الملابس دعت الضرورة أهل مصر إلى ترك أشياء مما كانوا فيه من الترفه وصار معظم الناس يلبسون الجوخ فتجد الأمير والوزير والقاضي ومن دونهم مما ذكرنا لباسهم الجوخ... واجتلب الفرنج منه شيئاً كثيراً لا توصف كثرته»[٦١].

وهجر الصناع دكاكينهم وأغلقت الأسواق في القاهرة إلا قليلاً فاستناداً إلى المقريزي لم يبق في سوق الشماعين إلا نحو الخمس حوانيت وذلك لقلة ترف الناس وتركهم استعمال الشمع أما سوق الدجاجين فلم يبق فيه إلا بقية قليلة وأما سوق بين القصرين وكان من أعظم أسواق الدنيا: «وفيه الآن بقية تحزنني رؤيتها إذ صارت إلى هذه القلة»[٦٢].

وهناك مظهر آخر من مظاهر الفقر العام الذي أصاب سلطنة المماليك في أوائل القرن الخامس عشر وقد تمظهر ذلك بقلة وصول المعادن الثمينة إلى مصر وسوريا وبالتالي عدم ضربها وطرحها للتعامل بها بصورة نشطة. وليس أدل على ذلك من أن المصادرات والغرامات التي كانت تفرضها السلطات المملوكية على بعض الأعيان لم تكن تتجاوز ال ٦٠،٠٠٠ دينار[٦٣] في أيام السلطان

---

(٦٠) المقريزي، كتاب الخطط والآثار، جزء ٢، ص ٢٤١.

(٦١) المقريزي، المصدر نفسه، جزء ٢، ص ٩٨.

(٦٢) المقريزي، المصدر نفسه، جزء ٢ ص ٩٦ - ٩٧.

(٦٣) Ashtor. E, A Social and Economic History of the Near East, p. 324.

فرج، في حين بلغت هذه الغرامات أرقاماً خيالية أي بعد مئة سنة تقريباً في عهد السلطان قانصو الغوري، فثروة خايربيك الخازندار صهر السلطان قدرت تركته التي وضعت اليد عليها بحوالي ٤٠٠،٠٠٠ دينار(٦٤)، وغرامة المعلم يعقوب اليهودي بلغت مئة ألف دينار(٦٥) ومن مظاهر التضخم أيضاً ارتفاع نسبة الفوائد بسبب النقص بالذهب والفضة وكثرة الفلوس، ففي حين كان بالإمكان الحصول على قرض في مصر زمن الصليبيين بفائدة سنوية قدرها ٤ ـ ٨٪، إلا أن نسبة هذه الفائدة ارتفعت إلى ١٨ ـ ٤٢/في كل من مصر وسوريا في القرن الخامس عشر(٦٦).

وهذا لا يعني توقف وصول الذهب إلى دور الضرب في سلطنة المماليك من غربي السودان بل على العكس ظل تدفق الذهب متواصلاً ولكن بنسبة أقل من السابق وقد عزا المقريزي تفاقم الأمور وغلاء الأسعار واختلاف النقود بسبب رواج الفلوس التي دهي الناس من كثرتها «فالأمر لا أشنع من ذكره ولا أفظع من هوله، فسرت به الأمور واختلت به الأحوال، وآل أمر الناس بسببه إلى العدم والزوال وأشرف من أجله الإقليم على الدمار والإضمحلال»(٦٧).

ويضيف المقريزي أن من نظر إلى أثمان المبيعات باعتبار الفضة والذهب لا يجدها قد غلت إلا شيئاً يسيراً ولذلك فهو يرى «فيما يزيل عن العباد هذا الداء ويقوم لمرض الزمان مقام الدواء»(٦٨) العودة إلى التعامل بالنقود المعتبرة شرعاً وعقلاً وهي الذهب والفضة التي لا يصلح عداهما أن يكون نقداً: «وكذلك لا يستقيم أمر الناس إلا بحملهم على الأمر الطبيعي الشرعي في

---

(٦٤) ابن إياس، بدائع الزهور، جزء ٤، ص ٤٠٥.

(٦٥) ابن إياس، المصدر نفسه، جزء ٤، ص ٤٤.

(٦٦) Ashtor. E, Op. Cit., P.324.

(٦٧) المقريزي، إغاثة الأمة بكشف الغمة، ص ٧٩.

(٦٨) المقريزي، المصدر نفسه، ص ٨٠.

ذلـك، وهو تعـاملهم في أثمان مبيعـاتهم وأعواض أعمـالهم بالفضـة والذهب لا غير ذلك»[٦٩].

وقـد حدد المقـريزي سعـر صرف الـدينار والـدرهم الفضة على الـوجه التـالي: «فبحكم ذلك يكـون صرف كـل مثقال من الـذهب المختوم بـأربعـة وعشـرين درهماً من الفضـة المعاملة والمثقـال من الذهب الآن يؤخـذ فيه عن صرفه من النحاس الأحمر المضروب قطعاً المسمى فلوساً ثلاثة وعشرون رطلاً وثلث الرطل، حسابها بزعمهم مائة وأربعون درهماً فلوساً وهـو صرف الـدينار بـالفلوس لعهدئـذٍ. . ويؤخذ بـالأربعة والعشـرين درهمـاً (من الفضـة) ثـلاثـة وعشـرون رطـلاً وثلث رطـل من الفلوس التي تعـد في كـل درهم من الفضـة المعاملة منها نحو مائة وأربعين فلساً، تصرف في محقرات المبيعـات ونفقات البيوت فيعظم النفع بها ويحط الأسعار، وعما قليل لا تكاد توجد لضرب الناس لها أواني، وفي ذلك صلاح الأمور واتساع الأحوال، ووفور النعم وزيادة الرفه، ما لا حد له، والله يعلم وأنتم لا تعلمون»[٧٠].

ولا ندري على وجه التحديد هـل جاء الإصـلاح النقدي الـذي قام بـه السلطان برسباي سنة ١٤٢٥ استجابةً لاقتراحات المقريزي أو نتيجةً لمتطلبات وضغوطات محلية ودولية. فللمـرة الأولى في تاريـخ الشرق الإسـلامي خفض الدينار فبدلاً من الدينار الشرعي الوافي ووزنه ٤،٢٥ غرام ضرب دينـار أخف على هيئة الدوكاتو البندقي بوزن ٣،٤٥ غرام. وسمي الدينار الجديد بالـدينار الأشرفي نسبةً إلى السلطان بـرسباي الملقب بـالملك الأشرف وقـد ظل هـذا الـدينار الأشـرفي قيد التعـامل في كـل من مصر وسـوريا حتى نهـايـة سلطنـة المماليك. وقد رغب السلطان برسباي إنزال دينار إسلامي جديد ليحـل محل الدوكاتو البندقي الذي كان العملة الأوروبية الوحيدة التي يجري التعـامل بهـا

(٦٩) المقريزي، المصدر نفسه، ص ٨٠.

(٧٠) المقريزي، المصدر نفسه، ص ٨٠.

قانونياً في ديار سلطنة المماليك وغيرها من بلدان شرقي المتوسط[٧١].

على كل حال إن تخفيض الدينار يشير إلى حقيقة لا يمكن تجاهلها وهي أن مخزون دور الضرب المصرية من الذهب قد تدنى. والواقع أن كميات كبيرة من ذهب غرب السودان كانت في تلك الفترة تذهب إلى الأوروبيين خاصة الجنويين والبرتغاليين. وقد أشار الرحالة البندقي الفيز دي كا دا موستو الذي سافر سنة ١٤٥٥ ـ ١٤٥٦ إلى غرب السودان إلى أن ذهب مالي كان يقسم إلى ثلاثة أجزاء: قسم ينقل عبر القوافل إلى القاهرة، وسوريا، وقسم إلى تمبوكتو Timbuktu ومنها إلى تونس عبر طواط Touat أما القسم الثالث فكان ينقل إلى أوران Oran وفاس ومراكش وارزيلة Arzila حيث كان يتسلمه التجار الإيطاليون[٧٢]. وليس هناك من دلالة واضحة على زيادة كميات الذهب المستخرجة من غرب السودان مما يحملنا على الاستنتاج أن تدفق التبر المتزايد باتجاه جنوبي أوروبا قد قلل دون شك من إمداد شرقي المتوسط بالكميات المطلوبة وبالتالي أدى إلى إضعاف السلطان في القاهرة.

والملاحظ أنه في حين عمدت الحكومات الأوروبية إلى المحافظة على سعر صرف عملاتها سعت السلطات المملوكية لتعويم الفلوس النحاسية ولذلك عمدت الحكومة المصرية مراراً إلى تحديد سعر صرف للفلوس أعلى بكثير من السعر الجاري للدراهم النحاسية أو كانت تصدر الأوامر بالتعامل بالفلوس وزناً بدل المعاودة أو بالعكس.

وقد نتج عن هذه الاجراءات اختلاف الأسعار مما ألحق الضرر البالغ

---

(٧١) Dopp., P.-H, L'Egypte au Commencent du Quinzième siècle, d'aprẽs le traité d'Emmanuel Piloti de Crète, pp. 49 - 50; Ashtor. E, Op. Cit., p. 324.

(٧٢) Ashtor. E, Ibid. P. 324;
Navigationi Messer Alvise de Ca da Mosto , Ramuso I (Venice 1550), f. 108 b.

بالمواطنين: «وفيه (صفر ٨٧٣/آب ١٤٦٨) نودي على الفلوس الجدد بأربعة وعشرين نقرة الرطل وكانت بستة وثلاثين، فحصل للناس بسبب ذلك الضرر الشامل»[٧٣].

كما أنه في ذي الحجة ٨٧٩/ نيسان ١٤٧٥ ضرب السلطان فلوساً جديدة ثم نودي عليها كل رطل بست وثلاثين درهم من الفضة، كما نودي على الفلوس العتق كل رطل بأربعة وعشرين، «فخسر الناس في هذه الحركة الثلث من أموالهم، وكانت الفلوس الجدد تخرج معاودة كل أربعة افلاس بدرهم»[٧٤]. وفي ذي الحجة ٩٠٣/تموز ١٤٩٨ كثرت الفلوس الجدد بأيدي الناس وصار سعر نصف درهم الفضة يصرف بأربعة عشر من الفلوس الجدد: «وصارت البضائع تباع بسعرين، سعر الفضة وسعر بالفلوس وأضرَّ ذلك بمال الناس»[٧٥].

وفي أحيان كان يحصل نقص في الدراهم النحاسية بسبب حملها من قبل التجار إلى الهند حيث تباع بأسعار أعلى[٧٦].

على كل حال وبالرغم من الصعوبات المالية الجمة التي واجهتها سلطنة المماليك في نهاية عهدها، إلا أن ميزان المدفوعات كان حتماً لصالح كل من مصر وسوريا. وهناك دلائل واضحة عن الازدياد المضطرد لحجم السلع التجارية الواصلة إلى ديار السلطنة عبر البحر الأحمر الطريق الرئيسي ما بين الهند والاسكندرية ومنها إلى جنوبي أوروبا وبالتحديد إيطاليا. والمعلومات

---

(٧٣) ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، جزء ٣، القاهرة ١٣٨٣ هـ - ١٨٦٣، ص ٢٠.

(٧٤) ابن إياس، المصدر نفسه، جزء ٣، ص ١٠٥.

(٧٥) ابن إياس، المصدر نفسه، جزء ٣، ص ٣٨٥.

(٧٦) Ashtor. E, Op. Cit., P. 325; les métaux précieux, P.106;
ابن إياس، المصدر السابق، جزء ٣، ص ١٨.

الموجودة في المصادر الإيطالية والمتعلقة بتجارة البندقية مع سوريا ومصر توضع ازدياد حجم المبادلات التجارية. فالدوج توماسوموسنيجيو Tomaso Mocnegio (١٤١٤ - ١٤٢٣) ذكر في كلمة وهو على فراش الموت أن البندقية ترسل إلى الشرق ٣٠٠،٠٠٠ دوكات نقداً كل عام. كما أن إحصائيات نهاية القرن الخامس عشر تشير أيضاً إلى مبلغ قيمته ٣٠٠،٠٠٠ دوكات(٧٧).

وكان التجار البنادقة يدفعون نقداً ثمن جزء من التوابل والقطن والسلع الأخرى التي كانوا يجلبونها من مصر وسوريا أما ما تبقى فكانوا يسددون ثمنه عن طريق المقايضة. ولما كانت أثمان التوابل الباهظة الأسعار تتعدى إلى حد بعيد المبالغ النقدية التي كان يحملها البنادقة إلى الموانىء المصرية والسورية فقد عمدت الجمهورية إلى زيادة حجم صادراتها إلى شرقي المتوسط خلال القرن الخامس عشر. والمعلومات المتوافرة تشير إلى أن كميات ضخمة من النحاس الأحمر كانت تصدر إلى الاسكندرية في بداية القرن السادس عشر والتي ندرجها في اللوحة المبينة أدناه(٧٨).

تصدير النحاس من قبل البنادقة

السنة	الوجهة	الكمية	القيمة
١٤٩٥	الاسكندرية	٥,٥٠٠ قنطار	٣٥,٧٥٠ دوكات
١٤٩٦	الاسكندرية	١٠،٠٠٠ قنطار	٦٥،٠٠٠ دوكات
	بيروت	٠١،٥٠٠ قنطار	٠٩،٧٥٠ دوكات
١٥٠١	الاسكندرية	٤،٠٠٠ قنطار	٢٦،٠٠٠ دوكات

---

(٧٧) Ashtor. E, Op. Cit., P.326; les **métaux précieux, P. 66 f;** Braudel. B, the Mediterranean and the Mediterranean World in the Age of Philip II, London, 1972, p. 387, n. 159.

(٧٨) Ashtor.E, Op. Cit., P.328; Les Métaux précieux, PP.74 ff, 123 f; =

وقد أكد السلطان الغوري بعضاً من هذه المعلومات حيث أشار في نص الاتفاقية التي عقدها مع السفير البندقي تريفزان سنة ١٥١١/١٥١٢ إلى أن الكميات الكبيرة من المتاجر من الزيوت والنحاس والرصاص والصوف التي كانت تبقى في الاسكندرية بعد انتهاء المدة لا تقل قيمتها عن ٣٠٠،٠٠٠ دوكات وأن كميات صفائح النحاس التي تصل الاسكندرية كانت بحدود ٣٠٠٠ قنطار دون حساب باقي الأنواع الأخرى من النحاس(٧٩).

وقد استغل المماليك تدفق النقد الذهبي البندقي لتدعيم اقتصادهم من جهة ولجعل ميزان التجارة الشرقية دائماً لصالحهم. وبالرغم من أن سلطنة المماليك كانت تدفع سنوياً مبالغ ضخمة من الدنانير الذهبية لسد حاجاتها من الأرقاء القادمين من جهات البحر الأسود وغيرها ولتأمين احتياجاتها من التوابل الشرقية للاستهلاك المحلي وبالرغم من أن السلطات الهندية حيث منابع الفلفل والبهار، كانت لا تقبل إلا الدنانير الأشرفية(٨٠)، ضرب القاهرة أو دمشق، إلا أن سلطات المماليك كانت تعمد إلى تعويض النقص الحاصل عن طريق قبول الدوكات البندقية وإعادة سبكها وضربها دنانير إسلامية من جهة وعن طريق تأمين استمرار تدفق الذهب من غرب السودان بمبادلته بسلع رخيصة كالملح والصوف والخرز والودع(٨١) وبذلك نجح المماليك في جعل ميزان التجارة الشرقية دائماً لصالحهم(٨٢).

Priuli. G, I Diarii, Vol I, P.59 f;
ASV proc. S. Marco, Comm. miste Ba 181, fase. 23;
Braudel. F, Mélanges, Toulouse, 1973, Tome I, P.46.

(٧٩) فهمي. ن.ز، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب، نص اتفاقية السفير البندقي «تريفزان» والسلطان «الغوري» ١٥١١، ١٥١٢، ص ٤١١-٤١٣.

(٨٠) Dopp.P.-H, L'Egypte an Commencement du Quinzième siècle, P.49

(٨١) القلقشندي، صبح الأعشى، جزء ٥، ص ٢٨٦، ٢٩٢.

(٨٢) Ashtor. E, Op. Cit., P. 329.

ب ـ النقود الإيطالية

ـ النقود الفضية:

السمة البارزة للنقود الإيطالية أنها كانت وافية، ثابتة الوزن لا تلاعب فيها وكانت النقود الفضية الكبيرة Large Silver Penny قد ضربت بكثرة في أيام دوج البندقية انريكو داندولو Enrico Dandolo حوالي سنة ١٢٠٠ لتمويل الحملة الصليبية الرابعة. وقد احتفظت تلك النقود بوزنها الأصلي (٢،١٨ غرام) وبعيارها البالغ ٠,٩٦٥ من الفضة الخالصة. وقد اعتمدت الحكومة البندقية في حسبان ما يتوجب عليها من مدفوعات في مبادلاتها التجارية الدولية على العملة المعروفة بالكروسو وكانت ليرة الكروسي Lira di grossi تساوي ما مجموعه ٢٤٠ قطعة من النقود الفضية الكبيرة. ونظراً لثبات وزنه وعياره فقد راج النقد الفضي البندقي (الكروسو) رواجاً عظيماً في شرقي المتوسط. وكان البنادقة يسددون قيمة السلع الشرقية عن طريق إرسال أكياس من الكروسي وقضبان من الفضة الخالصة ذات العيار المماثل لنقدهم ومختومة بسكة دار الضرب. وفي عهد الدوج برتولوميو غراد نيغو Bartolommeo Gradinigo (١٣٢٨ ـ ١٣٤٢) ضربت نقود فضية جديدة grosso بوزن ٢،١٨ غرام وعيار ٠،٩٦ من الفضة الخالصة وجاءت مماثلة لتلك التي ضربها الدوج داندولو وكانت هيئتها مستوحاة من شكل النقود البيزنطية التي كانت متداولة في البندقية قبل سنة ١٢٠٠؛ فجاءت على الوجه الأول صورة الدوج يتلقى مقاليد الحكم من القديس يوحنا وعلى الوجه الآخر جاءت صورة السيد المسيح وهو جالس على العرش. وقد تميزت النقود الفضية Grossi التي ضربت في سنة ١٣٧٩ وكانت أخف وزناً وأقل فضة، بنجمة وضعت إلى الشمال من صورة السيد المسيح.

أما على الصعيد الداخلي وبهدف تسهيل أمور الناس وقضاء معاملاتهم وحاجاتهم اليومية عمدت سلطات البندقية إلى ضرب نقود أصغر حجماً وأقل عياراً من الفضة، وسميت هذه النقود بيكولي Piccoli أي الصغيرة. وكانت

هيئتها مستوحاة من النقود التي ضربها شارلمان وكانت معروفة باسم ديناريوس Denarius غير أن النقود البندقية كانت أصغر منها بكثير إذ لا يتجاوز وزن القطعة الواحدة ٣٦٢، ٠ غراماً (حوالي ١/١٠٠ من الأونصة) وكانت تحوي فقط على ٢٥ ٪ من الفضة .

وكانت كل ليرة من النقود الصغيرة Lira di Piccoli تساوي ٢٤٠ قطعة فضية صغيرة كما كان كل سولدو من هذه النقود الصغيرة Soldo di Piccoli يساوي اثنتي عشر قطعة فضية صغيرة. وعلى أثر ضرب كميات كبيرة من النقود الصغيرة وطرحها تباعاً في الأسواق للتداول بها ولما جاءت هذه النقود محتوية نسبة أقل وأقل من الفضة، ارتفع سعر صرف الكروسو إلى ٣٢ قطعة صغيرة بعدما كان في الأساس يساوي ٢٦ قطعة صغيرة Piccoli فقط [٨٣] .

ـ النقود الذهبية :

وكان الذهب كالفضة يصل إلى البندقية من المانيا وهنغاريا وبلاد البلقان. غير أن الذهب عموماً كان يتدفق إلى جنوبي أوروبا من الاتجار مع شمال أفريقيا والتي كان يصلها من مالي أو غربي السودان والمعروفة آنذاك ببلاد التكرور[٨٤] .

واستناداً إلى رواية داموستو Da Mosto فإن جزءاً من ذهب مالي كان ينقل حوالي منتصف القرن الخامس عشر (١٤٥٥) إلى اوران وفاس وأرزيلة في بلاد المغرب حيث كان يتسلمه التجار الايطاليون[٨٥] . وكانت جنوى وفلورنسا أول مدينتين إيطاليتين تضربان نقوداً ذهبية وقد أحرز الفيورينو Fiorino المضروب

---

(٨٣) Lane. F, Venice a Maritime Republic, Baltimore, 1981, PP. 148-149

(٨٤) Ashtor. E, A Social and Economic History of the Near East, PP. 81-82; القلقشندي، صبح الأعشى، جزء ٥، ص ٢٨٦ .

(٨٥) Ashtor. E, Op. Cit., P. 324, Navigationi, di Messer Alvise de Ca da Mosto , Ramuso I (Venice 1550), f 108 b.

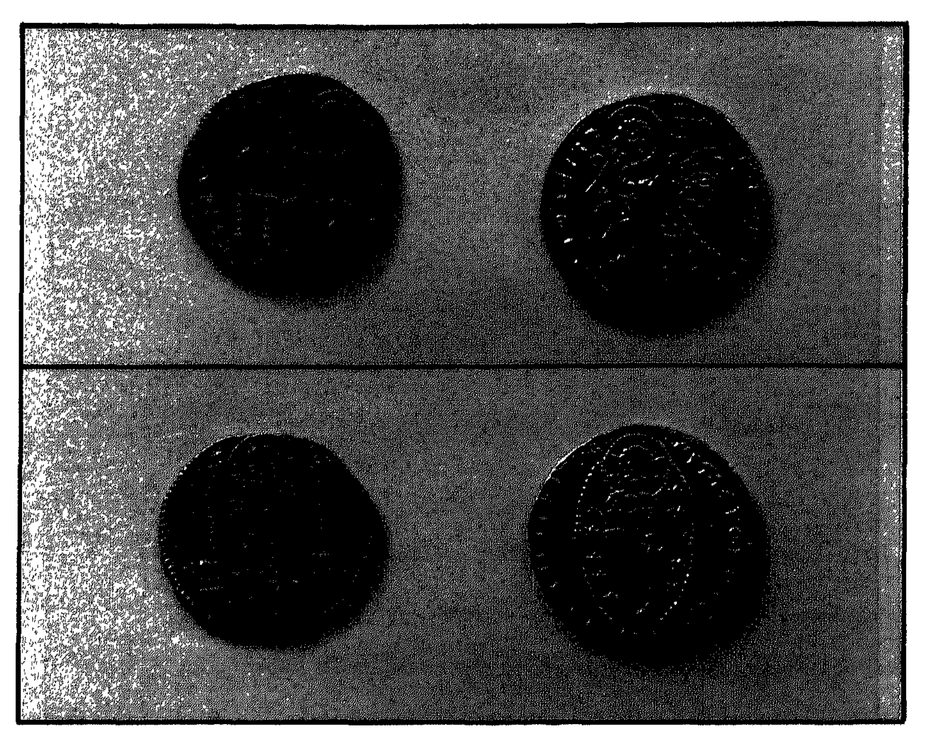
عام ١٢٥٢ رواجاً عظيماً كنقد ذهبي متداول[٨٦] وذلك قبل أن تطرح البندقية الدوكاتو الذهبي سنة ١٢٨٤ الذي جاء بنفس وزن وعيار الفيورينو. وحتى ذلك الوقت كانت الدنانير الذهبية المضروبة في القسطنطينية هي النقد المتداول في التجارة البندقية الخارجية. غير أن بوادر الضعف ظهرت في إصدارات العملة البيزنطية بسبب التلاعب في وزنها وعيارها أما الدوكاتو البندقي أو الزكينو Zecchino فقد احتفظ بوزنه الدائم وهو ٣،٥ غرام وعياره الثابت وهو ٩٩٧، ٠ من الذهب الخالص منذ إصداره لأول مرة سنة ١٢٨٤ وحتى سقوط الجمهورية عام ١٧٩٧ . وقد جاء الدوكاتو على هيئة الكروسو فظهرت على الوجه الأول منه صورة الدوج وهو راكع يتلقى مقاليد الحكم من القديس مارك وقد بدا خلف الدوج اسمه اندريا داندولو أما على الوجه الآخر فقد ظهرت صورة السيد المسيح حاملاً الإنجيل وهو يوزع بركاته[٨٧] .

ورويداً رويداً راج الدوكاتو وعمَّانتشاره أكثر من أي نقد آخر .

غير انه من المفيد أن نشير انه خلال العقود الأولى من القرن الرابع عشر، كان كثير من المحافظين البنادقة يفضلون التعامل بالفضة خاصة وأن أسعار الجملة ومتوجبات الدولة وحسابات البنوك الجارية كانت تحدد على أساس الكروسو Grosso أما الدوكاتو فكان وجهاً آخر من وجوه وطرق تسديد المدفوعات. ولما تطورت البنوك في البندقية بالقياس إلى التغيير الذي حصل على صعيد النقد ولما كانت إحدى مهمات أصحاب البنوك الاحتفاظ بكميات كبيرة من النقود جاهزة لدفع مرتبات بحارة الشواني ولما لم يكن لأصحاب البنوك خزنات منيعة فقد عمدوا إلى وضع نقودهم في خزانة الدولة. وقد تضرر أصحاب البنوك من تغير سعر الذهب المفاجىء بالنسبة إلى الفضة نظراً

(٨٦) Cipolla. C, Money, Prices and Civilization in the Mediterranean World, Princeton. 1956, P.21.

(٨٧) Lane. F, Op. Cit., P.148 .



النقود البندقية

أ ـ النقود الفضية :

المعروفة باسم الكروسو grosso

ضربت في أيام الدوج برتولوميو غرادنيغو (١٣٣٨ ـ ١٣٤٢) وقد حافظت على وزنها (٢,١٨ غرام) وهيئتها (كما في الصورة) وعيارها (٩٦٪ من الفضة الخالصة). وشكلها مشابه للنقود البيزنطية المعروفة بالمشخصة فعوضاً عن الأمبراطور والملاك المتوج ضرب البنادقة على الوجه الأول صورة الدوج يتلقى مقاليد الحكم من القديس سان ماركو شفيع البندقية. أما على الوجه الآخر فقد ظهر السيد المسيح عليه السلام جالساً على عرشه.

ب ـ النقود الذهبية :

المعروفة باسم الدوكاتو والتي سميت فيما بعد بالزكينو. وقد احتوى الدوكاتو دائماً على ٣,٥٥ غرام من الذهب الخالص وكان على هيئة الكروسو إنما ضُرب بعناية أكبر؛ فعلى الوجه الأول بدا الدوج أندريا داندولو راكعاً يتلقى مقاليد الحكم من القديس سان ماركو. أما على الوجه الآخر فقد ظهر السيد المسيح المخلِّص حاملاً الكتاب المقدس وهو يمنح بركاته.



لاحتفاظهم بكميات كبيرة منها غير أنهم كانوا يتدبرون أمورهم ويجنون الأرباح من عمليات التحويل.

ولما كانت قيمة الذهب بارتفاع مضطرد بالمقارنة إلى الفضة (سنة ١٢٥٢ كانت أسعار الذهب بالنسبة للفضة $\frac{١}{١٠}$ ثم ارتفعت في سنة ١٣١٠ إلى $\frac{١}{١٤}$) فقد استفاد أصحاب البنوك وجنوا الأرباح عن طريق قبول الايداعات بالدوكاتو الذهبية ودفعها بالنقود الفضية Grossi كما عمدوا إلى إجراء عمليات الدفع بالنقود الفضية الصغيرة والنحاسية والتي كانت قيد التداول في شراء المتطلبات والحاجات اليومية ودفع الرواتب(٨٨).

وفي سنة ١٣٢٦ حصل انخفاض مفاجىء في قيمة الذهب في البندقية وصارت أسعار الذهب بالنسبة للفضة بمعدل ١ إلى ١٠، ففي خلال فترة عشرين سنة (١٣٠٥ ـ ١٣٢٥) بيع الدوكات الذهبي بـ ٢٤ كروسي من القطع الفضية في السوق وتم التداول من قبل البنوك على هذا الأساس وراج الدوكات رواجاً تاماً لكثرة الذهب ونقص الفضة حتى أن التاجر إذا رغب في إبدال دوكاته ما كان ليحصل إلا على ٢٠ أو ٢٢ كروسي بالمقابل.

ولما كانت الودائع مقيدة على أساس الكروسي ونظراً لانخفاض سعر الدوكاتو وندرة الفضة وبالتالي الكروسي فقد أضحى من العسير على المدينين دفع دائنيهم، والبنوك تلبية حاجة مودعيهم والحكومة إيفاء التزاماتها وموجباتها. ولم يكن من المستغرب أن تتدخل الحكومة وتحدد سعر صرف الدوكاتو الرسمي بـ ٢٤ كروسي. وبذلك أمكن دفع كافة الودائع المقيدة بالكروسي على أساس الدوكاتو وبالسعر المقرر فقل التعامل بالكروسي إلى حد كبير وأوقف ضربها على جاري العادة.

وهكذا تحولت جمهورية البندقية من التعامل بالنقد الفضي إلى التعامل

---

(٨٨) Lane, F. Op. Cit, P. 149.

بالنقد الذهبي وكان ذلك اعتباراً من منتصف القرن الرابع عشر(٨٩).

وبالإضافة إلى البندقية عمدت مدن وجمهوريات إيطالية أخرى كفلورنسا منذ منتصف القرن الثالث عشر إلى ضرب نقود من الذهب الخالص بوزن ٣،٥ غرام. وقد واجهت هذا النقد الجديد الذي عرف بالفيورينو Fiorino صعوبات عديدة سرعان ما تغلب عليها وراج رواجاً كبيراً. ومنذ ذلك الحين وحتى نهاية القرون الوسطى أمسى النقد الذهبي للجمهوريات الإيطالية (البندقية وفلورنسا) مرغوباً وقيد التداول ليس في إيطاليا وحدها بل في جنوبي أوروبا وشمالي أفريقيا وشرقي المتوسط وقد لعب هذا النقد الإيطالي آنذاك دوراً بارزاً في المبادلات التجارية الدولية تماماً كالدور الذي يلعبه الدولار الأميركي على الصعيد العالمي في أيامنا هذه.

والواقع، أنه خلال الفترة الواقعة ما بين منتصف القرن الثالث عشر وحتى نهاية القرن الرابع عشر حظي النقد الذهبي الفلورنسي بمكانة مرموقة حتى أن المسؤولين عن دار الضرب في فلورنسا كانوا يدعون بكل اعتزاز أن نقودهم الذهبية هذه تقبل في أي مكان من العالم: «Communem Cursum habet dicta moneta auri per uniersum orbem terrarum» (٩٠).

أما في القرن الخامس عشر فقد اعتبر النقد الذهبي البندقي نقداً دولياً بلا منازع(٩١). وقد بقي الفيورينو نقداً ثابتاً ورائجاً مدة قرن ونصف منذ إصداره

---

(٨٩) Lane. F, Op. Cit., PP. 148-149.

(٩٠) Orsini /I, Storia delle monete della Repubblica, Fiorentina, (Florence, 1760), P.I; Cipolla. C, Money, Prices and Civilization, P.21.

(٩١) إن المكانة المرموقة التي احتلها الدوكاتو في القرن الخامس عشر تبدو واضحة من خلال اعتماده كمقياس من قبل الحكام المسلمين والمسيحيين على السواء في شرقي وغربي المتوسط كلما رغبوا في إجراء إصلاحات نقدية، فعلى هيئته جاء الدينار الأشرفي والالتون Altum العثماني والكروزادا Crusada البرتغالي والدوكاتو القشتيلي Castilian Ducato لمزيد من التفاصيل انظر: =

للمرة الأولى. وعندما حاولت فرنسا في القرن الرابع عشر عبثاً ترويج نقودها الذهبية واجهت كثيراً من المصاعب مما حمل المؤرخ الفلورنسي جيوفاني على الانتقاص من النقود الفرنسية غير المستقرة والتحدث بكل اعتزاز عن عملة بلاده قائلاً: «إن الفيورينو خاصتنا هو نقد ثابت وشرعي وهو من الذهب الخالص»(٩٢).

غير أن الفيورينو واجه بعض المصاعب في بداية القرن الخامس عشر إذ عمدت فلورنسا إلى ضرب أنواع من الفيورينو خفيفة الوزن كما أقدمت بعض البلاد على ضرب نقود ذهبية مماثلة للفيورينو ولكنها أقل وزناً وجودة. وكانت هذه الخطوات من أهم العوامل التي مكنت الدوكاتو من إزاحة الفيورينو عن الساحة الدولية وجعلته يلعب دوراً في نهاية القرون الوسطى مماثلاً للدور الذي يلعبه الدولار في أيامنا هذه.

والواقع أن الدوكاتو إبان فترة رواجه قد حافظ بصورة تامة على وزنه وعياره حتى نهاية جمهورية البندقية في نهاية القرن الثامن عشر(٩٣).

إن القيمة الذاتية المرتفعة لوحدة النقد البندقي واستقرار وزنها وعيارها لم تكن في الحقيقة كافية لتأمين رواج هذا النقد على الصعيد العالمي. فانتصار

Ives. H.E, The Venetian gold Ducat and its imitations, edited and annotated by P. Grierson , New York, 1954.

(٩٢) «Il Mostro fiorino ch'e ferma e legale moneta di fino oro» .

أنظر: Villani, G, Cronica (Florence, 1823), Lib. XI, ch. 27,

في طبعة ميلانو (Milan) سنة ١٨٠٣ (Classic Italiani) المقطع موجود في الفصل ٧١، أنظر أيضاً:

- Cipolla. C,Op.Cit., P.23.

(٩٣) Cipolla. C, Op.Cit., P.24.

الدوكاتو يبقى دون تفسير شاف إذا لم يُعز إلى ازدهار الاقتصاد البندقي وتمدده وإلى الدور الذي لعبته الجمهورية على صعيد التجارة الدولية في القرن الخامس عشر. وانه لمن الضروري أن نميز ما بين ثبات العيار وثبات الوزن. ولما كان من عادة أهل القرون الوسطى وزن النقود بدلاً من عدها فقد كان ثبات العيار هو المعول عليه باعتبار أن المحافظة على العيار الثابت كانت من الأهمية بمكان لأنها كانت تحدد مصير أي نقد خاصة وأن هذه الأهمية كانت مقرونة مباشرة بالصعوبة العائدة لعدم التأكد من عيار النقد ساعة الدفع. كما كانت القيمة الذاتية المرتفعة للدوكاتو مستمدة من عوامل منطقية وعاطفية[٩٤]. وإنه لمن السهل التنبه إلى أن القيمة الذاتية الوضيعة ما كانت لتعطي أي نقد المكانة المرموقة ولا تفسح له المجال لتخطي حدود أسواقه المحلية. ولذلك فقد كانت القيمة الذاتية المرتفعة للدوكاتو مهمة ليس على صعيد المكانة المرموقة التي تمنحه إياها بل أيضاً على صعيد الانعكاسات الاجتماعية التي أفرزتها.

ولما كانت عامة الشعب لا تملك إلا قوة شرائية وضيعة فقد جعلت القيمة الذاتية المرتفعة من النقود الذهبية «نقوداً ارستقراطية»[٩٥]. Aristocratic Coins. بمعنى أنها كانت قيد التداول فقط بين الطبقات الاجتماعية العليا وفي قطاعات خاصة فقط من الحياة الاقتصادية[٩٦].

---

(٩٤) لما كان شكل الدوكاتو مستقراً لا يتغير فقد ازدادت شعبيته خاصة بين الجماعات غير المتعلمة وفي أحيان كثيرة كان للعوامل الدينية أكبر الأثر في حيازة الدوكاتو إذ يبدو أن الطوائف المسيحية في الشرق كانت ترغب في الاحتفاظ بالنقد الذهبي البندقي بسبب اعتقادهم بأن رسم سان ماركو ودوج البندقية هو لقسطنطين الكبير وأمه هيلين. أنظر:

Hasluck.F.W, «Constantinate,» in Essays and Studies presented to Ridgeway. W (Cambridge, England, 1913,), PP.635-637; Cipolla. C., Op. Cit., p. 25.

(٩٥) Cipolla. C, Ibid, P.26.

(٩٦) ألمح بلوش Bloch إلى هذه الناحية في «مسألة الذهب» Le Problème de l'or ثم =

والواقع أنه في مجتمع متراصف Stratified تتداول الطبقات المختلفة أنواعاً مختلفة من النقود مما يظهر عدداً من المشاكل وانعكاساتها وقد أشار إلى البعض منها المقريزي في كتاب إغاثة الأمة في كشف الغمة[٩٧]. ولعل من أهم ما أورده المقريزي ذكره لأقسام الناس وأصنافهم فقال إن الناس بإقليم مصرهم سبعة أقسام:

١ ـ أهل الدولة.

٢ ـ أهل اليسار من التجار وأولي النعمة من ذوي الرفاهية.

٣ ـ الباعة وهم متوسطو الحال من التجار ويقال لهم أصحاب البز ويلحق بهم أصحاب المعاش وهو السوقة.

٤ ـ أهل الفلح، أهل الزراعات والحرث، سكان القرى والريف.

٥ ـ الفقراء وهم جل الفقهاء وطلاب العلم والكثير من أجناد الحلقة ونحوهم.

٦ ـ أرباب الصنائع والأجراء أصحاب المهن.

٧ ـ ذوو الحاجة والمسكنة وهم السوءال الذين يتكففون الناس ويعيشون منهم[٩٨].

والواقع أن الدنانير والنقود الذهبية عامة كانت محصورة بشكل رئيسي تقريباً في أيدي طبقة أهل الدولة وأهل اليسار من التجار وأولي النعم أي في الطبقة الأولى والثانية من المجتمع.

= توسع في ذلك سابوري Sapori في إحدى دراساته المشهورة، انظر:

Sapori. A, Studi di storia economica medievale (Florence, 1946), P.671, n.1.

(٩٧) المقريزي، إغاثة الأمة في كشف الغمة، ص ٧١.

(٩٨) المقريزي، المصدر نفسه، ص ٧٥.

ـ دور النقود الإيطالية في مجتمع المماليك:

على كل حال ما يهمنا هو الدور الـذي كانت تلعبـه النقود الإيـطالية في الأسواق المملوكية فالنقود الذهبية كانت في أساس أي اتفاق أو تبادل تجـاري ما بين المدن والجمهـوريات الايـطالية والسلطات المملوكيـة. فقد ذكـر ديبنغ Depping نقـلاً عن اوزانو Uzzano ان الشـواني البندقيـة الذاهبـة إلى الشرق كـانت تحمل معهـا مبالـغ نقديـة ضخمة وأن النقـود كانت تقـل في البنـدقيـة ما بين شهر أيار وحتى شهر أيلول بسبب أبحار الشواني التي كان إرسالهـا إلى الشرق يتطلب أموالاً طائلة(٩٩).

ونتيجةً لذلك عمدت البندقية في سنة ١٤٠٧ إلى ضرب نقود فضية خفيفة صنعت خصيصاً للتجارة الشرقية وكانت هذه النقود تسمى مارسيل Marcelles وموسنيغي Mocenighi وكانت تحمل إلى الموانىء والثغور المصرية والسورية خاصة وتباع هناك ويحقق التجار البنادقة من جراء ذلك أرباحاً كبيرة(١٠٠). غير أن السلطات المحلية والتجار في دمشق رفضوا قبول هذه النقود وأصـروا على التعامل بالذهب. فاضطرت البندقية تحت تـأثير هـذه الظروف إلى جمـع هذه النقود الفضية وسحبها من الأسواق. وكانت الشعوب الأوروبيـة اللاتينيـة تعمد قـديمـاً إلى ضـرب نقـود صغيـرة تسمى تمنس Temins وكـانت من النحـاس المفضض وكانت ترسل إلى الشرق على أنها من الفضة الخالصة لشراء الحبوب من المسلمين. ولم يتنبه المسلمون إلى هذه الحقيقة إلا بعد مرور فترة طويلة فأوقفوا التعامل بها باعتبار أن اللاتين قد نبهوا بعضهـم البعض بعدم التداول بهذه العملة المـزيفة حتى تنـطلي الحيلة على المسلمين فقط. وقـد أضحت هـذه

---

(٩٩) Uzzano. G, Prattica della Mercatura (Lisbon-Lucca 1766), Chap XLV 111; Depping. G, Histoire du Commerce entre le Levant et l'Europe, Tome II, Paris MD CCCXXX, p. 320.

(١٠٠) Depping. G, Ibid, PP.291-292.

الطريقة في ضرب النقود الفضية الخفيفة عادةً متأصلة لدى الشعوب الأوروبية التي كانت تربطها علاقات تجارية بالشرق[١٠١].

وعلى كل حال لم يقتصر استعمال النقود الذهبية الإيطالية كنقود دولية مقبولة في سلطنة المماليك بل كانت تعتبر أيضاً عنصراً مساعداً في استقرار الدينار الإسلامي. وتفسير ذلك أن السلطان برسباي قد جمع النقود الذهبية الواصلة من البندقية وفلورنسا وضربها دنانير جديدة ثابتة الوزن (٣،٤٧ غرام) وقد ظلت قيد التداول حتى سنة ١٥١٧ وقد عُرف واحدها بالأشرفي نسبة إلى السلطان الأشرف برسباي[١٠٢]. وفي حديث ابن إياس عن سلطنة الأشرف برسباي مدحه لحسن معاملته في الذهب والمسماة بالبرسبيهية والتي هي من أجود الذهب كما وضع ابن إياس علامة استفهام حول جودة الدنانير المضروبة في أيامه فقال:

«وله آثار ومعروف، ولا سيما معاملته (في الذهب) الأشرفية التي هي من أجود الذهب وإلى الآن يرغبون الناس فيها ويسمونها بالبرسبيهية وهي أحسن المعاملات، وأين هي من المعاملة زماننا هذا»[١٠٣].

والواقع أن أكثر النقود الإيطالية الذهبية تضرراً من إصلاحات برسباي النقدية كان الفيورينو المسمى الافرنتي وقد عزا ابن تغري بردي ذلك لوجود رسم القديس بطرس والقديس بولس على أحد وجهيه بصورة لا تجهيزها الشريعة الإسلامية فقال:

«ثم في يوم الأربعاء نصف صفر (٨٢٩/كانون الأول ١٤٢٥) جمع

---

(١٠١) Depping. G, Ibid, p. 290.

(١٠٢) Dopp. P. - H , L'Egypte au Commencement du Quinzième Siècle, p.49, n.1.

(١٠٣) ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، جزء ٢، القاهرة ١٩٧٢، ص ١٨٩.

السلطان الأمــراء والقضــاة وكثيــراً من أكـابــر التجــار وقــد تحــدث معهم في إبـطال المعاملة بـالذهب المشخص الـذي يقـال لـه الافـرنتي . وهـو من ضـرب الفرنـج ، وعليه شعـار كفرهم الـذي لا تجيزه الشـريعة المحمـديـة، وأن يُضـرب عـوضـه ذهباً عليـه السكـة الإسـلاميـة ، فصـوب من حضـر رأي السلطان في ذلك، وهذا الافرنتي المذكور قد كثرت المعاملة به في زماننا من حدود سنة ثمانمائة في أكثر مدائن الدنيا مثل: القاهرة ومصر والبلاد الشامية وأكثر بلاد الروم، وبلاد الشرق، والحجاز واليمن، حتى صار هو النقد الرائج والمطلوب في المعاملات وانفض المجلس على ذلك وقد كثر ثناء الناس على السلطان بسبب إبطال ذلك»[١٠٤].

وبالإضافة إلى ذلك كان قرار برسباي بـوقف التعامـل بالفيـورينو بسبب حاجته للذهب لضرب دنانيره الجديدة:

«ولمـا كان الغـد طلب السلطان صنّاع دار الضـرب وشـرع في ضـرب الذهب الأشرفي وتـطلب من كان عنـده من الذهب الافـرنتي. ثم في سادس عشرينه (صفـر ٨٢٩/كانـون الثاني ١٤٢٦) نـودي بالقـاهرة بـإبطال المعـاملة بالذهب الافرنتي وأن يتعامل الناس بـالدنـانير الأشـرفية زنـة الدينـار منها زنـة الافـرنتي، ثم الزم السلطان النـاس بحمـل مـا عنـدهم من الافـرنتيـة إلى دار الضرب»[١٠٥].

وكذلك بسبب حسبان الفيورينو في عداد النقود الذهبية غير الوافية نظراً لاقـدام فلورنسا من جهة وغيرها من البلاد المقلدة للفيورينو من جهة ثانية على ضربه بوزن أقل[١٠٦]. ونتيجةً لأفول نجم الفيورينو أمسى الدوكاتو سيد الموقف

---

(١٠٤) ابن تغري بردي، النجـوم الزاهـرة في ملوك مصر والقـاهرة، جـزء ١٤، القاهـرة. ١٩٧١، ص ٢٨٣.

(١٠٥) ابن تغري بردي، المصدر نفسه، جزء ١٤، ص ٢٨٤.

(١٠٦) Cipolla. C, Op. Cit., p. 23.

في المعاملات التجارية الشرقية لثبات وزنه واستقرار وجودة عياره حتى أن القلقشندي في وصفه لمملكة البنادقة قال: «دنانيرهم أفضل دنانير الفرنجة (و) إن دينارهم يقال له (دوكات) نسبة إلى الدوك الذي هو ملكهم»[١٠٧].

والواقع أن عادة التلاعب في أوزان ومعايير النقود الذهبية وغيرها كانت صفة من سمة سلطنة المماليك وقد شجعت هذه الخطوات المتلاعبين بالنقد على الصعيد الغير رسمي والمعروفين تحت اسم الزغلية على توسيع نشاطاتهم وكان لضرب النقود المغشوشة نتائج عميقة الأثر أدت إلى اضطراب أسعار الصرف. ففي شهر صفر ٨٣٤/تشرين الأول ١٤٣٠ توقف الناس والتجار في القاهرة عن التعامل بالذهب بسبب كثرة الإشاعات بتخفيض الدينار وبالفعل خفض الدينار في نهاية الشهر وحدد سعر الدينار الأشرفي بـ ٢٣٥ درهماً بدلاً من ٢٨٥ : «وفي هذا الشهر توقف الناس والتجار في أخذ الذهب من كثرة الإشاعة بأنه ينادي عليه، فنودي في يوم السبت سلخ صفر المقدم ذكره أن يكون بسعر الدينار الأشرفي مائتين وخمسة وثلاثين.. وهُدّد من زاد على ذلك بأنه يُشبك في يده، فعاد الضرر على الناس في الخسارة لانحطاط سعر الدينار خمسين درهماً، فإنه كان يتعامل به الناس بمائتين وخمسة وثمانين»[١٠٨].

وكإجراء احترازي عمدت السلطات المملوكية إلى منع التعامل بالدراهم القرمانية[١٠٩] واللنكية[١١٠] والقبرصية بسبب غشها بالنحاس وحصرت التعامل بالدراهم الأشرفية والبندقية والمؤيدية[١١١]:

---

(١٠٧) القلقشندي، صبح الأعشى، جزء ٥، ص ٤٠٤ . ٤٠٥.

(١٠٨) ابن تغري بردي، المصدر السابق، جزء ١٤، ص ٣٥٢.

(١٠٩) نسبة إلى بني قرمان الذين أسسوا دولة بآسيا الصغرى في أواسط القرن السابع الهجري وتشمل ارمناك ومسطمونية وما والاهما.

(١١٠) نسبة إلى ملوك التتر المتحدرين من تيمورلنك.

(١١١) نسبة إلى السلطان المؤيد شيخ المحمودي.

«ثم في يوم الثلاثاء رابع شهر ربيع الأول (٨٣٤/تشرين الثاني ١٤٣٠) رسم السلطان بجمع الصيارف والتجار (فجمعوا) وأشهد عليهم أن لا يتعاملوا بالدراهم القرمانية ولا الدراهم اللنكية ولا القبرصية وأن هذه الثلاثة أنواع تباع بسوق الصاغة على حساب وزن كل درهم منها ستة عشر درهماً من الفلوس حتى يدخل بها إلى دار الضرب وتضرب دراهم أشرفية خالصة من الغش ونودي بذلك، وأن تكون المعاملة بالدراهم الأشرفية والدراهم البندقية والمؤيدية، فإن هذه الثلاثة فضة خالصة ليس فيها نحاس بخلاف الدراهم التي منع من معاملتها، فإن عشرتها إذا سبكت تجيء ستة لما فيها من النحاس»[١١٢].

وأحياناً كانت تعمد سلطات المماليك إلى غش النقود كما حدث في سلطنة الملك المنصور أبي السعادات ابن السلطان حقمق حين أقدم الجمالي يوسف، ناظر الخاص، في شهر صفر سنة ٨٥٧/آذار ١٤٥٣ على ضرب دنانير مغشوشة برسم نفقة الجند فأنقص كل دينار عن الأشرفي قيراطين، وسماها المناصرة نسبة إلى الملك المنصور فلم يتم له ذلك لوصول السلطان إينال العلائي فجأة إلى عرش السلطنة فأمر بإعادة سبك الدنانير المناصرة وضربها دنانير صحيحة باسمه وفرقها في ربيع الأول سنة ٨٥٧/آذار ١٤٥٣ كنفقة البيعة على الجند[١١٣].

وفي دمشق ضربت نقود فضية من النوع الرديء مما حمل السلطات المملوكية في سنة ٨٦١/١٤٥٧ وخلال عهد السلطان إينال العلائي على تحديد سعر الدرهم من هذه الفضة المغشوشة بثمانية عشر درهماً نقرة بدلاً من أربعة وعشرين: «ثم في يوم الأحد هذا (ربيع الأول ٨٦١/كانون الثاني ١٤٥٧) نودي من قبل السلطان بأن يكون سعر الدرهم من الفضة الشامية

---

(١١٢) ابن تغري بردي، المصدر السابق، جزء ١٤، ص ٣٥٢.

(١١٣) ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، جزء ٢، القاهرة ١٩٧٢، ص ٣٠٤، ص ٣١٠.

المقدم ذكرها التي داخلها الغش ثمانية عشر درهماً نقرة»(١١٤).

فقامت قيامة العامة خوفاً من الخسارة واستغاثوا بولد السلطان المقام الشهابي أحمد قائلين إنهم يخسرون ثلث أموالهم وسألوه إبطال ذلك كما أبطل من قبل ما نودي به بأن أحداً لا يتعامل بالفضة المضروبة بدمشق، فوعدهم بإبطاله وأرسل إلى والده يسأله في ذلك، فأجابه السلطان، ونودي في الحال مناداة ثانية بإبطال ما نودي به. وقد علق ابن تغري بردي بقوله:

«والمصلحة ما كان فعله السلطان، غير أنك تعلم أن السواد الأعظم من العامة ليست لهم ذوق ولا خبرة بعواقب الأمور. . . وهذه فعلة العامة الثانية من طلبهم عدم المناداة بأبطال هذه الفضة المغشوشة خوفاً من الخسارة، فاحتاجوا بعد ذلك إلى المناداة وخسروا أكثر مما كانوا يخسرونه عندما غلت الأسعار بسبب هذه الفضة ووصل صرف الدينار إلى أربعماية درهم »(١١٥).

والحقيقة أن السلطات المملوكية كانت متنبهة لمؤشرات الغلاء لذلك عمدت إلى تحديد سعر صرف الدينار بـ ٢٨٥درهماً، غير أن موجة الغلاء كانت عارمة فارتفع سعر الدينار وصرف بـ ٣٧٠ درهماً: «وفيه (محرم ٨٥٩/كانون الثاني ١٤٥٤) ارتفع سعر الذهب حتى بلغ الدينار الأشرفي ثلاثمائة وسبعين درهماً»(١١٦).

مما اضطر السلطات المصرية مجدداً إلى تسعير الذهب والفضة، «فسعر الدينار الذهب بثلاثمائة، والفضة الجديدة كل أشرفي بخمسة وعشرين نصفاً عددياً جيدة من خالص الفضة»(١١٧).

---

(١١٤) ابن تغري بردي، المصدر السابق، جزء ١٦، القاهرة، ١٩٧٢، ص ١٠٤.

(١١٥) ابن تغردي بردي، المصدر نفسه، جزء ١٦، ص ١٠٣ - ١٠٤.

(١١٦) ابن إياس، بدائع الزهور، جزء ٢، ص ٣١٠.

(١١٧) ابن إياس، المصدر نفسه، جزء ٢، ص ٣٤٤.

كما قامت هـذه السلطات بالتشـديد على الغشـاشين من الزغليـة فصار السلطان إينال العلائي يقطع يد كل من قبض عليه من الزغلية أو يقتله: «فوقع الرعب في قلوب الزغليـة، وكان ذلـك سبباً في إصـلاح أحوال المعـاملة وقد انصلح بعد جهد كبير»(١١٨).

وهدأت أمور النقـد في سلطنة الممـاليك حتى مجيء السلطان قـايتباي الذي حدد في صفر سنة ٨٧٤/آب ١٤٨٦ سعر الرطل من الفلوس بـ ٢٤ درهماً من الفضـة النقـرة بـدلاً من ٣٦ «فحصـل للنـاس بسبب ذلـك الـضـرر الشامل»(١١٩).

كما أقدم قايتباي في ذي الحجة ٨٧٩/نيسان ١٤٧٥ على ضرب فلوس جديدة نودي عليها كل رطل بـ ٣٦ درهم من الفضـة كما نـودي على الفلوس العتيقة كل رطل بـ ٢٤: «فخسر النـاس في هذه الحـركة الثلث من أموالهـا، وكانت الفلوس الجدد تخرج معاددة كل أربعة افلاس بدرهم»(١٢٠).

ونتيجةً لذلك اختلفت الأسعار وصارت البضائع تباع بسعرين سعر الفضة وسعر الفلوس وتفشى الغش بالفضة وحتى الذهب فصارت المعاملة بالميزان: «وفي رمضـان (٨٨١/كانـون الأول ١٤٧٦) نودي على الفلوس بستـة وثلاثين الرطل بالميزان، وأبطل عددها ونودي على الفضة المضروبة بأن لا يتعامل بها إلا بالميزان، وكـذلك الـذهب وكانت الفضـة قد خفت جـداً فصارت تخـرج بالميزان، وكذلك الذهب وَبَطُل أمر المعاددة»(١٢١).

وفي هذه الأثناء نشط الغشاشون الزغلية بضرب الدراهم الـزيوف إلا أن السلطان قايتباي قبض على ثمانية منهم في جمـادي الأولى سنة ٩٠١/كـانون

(١١٨) ابن إياس، المصدر نفسه، جزء ٢، ص ٣٤٥.
(١١٩) ابن إياس، بدائع الزهور، جزء ٣، القاهرة ١٩٦٣، ص ٢٠.
(١٢٠) ابن إياس، المصدر نفسه، جزء ٣، ص ١٠٥.
(١٢١) ابن إياس، المصدر نفسه، جزء ٣، ص ١٢١.

الثاني ١٤٩٦ وكان فيهم شيخ قد ناف على الثمانين فقطعت أيديهم وشُهِّروا في شوارع القاهرة(١٢٢).

وفي سلطنة الملك الناصر أبو السعادات محمد بطل أمر وزن الفلوس بالميزان وتعامل بها الناس معاددة غير أن كثرة الفلوس الجدد المتداولة أدت إلى اضطراب الأسعار فصارت البضائع تباع بسعرين، سعر الفضة وسعر الفلوس. وصار نصف درهم الفضة يصرف بأربعة عشر من الفلوس الجدد وصار الدينار يُصرف بثلاثين نصفاً من الفضة: «وفي هذه السنة (٩٠٣/١٤٩٧): . كثرت الفلوس الجدد بأيدي الناس، حتى صار النصف الفضة يصرف بأربعة عشر من الفلوس الجدد، وصار الدينار يصرف من الفلوس الجدد بثلاثين نصفاً»(١٢٣).

ولم يشذ السلطان قانصو الغوري عن قاعدة ما سلفه من السلاطين فضرب فلوساً جديدة في شهر رجب سنة ٩٠٧/كانون الثاني ١٥٠٢ ونقش عليها هيئة شباك فتعطلت الأسواق من البيع والشراء وصارت البضائع تباع بسعرين سعر بالفلوس الجدد وسعر بالفلوس العتق: «وفيه تعطلت الأسواق من البيع والشراء بسبب فلوس ضربها السلطان تخسر في المعاملة الثلث»(١٢٤). ونتيجةً لذلك ارتفعت الأسعار وقلت البضائع ونشط الزغلية فقبض السلطان في رمضان سنة ٩١١/كانون الثاني ١٥٠٦ على جماعة منهم يضربون الدراهم والدنانير الزغل وكان رئيسهم الشيخ سنطباي الصوفي فأبعد منفياً إلى القدس أما جماعته فقد أمر السلطان بقطع أيديهم «وفي رمضان تغير خاطر السلطان على شخص من الأتراك يقال له الشيخ سنطباي، وكان يدّعي الصوفية، وكان مقيماً بالمدرسة السنقرية التي تجاه خانقة سعيد السعداء، فوشى به عند السلطان انه يضرب الدراهم والدنانير الزغل فأرسل قبض عليه فوجد عنده عدة ضرب الزغل

(١٢٢) ابن إياس، المصدر نفسه، جزء ٣، ص ٣١٨.

(١٢٣) ابن إياس، المصدر نفسه، جزء ٣، ص ٣٩٥.

(١٢٤) ابن إياس، المصدر نفسه، جزء ٤ القاهرة ١٩٦٠ ص ٢٠، ص ٢٤.

وكان عنده جماعة يفعلون ذلك فأمر السلطان بقطع أيديهم، وأما الشيخ سنطباي شفع فيه الاتابكي قرقماش من قطع اليد فرسم له السلطان بأن يتوجه بطالاً إلى القدس ويقيم به بطالاً[١٢٥]. ووصلت الجرأة بعمال السلطان إلى حد غش الفضة التي تصرف رواتب للعسكر فتضرر العسكر من كثرة النحاس في الفضة الذي يجدونه في الجامكية (الراتب) فشكوا القائم على ذلك وهو عبد العظيم الصيرفي إلى السلطان فقبض عليه وغرمه[١٢٦]. حتى خزانة السلطان والمسماة قاعة الذهب لم تسلم من عبث السراقين الذين أقدموا على نقبها وذبح البواب وأخذ سبائك من ذهب وفضة بقيمة عشرة آلاف دينار[١٢٧].

والأدهى من ذلك أن عمليات غش النقود من ذهب وفضة كانت تجري تحت سمع الدولة وبصرها وحقيقة ذلك أن السلطان الغوري سمح بتلزيم دار الضرب إلى جمال الدين الزغلي مقابل مبلغ من المال، فعمد الزغلي إلى ضرب نقود زيوف من ذهب وفضة فتوقف الناس عن التعامل بها وفقدت الدنانير التي ضربها السلاطين السابقون ونتيجة لذلك اضطر الناس للتعامل بالدنانير والدراهم التي ضربها الغوري مع ما بها من الغش وبعد أن شكا بعض الأمراء واقع الحال إلى السلطان عمد إلى إلقاء القبض على جمال الدين الزغلي وحبسه في سجن المقشرة ولكنه تمكن من الهرب بعد عدة أيام وألقيت الملامة على الوالي أبو سنة: «وفي يوم الاثنين سادس عشرة (صفر ٩١٥/حزيران ١٥٠٩) تسحب جمال الدين الزغلي من المقشرة وهرب، وكان التزم بدار الضرب وقُرر عليه للسلطان في كل شهر مال له صورة، فأتلف سائر المعاملة من الذهب والفضة وظهر بها الزغل كالشمس حتى ضج من ذلك سائر الناس والأمراء. وصارت معاملة السلطان لا تمشي في غالب البلاد، وامتنع الذهب

---

(١٢٥) ابن إياس، المصدر نفسه، جزء ٤، ص ٨٨.

(١٢٦) ابن إياس، المصدر نفسه، جزء ٤، ص ١٢٣.

(١٢٧) ابن إياس، المصدر نفسه، جزء ٤، ص ١٢٤.

البرسبية والجقمقي والإينالي والخشقدمي والقـايتبية، وصـار الذهب الغـوري والفضة هي التي عليها العمل مع ما بها من الغش الفاحش، فلما تزايد الأمر في ذلك شكا بعض الأمـراء هذه الحـال إلى السلطان، فقبض على جمال الـدين الزغلي وضربه ضرباً مبرحاً وسجنه بالمقشرة فأقام بها أياماً وهرب، فلما هرب مقت السلطان قانصوه الغوري أبو سنة الوالي بسبب ذلك وقصد الإخراق به ثم قرر عليه خمسة عشر ألف دينار»[١٢٨].

إن عملية فرار جمال الدين الـزغلي من سجن المقشرة تلقي ظـلالاً من الشـك حول تـواطؤ السلطات المملوكية العليـا وتشير بـأصابـع الاتهام بـاتجاه السلطان نفسه لأن ما من سبيل إلى الهرب من هذا السجن المخصص لأرباب الجرائم والذي يقول عنه المقريزي: «وهو من أشنع السجون وأضيقها يقاسي فيـه المسجـونـون من الغم والكـرب مـا لا يـوصف عـافـانـا الله من جميـع بلائه»[١٢٩].

ولما ضج الناس بهول ما حدث القي القبض مجدداً على جمال الـدين الـزغلي وشنق مع خمسـة أشخاص كـانوا يعملون الـزغل معـه وذلـك لابعـاد الشبهـات عن السلطة المسؤولة[١٣٠] واستمـر ضرب الفلوس الجـديـدة وكـان ينادى عليها تـارة بالـوزن وتارة بـالمعاددة ففي شهـر ذي الحجة ٩١٧/شبـاط ١٥١٣ نادى السلطان على الفلوس الجدد والعتق بأن الرطل منها بثمانية عشر درهم من الفضة النقرة وضرب فلوساً معاددة خفيفة الوزن خسرت فيها العامـة الثلث فاضطربت الأسعار ووصل سعر صرف نصف درهم الفضـة إلى عشرين من الفلوس الجدد وصارت البضائع تباع بسعرين سعر بالفضة وسعر بـالفلوس فحصل للناس غاية الضرر وضجّت العامة واشتكوا إلى السلطان فما كان منه إلا

---

(١٢٨) ابن إياس، المصدر نفسه، جزء ٤، ص ١٥٣.

(١٢٩) المقريزي، كتاب الخطط والآثار، جزء ٢، ص ١٨٨.

(١٣٠) ابن إياس، بدائع الزهور، جزء ٤، ص ١٥٨.

أن نادى في شهر شعبان ٩١٩/تشرين الأول ١٥١٣ «بأن الفلوس تكون بنصفين الرطل، وكانت بثلاثة أنصاف الرطل، فخسرت السوقة في هذه الواقعة نحو الثلث من أموالها، وكانت البضائع تباع بسعرين سعر بالفضة وسعر بالفلوس، ففرح غالب الناس بهذه المناداة»[(١٣١)] .

---

(١٣١) ابن إياس، بدائع الزهور، جزء ٤، ص ٣٣٨.
وعن تقلبات سعر صرف الدينار الذهب (الأشرفي) والدرهم الفضة (النصف) فقد أعطانا ابن إياس معلومات وافية في هذا المجال.
ففي شهر المحرم سنة ٨٥٩/كانون الأول ١٤٥٤ ،
في سلطنة الأشرف أبي النصر سيف الدين اينال العلاي الظاهري برقوق الناصري فرج ارتفع سعر صرف الدينار الذهب حتى وصل إلى ثلاثمائة وسبعين فلساً .
«وفيه ارتفع سعر الذهب حتى بلغ الدينار الأشرفي ثلاثمائة وسبعين درهماً»، بدائع الزهور، جزء ٢، ص ٣١٠؛
وفي ربيع الأول سنة ٨٦٢/كانون الثاني ١٤٥٨ .
سعّر السلطان الذهب والفضة فجاء سعر الدينار بخمسة وعشرين نصفاً«من الفضة وثلاثمائة من الفلوس النحاس فيكون سعر النصف من الفضة باثني عشر فلساً من النحاس:
«وفي ربيع الأول، نُودي في القاهرة بتسعير الذهب والفضة، وضرب السلطان فضة جديدة فسعر الدينار الذهب بثلاثمائة والفضة الجديدة كل أشرفي بخمسة وعشرين نصفاً عددياً جيدة من خالص الفضة وابطل سائر المعاملات من تلك الفضة المغشوشة»، بدائع الزهور، جزء ٢، ص ٣٤٤؛
وفي ذي الحجة سنة ٩٠٢/تموز ١٤٩٦ وربيع أول سنة ٩٠٣/أيلول ١٤٩٧ عهد الملك الأشرف قايتباي عمّ الغلاء ولمدة طويلة الديار المصرية فوصل سعر أردب القمح إلى ألف درهم أي ما يعادل ثلاثة دنانير من الذهب فيكون سعر صرف الدينار: $\frac{١٠٠٠}{٣}$ = ٣٣٣,٣ درهماً «فوقع الغلاء بالديار المصرية (وانتهى سعر القمح) إلى ألف درهم الأردب واستمر على ذلك مدة طويلة» بدائع الزهور، جزء٣، ص ٣٢٠، «وفي تلك الأيام اشتد الغلاء وانتهى سعر القمح إلى ثلاثة أشرفية»، المصدر نفسه، جزء ٣، ص ٣٨٢.
وفي ذي الحجة سنة ٩٠٣/تموز ١٤٩٨،

على كل حال تميز عهد السلطان قانصو الغوري بضعف النظام المالي وعدم استقراره بسبب كثرة ضرب الفلوس والنقود الزيوف والدور الذي لعبته الزغلية على الصعيدين الرسمي والخاص والذي أدى إلى تدني قيمة النقد المملوكي بسبب ما شابه من الغش. بالإضافة إلى ذلك لا يغربن عن بالنا اضطراب التجارة الشرقية في العقود الأخيرة من سلطنة المماليك بسبب وصول البرتغاليين إلى الهند. وقد جاء الخلل الذي اعترى النقد المملوكي خاصة الذهب والفضة لصالح النقد الذهبي البندقي الدوكاتو لثبات وزنه وعياره فحاز هذا النقد على ثقة المتعاملين به وقد حاولت سلطات المماليك المحافظة على سعر صرف مرتفع للدينار غير أن هذه الجهود باءت بالفشل بسبب الضعف

ارتفع سعر صرف الدينار إلى ثلاثين نصفاً من الفضة التي ارتفعت بدورها حتى صرف النصف منها بأربعة عشر فلساً فبلغ سعر صرف الدينار بحدود ٣٠ × ١٤ = ٤٢٠ فلساً.

«وفي هذه السنة كثرت الفلوس الجدد بأيدي الناس حتى صار النصف الفضة يصرف بأربعة عشر من الفلوس الجدد وصار الدينار الذهبي يصرف من الفلوس الجديدة بثلاثين نصفاً» بدائع الزهور، جزء ٣، ص ٣٩٥.

وفي شهر جمادي الآخر سنة ٩١٩/آب ١٥١٣،

زمن السلطان قانصو الغوري ارتفع سعر صرف النصف الفضة إلى عشرين فلساً: «وقد وصل صرف النصف الفضة إلى عشرين من الفلوس الجدد». بدائع الزهور، جزء ٤، ص ٣٢٧، وبذلك يكون سعر صرف الدينار الذهب (٣٠ نصف فضة بحدود ٣٠ × ٢٠ = ٦٠٠ فلساً).

وفي محاولة من السلطان للحد من موجة الغلاء عمد في شهر رمضان سنة ٩١٩/تشرين الثاني ١٥١٣، إلى تثبيت سعر البضائع وإلى تحديد سعر صرف النصف الفضة باثني عشر درهماً من الفلوس النحاس:

«ثم إن السلطان رسم للزيني بركات بن موسى (المحتسب) بأن ينادي في القاهرة بتسعير البضائع . . . وأن النصف الفضة لا يصرف بأكثر من اثني عشر درهماً» بدائع الزهور، جزء ٤، ص ٣٣٨ ـ ٣٣٩. وهكذا أضحى سعر صرف الدينار الذهب بقيمة ٣٠ × ١٢ = ٣٦٠ درهماً من النحاس.

الذي اعترى الدينار ففقد قيمته النقدية المرتفعة في الأسواق وفشل بالتالي في منافسة الدوكاتو(١٣٢).

وليس أدل على قوة الدوكاتو ورواجه مما ذكره ارنولدفون هارف أنه كان من عادة الحجاج إلى الأراضي المقدسة إبدال نقودهم أياً كانت بالدوكات البندقية المسماة ذي زكّا Zecca لأن العملات الأوروبية باستثناء الدوكاتو لم تكن مقبولة في ديار سلطنة المماليك. وأضاف هارف أنه لدى مروره في البندقية ذهب إلى صيرفي له علاقات تجارية مع البلاد الواقعة في شرقي المتوسط فاستبدل نقوده بحوالات مالية تصرف بالدوكات في الاسكندرية ودمياط ودمشق وبيروت وغيرها وقد توخى هارف من هذا التدبير الحصول على نقد يمكن صرفه بسهولة وبسعر مرتفع في أي مكان من جهة والمحافظة على أمواله من الضياع أو السرقة من جهةٍ ثانية. وقد أشار هارف إلى طريقة صرف هذه الحوالات المالية بأن يقدمها إلى الشخص المحولة إليه، دون التكلم معه، بل إظهار الاحترام له عن طريق إحناء الرأس ورفع اليد إلى الفم وتقبيل الأصابع بحركة معلومة. وكان الرجل بعد تفحص الحوالات والتحديق بوجه هارف يدخل إلى منزله ويعود دون إبطاء ويعطيه نقوده مشيراً إليه بأصبعه بوجوب كتابة على أسفل الحوالة مقدار ما تسلمه(١٣٣).

وبالإضافة إلى رواج الدوكاتو في سلطنة المماليك بسبب خلوصه Fineness والتعامل به في الأسواق من جهة وسد النقص في حاجة دار الضرب من الذهب من جهةٍ ثانية إلا أن الدوكاتو كان أيضاً شديد الطلب من قبل السلطات المملوكية العليا والأمراء والأعيان والوجهاء لحياكة أثوابهم وصياغة حليهم وصنع الكماليات المرتبطة برفاهيتهم. ففي ربيع الآخر سنة ٩٠٦/تشرين الأول ١٥٠٠ خلع السلطان الغوري خلعة حافلة على الأمير

---

(١٣٢) فهمي. ن. ز، طرق التجارة الدولية ومحطاتها، القاهرة، ١٩٧٣، ص ٣٥٩.

(١٣٣) Harff. A. V., The Pilgrimage of Arnold Von Harff (1496-1499) P.71.

طومان بأي وهي رداء من الحرير الأزرق مطرز بالذهب البندقي الخالص: «فلما طلع إلى القلعة أفاض عليه السلطان خلعة حافلة، وهو فوقاني حرير أزرق بوجه حرير أخضر بطرز يلبغاوي عريض، قيل كان طوله ثلاثة أذرع في عرض ذراعين ونصف من الذهب الخالص البندقي. وكان ما دخل فيه ثمانمائة مثقال، بحيث لم يعمل قط مثله ولا سمع بمثال ذلك»(١٣٤).

وفي وصفه لخروج المحمل الشريف وقافلة الحجاج المصرية القاصدة مكة المكرمة في شوال ٩٢٠/كانون الثاني ١٥١٤ ذكر ابن أياس أن طلب المقر الناصري ابن السلطان كان حربياً: «وفيه نوبتين هجن باكوار زركش من ذهب بنادقة»(١٣٥).

أما محفة خوند زوجة السلطان فكانت غاية في الحسن: «فكانت مخمل أحمر كفوي وهي مرقومة بالذهب، طرازها وأرضية الثوب عروق لاعبة زركش من الذهب الخالص البنادقة... قيل إن مصروف هذه المحفة فوق العشرين ألف دينار»(١٣٦).

وفي ذي الحجة ٩٢٠/كانون الثاني ١٥١٥ عندما زار السلطان الغوري الاسكندرية نثر بعض تجار البندقية فوق رأسه بعض النقود الذهبية والفضية: «ودخل إلى مدينة الاسكندرية في يوم الاثنين خامس عشرة.... فشق في المدينة في موكب حافل، فنثر بعض تجار الفرنج البنادقة على رأسه بعض ذهب وفضة»(١٣٧). وكان السلطان قايتباي قد زار الاسكندرية في سنة ١٤٧٧/٨٨٢ لتفقد البرج الذي بناه هناك فنثر على رأسه بعض تجار البندقية ألف دوكاتو ذهب: «فلما شق المدينة نثر عليه بعض تجار الفرنج البنادقة ألف بندقي ذهب

(١٣٤) ابن إياس، بدائع الزهور، جزء ٣، ص ٤٤٩.
(١٣٥) ابن إياس، المصدر نفسه، جزء ٤، ص ٤٠٩.
(١٣٦) ابن إياس، المصدر نفسه، جزء ٤، ص ٤٠٩.
(١٣٧) ابن إياس، المصدر نفسه، جزء ٤، ص ٤٢٣.

فتزاحمت الناس عليه يلتقطون الذهب فكاد السلطان أن يسقط من على ظهر الفرس حتى أدركه تمراز الشمسي رأس نوبة النوب فضرب الناس حتى فسحوا للسلطان ومشى»[١٣٨].

إن دراسة ردات فعل التجار البنادقة لدى زيارة كل من السلطان قايتباي والسلطان الغوري للإسكندرية تظهر أن تصرف التجار البنادقة كان متبايناً:

ففي الزيارة الأولى نُثر الكثير من الذهب الخالص (ألف دوكاتو) في حين في الزيارة الثانية لم ينثر سوى بعض الذهب والفضة دون تحديد المبلغ. وهذا له دلالة هامة لأننا إذا تفحصنا وضع الاسكندرية في الأيام الأخيرة من عهد الغوري لوجدنا أن المدينة كانت في غاية الاضطراب بسبب ظلم النائب وجور عمال السلطان وتعسفهم فامتنع تجار الفرنج والمغاربة من الدخول إليها فآل أمرها إلى الخراب: «ولم يكن بثغر الاسكندرية أحد من أعيان التجار لا من المسلمين ولا من الفرنج»[١٣٩]. وما لم يذكره ابن أياس هو ركود التجارة في المنطقة بشكل عام وفي ثغر الاسكندرية بشكل خاص بسبب توقف التجارة الشرقية، فلا عجب أن نرى في الاسكندرية تجاراً بنادقة متواضعين ينثرون الفضة مع الذهب لركود تجارتهم التي لم تعد مزدهرة كما كانت من قبل.

وهناك سبب آخر يعود لقلة الذهب الواصل إلى شمال أفريقيا من غرب السودان أي من البلاد المعروفة ببلاد التكرور. والواقع أنه منذ وصول البرتغاليين إلى سواحل غانا في سنة ١٤٦٠ وعمدوا إلى مقايضة بضائعهم مع السكان المحليين بذهب غربي السودان تحول تدفق الذهب من جنوبي أوروبا وشرقي المتوسط إلى لشبونة على المحيط الأطلسي. والواقع أن ما من شيء كان يردع البرتغاليين في اكتشافاتهم على السواحل الأفريقية فكانوا يحرقون

---

(١٣٨) ابن إياس، المصدر نفسه، جزء ٤، ص ٤٢٦.

(١٣٩) ابن إياس، المصدر نفسه، جزء ٤، ص ٤٢٤.

وينهبون ويفتكون بالسكان الأفارقة وكان همهم الحصول على الذهب والرقيق بأية وسيلة، ولحماية هذه التجارة أنشأوا الحصون وعهـدوا إلى وكالـة تجاريـة مركزها في لشبونة متابعة الاكتشافات في أفريقيا(١٤٠).

وقد أدى هذا التحول إلى نتائج بعيدة الأثر، فالسلطات المملوكيـة التي كانت بحاجة ماسـة إلى الذهب عمـدت إلى التلاعب بعيـار الدنـانير الـذهبية فأصبحت خفيفة الوزن ، كما فرضت على البندقيـة قيوداً تجـارية ، وأجبـرتها على شراء أحمال محددة من توابل الذخيرة السلطانية وبـأسعار بـاهظة بهـدف الحصول على المزيـد من الدوكـات الذهبيـة الوافيـة لحاجـة دار الضرب في القاهرة.

أما المدن والجمهوريات الايطالية وخاصة البندقية فقد سعت إلى تذليل الصعوبات الناجمة عن نقص الذهب إلى اعتماد طريقة المقايضة لتأمين حاجتها من التوابل والسلع الشرقية(١٤١).

ولم تنجح هذه التدابير والاجراءات المتخذة من قبل سلطات المماليك والجمهوريات الإيطالية في إيجـاد حل لأزمـة الذهب، غيـر أنها سـاعدت في المحافظة على النظام النقدي القائم آنذاك حيث لعب فيه الدوكاتو البندقي دور النقد الدولي المتداول بلا منازع(١٤٢).

---

(١٤٠) Depping.G, Histoire du Commerce, Tome II, PP. 261-262.

(١٤١) فهمي. ن. ز، طرق التجارة، ص ٣٦٢.

(١٤٢) Cipolla. C, Money, Prices and Civilization in the Mediterranean World, P.21;
وقد ذكر فريسكوبلدي Frescobaldi أن الدوكاتو والنقود الفضية الكبيرة البندقية كانت العملة الوحيدة، بالإضافة إلى عملة السلطنة، المباح التعامل بها شرعاً، أنظر:
Frescolealdi. L, Viaggio di Lionardo Frescobaldi Fiorentino Rome, 1818, pp. 74 - 107.

أنظر أيضاً: Thenaud. J, Le Voyage d'Outremer, Paris, MD.CCC.L.XXXIV..PX11.



الفصل الرابع

العلاقات الدبلوماسية Diplomatic Relations

ـ البعثات بصورة عامة:

إن العلاقات ما بين المدن والجمهوريات الإيطالية كالبندقية وجنوى وفلورنسا وسلطنة المماليك كانت منذ الحملات الصليبية عميقة ومتشعبة. وما أنوي أن أبحثه في هذا الفصل هو العلاقات الدبلوماسية والسفارات والبعثات وملامحها.

إن دراسة دقيقة وبالعمق لطبيعة هذه العلاقات الدبلوماسية تظهر أن المدن والجمهوريات الإيطالية كانت تسعى جاهدة للإبقاء على الأسواق المصرية والسورية مفتوحة بوجهها عن طريق إرسال التجار والسفارات وتعيين القناصل بهدف المحافظة على الأرباح الوفيرة التي كانت تجنيها من الإتجار معها. غير أن سلطنة المماليك كانت غالباً لا تجد مصلحة مميزة في أي تبادل للتمثيل الدبلوماسي مع المدن والجمهوريات الإيطالية. ومع ذلك فقد أرسلت السلطات المملوكية بعثات قلائل إلى إيطاليا بهدف تسوية أمور خطيرة وملحّة كمسألة الإفراج عن الأسرى المسلمين، والصراع مع البرتغاليين في المحيط الهندي والبحر الأحمر، وحل بعض الإشكالات التجارية بهدف الحصول على مزيد من الأموال.

إحدى البعثات تمّت خلال عهد السلطان قايتباي عندما أرسل في سنة

١٤٨٧ مبعوثه الخاص الخواجا محمد بن محفوظ المغربي إلى فلورنسا وقد حمّله كثيراً من الهدايا إلى حاكمها الذي وقع معه اتفاقية.

البعثة الثانية حصلت في عهد السلطان قانصو الغوري حين أرسل الأمير تغري بردي، كبير التراجمة، سنة ١٥٠٦، إلى البندقية لشراء الخشب وطلب المعونة لبناء أسطول بحري يمكّن السلطان من مقاومة البرتغاليين في البحر الأحمر. وفي طريقه إلى البندقية توقف تغري بردي في رودوس وتمكن من تحرير الأسرى المسلمين. وقد أرسلت بعثات أخرى إلى جنوبي أوروبا للاحتجاج على هجمات القراصنة الإفرنج ضد السواحل والثغور الإسلامية. وهكذا لم يكن للسلطات المملوكية لا بعثات دائمة ولا سفارات في إيطاليا لأنهم (المماليك) شعروا أن لا حاجة لهم لمثل تلك البعثات والسفارات إلّا عند الضرورة.

إن مراجعة أدب المماليك تظهر اهتماماً ضئيلاً بإيطاليا. غير أن القلقشندي قد ذكر المدن الإيطالية في صبح الأعشى لدى وصفه البحر المتوسط وعن البنادقة قال إنهم طائفة مشهورة من طوائف الفرنج وعاصمتهم البندقية تقع عند نهاية الجون المعروف بجون البنادقة. وعن المدينة ذكر أنها مبنية في البحر والزوارق تجوب ما بين المنازل ولا مكان للمشي في المدينة إلّا الساحة الكبرى حيث يوجد السوق. وملكهم هو واحد منهم يقال له الدوك ودنانيرهم هي أفضل دنانير الفرنج والدينار البندقي يسمى الدوكات نسبةً إلى الدوك «The doge» الذي هو ملكهم وإلى البندقية ينسب الجوخ البندقي الذي هو أفضل أنواع الجوخ: «وهم طائفة مشهورة من الفرنج... وقاعدة مملكتهم البندقية... وعمارتها في البحر، وتخترق المراكب أكثرها، تتردد بين الدور ومركب الإنسان على باب داره، وليس لهم مكان يتمشون فيه إلّا الساباط الذي فيه سوق الصرف، صنعوه لراحتهم إذا أرادوا التمشي، وملكهم من أنفسهم يقال له الدوك... ودنانيرهم أفضل دنانير الفرنجة.. (و) إن دينارهم يقال له

(دوكات) نسبةً إلى الدوك الذي هو ملكهم، وإليها ينسب الجوخ البندقي الفائق لكل نوع من الجوخ»[1] والبندقية هي قريبة من جنوى في البـر وبينهما نحـو ثمانية أيام. أما في البحر فبينهما أمد بعيد أكثر من شهرين.

وتحدث القلقشندي عن الجنويين وجنوى فذكر إنهم طائفة من الفـرنج مشهورة وقاعدة مملكتهم (مدينة جنوى) وبها مرسى جيـد مأمـون «وهي حافـة البحر وميناها عليها سور، وانها مدينة كبيرة للغاية. . . ودور أهلها عظيمة، كل دار بمنزلة قلعة، ولذلك اغتنوا عن عمل سور عليها»[2].

وعن مملكة نابولي قال انها مملكة على بحر الروم عند فم جون البنادقة من غربيه ويقال لها انبولية: «وبيولية هذه يعرف الزيت المعروف بالبولية»[3].

أما عن بلاد التسقان فقال: «وهـم جنس من الفرنج ليس لهم ملك بعينه يحكم عليهم بـل لهـم أكابـر يحكمـون بينهم. . . وبتلك البـلاد يكـون نبـات الزعفران»[4].

وعن بلاد البيازنة قال انهم فرقة من الفـرنج وقـاعدة ملكهم مـدينة بيـزة «وليس لهم ملك وإنما مرجعهم إلى البـابا: خليفـة النصارى، وإلى بيـزة هذه تنسب الفرنج البيازنة والحديد البيزاني»[5].

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، جزء ٥، ص ٤٠٤ ـ ٤٠٥.
وصف بيري رئيس في كتابه بحرية، طبعة بـرلين ١٩٢٩، ص ١٧، مدينـة البندقيـة فقال: «تمتد مدينة البندقية على مسافة ١٢ ميل وهي تتألف من أجزاء من الأرض وأجزاء من البحر على شكل إذن والبحـر ضحل في أمـاكن وعميق في أماكن أخـرى وقد ردم الناس البحر الضحل وبنوا عليه مدينتهم التي نظر حكماؤها إليها وكأنها باقية إلى الأبد».
(٢) القلقشندي، نفس المصدر، جزء ٥، ص ٤٠٥.
(٣) القلقشندي، نفس المصدر، جزء ٥، ص ٤١٠.
(٤) القلقشندي، نفس المصدر، جزء ٥، ص ٤١٠.
(٥) القلقشندي، المصدر نفسه، جزء ٥، ص ٤١١.

إن دراسة مراسلات وكتابات المماليك الخارجية تظهر نوعاً من البروتوكولات والقواعد الثابتة التي اعتمدتها السلطات المملوكية في تعاطيها مع السلطات الإيطالية. فقد ذكر القلقشندي في باب المكاتبة إلى ملوك الكفار من الروم والفرنجة من أن ألقاب دوك البندقية هي «حضرة المحتشم، الجليل، المبجّل، الموقر، المفخّم، الباسل، الضرغام، فلان، عزّ الملة المسيحية، جمال الطائفة العيسوية، ذخر الملة الصليبية، صديق الملوك والسلاطين»(٦).

وإن ألقاب حكام جنوى فهي: «الدوج الجليل المكرم، المبجّل، الموقر، الخطير، فلان، . . . والمشايخ الأكابر المحترمين، أصحاب الرأي والمشورة»(٧).

أما البابا فكانت ألقابه: «البابا الجليل، القديس الروحاني، الخاشع، العامل، بابا رومية، عظيم الملة المسيحية، قدوة الطائفة العيسوية، مملّك ملوك النصرانية، حافظ الجسور والخلجان، ملاذ البطاركة والأساقفة والقسوس والرهبان، تالي الإنجيل، معرّف طائفة التحريم والتحليل، صديق الملوك والسلاطين. . .»(٨).

أما ألقاب نواب ملوك الفرنج وقناصلهم فكانت على الوجه التالي: في ألقاب النائب بالأبواب الشريفة: «النائب الجليل، المبجّل، الموقر. .»(٩).

في ألقاب القنصل بالديار المصرية والسورية: «المحتشم، الكبير، المخول. . . الهمام، ناصح الملوك والسلاطين. . .»(١٠).

---

(٦) القلقشندي، المصدر نفسه، جزء ٨ ، ص ١٧٨ .
(٧) القلقشندي، المصدر نفسه، جزء ٨، ص ٤٦ .
(٨) القلقشندي، المصدر نفسه، جزء ٨، ص ٤٣ .
(٩) القلقشندي، صبح الأعشى، جزء ٦، ص ١٦٠ .
(١٠) القلقشندي، المصدر نفسه، جزء ٦، ص ١٨٠ .

أمـا في القاب التجـار من الروم والفـرنج فـإن لقب المحتشم كـان من الألقاب التي اصطلح عليها لهؤلاء التجار «والمراد بالمحتشم هنا الرئيس الذي له حشم وهم خوله وخدمه»[11].

وقد علّق القلقشندي على كثرة الألقاب وخلوها من معانيها بقوله: «على أن أكثر ما يستعمله الكتاب من الألقاب غيـر موجـودة في صاحبهـا، وإنما هي ألقاب حفظوها لرتب معينة لا يسعهم الإخلال بشيء منها وإن كانت كذباً محضاً (إنا لله وإنا إليه راجعون)»[12].

أما الكتب الواردة من جهة ملوك الفرنج، إيطاليا خاصـة، فكانت تكتب بالإيطالية (باللسان الفرنجي) وتختم بالشمع الأحمر ولدى ورودها على الأبواب الشريفة يفك ختمها وتترجم من قبل كبير التراجمة وكانت ألقاب السلطان تدرج فيها مترجمة على الوجه التالي: «السلطان المعظّم، ملك الملوك، فلان، ناصر الملة الإسلامية خلّد الله سلطانه»[13].

---

(١١) القلقشندي، المصدر نفسه، جزء ٦، ص ٨٢.
(١٢) القلقشندي، صبح الأعشى، جزء ٦، ص ٨٢.
(١٣) مقدمة كتاب وارد من دوج البنادقة ميكائيل، على يد قاصده نقولا البندقي في سادس عشر صفر المبارك سنة أربع وعشرين وثمانمائة (العاشر من حزيران ١٤١١)، ترجمـة شمس الدين سنقر وسيف الدين سودون، التراجمة بالأبواب الشريفة والكتاب موجه إلى السلطان فرج: أنظر القلقشندي صبح الأعشى، جزء ٦، ص ١٢٣.
وقد تبيّن للقلقشندي (جزء ٦، ص ١٨٠) أن الألقاب والنعوت الإسلامية وألقاب أهل الكفـر ونعوتهم «أنهـا ليست واقفـة عن حـد، بـل هي راجعـة إلى اصـطلاع الكتـاب واختيارهم في زيادة الألقاب ونقصها والإتيان بلقب دون لقب مع رعاية المناسبة لكـل مقام وما يحتمله من الألقـاب، إلاّ أن لذلك أصولاً يرجع إليها وقوانين يوقف عندها، إذا اعتمـدها الكـاتب ومشى على نهجها ونسـج على منـوالهـا أصـاب سـواء الثغـرة من الصناعة، وطبّق المفصل بالمفصل في الإتيان بالمقصد ومن أهملها وفرّط في مراعاتها ضل سواء السبيل وخرج عن جادة الصواب: (ومن يضلل الله فما له من هاد)».

وكان حكام المدن الإيطالية وسفراؤها وقناصلها وتجارها يتمتعون باحترام وتقدير من جانب السلطات المملوكية نظراً لوجود روابط الصداقة ما بين الجمهوريات والمدن الإيطالية خاصة البندقية والمماليك. وكانت هذه الصداقات ترتكز على الاحترام المتبادل والمصالح المشتركة. وكان السفراء الإيطاليون يستقبلون في القاهرة استقبالاً حسناً في حين كان القناصل يقيمون في ثغور السلطنة ويتنقلون بحرية. أما التجار فكانوا يعاملون معاملة حسنة وقد أعطوا كثيراً من الامتيازات.

غير أن وضع التجار والقناصل الأوروبيين المقيمين أو الزائرين للثغور السورية أو المصرية قد اضطرب وتغير بعد حملة رودوس. والواقع أنه بعد إخفاق المماليك في السيطرة على جزيرة رودوس سنة ١٤٤٤ حدث تحول خطير وكان له انعكاسات عظيمة أثرت على طبيعة العلاقات المملوكية - الإيطالية.

فمن جهة أخذ الفرنج زمام المبادرة وشنوا عدّة هجمات على السواحل والمرافىء الإسلامية في شرقي البحر المتوسط، ومن جهةٍ ثانية لم يكن لسلطان مصر أية خيارات مناسبة للرد على أعمال القرصنة هذه سوى اللجوء إلى العقوبات الجماعية ضد قناصل الفرنج وتجارهم والرهبان المقيمين في الاسكندرية وبيروت والقدس، كوسيلة ضغط ضد تلك الهجمات.

وكان السلطان مقتنعاً بأن هؤلاء القناصل والتجار والرهبان كانوا بمثابة عيون للدول الأوروبية ويرفعون إليها التقارير عن أحوال السلطنة وأوضاعها.

والواقع أن رهبان دير صهيون في القدس كانوا قد أوقفوا وأودعوا السجن بسبب ما قيل للسلطان عن أنهم نقلوا إلى فرسان الهيكل The Templar Knights أنباء الاستعدادات العسكرية المتعلقة بحملة رودوس. كذلك أمر السلطان بالترسيم على قناصل البندقية وتجارها وحبسهم بسبب اقدام أحد البنادقة على تسليم عشرة من التجار المسلمين كانوا على متن مركبه إلى فرسان

الهيكل كأسرى أثناء حملة رودوس. وقد هددت البندقية بقطع علاقاتها مع السلطان حقمق إذا لم يفرج عن القناصل والتجار البنادقة ويلغي كافة القيود التي فرضها على التجارة. وقد سويت هذه المسألة من خلال المفاوضات بفضل جهود التاجر الفرنسي المشهور جاك كور Jacques Cœur وتمّ التوصل إلى اتفاق وعد بموجبه السلطان أن يسمح للبنادقة بحرية التجارة وعدم إجبارهم على شراء فلفل الذخيرة السلطانية(١٤).

ومن جهتها سعت البندقية إلى إظهار حسن نيتها تجاه السلطان فأمرت ربابنة مراكبها بعدم اعتراض مراكب السلطان وبعدم الإبحار إلى رودوس وكل من يخالف هذه الأوامر الصارمة سوف يشنق(١٥). ومع ذلك لم تتوقف هجمات الفرنج على السواحل والثغور الإسلامية وأخذ المزيد من الأسرى المسلمين.

وفي رمضان ٨٨٠/كانون الأول ١٤٧٥ احتال بعض التجار الفرنج على بعض تجار المسلمين في الاسكندرية وأخذوهم إلى رودوس. وكان من بين الأسرى تجار السلطان ابن عليبة، وابن يعقوب، وعلي الكيزاني وعلي النمراوي، فلما علم السلطان بذلك تأثر لهذا الخبر فكتب مراسيم شريفة بالقبض على جميع تجار الفرنج بالاسكندرية فقبض عليهم وأودعوا في الحديد وألزموا بأن يكاتبوا ملوك الفرنج بما جرى عليهم من السلطان بسبب أسر التجار المسلمين. وآخر الأمر أطلق سراح التجار الأسرى عن طريق دفع فدية باهظة

---

(١٤) Heyd. W., Histoire du Commerce. Vol. II, P.481 ;

ـ دراج. أ، المماليك والفرنج. القاهرة ١٩٦١. ص ٥٦.

(١٥) دراج. أ، المصدر نفسه، ص ٥٧ ؛

Jorga. N., Notes et extraits pour service à l'histoire des croisades au XV siècle, Paris, 1899-1902, vol. III, PP.68-70, 72-74, 85, 89, 94, 99, 103, 104, 105-118.

(قرارات مجلس الشيوخ البندقي في الفترة الواقعة ما بين ١٣ كانون الأول ١٤٤٠ و ٨ تشرين الأول ١٤٤٢، وخطاب حقمق إلى دوج البندقية المؤرخ في ٢٥ تشرين الأول ١٤٤٢ ثم رد دوج البندقية المؤرخ في ١٧ شباط ١٤٤٣).

إلى فرسان القديس يوحنا في رودوس: «وآخر الأمر اشتروا التجار الذين أسروا أنفسهم من ملوك الفرنج بمال له صورة، حتى أطلقوهم وأتوا بهم إلى الاسكندرية»(١٦).

وإزاء تعقيدات هذا الوضع تشجعت السلطات المملوكية لإجراء واتخاذ بعض الترتيبات الدبلوماسية لدى دول جنوبي أوروبا من أجل الوصول إلى بعض التقارب بهدف حل بعض الأمور الملحة كتنظيم التجارة وإطلاق سراح الأسرى والرهائن وشراء الأسلحة وإبرام بعض المعاهدات.

وعلى عكس المدن والجمهوريات الإيطالية لم يكن لسلطنة المماليك لا قناصل ولا سفارات دائمة في جنوبي أوروبا. وقد تجسّد تقارب المماليك الدبلوماسي عن طريق إرسال السفارات والمبعوثين الخاصين للتفاوض أو تسوية بعض النقاط المحددة.

ودراستنا في هذا المجال هي مقتصرة فقط على السفارات والبعثات المملوكية المرسلة إلى المدن والجمهوريات الإيطالية.

ب ـ البعثات ما بين المماليك وفلورنسا:

ـ سفارة ابن محفوظ إلى فلورنسا ١٤٨٧:

إحدى هذه البعثات إلى فلورنسا كانت سفارة الخواجا محمد بن محفوظ المغربي مبعوث السلطان قايتباي الخاص إلى لورنزو العظيم Lorenzo the - Magnificient - وقد ورد غالباً ذكر هذا المبعوث في المصادر الفلورنسية تحت اسم ملفوطا Malfota وكان شخصية معروفة ومحبوبة في فلورنسا وقد استرعت الانتباه بسبب الهدايا التي حملها معه سنة ١٤٨٧. إن قائمة الهدايا هي موجودة في رسالة إلى كلاريس أورسيني Clarice Orsini زوجة لورنزو كان سكرتيرها بياترو قد بعث بها إلى روما سنة ١٤٨٧ (تشرين الثاني) وذكر فيها حصاناً جميلاً

---

(١٦) ابن إياس، بدائع الزهور، جزء ٣، ص ١١٤.

وعنزات طويلة الأذنين وخراف سمينة، وبلسماً ومسكاً وميعة benzoin وخشب النّد والدار صينيّ وأمتعة ملونة بما فيها القطن والموصلين Muslins والحلوى والاهليلج Myrobalans والزنجبيل. وفيما عدا الحيوانات الفريدة فقد كانت الهدايا تقليدية ومماثلة لتلك التي اعتاد سلاطين المماليك على إرسالها مع مبعوثيهم(١٧).

وبالرغم من الإثارة التي أحدثتها الحيوانات الفريدة والغريبة لدى وصولها إلى فلورنسا صحبة ابن محفوظ إلّا أن المؤرخ المشهور ابن اياس لم يذكر شيئاً البتة عن هذه السفارة مما يبعث على التساؤل والحيرة وكل ما ذكره سفارة ابن محفوظ إلى كاتالونيا فقال:

«وفيه (ذو الحجة ٨٨٣/شباط ١٤٧٩) أرسل السلطان الخواجا محمد بن المغربي إلى ملك الكتلان الفرنجي، وأرسل له على يده هدية حافلة فسار إليه»(١٨).

على كل حال فبإمكاننا جمع بعض المعلومات من خلال المصادر الفلورنسية. ففي رسالة موجهة من الحكومة الفلورنسية إلى قنصلها في البيرا (Pera)، ب. سلفوتشيو B.Salvuccio، مؤرخة بتاريخ ٢٠ كانون الأول ١٤٨٧، أي بعد شهر من وصول ابن محفوظ إلى فلورنسا، ذكر أن الموفد المصري قد أرسل ليستأنف المفاوضات بشأن إبرام اتفاقية تجارية، وكانت هذه

---

(١٧) Stern. S.M., and Walzer, Oriental studies. Vol.III. Documents from Islamic Chanceries-first series, Bruno-Cassierer-Oxford, 1965 pp.40-41.

وقد ذكر المؤرخ لوكا لاندوتشي Luca Landucci في مذكراته بتاريخ ١١ حتى ٢٥ تشرين الثاني ١٤٨٧ وجود زرافة وأسد بالإضافة إلى الحيوانات الفريدة التي أشار إليها السكرتير بياترو دا بيبيانا Pietro da Bibbiena

أنظر: Landucci. L., Diario Fiorentino 1450-1516, Florence 1883, pp. 52-3;

Wansbrough. J., «A Mamluk letter of 877 / 1473», in BSOAS, 1961, p.209

(١٨) ابن إياس، بدائع الزهور، جزء ٣، ص ١٥٠.

المفاوضات قد توقفت بسبب موت السفير الفلورنسي بولو داكولي Paolo da Colle.

وقد تأكدت هذه المعلومات باكتشاف رسالة في المحفوظات الفلورنسية موجهة من سلطات فلورنسا إلى سلطان المماليك مؤرخة بتاريخ ٣ حزيران ١٤٨٦ وهي تتضمن كتاب توصية بالتجار والمواطنين الفلورنسيين لدى جانب السلطان[١٩].

ويبدو أنه قبل هذا التاريخ كانت تجارة فلورنسا في مصر تعاني من ركود طويل الأمد، غير أن رسالة الحكومة إلى سلفوتشيو في البيرا تشير بوضوح إلى تحول جديد في موقف السلطان تجاه فلورنسا[٢٠].

وإذا لم يكن لدينا تفاصيل عن موت السفير بولو في القاهرة إلاّ أن بإمكاننا اعتبار فترة السبعة أشهر الممتدة من تاريخ مثوله أمام السلطان في القاهرة وحتى وصول ابن محفوظ إلى فلورنسا كانت كافية لتحضير مسودة الاتفاقية التي حملها ابن محفوظ معه[٢١].

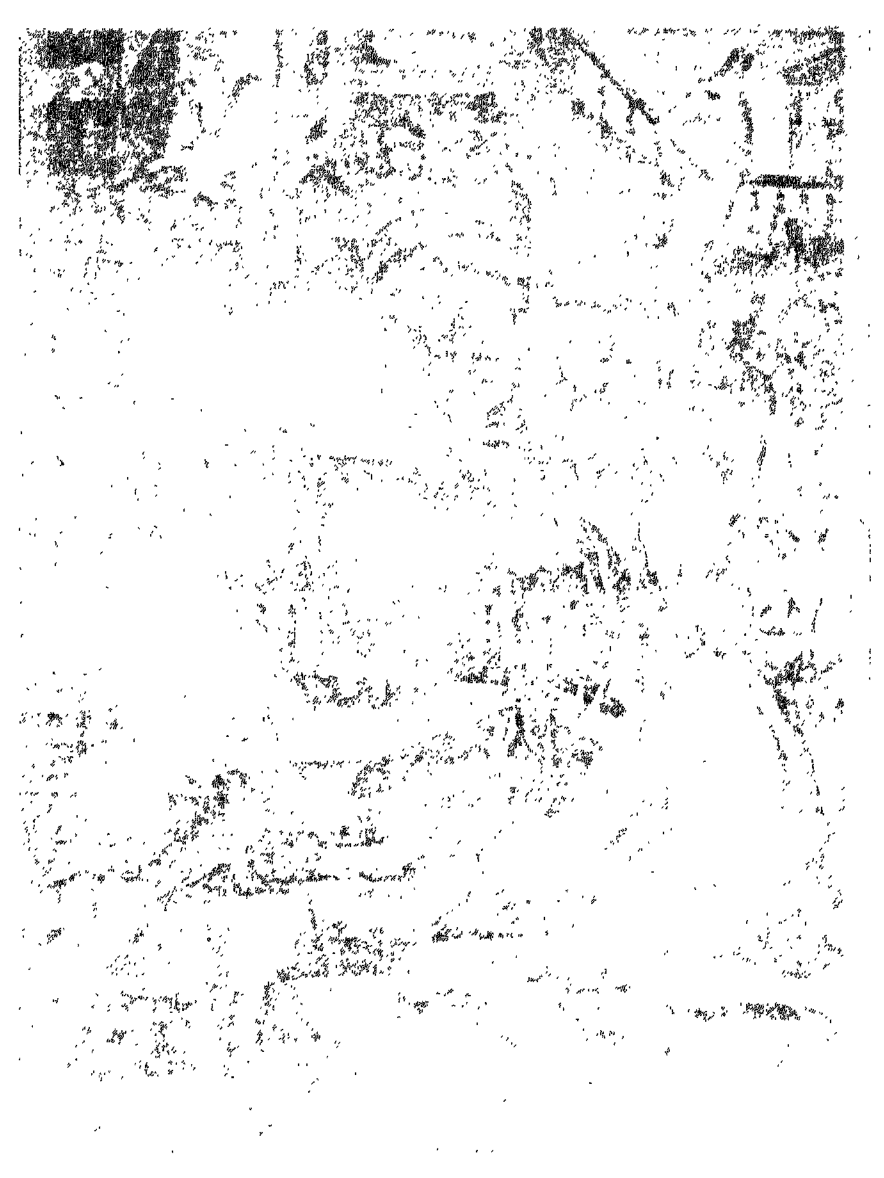
وفي الثامن عشر من تشرين الأول سنة ١٤٨٧، أي بعد أسبوع من وصوله، مثل ابن محفوظ أمام الحكومة الفلورنسية وفي الخامس والعشرين من نفس الشهر سمح له بمقابلة لورانزو العظيم وكان يقوم بترجمة المحادثات رجل يعتقد أنه صقلي.

---

(١٩) Sterm. S. M., and Walzer, Op. Cit., p. 42.

(٢٠) Heyd. W., Histoire du Commerce du Levant au Moyen-âge, Leipzig, 1885-86, vol. II, p. 478-80, 487-90.

(٢١) Stern. S.M., and Walzer , Op. Cit., p. 42 ;
Muller. G, Documenti sulle relazioni delle citta toscane coll' Oriente Cristiano et Coi Turchi fino all'anno 1531, Florence 1879, p.237, (doc. 203) located now in the Archivio di stato di Firenze (ASF), under Diplomatico, Signori, Missive, I a cancelleria, filza 49, fol 177.



سفارة [illegible] إلى فلورنسا (١٤٨٧)

في [illegible] في [illegible] القصر القديم Palazzo Vecchio يبدو لورنزو العظيم
[illegible] الهدايا من وفد السلطان قايتباي وقد [illegible] الهدايا التي حملها [illegible]
[illegible] الحيوانات [illegible]



إن اللجوء إلى الترجمان أثناء المقابلة يوحي وكأن ابن محفوظ لم يجر اختياره من قبل السلطان لهذه السفارة لمواهبه اللغوية أو معرفته بعادات وتقاليد الأوروبيين كما هي الحال عند الأمير المعروف تغري بردي الترجمان، وإنما لشهرته في عالم تجارة الرقيق كما يدل على ذلك لقبه(٢٢).

وخلال بضعة أيام قدّم فريق من التجار الفلورنتيين ممّن قرأوا مسودة الاتفاقية التي جلبها ابن محفوظ أو ممّن كانوا في القاهرة أثناء المباحثات حولها، مطالعة إلى الحكومة يقترحون فيها إجراء بعض الإضافات والتعديلات. واستناداً إلى ذلك أرسل لورانزو كتاب توصية إلى قايتباي يطلب بموجبه الموافقة على إرسال السفير الفلورنسي لويجي دي لاستوفا Luigi della Stufa إلى القاهرة بصحبة ابن محفوظ ليشرح موقف التجار الفلورنتيين وعرض اقتراحاتهم بشأن الإضافات والتعديلات على مسودة الاتفاقية مع فلورنسا التي حملها الموفد المصري.

وبنفس الوقت كتب لورانزو رسالة إلى سفير فلورنسا في روما ج. لانفرديني G.Lanfredini يعلمه بمرور دي لاستوفا وابن محفوظ في طريقهما إلى القاهرة(٢٣).

إن سفارة ابن محفوظ إلى روما وزيارته للحبر الأعظم كانت على علاقة بشراء أسلحة للسلطان وهدفها الحصول على موافقة البابا بشحن الأسلحة والأعتدة إلى مصر(٢٤).

---

(٢٢) Ayalon. D., L'esclavage du Mamelouk, Jerusalem 1951, pp.1 - 2 ;
Wiet. G., Les marchands d'épices sous les sultans mamlouks, Cairo 1955, P.124.

(٢٣) Stern. S. M., and Walzer, Op. Cit., p. 43.

(٢٤) لمعرفة المزيد حول حظر البابوية إرسال الأسلحة والمواد الاستراتيجية إلى المشرق الإسلامي أنظر هايد:
Heyd. W., Histoire du Commerce du Levant, Vol. II, pp.24-25.

وفي رسالة من نابولي، مؤرخة بتاريخ ١٧ كانون الثاني سنة ١٤٨٩، وموجهة إلى لورانزو، أفاد دي لاستوفا عن صعوبات تحميل شحنة من الأسلحة كان ابن محفوظ قد حصل على موافقة البابا بشرائها أثناء زيارته إلى روما وبعد مغادرته فلورنسا.

وبسبب هذه التعقيدات يتوقع دي لاستوفا تأخير رحيله مع ابن محفوظ على الأقل حتى السادس من شباط. وفي رسالة ثانية من مسينا مؤرخة بتاريخ ٢٢ نيسان سنة ١٤٨٩ أشار السفير إلى لورانزو عن صعوبات أخرى حول الأسلحة عائدة إلى الحصار البحري في المضائق. وليس هناك من معلومات دقيقة حول طبيعة ونوعية هذه الأسلحة التي اشتراها ابن محفوظ للسلطان.

غير أننا نلاحظ من خلال رسائل دي لاستوفا أن تفضيل ابن محفوظ وميله للتجارة على حساب الدبلوماسية لأمر مشكوك به[٢٥]. بالإضافة إلى ذلك، لا توجد أية دلائل في الوثائق والمستندات المملوكية حول عودة سفارة ابن محفوظ إلى القاهرة. وكل ما نعرفه أن هذه السفارة قد وصلت إلى القاهرة خلال شهر تشرين الأول سنة ١٤٨٩. وقد تأكد وصولها من خلال رسالتين، الأولى كتبها دي لاستوفا إلى لورانزو من القاهرة ومؤرخة بتاريخ ١٤ تشرين الثاني سنة ١٤٨٩، والثانية مؤرخة بتاريخ ٢٤ تشرين الثاني سنة ١٤٨٩ ومرسلة من قبل السفير البندقي بيارو ديادو Piero Diedo إلى الدوج (Doge) وفيها يفيد السلطات البندقية عن وصول السفير الفلورنسي[٢٦].

دي لاستوفا في القاهرة:

كانت سفارة ابن محفوظ إلى فلورنسا ناجحة، ولا يمكننا التسليم بذلك

---

(٢٥) Stern. S. m., and Walzer , Op. Cit., p. 46 ;
ASF, Archivio Mediceo avanti il principato, filza, no. 178.

(٢٦) Stern. S.M;, and Walzer , Op. Cit., pp. 44 ;
Archivio di Stato di Venezia, Archivio proprio Egitto I, fols. 13-14.

دون الأخذ بعين الاعتبار البعثة الفلورنسية إلى القاهرة التي اضطلع بها السفير دي لاستوفا.

وبالرغم من مشاغل السلطان قايتباي وكبير التراجمة تغري بردي بالمباحثات مع بعثة بندقية تضمّ كل من بيارو ديادو Piero Diedo وماركو ماليبيرو Marco Malipiero وتهدف إلى نقل السلطة في قبرص من عائلة لوزينيان Lusignan إلى جمهورية البندقية .

وبالرغم من الصعوبات الجمّة التي اعترضت دي لاستوفا والعائدة إلى اعتماده على مزاج السلطان وإلى عدم قدرته على التحرك من دون تدخل ومساعدة كبير التراجمة خاصة بعد أن تركه ابن محفوظ والذي سبب غيابه كثيراً من الألم لصاحبه دي لاستوفا[٢٧].

وبالرغم من كل ذلك نجح السفير الفلورنسي في الحصول على وعد من السلطان بالموافقة على مشروع الاتفاقية. وبالفعل، في رسالة مؤرخة بتاريخ ٢٤ ذي الحجة ٨٩٤ /١٨ تشرين الثاني ١٤٨٩ كتب السلطان قايتباي إلى لورانزو يخبره بموافقته وقبوله بمشروع الاتفاقية (كتابة الفصول) التي حملها مبعوثه وأنه أعطى أوامره بكتابة الامتيازات التجارية (الشروط) لهم (للفلورنتيين)[٢٨] .

---

(٢٧) («Il nostro magnifico Malfott poi Che m'ebbe Condotto qua non lo may potuto rivedere et la seminato tanto male che non si potrebbe dire piu»).
أنظر: Stern S.M., and Walzer, Op. Cit., p. 45 ;

ASF, Archivio Mediceo avant il principato, filza 41, no. 384.

(٢٨) Amari, N., I Diplomi Arabi, Del Archivio Fierentino. In Firenzia MDCCCC LXIII, p.181-3. (Prima serie-documento XXXIX).
«Il Sultano (d'Egitto) Abu-Nasr Kaitbai, allo hakim de'fiorentini (Lorenzo de 'Medici)».
Risposta alla missione di un ambasciatore di Cui non si dire il nome».

وقد عاد لويجي دي لاستوفا إلى الاسكندرية من القاهرة في الرابع والعشرين من تشرين الثاني وفي نهاية الشهر أبحر من هناك إلى مودون Modon على متن مركب بندقي برفقة مبعوث بابوي إلى مصر كان في طريق عودته إلى روما برفقة بعثة مملوكية إلى جانب الحبر الأعظم(٢٩).

وبعد سبعة أيام من سفره ولدى وصوله إلى جزيرة كورفو بعث دي لاستوفا برسالة أخرى إلى لورانزو في التاسع عشر من كانون الأول يخبره فيها عن مشقة السفر في البحر الشديد الهيجان ويعدد له لائحة الهدايا التي بعث بها السلطان إليه.

واستناداً إلى المصادر البندقية فإن المركب التي كانت تقل دي لاستوفا والمبعوثين والمتجهة إلى روما وصلت إلى البندقية في التاسع عشر من كانون الثاني سنة ١٤٩٠ أي بعد حوالي أربعة عشر شهراً تقريباً من مغادرة دي لاستوفا فلورنسا.

إتفاقية ١٤٨٩/٨٩٤ مع فلورنسا:

إن الإتفاقية الأصلية باللغة العربية التي وضعها السلطان قايتباي ومنحها

---

(٢٩) Stern. S.M., and Walzer, Op. Cit., p. 45 ;
ASF, Archivio Mediceo avanti il pricipato, filza 41, no. 401.

كانت البعثة المملوكية إلى روما تتعلق بموضوع الأمير جم Jem ابن السلطان العثماني محمد الثاني.

أنظر:

Encyclopaedia of Islam, second ed. S.V.Djem

وخاصة ما أشارت إليه من مراجع عائدة إلى:

L.Thuasne, Djem-Sultan, pp.174-6, 199, 254, 262, 337.

من الممكن أن يكون ابن محفوظ ولويجي دي لاستوفا قد حملا تعليمات شفهية خاصة بالأمير جم ويعتقد أنه في كلتي الحالتين لم يكن هذا الأمر هو الهدف الرئيسي من سفارة مبعوث السلطان.

للسفير لويجي دي لاستوفا في السادس من ذي الحجة ٨٩٤/٣١ تشرين الأول ١٤٨٩ ليست موجودة في دائرة المحفوظات الفلورنسية (Florentine State Archives) وإنما في مكتبة مديتشو - لورانزيانا (Biblioteca Mediceo-Laurenziana)[٣٠].

أما كيف وصلت هذه الاتفاقية إلى هناك فالأمر ليس واضحاً. وكما جرت العادة بالنسبة للامتيازات التجارية، فإن الشكل المتبع في ديوان الإنشاء في سلطنة المماليك أن تصدر هذه الامتيازات على شكل مراسيم لا توجه إلى الفلورنتيين بل إلى عمال السلطنة ونوابها الذين يتعاطون مع التجار الأوروبيين. وقد اصطلح على تسمية جميع ما يكتب في الاقطاعات للأمراء والعمال وغيرهم مناشير، جمع منشور[٣١].

ولعل دي لاستوفا قد حصل على نسختين من هذه المناشير المخصصة لعمال السلطنة في الاسكندرية والثغور الشامية؛ بناءً على طلبه واستناداً إلى التعليمات التي أعطيت له، فأبقى منشوراً لدى قنصل فلورنسا في الاسكندرية وحمل الآخر معه إلى فلورنسا حيث يعتقد أن هذا المنشور كان بحد ذاته أقل

---

(٣٠) Stern. S.M., and Walzer , Op. Cit., p. 49 .

هذه النسخة الأصلية باللغة العربية موجودة تحت رقم Or. 455A، وهي تضمّ أيضاً اتفاقية تجارية ما بين سلطنة المماليك وفلورنسا مؤرخة بتاريخ ١٤٩٧/٩٠٢.

وهذه الوثائق من الممكن أن تكون قد نقلت من بالاتينا Palatina إلى لورانزيانا Laurenziana في شهر تموز سنة ١٧٧١ .

انظر : Gabrieli, G., Manoscritti e carte orientali nelli biblioteche e negli archivi d'Italia, Florence 1930, p. 15.

(٣١) ذكر القلقشندي في كتاب صبح الأعشى، جزء ١٣ ، ص ١٥٧ المناشير فقال : «قد اصطلح كتّاب الزمان على تسمية ما يكتب في الاقطاعات : من غاليها ودانيها والجند والعربان والتركمان وغيرهم - مناشير ، جمع منشور . والمنشور في أصل اللغة خلاف المطوي . . . ومن خاصة المناشير أنها لا تكتب إلّا عن السلطان مشمولة بخطه وليس لغيره الآن فيها تصرّف . . .» .

قيمة كمستند ـ دولة من بقية المستندات والوثائق الإيطاليـة التي ارتكز واستنـد إليها.

إن سفـارة دي لاستوفـا كانت خـطوة مهمة جـداً في مجرى العـلاقـات التجارية ما بين مصر وفلورنسا باعتبار أن السلطان قانصو الغوري عنـدما حـدد الامتيـازات التجاريـة للفلورنسيين في العام ١٥٠٦/٩١١[٣٢] اعتمـد اتفـاقيـة ١٤٨٩/٨٩٤ أساساً للتجديد.

إن النص العربي للإتفاقية الأصلية المدرج أدناه يشمل ٣٢ فصلاً كتبت في ٢٣٢ سطراً[٣٣].

---

(٣٢) انـظر : , Amari, I Diplomi Arabi, pp. 214-7 (Prima Serie - Documento XLII)
«Il sultano d'Egitto Kansuh el-Ghuri».
« Editto Communicato al luogotenente ed altri oficiali d'Alessandria, sul commercio de'Fiorentini».

(٣٣) الاتفاقية الأصليـة بالنص العـربي المؤرخة بتـاريخ ٦ ذي الحجـة ٨٩٤/ تشرين أول ١٤٨٩ والموجودة في مكتبة مديتشو ـ لورانزيانا تحت رقم Or. 455A .

(Biblioteca Medico - Laurenziana , Or. 445A).

إتفاقية السفير الفلورنسي دي لاستوفا مع السلطان قايتباي ٨٩٤هـ/١٤٨٩

الاسم الشريف بما رسم به
مرسوم شريف لكل واقف عليه ومستمعه وناظر إليه من جميع النواب
والحكام وولاة أمور الإسلام والنظار والمتصرفين
بممالكنا الشريفة الإسلامية وثغر الاسكندرية المحروس والمين
والسواحل أعزهم الله تعالى بأن يتقدموا باعتماد ما تضمنه هذا
المرسوم الشريف من الفصول المشروحة فيه والعمل بها وعدم
الخروج عن شيء منها على ما شرح فيه
بسم الله الرحمن الرحيم
رسم بالأمر الشريف العالي المولوي
قايتباي
السلطاني الملكي الأشرفي السيفي
أعلاه الله تعالى وشرفه وأنفذه وصرفه أن يسطّر
هذا المرسوم الشريف إلى كل واقف عليه ومستمعه وناظر
إليه من جميع النواب والحكام وولاة أمور الإسلام
والنظار والمباشرين والمتصرفين بممالكنا الشريفة
الإسلامية وثغر الإسكندرية المحروس والمين والسواحل
أعزّهم الله تعالى نوضّح لعلمهم أن المحتشم لويز دلصتوفا قاصد
حضرة الملك المحتشم حاكم الفرنتيين حضر إلى أبوابنا الشريفة

وتمثل بمواقفنا المعظمة وأنهى إلينا على لسان مرسله ما
يتعلق بطائفة الفرنتيين وتجارهم من الشروط الصادرة
من الملوك السالفة وسؤال صدقاتنا الشريفة تجديد مرسوم
شريف بذلك والعمل بما شرح فيها من الفصول فرسمنا بذلك
وسطرت الفصول المشروحة أدناه إجابة لما سأل فيه
ليكون العمل بها وعدم الخروج عنها وهي

I فصل :

أنهى لويز القاصد المذكور ومن معه من التجار الفرنتيين ان مراكبهم منها
مربع وأغربة وطرائد وغير ذلك وسألوا صدقاتنا الشريفة
أنه إذا حضرت إلى مينا من المين الإسلامية أو ساحل من السواحل أو ثغر من الثغور
الإسلامية مركب من المراكب المذكورة وبها
وكلائهم وبضائعهم وأقاموا بما جرت به عادتهم من الحقوق الديوانية
لا يتعرض إليهم أحد بعد ذلك ببلص ولا يجدد عليهم حوادث
لا في البر ولا في البحر لا في الثغر السكندري المحروس ولا في غيره من
الثغور ولا يعارضهم أحد بغير طريق أجيبوا إلى ذلك ورسمنا به.

II فصل :

سأل المذكورون أن أحداً من تجار الفرنتيين أو من جماعتهم
إذا حضر إلى الثغر السكندري المحروس أو غيره من الثغور الإسلامية
ونزل ببضاعته من جوخ أو حرير أو صابون أو زيت أو بندق
أو كحل أو كبريت أو مرجان أو غير ذلك من الأصناف يكون
المحضر بذلك أميناً على نفسه وبضاعته وأن يبيع لمن يختار
بالنقد أو بالقياض ولا يتعرض إليه أحد ولا يكلفه إلى الدرهم

الـواحد أجيبوا بإجرائهم على جاري عادتهم في ذلك
ورسمنا به.

III فصل:

أنهى المذكور لمواقفنا الشريفة أن قبل هذا التاريخ إذا حضر تجـار الفرنتيـين بضاعـة
إلى الثغر السكندري المحروس يفتحها المباشـرون
بالخمس ويفتشونها ويصيـر كل واحـد منهم يأخـذ منها شيئـاً ويقول
أنـا أشتريـه ويعطل المباشر أشغالهم وينقص بضاعتهم ويعـوقها
عليهم حتى يشتري منها وسألوا صدقاتنا الشريفة أنه إذا حضر أحد من تجار الفرنتيين
أو وكلائهم ببضاعـة إلى الثغر السكندري
لا أحد من النايب ولا من المباشرين ولا من جمـاعتهم يأخـذ بضاعتهم
بغير رضائهم وتمكين المذكورين من أخذ بضاعتهم وأن يخزنوها
في مخازنهم أو في فنادقهم ويحضر المباشرون ويعدّوا العدّة ويقبنوا
حتى لا يحصل تفريط للديوان في شيء من ذلك أجيبوا إلى ذلك
ورسمنا به.

IV فصل:

سأل المذكورون صدقاتنا الشريفة أنه إذا حضرت البضائع المتعلقة بالفرنتيين ودخلوا
بها المخازن والفنادق ومضى ثلاثة أيام ولم
يحضر المباشرون من الديوان لأخذ العدّة والقبانة وتعطل
حالهم من تأخير المباشرين المذكورين يطالعوا النايب بالمكان
الذين هم به بذلك ويقومون بما جرت به العادة في ذلك من
المصاريف وتوضع تحت يد النائب وحيث أقاموا بذلك على
جاري عادتهم والمانع من تأخير المباشرين يمكنوا من بضائعهم

ولا يحدث عليهم شيء خارج عن عادتهم أجيبوا إلى ما سألوه من ذلك
ورسمنا به.

V فصل:

سأل المذكورون صدقاتنا الشريفة أنه إذا حضر إليهم قطارة إلى
الثغر السكندري المحروس أو ثغر من الثغور الإسلامية وأخذ
أشرفي في كل برميل على العادة لا أحد يبلصهم ولا يكلفهم
إلى الدرهم زايداً عن العادة أجيبوا بأن يبيعوا ذلك
لتاجر الذخيرة الشريفة بالثغر السكندري على جاري العادة في ذلك.

VI فصل:

سأل المذكورون صدقاتنا الشريفة أنه إذا حضر جماعة الفرنتيين
الثغر السكندري المحروس أو إلى ثغر من الثغور الإسلامية وحضروا
ببضاعتهم إلى فندقهم أو مخزنهم يبيعون بضاعتهم بالقياض أو بالنقد
لمن يختاروه وبعد ذلك يقوم المذكورون للديوان الشريف بأربعة عشر دينار
في المائة دينار وأن يوزنوا بضاعة بقيمة ذلك أو نقداً من غير
السمسرة والتراجمة وإذا أقاموا بذلك وتأخر عندهم بضاعة أو لم
يبيعوا بضاعتهم ووزنوا ما عليهم من ذلك واختاروا أن يسافروا
ببضاعتهم إلى القاهرة المحروسة لا يتعرض إليهم أحد حيث وزنوا ما هو
عليهم مما جرت العادة في ذلك بضاعة وذلك خارج عن القطارة
لا من النواب ولا من الحكّام ولا من المباشرين وإذا وزنوا
الأربعة عشر دينار في المائة دينار يكون ذلك بضاعة من سائر ما
معهم من الأصناف بالسوية أجيبوا عن ذلك بإجرائهم
على جاري العادة في ذلك ورسمنا به من غير احداث حادث.

VII فصل :

سأل المذكورون أنه إذا وقع بيع بين تاجر فرنتي وبين المسلمين في بضاعة من البضائع بعد النظر والتقليب ونزل ذلك في
ديوان القبان لا أحد من المسلمين ولا تجار الفرنتيين يقلب شيئاً على شيء ولا يردّ البيع لا بحيلة ولا بشيء أجيبوا عن ذلك إلاّ
بطريق شرعي ورسمنا به.

VIII فصل :

سألوا صدقاتنا الشريفة أنه إذا كان لأحد من التجار الفرنتيين قرضاً على أحد من المباشرين الديوان[٣٤] وحضرت بضاعة للتاجر الذي له القرض وطلب قرضه ممن هو عليه يدفع له قرضه على الوجه الشرعي ولا يحتج عليه بأمر البضاعة ولا بغيرها ويُودي القرض
أجيبوا لذلك ورسمنا به.

IX فصل :

سأل المذكورون صدقاتنا الشريفة أنه إذا هلك أحد من التجار الفرنتيين بثغر الاسكندرية أو غيره وكان كتب وصية لا يعارض فيها أحد من المسلمين ولا غيرهم وإن وضع بضاعته تحت يد من يختار ويوصّي من يختار لا يعارض الوصي بطريق من الطرق ولا يكلّف لنواب ولا لحكام ولا لمباشرين حتى ولا الدرهم الواحد وإذا هلك من غير وصية يكون بضاعته وموجوده جميعه تحت يد قنصل الفرنتيين
المذكورين إلى حين يحضر المستحقون لميراثه وإذا كان لأحد من التجار المذكورين وكيل أو قاصد وعلى يده بضاعته وحضر بها إلى ثغر من

---

(٣٤) من مباشري الديوان .

الثغور الإسلامية وتصرف في البضاعة ببيع أو كان عليه دين
وأوفى من ذلك دينه ثم هلك وحضر بعد ذلك التاجر صاحب
البضاعة إلى الثغر الذي هلك فيه الوكيل المذكور أو القاصد وأثبت
أن ذلك عين رجله لا يعارضه فيه أحد ويأخذ بضاعته ممن
أخذها من الهالك من غير معارضة له في ذلك على حكم الشريعة المطهرة
بالطريق الشرعي أجيبوا إلى ذلك ورسمنا به.

X فصل:

سأل المذكورون صدقاتنا الشريفة بروز أمرنا الشريف أنه إذا لم يقطع
سعر في البهار أو غيره من البضايع وحضر تاجر من تجارهم وأراد
البيع والشراء لا يعارضه أحد من المسلمين ولا غيرهم من خلق الله تعالى
أجيبوا بإجرائهم في ذلك على ما جرت به العادة ورسمنا بذلك.

XI فصل:

سأل المذكورون صدقاتنا الشريفة بروز أمرنا الشريف أن
أحداً من المسلمين لا يشتكي أحداً من تجار الفرنتيين إلّا من
حاكم الثغر الذي هو به وإذا حضر الشاكي قدام نائب الثغر
وحرر الأمر بينهما بالطريق الشرعي ولم ينفصل أمرهم يحمل مع
غريمه إلى أبوابنا الشريفة أجيبوا إلى ما سألوه من ذلك ورسمنا به.

XII فصل:

سأل المذكورون أنه إذا حضر قنصل من طائفة الفرنتيين إلى الثغر
السكندري المحروس أو إلى ثغر من الثغور الإسلامية يجري على عادة
قنصل البنادقة من المعلوم والجامكية والحقوق الجاري

بها العادة أجيبوا إلى ذلك اجراً على العادة ورسمنا به.

XIII فصل:

سأل المذكورون صدقاتنا الشريفة بروز أمرنا الشريف أن أحداً من
تجار الفرنتيين إذا حضر إلى مينا بيروت وغيرها وقصد البيع والشراء
لا يعارضه أحد ويجري على جاري عادة البنادقة في بيعهم وشرائهم
وإن كان تجار الفرنتيين تشتري قلياً من بيروت
أو من دمشق المحروسة يقومون بما يقوم به طائفة البنادقة من غير زايد
على ذلك أجيبوا إلى ذلك ورسمنا به.

XIV فصل:

سأل المذكورون صدقاتنا الشريفة بروز أمرنا الشريف أنه إذا
كان بين طائفة الفرنتيين ضراب أو شرور أو لأحد منهم حقّ على
أحد من طائفته لا يحكم بينهما أحد من النواب ولا من الحكام ولا من التجار
إلاّ قنصل طائفتهم على ما جرت به عادتهم أو برضائهم بذلك
أجيبوا إلى ذلك ورسمنا به.

XV فصل:

أنهى المذكورون أن جرت عادتهم إذا قصد أحد منهم السفر من
بلاد إلى بلاد وقصد تغيير حليته وأن يلبس ملبوس المماليك
خوفاً من الطمع في جانبهم في الطرقات لا يتعرض إليهم أحد ولا
يتعرض لأكلهم ولا لشربهم ولا يكلفهم إلى الدرهم الفرد بسبب ذلك
أجيبوا بإجرائهم في ذلك على عادتهم من غير إحداث حادث ورسمنا به.

XVI فصل:

سأل المذكورون صدقاتنا الشريفة بروز أمرنا الشريف أن

أحداً من تجار الفرنتيين إذا حضر إلى السواحل الإسلامية
أو إلى الثغوز الإسلامية في مراكب مـربعة أو غيـرها وقصـد
إصلاح المـركب الذي حضـر فيه واحتـاج إلى شـراء ما يتعلق بذلك
من جميع الأصناف يمكن من ذلك ولا يعارض فيه جملة كـافة
بغير طريق ولا وجه أجيبوا إلى ذلك ورسمنا به.

XVII فصل:

سألوا صدقاتنـا الشريفـة بروز أمـرنا الشـريف أنه إذا حضـر مراكب
من مراكب الفرنتيين إلى البلاد الإسلامية بغير بضاعة
ومع من بها ما يتعلق بهم من أكلهم وشربهم لا يعارضهم أحد ولا
يكلفهم إلى الدرهم الفرد بغير طريق أجيبوا إلى ذلك ورسمنا به.

XVIII فصل:

سألوا صدقاتنا الشريفـة بروز أمـرنا الشـريف أنه إذا كـان على أحد من
تجارهم أو من طائفتهم وعليه حقوق شرعية لأحد من
المسلمين أو كان بينهما ضراب أو مشاجرة لا يلزم غيره من طـائفته
وأبنـاء جنسه بـذلك حتى ولا الإبن بالأب ولا الأب بالإبن
إلّا بطريق شرعي أجيبوا إلى ذلك ورسمنا به.

XIX فصل:

سألوا صدقاتنا الشريفة بروز أمرنا الشريف أن أحداً من
تجار الفرنتيين إذا أراد سفر سعاة أو قصاد بكتبهم وأشغالهم
لأحدٍ لا يعارضه أحد ولا يشوش عليه ولا يعوقه ولا يفتـح
كتبهم أجيبوا بـإجرائهم في ذلـك على ما جـرت به العـادة ورسمنا به.

XX فصل :

سأل المذكورون صدقاتنا الشريفة بروز أمرنا الشريف أنه
كان لأحـد من تجار الفرنتيين تعلقات أو حقوق شـرعية على أحـد
من المسلمين ولم يحضره الحاكم ليقوم بما عليه من الحق وامتنع عن إعطاء
الحق بالطريق الشرعي وقصد التاجر الفرنتي الحضور إلى خدمة
أبوابنا الشريفة بسبب ذلك لا يعارضـه نايب ولا أحـد من الحكـام
ولا تـاجـر ويمكن من الحضـور من غيـر أن يتكلف إلى الدرهم الفرد ليخلص
حقه على الوجه الشرعي أجيبوا إلى ذلك ورسمنا به .

XXI فصل :

سأل المذكورون صدقاتنا الشريفة بروز أمرنا الشريف أن أحداً من
تجار المسلمين إذا عمل البيع مع أحد من تجار الفرنتيين ووقع بينهما
قياض ببهار أوغيره من البضائع وادعى أحد غير البايع أن ذلك
بضاعته فلا يقبل منه ولا يؤخذ من البضائع شيء بعد دخول
ذلك في ديوان القبان ولا يعارضه أحد في ذلك إلّا بطريق شرعي
أجيبوا بإجراء الأمر في ذلك على ما جرت به عادة التجار.

XXII فصل :

سألوا صدقاتنا الشريفة بروز أمرنا الشريف أن طائفة الفرنتيين
إذا أحضروا ذهباً طيباً خالصاً يصرفوه على حكم ذهب
البنادقة أجيبوا إلى ذلك ورسمنا به .

XXIII فصل :

أنهى المـذكورون أن تجـار الفرنتيين إذا حضـروا إلى الثغر السكنـدري

المحروس أو إلى ثغر من الثغور ببضاعة وأقاموا بما عليهم من الحقوق الديوانية واستقر غير المتكلم على الجهات وتغير المباشرون والمتحدثون في الديوان لا يقوم أحد من التجار الفرنتيين بما أقام به ثانياً وسألوا أنه إذا تغير أحد من المباشرين والمتحدثين لا يطلب منهم ذلك ثاني مرة أجيبوا بالاجراء في ذلك على ما جرت به
العادة حيث كان ذلك عن قرب عهد في المدة ورسمنا بذلك .

XXIV فصل :

سأل المذكورون صدقاتنا الشريفة بروز أمرنا الشريف إذا قصد أحد من تجارهم /توجهه/[٣٥] إلى بلاده ببهار من جميع الأصناف
من ثغر السكندري المحروس أو غيره من الثغور بعد قيامه بما عليه من الحقوق الديوانية يمكن من السفر ولا يعارضه أحد في ذلك حيث
لم يكن عليه تبعة أخرى ولا طريق أجيبوا إلى ذلك ورسمنا به .

XXV فصل :

سألوا صدقاتنا الشريفة بروز أمرنا الشريف أنه إذا قصد أحد من تجارهم التوجه إلى بلاده في مراكبهم أو في مراكب غير طائفتهم لا يعارضه أحد في شيء من غلمانه ولا في أكله ولا شربه ولا فرشه ولا لبيسه ولا شيء من حاله ولا يكلف بسبب ذلك بغير طريق
أجيبوا إلى ذلك ورسمنا به .

XXVI فصل :

سألوا صدقاتنا الشريفة بروز أمرنا الشريف بأنه إذا كان أحد من

---

(٣٥) حشرت هذه الكلمة ما بين الخطين ١٩٨ و ١٩٩ فوق إلى .

طائفة الفرنج من أي جنس كان تعرض إلى طائفة الفرنتيين
في البر أو البحر وأخذ لهم شيئاً، أو حصل لهم منه تشويش أو كان
لهم عليه حقوق أو ديون أو دعوى وحضروا إلى البلاد الإسلامية
يخلص الحاكم بالمكان الذي هم فيه حقهم وإذا لم تخلص حقهم أو كان
مركب من مراكب الفرنتيين يشوش على أحد يحملوا إلى أبوابنا الشريفة
أجيبوا إلى ذلك ورسمنا به.

XXVII فصل:

سأل المذكورون صدقاتنا الشريفة بروز أمرنا الشريف أنه إذا
وقع حساب بين أحد من تجار الفرنتيين وبين أحد من المسلمين
وصدر بينهما براءة لا يرجع أحد منهما يتقلب على أحد بعد ذلك
إلّا بطريق شرعي أجيبوا إلى ذلك ورسمنا به.

XXVIII فصل:

سأل المذكورون صدقاتنا الشريفة بروز أمرنا الشريف
بأنه إذا حضر إلى المين الإسلامية مركب للفرنتيين بثابوت
وأقام بما تعين على ما به من الحقوق الديواينة بالمينا
من جميع ما يلزمه لا يعارضه أحد ويمكن من السفر من
غير كلفة على جاري عادة البنادقة في ذلك وقاعدتهم
أجيبوا إلى ذلك ورسمنا به.

XXIX فصل:

سأل المذكورون صدقاتنا الشريفة أن يعين فندق بثغر الاسكندرية
المحروس لقنصلهم ولتجارهم على العادة في ذلك وكما هو لغيرهم
من طوائف الفرنج أجيبوا إلى ذلك ورسمنا به.

XXX فصل :

سأل المذكورون صدقاتنا الشريفة أن التاجر من الفـرنتيين
إذا حضر إلى ثغر الاسكندرية المحروس بما صحبته من البضائع
وباع واشترى وقايض وأقام بما عليه من العشور والحقوق
الديوانية والمصاريف الجاري بها العـادة وقصد التوجه
من الثغر المحروس والسفر إلى جهة بلاده لا يعارضه الشاد
بباد البحر ولا غيـره بسبب شيء يأخـذه زيـادة على مـا أقـام بـه
التـاجـر المـذكـور حتى ولا ما قيمته الدرهم الواحد أبداً
أجيبوا إلى ذلك ورسمنا به .

XXXI فصل :

سأل المذكورون صدقاتنا الشـريفة أنـه إذا حضر أحـد من
الفرنتيين في مركب لغير طائفة من أي جنس كان إلى المين الإسلامية
الثغر السكندري وغيره وكان بها أحد من الفرنتيين
وعليه طلب من جهة حرام أو مفسدّة أو حق لا يطلب به
غيره من الفرنتيين ممن حضر في المركب المذكور إلّا إن كان
ضامناً أو كفيلاً أجيبوا إلى ذلك ورسمنا به .

XXXII فصل :

سأل المذكورون صدقاتنا الشريفة أنه إذا حضر أحد من
تجار الفـرنتيين إلى الثغر السكندري المحـروس أو غيره من المين
الإسـلامية وحضـر إليه من يبتاع منه شيئاً من بضائعه الواصلة
صحبته يمكن من ذلك ولا يعـارض التاجـر الفرنتي بسبب ذلك
حيث أقام بما عليه من العشور والحقوق الديوانيةالجـاري

بها العادة أجيبوا إلى ذلك ورسمنا به
ومرسومنا لكل واقف عليه أن يتقدم باعتماد ما رسمنا به في
الفصول المشروحة أعلاه والعمل بها وعدم الخروج عن
شيء منها قولاً واحداً وأمراً جازماً فليعتمد هذا المرسوم
الشريف ويعمل بحسبه ومقتضاه من غير عدول عنه
ولا خروج عن معناه والخط الشريف أعلاه الله تعالى أعلاه
حجة فيه، إن شاء الله تعالى.

في سادس ذي الحجة الحرام
سنة أربع وتسعين وثمانمائة
حسب المرسوم الشريف
الحمد لله وحده وصلى الله على من لا نبي بعده
وحسبنا الله ونعم الوكيل(٣٦).

حر

---

(٣٦) انظر : Wansbrough. J., A Mamluk Commercial Treaty concluded with the Republic of Florence 894/1489 , In Oriental Studies , Vol.III , Documents from Islamic Chanceries , first series edited by S. M. Stern and Walzer , Bruno - Cassierer. Oxford, 1965 , pp. 52 - 61 .

ج ـ سفارات الرهبان ما بين المماليك وجنوبي أوروبا

وهناك سفارات أخرى أرسلها السلطان قايتباي إلى جنوبي أوروبا ولكن هذه المرة ليس لإجراء مباحثات تجارية أو لتوقيع معاهدة وإنما لتسوية إذا أمكن بعض المسائل ذات الطابع السياسي والعسكري .

والواقع ان عاملاً جديداً أثر على العلاقات الإيطالية ـ المملوكية منذ القبض سنة ١٤٨٢ على الأمير جم شقيق السلطان العثماني بايزيد الثاني من قبل ب . دوبيسون P. D'Aubusson زعيم فرسان القديس يوحنا في رودوس . وقد كتب دوبيسون إلى قداسة البابا إلى وجوب استغلال جم كأداة لتدمير السلطنة العثمانية ونتيجة لذلك جرى التحفظ على جم في القصور التابعة لهيئة الفرسان في فرنسا لمدة سبع سنوات . ولما كان جم رهينة نادرة تدر كثيراً من المال والجاه فقد عمد حكام تلك الفترة بشغف على وضع اليد على الأمير السجين على شرط أن يقوم الفرسان The Knights دائماً بحراسته .

ولما كان السلطان قايتباي في حالة حرب مع العثمانيين منذ سنة ٨٩٠/١٤٨٥ فقد أبقى على علاقات دبلوماسية ناشطة مع الفرسان وقداسة البابا بهدف الحصول على الأمير جم . وقد ظن قايتباي أن وجود جم إلى جانبه قد يكون عاملاً حاسماً في كسب الحرب . غير أن فرسان القديس يوحنا والبابا أنوسنت الثامن (١٤٨٤ ـ ١٤٩٢) وجدوا أنه من الضروري للمصلحة العامة المسيحية نقل جم إلى روما حيث وصلها في الأول من ربيع الثاني سنة ٨٩٤/ الرابع من نيسان سنة ١٤٨٩ . وبعد عشرة أيام وفي استقبال ملوكي قابل جم البابا وشكى له على إنفراد إنتهاك الفرسان للأعراف ومعاملتهم له كأسير ! وطلب من البابا أن يرجعه إلى عائلته في مصر مؤكداً له أنه لن يتعاون أبداً مع الهنغار في محاربة المسلمين ابناء دينه . وقد أدى وجود جم في روما إلى تزايد مكانة ونشاطات البابا الدولية الذي كان يخطط إلى حملة صليبية جديدة ضد العثمانيين وقد أرسل من أجل ذلك رسائل إلى الحكام المسيحيين

يخبرهم فيها أن ظروف تنفيذ هذه الحملة هي أكثر من ملائمة(٣٧) .

وفي هذه الأثناء كان السلطان قايتباي يحث البابا على تسليمه الأمير جم عارضاً عليه بالمقابل ١٥٠ ـ ٢٠٠ ألف دوكات(٣٨) .

وهناك سبب آخر دفع السلطان قايتباي إلى إرسال سفارة إلى جنوبي أوروبا عندما استلم رسالة من محمد بن سعد الزّغل صاحب مالقة يخبره فيها أن فرديناند وإيزابيلا يجتاحان بلاده ، وأنه حمل راية الجهاد ويطلب مساعدة السلطان خشية ضياع بقية ممتلكاته(٣٩) .

ـ سفارة الراهب انطونيو ميلان Fr. Antonio Millan إلى جنوب أوروبا

وإستناداً إلى ابن أياس فإن موفداً لصاحب الأندلس قد قدم إلى القاهرة في ذي القعدة سنة ٨٩٢ / تشرين الأول ١٤٨٧ وسلم السلطان رسالة من سيده يسأله فيها إرسال تجريدة لمساعدته على قتال الفرنج الذين أشرفوا على أخذ غرناطة التي هي تحت الحصار . لدى سماع السلطان ذلك قرّر أن يقوم رهبان كنيسة القيامة في القدس بإرسال قسيس من أعيانهم إلى ملك نابولي وعلى يده رسالة يطلب فيها منه مكاتبة صاحب قشتيلية (Castille) ليرتدع عن أهل الأندلس وينسحب وإلا عمد السلطان على التشويش والتضييق على أهل القيامة وتوقيف أعيانهم وإلى منع جميع طوائف الفرنج من دخول كنيسة القيامة وهدمها(٤٠) .

---

(٣٧) انظر : The Encyclopaedia of Islam, New Edition. Vol. II, London, 1965, pp. 529 - 30.

(٣٨) The E. I2. Ibid., p. 530.

(٣٩) دراج . أ ، المماليك والفرنج ، القاهرة ١٩٦١ ، ص ١١٠ ؛
عنان . م . ، مصر الإسلامية ، القاهرة ١٩٣١ ، ص ١٣٩ .

(٤٠) ابن أياس ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، القاهرة ١٩٦٣ ، جزء ٣ ، ص ٢٤٤ .

إن موضوع إرسال الرهبان إلى ملك نابولي فرديناند الأوّل فرضته الأحوال السياسية آنذاك وطبيعة علاقات الدولة المملوكية بهذا الحاكم ، الذي كانت تربطه بالسلطان مودة خاصة من حين خلو العرش القبرصي لدى وفاة ملك قبرص جيمس الثاني في العام ١٤٧٣ ولجوء فرديناند الأول ملك نابولي إلى السلطان قايتباي لإجلاس أحد أبنائه دون الونزو Don Alonzo على عرش الجزيرة عن طريق تزويجه بالأميرة شارلا إحدى بنات الملك المتوفي باعتبار أن السلطان هو صاحب السيادة الشرعية على الجزيرة وصاحب الكلمة العليا في تقرير مصير العرش القبرصي[٤١] .

وأضاف ابن أياس أن الرهبان قد أرسلوا مبعوثهم وعلى يده مراسلة إلى صاحب نابولي غير أن هذه البعثة لم تكن ذات فائدة لأن الأسبان احتلوا غرناطة فيما بعد :

« فأرسلوا قاصدهم وعلى يده كتاب إلى صاحب نابل كما أشار السلطان ولم يفد من ذلك شيء ، ملكوا الفرنج مدينة غرناطة فيما بعد »[٤٢] .

إن المصادر الإسلامية لم تعط كثيراً من التفاصيل حول تلك السفارة . غير أن محفوظات رهبان الأرض المقدسة Superiori Di Terra Santa في القدس تلقي بعض الأضواء على تلك السفارة .

واستناداً إلى تلك المحفوظات خلال فترة تولي الراهب برتولوميو دا بياشنزو Fr. Bartolomeo Da Piacenzo منصب راعي (Custode) الأرض المقدسة في العام ١٤٨٩ ، أرسل السلطان قايتباي الراهب انطونيو ميلان Fr. Antonio Millan ، أو داميلانو كما يسميه البعض ، رئيس دير جبل صهيون

---

(٤١) دراج. أ ، المصدر السابق ، ص ١٠٩ .

(٤٢) ابن أياس ، المصدر السابق ، جزء ٣، ص ٢٤٤ .

وقد أضاف ابن أياس ، ص ٢٧٦ ، إن الأخبار قد وصلت الإسكندرية (ذو الحجة ٨٩٦/ تشرين الأول ١٤٩١) بأن الفرنج استولوا على غرناطة وأن الصلح قد عقد ما بين أهل غرناطة والفرنج : « وقرروا للفرنج في كل سنة شيئاً من المال يردونه » .

كسفير لدى قداسة البابا في العام ١٤٩٠ بمهمة إعادة الأمير جم الشهير إلى مصر ولدى حكام إسبانيا للطلب إليهم بكف مواصلة الحرب ضد المسلمين(٤٣) .

ترك الراهب انطونيو ميلان القدس إلى نابولي في نهاية سنة ١٤٨٧ حيث قابل فردينان الأول ثم أنتقل إلى روما فاستقبله البابا أنوسنت الثامن ورفض تسليمه رهينته النادرة باعتبار أن الأمير جم يعطي البابا الطموح مزيداً من المكانة السياسية ، ولا عجب أن نجد البابا غير راغب في مبادلة الأمير الأسير مقابل أي مبلغ من المال يفرضه السلطان قايتباي . بالإضافة إلى ذلك لم يعمد البابا إلى إجراء أي إتصال مباشر مع فرديناند الثاني وزوجته ايزابيلا من أجل وقف الحرب ضد المسلمين في إسبانيا، وكل ما قام به هو إعطاء رسالة توصية فقط إلى الراهب انطونيو ميلان كما فعل فرديناند الأول ملك نابولي .

وقد تابع مبعوث السلطان سفره إلى إسبانيا حيث قابل فرديناند الثاني في معسكره مقابل أسوار بازا في نهاية سنة ١٤٨٩ .

وقد شرح السفير لفرديناند الثاني تهديدات السلطان وسلمه الرسالتين من فرديناند الأول ومن البابا .

ولكن فرديناند الثاني وزوجته إيزابيلا كانا تحت تأثير التطرف الديني الذي يلهبهما ويحثهما على مواصلة الحرب لتدمير مملكة غرناطة آخر معاقل الإسلام

---

(٤٣) « Quasi tutti gli storici Chiamono Guardiano di T.S ovvero superior del Monte Sion, un tale fr. Antonio Millan, (o da Milano, secondo altri), il quale dal soldano d'Egitto Keit bay venne spedito ambasciatore al Pape nel 1490 , per miavere nelle mani il famoso Zizimo fratello di Bajazet, e ai sovrani di spagna per distoglierli dal continuare la guerra contro i Mori » ,

انظر :

- Superiori Di Terra Santa. Nuova Serie Compilata dal p.Girolamo Golubovich. Gerusalemme. 1898, p.35.

في إسبانيا . ولذلك لم يعطيا آذاناً صاغية لمبعوث السلطان بل تابعا هجماتهما ضد غرناطة فسقطت بعد ثلاث سنوات(٤٤) .

لم تنجح سفارة الراهب أنطونيو ميلان ، فقد ظل الأمير جم مأسوراً في روما ثم في نابولي تحت سمع وبصر البابا وملك فرنسا حتى وفاته . كما أن سقوط غرناطة لم يكن بالامكان تداركه بالرغم من جهود ومساعي السلطان قايتباي .

والواقع أن سفارة الراهب انطونيو ميلان إلى جنوبي أوروبا كانت غير ذي شأن والسبب يعود إلى أمرين :

الأول أن الراهب انطونيو ميلان كان قد ولد في قشتيلية Castille ولم تكن لديه مشاعر عميقة حول مصير جم أو مسلمي إسبانيا . بل على العكس لم يكن لديه كما يبدو ، لكونه من أصل إسباني ، أي اعتراض للخطط المتطرفة والطموحة التي كان ينفذها فرديناند الثاني وزوجته إيزابيلا .

والثاني أن تهديدات قايتباي بالانتقام من الرهبان وتهديم الكنائس في فلسطين لم تؤخذ على محمل الجّد . وقد تأكد هذا الواقع حين لم يقدم قايتباي على إتخاذ أية إجراءات انتقامية ضد رهبان الفرنسيسكان ، بل على العكس قام رهبان الفرنسيسكان بتحسين أوضاعهم حين سمح لهم بإعادة بناء كنيسة بالقرب من دير صهيون في شباط ١٤٨٩ فوق المكان الذي يقال له مقام السيدة العذراء عليها السلام(٤٥) .

---

(٤٤) دراج . أ ، المصدر السابق ، ص ١١٠ - ١١١ ؛
عنان . م ، المصدر السابق ، ص ١٣٩ - ١٤٣ .

(٤٥) يقال إن بناء الفرنسيسكان لهذه الكنيسة قد تمّ بمساعدة نائب القدس الأمير دقماق الاشرفي عن طريق بذل المال له .
انظر :
- دراج . أ ، المصدر السابق ، ص ١١٣ ؛

والواقع أن البابا قد نجح في استغلال وجود الأمير جم بين يديه بهدف الحصول على بعض الامتيازات للكنيسة الكاثوليكية في فلسطين .

ولهذه الغاية أرسل البابا موفداً له إلى القاهرة حيث قابل السلطان في مناسبتين الأولى في آب ١٤٨٩ والثانية في أيلول من نفس السنة . والمقابلة الثانية كانت بحضور تغري بردي كبير التراجمة . وقد غادر الموفد البابوي الأسكندرية في تشرين الثاني سنة ١٤٨٩ على متن مركب جنوي بعد أن نجح في تأكيد وإبقاء الامتيازات الممنوحة للرهبان الفرنسيسكان في جبل صهيون[٤٦] . وسبب ذلك يعود إلى أن مباحثاته مع السلطان قد أعطت بعض

Thenaud, voyage d'outremer, p. 108.

إن بناء الكنائس المحدثة في بلاد الإسلام أمر لا يجيزه الشرع بمقتضى عهد عمر بن الخطّاب لبطريق بيت المقدس زمن الفتح الإسلامي ، ولا يسمح بعمارة القائم منها إلا على هيئة ما كانت عليها أولاً وبالقدر الذي يحفظ كيانها ويمنعها من السقوط .

انظر : ـ دراج . أ ، المصدر السابق ، ص ١١٣ ؛

ـ القلقشندي ، صبح الأعشى ، جزء ١٣ ، ص ٣٥٧ ـ ٣٥٩ .

(٤٦) Risciani. Norberto., Documenti e Firmani . Gerusalemme. 1936, XXVIII Documento, pp. 348 - 352.

وكان السلطان برسباي قد أكدّ في صفر ٨٣١/ تشرين الثاني ١٤٢٧ المراسيم السابقة الممنوحة من قبل السلاطين السابقين لرهبان جبل صهيون كما منحهم بعض الامتيازات والإعفاءات .

كما أصدر أيضاً السلطان خشقدم في صفر ٨٦٩/ تشرين الثاني ١٤٦٤ مرسوماً مماثلاً لمرسوم برسباي .

وفي ذي القعدة سنة ٨٧٦/ نيسان ١٤٧٢ وفي ربيع الأول سنة ٨٨٥/ تموز ١٤٨٠ ، أكّد أيضاً السلطان قايتباي المراسيم السابقة التي منحها من سلفه من السلاطين إلى رهبان دير صهيون وأضاف عليها امتيازات وإعفاءات أخرى .

انظر :

= - Superiori di Terra Santa, Op. Cit., pp. 163 - 166. 173 - 177.

الأمل باسترجاع جم(٤٧) .

غير أن الأمير جم أنتقل من أسره إلى قبضة شارل الثامن ملك فرنسا الذي قدم إلى روما في سنة ١٤٩٤ وأقنع البابا بإعطائه الأمير الأسير للاستفادة منه في مشروعاته الخاصة بالحملة الصليبية الجديدة (٢٧ كانون الثاني ١٤٩٥) . وهكذا أخذ جم وأجبر على مرافقة الملك الفرنسي في حملته ضد نابولي . وأثناء الطريق سقط جم مريضاً ثم توفي في نابولي في ليل الخامس والعشرين من شباط سنة ١٤٩٥(٤٨) .

ـ سفارة الراهب مارودا سان برناردينو Fra Mauro da San Bernardino إلى جنوب أوروبا .

سفارة أخرى ترأسها رجل دين أرسلت أيضاً إلى جنوبي أوروبا خلال عهد قانصو الغوري الذي وصل العرش في ظروف خاصة وصعبة . فالحدود الشمالية لسوريا كانت مهددة من قبل العثمانيين في حين كان الشاه إسماعيل الصفوي يعيث فساداً في الحدود الشرقية لسلطنة المماليك . كما كانت تجارة مصر مع الهند قد خربت بسبب البرتغاليين بالإضافة إلى أن سقوط غرناطة والضغوطات المتزايدة على مسلمي إسبانيا لإجبارهم على اعتناق المسيحية قد أثارت المشاعر الدينية في كافة ديار الإسلام . غير أن أقسى ضربة كانت موجهة ضد مصالح السلطان الشخصية حصلت عندما أغرقت وحدات الأسطول البرتغالي في سنة ١٥٠١ قرب كالكوتا Calicutta مراكب عدة تابعة للسلطان

- Risciani,
XXIII Documento, pp. 268 - 277.
XXV Documento, pp. 290 - 317.
XXXVII Documento, pp. 328 - 347.
XXVIII Documento, pp. 348 - 352.

(٤٧) دراج . أ ، المصدر السابق ، ص ١١٥ ـ ١١٦ .

(٤٨) The E. I. 2. Op. Cit., p. 530

نفسه ، وللتجار المسلمين(٤٩) . وقد أرسل الغوري على جناح السرعة موفداً من قبله إلى صاحب كالكوتا يسأله أن لا يستقبل المراكب البرتغالية .

وقد ظهرت نتائج هذه الكارثة بنفس السنة في البندقية ، إذ أن مراكب الشرق لم تجلب سوى كميات ضئيلة من البضائع مما حدا بالتجار الألمان الذين أتوا لحضور المعرض في الجمهورية أن يتوجهوا إلى لشبونة ، ولذلك فقد قرّر مجلس الشيوخ البندقي أن يرسل إلى القاهرة السفير بندتو سانوتو Benedetto Sanuto الذي مارس التجارة لفترة طويلة في دمشق . وقد كلّف أن يبحث مع السلطان Solus Cum Solo السبل الآيلة لحماية تجارة التوابل التي تضررت بسبب البرتغاليين . وكان لدى مجلس الشيوخ والرأي العام في البندقية إحساس جلي بأن إنحطاط التجارة مع الاسكندرية وبيروت سيؤدي حتماً إلى خراب الجمهورية .

كما كلّف السفير أيضاً بالتماس الموافقة من السلطان على تخفيف المكوس والعشور المفروضة على التجار البنادقة. وقد عاد بندتو سانوتو إلى البندقية في شهر أيلول سنة ١٥٠٣(٥٠) .

وفي نفس السنة هاجم الأميرال البرتغالي دي غاما Gama مركباً كبيرة للسلطان واستولى عليها بعد قتال مدمي . فقتل جميع من فيها من ركاب وحجاج وبحارة باستثناء الأطفال ثم نهبها وأحرقها فغرقت وكانت هذه المركب عائدة من سواحل المالابار بعد أن أكملت حمولتها من القرفة والزنجبيل والتوابل الأخرى وعليها عدد كبير من الحجاج الهنود الراغبين في زيارة مكة المكرمة لإداء فريضة الحج .

---

(٤٩) دراج . أ، المماليك والفرنج ، ص ١٣٢ .
Thenaud, le voyage d'outremer, Paris MDCCCL XXXIV. p. XLVI.

(٥٠) Thenaud., Op. Cit., pp. XLV - XLVII.

لوحدهما — Solus Cum Solo : Tête à tête

وقد وصف تينو Thenaud ما حدث للمركب وصفاً مسهباً ومؤثراً[٥١] .

إن أخبار هذه الكارثة قد أغضبت السلطان الغوري غضباً شديداً وأثارته خاصة وأنه كان شديد التأثر بما يصيب المسلمين من اضطهاد في إسبانيا ولذلك فقد كلّف الراهب ماروداً سان برناردينو Fra Mauro da San Bernardino بالتوجه إلى أوروبا لعرض شكوى السلطان المحقة لدى قداسة البابا جول الثاني Jules II ولدى دوج البندقية وأيضاً لدى ملوك إسبانيا والبرتغال والطلب إليهم تسوية الأمور والتعويض عليه. كان مارودا سان برناردينو راهباً إسبانياً من مقاطعة سان برناردينو في إسبانيا وقد انتخب راعياً للأراضي المقدسة في الاجتماع العام المنعقد في أوربينو Urbino في الأول من حزيران سنة ١٥٠١[٥٢] .

---

(٥١) « Gama ayant fait aiguad et pourveu aux vivres de la flotte en ce lieu, print la route des Indes, et comme il approchoit de terre, il descouvrit une grande navire, equippée de tout ce qui estoit necessaire pour la guerre. Elle appertenoit au sultan d'Egypte et estoit partie de Calecut chargée de poyvre, gingembre, canelle et autres marchandises de prix, et faisoit voile vers la Mecque, pour y descharger grand nombre de passagers qui y alloient en pelerinage pour voir le corps de mahumet. Gama la fit incontinent assaillir. Les Arabes et Egyptiens resistèrent beaucoup plus vivement que l'on ne sçauroit croire, et s'acharnerent tellement les uns contre les autres que le combat dura jusques au lendemain matin, encore qu'une aussi grande flotte n'eut affaire qu'à une seule navire, car les Portugalois ne la vouloient pas mettre a fond avant que de l'avoir pilléé, et les autres voyant que l'on demandoit leur vie, la vouloyent vendre bien cher. Mais finalement, ilz furent forcez par les Portugallois qui coupperent la gorge à plus de trois cens, sans espargner autres personnes que les petits enfants, pillent ce grand vaisseau et y mettent le feu puis apres. » Histoire de Portugal contenannt les entreprises, navigations et gestes memorables des Portugallois...

Par J. Osorius, evesque de sylves en Algarve, et lopez Castagnede mise en francois par S.G.S. (Simon Goulard Simonois.) Paris, 1587, fol. 60 v°,

انظر : Thenaud, Op. Cit., p. XLVII.

(٥٢) Superiori Di Terra Santa. Op. Cit., p. 39.

وقد وصل الراهب مارو ومرافقاه الـراهبان الأخـوان مينوريتي Minoriti إلى البنـدقيـة في شهـرنيسـان سنـة ١٥٠٤ . حيث استقبلهـم مجلس الشيـوخ وصرحوا أنهم مكلفون من قبل السلطان الطلب إلى قداسة البابا وبقية الحكام وقف اعتـداءات البرتغـاليين في المحيط الهندي والبحـر الأحمر والتخلي عن احتكارهم لتجارة التوابل ، كما طلبوا وقف اضطهاد المسلمين في إسبانيا حيث يجبرهم ملكها على اعتناق الديانة المسيحية بالقوة .

وإذا لم تستجب مطالب السلطان فإنه قد صمم على سجن وقتـل كافـة النصارى الأجانب المقيمين في ديار سلطنته وعلى تهـديـم كنيسة القيامة ودير جبل صهيون بالقدس(٥٣) .

كُلّف مجلس العشرة (I Dieci) البندقي بإعطاء جـواب الحكومـة إلى الراهب مارو ومفاد ذلك أن الحملات البرتغالية إلى الهند لـم تسبب في تجارة البندقية أضراراً أقل ممّا سببته في تجارة مصر .

غير أن حكومة الجمهورية ، أزاء هذا الموضوع ، لا تستطيع إتخاذ أي إجراء ولا يمكنها أيضاً حتى القبول بالكتابة إلى ملك إسبانيا للشفاعة بالمسلمين كما أنها غير قادرة على عمل أي شيء بالنسبة لملك البرتغال .

---

(٥٣) Thenaud,. Op. Cit., p. XLXIII ,
Caloharra Jean de, Chronica de la Província de Syria, Terra Santa de Gerusalem. Madrid, 1684, in fol., Livre IV. Chap. XXXI, Pages. 336 - 340.

- من أجل تسهيل مهمة الراهب مارو ، سمح له السلطان قبل سفره بالدخول إلى كنيسة القيامة وأخذ قطعة من الرخام الأبيض المعرّف بالبنفسجي لحملها معه . عمد الراهب مارو إلى تقسيم هذه القطعة إلى خمسة أجزاء ووزعها على قداسة البابا جول الثـاني وملك البرتغال والملكة إيزابيلا والكاردينال كارفجال Carvajal والكاردينال فرنشسكـو سسناروس D. Francesco Cisneros .

انظر : Thenaud, Op. Cit., p. XLVIII, no.1.

هذا كل ما قيل للراهب مارو الذي وعدته سلطات البندقية بإعطائه المزيد من التفاصيل لدى عودته[٥٤] .

غير أن البابا جول الثاني كان أكثر إدراكاً وبالتالي تفهماً لتهديدات السلطان ولذلك فقد كلّف الراهب مارو بحمل رسائل منه إلى ملك البرتغال وملك إسبانيا .

ونحن لا نعرف ما هو جواب فردیناد ملك إسبانيا . غير أننا نعرف أن إمانويل ملك البرتغال قد بعث راجياً البابا أن لا يخشى تهديدات السلطان الزائفة وأضاف أنه يأمل أن يبارك الله سلاحه وأن يتمكن، في يوم ما، أن يحتل مكة ويخّرب قبر الرسول (عليه السلام) في المدينة . وكل ما يطلب من قداسته أن يعمل على نشر الوحدة بين امراء المسيحية ويدعوهم إلى ضمّ جهودهم إلى جهوده من أجل الوصول إلى مثل هكذا هدف .

---

(٥٤) الواقع كان مجلس الشيوخ عندما أعطى هذه الإجابة إلى الراهب مارو ، يتريث لمعرفة نتائج المحادثات التي كلّف المبعوث البندقي برناردينو جيوف Bernardino Giove بإجرائها لدى السلطان الغوري بشأن التجارة . وفي وقائع التعليمات التي أعطيت لهذا السفير نلاحظ أن البنادقة قد فكروا أن يقترحوا على السلطان فتح قناة تربط ما بين البحر الأحمر والبحر المتوسط .

« Videlizet Che Cum molta facilita et brevita de tempo se potria far una cava dal mar rosso che mettesse a dectrura in questo mare; de qua come altre volte etiam fu rasonado de far ».
II canale de Suez e la repubblica Venezia dal prof. R. Fulin, in Archivio Veneto. Venice, 1871, vol. II, 2 nd part, p. 195.

إن جواب مجلس العشرة (I Dieci) للراهب مارو هو موجود في مذكرات بريولي :
Priuli, Diarri e Diaristi Veneziani, p. 175.

وكذلك في المحفوظات البندقية

Archivio Veneto, vol. II, part 2, p. 202.

انظر Thenaud, Op. Cit., p. XLIX.

وقد سلّم فرديناند رسالته هذه إلى الراهب مارو وحمّله مبلغاً كبيراً من المال لإعطائه لقداسة البابا(٥٥) .

ولدى عودة الراهب مارو إلى القاهرة ، سلّم السلطان رسالة من الحبر الأعظم ، ولا ندري ما هو وقع هذه الرسالة على السلطان ، وكل ما نعرفه أن الغوري لم ينفذ تهديداته بقتل الرهبان وتهديم كنيسة القيامة . بل عمد إلى تسريع عملية بناء وتسليح الأسطول في السويس . ويبدو أن استياء السلطان من فشل سفارة الراهب مارو قد تحول إلى نقمة انصبت على التجار الأجانب خاصة التجار البنادقة فوضعت عليهم القيود وأجبروا على شراء البضائع السلطانية بأسعار باهظة وبشروط مجحفة حتى أن قائد مراكب البندقية سير بولو كالبو Ser Polo Calpo لما رفض تحميل تلك البضائع بأسعارها المخيفة وأبحر خارج المرفأ من دون ترخيص أطلقت عليه المدافع من برج الاسكندرية . ونتيجة لذلك القي القبض على القنصل وعلى جميع التجار في الإسكندرية وشكوا في الحديد وأخذوا إلى القاهرة حيث أودعوا سجن المقشرة المشهور فمات من جراء ذلك القنصل وقسيس طائفة البنادقة والتاجر سير الفيس براغادينو Ser Alvise Bragadino ويقال إنهم ماتوا بالطاعون . كما صودرت بضائع البندقية في مصر وبلاد الشام وبيعت بالمزاد في القاهرة(٥٦) .

وقد ازداد حنق السلطان بفقدان إحدى مراكبه المحملة بحمولة ثمينة إذ سطا عليها فرسان القديس يوحنا في المياه القبرصية سنة ١٥٠٥ . وقد سحبت المركب إلى قبرص وكان السلطان مقتنعاً بأن البنادقة قد شجعوا الفرسان على القيام بمثل هذا العدوان بسبب الخلاف على أسعار التوابل . ومرة ثانية وضع الغوري كافة التجار البنادقة في الإسكندرية قيد الترسيم .

---

(٥٥) Thenaud, Op. Cit., p. XLIX .

(٥٦) Thenaud, Op. Cit ., pp. XLIX - L.

د ـ السفارات ما بين البندقية والسلطان الغوري .

ـ سفارة الفيز ساغادينو Alvise Sagadino إلى القاهرة .

ونتيجة لإجراءات السلطان تأزمت الأوضاع وأخذت الأخطار تتهدد تجارة البندقية وبشكل اضطر معه مجلس الشيوخ البندقي إلى العزم على إرسال مبعوث خاص إلى القاهرة بهدف إعادة الأمور إلى نصابها وكما كانت عليه في السابق . غير أن فكرة إرسال السفير إلى القاهرة طرحها مجلس الشيوخ جانباً وأتخذ القرار بإرسال سكرتير رفيع المستوى Ducal Secretary لتذليل كافة الصعوبات وعرض كافة التنازلات التي يرضي بها التجار . وقد اختير المدعو الفيز ساغادينو Alvise Sagadino للاضطلاع بهذه المهمة ، غير أنه توفي أثناء المباحثات في القاهرة فغّض النظر عن الترتيبات التي اقترحها(٥٧) .

ـ سفارة الأمير تغري بردي الترجمان إلى البندقية :

ولم يكن للسلطان قانصو الغوري أية مصلحة في إطالة حالة الركود هذه التي عادت بالضرر الشديد على مداخيله ولذلك فقد أخذ زمام المبادرة وبعث سفارة إلى البندقية وأختار كبير التراجمة تغري بردي ، أمير أربعين ، للاضطلاع بهذه المهمة(٥٨) .

المصادر العربية لم تعط كثيراً من التفاصيل حول سفارة تغري بردي . فقد ذكر ابن أياس أنه في ذي القعدة سنة ٩١١/ نيسان ١٥٠٦ سافر تغري بردي الترجمان إلى بلاد الفرنج حاملاً معه رسالة من بطرك الإسكندرية ، بعدما تزايدت هجمات الفرنج على السواحل الإسلامية وأخذوا أموال التجار .

« وفيه سافر تغري بردي الترجمان إلى نحو بلاد الفرنج وأخذ معه كتاب

---

(٥٧) Thenaud, Op. Cit., p. L.

(٥٨) Thenaud, Ibid., p. L1 ;

دراج . أ، المصدر السابق ، ص ١٤٠ .

البترك ، وكان قد تزايد تعبث الفرنج بالسواحل وأخذ أموال التجار »(٥٩) .

وأضاف ابن أياس أنـه في جمادى الأول سنـة ٩١٣/ أيلول ١٥٠٧ عاد تغري بردي الترجمان من سفره إلى بلاد الفرنج بعد أن أمضى سنتين هناك وقد كافأه السلطان وثبته في وظيفته :

« وفيه حضر تغري بردي الترجمان ، وكان توجه إلى بلاد الفرنج وأقام بها نحواً من سنتين ، فلما حضر أخلع عليه السلطان واقره على وظيفته »(٦٠) .

وهناك أضواء أخرى يلقيها ابن أياس حول مظهر واحد من طبيعة مهمـة تغري بردي المتعددة الجوانب إلى جنوبي أوروبا ، فقد ذكر أنه في رجب سنة ٩١٥/ تشـرين الأول ١٥٠٩ فرض السلطان على طـائفة المغـاربـة مبلغ اثنين وثـلاثين ألف دينار وسبب ذلـك أن تغري بـردي الترجمـان اضطر في جـزيرة رودوس إلى دفع مبلغ خمسين ألف دينار إلى فرسان القـديس يوحنـا من أجل الإفراج عن الأسرى المسلمين المغاربة . ولما أطلق سراحهم أراد السلطان أن يسترجع ما دفعه من طائفتهم في القاهرة والإسكندرية :

« وفيه أفرد السلطان على طائفة المغاربة اثنين وثـلاثين ألف دينار وكـان سبب ذلك أن تغري بردي الترجمان لما توجه إلى بلاد الفرنج اشترى من ملوك الأفرنج عـدة أسرى من مغـاربة بنحـو خمسين ألف دينار ، فلمـا خلصوا أراد

---

(٥٩) ابن أياس ، بدائع الزهور ، جزء ٤ ، ص ٩١.
البطرك المذكـور هو فخـر بن الصافي ، وورد أسمـه في بدائـع الزهـور لابن أياس ، جزء ٣، ص ٧٩ والرسالة التي حملها منه تغري بردي هي عبارة عن كتاب توصية إلى زعيم Grand Master فـرسـان القـديس يـوحنـا في رودوس من بـطرك اليعـاقبـة في الإسكندرية .

(٦٠) ابن أياس ، المصدر نفسه ، جزء ٤ ، ص ١٢٠ .

السلطان أن يوزع ما غرمه من المال على طائفة المغاربة التي بمصر وبالإسكندرية في نظير ما غرمه »[٦١] .

غير أن المصدر الرئيسي لسفارة تغري بردي إلى البندقية (٩١٢ - ٩١٣/ ١٥٠٦ - ١٥٠٧) هو مارينو سانوتو Marino Sanuto في مذكراته المشهورة أي دياري I Diarii وقد تأكد ما ورد لدى سانوتو بما كتبه جيرو لامو بريولي[٦٢] Girolamo Priuli في مذكراته (Diaries) وبما وجد في سجلات مجلس الشيوخ البندقي ولكن بصورة مشتتة ، وبما تبرزه النسخة الأصلية للاتفاقية المعقودة بين تغري بردي وحكومة البندقية .

أبحر تغري بردي من الإسكندرية في شهر ذي القعدة سنة ٩١١/ نيسان ١٥٠٦ على متن مركب بندقي بأمرة فرنشسكو باسكواليغو Francesco Pasqualigo[٦٣] وكان معه الفيز دا بيارو Alvise da Piero أمين سر السفير ساغادينو الذي توفي بالقاهرة ، وحاشية من عشرين شخصاً من بينهم أربعة خاصكية ، وإثنان من الجمدارية وقاضيان[٦٤] .

---

(٦١) ابن أياس ، المصدر نفسه ، جزء ٤ ، ص ١٦٤ .

(٦٢) نشر فولين Fulin عدة مقاطع منها في الوثائق البندقية .

Archivio Veneto, II, 1873, pp. 175 - 213, XXII, 1881, pp. 137 - 248.

- Wansbrough. J., A. Mamlùk. Ambassador To Venice in 913 H/ 1507, in Bulletin of the School of Oriental and African Studies, vol. XXVI, 1963, pp. 513 - 514.

(٦٣) ابن أياس ، بدائع الزهور، جزء ٤ ، ص ٩١.

Sanuto. M., I Diarii, VI, pp. 354, 356;
Priuli. G., Diarii, II, pp. 421 - 422, 425 - 429 ;
Wansbrough. J., BSOAS, XXVI, 1963, p. 514.

(٦٤) انظر بريولي، المصدر السابق ، Priuli G., Op. Cit., vol II, pp. 421 - 2, 425, 429.

= Sanuto. M., Diarii, vol. VI, p. 421.

المحطة الأولى كانت في قبرص في السادس من آيار حيث طلب السفير تغري بردي إذن المرور Safe - Conduct إلى رودوس فحصل عليه من زعيم فرسان الاسبتارية Hospitallers ، فتابع طريقه إلى رودوس على متن نفس المركب فعقد هناك إتفاقاً منع بموجبه القيام بغارات جديدة على السواحل المصرية والسورية من قبل مراكب تابعة لهيئة الفرسان . كما اغتنم فرصة وجوده في رودوس لدفع فدية عدد من الأسرى المسلمين المغاربة ويقال إن فدية تحرير الأسرى المغاربة هناك قد بلغت خمسين ألف دينار(٦٥) .

ومن رودوس تابعت المركب طريقها دون توقف(٦٦) إلى البندقية فوصلتها في السابع عشر من أيلول سنة ١٥٠٦ وكان في استقبال البعثة في الليدو Lido وفد باثواب قرمزية Scarlet robes كان أكثر أعضائه من التجار أصحاب المصالح في الإسكندرية ودمشق .

وبالرغم من أن سانوتو لم يسهب في وصف الموفد وبالرغم من قوله إن حكومة البندقية لم تكن على متن مركب الدولة الرسمي (بوشنتورو Bucintoro) للترحيب بوصوله ، وبالرغم من تذمره من أن نفقات هذه السفارة

= استناداً لسانوتو كان هناك قاضيان في حاشية تغري بردي وقد بدا أن اسم الأول هو حمزة بن محمد عبد الحميد الجيوشي النعيمي الأزهري ، وان اسم الثاني هو أحمد عبد (الله) الحنفي .

(٦٥) ابن أياس، المصدر السابق، جزء ٤ ، ص ١٦٣ .
لحظ سانوتو أن السلطان الغوري استكثر ان يكون تغري بردي قد دفع مثل هذه الفدية الكبيرة والمح أن عشرة آلاف أو خمسة عشر ألف دينار هي جدّ كافية ،
انظر : Sanuto. M., Diarii, VII, p. 612.

(٦٦) استناداً إلى بريولي ، (Priuli, Diarii, II, p. 429)
جرت محاولة من قبل القراصنة الصقليين لإمساك المركب وخطف تغري بردي ، لكن هذه المحاولة أحبطت من قبل البنادقة الذين كانوا حريصين على سلامة الموفد المملوكي ولذلك فقد أصدروا بلاغاً عاماً اعلنوا بموجبه ضمانة سلامته أثناء الطريق .

الباهظة تتحملها الجمهورية ، فإن تغري بردي بدا محاطاً بكل مظاهر الحفاوة والترحيب في البندقية(٦٧) .

وأثناء إقامته في البندقية التي امتدت لفترة عشرة أشهر كان في خدمته وصحبته ثلاثة مرافقين (Provedadori) : الفيز دا مولان Alvice da Molin ، الفيز أريموندو Alvise Arimondo وبيارو بالبي Piero Balbi ، وكانت مهمة هؤلاء متابعة المباحثات مع الموفد بالإضافة إلى الاهتمام برفاهيته وراحته وقد شمل هذا الاهتمام ترتيبات متنوعة كإقامة حفلة عشاء بحضور ماركو ماليبيرو Marco Malipiero حاكم جزيرة قبرص ، اعقبها حضور حفلة موسيقية في كنيسة سانتا ماريا ديللي فرجيني Santa Maria Delle virgini في السابع والعشرين من أيلول ، وحفلة زواج في كاناني CaNani في سان تروفازو San Trovaso في الرابع من تشرين الأوّل ، وحفلة استقبال أقامها المجلس الأعلى البندقي Gran Consiglio في الخامس والعشرين من تشرين الأوّل وحفلة استقبال على صعيد الدولة الرسمي في السان فيدو San Vido بتاريخ ١١ تشرين الثاني ، وجولة تبضع Shopping في الريالتو Rialto الشهير بتاريخ ٢٣ كانون الأوّل وحفلة استقبال أقامها دوج البندقية ليوناردو لوردان بحضور أعضاء الحكومة بتاريخ ٤ شباط ١٥٠٧(٦٨) .

---

(٦٧) Sanuto. M, Diarii, VI, pp. 419 - 420; Priuli G., Diarii, II, p. 422.

لحظ بريولي أنه لشرف عظيم أن تستقبل البندقية موفداً من قبل حاكم غظيم كسلطان المماليك . والواقع أن تكاليف هذه السفارة دفعت من قبل الصندوق المشترك Cotimi لتجار الإسكندرية وبمعدل ١٥٠ ـ ٢٥٠ دوكات كل شهر . انظر .

ASV, Senato, deliberazioni secrete, XL, fol. 185;
Priuli . G., Diarii, II, 422.
Wansbrough. J., BSOAS, XXVI, 1963, p. 515.

(٦٨) Sanuto. M. Diarii, VI, P. 542.
Wansbrough. J., BSOAS, XXVI. 1963, p. 515.

وكـان تغري بـردي يتيح للبنـادقة بـالتمتع بمشهـد مشـوق عنـدمـا كـان يصطحب معه لتلك النشاطات الاجتماعية والرسمية عدداً من أفراد حاشيته وهم باللباس الكامل في ترتيب عسكري :

(' Con la solita pompa, fancendo ander tutti li mori a hordine ')(٦٩).

وفي مناسبة واحدة حصلت بعض المضايقة للسفير استنـاداً إلى سانـوتو عندما تظاهر بعض العامة (Jotoni) في محلة الجيودكا Giudecca أمام منزله هناك(٧٠) .

أما على صعيد المباحثات ، فبعد ثلاثة أيام من وصوله إلى البندقية دعي تغري بردي لحضور أول مقابلة له مع دوج البندقية حيث قدم له ، بعـد تبادل عبارات الترحيب باللاتينية ، رسالتين من السلطان باللغة العربية ودون هدايا كما يبدو(٧١) .

المباحثات لم تبدأ قبل الانتهاء من ترجمة الرسالتين . وهاتان الوثيقتـان

---

(٦٩) Sanuto. M., Diarii, VII, p.24.
Wansbrough. J., BSOAS XXVI, 1963, pp. 515 - 516.

(٧٠) Sanuto. M., Diarii, VII, p. 24.
حصلت المظاهرة في الثالث من آذار سنة ١٥٠٧ وقد قدم تغري بردي احتجاجاً رسمياً إلى الدوج .

(٧١) انظر سانـوتو Sanuto. M., Diarii, VI, pp. 424 - 425. الـذي أدرج الرسـالتين في الجزء السابق من مذكراته ص ٢٠٣ - ٢٠٧ وص ٢٠٧ - ٢١٠ .
إن قـدوم سفارة ما بدون هدايا لهو أمر غير مألوف كما لحظ ذلك بريـولي Priuli في مذكراته (Diarii, II, p. 385) عندما تحدث عن سفارة ساغادينو إلى القاهرة فقال إن هذا السكرتير قد أرسل بدون هدايا وهذا أمر لم يعهد به منذ سنوات عديدة :

« Et queto secretario fu mandato senza prexenti, che molti anni fa none stato uxitato a questo modo ».

ويبدو أن السلطان لم يرسل هدايا إلى دوج البندقية مع تغري بردي متبعاً مبدأ المعاملة بالمثل والله أعلم .

هما محفوظتان فقط في ترجمتهما إلى الإيطالية وهما منسوختان وموجودتان في مذكرات «Diaries» سانوتو وهاتان النسختان هما متشابهتان من حيث المضمون إلّا أن اختلافات في نسق الكلام والعبارات تشير إلى وجود رسالتين .

الأولى مؤرخة بتاريخ ' 4 marzo 911 ' (٤ آذار ١٥٠٦) وتشير إلى مبعوث بندقي إلى القاهرة يعتقد أنه الفيز ساغادينو دون ذكر اسمه وإلى النقاط التالية ، وهو أن سعر الفلفل قد ارتفع لأن تكاليفه قد ارتفعت وأن على المراكب البندقية أن لا تغادر الإسكندرية مهما تكن الظروف دون الحصول على الترخيص الرسمي وانه في إحدى المرات لم تسلم المؤن إلى البنادقة على متن مراكبهم بسبب تفشي الطاعون على اليابسة وأن عمليات البيع والشراء التي تمّت بصورة قانونية لا يمكن الرجوع عنها . وأن السلطان أيضاً قد اعطى أوامره لكتابة مراسيم جديدة (Commandamenti) تخص تجارة البنادقة في الإسكندرية . أما الرسالة الثانية فهي مماثلة من حيث المعنى للرسالة الأولى ولكنها غير مؤرخة . وفي كلتي الرسالتين لم ترد أية توصية بالسفير تغري بردي حتى إن اسمه لم يذكر كما أن عبارات السلام التقليدية لم تظهر في أي مكان(٧٢) .

وبعد أربعة أيام استدعي السفير لعقد جلسة سرية مع الدوج فتكلم معه بالإيطالية وبعد ذلك اسندت المفاوضات إلى ثلاثة من نظّار الصندوق المشترك Provedatori di Cotimo(٧٣) . وفي الخامس والعشرين من تشرين الأول

---

(٧٢) Wansbourgh. Op. Cit., p. 516.

إن غياب بعض العبارات والمقاطع التقليدية والمفترض وجودها في تلك الوثيقتين يشير إلى إمكانية حذفها من قبل الترجمان البندقي أو إلى عدم اهتمام سانوتوحين نسخهما في مذكراته .

ومع ذلك لا يوجد أي تفسير، كما يبدو، لإهمال ذكر اسم الموقد تغري بردي .

(٧٣) Sanuto. M., Diarii, VI, p. 436.

الجلسة السرية حصلت بتاريخ ٣ تشرين أول سنة ١٥٠٨ .

ـ الصندوق المشترك (Cotimo)

أعطي أحد هؤلاء النظّار ، الفس أريموندو Alvice Arimondo صورة عن تقدم المفاوضات التي ذكر أنها تعثرت بسبب عدم صلاحية السفير في الموافقة على بعض مطالب البنادقة وأهمها إصرارهم على مقايضة فلفل السلطان بالنحاس(٧٤) .

وبناء على ذلك فقد تقرر في مجلس الشيوخ كتابة لائحة بالمطالب ترسل ضمن رسالة مغلقة إلى السلطان مع المدعو فرنشسكو دا مونتي Francesco da Monte يرافقه خاصكي من حاشية تغري بردي(٧٥) .

وقد بدا واضحاً من جواب السلطان إلى حكومة البندقية Signoria المؤرخ بتاريخ آذار ١٥٠٧ (1 Marzo 912 - 1507) ، إن السلطان قد أجرى تعديلات عديدة على لائحة المطالب وأنه يرى الحاجة ليس إلى فصول جديدة وإنما إلى تطبيق القوانين التقليدية التي ترعى تجارة البنادقة في بنادر السلطنة

من اللاتينية كوتينوس (Quotinus) :
وهي ضريبة تفرضها البندقية على كافة البضائع العائدة للتجار البنادقة أو الأجانب التي تسلمها السلطات البندقية في المرافيء الأجنبية . واستطراداً عنت هذه الكلمة صندوق الأموال القنصلي في تلك المرافيء . والصندوق المشترك العام Cotimo كان يديره في البندقية الحكماء الخمسة في التجارة Cinque Savi alla Mercautia والذين كانوا يرسلون كل سنة لجنة من النظّار أو المراقبين Provedatori للتدقيق في السجلات . انظر :

- Wansbourgh. J., Op. Cit., p. 516.

(٧٤) - Sanuto. M., Diarii, VI, p. 458.

أوحت الأحداث اللاحقة أن حرص وتحفظ تغري بردي قد دّلا على نبوغه ولم يكونا حيلة أراد بها كسب الوقت أو اغتنام أية مائدة .

(٧٥) Sanuto. M., Diarii, VI, pp. 458, 476, 496;
ASV, Senato, Deliberationi Secrete, XL, fol. 193;
Libri Commenorali, XIX, fole. 92 - 3 (regesti, XIX, Nos. 125, 126); Wansbrough. J. Op. Cit., p.517.

وأعلن أنه قد أصدر أوامره لتطبيق القوانين التي كان يعمل بها ، كما أنه قد وجد الفصول المقترحة من قبل الحكومة هي مخالفة للعادة المتبعة ، محجفة وهي بوضوح من نسج الخبث البندقي[٧٦] .

وقد عاد كل من فرنشسكو دا مونتي والخاصكي إلى البندقية بتاريخ ١٩ آيار سنة ١٥٠٧ حاملين إلى حكومة الجمهورية هذا الرد غير المعهود وقد دامت فترة غيابهما مدة خمسة أشهر[٧٧] .

وخلال عشرة أيام توصل تغري بردي ونظّار الصندوق المشترك Prove-datori di Cotimo يساعدهم دونا مارزيللو Dona Marzello وبنوتو غبريال Be-neto Gabriel ، إلى اتفاق ، وفي الواحد والثلاثين من أيار مثل تغري بردي أمام حكومة البندقية Signoria لإبرام المعاهدة الرسمي[٧٨] .

وأنه لمن الصعب أن نعرف كيف جعلت عودة دا مونتي الظروف أكثر ملاءمة لسير المفاوضات أو أن نرى كيف أن تغري بردي قد منح المزيد من الصلاحيات لتمثيل السلطان . ومع أن طلب البنادقة تسديد ثمن فلفلهم مقايضة بالنحاس لم يرد في رسالة السلطان ، إلّا أنه يظهر في الاتفاقية وفي الفصل الأول[٧٩] .

---

(٧٦) Sanuto. M., Diarii, VII, pp. 215 - 220 ;
Wansbrough. J., Op. Cit., p. 516.

النص باللغة العربية لجواب السلطان غير موجود ويشك كثيراً أن يكون السلطان الغوري قد نعت البنادقة بالخبث .

(٧٧) Sanuto, M., Diarii, VI, pp. 496, 5 //; Wansbrough. J., Op. Cit., p.517.

كان الوفد قد غادر البندقية إلى القاهرة بتاريخ ٢١ تشرين الثاني سنة ١٥٠٦ .

(٧٨) Sanuto. M., Diarii, VII, pp. 85 - 6 ;
Wansbourgh. J., Op. Cit., p. 517.

(٧٩) في الفصل الأول من الاتفاقية هناك إشارة إلى رسالة شفوية أعطيت للخاصكي الذي =

وهذا يحملنا على الأعتقاد إما أن يكون دا مونتي قد حمل معه موافقة شفهية من السلطان وإما أن يكون المفاوضون البنادقة قد عمدوا وببساطة إلى كتابة نص الاتفاقية وكما تمّنوا أن يفعلوا . ولذلك جاءت فصول الإتفاقية على غير جاري العادة بتاتاً وسجلت انتصاراً للبنادقة في كل نقطة من نقاطها .

ولما كانت هذه الفصول قد أبرمت ووقعت من قبل تغري بردي فليس بالإمكان وصفه ، من هذا الواقع فقط ، بالمعادي للجمهورية كما كان يعرف عنه . بل على العكس ظهر السلطان وكأن سفيره لم يراع مصالح سيده كما يجب !

وكان المهم بالنسبة للسلطان أن يحصل على المبالغ المتوجبة له من قبل التجار البنادقة ، أما بالنسبة للبندقية فكانت سفارة تغري بردي تعني لها فرصة إعادة كتابة القوانين الجارية والتي تضبط تجارتها في مختلف الأراضي الخاضعة لنفوذ السلطان .

وفي مختلف الوثائق العائدة لتلك السفارة لم يرد أي ذكر للتهديد البرتغالي لتجارة التوابل ولا إلى جهود البنادقة المعروفة لحث السلطان على مواجهة هذا التهديد[٨٠] .

ذهب إلى القاهرة برفقة فرنشسكو دا مونتي . وقد جاء في هذا الفصل أن النحاس الذي يجلبه البنادقة إلى الاسكندرية سوف يقبله جناب السلطان المعظم بسعر أعلى من سعر السوق بسبب ما لحق بتجار البنادقة من اضرار ، وأن ينزل (النحاس) إلى السوق بسعر أعلى من سعر الجاري كما وعد السلطان عدة مرات بكلمات فمه الخاصكي الذي كان قد أرسل وفرنشسكو دا مونتي لجعلهم يقبلون به .

« Come esso Signor soldan ha promesso de sua bocha piu fiate al chaschi Mandoto et a Francesco da Monte farli tuor,...» .

(٨٠) انظر : Heyd. W., Histoire du Commerce du Levant, vol. II, pp. 520 - 524; Fulin, II Canale di Suez e la Repubblica di Venezia, Archivio Veneto, II, 1873, pp. 175 - 213 .

ومع أن الإتفاقية قد وقّعت وصدّقت بتاريخ ٣١ أيار ، إلا أن تغري بردي وحاشيته لم يغادروا البندقية حتى السادس والعشرين من تموز ١٥٠٧ ممّا أتاح لهم البقاء هناك لمدة شهرين إضافيين لا نعرف ما جرى خلالهما . ولدى ذهاب البعثة إلى مقر الحكومة الكولاجيو Collegio للاستئذان بالسفر ، منحت الخلع (رداءات شريفة) وأوكبت حتى الساحة العامة[٨١] (Piazza) على وقع أنغام موسيقى الفرقة الرسمية (Ducal band) وقد أبحرت البعثة على متن واحد من شواني الخط (Galee del Trafego) بأمرة لوكا لوردان Luca Loredan ، وبرفقة قنصل الإسكندرية المنتخب مارين دا مولان Marin da Molin .

وقد وصلت البعثة الإسكندرية في التاسع من أيلول ١٥٠٧ حيث أقام نائبها أستقبالاً حافلاً لتغري بردي قبل أن يتوجه إلى القاهرة في الثامن والعشرين من أيلول حيث أقام له السلطان حفلة استقبال أكثر حفاوة وترحيباً[٨٢] .

Fulin, Cirolamo Priuli e i suoi diarii : I Portughesi nell' India e i Veneziani in Egitto' , Archivio Veneto XXII, 1881, pp. 137 - 248.

إن السفارات السابقة والتي قام بها بنوتو سانوتو Beneto Sanuto (١٥٠٢) والراهب سان برناردينو Fr. Mauro Da s. Bernardino (١٥٠٤) والموفد الفيز ساغادينو Alvise Sagundino (١٥٠٥) ، كان لديها كلها تعليمات أشير فيها إلى البرتغاليين .

انظر : Wansgrough. J., Op. Cit., p.518.

(٨١) Sanuto. M., Diarii, VII, pp. 121 - 2.

كان رداء تغري بردي مطرزاً بالذهب وعليه الفراء وادعى سانوتو أن كلفته كانت ٣٠٠ دوكات ، في حين أعطي الخاصيكان أثواباً من المخمل الأخضر كما أعطي ثمانية من الحاشية عباءات قرمزية (Scarlet) وأعطي لستة آخرين البسة ذات اللون الأخضر .

انظر : Mayer. L., Mamlūk Costume, Geneva, 1952, p. 64; Wansbrough, Op. Cit., p. 518.

(٨٢) =Sanuto. M., Diarii, VII, p. 178, p.182.

إتفاقية السفير تغري بردي الترجمان مع البندقية ٩١٣/١٥٠٧ :

الوثيقة ، مؤرخة بتاريخ ١٨ محرّم ٩١٣ و٣١ أيار ١٥٠٧ ، محفوظة في البندقية في محفوظات الدولة ، بند أعمال دبلوماسية وخاصة ـ مختلف ، تحت رقم ١٥٧٦[٨٣] ، ومنذ سنة ١٩٠٥ أصبحت هذه الوثيقة جزءاً من متحف الوثائق في القاعة الدبلوماسية رجينا مارغريتا (سلسلة رقم ٨٢ ـ بند ١)[٨٤] .

نص الوثيقة يتألف من ٢٤ فصلاً .

الفصول منها من ١ إلى ٢٣ هي قرارات لحكومة البندقية Signoria . أما الفصل ٢٤ فهو قرار يقضي بتنفيذها .

ولا يوجد أي توقيع أو أي شكل من أشكال المصادقة للسلطات البندقية على الوثيقة ولا توجد أية إشارة عن تخصيص نسخة لمبعوث السلطان . وبالنظر إلى إسقاط هاتين النقطتين يجدر بنا التساؤل عما إذا كانت هذه الوثيقة بالفعل هي الاتفاقية الأصلية .

وقد اكتشف في المصادر البندقية نسختان لهذه الوثيقة : الأولى هي نسخة طبق الأصل للوثيقة الأصلية باستثناء الشهادات الثلاثة للمصادقة عليها التي خلت منها[٨٥] ، أما النسخة الثانية فتحوي اختلافات بسيطة إنما متعددة وهي غير مؤرخة وقد سقط منها الفصل ٢٤ بالإضافة إلى خلوها من شهادات

ابن أياس ، بدائع الزهور ، جزء ٤ ، ص ١٢٠ .
ذكر ابن أياس أنه لدى عودة تغري بردي الترجمان من سفره إلى بلاد الفرنج « اخلع عليه السلطان واقرّه على وظيفته » .

(٨٣) Archivio di Stato, Miscellanea di Atti Diplomatici e Privati, No 1576.

(٨٤) Archival Exhibition in the Sala Diplomatica Regina Margherita (serie LXXXII, item 1)

(٨٥) النسخة الأولى موجودة في محفوظات مدينة البندقية :
ASV, Libri Commemorali, XIX, fol. 98 (Regesti, XIX, no. 135).

المصادقة الثلاث[٨٦] . فالوثيقة التي لدينا تتميز عن غيرها بشهادات المصادقة عليها .

الشهادة الأولى كتبها تغري بردي باللغة الإيطالية بخط يده ويبدو أن حكومة البندقية قد أوجبت ذلك لضمان إقرار موفد السلطان بكل ما حوته الاتفاقية.

إن شهادة تغري بردي بالمصادقة على الوثيقة قد جاءت لتؤكد ما ورد في الفصل ٢٤ وهذه الشهادة هي ممهورة بتاريخ ومكان المصادقة . أما سبب المصادقة على الوثيقة باللغة العربية فهو أمر مهم ، لأن تغري بردي كان موفد السلطان والممثل الوحيد لمثل تلك المفاوضات وبالرغم من كون صلاحياته في أخذ القرارات كانت محدودة إلا أن إبرامه للاتفاقية كان كافياً في نظر حكومة البندقية Signoria . ومع ذلك لا نستبعد أن تكون سلطات البندقية قد طلبت المصادقة على الوثيقة باللغة العربية لتثبت أن شهادة تغري بردي بالإيطالية (بالافرنجي) كانت بالفعل من خطه ولتبرز عندما تقضي الضرورة هذا المستند في سواحل السلطنة لتدل على وجود الامتيازات التجارية الجديدة التي منحت للبنادقة . وبذلك لا يمكن للسلطات المملوكية أن تشك في شهادتي القاضيين المسلمين في حال تمنعها عن الإقرار بالإلتزام بما جاء في شهادة تغري بردي بلغة أجنبية . والنصّان العربيان لشهادة المصادقة هما مماثلان إلا أن القاضي أحمد عبد (الله) الحنفي كان أكثر دقة من زميله حمزة بن محمد عبد الحميد الجيوشي النعيمي الأزهري إذ أضاف في شهادته بالفرنجي وهذا هو الاختلاف الوحيد في النصين العربيين .

---

(٨٦) النسخة الثانية موجودة في مذكرات سانوتو :

انظر : Sanuto. M., Diarii, VII, pp. 200 - 4 ;
Wansbourgh, OP. Cit., pp. 518 - 519.

أما ماذا عن النسخة الأصلية للاتفاقية والمخصصة للسلطان . الواقع أن المستند الذي لدينا والمحفوظ في البندقية والذي لا يحمل أية تواقيع للسلطات البندقية يحملنا على الاعتقاد بأن هذا المستند لا يشكل بحد ذاته سوى نصف الاتفاقية .

أما النصف الآخر الذي يشمل على الأرجح المراسم Protocol والفصول الأربع والعشرين معربة وموقعة من مندوبي الحكومة البندقية ، فقد صيغ وصدّق في البندقية قبل أن يحمله معه تغري بردي إلى القاهرة على ما نعتقد .

وهكذا فإن الوثيقة التي لدينا هي جزء من وثائق متبادلة ومؤقتة Ins-trumentum reciprocum ، وهذا شكل معروف من الإتفاقيات حيث تكون الصلاحيات المخولة من الحاكم إلى مبعوثه الدبلوماسي محدودة . وهذا الأمر ينطبق على ظروف تغري بردي في البندقية .

إن قراءة نص الإتفاقية بتمعن توضح سبب وجوب احجام السلطان عن إبرامها(٨٧) ! وهذا يفسر سبب عدم وجود هذا الوثيقة باللغة العربية في المستندات المملوكية لطرحها جانباً من قبل السلطان وبالتالي عدم إصدار المراسيم والمناشير إلى العمال والنواب في البنادر والثغور الإسلامية للتقيد بمضمونها .

---

(٨٧) Wansbrough. J., Op. Cit., p. 520.

النص باللغة العربية

بسم الله الباقي آمين
الواحد والثلاثون من آيار ١٥٠٧ . البندقية.
فصول معقودة ما بين حكومتنا الموقرة .
وسمو الأمير تغري بردي موفد جلالة السلطان

١ ـ أما النحاس الذي نجلبه إلى الإسكندرية لصالح خزانتنا ودفع ما يترتب عليها من ديون فإن جانب السلطان المعظم سيرضى به باسم كافة المشترين وبسعر أعلى من قيمته في السوق بسبب ما عاناه تجارنا الذين سينزلونه إلى السوق عن طريق أشخاص متعددين وبسعر أعلى من الجاري كما وعد جناب السلطان عدّة مرات ومن فمه الخاصكي[(٨٨)] الذي أرسل وفرنشسكو دا مونتي بجعلهم يقبلون ويشترون هذا النحاس وانه قد أوجب على البائعين دفع ما عليهم لخزانتنا . لذا لا من داعي للإفراط بما تمّ الإتفاق عليه في الأساس وتكبيدهم رسوماً إضافية .

(٨٨) الخاصكي بالإيطالية Chaschi ، والخاصكية هم حرس السلطان من نخبة المماليك وكانوا يرسلون في السفارات والمهمات والمراسم الخاصة .
انظر : Ayalon. D'. 'Structure - 1', BSOAS, XV, 2. 1953, pp. 213 - 216.
وكان خاصكية السلطان قانصو الغوري بحدود ٨٠٠ ـ ١٢٠٠ خاصيكا .
Wansbourgh. J., Op. Cit., p. 525.

٢ ـ أن لا تجبر بالتأكيد طائفتنا على شراء أكثر من المائتين وعشرة أحمال من الفلفل التي قبلت بها وبسعر ثمانين دوكات للحمل[٨٩] .

وإذا رغب جناب السلطان المعظم بيعه بسعر أعلى ، فلسنا ملزمين بشرائه بسعر أعلى ولكن إذا أراد بيعه بسعر أعلى فليبعه لمن يرضى بذلك لكن إياً من تجارنا لا يجبر على شرائه .

وإذا لم يعط في المدة ، فنحن غير ملزمين بأخذه ، فيما عدا المائتين والعشرة أحمال فقط وبالسعر المذكور وقدره ثمانون دوكات لتلك المدة عنينا بالشراء لهذه المدة فقط .

٣ ـ وان مراكبنا القاصدة الإسكندرية بعد إتمام مدتها[٩٠] يتوجب عليها سؤال الأذن من نائب الإسكندرية وتبقى من ستة إلى ثمانية أيام بعد المدة فيتمكن تجارنا من دفع ما عليهم وتسليم بضائعهم .

---

(٨٩) الحمل بالإيطالية sporta وهو قياس سعة للتوابل يزن استناداً إلى هايد (Heyd, Commerce, Vol.II, p. 4, 76) ما بين ٧٠٠ و٢٧٠ باوندا بندقياً خفيفاً وقد أحصى وزنه بجولوتي بحدود الـ ٥٣٦ باوندا :

(Pegolotti, Partica della mercatura, ed. Evans, Cambridge. Mass., 1935, pp.71, 74).

أما لوبيز فقد قدره بحوالي ٤٨٠ باوندا.

(Lopez. R., in Cambridge economic history, vol. II, p.341).

انظر : Wansbrough. J., Op. Cit., p. 525 .

(٩٠) المدّة بالإيطالية Muda وهي الفترة التي تقضي فيها الأعمال والحوائج من بيع وشراء عندما تكون المراكب البندقية في المرافيء الأجنبية وتسمى هذه الفترة بالإيطالية زمن القطائع ' Tempo de galie ' .

وقد ذكر هايد

أن كلمة مدّة قد تكون مأخوذة من فعل Mutare الإيطالي بمعنى تبادل ولكن التفسير العربي للمدة بمعنى فترة هو الأصح .

وإذا انقضت الأيام الثمانية ولم يحصلوا على الاذن ، يصبح حراً القبطان في الخروج بتلك المراكب دون التعرض لأي عائق كان .

٤ ـ وان سبائك الفضة والنقود التي يجلبها تجارنا لا يرغمون على دفع المكوس إلا الدوكات الواحد في السبيكة وستة دراهم ظاهرية[٩١]، للدوكات من النقود المعدنية . وان هذه النقود والفضة لا يمكن مصادرتها أبداً لا من قبل الناظر[٩٢] ولا الخواجا[٩٣] ، ولا أي شخص آخر .

وبها يمكن لتجارنا أن يفعلوا ما يحلو لهم ويبيعوها بالسعر المتفق عليه مع من يرغب بالشراء ، على البر كما على متن المراكب والقطائع دون أن يكونوا ملزمين بإخبار أحد .

٥ ـ وان لا تدفع إلا السمسرة[٩٤] ، على أساس سعر مشتري التوابل ، وان لا

---

(٩١) الدراهم الظاهرية بالإيطالية Zoroi نسبة إلى السلطان الملك الظاهر جقمق الذي ضربها سنة ١٤٤٠ وكان وزن الواحد منها ٢,٩٧٥ غراماً . انظر :
ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جزء ٧، ص ١١١ .

(٩٢) الناظر بالإيطالية Nader وهو المفتش من قبل السلطان .

(٩٣) الخواجا بالإيطالية Cosa وهو تاجر السلطان في المماليك ، غير أن كلمة الخواجا في الوثائق البندقية تدل على مندوب السلطان في المفاوضات التجارية عموماً وفي الاتفاقيات التجارية خصوصاً وقد ورد لقب الخواجا Cosa في إتفاقية ١٥١٢/٩١٨ التي نسخها سانوتو في مذكراته : (Sanuto, Diarii, XV, pp. 193 - 208)

(٩٤) السمسرة الإيطالية Sansaria وهي رسوم تدفع للسماسرة .
أما السمسرة الصغرى Sansaria Picola فتعرف بنصف السمسرة وهي المبالغ التي تضاف على الرسوم العادية للسماسرة وقدرها اثنان بالمئة وسبب الإضافة يعود إلى ما يفرضه السلطان عليهم من ضرائب . وما يطلبه البنادقة هنا هو العودة إلى الرسوم العادية أنظر :

EI , Second ed., S. V., dallal ;

Amari, Diplomi, P. LXII, n. 1.

يزاد أي شيء على ما قيد في ديوان القبّان[٩٥] .

ولا لناظر أن يلزم تجارنا بدفع السمسرة على أساس سعر أعلى مما اشتروا التوابل ومما دوّن في ديوان القبان المذكور كذلك السمسرة الصغرى العائدة للسماسرة لا تدفع إلاّ درهمين (مؤيدي)[٩٦] بالمئة على جاري العادة .

ولا يلزموا بدفع أكثر من الدرهمين المذكورين ولا تؤخذ منهم قرطجية[٩٧] لأحد .

ويعطى الدرهمان لصاحب السمسرة ولا لغيره .

٦ ـ أن تعاد وتوضع في حسابنا حوالي الستة آلاف دوكات التي أخذها الناظر من

---

(٩٥) ديوان القبان بالإيطالية Doana del gaban (وهي مأخوذة من اللاتينية كباناً Campana
انظر : Dozy, Supplément)
وديوان القبان هو المكان الذي تحفظ فيه الموازين والمكاييل وحيث تعاين المبيعات والمشتريات وتسجل .
انـظر : Lewis, Notes and documents from the Turkish archives, Jerusalem, 1952, p.41, n. 40 ;
Wansbrough, Op Cit., p. 526, n.7.

(٩٦) مؤيدي : بالإيطالية Maydini وهـو الدرهم الـذي ضربـه السلطان المؤيد شيـخ سنة ١٤١٥ ويحوي ٩٥ ٪ فضة .
(ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جزء ٦، ص ٣٥١، ٣٥٧، ٥٣٧).
وبـالرغم من ضـرب دراهم جديـدة من الفضة فقـد بقي هذا الـدرهم، مع الـدرهم الـظاهري الـذي ضربـه السلطان جقمـق ، في التداول حتى أوائـل القرن السـادس عشر .
انظر : Popper, Egypt and Syria, vol. ii, pp. 56 - 60.

(٩٧) قرطجية بالإيطالية Cortesia
وهي ليست برسوم محددة كالسمسرة ، إنما هي مبالغ إضافية تدفع علاوة على السمسرة . وهي مماثلة للكلمة الفرنسية كورتاج Courtage وهي العمولـة التي يأخذها العميل أو الوسيط في المبادلات التجارية .

تجارنا وبعد أخذها عزل هذا الناظر ولم يرغب من خلفه بإرجاعها .

أمـا الآن فإن الستـة آلاف دوكات المـذكورة تكـون منـاسبـة وتخصم من السمسـرة المذكـورة العائـدة للمراكب التي تـرد الإسكندريـة ، أو تعـطى لتجارنا المذكورين .

٧ ـ إن الفلفل الذي حمل في المدة الأخيرة وكان أربعماية وستين حملاً لا يدفع عنه إلّا دوكات واحـد سمسرة للحمـل على جاري العـادة ، وإذا ما أجبـر تجارنا على دفع أكثر من المعهود فيعاد إليهم ذلـك ويخصم من السمسرة المقبلة .

ولا تعهد أو وعد بدفع علاوة على الدوكات الواحد للحمل مهما يكن ذلك ضئيلاً .

٨ ـ أن تكون سعة السكبة(٩٨) ستة وعشرين رطلاً(٩٩) ونصف كمـا أمر جنـاب السلطان المعظم وعلى جاري العادة .

أما الأربعماية وستون حملاً من الفلفل التي حمّلت في المدة السابقـة إذا وجد أنصاف من السكبات فيها فـإن سعتها بـالنصف كما يبـدو ظاهـراً من وزنها .

٩ ـ وأن تدفع الرسوم التي تؤخذ نقداً على جاري عادتنا القديمة خاصة التحميل في البندر وأن لا تدفع رسوم على التوابل التي تدفع ثمنها نقداً وهي مشتراة واصلة على متن المراكب دون رسوم إضافة إن كان ذلك شتاء أو في زمن القطائع .

وحول النقد بدل النقل يراعي جاري عادتنا القديمة .

---

(٩٨) السكبة بالإيطالية Schiba وهي عبارة عن كيس يختلف وزنه باختلاف محتوياته .
انظر : Popper, Egypt and Syria, II. p. 39 .

(٩٩) الرطل : في مصر أيام المماليك كان الرطل يساوي ٤٥٠ غراماً.

فيدفع عن كل ثماني بالات دوكات شتاء وعن كل أربع بالات دوكات في زمن القطائع ، علاوة على أن فرد[١٠٠] القرفة لا يعتبر إلّا بالـة واحدة ولا بمقدور أحد أن يزيد على ذلك .

١٠ ـ وأن لا ناظر الخاص[١٠١] ولا الناظر ولا آخرون يقدرون خلال العام إجبار تجارنا على اقراضهم أموالاً على حساب السمسرة ولا حتى أخذ ثيابهم ، ولكن فقط في زمن القطائع يدفعون إليهم ما يتوجب عليهم .

١١ ـ وان الثياب المطرزة بالذهب والحرير والثياب الفاخـرة لا يكره أحـد من تجارنا على بيعها بالقوة ولا أيضاً على دفع أي رسم إذا لم تبع وأن يكون حراً في إرجاعها دون عائق من أي كان .

١٢ ـ وأن يتابع ناظر الذخيرة[١٠٢] إقامته في الإسكندرية لإقامة العدل فقط ولا لمصادرة البضائع ولا يقوم بها آخرون عنه .

وأن يكون حراً كل مسلم في نقض سعر التوابل وأية سلعة أخرى . وأن لا يضايق لا من الخواجا ولا من أحد غيره .

ولكن أن يبيع ويشتري كل إنسان دائمـاً من دون إذن الخواجـا وأن تكون مبادلات تجارنا مع المسلمين والمقيدين في ديوان القبان محفوظة تمامـاً دون إخراق من أحد ، وأن يكون تجارنا دائماً أحراراً في البيع والشراء مع

---

(١٠٠) الفرد : بالإيطالية Fardo وهو موازي عند البنادقة للبالة دون تحديد الوزن.
والفرد عند المكاري هو نصف الحمل ، انظر قاموس المنجد ، الطبعة العشرون ، بيروت ١٩٦٠، ص ٥٧٤.

(١٠١) ناظر الخاص : هو مفتش السلطان يكلف بجمع الرسوم والمكوس العائدة لخـزينة السلطان والتي تؤخذ كضرائب على سلع احتكرها السلطان كالفلفل مثلاً .
انظر : Popper, Egypt and Syria, I, pp. 97, 107.

(١٠٢) الذخيرة (السلطانية): وهي مخازن للسلطان توضع فيها التوابـل أو المواد التي احتكرها وتحفظ فيها وغالباً ما عنت الذخيرة السلطانية التوابل والافاويه نفسها .

من يحلو لهم وأن يكون البيع والشراء بحرية للمسلم كما للإفرنجي .

١٣ ـ وأن الفراء من كل الأصناف لا تحجز من قبل أي كان ولا تؤخذ منهم بالقوة ولكن يبيعونها لأي كان وإذا لم تبع يكونوا أحراراً في إرجاعها دون عائق .

١٤ ـ وأن يدفع ثمن القاقم(١٠٣) المأخوذ عنوة من تجارنا دون دفع ثمنه ، ونصف ذلك كان رأس مالهم الذي يتوجب أن يدفع لهم بالعدل والتمام حتى لا يخسروا من رأس مالهم .

١٥ ـ إن التوابل التي يشتريها تجارنا تكون مغربلة(١٠٤) ومكيلة بالضرورة بميزان صحيح وأن يكون تجارنا أحراراً في اختيار المكيّل المسلم الذي يرغبونه . وإن الموازين تبقى في فندق(١٠٥) تجارنا لإعادة وزن البضائع والتوابل ليتحققوا بعدم خداعهم من قبل المكيلين ، علاوة على أن التجار المسلمين لا يمكنهم الاحتفاظ بالغرابيل في فنادقهم إنما يحتفظ بها المقدمون(١٠٦) المنتدبون بعد معاينتها وختمها من قبل قنصلنا . وان

---

(١٠٣) القاقم : بالإيطالية Vari
وهو حيوان جميل الوجه من فصيلة السموريات ، على شكل ابن عرس وأكبر منه ، تصنع من جلوده فراء جيدة غالية الأثمان والمقصود هنا جلد القاقم أو السنجاب الرمادي .
انظر : المنجد ، ص ٦٤٧ ،
انظر : Mayer, Mamlùk Costume, pp. 18, n. 4, 23, 25, 57, 59.

(١٠٤) مغربلة بالإيطالية Garbellate :
والغرابلة هم المغربلون .
انظر : Amari, I Diplomi Arabi, p.198.

(١٠٥) فندق بالإيطالية Fontego مكان نزل وإقامة التجار الأجانب .

(١٠٦) المقدمون ، مفردها المقدم ، ومقدم الخاص هو ناظر الخاص أما مقدمو الغرابلة فهم رؤساؤهم .

التوابل تغـربل في فنـادق مكشوفـة وليس في مخازن مغلقـة كما يقتضي الحال .

وأن معاينة القرنفل تتمّ بشكل صحيح كي لا يخدع أحد ، بإشراف مقدمي الغـرابلة ، فيختم ويودع في صنـدوق مقفل ذي مفتـاحين واحـد بحـوزة قنصلنا والثاني مع ناظر الذخيرة . وبعد إجراء المعاينة الصحيحة من قبل المقدمين لا يمكن للتجار المسلمين التدخل بأية حال .

١٦ ـ وان توابل تجارنا تنقل وتحمّل في أي وقت على متن أي من مراكبنا دون إمكان إعاقتها .

١٧ ـ وان لا تدفع طعمة الفواكهة من أي نوع من أية سلعة أخـرى لأنها تلحق ضرراً كبيراً بتجارنا وليست هي لمصلحة جناب السلطان العظيم .

١٨ ـ وان قناصلنا وتجـارنا بـإمكانهم إنـزال حوائجهم المنـزلية مثـل الثياب ، أدوات المنامة ، الصناديق وخلاف ذلك من حاجياتهم .

وبـالمثل عنـد مغادرتهم يحملّون صنـاديقهم ، أدوات المنامـة ، الثيـاب والهدايا دون دفع أي شيء ودون أخذ أي شيء منها .

وكل سوء استعمال لهذا القرار يعترض عليه .

١٩ ـ وان قناصلنا يبيعون على اليابسة بضائعهم بقيمة ألف دوكات نقداً سنويـاً دون دفـع أية رسـوم وبالمثـل يحق لكل تـاجـر بمـائتي دوكـات سنويـاً لمعيشته .

٢٠ ـ وان جامكية القنـاصل[١٠٧] تـدفع على جـاري العادة مئتي دوكـات نقداً سنوياً كما يظهر من عدة مراسيم وأن يدفع لقنصلنا ما يحق له .

(١٠٧) جامكية بالإيطالية Zemichia وهي ما يدفعه السلطان للقنصل كراتب سنوي .
انظر : El, second ed ., Djamkiyya .

٢١ ـ وان البيع والشراء على متن مراكبنا وقطائعنا يجريان بحرية لأي كـان ولا يمنع ذلك بأية طريقة أو مضايقة .

٢٢ ـ وان مراكبنا لا تؤخذ بالقوة ولا تكرى وكل ضرر يلحق بالمسلمين على متن مراكبنا أو المراكب الأجنبية فإن طائفتنا لا تكون مسؤولة ولا تدان .
وكذلك إذا اشتكى المغاربة المسلمون أو التركمان أو غيرهم من المسلمين من أي أذى لحق بهم في بلدان وأماكن أخرى خارج الإسكندرية لا نكون مسؤولين عن أي أمر ولا تكون بذلك طائفتنا مكرهة على أية إدانة .

٢٣ ـ وأن ترميم فنادقنا المخرّبة هي في عهدة النائب أو الناظر لترميمها وبنائها وفقاً لحاجة إقامة تجارنا وأن مخازن الجمارك تكون مقفلة كما يجب .

٢٤ ـ وأن تراعي كذلك كافة الفصول المدرجة أعلاه على أن لا تخرق في أي وقت ولا في أي جزء منها ، بل تراعي بلا خرق وكذلك إبقاء ومراعاة كافة المراسيم الصادرة عن معاملتنا .

أنا تغري بردي سفير جناب السلطان المعظم أشهد باسم جناب السلطان المعظم أن كافة الفصول المكتوبة أعلاه ستبقى وتراعي كلها وكل ما جاء فيها وحقيقة لذلك كتبت هذا النص بخط يدي في الواحد والثلاثين من آذار ١٥٠٧ في البندقية .

(الجهة اليمنى)
أشهدني عليه الجناب العالي الأميري الكبيري
تغري بردي بن عبد الله الترجمان وأحد الأمراء بالديار
المصرية وقاصد المقام الشريف نصره الله تعالى إلى
صاحب البندقية الدوج الواضع خطه أعلاه
وإنه صدق على صحة ما عين أعلاه بالفصول
بتاريخ ثامن عشر المحرم الحرام سنة ثلاث عشر وتسعمائة

كتبه حمزة بن محمد عبد الحميد الجيوسي النعيمي الأزهري(١٠٨) .

(الجهة اليسرى)

أشهدني عليه الجناب العالي الأميري الكبيري تغري بردي بن عبد الله
الترجمان واحد الأمراء بالديار المصرية وقاصد المقام الشريف نصره الله
تعالى إلى صاحب البندقية الدوج الواضع خطه أعلاه بالفرنجي وانه
صدق على صحة ما عين بالفصول بتاريخ ثامن عشر محرم
الحرام سنة ثلاث عشر تسعماية كتبه أحمد عبد الحنفي(١٠٨) . / / نص / /

---

(١٠٨) كتبت الأسماء دون تنقيط .

(١٠٨) كتبت الأسماء دون تنقيط .

النص باللغة الإيطالية

In nomine dei eterni amen MDVIImo Die 31 Maii. In Venexia. Capitoli conclusi tra la Illustrissima Signoria nostra et el Magnifico Domino Tangreberdi orator del Serenissimo Signor Slodan.

I — Che li Rami faremo condur in Alexandria per satisfaction et pagamento de quanto die dar el cotimo nostro siano facti tuor per el Serenissimo Signor Soldan, a tuti quelli dieno haver, a piu pretio di quel valeno in bazaro per rispecto de li gran danni hano havuti li nostri mercadanti, over quelli far dar in bazaro a diverse persone a piu pretio di quello correno, come esso Signor Soldan ha promesso de sua bocha piu fiate al Chaschi mandato et a Francesco da Monte tarli tuor, et el tracto de essi rami, over li debitori di quelli, siano consignati a cui dovera haver dal cotimo nostro, non correndoli piu usura di quello rimaseno dacordo nel principio deteno li danari.

II - che de cetero non se sia obligati tuor salvo le sporte ducento e diexe piper era consueto tuor la nation al pretio de ducati octanta la sporta. Et sel Serenissimo Signor Soldan non el volesse darlo a tal pretio, non si sia obligati a tuorlo per piu pretio, ma volendolo vender a piu pretio lo vendi cum cui potra romagnir dacordo, non siando mai astreto alcum nostro mercadante a comprarlo. Et se una muda non lo havesse dato, non se sia obligati a tuorlo, salvo le sporte 210 solamente al dicto pretio de ducati 80 per quella muda el sara dado, intendando de quella se fara facende.

III - Che le galie nostre anderano in Alexandria compido havera la sua muda, debino dimandar licentia al signor di Alexandria et star zorni sie in octo dapoi muda, azio li mercadanti nostri possino far li sui pagamenti e consignar le sue merce. Et passati dicti zorni 8 non havendo havuto licentia, sia liberta del Capitaneo levarse cum esse galie, ne li possi esser dato impedimento alcuno.

IV - Che deli arzenti e danari serano conducti per nostri non obligati li mercadanti nostri pagar el drecto, salvo a ducato uno per peza, et de le monede rotoli sie zoroi al ducato, i qual danari et arzenti mai per nader ne coza ne alcun altro li possi esser rętenuti. Et de quelli essi mercadanti nostri possi far quanto li piace, et venderli a quel pretio sarano dacordo cum quelli li vora comprar, si in terra come in galia et nave, non essendo obligati monstrane conto ad alcuno.

V - Chel non habia apagar la sansario salvo per el pretio se compera le specie, et non messe piu niente di quello sera notado ne la doana del gaban, ne alcun nader possi astrenzer li mercadanti nostri a farli pagar la sansaria per stima de mazor pretio de quello haverano comprato le specie, et notado ne la dicta doana del gaban. Item che la sansaria picola tocha a li sanseri non se habia apagar salvo maydini do per cento, come era consueto, ne possi esser astreto apagar piu cossa alcuna de dicti maydini do, ne li possi esser tolto cortesia per alcun. I qual maydini do debia haver el sanser fara la sanseria et non altri .

VI - Chel sia restituido et messo a conto nostro ducati circa siemillia fu tolti per el nader a li mercadanti nostri, et havuti quelli quel nader fu desmesso et el suo successor non li volse scontar. Che al presente per le galie havera andar in Alexandria debino esser facto boni et scontadi ne le dicte sansarie li dicti ducati siemillia o quelli serano a dicit mercadanti.

VII - Chel piper tolto per la ultima muda, che fo sporte quatrocento sexanta non se habia apagar piu de ducato uno per sporta sansaria, come e consucto. Et sel sara sta astreto nostri apagar piu di tal consuetudine, li siano restituidi et scontadi ne le sansarie ha (à) advenir. Et che nesuna charta over promessa di questo oltra il ducato per sporta sia de minor valor.

VIII - Che la tara de le schibe, come ha ordena el Serenissimo Signor Soldan, sia messa a rotoli vintisie e meza per schiba secondo e usanza. De le sporte 460 piper fo tolto la ultima muda, et se sarano sta meze schibe, siano messe la tara per mita, come per el peso de esse benissimo se puol veder.

IX - Chel sia retorna le spexe del trar de le specie secondo le usanze nostre antigue, et maxime el cargar a marina, che non se habia apagar de le specie che se havera a contadi cossa alcuna per comprarse quelle spazade in barcha senza alcuna spexa, si in tempo de invernada come in tempo de galie, Circa le specie de barato chel ne sia observato le nostre usanze antigue, viz. in tempo de la invernada colli octo al ducato rt in tempo de galie colli 4 al ducato; dechiarando che le canelle non se intenda un

fardo salvo che per un collo, ne possi essen messi de piu da persona alcuna.

X - Chel nadracas ne nader ne altri posse fra anno (= l'anno) astrenzer li nostri mercadanti a farsi imprestar danari a conto de sansarie, ne anche tuorli le sue robe, ma solamente nel tempo de le galie facino li sui pagamenti come e el dover.

XI - Che de li panni d'oro et di seda et panni fini, non possi esser astreto alcun di nostri mercadanti a venderli cum alcun forzo ne anche de quelli pagar alcun dreto se non si haverano venduti, et sia in liberta sua di ritornarli indrieto, ne li possi esser impedito per alcuno.

XII - Che continue sia tenuto in Alexandria uno nader del dachieri a far raxon solamente, et chel non se posse impazar de mercadantia, ne che per lui altri la faza. Et chel sia in liberta de cadaun Moro romper pretio di specie et de cadaun altra cossa. Et non possi esser impedito ne da coza ne da alcun altro, ma sempre cadauno possi comprar et vender senza licentia di lor coza. Et che tuti i mercadi farano nostri cum Mori et notadi ne la doana del gaban siano inviolabilmente observadi et non roti per alcun, essendo sempre di mercadantinostri in liberta comprar et vender cum cui li piace, et che el vender et el comprar sia libero si al Moro come al Francho.

XIII - Che de le peleterie di tute sorte non possi retenuto da alcuno ne toltoli per forza, ma quelli possino vender a cadauno, et non si vendendo sia in sua liberta ritornarle indrieto senza impedito.

XIIII - Chel sia facto pagar li vari fo tolti per forza a nostri mercadanti, che li fu pagato. La mita de quello nostri mercadanti, che non li fu pagato. La mita de quello era il suo cavedal che quelli debino esser refati come e justo et conveniente, ita che i non perdino del suo cavedal.

XV - Che li specie comprera i mercadanti nostri siano cum el dover ben garbellate et anche pesate cum stagiere juste, essendo in liberta di nostri mercadanti tuor che pesador Moro li piacera, et che le stagiere tien nostri mercadanti in fontego per repesar merze et specie, per veder non siano inganati da pesadori, ne tal repesar li possi esser devedado da alcun. Similiter che mercadanti Mori non possino tener li garbelli ne li sui fontegi, ma siano tenuti da li machademi deputati et visti et bolladi per il consolo nostro. Et che le specie se habiano a garbellar ne li fontegi discoperti et non in li magazeni coperti, azio tuti habino il suo dover. Et chel sazo di garoffoli azo se habia a far justo et che nesuno sia inganato, che li machademi de li garbelladori habia turor el sazo, et quello esser bollado et posto in uno scrigno nel qual sia do chiave, una habia a tenir el console nostro, l'altera el nader del dachieri. Et poi sia facto el sazo jus-

tamente per li machademi, ne li mercadanti Mori se possi impazar in cossa alcuna.

XVI -Che le specie de nostri mercadanti possino esser trate et cargate in ogni tempo su ogni nostro navilio, ne quelli ne possi esser impedite.

XVII-Cel non se debi pagar tome de frute de niuna sorte ne de niuna altra cossa, per esser de gran danno a mercadanti nostri et de niun bebeficio del Serenissimo Signor Soldan.

XVIII - Che li Consoli et mercadanti nostri possino sempre metter ne la terra le sue robe per suo uso di caxa, come son vestimenti, lecti, capse et altro per el suo bisogno. Et similiter al partir suo trazer possi le sue capse, lecti, vestimenti et presenti senza pagar alcuna cossa, ne di quelle possi esser astreti. Et tute male usanze contra tal ordine siano revocade.

XIX - Che li consoli nostri possino vender ne le terra merze per ducati mille a danari contadi senza pagar cossa alcuna cadaum anno, et similiter cadauno mercadante per ducati 200 per uno al anno per el suo viver.

XX - Che la zemichia de li consoli sia data in danar contadi ducati 200 al anno come e usanza, et appar per molti commandamenti, et sia pagato el consolo nostro de quanto el dovesse haver.

XXI - Chel vender et comprar sopra le galie et nave nostre sia libero a cadauno, no possi esser impedito per alcuna via ne etiam molestadi.

XXII- Chel non possi esser tolti nostri navilii per forza ne nollizadi, et ogni danno seguira a Mori sopra navilli nostri ne etiam forestieri, la nation nostra non sia obligata ne possa haver impazo. Item che se Mori Magrabini o Turcomani o altri mulsomani (sic) se lamentasse de cossa alcuna ne danno li fusse seguido in altri paesi et loci fuor de Alexandria, non se sia obligati a cossa alcuna ne per questo la nation nostra possi esser astreta ne haver impazo alcuno.

XXIII- Che in reparation de li fontegi nostri che ruinano sia commesso al armiraglio over nader, li habiano a far conzar et fabricar secondo che sara bisogno per l'habitatre de nostri mercadanti, si et li magazeni de doana siano coperti come e bisogno.

XXIV- Item che tuti i soprascripti capitoli ne siano observadi, ne per alcun tempo ne possi esser in alcuna parte interopti, ma quelli inviolabilmente observati, et similiter tuti i comandamenti che sono in favor de le raxon nostre ne siano mantenuti et observati.

Io Tengreberdi horator (del) Serenissimo Signor Soldan prometto per nome di Suo Serenissimo Signor Soldan che tuti soprascritti capitoli serano mantenuti et hobservati in tuto e per tuto et perche e la verita fazo questa sotoscritta de la mano propria, a di 31 mazo 1507 in Venexia.

الجهة اليمنى

أشهدني عليه الجناب العالي الأميري الكبيري
تغري بردي بن عبد الله الترجمان وأحد الأمراء بالديار
المصرية وقاصد المقام الشريف نصره الله تعالى إلى
صاحب البندقية الدوج الواضع خطه أعلاه
وإنه صدق على صحة ما عين أعلاه بالفصول
بتاريخ ثامن عشر المحرم الحرام سنة ثلاث عشر وتسعماية
كتبه حمزة بن محمد عبد الحميد الجيوسي النعيمي الأزهري(١٠٨) .

(الجهة اليسرى)

أشهدني عليه الجناب العالي الأميري الكبيري تغري بردي بن عبد الله الترجمان وأحد الأمراء بالديار المصرية وقاصد المقام الشريف نصر الله تعالى إلى صاحب البندقية الدوج الواضع خطه أعلاه بالفرنجي وانه صدق على صحة ما عين أعلاه بالفصول بتاريخ ثامن عشر المحرم الحرام سنة ثلاث عشر تسعماية كتبه أحمد عبد الحنفي(١٠٨) / / نص / /

إن إتفاقية ٩١٣ / ١٥٠٧ هي فـريدة من نـوعها بـاعتبـار أنهـا من بين الاتفاقيات التجارية العشرين التي عقدت مـا بين سلاطين الممـاليك وجمهـورية البندقية كانت الوحيدة التي جرى التفاوض من أجلها ليس كالعادة من فبل سفير البندقية إلى مصر وإنما من قبل مندوب من السلطان إلى البندقية .

وهي تشكل إنتصاراً للبنادقة في كل نقطة من نقاطها .

(١٠٨) كتبت الأسماء دون تنقيط .

وقد سنحت الفرصة للسلطان لنقض هذه الإتفاقية وحتى سحب اعترافه بالسفير الذي وقعها ولكنه في تشرين الثاني سنة١٥٠٧ كتب إلى قبطان المراكب البندقية في الإسكندرية أندريا بونديميه Andrea Bondimier يعلمه أنه قد يبرم الإتفاقية التي أعدها تغرى بردي في البندقية شرط أن تدفع ديون البنادقة إلى خزينة السلطان حتى الأول من آذار سنة ١٥٠٨ . وقد ردد تغري بردي طلب سيدة إلى قسيس قنصلية البندقية الذي أرسل من الإسكندرية إلى القاهرة في كانون الأول من تلك السنة . وبعد أقل من سنة كتب قنصل البنادقة مارين داموﻻن Marin da Molin إلى مجلس الشيوخ يخبره أن الأمر قد سوي بصورة مرضية بفضل جهود تغري بردي[١٠٩] .

أما السنين الأخيرة من خدمة الأمير تغري بردي في بلاط المماليك فقد تأثرت إلى حد بعيد بسفارته إلى البندقية وبقي في مركزه مكرماً من قبل السلطان لعدة سنوات بعد ١٥٠٧ . وقد ثبت ذلك بالرسائل العديدة التي كتبها لسيده إلى دول أوروبية مختلفة .

فإلى جمهورية فلورنسا كتب رسالتين الأولى بتاريخ ٢٨ جمادى الثاني ٩١٣ / ٢٩ تشرين الأول ١٥٠٧ والثانية بتاريخ ١٤ ربيع الأول ٩١٥ / ٢ تموز ١٥٠٩[١١٠] ورسالتين إلى البندقية الأولى في جمادى الأول ٩١٤ / آب ١٥٠٨[١١١] ، والثانية في ٢٥ محّرم ٩١٦ / ٤ آيار ١٥١٠ ، وواحدة إلى

---

(١٠٩) Sanuto, Diarii, vol. VII, pp. 596-7, 603 ;
Wansbrough. J., «a Mamluk Ambassador to Venice in 913- 1507», BSOAS, XXVI, 1963, p. 511.

أصرّ البنادقة على تسديد ديونهم العائدة للفلفل بالنحاس، أما ملاحظة القنصل دا موﻻن بشأن جهود تغري بردي الخيّرة فكانت :

«a datà la Cossa dil piper, lauda Tangvardin, si à ben portato».

(١١٠) Amari, Diplomi, VII, pp. 219, 229.

(١١١) Sanuto, Diarii, VII, p. 602, XI, pp. 115-17.

لويس الثاني عشر ملك فرنسا مؤرخة بتاريخ ١٤ شعبان ٩١٦ / ١٦ تشرين الثاني ١٥١٠[١١٢] .

وكل هذه الرسائل ، باستثناء واحدة منها ، تتعلق بموضوع التجارة في الإسكندرية غير أن ورود فقرة في كتابات «Relazione» قنصل البنادقة المتقاعد في الإسكندرية مارين دا مولان إلى مجلس الشيوخ تشير إلى تردي أحوال تغري بردي فأمسى قليل الشهرة آنذاك في عاصمة المماليك[١١٣] al chajaro tangavardin à pocho reputation ولفهم مدلول ملاحظة دا مولان يجدر بنا معرفة أنه خلال صيف سنة ١٥١٠ وقعت سلسلة من الحوادث أغاظت السلطان وجعلته يفقد ثقته بالحكام الأوروبيين الذين كان قد أجرى معهم إتصالات دبلوماسية طويلة الأمد .

أولى هذه الحوادث أن أسطولاً للمماليك قد أرسل إلى آسيا الصغرى بأمرة الأمير محمد بيك قريب السلطان لجلب الأخشاب ومواد بناء للأسطول مرسلة من السلطان بايزيد الثاني العثماني وقد وقع هذا الأسطول في قبضة زعيم فرسان الاسبتارية في رودوس فاستولى على الأخشاب بعد أن قتل بحارته وأسر منهم من بقي على قيد الحياة وقد تأثر السلطان وتنكد للغاية لمقتل قريبه الأمير محمد بيك ولفقدان المراكب وما عليها من أخشاب[١١٤] .

الحادثة الثانية أن رسلاً للشاه إسماعيل الصفوي قد أوقفوا في طريقهم إلى بعض ملوك الفرنج (البندقية) بالقرب من حلب وهم يحملون إليهم

---

(١١٢) Sanuto, Ibid., XII, pp. 624-30.

(١١٣) Wansbrough, «a Mamluk Ambassador to Venice in 913-1507», BSOAS, XXVI, 1963, p. 511.

(١١٤) ابن اياس ، بدائع الزهور، جزء ٤، ص ١٩٢ .

كتابات يدعوهم فيها إلى القيام بعمليات مشتركة ضد سلطان مصر[١١٥] .

الحادثة الثالثة ، أن ثلاثة من الجواسيس الإفرنج أوقفوا في مكة وهم يرتدون الملابس التركية ، فلما كشف عليهم تبيّن أنهم بلا ختان وأنهم قد أرسلوا من قبل بعض ملوك الفرنج[١١٦] .

إن توقيت هذه الحوادث أعقب فترة الإعتدال التي إنتهجها السلطان الغوري إزاء الدول الأوروبية ولذلك كانت ردة فعله الإنتقامية عنيفة وسريعة ، فقد إستدعى القناصل البنادقة وكثيراً من تجارهم في دمشق والإسكندرية إلى القاهرة واودعوا السجن . كما أن جماعة من رهبان كنيسة القيامة قد جلبوا من القدس وأمروا بالطلب إلى زعيم فرسان الأسبتاريةGrand Master إعادة ما سطا عليه وتقديم الإعتذار . وعند هذا الحد أظهرت كتابات وتقارير البنادقة بالإجماع عداوة تغري بردي للجمهورية . فقد وصف بأنه قد اتهم حكومة الجمهورية بأنها قد أحجمت عن إرسال الهدايا والأسلحة التي إدعى أنها قد وعدته لدى زيارته للبندقية بإرسالها إلى السلطان[١١٧] .

---

(١١٥) ابن اياس، المصدر نفسه، جزء ٤، ص ١٩١ .

في شهر أيار ١٥١١ ، أوقف نائب البيرة وهي مدينة على الفرات، رجلاً من فماغوستا يدعى نيقولين سورية Nicolin Surier قادماً من إيران وبصحبته رجل آخر وهما يحملان رسائل إلى حكومة البندقية وإلى توماسو كونتارين Tommaso Contarin وبياترو زين Pietro Zen ، قنصلي البنادقة في الإسكندرية ودمشق، فأرسلا إلى القاهرة ومعهما المكاتبات التي ضبطت عليهما.

انظر : Thenaud. J., Voyage d'outremer, p.LXIII; Sanuto. M., Diarii, vol. XII, pp. 234-239.

(١١٦) ابن اياس، المصدر نفسه، جزء ٤، ص ١٩١ .

(١١٧) Sanuto, Diarii, XII, p. 210-12, 235, 237, 307-8; Heyd, Histoire du Commerce, vol. II, pp. 536-7.

طرح هايد جانباً الفكرة بأن حكومة الجمهورية قد وعدت تغري بردي بإعطاء السلطان أسلحة . غير أن التنازلات غير العادية التي غنمتها البندقية عن طريق اتفاقية =

كما اتهم ترجمان السلطان بأنه قد دعم وأيد المدعو فيليبو دي باريتز Fili-po de Peretz في جهوده الرامية لاستغلال وضع البنادقة الحرج في القاهرة لمصلحة فرنسا وأراغونا[١١٨] .

ودي باريتز نفسه ، نظراً لرغبته في تمثيل الفرنسيين الذين ينتمي إليهم زعيم الاسبتارية اميري دامبواز Emeryd' Amboise فقد أصبح هو أيضاً في موضع شك في نظر السلطان فأُودع السجن . وما أن سُوّي وضع طائفة البنادقة وطائفة الفرنسيين في القاهرة بعد فترة حتى أَفَلَ نجم تغري بردي فهوى بسرعة وكانت نهايته غير متوقعة ومليئة بالألغاز .

المصادر البندقية نسبت عزل كبير التراجمة إلى تحالفه مع دى باريتز ممّا أثار شكوك السلطان بكونهما يحميان مصالح زعيم الأسبتارية الذي رفض بدافع كرهه وخوفه من تعاون سلطان المماليك وسلطان العثمانيين ، أن يعيد الغنائم التي استولى عليها لدى مهاجمته للأسطول المصري . ولسوء حظ تغري بردي فقد كان قد سلّم مكاتبة من زعيم الأسبتارية إلى السلطان فأُودع السجن مع دي باريتز لأن الملامة وقعت عليهما من جراء ما قام به زعيم الفرسان من أعمال[١١٩] .

ومما يدعو للتساؤل أنه على ضوء ما أشيع عن عداء تغري بردي للجمهورية فإن تقارير البنادقة حول سقوطه السريع من مكانة الحظوة لا تخلو

= ١٥٠٧/٩١٣ قد تكون نتيجة وعود مشابهة كانت قد أعطتها لموفد السلطان .

(١١٨) Sanuto, Diarii, XII, pp. 307-8.

(١١٩) Sanuto, Diarii, XII, pp. 307-8, 625 - 30 ;
Priuli, Diarii, (Archivio Veneto, II, 1873), p. 233.
أورد بريولي ، حسب اعتقاده ، أن السلطان قد خاب أمله من تغري بردي ومن دي =

من الدهشة أزاء غضب السلطان عليه[١٢٠] .

أما عن قصة عزل تغري بردي فللمؤرخ المصري الذي عاصره ابن أياس رواية أخرى فقد ذكر أن السلطان قد قبض على تغري بردي في الحادي عشر من المحرم سنة ٩١٧ / ١٠ نيسان ١٥١١ لمكاتبته بخط يده ملوك الفرنج بأحوال سلطنة المماليك :

«وفي يوم الأربعاء حادي عشره قبض السلطان على تغري بردي الترجمان ووضعه في الحديد ووكّل به ، وأرسل ختم على بيته وأحاط على موجوده ورسّم على عياله ، وسبب ذلك قد بلغ السلطان أن تغري بردي كاتب ملوك الفرنج بأحوال مملكة مصر ، وأن السلطان ليس له همة إلى إرسال تجريدة ، وأن السواحل خالية ليس لها مانع (وقد) أحضروا إلى السلطان مكاتبات بخط تغري بردي بمعنى ذلك ، فأحضر السلطان تغري بردي وأوقفه على تلك المطالعات فأنكر ذلك ، فغضب عليه وشكه في الحديد ووكّل به وأحضر خيوله وقماشه ، واستمر في الترسيم إلى الآن »[١٢١] .

غير أننا نعتقد أن الدافع الحقيقي لعزل تغري بردي واعتقاله هو مقتل الأمير محمد بيك قريب السلطان على يد أميري دامبوز زعيم فرسان الأسبتارية وقد اعتبر كبير التراجمة مسؤولاً بصورة غير مباشرة عن موت الأمير وعن الفشل في استرجاع الأسرى المسلمين والغنائم من رودوس . ولما لم يكن للسلطان

= بيرتز لأنهما قد كذبا عليه بخصوص مكاتبة زعيم الأستبارية .

Thenaud, Le voyage d'Outremer, p. LVI.

(١٢٠) Wansbrough, J., Op. Cit., BSOAS , XXVI , 1963 , p. 512 .

(١٢١) ابن اياس، بدائع الزهور، جزء ٤ ، ص ٢٠٩ .

أي خيار في الثأر لمقتل قريبه ولا في استرجاع ما خسر فقد صب جام غضبه علي ترجمانه وأودعه السجن .

وإذا ما نظرنا إلى السفارات المتتالية (١٥١١) التي بعثت بها كل من فرنسا والبندقية إلى القاهرة وما أحيطت بها تلك السفارات من حفاوة وتكريم وما حظت به من جانب السلطان من امتيازات تجارية عديدة لوجدنا أنه من غير المعقول أن تكون أيا من تلك القوى قد خططت لهجوم على مصر أو سوريا .

أما زعيم الأسبتارية فقد يكون ، نظراً لمخاوفه من تحالف عثماني ـ مملوكي ضده ، قد فكر بمثل هذا المخطط غير أننا نشك أن بإمكان زعيم الاسبتارية ولو كانت شكوكه في محلها ، القدرة على تنفيذ هكذا مخطط بالقوى التي كانت تتوفر لديه .

ويبدو أن البندقية كانت لديها قناعات واضحة أن أبتعاد تغري بردي عن حظوة السلطان لن يدوم طويلاً . لذلك فقد أوصى مجلس الشيوخ البندقي في تعليماته إلى السفير دومنيكو ترفيزانDomenico Trivisan ، الذي أرسل إلى القاهرة في محاولة لرأب الصدع في العلاقات مع السلطان ، أن يحاول وضع كبير التراجمة في مأزق حرج تجاه السلطان عن طريق رسمه بصورة سيئة .

والواقع أن هذه التوصية كانت غير ضرورية لأن السلطان في مقابلة مع تريفزان في شهر حزيران ١٥١٢ قد تحدث وذم كبير التراجمة ونعته بأنه خسيس واتهمه بخيانة مصالحه كما رفض الإعتراف باتفاقية ١٥٠٧[١٢٢] .

وبعد سنة تقريباً أفرج عن تغري بردي مع مجموعة من السجناء أطلق

---

(١٢٢) Thenaud. J., Voyage d'Outrèmer, p. LXXXIII, n. 1;
جاءت ترجمة ما نعت به قانصو الغوري ترجمانه تغري بردي بالإيطالية بـ «Ribaldo» .

سـراحهم بموجب عفـو عام أصـدره السلطان إبتغاء ضمـان تأييـد الجيش لـه ولإظهار العدل بين الناس[١٢٣] .

غيـر أن تغـري بـردي لم يعـد إلى وظيفتـه بـل تسلـم منصبـه الـذي شغـر نائبـه يونس الترجمان وأصله يهـودي من فرونـا Verona اعتنق الإسلام وعمل زردكـاشـا قبل أن يصبح ترجمـان السلطان خلال السفـارات الفرنسيـة والبندقية سنـة ١٥١٢ : « وفيه (محـرم ٩٢٠ / شباط ١٥١٤) أخلع السلطان على شخص من المماليك يقال له يونس وقرره ترجماناً عوضاً عن تغري بردي الترجمان ، وكانت وظيفته شاغرة من حين تغير خاطر السلطان على تغري بردي كما تقدم ذكر ذلك ، وكان يونس هذا قبل ذلك من جملة الـزردكاشية ثم بقي نائب الترجمان ثم بقي ترجماناً كما كان تغري بردي »[١٢٤] .

وبـالرغم من غيـاب تغري بـردي عن المفاوضـات التي أدت إلى إبرام الإتفاقية التجارية المعروفة بإتفاقية ٩١٨ / ١٥١٢[١٢٥]ما بين البندقية وسلطنـة المماليك ، إلّا أن طيف تغري بردي كان ماثلاً دائماً أثناء المناقشات الدائرة ما بين الطرفين .

---

(١٢٣) افرج عن تغري بـردي من سجن العرقـانة التي بـالحوش السلطاني في يـوم الأحد التاسع والعشرين من ربيع الآخر سنة ٩١٩/ الثلاثاء الخامس من تموز ١٥١٣ .
انظر : ابن اياس، المصدر نفسه، جزء ٤ ، ص ٣١٤ .

(١٢٤) ابن اياس، المصدر نفسه، جزء ٤ ، ص ٣٦١ .

(١٢٥) Heyd, Commerce, vol. II, pp. 542-3, n. 1.
هنـاك نص لهذه الاتفـاقية غيـر مصحح وغيـر كامـل لـدى مـارين Marin جـزء ٧، ص ٢٨٨ ـ ٣٢١ وقد وردت إشارات متعددة إلى سفارة تغري بردي إلى البندقية في الفصـول الأولى من الاتفاقيـة على سبيل المثـال: «منـذ مجيء تغـري بـردي حتى الآن ،».

«dal venir de Tangribardi fino al presente »..

والواقع أن الإتفاقية التي عقدها مع حكومة البندقية سنة ١٥٠٧ دعّمت إلى حد كبير موقف البنادقة أثناء المفاوضات ، فجاء كل من فصول إتفاقية ١٥١٢ الطويلة والتي شملت كافة المرافيء والاهراءات في مصر وسوريا ، نتيجة لمناقشة متجاذبة ما بين فريقين كانا ينظران إلى بعضهما البعض نظرة الند للند ، وهكذا لم تحافظ تلك الفصول على شكلها التقليدي الذي كان بمثابة عطاء من طرف واحد ، من حاكم مترفع إلى سائل متواضع(١٢٦) .

ـ سفارة دومنيكو ترفيزان Domenico Trevisan إلى القاهرة :

من أجل إعادة تسوية العلاقات المتردية ما بين سلطنة المماليك والبندقية ، اختار مجلس الشيوخ البندقي في جلسته المنعقدة بتاريخ ١١ تشرين الثاني سنة ١٥١١ دومنيكو ترفيزان وكلفه بالتوجه إلى القاهرة وإجراء مفاوضات بهدف إعادة العلاقات التجارية وتوطيد الصداقة مع السلطات المملوكية . وكان عليه أيضاً الحصول على موافقة السلطان بهدف إعادة الرهبان اللاتين إلى أديرتهم وصوامعهم في فلسطين وتأمين حماية الحجاج المسافرين إلى الأراضي المقدسة(١٢٧) .

---

(١٢٦) Wansbrough. J., Op. Cit., p. 513.

إن نص اتفاقية ١٥١٢/٩١٨ موجودة في أطروحة الكاتب ونسبروغ التي قدمها في تشرين الأول سنة ١٩٦١ لنيل شهادة الدكتوراه في جامعة لندن وعنوانها :

« Documents for the history of commercial relations between Egypt and Venice 1442 - 1512 » .

والاتفاقية هي واحدة من ست اتفاقيات تجارية ما بين المماليك والبندقية أدرجها وحلّلها الكاتب في أطروحته وهي :

اتفاقية ١٤٤٢/٨٤٦ ، اتفاقية ١٤٦١/٨٦٥ ، اتفاقية ١٤٩٠/٨٩٥ ، اتفاقية ١٥٠٤/٩٠٩ ، اتفاقية ١٥٠٧/٩١٣ واتفاقية ١٥١٢/٩١٨ .

(١٢٧) قلائل هم رجال الدولة البنادقة الذين تميزوا بحياة حافلة بالنشاطات كدومنيكو ترفيزان . فقد أرسل سنة ١٤٨٥ بمهمة دبلوماسية إلى جون غالياس ماري سفورزا =

كانت مهمة ترفيزان صعبة وحساسة وملؤها التحدي نظراً لوجود مبعوث خاص للويس الثاني عشر ملك فرنسا في القاهرة يدعى أندريه لورواle André Roy .

وقد أفاد التجار البنادقة حكومتهم (Segnoria) إن السلطان قانصو الغوري كان ينتظر بفارغ الصبر مقابلة هذا المبعوث إذ تناهى إلى مسامعه أن

= Jean Galeas Marie Sforza ، ثم إلى قداسة البابا أنوسنت الثامن ، وفي سنة ١٤٩١ ذهب إلى اسطمبول كسفير لدى السلطان بايزيد. وفي سنة ١٤٩٥ أرسل إلى فلورنسا لتقديم تهاني الجمهورية إلى شارل الثامن. وفي سنة ١٤٩٧ أرسل بمهمة لدى فرديناند ملك اسبانيا، وفي سنة ١٥٠٠ أرسل إلى فرنسا لتهنئة لويس الثاني عشر بمناسبة احتلاله نابولي.

وفي سنة ١٥٠١ عين محافظاً (Podesta) لبادوا Padua وفي سنة ١٥٠٣ أرسل في سفارة لمقابلة البابا جول الثاني Jules II ، وفي سنة ١٥٠٥ ذهب ترفيزان إلى مخيم الملك لويس الثاني عشر الذي قدم إلى إيطاليا لاسترجاع مدينة جنوى . وفي سنة ١٥٠٩ كلّف بإجراء مفاوضات مع البابا جول الثاني بهدف إقناعه بتوقيع الصلح مع الجمهورية . وفي سنة ١٥١٢ أرسل إلى مصر لمقابلة السلطان والتفاوض معه. وفي السنة التالية هنأ باسم دوج البندقية البابا الجديد بمناسبة ارتقائه سدة الصرح البابوي.

وفي سنة ١٥١٤ اختير، بالإضافة إلى كونه عضواً في مجلس الحكماء، مفتشاً للجيش وكلّف بمهمة تقريب وجهات النظر المتعارضة التي استفحلت بين القادة البنادقة وبنفس السنة غادر إلى فرنسا كسفير للجمهورية.

وفي سنة ١٥٢١ اختير أميرالاً عاماً للأسطول البندقي (Generalissimo of the sea) ، وأرسل مع الأسطول إلى كانديا المهددة من قبل العثمانيين الذين كانوا على وشك محاصرة رودوس.

كان ترفيزان رجلاً على درجة عالية من الثقافة وعاش حياة طويلة مفعمة بالأحداث وتوفي في ٢٩ كانون الأول سنة ١٥٣٦ ، وقبره موجود في كنيسة سان فرنشسكو ديلا فينيا San Francesco della Vigna.

انظر Thenaud. J., Le Voyage d'Outremer, Paris, 1884, p. LXV .

ملك فرنسا هو أقوى ملوك النصارى ولذلك عقد السلطان أمانيه على أن مساعي لويس الثاني عشر قد تؤدي إلى الإقرار بطلباته لدى زعيم الأسبتارية في رودوس وبالتالي إلى اسرجاع المراكب وتحرير الرهائن .

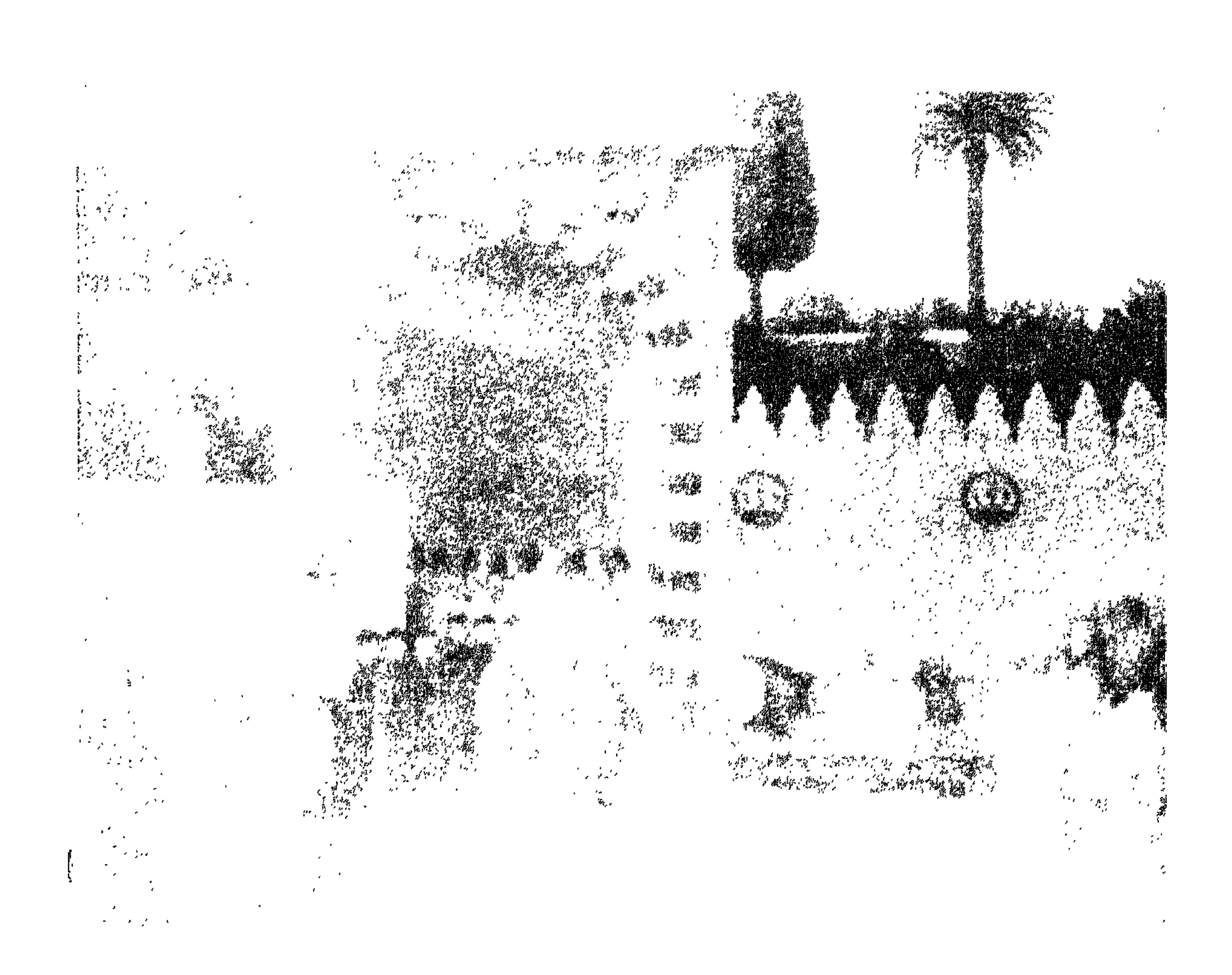
وكان السلطان على قناعة أيضاً من أن مجلس الشيوخ والقناصل البنادقة يخدمون مصالح الشاه إسماعيل الصفوي وان حكومة الجمهورية ترغب في التملص من دفع ما يتوجب عليها من أتاوى عن جزيرة قبرص . وفي الواقع كانت الظروف صعبة للغاية بالنسبة لسفير البندقية وأيضاً بالنسبة لسفير لويس الثاني عشر .

وكان التحفظ الذي أبداه ترفيزان تجاه زعيم الاسبتارية خلال إقامته في رودوس عنصراً مساعداً لمعرفة مدى ضآلة النجاح الذي لقيه أندريه لوروا في مداخلاته كما أظهر أيضاً مدى حرص مبعوث البندقية على تجنب كل ما من شأنه أن يثير حساسية السلطان .

كانت سفارة ترفيزان إلى السلطان الغوري تتألف من عشرين شخصية رسمية منها السفير ترفيزان نفسه والسيد دميتراشي دارتا Demitrachi d'Arta الذي استلم لعدّة مرات أمرة الوحدات البحرية للبندقية والمرشد السيد زوان دي كاندي Zuan de Candie وكلاهما من البحارة البارعين والرجال أصحاب الجدارة بالإضافة إلى السيد زكريا باجاني Zaccaria Pagani كاتب يوميات وقائع الرحلة(١٢٨) .

خصص للسفير مبلغ ثلاثمائة دوكات كراتب وأعطي مسبقاً مكافأة قدرها ألف دوكات . وغادرت السفارة البندقية في الثالث والعشرين من كانون الثاني ١٥١٢ إلى جزيرة بوفيا POVEIA القريبة لتستقل مركب قيادة Galère

(١٢٨) Thenaud. J., Le voyage d'Outremer de Jean Thenaud, suivi de la relation de l'Ambassade de Domenico Trevisan auprès du Soudan d'Egypte - 1512 - Publié et annoté par CH. SCHEFER, Paris, 1984.



سفارة دومنيكو ترفيزان إلى القاهرة ١٥١٢

يبدو السلطان قانصو الغوري جالساً على المصطبة وعلى رأسه العمامة المقرّنة وأمامه السفير لبندقي ترفيزان واقفاً ووراءه أفراد حاشيته وقد بدا إلى يمين السفير الأمير يونس الترجمان.

bastarde[١٢٩] يليق بمقام السفير بأمرة الربان العظيم السيد نادالينو كونتاريني Sir Nadalino Contarini وفي يوم الإثنين السادس والعشرين من كانون الثاني ١٥١٢ أقلعت سفينة السفير قاصدة شرقي المتوسط في يوم شديد الرياح .

وأثناء توقف البعثة في مدينة زارا Zara في مقاطعة دلماسيا في الثالث من شباط دخل المرفأ مركبان شراعيان (Galères) قادمان من بيروت وهما محملان حمولة كاملة وقد أمضيا احد عشر شهراً في رحلتهما . وفي بادرة لطيفة ترجل قائد المركبين السيد اندريا كونتريني Andrea Contarini فقام بزيارة سعادة السفير[١٣٠] .

في السادس والعشرين من شباط وصلت السفارة إلى جزيرة كورفو Corfou اليونانية حيث التقت في المرفأ ثلاث مراكب Galères محملة ، قادمة من الإسكندرية في طريقها إلى البندقية بعد غياب دام ثلاثة عشر شهراً بسبب سوء المعاملة التي تلقوها من قبل السلطان .

وفي الرابع والعشرين من آذار دخل مركب السفير إلى مرفأ كاندي في جزيرة كريت وسط موجة عارمة من الابتهاج وطلقات المدافع للترحيب باعتبار أن كريت هي جزيرة من محميات البندقية .

وفي السادس من نيسان غادرت السفارة كريت في جو عاصف باتجاه الإسكندرية التي تبعد عن كريت حوالي أربعمائة ميل .

وفي العاشر من نيسان مساء ألقى المركب مراسيه على بعد ٥ أميال من

---

(١٢٩) أعطى (M. Jul) في قاموسه Glossaire nautique مواصفات مراكب القيادة الشراعية galères bastardes . وكانت مراكب البندقية من هذا النوع ذات طول حوالي مئة وخمسين قدماً وكانت مخصصة لأمراء البحر وقادة الأساطيل والشخصيات الكبيرة وهي تتحرك بالشراع أو بالمجذاف .

(١٣٠) المصدر السابق ص ١٥١ . Thenaud. J., Op. Cit., p.151 .

شاطىء الإسكندرية حيث أرسل السفير رسوله ليعلم نائب القنصل البندقي في الإسكندرية عن قدومه حتى يخبر هذا بدوره السلطات المملوكية في الإسكندرية والقنصل البندقي المقيم في القاهرة .

وبإنتظار وصول ترخيص المرور Sauf - Conduit للسفير انتقل المركب إلى خليج أبو قير ، ١٨ ميلاً شرقي الإسكندرية لقضاء بضعة أيام . ولما وصل ترخيص المرور إلى السفير من خدا بردي الأشرفي نائب الإسكندرية وفيه يقول بكثير من الحفاوة والترحيب إنه يرغب كثيراً في رؤية وصول السفير العظيم ، عاد المركب إلى الإسكندرية في السادس عشر من نيسان مساء حيث أمضى السفير ليله على متن سفينته وفي صباح السبت السابع عشر من نيسان نزل إلى البر حيث إستقبله نائب الإسكندرية والدوادار . فقدم السفير للنائب رسالة اعتماده (Lettre de Créance) مرسلة من قبل حاكم البندقية ففتحها النائب وقرأها سكرتير السفير وشرحها الترجمان (Drogman) وبعد تبادل كلمات الصداقة غادر السفير إلى القصر الجميل المخصص له .

وفي اليوم التالي أرسل النائب للسفير هدية قوامها عشرة خراف وخنزيران وعشرة أزواج من الدجاج وكثير من سلال الخبز والخضار والفاكهة . بالمقابل أرسل السفير لنائب الإسكندرية هدية قيّمة شملت قطعاً من القماش المذهب والأطلس المتعدد الألوان وغيره من القطع الفاخرة بالإضافة إلى ست قطع كبيرة من الجبن الطيب Fromages de Plaisance .

وفي التاسع عشر من نيسان إنتقل السفير إلى قصر النائب لاستلام رسالة كان قد وجهها إليه السلطان . الدوادار الكبير قرأ الرسالة وترجمها الترجمان وقد طلب إلى السفير أن يظل واقفاً إجلالاً لكتاب السلطان ولما أعطى النائب الرسالة للسفير رفعها هذا إلى شفتيه وقبّلها ثم أخذ يده وقبلّها ثم وضعها على جبينه حسب عادة أهل البلاد ثم تقدم السفير من النائب وأخذ يده وقبّلها واستأذن ثم انصرف .

في الثامن والعشرين من نيسان توجهت السفارة إلى القاهرة عن طريق رشيد وعبر النيل وبحماية عدّة من المماليك السلطانية .

ومساء السادس من أيار وصلت البعثة إلى بولاق ميناء القاهرة ، فأمضت الليل على متن العوامات التي قدمت عليها بناء لمشورة ترجمان السلطان الذي جاء وزار السفير ففرح بقدومه كون هذا الترجمان ويدعى يونس هو أصلاً من فرونا وهي من أعمال البندقية وقد حلّ محل الأمير تغري بردي الترجمان الذي اعتبرته السلطات البندقية معادياً لمصالحها والذي سجنه السلطان نظراً لمراسلته للفرنج(١٣١) .

وفي الصباح اليوم التالي باكراً انتقل السفير مع حاشيته بموكب فخم إلى القصر العظيم المخصص له في القاهرة يرافقه مهمندار السلطان الأمير أزدمر وعدد كبير من المماليك السلطانية والأعيان ، وتبعهم حوالي العشرين من الشخصيات والتجار البنادقة الذين كانوا في المدينة والذين كانوا قد ألقوا سابقاً في السجون أو وضعوا في الحديد .

وغداة وصوله تلقى السفير هدية من السلطان تحوي المؤن التالية :
أربعة وأربعين رغيفاً بالسكر .

---

(١٣١) المصدر السابق، ص ١٨٠ Thenaud. J.. Op. Cit., p. 180.
ـ الواقع أن يونس لدى زيارته السفير البندقي للقاهرة كان نائباً للترجمان (٦ أيار ١٥١٢) وبقي بهذا المنصب حتى شهر محرم ٩٢٠ هـ/ أذار ١٥١٤ حيث عيّنه السلطان ترجماناً أصيلاً :
« وفيه (السادس عشر من محرم ٩٢٠) أخلع السلطان على شخص من المماليك يقال له يونس وقرره ترجماناً عوضاً عن تغري بردي الترجمان، وكانت هذه الوظيفة شاغرة من حين تغير خاطر السلطان على تغري بردي كما تقدم ذكر ذلك ، وكان يونس هذا قبل ذلك من جملة الزردكاشية ثم بقي نائب الترجمان ثم بقي ترجماناً كما كان تغري بردي» .
ـ ابن اياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج ٤ ـ ص ٣٦١.

خمس جرار من عسل الهند .
جرتين من الزبدة الطيبة .
أربعين خروفاً .
خمسين زوجاً من الدجاج .
عشرين وزة .
كيسين من الأرز .

وفي يوم الاثنين العاشر من أيار كانت المقابلة الأولى للسفير ففي الصباح قدم المهمندار والترجمان ورافقا السفير الذي ركب على حصانه وهو في أبهى حلّة وذهب للمثول أمام السلطان مع حاشيته . وكان للسفير موكب حافل خلال مروره في المدينة وحتى وصوله إلى القلعة حيث ترجل وتقدم من نائب القلعة الذي إستقبله بحفاوة وأخذه إلى السلطان وسط قرع الطبول وعزف الزمور وصوت طلقات المدافع .

كان السلطان يجلس على مصطبة عالية في نهاية ردهة كبيرة ومكشوفة وعلى رأسه عمامة كبيرة لها قرنان كبيران وكان يرتدي البعلبكي الأبيض وعليه عباءة من المخمل الشديد الإخضرار وكان جالساً وعلى يمينه سيفه وترسه اللذان لا يفارقانه أبداً وبالقرب منه وعلى اليمين كان يقف الأمراء بلباسهم البعلبكي الأبيض أيضاً وكثير من رجالات الدولة والقادة .

لدى دخول السفير القاعة ورؤيته السلطان خلع عمامته من المخمل ، إنحنى وبعد أن لمس الأرض بيده رفعها إلى شفتيه وجبينه دلالة على الإحترام الذي يبديه أزاء السلطان العظيم . ثم أعاد الكرة والحاشية معه مرتين حتى وقف أمام السلطان وعلى مسافة عشرين خطوة منه وهذه المساحة مغطاة بالسجاد ولا يسمح بالمشي عليها . وبحركة مماثلة سحب السفير من وسطه رسالة حاكم البندقية (Doge) ، مكتوبة على ورق بنفسجي ومختومة بختم

ذهبي ومربوطة بخيطان ذات شراشيب ذهبية والكتابة كانت مخطوطة بحروف من ذهب .

قبل السفير الرسالة وحملها إلى جبينه واعطاها إلى المهمندار الأكبر الذي حملها إلى السلطان الذي فتحها وأمر بقراءتها ولما سمع محتواها طلب إلى المهمندار السؤال عن صحة دوج البندقية وطلب أن يقال للسفير إنه على الرحب والسعة وكلمات ترحيب أخرى ، فرد السفير باحترام بالغ ونطق بالاجابة المعطاة له ثم تراجع أربع خطوات وانحنى انحناءة طويلة وانصرف وكان السفير قبل المقابلة قد أرسل للسلطان هدية ثمينة شملت الأمور التالية :

ثمانية أثواب من قماش الذهب ، متعددة الألوان .

أربعة عشر ثوباً من المخمل .

ستة وعشرين ثوباً حرير أطلس .

ثوبين من الدمسق الفاخر .

خمسين ثوباً من الحرير المذهب .

خمسين ثوباً من الجوخ .

مئة وعشرين من الفراء الأبيض السيبيري (Zibelines) .

أربعة آلاف وخمسماية قطعة من الفراء الصغير المرقط Menu vair .

أربعمائة قطعة من فراء النمس الأبيض Hermines .

خمسين قطعة كبيرة من الجبن الفاخر Fromages de Plaissnce[١٣٢] .

ابن أياس من جهته ذكر سفارة ترفيزان إلى القاهرة فوصف موكب السفير وأشار إلى الغاية من هذة الزيارة فقال :

«وفي يوم الاثنين ثالث عشرينه (صفر ٩١٨ هـ/ ١٠ أيار ١٥١٢) فيه حضر إلى الأبواب الشريفة قاصد ملك الفرنج البنادقة ، فكان له يوم مشهود ، وأوكب

---

(١٣٢) المصدر السابق، ١٨٧ Thenaud. J., Op. Cit., p. 187

السلطان في ذلك اليوم وزين باب الزردخاناه باللبوس والسلاح ! ثم طلع القاصد وصحبته تقدمة حافلة نحو من مائة حمال ما بين أواني بلور وجوخ ومخمل وأثواب مخمل وتماسيح وشقق وحرير أطلس وغير ذلك أشياء حافلة، فطلع القاصد وهو راكب على فرس وقدامه سبعة أنفس من أخصائه وهم راكبون على خيول والباقي مشاة ، فكانوا نحواً من خمسين إنساناً من جماعة القاصد الذين جاؤوا صحبته ، وكان القاصد رجلاً شيخاً بذقن بيضاء وهو جسيم وعليه وقار ، وكان لابساً جرّ ذهب على حرير أصفر فطلعوا إلى القلعة وقابلوا السلطان ثم نزلوا إلى مكان عدّ له ، وأشاعوا أن قاصد ملك الفرنج قد جاء يسعى عند السلطان في فتح القيامة التي بالقدس الشريف وكان السلطان أغلق بابها ومنع الإفرنج من الدخول إليها بسبب ما تقدم منهم »(١٣٣) .

بعد أن عرضت الهدايا على السلطان أمر بأن يقال للسفير عن لسانه إن الهدايا هي جميلة وأنه مسرور بها ولكنه كان سعيداً أكثر بوجود السفير كونه رجلاً رصيناً وملؤه النضوج وهو ليس أبداً كهؤلاء الشباب خفيفي العقول عادة(١٣٤) .

المقابلة الثانية تمّت في الثاني عشر من أيار في الميدان الكبير حيث تجري تمارين الفروسية فوقف السفير أمام السلطان بعد أن نزع عمامته وحملها بين يديه ولم يحضر المقابلة سوى أمين سرّ السفير وترجمانه والمهمندار وترجمان السلطان . بعد المقابلة أرسل السفير كثيراً من الهدايا الثمينة إلى خوند زوجة السلطان وإلى الدوادار الكبير وإلى نائب القاهرة وإلى المهمندار .

المقابلة الثالثة تمّت في العشرين من آيار في الميدان وكان السلطان يجلس بالقرب من حائط القلعة على مصطبة صغيرة وهو مرتدي البعلبكي

---

(١٣٣) ابن اياس، بدائع الزهور، ج ٤ ص ٢٥٩ Thenaud. J., Op. Cit., p. 189

(١٣٤) Thenaud. J., Voyage d'Outremer, p. 189.

الأبيض وعلى رأسه العمامة ذات القرون . وقف السفير على أربعة خطوات من السلطان وكان برفقته قنصل البندقية في الإسكندرية وعشرة وجهاء من التجار.

تحدث السفير إلى السلطان بصوت مرتفع عبر الترجمان وتطرق إلى المواضيع الهامة التي جاء من أجلها . وخلال المقابلة حضر بيتروزين Pietro Zen قنصل البندقية في دمشق وكان متهماً بالتواطؤ على السلطان وقيل إنه تلقى رسائل من الصوفي وكاتبه وأوفد الرسل للعمل ضد مصالح السلطان . وجرت المناقشة بين السلطان وبين السفير لمعرفة عما إذا كانت أعمال القنصل قد حدثت بمعرفة أو عدم معرفة السلطات العليا في البندقية . أكد السفير أن شيئاً من هذا لم يحدث وان سلطات بلاده هي على غير علم بمثل هذه الأعمال وأنها سوف تعاقب القنصل على أفعاله. وتصديقاً لذلك تقدم السفير ووضع بأم يديه سلاسل الحديد في رقبة قنصل دمشق الذي اقتيد بعد انتهاء المقابلة سيراً على الأقدام إلى منزل السفير والاغلال في عنقه . أن بادرة السفير كانت لإرضاء السلطان وعدم إثارة غضبه خاصة وأنه قد ترددت إشاعات في القاهرة مفادها أن مبعوثاً للصوفي قد زار البندقية منذ ثلاث سنوات وطلب منها مدافع وخبراء لاستخدامهم ضد السلطان(١٣٥) .

وفي الأول من حزيران ١٥١٢ أذن للسفير بمقابلة أخرى مع السلطان . كانت المقابلة سرية ، وتمّت في مكان آخر غير الميدان .

المقابلة الخامسة تمّت في الثلاثين من حزيران في مكان معزول من القلعة وهو عبارة عن غرفة مذهبة حيث كان يجلس السلطان على أريكة مدورة من المخمل القرمزي . دامت المقابلة ساعة وسمح للسفير بالانسحاب بعد أن نال جواباً إيجابياً لمطاليبه(١٣٦) .

---

(١٣٥) المصدر السابق، ص ١٩٣، ١٩٧ — Thenaud. J., Op. Cit., pp. 193,197

(١٣٦) المصدر نفسه، ص ٢٠٤ — Thenaud. J., Ibid., p. 204

المقابلة السادسة تمت في الخامس والعشرين من تموز داخل القلعة وفي مكان جميل وسط بستان صغير ودامت حوالي الساعتين انصرف بعدها السفير بعد أن قبّل يد السلطان .

المقابلة السابعة والأخيرة تمّت في السادس والعشرين من تموز في الميدان وحضر السفير بصحبة قنصل القاهرة وقنصل الإسكندرية ووجه السفير بعض العبارات شاكراً للسلطان وطالباً منه الإذن بالمغادرة فأنعم عليه السلطان بخلعه من المخمل القرمزي المحلى بفراء النمس الأبيض .

كما أنعم السلطان على قنصل الإسكندرية وعلى السيد مارك أنطونيو ابن السفير بخلعة مماثلة وعلى سكرتير السفير وترجمانه بخلعه أقل جودة ، من الحرير الأبيض والأسود . ولما لبس الجميع خلعهم وقفوا أمام السلطان فأذن للسفير بالعودة إلى بلاده(١٣٧) .

ابن أياس من جهته أشار مرة ثانية إلى زيارة السفير ترفيزان للسلطان حين تحدث عن كثرة القصاد لدى الغوري إذ بلّغ عددهم أربعة عشر قاصداً خلال شهر ربيع الآخر٩١٨ / تموز ١٥١٢ فقال :

«ومن العجائب أن في هذا الشهر إجتمع عند السلطان نحو من أربعة عشر قاصداً وكل قاصد من عند ملك على انفراده ، فمن ذلك قاصد شاه إسماعيل الصوفي ، وقاصد ابن رمضان أمير التركمان ، وقاصد من عند ابن عثمان ملك الروم ، وقاصد يوسف بن الصوفي خليل أمير التركمان ، وقاصد صاحب تونس ملك الغرب ، وقاصد من مكة ، وقاصد الملك محمود ، وقاصد ابن دُرْغُل أمير التركمان ، وقاصد من عند نائب حلب ، وقاصد من عند حسين الذي توجه إلى الهند ، وقاصد ملك الفرنج الفرانسة ، وقاصد البنادقة ، وقاصد علي دولات ، وغير ذلك قصّاد من عند جماعة من النواب »(١٣٨) .

---

(١٣٧) المصدر نفسه، ص ٢٠٦ Thenaud.J., Ibid.,p. 206.

(١٣٨) ابن اياس، بدائع الزهور، ج ٤، ص ٢٦٨ ـ ٢٦٩ .

وفي الثاني من آب غادر السفير البندقي مع حاشيته القاهرة إلى دمياط . فوصلها في السابع وفي التاسع منه انتقل إلى متن سفينته التي كانت بانتظاره أمام مصب النيل وعلى بعد ٦ أميال من دمياط حيث أقلع مباشرة باتجاه جزيرة قبرص فوصلها في الحادي عشر من آب . ثم أبحر إلى رودوس ودخل مرفأها في الثالث والعشرين من آب ولكنه لم يقابل صاحبها زعيم الاسبتارية (Le Grand Maître) بالرغم من محاولته الاجتماع بالسفير الذي لم يغادر سفينته .

وفي مساء نفس اليوم الثالث والعشرين من آب ترك السفير رودوس إلى كريت فوصل مرفأ كانديا في الثالث من أيلول وغادرها في العشرين منه بعد إجراء بعض الصيانة في المركب . وفي الرابع من أيلول وصل إلى زنتا Zanta في اليونان حيث التقى بالقرب منها بالسفينتين الذاهبتين إلى بيروت فنزل قائدهما القبطان جيرالامو كابللو Giralamo Capello للسلام على السفير . وفي السادس والعشرين وصل السفير إلى جزيرة كورفو حيث غادرها في الثامن والعشرين إلى دوراتزو Durazzo ومنها إلى زارا Zara ومنها في التاسع من تشرين الأول إلى البندقية التي حال هبوب الرياح المعاكسة دون الوصول إليها قبل الثالث والعشرين من تشرين الأول سنة ١٥١٢ . وقد حصل للسفير إستقبال حافل لعلع فيه صوت المدافع ودقّت له الطبول وعزفت الزمور[١٣٩] .

لقد نجح السفير ترفيزان في تذليل كافة الصعوبات خاصة تلك الناجمة عن الطباع الحادة للسلطان الذي هاله التقارب ما بين الصفويين أعدائه والبندقية ولكن السفير تمكن بلباقته من تبديد مخاوف السلطان وتمكن من تحقيق مكاسب وامتيازات جديدة للبندقية وقد ساعده في ذلك المنحى الجديد لسياسة البندقية في علاقاتها مع السلطنة المملوكية والنكسة العسكرية التي أصابت فرنسا في إيطاليا . وفي تموز ١٥١٢ تسلّم السفير البندقي من أمانة سرّ السلطان

(١٣٩) المصدر السابق، ص ٢٢٦ — Thenaud.J.,Op. Cit., p.226.

بنود وأحكام ما عرف باتفاقية ١٥١٢ وهي في غالبيتها تعتبر في مصلحة البندقية وهي شبيهة إلى حد كبير ببنود إتفاقية١٥٠٧ التي عقدها الأمير تغري بردي .

وقد أمنت اتفاقية ١٥١٢ حتى الفتح العثماني مصالح وامتيازات البندقية في مصر . وبالإضافة إلى بنود الاتفاقية التي حصل عليها فقد طلب السفير السماح للحجاج الاتين بزيارة كنيسة القيامة والإذن لرهبان الأرض المقدسة بالعودة إلى أديرتهم وصوامعهم التي طردوا منها . وكان السلطان قانصو الغوري قد رفض هذا الطلب للمبعوث الفرنسي أندريه لوروا André le Roy ولكنه أجاب طلب السفير البندقي ونعته بأحلى الصفات وطلب إليه أن يحتفظ بالقنصل بياتروزين كعبد لديه كما سمح لهذا القنصل بالذهاب إلى دمشق لأخذ أمتعته من القنصلية وتدبير أموره قبل مغادرته البلاد برفقة السفير . وفي متحف اللوفر في باريس هناك لوحة زيتية موضوعة في ردهة لويس الرابع عشر وقد نسبت على أنها من أعمال الفنان جانتل بلليني Gentile Bellini وتمثل استقبال السلطان محمد الثاني العثماني لسفير بندقي واللوحة حصل عليها في البندقية رفائيل دوفران Raphaël Dufresne وجلبها إلى فرنسا .

وكل ما يظهر في هذه اللوحة من شكل الفن المعماري وهيئة المآذن وصور الدروع المرسومة على الجدران ، وأشجار النخيل والأزياء وعمامة السلطان وعمائم الوجهاء كل ذلك يشير ويؤكد دون أي مجال للشك أن هذه اللوحة الموجودة في متحف اللوفر والتي تحمل الرقم ٦٠ في (كاتالوج) مصنف ـ المدرسة الإيطالية تمثل سفير البندقية ترفيزان في مقابلة لدى السلطان قانصو الغوري وإلى يساره الدوادار والأمير الكبير ، بينما الترجمان الأمير يونس يقف أمام السلطان وإلى يمين السفير[١٤٠] .

---

(١٤٠) المصدر نفسه Thenaud. J., Ibid., p. 87. p. L. XXXVII ;
— Notice des tableaux exposés dans les galeries du Musée national du Louvre, par le vicomte de TAUZIA. Paris, 1877, page 56.

وقبـل التطرق إلى نص اتفاقية ١٥١٢لا بـدّ من ذكر التعليمـات المعطاة للسفير تريفزان للعمل بموجبها لدى مقابلته للسلطان الغوري وهـذة التعليمات ترتدي طابعاً كبيراً من الأهمية لذلك وجدنا من المفيد أدراج نصها .

٣٠ كانون الأول ١٥١١

تعليمات معطاة إلى دومنيكو ترفيزان سفير جمهورية البندقية لدى سلطان مصر .

نحن ليـونـاردس لاوردانس Leonardus Lauredanus بعـون الله دوج البندقية نأمرك ونعينك مندوباً عنا أيها الشريف دومنيكو ترفيـزان ، فارس سـان مارك العظيم من مجلس الشيوخ إلى السيد السلطان المعظم ، وباسم الـروح القدس عليك أن تركب السفينة المخصصة لك بقيادة القبطان نادلينو كونتاريني Nadalino Contarini وأن تثابـر على الإبحار كما هو مطلوب حتى تصل إلى جـزيرة كـريت حيث ربما تجـد ترخيص المـرور(Salvo Conducto)إلى بلاد السلطان في إنتـظارك منـذ عـدّة أيـام لتـأمين دخـولـك إلى الإسكنـدريـة والقاهرة . وإذا كان الترخيص المذكور لم يصل بعد فلا تنتظره في كـريت بل تابع سيرك لأنك قد تستلمه في الطريق . وفي حال عدم إستلامه تابع سفرك إلى مينـاء أبي قير ، ثم أرسـل أحد أتبـاعك إلى الإسكنـدريـة لتحصـل على هـذا التـرخيص ، فإذا حصلت عليـه ، أدخل المـدينة وقـدم أوراق إعتمادك لنـائب الإسكندرية واستخدم معه عبارات لبقة ومقبولة وأعطه الهدية خاصته حتى يعرف تقديرنا لشخصه ، ثم قمّ بـزيارة السـادة الآخرين والأعيـان الذين تـرى أن من الواجب زيارتهم .

سافر من الإسكندرية إلى بـلاط سمو السلطان في القـاهرة بـأية طـريق وبمواكبة أية حاشية ، حسب التقاليد المرعية ، تعطى لك .

وحين يتقرر لك يوم التشريف بمقابلة السلطان ، تذهب رسمياً في موكب ضخم يليق بـك وتقدم أوراق اعتمـادك المرسلة من قبلنـا ، وتحييه وتمتـدحه

بكلمات عذبة وطيبة بإسم جمهوريتنا ، وتهنئه بتمام صحته وبرخاء وعـزّة بلاده وذلك بكل ما أوتيت من لباقة ومودة ممكنه ، وأرسل له الهدايا المخصصة إلى المكان المعين وفي الوقت المحدد باحتفال فخم وذي وقار يحضـره مواطنـونا وتجارنا وأننا لمتأكدون أنك بفضيلتك وهمتك سوف تعرف كيف تقـوم بذلـك جيداً .

لا تبحث أي موضوع في المقـابلة العامـة الأولى وعليك قبـل أن تغادر المكان أن تحدد مع حاشية السلطان مقابلة ثانية مع سموه لغـرض ما سنمليـه عليك فيما يلي . ولكن حاول جاهداً في المقابلة الأولى وبـالمهارة المـطلوبة منك أن تجعل السلطان يرتاح لنا وخاصة حاشيته أثناء هذه المقابلة العلنية .

وما لا تستطيع التحدث فيه بتوسيع أجلّه لوقت آخر . ثم أطلب السماح بزيارة عظمة السلطانـة ، بعد مـوافقة السلطان ، وأعـطها الهـدايا المخصصـة لها ، ثم تزور النواب والأمراء وتعطي كلاً منهم ما أرسل له من هدايا .

وفي مقابلتك الثانية مع السلطان ، بعد عرض التحية والكلمات المناسبة الأخرى ، أعرض عليه مواضيع البحث وفي قائمتها الاعتذار من قبل جمهوريتنا وبأية صفة متواضعة بسبب التأخير في إرسال سفير إلى بلاط جلالته ، وتنسب ذلك إلى الأحداث العظيمة التي صادفتنا منذ ثلاث سنوات بسبب خيانـة ملك فرنسا الذي ظل في حلف معنا قرابة عشر سنوات وأفاد منا إفادة عظيمة ثم امتـلأ بالاثم والشهوة وحب السيطرة ولم يتورع عن الحنث بـالعهد المعـطى لنا وبـوعوده والتزاماته وتحالف مع أعدائنا ضد جمهوريتنا وكان يطمع بالتأكيد في أن يتمكن من التغلب علينا ويوسع دولته والحقيقة أنه بالرغم من أننا تحملنا خسائر كثيرة إلّا أننا وبالمعونة الآلهية ، دافعنا كثيراً حتى عادت أحوالنا في الوقت الحاضـر إلى وضع مرضي ونأمل أن تتحسن ، وإن كل من يريـد السوء لنـا سوف ينـال عقابه من العناية الآلهية . وكما كتبنا لسموكم سابقاً ، فقد عقدنا في الرابع من تشرين الأول المنصرم ، حلفاً دائماً في روما مع قداسة الحبر الأعظم وجـلالة

ملك إسبانيا وجلالة ملك إنجلترا وفي الميدان توجد جيوش تابعة للحبر الأعظم ولإسبانيا ولنا وسيقوم ملك إنجلترا بالمثل .

وإن سكان منطقة سويزاري (Suizari) الأشداء والقاطنين بجوار ميلانو ، قد خرجوا ضد دوقية ميلانو التي هي من أعمال ملك فرنسا ، وقد أصبح اسم ملك فرنسا مكروهاً من الجميع بسبب طموحاته الصارخة بالسيطرة على العالم. وبإمكانك أن تؤكد أنه سيلقى المصير الذي تستحقه تلك الأطماع غير المحدودة . وهذا هو السبب الرئيسي في تأخرنا نحن ، وقد أردنا أن نعوض هذا التأخير بأن نرسل سفيراً عظيماً من أجل رجالات مجلس الشيوخ لدينا وهو أنت لكي نؤكد لسيادة السلطان ما نكنه له من حب وتقدير ورغبة دائمة ومشرفة بالحفاظ على علاقاتنا واتصالاتنا بصورة مستمرة وأن يبقى مواطنونا ورعايانا في بلاد جلالته على علاقة طيبه مع سيادته وان تتحسن بسرعة ولا تنتقص التجارة المعتادة التي استمرينا فيها بنجاح منذ مئات السنين والتي ورثناها عن أجدادنا ومن واجبنا أن نتركها لأحفادنا وذريتنا لتستمر بزخم ايماننا وواقعنا ومما لا شك فيه أبداً أن طيبة جلالته الجمّة التي يغمرنا بها والتي ليست بحاجة لأي برهان سوف تمحو كل أثر تركه في نفسه أعداؤنا ، الساعون في كل صقع من الأرض لدفعه إلى منع مرور التجار وقدوم مراكبنا وهذا أمر محزن يهدف إلى أبعاد السلطان عن جمهوريتنا ، على أن استمرار غضب السلطان سوف يجعل التجار يهجرون أسواقه إلى بلاد أخرى ، كما أن المراكب التي اعتادت أن ترد كل عام وتحمل له الذهب والفضة والنحاس والقصدير والرصاص والحرير والكتان والزيت والفواكه وباختصار كل ما هو ضروري لبلاده وتمتنع عن أخذ التوابل والأثواب من رعايا السلطان بما في ذلك من فائدة عظيمة له ولهم ولنا . وكل لحظة تمر هي خسارة كبيرة من حساب جلالته وحسابنا لأن الوقت الضائع لا يعود أبداً .

نبّه عظمة السلطان إلى أن منافسينا هؤلاء يعادونه عداء ملموساً من خمسين سنه وإنهم يأتون مرة واحدة كل ثلاث سنوات وما قاموا به في إحدى

المرات في مرفأ الإسكندرية لا يعتبر عمل تجّار أو أناس متحضرين إنما هو نشاط قراصنة متوحشين أخذوا التجار المسلمين من مرفأ الإسكندرية وباعوهم في رودوس بثلاثين إلى أربعين ألف دوكات . وهذا ما فعلوه مؤخراً بالمسلمين المغاربة الذين كانوا على متن مراكبهم وهذا تعرفونه جلالتكم، وتعرفون جلالتكم أيضاً ما يقومون به بالدس والحيلة للايقاع ما بينكم وبيننا والتسبب لكم ولنا بالأضرار الجسام .

ونحن لا نرغب في أن نتعب جلالة السلطان في ذكر عملياتهم الأخرى المخزية لأننا واثقون تماماً من أنكم تذكرون هذا فعلاً وأنكم كسلطان حكيم تعرفون سجل هؤلاء الأشخاص الموصوفين بالغش والاحتيال وإنكم تسيرون في نفس الطريق التي خطاها أسلافكم السلاطين العظام والتي هي بعونه تعالى سوف تكون أسرع وأكثر فائدة من غيرها .

وقل له بلباقتنا المعروفة هذا الكلام الذي لا نقوله إلّا لمصلحته الذاتية وبهدف تيسير أمورنا ورؤية إزدهار ورواج تجارتنا وقل له أموراً تفرحه وتضفي البهجة على بلاطه وحاشيته وهذا لا يقدر بثمن وفي هذا المجال اعتمد على حكمتك ولباقتك .

وكيفما تتكلم أظهر للسلطان مصلحته التي هي تماماً مصلحتنا .

وإذا كان فخامة السلطان قد غضب من زيارة بعض رجالات الصوفي لمدينتنا منذ ثلاث سنوات خلت وبالرغم من أننا قد برأنا أنفسنا من ذلك كفاية عبر مراسلاتنا لفخامته فعليك أن تعلن له أن مجيئهم لم يكن ذا تأثير ضار أو سيء بالنسبة لسيادته وإنما هم وفدوا فقط لاطلاعنا على فوز وإنتصار سيدهم الذي أظهر المودة لجمهوريتنا فبادلناه من جهتنا بالمراسلة باجابة بكلمات عامة ضمن إطار التقاليد التي تعمل بموجبها جمهوريتنا في علاقاتها مع كل الرؤساء .

ومن دواعي سرورنا ، نحن على استعداد لاثبات دون شك حسن نيتنا تجاه فخامته ، تلك النية الطيبة التي بقيت دائماً بعون الله تعالى ، ثابتة

ومتواصلة دون تغيير وملؤها الاخلاص الصادق والمهمة الطيبة نحوه .

ولهذا ولتبقى دائماً كما هي فإننـا نعطي البـرهان على حسن نيتنـا ، ولا نجد صعوبة في إثبات ذلـك ، فنحن لدينـا باستمـرار في بلاد فخـامته أبنـاؤنا وإخواننا وتجارنا وكثير من الذهب والإمكانيات وكل ذلك رهن إشارة عظمته .

ولـذلـك فنحن استنـاداً للمنـطق والخبـرة التي يتحلى بهـا الأصـدقـاء الحقيقيون والمخلصون والذين نمثلهم ، نرغب دوام العظمة والرفاهية والسعادة لفخـامتـه ولنـا . وعليـك أيهـا السفيـر أن تفهم بـوضـوح فخـامتـه بشـأن البرتغال ، فنحن لا نحصل على فلفلنا الغالي من تلك البلاد ، وإنما نحن ندفع أسعاراً غاليـة جـداً بـالنسبـة لمتـوسط أسعـار الفلفـل الـذي يبـاع في أسـواق البرتغال ، بالاضافة إلى أن غالبية المسيحيين تتوافد إلى هناك وإننـا قد دعينـا نحن أيضاً للقيام بذلك وجناء الأرباح الطائلة ولكننا لم نستمع لهذا الكلام بل منعنا بصراحـه تجارنـا من الذهـاب إلى هناك وأجبـرناهم على متـابعة تعـاملنا المعهود معكم . وهكذا فإن على فخامتـه أن لا يشك أبـداً في أننا نميـل إلى الشاه الصوفي ولا إلى ملك فرنسا ولكن مودتنا مرتبطة بأمان بمودة فخامته لتبقى مستمرة هكذا إلى الأبد .

ونحن لا نشك أنه لدى وصولك إلى هناك تكون مراكبنا إلى الإسكندرية قد حملّت حمولتها واتمت المدة . وإذا لم يحصل هذا لأمر طارىء ، وحاولوا تبرير عدم إقلاعها بأية طريقة ، فأعمل على رحيلها بالسرعة القصوى وبدون أي تأخير. ونحن نقـول لك نفس الشيء بـالنسبة لمـراكبنا إلى بيـروت التي ربما تكون الآن قد أبحرت .

إذا وجدت أن قناصلنا وتجارنـا ما زالـوا محبوسين في سجـون القاهـرة فأعمل بمعـرفتك وبمـواظبتك على الافـراج عنهم وإطلاق سـراحهم ودعوتهم لمزاولة أعمالهم وهذا لا نشـك في أنه سـوف يكون سهـلاً خاصـة أن فخامـة

السلطان العظيم يعرف إخلاصنا والأمر الواقع وهو أن كافة تجار طائفتنا قد عملوا ومارسوا التجارة في بلاده .

ونحن نودعك نسخة عن بنود اتفاقية١٥٠٧ التي عقدت ما بين جمهوريتنا وبين مندوب السلطان الترجمان تغري بردي . وبما أن نيتنا هي مطابقة لنية المندوب المذكور وهي أن تلك البنود سوف تراعى تماماً ad ungnuem كما أقسم بذلك الترجمان المذكور فإذا قيل لك أو عرفت من قناصلنا أو تجارنا أن البنود المذكورة أو واحداً منها لم يراع بحذافيره ad Plenum وكما يجب ، فأعمل بكل قوتك ، وبكل وسيلة على مراعاتها وتطبيقها واحترامها وكما نصّت عليه هذه البنود وكأنها دون شك من وحي السلطان .

وإذا اضطررت لمناقشة موضوع الهدايا المرسله إلى السلطان العظيم من قبل نائبنا في قبرص والتي لم تنتق كما يجب وحسبما أراد فخامته ، فأعتذر للأمر وقل أنك لا تعرف عنه شيئاً ولكنك سوف تكتب إلى قبرص إرضاء لرغبة فخامة السلطان وكأن هذه هي إرادتنا .

أمر آخر فقد طلبنا مراراً ، أن يسمح لمراكبنا القادمة إلى الإسكندرية ، في حال العواصف وعند الاضطرار ، أن تدخل المرفأ بحرية وفي هذه الحالة نرغب أن يستجاب إلى طلبنا بالدخول فقط أثناء الاضطرار والعواصف وهو مطلب عادل واعمل ببراعتك المعهودة على تحقيق ذلك . وأعمل على رفع كافة العوائق والمضايقات عن مراكبنا بعد إنتهاء فترة المدة وبحيث بإمكانها الإقلاع بعد أربعة أيام من إنتهاء فترة المدة وعلى راحتها ودون الحصول على أمر أو ترخيص من أحد .

إن ديوان القبّان وكما ستسمع بشكل خاص من قناصلنا هو ذات أهمية عظيمة لطائفتنا بحيث أن أي عمل هو تجديد وتغيير ، وإن أي شيء في هذا الديوان هو بشكل خطير لمصلحتنا ويستفيد منه تجارنا ، فنحن نأمرك ، وبعد الحصول على معلومات وافية بهذا الصدد ، أن تسعى بكل ما لديك من براعة

أن لا يتغير أي شيء في هذا الديوان وإنما حافظ عليه كما يجب وبالتمام .

وكل الأمور التي تحصل عليها ، حاول بمجهودك الشخصي أن تكون الوصايا والأحكام باللغة العربية وعلى قطع ليس بطويل (ورق)لأن القطع الطويل ليس بذات فعالية كبيرة .

كل ما ستسمعه من قناصلنا في الإسكندرية ودمشق هو لمصلحة تجارة طائفتنا نحن فأجتهد والح في الحصول على طلباتهم وضع دائماً في فؤادك مصلحة وفائدة تجارتنا وكن أنت ثانياً العلاج الأكيد والفكر السديد لذلك .

لا تحدّد لك وقتاً لبقائك في تلك السفارة ، حاول أن تستخدم بالتأكيد كل همة لترحل بسرعة إلينا متى أصبح بإمكانك ذلك . وأثناء وجودك في القاهرة دع سفينتك تنتظرك حيث تراه مناسباً لتجدها جاهزة عند رجوعك .

وبما أنك قد تحتاج إلى الأموال فقد أوجب هذا المجلس بقرار منه على قنصلنا في الإسكندرية وقنصلنا في دمشق أن يمدانك بالأموال حسب ما تطلبها لتنفيذ مهمتك . وعند وصولك إلى كورفو أو كانديا في شرقي المتوسط نطلب منك ، ومن أجل تأمين وصولك إلى الإسكندرية وكما تقتضيه تماماً الظروف الحالية ، أن تأخذ سفينة ثانية مناسبة من سفن أسطولنا وتبقيها معك حتى تصل الإسكندرية وكما فعل سفيرنا سابقاً السيد سانوتو Benedetto Sanuto ونحن معاً مدركون لهذا الاجراء البديهي وبعد وصولك إلى الإسكندرية أترك هذه السفينة وسرّحها حتى تعود إلى الأسطول .

ونظراً لانه في مثل هذه السفارة لا يمكن إعطاء كافة الأمور والتفصيلات المطلوبة والتي قد تحدث فإننا لسنا في موضع ننتظر فيه منك خطابات بشأن كل صعوبة قد تقابلها ولا يمكننا الاجابة عليها بسرعة لأن المسافة والوقت والرحلة لا تسمح بذلك . ونحن نقول لك أننا واثقون من براعتك وأنك سوف تذلل كل عقبة وكل صعوبة تتعلق بالتجارة أو بأي شيء يحدث هناك إلى جانب

الصعوبات التي أشرنا إليها في أمرنا هذا إليك ، ولذلك فلك مطلق الحرية في التصرف بأي شكل وبأية طريقة تبدو لك أنها الأفضل والأسرع من غيرها .

وبامكانك أن تحمل معك نقوداً بقيمة خمسماية دوكات على حساب تجارنا في الإسكندرية ودمشق وكأنها معتبرة على حساب جمهوريتنا .

أرّخ في قصرنا الدوقي في آخر كانون الأول سنة ١٥١١ .

ألب . تابلد ، ALB . THEBALD (سرّي)[١٤١] .

نص إتفاقية السفير دومنيكو
ترفيزان والسلطان الغوري ١٥١١ / ١٥١٢ .

الاتفاقية التالية تعرف بالاتفاقية الشاملة وهي من أهم الاتفاقيات التي عقدت بين جمهورية البندقية وسلاطين المماليك . وقد حوّت العديد من التفصيلات والنظم التجارية التي كانت متبعة في تلك الفترة المتأخرة من العصور الوسطى كما تعطينا فكرة عن حالة التجارة في مصر وسوريا بعد كشف طريق رأس الرجاء الصالح .

وقد لوحظ في هذه الاتفاقية أن السلطان كان كثير القلق والضيق بسبب النقص البادي في إيرادات جمارك الإسكندرية من تجارة البهار والتوابل والسلع الشرقية عامة وكان يحاول محاولات جدية استعادة مركزه الممتاز في هذه التجارة ، هذا المركز الذي اهتز بسبب تحول تجارة الهند إلى لشبونه . ولم تنجح محاولات السلطان في درء ذلك بل كانت فردية وإن عاونه بعض ملوك وأمراء الهند . أما البنادقة فقد ساءهم ما وصلت إليه الحال وأثارهم تباطؤ السلطان واضطروا إلى التحول إلى أسواق أخرى لتأمين البهار ، فقّل عدد مراكبهم المرسلة إلى الإسكندرية وبيروت سنة عن سنة .

---

(١٤١) Thenaud. J., Voyage d'Outremer, pp. 237 - 248 ;
- دكتور نعيم زكي فهمي، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب، القاهرة، ١٩٧٣، ص ٣٩٩ - ٤٠٦.

وقد صحب السفير ترفيزان إلى القاهرة المترجمون والأختصاصيون في الشؤون الشرقية بمجلس الشيوخ البندقي (السناتو) كما صحبه بعض رجال الدين.

والبنود التالية ليست معاهدات بالمعنى المعروف بل هي مجموعة أسئلة طرحها السلطان وتلقى عليها الإجابات من ترفيزان ، ثم جمعت ليعمل بها الطرفان ، وكانت تكتب باللغة العربية واللغة الإيطالية القديمة .

القاهرة في ٥ حزيران ١٥١٢

السؤال الأول (من السلطان)

إعتدنا بمجرد وصول مراكب المدة البندقية إلى الإسكندرية أن تمارس عملياتها في البيع والشراء بطريق المقايضة بجزء كبير من السلع ، ويختار قنصل البندقية أربعاً من مواطنيه التجّار لتثمين وتحديد سعر التوابل الخاصة بالسلطان (توابل الذخيرة الشريفة) ، ثم تحديد سعر التوابل المشتراة من السوق الحّرة ، ويصحب الأربعة المذكورين والقنصل مندوب السلطان الخاص لحضور تقدير أثمان التوابل والبهار . هذه الجماعة هي الموكل إليها تقدير أثمان التوابل السلطانية والتوابل الحرّة ، وهي لا تنتهي مهمتها في مصر قبل أن تصل إلى اتفاق مرض للطرفين . . السلطان والتجار البنادقة . . وهي في الغالب تصل إلى ما يريح الأطراف المعنية . . . هذا ما كان يتّم قبلاً . أما منذ عودة موفدنا « تغري بردي »من طرفكم فإن هذا النظام قد تغّير ولم يعد معمولاً به بنفس الدقة والطريقة القديمة .

الإجابة من (ترفيزان)

رداً على هذا السؤال نقول أننا إعتدنا أن نحدد ثمن ال ٢١٠ أحمال من البهار الذي نشتريه كل عام بواسطة الجماعة المذكورة ، أما الآن لما أصبح ثمن الحمل الواحد لا يتعدى ٨٠ دوكات فإن وجود الجماعة على النحو السابق أصبح غير ذي فائدة ويقال مثل ذلك عن الأنواع الأخرى الحرة من التوابل والبهار . ومن الآن يكون لنا مطلق الحرية في وضع السعر المناسب وتحديد وتثمين التوابل .

السؤال الثاني (من السلطان)

في السنوات الماضية كان يصل لميناء الإسكندرية ثلاث مراكب للمدة (موسمية)وفي فترة إعداد حمولتها تذهب إلى بلاد المغرب وتعود محملة بالبضائع للإسكندرية ، فلما لم تواصل هذه المراكب هذا النوع من النشاط التجاري منذ عودة «تغري بردي » إلى القاهرة من بلاد الإفرنج . . ؟

الاجابـة :

إن جمهورية البندقية لم تحاول أن تقلل عدد المراكب بل هي تحاول أن تجعلها مثلما كانت من قبل . . . وإذا كان عدد المركب قد قلّ لسبب خارج عن إرادتنا ، فلأن السلام في البحر المتوسط أصبح متقلباً ، وأمن الملاحة في هذا البحر هام جداً لتجارتنا فنحن لا نستطيع العمل إلاّ في بحر مفتوح غير مغلق بالحروب لاسيما وإن ملك إسبانيا في حالة حرب رسمية مع دول البرابرة في شمال أفريقيا في المغرب وفي الأندلس من قبل ، والملاحة مهددة في كل وقت . . . ولكننا نعدكم أنه بمجرد إيقاف الحروب وبمجرد أن تستطيع مراكبنا المرور بدون خسائر فإننا سنواصل عملنا المعتاد كسابق عهدنا بكم . . .

السؤال الثالث

أن مراكب البندقية كانت تأتي إلينا كل عام محملة بالبندق واللوز والجوز والزبيب والعنب ويعطى منه جزء هدايا لدار الذخيرة الشريفة ولناظر الخاص والمباشر وديوان القبّان ولكل من له صلة بالنقل ، كل هذا لم نعد نراه هنا منذ عودة موفدنا تغري بردي من بلاد الفرنج .

الاجابة

فيما يتعلق بتوزيع الفاكهة المذكورة نعلن أننا في غاية الأسف لسهونا عن هذه العادة القديمة ، وتفسيراً لذلك فإننا قد وجدنا أن توزيع هذه الفاكهة بكميات كبيرة يؤدي إلى خفض سعرها في الأسواق المصرية مما يؤدي إلى الأضرار بتجارة السلطان فتوقفنا عن توزيعها هبات لأن جزءاً كبيراً من هذه

الفاكهة يباع فعلاً بأسعار منخفضة جداً . . ولا يخفى عليكم أن مكسب هذه السلع قليل ولا يغري تجارنا على حملها إليكم ، وهم لا يربحون منها إلاّ الضئيل القليل في الوقت الذي نوّد فيه أن نزيد من عدد تجارنا الوافدين إليكم .

السؤال الرابع

إن تجاركم كانوا كل عام ملزمين بشراء ٢١٠ أحمال من التوابل لحساب دار الذخيرة الشريفة ويدفعون لها الثمن نقداً بدون مساومة . . أما الآن ومنذ وصول سفيرنا تغري بردي من بلاد الفرنج لم نلاحظ إهتمامكم لتنفيذ هذا القانون بدقة .

الاجابة :

إذا لم يصّر السلطان على رفع ثمن الحمل من التوابل الشريفة عن ٨٠ دوكات يصبح بإمكاننا إغراء تجارنا بشراء الكميات المذكورة آنفا . . وإذا رأى سموكم ألا يتنازل عن أسعاره بحجة أن التوابل ليست كسابق العهد وغير مربحة فإن الطرفين حينئذ ليسا ملزمين بتنفيذ الاتفاقية . . . وعلى أي حال فإن سعر الحمل الآن حوالي ٤٠دوكات ، ولكننا حسب الاتفاقية السابقة نعد السلطان بأن نشتريها بحوالي ٨٠ دوكات على ألاّ تزيد على ذلك اطلاقاً ، وحتى على فرض إذا زاد الثمن فلن ندفع أكثر من ٨٠ دوكات وهو السعر المتفق عليه أما المشتري من السوق الحر فللسلطان أن يتصرف فيه كيفما شاء . . . إننا نعدل في معاملتنا مع الجميع ونحب كذلك أن نعامل بالعدل .

السؤال الخامس

إن تجّار البندقية في أوبتهم للإسكندرية كل عام كانوا يحملون معهم من السلع : الزيوت والنحاس والرصاص والأنسجة الصوفية والجلود ووبر الجمال والقطيفة ، ومن يوم وصول المراكب وحتى إنتهاء المدة لا يتوانى التجار البنادقة عن البيع والشراء والتعامل مع المصريين سواء بالمقايضة أو بالمقطوعية المتفق عليها بالنقد الذهبي ، . .

أما الآن فلا يصل إلاّ عدد قليل من المراكب بل أن كل سنة لا يصل إلاّ مركب أو مركبان موسميان ، ولا تبيع ولا تشتري كسابق عهدها . وفي النهاية لا تصل أرباحنا حتى نهاية المـدة المذكـورة لأكثر من مبيعـات يوم واحـد من السنوات الماضية .

الأجابة

حقيقة أن مراكبنا كانت تأتي في بحر السنة وهي محملة بالسلع المختلفة وكـان مرد ذلـك للحريـة الكـاملة التي كنـا نتمتـع بهـا في التجـارة في البيـع والشراء . شكراً لكم للتسهيلات التي كنا نحصل عليها فإن هذا يعطينا الفرصة مقدماً لإحضار كميات من هذه السلع . أما الآن فإن الحكومة قد رسمت بـأن السلع التي تصل لا تباع إلاّ بسعر مقرر مثـل أسعار المـدة السابقـة عليها ، أو بالسعر الذي يقرر للمدة التالية وعلى هذا فإن التجار الذين لا تمكنهم ظروفهم من الوصول خلال المدة إلى السوق السنوية فإنهم لا يستـطيعون البقـاء للمدة التـاليـة وهـذا بـالـطبـع يؤدي إلى الاضـطراب والانهيـار في الحـركـات التجارية . . . ويستطيع السلطان أن يصدر أمره بـأن تسري أسعـار المدة على أسعار العام كله حتى المدة التالية ليستطيع تجارنا ممارسة البيع والشراء في أي فترة من السنة دون تحديد ضار . .

السؤال السادس

كانت تصل إلى الإسكندرية كل عام خمسة مراكب موسمية . هـذا عدا عن المـركبين اللذين يتجهان إلى سـاحل المغـرب وبلاده ، والمـركب الـذي نحجزه لخدمتنا الخاصة ، وبمجرد الانتهاء من البيع والشراء بانتهاء المدة تبقى بالإسكندرية كميات كبيرة من المتاجر من الزيت والنحاس والرصاص والصوف وكلّهـا لا تقل في قيمتهـا عن ٠٠٠ ، ٣٠٠ دوكـات ، ويصيـر البيـع والشـراء والمتاجرة فيها على مدار السنة ، هي في الواقع تحدث ما يعرف بإسم « السوق الدائم في بلادنا » أما الآن فبعد إنتهاء المدة لاحظنا أنه لا يبقى من البضائع إلاّ

في حدود ٠٠٠ ، ٢٠٠ دوكات كما أننا نلاحظ أنه لا يصل أكثر من ثلاثة مراكب موسمية بمفردها ومعها قليل من المراكب الأخرى وقليل من السلع .

الاجابـة :

فيما يتعلق بعدد المراكب القليلة التي تصل وقلة مـا تحمله من التوابـل ومن السلع الأخرى وهو ما لا يملأ أكثر من مركبين أو ثلاثة، فرداً على ذلك نفيد أنه إذا كانت هذه المراكب قليلة فإن حمولة الثلاثة منها بالتوابل ليس بالقليل في هذا الوقت ، فخلال القرن الماضي كانت التوابل غير مرتفعة الأسعار : فمثـلاً أجود أنواع الزنجبيل الذي يساوي ما بين ٨ ـ ١٠ دوكات للقنـطار الواحـد في القرن الماضي أصبح يساوي الآن ٤٥ دوكات ، وأسعار باقي التوابـل ارتفعت بهذه النسبة بمعنى أن قيمة حمولة الثلاثة مراكب الآن تساوي ما قيمته ستة أمثال حمولة مراكب العصر الفائت ، وهذا تفسير لقلة وصول المراكب وقلة حمولتها في القرن الحالي .

السؤال السابع

بعد رحيل المراكب الموسمية تبقى السلع طوال العام بالإسكندرية وكان يتواجد باستمرار ما لا يقل عن ١٥تاجراً للمتاجرة بيعاً وشراء أما الآن فلا نـرى أكثر من ثلاثـة أو أربعة تجـار على الأكثر وهم ليسـوا سوى ممثلي الشـركات طرفكم ، ونريد تفسيراً لعدم وصول اعـداد كبيرة وبقـاء أعداد كبيـرة منكم هنا للبيع والشراء .

الاجابـة :

كان هذا يحدث كلما أحب التجـار السكن والبقاء بـالإسكندريـة وكلما سنحت لهم الفرصة للعمل التجاري بحرية كـاملة ، أما الآن فللأسبـاب التي ذكرناها في الاجابات السابقة لا يبقى إلّا الرؤساء . في الوقت الذي سيجد فيه التجار فائدة سيبقون بل وأكثر مما كانت اعدادهم في الزمن السابق .

السؤال الثامن

تجاركم كانوا يبيعون ويشترون طول العام ويملأون مخازنهم بالتوابل في إنتظار عودة مراكبهم من رحلتها الفرعية إلى بلاد المغرب . وكانوا يشترون في المعتـاد حوالي ٦٠٠ طـرد من التوابـل أو على الأقل ٥٠٠ لا يـدخل ضمنهـا حساب ما يشترونه من المغرب ، ولدى عودة المراكب يقومون بتحميل التوابل بهذه المراكب ودفع القيمة المطلوبة لعامل السلطان ثم يشحنونها ويبقون باقي المدة يتاجرون بيعاً وشراء حتى نهايتها .

أما الآن فلا نجد بين أيديهم أكثر من ٢٠٠ طرد من التوابل بسبب قلة ما يحملونه إلى بلادكم والركود الذي شمل معظم الأعمال .

الاجـابـة :

نعيد القول بأن حرية التجارة هي التي بإمكانها وضع الأعمال في حالـة طيبة وإذا كان بقاء التجار فيه فائدة للسلطان فهو خسـارة لتجارنـا والسلطان لا يستطيع أن يمنّ عليهم بشيء من المنفعة لقاء بقـائهم بدون عمـل حتى المدة القادمة .

السؤال التاسع

يصلنا كل عام٤٠٠٠ قنطار من صفائح النحاس وأحياناً ٣٠٠٠ قنطار دون حساب باقي الأنواع الأخرى من النحاس أما في العام الماضي فلم يصلنا أكثر من ٨٠٠ قنطار من الصفائح النحاسية وليس أكثر من ذلك .

الاجـابـة :

إجابتنا على هذا أن ما يمنع تصدير نفس الكمية من النحـاس كالعهـد السابق هو أن الكمية التي كنا نحصل عليها ونصدرها لكم كـانت تؤخذ بـدون رضانا أو رضاء أصحابها ودون موافقتهم في معظم الأحيان ، وفي مقابل ذلـك كنا نعطيهم مواد ثمينة كالتوابل ـ أما الآن فأن التجار لا يطمئنون في معاملة طيبة أو في الحصول على ما يطلبون مقابل نحاسهم ولا يطمئنون إلى أنهم سيبيعون

بالأسعار التي يطلبونها لذا لا يتاجرون في النحاس بعد . وعلينا كذلك أن نضع في إعتبارنا مسألة السلام والعلاقات الطيبة مع الألمان وحرية التجارة معهم .

السؤال العاشر

كان يصلنا كل عام ٣٠٠٠ ـ ٤٠٠٠ طن من الزيوت وأكثر ، وهذا العام لم يصلنا أكثر من ٥٠٠ طن .

الاجابة :

إن ما يمنع تصدير الكمية المذكورة هو تذبذب الانتاج ، فالزيوت مثلها مثل منتجات الأرض الأخرى ويسري عليها ما يسري على غيرها فقد يتجمع في سنة ما كميات كبيرة وقد يقّل في سنوات أخرى .
إن قاعدة نجاح وثراء التجارة هو البيع بحرية سواء كانت الحرية في الأسعار أو في نوع البضائع وإذا لم يتبع الفرد هذه القاعدة ولم تتح له فرصة البيع بحرية فلا كانت تجارة ولا كان ربح .

السؤال الحادي عشر

كان يصل كل عام على المراكب الموسمية والمراكب الاحتياطية أكثر من ٣٠٠,٠٠٠ من النقد متعددة الأنواع . . أما الآن فلا يصل بالأكثر إلّا ٢٤,٠٠٠ دوكات من النقد في عامين . .

الاجابة :

إن ما كان يجذب رؤوس الأموال هنا هو حرية التجارة والبيع والشراء في التوابل على مدار السنة في مصر بأسعار ملائمة لكل من المشتري والبائع ولكن الآن بعدما أصبح التاجر مرتبطاً بالأسعار في المدة التالية بالسعر الذي يحدده السلطان قبل إنهاء المدة القائمة فإن أي تاجر أصبح لا يجازف بإرسال أمواله وتجارته إلى مصر إذ ليس بإمكانه أن ينظم أعماله التالية وفق إرادته . وعلى أي حال فإن البهار الذي يكوّن الموارد الرئيسية في تجارتنا معكم والذي يجذب الكثير من التجار ورؤوس الأموال لم يعد بإمكاننا شراء كميات

كبيرة منه بسبب المبالغة الشديدة في الأسعار في مصر .

السؤال الثاني عشر

إعتاد البحارة لدى وصولهم طرفنا بمراكبهم الموسمية عرض مختلف أنواع السلع التي يملكونها كالأصواف والشمع وكلها لا تقل ثمنها عن ٥٠٠ ، ٠٠٠ دوكات ومبيعاتهم لنا بالنقد وبهذه الفلوس يشترون حتى نهاية المدة توابل دار الذخيرة الشريفة ومتاجر المغرب . . ونحن كنا نمنحهم مطلق الحرية في هذا الخصوص ، أما الآن فلا يمكن الشراء طالما أن المدة إنتهت وهذا مما يزيد في استيائنا وتذمرنا .

الاجابة :

إنه لنفس الأسباب السابق ذكرها لا يمكن إخضاع أو إجبار البحارة لأن يعملوا إلّا بنفس الأساليب التي يعامل بها التجار ، وفي الواقع أن كثيرين منهم يشترون ليس فقط لحسابهم الخاص بل كذلك لحساب آخرين من التجار الذين لا يتمكنون من المتاجرة بأنفسهم حسب القوانين الموضوعة وليس هناك من الأسباب ما يجعلنا نفرق بغير العدل بين الجميع في التجارة . إن القانون والقاعدة العادلة يجب أن تسود بين كل المواطنين .

السؤال الثالث عشر

كنا نرى قبل في المعتاد أربع مراكب موسمية للبندقية تتخذ مركزها باستمرار على ساحل جزيرة قبرص وسوريا بقصد تعقب وطرد مراكب القراصنة ، ولكن نلاحظ أن القراصنة الآن يتمونون بالماء من هذه الجزيرة ، بل انها تعتبر وكراً للقراصنة البحريين ونقطة إرتكاز لهم في اغارتهم علينا . . بل أن الأهالي بالجزيرة يمونونهم بالماء والميرة وكثيراً ما هاجموا موانينا عند دمياط ورشيد ويحملون ما يعثرون عليه وما ينهبونه كما يأسرون الأهالي .

الاجابـة :

فيما يختص بجزيرة قبرص فإننا لم نهمل أي مادة تعهدنا بها في أي وقت في أي إتفاق معكم . ومنذ عامين لو لم نستخدم الحزم والشدة في سياستنا في الجزيرة لأصيب الجميع بأضرار جسيمة . فيما يتعلق بباقي الشكوى فإن حكومة الجمهورية سترسل لنائبها في الجزيرة ونأمل ألا يحمل السلطان هما لذلك بعد الآن .

السؤال الرابع عشر

كل الذهب والفضة الذي يصل للإسكندرية سبائك أو عملة لا تبـاع إلاّ لدار الذخيرة الشريفة وبسعر السوق الجاري . وإذا أراد بائع هذه المعادن رفع أثمانها فهو في ذلك السيد المطلق على الأقل إذا لم يرد إستبدالها بتـوابل من تجار الإسكندرية وفي هذه الحالة يؤذن للتجـار بترك مـا لهم في دار الذخيـرة بدون أي خوف من أن يختلس منه شيء حتى يتّم لهم الشراء ضماناً لأموالهم وضماناً لتجارة وأموال التجار بالإسكندرية ، وليكن معلوماً أنه إذا حـدث أن أي بندقي حاول بيع الفضة لغير دار الذخيرة الشريفة الخاصة بها ـ فأن هذه الكمية تصادر لصالح دار الذخيرة الشريفة .

الاجابـة

إذا كان هناك أي شيء يجب أن تترك حرية تجارته وأن تسهل عمليـات تداوله والتعامل معه وبه فهو لا شك الذهب والفضة . وإذا أجبر أولئك الـذين يقومون ببيعه على خطة معينة ولفرد دون فـرد فمعنى ذلك أن الحـرية منعـدمة تماماً ، وهذا يجعل التجار يحجمون عن الحضور . . ولذا فإنه من الأفضل أن يتـركوا أحـراراً في عرض سلعهم حسب رغبتهم وبيـع فضتهم حسب السـوق الجارية . ويهمنا هنا في ذلك الاهتمام بـالموازين كمـا هو متبـع في البندقيـة والمدن الإيطالية الأخرى . . أما السبب في نقص الفضة عمـا كانت عليـه من قبل فهو لأن الحرب قد وضعت أوزارها بعد أن وضعت عراقيل أزاء اخراجها من

المنـاجم ، وأما لأن الكمية الكبيرة منهـا قد مـرّت إلى لشبونـة لاستخـدامهـا في شراء توابل الهند وبهارها بأسعار رخيصة ، ونأمل ألا يفهم أي فرد من العامة أن السلطان له اعتراض على هذا الأمر(١٤٢) .

بنود الاتفاقية بين السلطان قانصوه الغوري والسفير البندقي ترفيزان فيما يتعلق ببيع الـ ٢١٠ أحمال من تـوابل الذخيرة الشريفة

إن تجـار البنـدقيـة المتفـاوضين مـع رجـال السلطان ، بنـاء على حثّ السلطان لهم لاتمـام المهمة قـد انتهوا فيمـا بينهم على اعـطاء السلطان مبلغ ٦٠٠٠ أشرفي ثمناً لبهار ثلاث سنوات مقدماً بمعنى أن قيمة توابل السلطان لكل سنة هي ٢٠٠٠ أشـرفي . ولمـا كـان السلطان يبـدو غيـر مـوافق فـإن هيئـة المفاوضين بعد أن حاولت واستخدمت عدّة طرق وافقت بعد جهد جهيد على الشروط أدناه ، وذلك بحضور القنصل والتجار الذين يتاجرون بالإسكندرية .

الاتفاقية

١ ـ فيما يختص بالمائتين والعشرة أحمال من البهار : إذا جعـل السلطان ثمن الحمل الواحد ٨٠ دوكات طبقاً لاتفاقيتنا وطبقاً لأوامر الجمهور فإننا نجـد أنفسنا مضطرين لأن نقوم بالتنفيذ .

٢ ـ إذا كان سمو السلطان لا يريد التعامل معنا على أساس هذا السعر ، إما لأن تجارة البهار لم تعد مربحة وإما لأنه يستطيع أن يفعل ما يشاء : فإن البهار لا يساوي فعلاً إلّا ٤٠ دوكات للحمل الواحد ونحن لا ندفع الزيادة إلّا لخاطر السلطان .

---

(١٤٢) Reinaud. M., Journal Asiatique, Traités de Commerce entre la République de Venise et les derniers Sultans Mamelouks d'Egypte, T. IV, Paris, 1825 (Nouveau Journal Asiatique, 2ème. Série);

ـ دكتور نعيم زكي فهمي . طرق التجارة الدولية ، ص ٤٠٦ ـ ٤١٧ .

٣ ـ أما باقي الشروط فإننا نترك الحرية الكاملة للسلطان لوضع ما يلائمه من شروط مع عدم الإضرار بنا وعلينا الموافقة والتنفيذ على أنه إذا وافق السلطان على طلبنا ولم يعمل على رفع السعر عن ٨٠ دوكات للحمل الواحد ، فإن الجمهورية توافق على المتاجرة بما قيمته٥٠٠٠ أشرفي لكل مدة سنوياً ، من المراكب الموسمية التي تصل من البندقية إلى الإسكندرية وتدفع مقدماً قيمة ثلاث سنوات وهو ١٥٠٠٠ دوكات .

٤ ـ وقبل أوبتنا لوطننا فإننا نأمل من سمو السلطان الأفخم بأن يسمح وهو العادل بأن يأمر رعاياه ومواطنيه بعدم إجبار تجار البندقية على شراء البهار رغماً عنهم لا بطريق المقايضة ولا بالنقد وألا يجبروا على شراء بهار بسعر حدّد من قبل سوى البهار الخاص بالسلطان عن طريق الذخيري عامل دار الذخيرة الشريفة أي ال ٢١٠أحمال السابق تحديد سعرها .

وبعد انقضاء الثلاث سنوات المذكورة سنقوم بترتيب جديد إن شاء الله ، وكما نودّ أن يكون التحسين كاملاً في الأمور كلها ، فإن كل شيء سيسير حسب راحة السلطان وسروره .

٥ ـ إذا حدث بطريق المصادفة أنه بعد هذه الثلاث مدد أن السلطان لم يوافق على الاستمرار بالعمل على أساس سعر الحمل ٨٠ أشرفياً فإن حكومة الجمهورية في هذه الحالة لا تكون ملزمة بأن تحمل المبلغ الذي تدفعه في كل مدة ٥٠٠٠ أشرفي كسابق العهد لكل مدة وبنفس الشروط المعمول بها الآن(١٤٣) .

---

(١٤٣) دكتور. ن. فهمي، المصدر السابق، ص ٤١٧ ـ ٤١٩ .

الفصل الخامس

السلع المتبادلة

يعود الإزدهار التجاري في سلطنة المماليك إلى حيوية الطرق البحرية والبرية التي تربطها بالشرق من جهة وبالغرب من جهة أخرى ويعتبر النصف الثاني من القرن الخامس عشر من أنجح فترات التبادل التجاري ما بين الشرق والغرب وقد عمل المماليك في مصر والشام كوسطاء لأهم السلع التجارية من الشرق وأهمها التوابل والافاويه والعبيد والأحجار الكريمة والعقاقير والبخور والصيني والأخشاب وغيرها حتى أن تجارة الشرق ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بثروة السلطنة وقوتها وهيبتها .

والتعامل التجاري مع المماليك له جذور قديمة إنما منذ آواخر القرن الرابع عشر حصل تحول في الأوضاع السياسية في الجزء الشرقي من البحر المتوسط جعل البحر الأحمر يصبح مرة أخرى طريق التجارة الرئيسية ما بين الهند وجنوبي أوروبا . ومما لا شك فيه أن تردي الأوضاع الأمنية في إيران كان السبب الأهم لهذا التحول ولكنه لم يكن السبب الوحيد . ففي سنة١٤٣٤ احتل الجنويون فماغوستا وكان على البنادقة أن يتركوا جزيرة قبرص . وفي سنة١٣٧٥احتل المماليك مملكة أرمينية الصغرى ووضعوا حداً لتجارة لاجازو Lajazzo المزدهرة. كذلك في نهاية العقد الأخير من القرن الرابع عشر دمر تيمورلنك أسطرخان والمراكز المزدهرة على الطريق التجاري البري

الرئيسي الذي يربط آواسط آسيا بالبحر الأسود[١] .

من جهة ثانية كان لليوم المحتوم في أيار ١٤٥٣ عندما سقطت القسطنطينية بأيدي العثمانيين آثار بعيدة المدى فالغرب المسيحي لم يهب ما فيه الكفاية لإنقاذ ما تبقى من الإمبراطورية البيزنطية ، والبندقية كانت مساعدتها متحفظة للملك فلادسلو Wadislow الذي كان يدافع عن مملكته ، بل أن حكومة البندقية كانت دائماً تسعى للحفاظ على تجارتها واعطائها الأفضلية المطلقة فعمدت إلى إبرام معاهدة سنة ١٤٥١ مع العثمانيين ولم تلق نداءات الإمبراطور المقهور لدى البندقية ولا في الغرب المسيحي آذاناً صاغية ، ويبدو أن البندقية كانت تلعب لعبة مزدوجة في تلك الأحداث تتمحور حول تأمين مصالحها[٢] حتى أنه بعد سقوط بيزنطة فإنها عمدت إلى تحسين علاقاتها مع العثمانيين لكن العثمانيين وطبعهم كغزاة كانت لهم اهتماماتهم في الفتوحات والتوسع إلى الغرب لذلك لم يهتموا كثيراً في إقامة علاقات تجارية مع البندقية وغيرها . ولذلك فقد عمدوا إلى الاستيلاء على أثينا سنة ١٤٥٨ وسيطروا على معظم مستعمرات جنوى وشكلوا تهديداً صاعقاً لممتلكات البندقية في البحر الإيجي مما دفع مجلس الشيوخ البندقي لتخصيص أموال طائلة لتحصين وتقوية

---

(١) نعيم زكي فهمي ، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب ، القاهرة ، ١٩٧٣ - ص ١٩١ ؛

Ashtor. E, A Social and Economic History of the Near East. Collins, St. James's Place, London. 1976, pp. 325-326.

(٢) — Romanin J., Storia IV, p. 190.

انظر أيضاً :

— Zakythinos. D., «L'attitude de Venise face au declin et à la chute de Constantinople», in Venezia, Centro di Mediazione I, p. 61 ff.

وقد أشار إلى المراحل المختلفة لمواقف البندقية تجاه مسألة دعم القسطنطينية .

— Ashtor. E, Levant Trade in the Later Middle Ages, Princeton University Press, 1984, pp. 445-447.

نغـربونتـو Negrepont وكـانـديـا Candia ومـودون Modon وكـورون Coron والدفاع عنها .

إن التـوسع العثمـاني في البحر الإيجي والبلقـان واغلاق البحـر الأسود حمل البندقية والجنويين والدول التجارية الأخرى في جنوبي أوروبا إلى تكثيف نشاطهم التجاري مع سلطنة المماليك . وبسقوط القسطنطينية أصبحت التجارة مـع مصر وسـوريا الشـريان الـرئيسي لتجارة الشـرق وكان بـاستطاعـة التجـار الإيـطاليين فقط في تلك الفترة الحصـول على التوابـل والمنتجـات الشـرقيـة الأخرى .

وهكذا أصبحت الإسكندرية وبيروت المراكز الكبرى لتلك التجارة وعمد البنادقة والدول الأوروبية الأخرى على إبرام الإتفاقيات مع السلطان والحصول منه على الإمتيازات التجارية المتعددة الجوانب والمنافع للبندقية .

فبعد سنة١٤٥٣كثـرت المراكب التجـارية في شـرقي المتوسط وأصبـح للجمهورية ثلاثة خطوط بحرية دائمة مع الشرق بالإضافة إلى خط رابع اعتباراً مـن سـنـة١٤٦١إسـمـه دي تـرافـيـكـوdi trafegoويـربط تـونس بالإسكندرية . والجنويون والفلورنتيون وتجار نابولي وآكوناAconaحصلوا أيضاً على امتيازات وتوجهوا بمراكبهم وبضـائعهم إلى الإسكندرية وبيـروت وأقـام تجارهم فيها وفي المراكز التجارية الأخرى من سلطنة المماليك .

أ ـ الفلفل (تجّار الكارمية)

ولقد جنت السلطات المملوكية الأربـاح الطائلة من الـرسوم المفـروضة على السلع الشرقية وفي طليعتها التوابل والأفاويـه . وكانت التـوابل والأفـاويه الشرقية هي غذاء الأغنياء في أوروبا وقد أولع بها الأشراف ورجال الكنيسة حتى أن عامة الشعب قد اعتادت على استعمال التوابـل في الأطعمة وزاد الإلحـاح

عليها حتى أصبحت جزءاً لا يتجزأ من حياتهم خاصة لجهة تحسين الطعام وحفظه وصنع النبيذ وصناعة العقاقير[٣] .

وعلى رأس قائمة التوابل والأفاويه وأكثرها طلباً الفلفل وقد اشتدت الرغبة في الحصول عليه أكثر من أي تابل آخر على الرغم من ارتفاع ثمنه . ومصادره الهند والشرق الأقصى وشرق أفريقية[٤] .

وهناك الفلفل الأسود والفلفل الأبيض ،

فالأسود هو الفلفل اليابس في الشمس وغير المقشر .

والأبيض هو الفلفل المقشر وقليلاً ما ذكر هذا النوع في المصادر الأوروبية غير أن له هواته في الشرق حيث يفضله الكثيرون كونه أقل حدة من الفلفل الأسود وكونه لا يتعب المعدة وقد رأى الرحالة ماركو بولو Marco Polo كميات كبيرة منه في ماليزيا حيث كان يصدر إلى الصين[٥] .

والفلفل العادي ذو قشرة سوداء مجعدة وقد ذكر عند العرب والأوروبيين أن الأرض التي تنبت فيها أشجار الفلفل تعج بالثعابين وقد زعموا أنه لطردها كان لا بد من إضرام النار التي كان من نتيجتها إسوداد ويباس الحبوب وكان البعض يعتقد أنها محمصة لكن كثرة الرحالة كابن بطوطة في الشرق وجردانوس كاتالاني Jordanus Catalani في الغرب وغيرهما إلى بلاد الفلفل دحضت تلك المزاعم[٦] .

وشجرة الفلفل هي كالكرمة تتعلق على الأشجار الأخرى ومواطنها

(٣) سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ، القاهرة، ١٩٦٥، ص ٢٩١.

(٤) نعيم زكي فهمي، طرق التجارة الدولية، ص ١٩٧.

(٥) Heyd. W, Histoire du Commerce du Levant au Moyen-Age. Tome II, Paris, 1886, pp. 664-665.

(٦) المصدر نفسه ص ٦٥٩ Heyd. W, Ibid, p. 659

ابن بطوطة، الجزء الرابع صفحة ٧٧.

الأساسية شواطىء الملابار (Malabar) وعلى شواطىء الهنـد المقابلة لجـزيرة سيلان المسماة بالكولم حيث أيضاً يكثر إنتاج الفلفل .

وقد ذكر القلقشندي في حديثه عن بلاد «المنيبار» فقال، «وهي إقليم من أقـاليم الهنـد في الشـرق عن بـلاد الجُـزُران . . . والمنيبـار هي بـلاد الفلفـل . . . والفلفل في شجره عناقيد كعناقيد الدخن ، وشجره ربمـا التف على غيره من الأشجار كما تلتف الدوالي . . . وجميع بلاد المنيبار مخضرة كثيرة الميـاه والأشجار الملتفة» .

وعن إقليم الكولم قال : «وهي آخر بلاد الفلفـل من الشرق ومنهـا يقلع إلى عدن »[٧] .

ولما سيطر البرتغاليون على الملابار ووضعوا أيديهم على تجارة الفلفـل في تلك المنـطقـة كـان المغـامـرون من البحَّـارة العــرب ينقلون الفلفـل من سومطرSumatraإلى جدة ومنها إلى سـوريا ومصـر فالبـلاد الأوروبية . وأهـل الصين كانوا أيضاً يرغبون بالفلفل حتى أن ماركو بولو قد ذكر أنه بالمقابل لكل مركب فلفل يأتي من الهند باتجاه الإسكندرية كان هناك حـوالي المئة مـركب محملة بالفلفل تتجه نحو الصين[٨] . ومع ذلك فقد كانت كميات الفلفل التي تصل أوروبا لا يستهان بها وكانت مصر تحتل مركـز الصدارة في عمليـة النقل هذه وكانت البندقية تستأثر بحصة الأسد من الفلفل وتقوم بتـوزيعها على بقيـة الدول والمدن الأوروبية حيث راج استعمال الفلفل وبشكل أصبحت الضرائب والجمارك تدفع أحياناً بالفلفل إلى جانب النقود . وكانت أسعـار هذه السلعـة مـرتفعة بشكـل جعلها بعيـدة عن متناول الـطبقات الفقيـرة على الأقل بصـورة منتظمة ولهذا السبب كان الناس يتبادلون الفلفل كهدايا. حتى الدول لم تشذ عن

(٧) القلقشندي : صبح الأعشى ، جزء ٥ ، ص ٧٣ ، ٧٤ ـ ٧٥ .

(٨) — Heyd. W, «Histoire du Commerce», Tome II, p. 663 ;

— Marco polo, Travels , London 1903, p. 531.

ذلك فالبندقية لفترة ما كانت تتلقى من الإمبراطور هنري الخامس هدية سنوية مقدارها خمسون باونداً من الفلفل[٩] .

وهناك نوع آخر من الفلفل هو الفلفل الطويل وشجرته مماثلة للفلفل العادي (pepertondo) ولكنها ذات محصول أقل جودة ومواطنه سومطرا في إقليم باديرpedirفي شمالي الجزيرة ويوجد أيضاً في جافا وفي البنغال . ولما كانت مواطنه أكثر بعداً عن أوروبا من بلاد الفلفل الأسود فقد ندر وجوده في أسواق الغرب[١٠] .

ولقد اكتفى المماليك خلال فترة حكمهم الأولى وحتى بداية القرن الخامس عشر بتسهيل استيراد الفلفل من الهند وشرقي آسيا ، وجعلوا تجارة التوابل تجارة حرة وشجعوا التجار الأجانب خاصة الإيطاليين للمجيء إلى مصر وسوريا لشراء التوابل وحملها إلى أوروبا وعملوا على تسهيل إقامتهم في الفنادق المخصصة لهم ومنحوهم التسهيلات والإمتيازات لقاء دفع الرسوم المتوجبة. وقد بقيت هذه التجارة حرة حتى أوائل القرن الخامس عشر وسيطر عليها جماعة من التجار عرفوا بالكارمية وقد قاموا بالعبء الأكبر في استيرادها من الشرق ونقلها من اليمن إلى مصر وسوريا وتسويقها إلى الغرب وأصبح لرئيس الكارمية مكانة معززة لدى السلطان لثرائه حتى أن بعض السلاطين عمد إلى الإقتراض من كبار تجار الكارم أبان الأزمات التي كثيراً ما عصفت بسلطنة المماليك خاصة الأزمات المالية الناجمة عن الحملات العسكرية التي جردت للدفاع عن حدود السلطنة أو بسبب تغيير السلاطين وما يتبع ذلك من نفقات إضافية باهظة تدفع إرضاء للجند بمناسبة اعتلاء السلطان الجديد العرش . وقد تنبه سلاطين المماليك إلى موارد التجارة الشرقية فعمدوا إلى الإشتغال بها لحسابهم ثم اتبعوا سياسة الاحتكار (Monopoly) لبعض السلع الشرقية وكان

---

(٩) المصدر السابق، ٦٦٤ — Heyd. W, Op. Cit., p. 664

(١٠) المصدر نفسه، ٦٦٥ — Heyd. W, Ibid. p. 665

أول ما قاموا به التضييق على تجار الكارم في مرحلة أولى وكف يدهم ثم اقصاءهم نهائياً عن تجارة الفلفل في مرحلة ثانية . وقد أضرّ هذا الاحتكار بالتجارة الشرقية فارتفعت أسعار التوابل ارتفاعاً فاحشاً مما أنزل الضرر بمصالح التجار الإيطاليين خاصة البنادقة وغيرهم ونتج عن ذلك تحديداً لأسعار التوابل الحرة ولأسعار توابل الذخيرة السلطانية الشريفة وأجبر التجار الأجانب على شرائها بالأسعار المفروضة مما دفع الكثير منهم إلى التحول إلى أسواق أخرى .

ومما لا شك فيه أن تجار الكارمية لعبوا دوراً بارزاً في تنشيط وازدهار تجارة الفلفل الحرة قبل أن يحتكرها السلاطين ويضيقوا عليها، فمن هم تجار الكارمية هؤلاء؟ الكارمية أو تجار الكارم هم عبارة عن جماعة من تجار الجملة وجدوا في مصر في نهاية القرن الثاني عشر[١١] ، وكان لهم تشعبات ومصالح تمتد إلى أنحاء بعيدة من السلطنة وكانوا يتجرون ويتعاملون مع اليمن وخاصة عدن وكانت تجارة التوابل اختصاصهم وكانوا يسيطرون على هذه التجارة وينقلون سلعهم من عدن حيث تصلها من الهند والشرق الأقصى إلى عيذاب عن طريق البحر الأحمر ثم تأتي القوافل وتنقلها إلى قوص[١٢] .

ولا بد من التوقف هنا عند عدن حيث ينشط تجار الكارم والتي تعتبر فرضة اليمن ، وبها مجتمع التجار من الحجاز ومصر والحبشة ومنها تخرج بضائع الهند والصين وفي تعريف القلقشندي لعدن ، قال نقلاً عن مسالك الأبصار : «وهي أعظم المراسي . . . وهي خزانة مال ملوك اليمن إلا أنه ليس بها زرع ولا ضرع وهي فرضة اليمن ومحط رحال التجار لم تزل بلد التجارة من زمن التبابعة وإلى زماننا ، عليها ترد المراكب الواصلة من الحجاز والسند والهند

---

(١١) المقريزي، كتاب السلوك، جزء ١، ص ٧٢ ـ ٧٣.

(١٢) ذكر أبو الفدا في تقويم البلدان وشهاب الدين في مسالك الأبصار أن عيذاب هي محط تجار اليمن وان القوافل القادمة من بحر الهند والحبشة واليمن كانت تمر عبر عيذاب وتتوقف في قوص.

والصين والحبشة ويمتار أهل كل إقليم منها ما يحتاج إليه إقليمهم من البضائع. . . (و)إن المقيم بها يحتاج إلى كلفة في النفقات : لإرتفاع الأسعار بها في المآكل والمشارب ويحتاج المقيم بها إلى ما يتبدد به في اليوم مرات في زمن قوة الحّر. . .ولكنهم لا يبالون بكثرة الكلف ولا بسوء المقام لكثرة الأموال النامية »(١٣) .

وفي الحديث عن اليمن ذكر القلقشندي أن غالب أموال اليمن موجبات التجار الواصلين من الهند ومصر والحبشة . وله طريقان : طريق في البر وطريق في البحر : «أما طريقه في البر فالطريق من مصر إلى مكة معروفة ومن مكة إلى عدن نحو شهر ولها طريقان : أحدهما على ساحل البحر وهو الأبعد والثاني على نجران وجرش وصعدة وصنعاء ، وهو الأقرب . وأما في البحر فمن مصر إلى السويس ثلاثة أيام في البر ثم يركب في البحر إلى زبيد وعدن . وربما عدل المسافرون عن السويس إلى الطور فتطول الطريق في البر وتقصر في البحر ، وربما وقع السفر إلى قوص في النيل أو في البر ، ثم من قوص إلى عيذاب أو إلى القصير فيركب في البحر إلى زبيد أو عدن»(١٤). وفي حديثه عن المكوس وما يؤخذ على واصل التجار الكارمية من البضائع في بحر القلزم من جهة الحجاز واليمن وما والاهما ذكر القلقشندي أربعة سواحل بالبحر لتحصيل الرسوم .

الساحل الأول ، عيذاب :

« وقد كان أكثر السواحل واصلاً لرغبة رؤساء المراكب في التعدية من جدة إليه ، وإن كانت باحته متسعة لغزارة الماء وأمن اللحاق بالشعب الذي

---

(١٣) ـ القلقشندي ، صبح الأعشى ، جزء ٥ ـ ص ٩ ـ ١٠ .

ـ الأدريسي ، كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق : روما ١٩٥٥ ، ص ٥٤ ـ ٥٥ .

(١٤) القلقشندي ، المصدر نفسه ، جزء ٥ ـ ص ٧ ـ ٨ .

ينبت في قعر هذا البحر ، ومن هذا الساحل يتوصل إلى قوص بالبضائع ومن قوص إلى فندق الكارم بالفسطاط في بحر النيل » .

الساحل الثاني ، القصير :

«وهو في جهة الشمال من عيذاب ، وكان يصل إليه بعض المراكب تعدية من قوص وبعد عيذاب منها وتحمل البضائع منه إلى قوص ثم من قوص إلى فندق الكارم بالفسطاط على ما تقدم وإن لم يبلغ في كثرة الواصل حد عيذاب » .

الساحل الثالث ، الطور :

«وهو في جانب الرأس الداخل في بحر القلزم بين عقبة ايلة وبين الديار المصرية ، وقد كان هذا الساحل كثير الواصل في الزمن المتقدم لرغبة قصد بعض رؤساء المراكب في السير إليه لقرب المراكب فيه من بر الحجاج. . .ثم ترك هذا الساحل والسفر فيه بعد انقراض بني بدير العباسية التجَّار. . .وبقي على ذلك إلى حدود سنة ثمانين وسبعماية ، فعمر فيه الأمير صلاح الدين بن عرام رحمه الله وهو يومئذ حاجب الحجاب بالديار المصرية مركباً وسفَّرها ثم اتبعها بمركب آخر فجسر الناس على السفر وعمروا المراكب فيه ووصلت إليها مراكب اليمن بالبضائع ورفضت عيذاب والقصير وحصل بواسطة ذلك حمل الغلال إلى الحجاز » .

الساحل الرابع ، السويس :

«على القرب من مدينة القلزم الخراب بساحل الديار المصرية وهو أقرب السواحل إلى القاهرة ، والفسطاط إلا أن الدخول إليه نادر والعمدة على ساحل الطور كما تقدم» .

ويذكر القلقشندي أن هذه السواحل على جد واحد في أخذ المرتب السلطاني ويضيف قائلاً «أما الذي عليه الحال في زماننا فإنه يؤخذ من بضائع

التجار العشر مع لواحق أخرى تكاد تكون نحو المرتب السلطاني أيضاً[١٥] .

وقد أضاف المقريزي أن عيذاب ظلّت حتى سنة ٧٦٠ هـ/١٣٥٩ محط رحال السلع القادمة من الهند[١٦] ثم تحولت التجارة إلى قوص وصارت التوابل تنقل على ظهور الجمال من عيذاب إليها . وفي قوص كانت منتجات الهند خاصة التوابل تحمَّل على مراكب نيلية وتنقل عبر النيل إلى القاهرة حيث تصلها خلال أسبوعين ومن هناك تتابع طريقها إلى الإسكندرية عبر فرع النيل الشمالي الغربي .

وكانت مراكب قليلة تأتي إلى الطور أو إلى السويس ثم تنقل السلع براً إلى النيل فالقاهرة والإسكندرية . ومما لا شك فيه أن مكة المكرمة كانت تتمون بالتوابل عن طريق عدن ، ففي مرحلة أولى كانت السلع تصل من عدن إلى الطور فمكة ، وفي مرحلة ثانية تطور بندر جدة فكانت تأتي إليه السلع ومنه إلى مكة فدمشق. وفي كل ما يتعلق بتجارة التوابل برزت أسماء التجار الكارمية. وقد أحصى المستشرق و . ج . فيشيل في لائحته المطبوعة سنة١٩٣٧ أسماء أربعة عشر تاجراً كارمياً[١٧] غير أن هناك أسماء أخرى ذكرها كل من ابن حجر العسقلاني في مخطوطته « أنباء الغمر في أبناء العمر » المحفوظة في متحف إسطمبول[١٨] والسخاوي في مجلده «الضوء اللامع»[١٩] .

معظم التجار الكارمية بدأوا حياة متواضعة وحققوا ثرواتهم الطائلة بعرق الجبين :

---

(١٥) القلقشندي، صبح الأعشى، جزء ٥ ـ ص ٤٦٨ ـ ٤٦٩ .

(١٦) المقريزي، كتاب السلوك، جزء ٢ ـ صفحة ٩٢.

(١٧) Heyd. W, Histoire du Commerce - II - p. 60.
Fischel W. J, «Uber die Gruppe der Kārimī- Kaufleute », Analecta Orientalia, no. 14, of the Pontifilal Bible Institute, published in 1937 .

(١٨) ابن حجر العسقلاني ـ مخطوطة أنباء الغمر في أبناء العمر ـ متحف اسطمبول.
M. S. Constantinople, Yeni Cami 814.

(١٩) السخاوي، الضوء اللامع، ١٢ جزء القاهرة، ١٩١٤ ـ ١٩٢٨.

عز الدين عبد العزيز بن منصور كان خياطاً فقيراً ،

برهان الدين المحلّي كان ولداً لرجل فقير وأصبح فاحش الغنـاء بعد أن كلفه السلطان بإدارة أعماله التجارية وأصبح أعظم تجار الكارمية(٢٠) .

زكي الدين أبو بكر الخروبي كان ينتمي إلى أسرة من التجار ولكنه كان فقيراً حتى مات عمه بدر الدين فورث عنه ثروة عظيمة مكنته من الانطلاق في عالم التجارة(٢١) .

ولما كان هؤلاء التجار قد جـاؤوا في بدايـة حياتهم التجـارية من بلدان ومجتمعات مختلفة فقد جهدوا قدر استطاعتهم لتحسين وضعهم الاجتماعي عن طريق الزواج من بنات العائلات الأرستقراطية .

والمصادر العربية تشير إلى أن الكارمية والتجار الأغنياء في تلك الحقبة كـانوا يميلون إلى التـزاوج ضمن طبقتهم الإجتماعيـة وهذا الأمـر يمكن فهمه باعتبار أنه في مجتمع المماليك لا توجد عائلات أرستقـراطية نبيلة اضـطلعت بمسؤوليـات مميزة لفتـرات طـويلة ، غيـر أن التجـارة بـوجـه عـام كـانت من إختصاص بعض العائلات المعروفة . ومن ضمن أسماء الكارمية التي عـددها فيشيل هناك عبد اللطيف بن محمد بن مسند الإسكندري وابنه يحيى الذي عاش في بداية القرن الرابع عشر . ومن العائلات الأخرى نجد تاج الدين محمّد بن مسلّم وشهاب الدين أحمـد بن مسلّم، كذلـك نور الـدين علي بن عمر المحلّي وبرهان الدين إبراهيم بن عمر المحلّي. ومن عائلة الخروبي ذكر فيشيـل اسمين هما زكي الدين بكر ونور الدين علي بن عبد العزيز . وقـد ذكر المقـريزي في

---

(٢٠) العيني ، عقد الجمان، مخطوطة في متحف اسطمبول.

M. S. Constantinople, Carullah 1591, f. 577b.

(٢١) ابن حجر العسقلاني ، أنباء الغمر، ورقة .f53a .

Ashtor. E, The Kārimī Merchants, Journal of the Royal Asiatic Society, London 1956, pp. 47-48.

خططه أن والدة ناصر الدين محمد بن مسلّم كانت ابنة شمس الدين بن محمد البالسي الكارمي[٢٢] .

وكانت عائلة ابن مسلّم ذات صلة بعائلة الخروبي عن طريق زواج ابنه ناصر الدين . إن قراءة سيرة سراج الدين عمر بن عبد العزيز بن أحمد بن محمد الخروبي تشير إلى أنه كان من التجار الكارمية وكان تعيس الحظ وقد ورث عدة مرات مبالغ طائلة لكنه لم ينجح في مشاريعه وقد مات سنة١٤٢٢ وهو غارق في الديون . والجدير بالذكر أن سراج الدين هذا قد تزوج ابنة ناصر الدين محمد بن مسلّم وأنجب منها ثلاثة أولاد : بدر الدين محمد وشرف الدين محمد وفخر الدين سليمان[٢٣] .

ويذكر ابن حجر أن تقي الدين علي بن عبد العزيز هو ابن صلاح الدين أحمد بن محمد بن علي المعروف بالتاجر الكارمي[٢٤] .

وعلي بن عبد العزيز هذا كان له لقبان : نور الدين وتقي الدين ، وكان شقيق عمر بن عبد العزيز ، أما والدهما عز الدين عبد العزيز الذي توفي سنة ٧٨٣ هـ / ١٣٨٢ فهو شقيق تاج الدين محمد بن أحمد بن محمد بن علي[٢٥] وقد توفي تاج الدين في مكة سنة ٧٨٥ هـ / ١٣٨٣ .

وكان هناك شقيق ثالث هو علي والد زكي الدين أبو بكر المشهور وكان لزكي الدين ولد ثري إسمه محمد ولكنه توفي وهو شاب[٢٦] .

---

(٢٢) المقريزي : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ـ طبعة بولاق ١٢٧٠هـ. جزء ٢ ـ ص ٤٠١ .

(٢٣) السخاوي : الضوء اللامع ، جزء ٣ ـ ص ٢٦٧ ، ص ٢٤٦ ـ ٢٤٧ .

(٢٤) ابن حجر العسقلاني : أنباء الغمر ، ص f. ١٥٩ a

Ashtor. E, The Kārimī Merchants, p. 48.

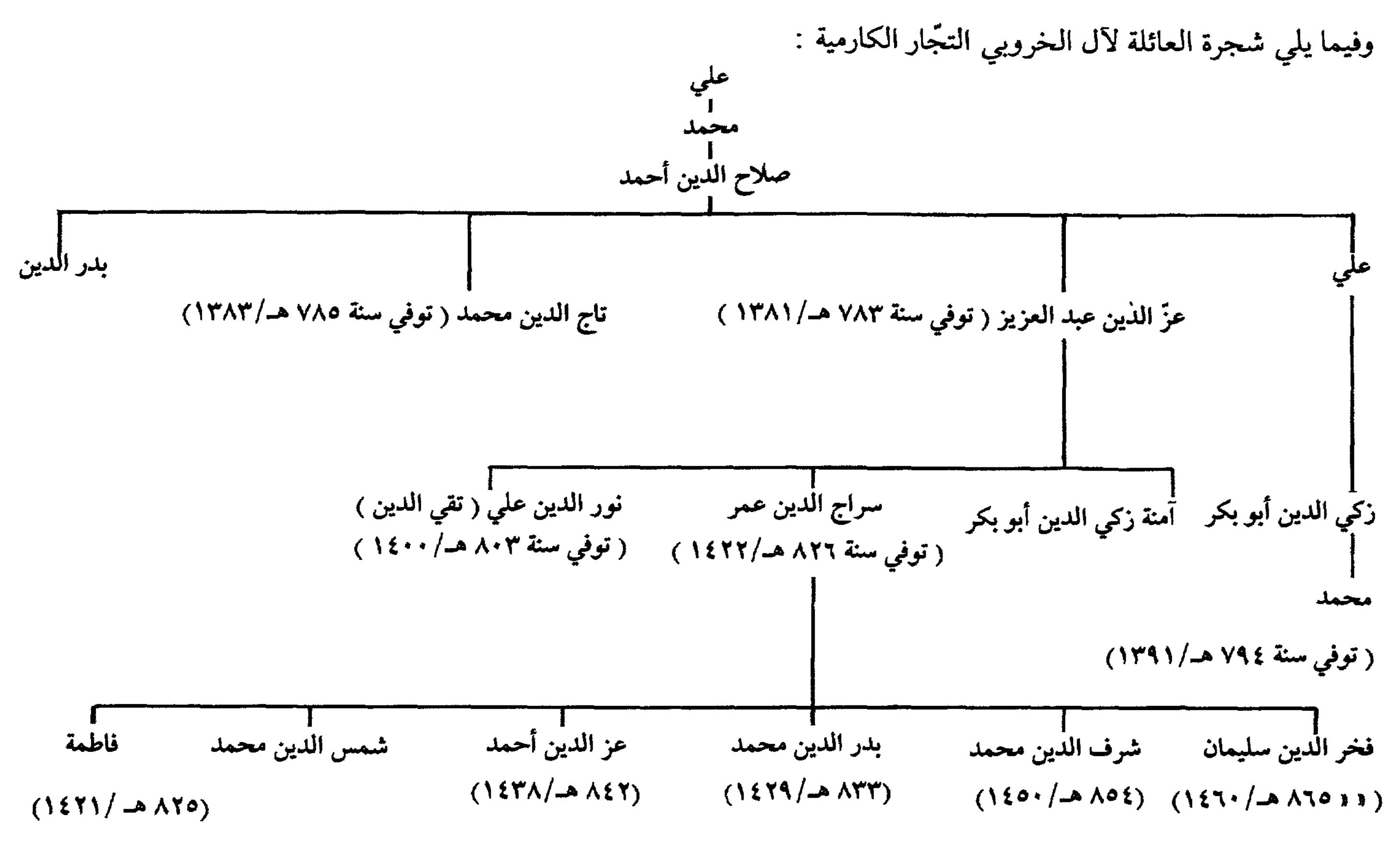
(٢٥) السخاوي ، الضوء اللامع ، جزء ٦ ـ ص ٩٢ .

المقريزي ، المواعظ والاعتبار ، جزء ٢ ـ ص ٣٦٨ .

(٢٦) السخاوي ، الضوء اللامع ، جزء ٦ ـ ص ٢٩٢ ـ جزء ٥ ـ ص ٢٤٠ .

ابن حجر ، أنباء الغمر ، ص f. ٢١١ b .

وفيما يلي شجرة العائلة لآل الخروبي التجّار الكارمية :



وعائلة المحلّي كانت أيضاً عائلة من أغنياء التجار . وشهاب الدين المحلّي كان أعظم تجار مصر في زمانه (كبير تجار مصر)[٢٧] ووالد بدر الدين حسين بن إبراهيم بن عليبة ، برهان الدين إبراهيم المناوي كان تاجراً قديراً (توفي سنة ١٤٧٠) . وأخوه عبد القادر كان السلطان قد عينه وكيلاً تجارياً له في الإسكندرية . « وتعاطى التجارة فسعد بها . . . ولا زال يترقى حتى استقر به السلطان تاجر إسكندرية وتوسع في الاقتراض ووثق به الكبار فمن دونهم لطول يده وجلبه لهم الهدايا والتحف مع الإحسان لغيرهم من الفقراء وتوسعه في ذلك جداً »[٢٨] وقد مات بدر الدين سنة ١٤٨٥ . وقد بنت تلك العائلات الغنية بيوتاً جميلة على ضفاف النيل . ويقال أن بناء قصر برهان الدين المحلّي قد استغرق سبع سنوات[٢٩] ، كما إن الملك المؤيد شيخ قد جدّد سنة ١٤٩١ بناء قصر زكي الدين الخروبي وجعله خانقاه خاصة بعائلته[٣٠] . وتجار الكارمية كأمراء المماليك أنفقوا مبالغ عظيمة لبناء المدارس وأوقفوا عليها العقارات المختلفة لتأمين النفقة لها . ويذكر أن ناصر الدين بن مسلّم قد أسس مدرسة للشافعية وأخرى للمالكية ومدرسة للصبيان[٣١] .

وبرهان الدين المحلّي أيضاً بنى مدرسة ولكنه لبخله لم ينفق عليها لدفع رواتب المعلمين ومصاريف التلامذة[٣٢] . وقد بنيت تلك المدارس بالقرب من قصور مؤسسيها أو ضمن حرمها كما فعل تاج الدين محمد الخروبي[٣٣] .

---

(٢٧) السخاوي ، الضوء اللامع ، جزء ٤ ، ص ٩٨ .
(٢٨) السخاوي ، المصدر نفسه ، جزء ١ ، ص ٤١ ـ ٤٢ ، جزء ٤ ، ص ٢٥٨ ـ ٢٦٠ .
(٢٩) المقريزي ، المواعظ والاعتبار ، جزء ٢ ، ص ٣٦٨ ـ ٣٦٩ .
(٣٠) المقريزي ، المصدر نفسه ، جزء ٢ ، ص ٤٢٦ ـ ٤٢٧ .
(٣١) المقريزي ، المصدر نفسه ، جزء ٢ ، ص ٤٠١ .
(٣٢) المقريزي ، المصدر نفسه ، جزء ٢ ، ص ٣٦٨ ـ ٣٦٩ .
(٣٣) المقريزي ، المصدر نفسه ، مماثل .

على كل حال إن الغنى الزائد للكارمية لا يعني أن تلك العائلات قد حظيت بالسلطة والنفوذ لفترات طويلة ، ففي مجتمع المماليك لا سلطة ولا نفوذ إلا للمماليك أنفسهم ، والدولة نفسها قد سعت بشتى الوسائل لإفقار التجار الكارمية عن طريق الإستدانة والمصادرات حتى أن أعظم العائلات الغنية لم تنعم في ثرائها أكثر من جيلين أو ثلاثة وهناك دليل ساطع يظهره لنا تتبع تاريخ عائلة الخروبي ، فهذه العائلة ظلت غنية لثلاثة أجيال وفي الجيل الرابع أصبحت فقيرة فالسخاوي تحدث كثيراً عن هذه النقطة وذكر أن الجيل الأول تمثل بصلاح الدين أحمد بن محمد بن علي والجيل الثاني بعزّ الدين عبد العزيز والجيل الثالث بابن أخيه زكي الدين أبو بكر وبوالده نور الدين علي . وقد أطلق المؤرخون العرب على نور الدين علي لقب أخير تجار مصر من الخراربة . « كان هو وأبوه وجده من الأكابر تجار مصر . . . وهو آخر تجار مصر من الخراربة »[٣٤] . وتتبع تاريخ عائلة أخرى من تجار الكارمية يعطينا نفس الإنطباع فالسخاوي قد ذكر في الضوء اللامع أن عائلة التاجر الدمشقي شمس الدين محمد بن علي بن المزلّق لم تعمر في غناها لأكثر من ثلاثة أجيال ، فشمس الدين قد مات سنة ١٤٤٤ ، ومثل الجيل الثاني ولداه سراج الدين عمر (مات سنة ١٤٣٨) وبدر الدين حسن (مات سنة ١٤٧٤) أما الجيل الثالث فمثله حفيده إبراهيم (مات سنة ١٤٧٤) وشمس الدين محمد[٣٥] .

والحقيقة أن السلطات المملوكية لم تكن مسؤولة مباشرة عن خراب عائلات التجار الكارمية بالرغم من المصادرات وعمليات الاقتراض الكبيرة

---

(٣٤) السخاوي ، الضوء اللامع ، جزء ٥ ، ص ٢٤٠ .

(٣٥) السخاوي ، المصدر نفسه ، جزء ١ ، ص ٤١ ، جزء ٣ ، ص ١٢٦ جزء ٦ ، ص ١٢٠ ، جزء ٨ ، ص ١٧٣ ـ ١٧٤ ، نعت السخاوي عمر بن شمس الدين بن المزلّق بالخواجا بن الخواجا ووصفه بالجناب العالي الخواجكي (جزء ٦ ، ص ١٢٠) وهذه إشارة إلى تعاطي عائلة المزلّق تجارة الرقيق إلى جانب تجارة الكارم .

ولكن السبب الأهم يعود إلى النتائج الناجمة عن تطور الاقتصاد والتجارة في سلطنة المماليك . فالسلطات المملوكيةعمدت في النصف الثاني للقرن الخامس عشر إلى إحتكار جزء كبير من تجارة التوابل والفلفل وأصبح كبار التجار الكارمية يعملون لصالح السلطان الذي كان يسعى أبداً لاحراز المزيد من الأرباح من تجارة الفلفل ، وقد انعكس هذا التدبير على وضع الكارمية ككل فقلّ ثراؤهم وتلاشوا كما إنعكس ذلك على علاقة السلطنة مع المدن الإيطالية فقلّت كمية ونوعية الفلفل لأن تجارته أصبحت تجارة غير حرّة فارتفعت الأسعار وأجبر التجار الإيطاليون على شراء كميات محددة من الفلفل المغشوش بالتراب والعائد إلى الذخيرة السلطانية الشريفة مما دفع المدن الإيطالية وخاصة البندقية إلى التذمر وإرسال السفارات إلى القاهرة لاعادة الأمور إلى نصابها .

والسؤال المطروح هل شكل تجار الكارمية مجتمعاً خاصاً بهم ؟

المصادر العربية تحدثت عن عائلات التجار الكارمية ولكنها لم تشر إلى تنظيمات أو مجتمعات عائدة للكارمية .

ابن حجر أشار إلى أنه في بداية عهد الملك الناصر كان هناك أكثر من مئتي (٢٠٠)كارمي في مصر وكان لديهم أكثر من مئة وكيل ومستخدم يسافرون ويبحرون من بلد إلى بلد للإتجار باسمهم(٣٦) .

ومما لا شك فيه أنهم شكلوا مجموعة خاصة من كبار رجال الأعمال وكانوا يتعاونون فيما بينهم وكان كبير تجارهم يدعى رئيس الكارمية وهو شيخهم وله مكانة اجتماعية وأدبية بينهم . وإن كان هو مرجعهم وضابط أمورهم إلا أن هذا لا يعني أن تجار الكارمية قد شكلوا جمعية خاصة بهم أو كان لهم تنظيمهم الخاص ورتبهم أو مقاماتهم فكلمة الكارمي هي نسبة إلى الكارم أي الفلفل

---

(٣٦) ابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ورقة رقم f. 16a.

Ashtor. E, The Kārimī Merchants, p. 50 .

وهي تشير إلى اختصاصهم وتجارتهم وليس إلى انتمائهم الاجتماعي . وعندما يمر بنا لقب رئيس الكارمية علينا أن لا نستنتج من هذا اللقب وجود مؤسسة لها رئيسها ونائب الرئيس ومجلس الأعيان والأعضاء وبالشكل الذي نعرفه اليوم فهذه الأمور لم تكن معهودة في سلطنة المماليك بل كان لكل حرفة رئيس ولكل اختصاص شيخ ، فهذا رئيس الشافعية بمصر وهذا رئيس اللحامين وذاك شيخ البلد . فرئيس الشافعية كان يستشار بمذهبه وله نفوذ عظيم في ملّته وكان يستمد قوته من تراثه الديني كتنظيم الفتوة ذات الجذور التاريخية الدينية التي كانت تفتقر إليها جماعة الكارمية التي كانت تربطها فقط المصالح التجارية والتي كانت تشد أواصرها عن طريق التزاوج . ومصدر سلطة رئيس الكارمية كان يتمظهر بثرائه ومكانته وبكونه كان يمثل مع بعض أقرانه المرموقين ، كافة التجار الكارمية أمام السلطات المملوكية التي كانت تعترف بهذا التمثيل وتقدره . فمن هذا الواقع كان رئيس الكارمية وأقرانه يأخذون القرارات المتعلقة بتجارتهم أو بما تشير عليهم السلطات فيلتزم بها جميع تجار الكارم . وهذه الأمور كانت تجري على العادة أو العرف وليس هناك من مبادىء أو دساتير مكتوبة[٣٧]ولقد بلغ الكارمية درجة مرموقة من الغنى والنجاح خلال فترة المماليك البحرية وعن بداية نشاطهم يحدثنا المقريزي فيقول إنهم جاؤوا إلى مصر في سنة ١١٨١ وكان عليهم أن يدفعوا ما يتوجب عليهم من رسوم[٣٨] .

كما ذكر القلقشندي في صبح الأعشى أنه كان للفاطميين أسطول في مرفأ عيذاب لحماية مراكب الكارمية من القرصان وأن الفاطميين قد قاموا بجهود عظيمة لتمويل تجارة التوابل من الخليج الفارسي (العربي) إلى البحر الأحمر[٣٩] .

---

(٣٧) Ashtor. E, The Kārimī Merchants, p. 52.

(٣٨) المقريزي، كتاب السلوك، جزء ١، ص ٧٢ - ٧٣.

(٣٩) القلقشندي، صبح الأعشى، جزء ٣، ص ٥٢٤.
لمعرفة مكانة العلاقات التجارية في سياسة الفاطميين انظر مقالة
ب . لويس .Lewis. B, « The Fatimids and the route to India ».=

وخلال فترة حكم المماليك البحرية إحتكر الكارمية تقريباً تجارة التوابل ما بين اليمن ومصر وأزاحوا تدريجياً صغار التجار الذين عملوا في هذا الحقل منذ أيام الفاطميين . والحقيقة أن السلطات المملوكية بسياستها الاقتصادية قد عملت على التضييق على التجار الصغار عن طريق نظام الضرائب والاحتكار وقد زادت هذه التدابير في ثراء الكارمية ثراء فاحشاً حتى أصبحوا لكثرة غناهم يلعبون دوراً مماثلاً لبنك التسليف. ففي سنة ٧١١ هـ/١٣١١ كان السلطان الناصر محمد قد أخذ من تجار الفرنج بضاعة بقيمة ١٦٠٠٠ دينار وطلب منهم أن يستوفوا حقهم من تجار الكارمية ففعلوا . وقد أقرض تجار الكارمية أموالاً كثيرة لسلاطين وملوك عدة ، فابن قويق أقرض سلطان مالي مبلغاً من المال أثناء زيارته للقاهرة ، وفي سنة ١٣٥١ أدانوا ملك اليمن مبلغ ٠٠٠ ، ٤٠٠ دينار لدفع الفدية للسلطان الذي سجنه كما أعطوه مبلغ مئة ألف دينار اضافة لدفع مصاريف عودته إلى بلاده . وكانت أم سلطان اليمن قد لجأت إلى تجار الكارمية لدفع المبالغ اللازمة لولدها تحت طائلة التهديد بمصادرة بضائعهم في عدن(٤٠) .

وسلطان مصر نفسه إستدان منهم وطلب مساعدتهم ، ففي سنة ١٣٥٢ عندما أعلن نواب سوريا العصيان على السلطان ، طلب السلطان أخذ الأموال اللازمة من الكارمية لتجهيز تجريدة على سوريا . ففعل التجار الكارمية بعد أن سمح لهم بشراء سلع ومحاصيل من مخازن وشون السلطان وبأسعار مخفضة (٤١) .

= المنشورة في : Revue de la Faculté des Sciences Economiques de l'université d'Istanbul, II, pp. 50-54.

(٤٠) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، طبعة بوبر، جزء ٥، الصفحات ٨٩ ـ ٩٠، ١١٧ ؛
Ira. Lapidus, Muslim Cities in the Later Middle Ages, Cambridge University Press, Cambridge 1982, p. 121.

(٤١) ابن تغري بردي، المصدر نفسه، جزء ٥، ص ١٢١ ؛
Ashtor. E, The Kārimī Merchants, p. 53.

والسلطان برقوق اضطر في العقد الأخير من القرن الثامن الهجري (١٣٩٤) إلى الاستدانة من وجهاء تجار الكارمية فأقرضه ابن مسلّم والمحلّي والخروبي ما مجموعه ألف ألف درهم ، وسبب ذلك ما تناقلته الأخبار عن حشودات للمغول على الحدود السورية فقررت السلطات المملوكية إرسال تجريدة إلى شمال البلاد لدرء الخطر المغولي الجاثم[٤٢] . وفي سنة ١٤٠٣ عندما هاجم الفرنج ثغر الإسكندرية جرّد المماليك حملة للدفاع عن مرفأهم الرئيسي على المتوسط وقد ساهم برهان الدين المحلّي بمبلغ كبير من المال لتجهيز هذه التجريدة[٤٣] .

ونتيجة لتساهل السلطات المملوكية مع تجار الكارمية فقد وصل هؤلاء إلى قمّة ثرائهم ومكانتهم في نهاية القرن الرابع عشر وخلال فترة حكم السلطان برقوق . وتابع الكارمية لعب دور الممولين للدولة والسلطان يغضّ النظر عنهم طالما يلبونه بالأموال اللازمة عند الضرورة .

ومع بداية القرن الخامس عشر وركود الاقتصاد في سلطنة المماليك لأسباب مختلفة واحتكار السلطات المصرية لتجارة التوابل حل الخراب بتجار الكارمية وبدأنا نقرأ في المصادر العربية مقاطع تشير إلى آخر التجار الكارمية .

فالعيني في عقد الجمان يذكر أن زكي الدين أبو بكر الخروبي كان آخر الكارمية[٤٤] في مصر من الخراربة وبه اختفوا من الوجود . وهذا لا يعني أن

---

(٤٢) ابن تغري بردي، المصدر نفسه، جزء ٥، ص ٥٦٢ ؛

Lapidus. I, Muslim Cities, p. 121.

(٤٣) ابن حجر، أنباء الغمر، ورقة (f. 125 a) ؛

Ashtor. E, Op. Cit., p. 53.

(٤٤) العيني ، عقد الجمان ، ص(f. 577 b) ؛
السخاوي، الضوء اللامع، جزء ٥، ص ٢٤ ؟

Ashtor. E, Op. Cit., p. 54.

الكارمية قد انقرضوا ولكن تجارة التوابل لم تعد تجارة حرة والتجار الكارمية أصبحوا تجاراً عاديين كغيرهم من التجار ولم يعد عملهم مقصوراً على تجارة التوابل والسلطات المملوكية بعد احتكارها لتجارة الفلفل قد تشددت في معاملة الكارمية المتبقين وعينت النّظار لجباية رسوم التوابل . هذه الإجراءات جاءت نتيجة لتقهقر اقتصاد مصر فقلّت واردات الدولة التي سعت إلى مزيد من الضغوطات على تجّار الكارمية وإلى مزيد من التحكم في تجارة التوابل . ولكن التشدد الزائد ، بالرغم من التضييق على حرية الحركة لدى الكارمية ، لم يقض عليهم باعتبار أن السلطة والرأي العام كانا واعيين لأهمية إتجار الكارمية بالتوابل بالنسبة لاقتصاد مصر . وخير دليل على ذلك أنه عندما حل وباء الطاعون سنة ١٤٣٠ سأل السلطان برسباي الفقهاء والعلماء عن أسباب هذه الكارثة فأجيب أن من بين الأسباب ، الإجراءات المجحفة التي اتخذتها السلطة بحق التجّار الكارمية(٤٥) .

ولم يقتصر عمل الكارمية على الإتجار بالتوابل ما بين مصر واليمن ، بل كان هناك تجاراً منهم بدمشق وأشهرهم تاج الدين ابن الرهائلي ، نسبة إلى الرها في سوريا وكان من أعظم كارمية دمشق والقاهرة وقد ذكر المؤرخ الدمشقي ابن كثير أن تاج الدين ، الذي مات ١٣٣١ ، قد ترك ثروة قوامها مئة ألف دينار نقداً وكثيراً من السلع والبيوت الجميلة والأطيان(٤٦) .

والقلقشندي ذكر أيضاً في حديثه عن التنظيمات الإدارية للمماليك في سوريا أن هناك مجموعة من تجار الكارم في دمشق وفي قائمة عمّال مقاطعة

---

(٤٥) ابن حجر، أنباء الغمر، ص (f. 235 b)

Ashtor. E, The Kārimī Merchants, p. 54.

(٤٦) ابن كثير، البداية والنهاية، جزء ١٤، القاهرة ١٣٥١ - ١٣٥٨، ص ١٥٦ ؛ المصدر السابق، ص ٤٦ .Ashtor. E, Op. Cit., p. 46

دمشق ذكر شاد الزكاة الذي كان مولجاً أيضاً بالتعامل بتجارة الكارم وما شابه ذلك[٤٧] .

إن تجار الكارم كانوا جماعة من المسلمين ولا شك ولم يشر المؤرخون العرب إلى ديانتهم وهذا أمر طبيعي وليس بمستغرب ولو كان الأمر خلاف ذلك لذكره القلقشندي والمقريزي وابن حجر ، وأن تتبع دراسة فيشيل عن تجار الكارم يوحي بأنهم كانوا من المسلمين دون شك . غير أنه وردت في إحدى الوثائق اليهودية العربية المحفوظة في المتحف البريطاني عبارة جاء فيها « هناك رحلوا مع كارمية إخواننا اليهود »[٤٨] .

وهذه العبارة التي تشير إلى الكارمية لا توضح عما إذا كان هؤلاء الكارمية هم من اليهود أو أنهم يتعاملون مع اليهود بالإتجار بالفلفل كغيرهم من الطوائف . ومما لا شك فيه أنه في دولة مسلمة كسلطنة المماليك كان من الصعب وجود تاجر يهودي بين تجار الكارم المرموقين ولعل الأقرب إلى المنطق والصواب إحتمال وجود تاجر كارمي من أصل يهودي إذ لا مجال لوجوده في مجموعة غنية ومقربة إلى السلطات قبل إعتناقه الإسلام وهذا ممكن ومقبول. وكم من أمير حظي بمرتبة ترجمان السلطان وكان من أصل يهودي فالأمير تغري بردي الترجمان كان من أصل يهودي والأمير يونس الترجمان من بعده كان أيضاً من أصل يهودي ولا نستبعدنّ وجود تاجر كارمي من أصل يهودي أيضاً .

وإذا كان تجار الكارم قد اقتصروا في غالبية نشاطاتهم على الإتجار بالتوابل كما ذكر القلقشندي[٤٩] إلا أنهم إنغمسوا في نشاطات أخرى متعددة

---

(٤٧) القلقشندي ، صبح الأعشى ، جزء ٤ ، ص ١٨٧ .

(٤٨) British Museum or. 5549, III, f. 5r.

انظر :

Catalogue of Margoliouth no. 1135, pt. III, p. 563.

Ashtor. E, The Kārimī Merchants, p. 55.

(٤٩) القلقشندي ، صبح الأعشى ، جزء ١٣ ، ص ٣٤١ .

الجوانب ، فالمقريزي أشار في خططه إلى أن ناصر الدين محمد بن مسلّم كان لديه عدة عمّال فأرسل أحدهم إلى الهند ، وأرسل آخر إلى سواحل الأطلسي جهات أفريقيا ، والثالث إلى الحبشة وآخرين إلى جهات أخرى .

إن نشاطات تاجر الدين هذا توحي وكأنه كان يتجر بالرقيق ، فلأي غرض كان يرسل عماله إلى الحبشة وغربي السودان لغير جلب العبيد أو الذهب ، وقد ذكر المقريزي أن تجار الكارم أنفسهم لم يتوانوا عن السفر إلى جهات الهند ، فعبد العزيز بن منصور الكارمي قد قام بخمس رحلات إلى جهات الصين وكان يسمّى الكولامي نسبة إلى كولام مرفأ المالابار المشهور(٥٠)

وابن حجر قد ذكر أن هذا التاجر قد بدأ حياته بالسفر إلى جهات الهند وجلب منها الحرير إلى حلب(٥١) ، وأنه قدم إلى عدن سنة ٧٠٣ هـ / ١٣٠٤ عائداً من جهات الهند والصين وإنه جلب معه الحرير والمسك والقاشاني والعبيد(٥٢) .

إن ظاهرة طبقة التجار الكارمية هي ظاهرة فريدة من نوعها أثبتت مدى نجاح الأفراد والمجموعات في التجارة الحرة خاصة تجارة التوابل وتأمين استيرادها من الهند وإعادة تصديرها إلى جنوب أوروبا . لقد لعب تجار الكارمية دور همزة الوصل ما بين الشرق والغرب وجنوا من وراء ذلك الربح الوفير ولما اضطروا إلى التوقف عن لعب هذا الدور والابتعاد عن الصدارة في التحكم بتجارة التوابل، اضطربت هذه التجارة وكان لذلك انعكاسات خطيرة. وتفصيل ذلك أنه اعتباراً من الربع الثاني من القرن الخامس عشر ضعفت طبقة تجار الكارمية إلى حد خطير نتيجة الاجراءات التي اتخذها السلطان برسباي

(٥٠) المقريزي، كتاب السلوك، جزء ٢، ص ١٣٢ ـ ١٣٣ .

(٥١) ابن حجر، الدرر الكامنة، جز ٢ ، حيدر اباد، ١٣٤٨ هـ ـ ١٣٥٠ هـ ص ٣٨٣ .

(٥٢) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، جزء ١، ص ٣٥٠ ؛

Ashtor. E, The Kārimī Merchants, p. 56.

والهادفة إلى إحتكار تجارة التوابل من أجل تحقيق المزيد من الأرباح . إن هذه الإجراءات لا تعني أن هذه التجارة لم تعد حرة كما كانت ولكنها تابعت مثقلة نتيجة تدخل السلطان والأفراد ونتيجة لإعتزال كبار الكارمية العمل الحر وإنخراطهم في خدمة السلطان والعمل كوكلاء له كابن عليبة الكارمي الذي كان من تجار السلطان قايتباي في الإسكندرية وقد أسره الفرنج في شهر رمضان سنة ٨٨٠ هـ/ كانون الثاني ١٤٧٦ « وفيه جاءت الأخبار من ثغر الإسكندرية بأن بعض تجار الفرنج احتال على تجار الإسكندرية حتى أسرهم وكان منهم تجار السلطان : ابن عليبة ، وابن يعقوب ، وعلي الكيزاني ، وعلي النمراوي ، فلما أسروهم خرجوا بهم من إسكندرية في الوقت والساعة ، وتوجهوا بهم إلى بلاد الفرنج ، فاضطربت أحوال إسكندرية وكادت أن تخرب »[٥٣].

وكان من نتيجة هذه الحادثة أن أمر السلطان بالقبض على جميع الفرنج الذين بالإسكندرية فقبض على تجار الفرنج الذين بسائر السواحل وأودعوا في الحديد وألزموا بأن يكاتبوا ملوك الفرنج بما جرى عليهم من السلطان بسبب التجار ويضيف ابن أياس أن الفرنج أطلقوا من كان عندهم من التجار الذين كانوا أسروهم « وقد اشتروا أنفسهم بمال له صورة »[٥٤] .

أما ابن عليبة فقد مات نتيجة لهذه الحادثة « واستمر ابن عليبة من يومئذ مريضاً إلى أن مات بعد مدة »[٥٥] . إن هذه الحادثة تعطينا صورة عما آلت إليه أمور تجار الكارم الذين أصبحوا يطبقون سياسة السلطان وينفذون رغباته . ويقال أن عبد القادر ابن عليبة تاجر السلطان كان يتشدد في معاملة التجار الفرنج وقد أقدم على سجن أحد التجار البنادقة في بيته مما دفع سلطات البندقية إلى ارسال السفير زوان ديدو Zuan Dedo في مطلع سنة ١٤٧٦ إلى

(٥٣) ابن اياس، بدائع الزهور، جزء ٣، ص ١١٤ .

(٥٤) ابن اياس، المصدر نفسه، جزء ٣ ص ١١٤ .

(٥٥) ابن اياس، المصدر نفسه، جزء ٣، ص ١١٩ .

القاهرة للاتفاق مع السلطان حول كمية البهار التي يتوجب على البندقية شراؤها منه وإبلاغ السلطان عن موافقة البندقية على شراء حملين من بهار الذخيرة الشريفة مقابل كل ألف دوكا يشتري بها فلفل من السوق الحرة ، وكان على السفير البندقي أن يحتج بشكل خاص لدى السلطان على ما قام به ابن عليبة لجهة احتجازه رعايا البندقية دون وجه حق . وكان من نتيجة تعسف ابن عليبة أن أقدم بعض تجار الفرنج من مقاطعة البروفنس Provincial Merchants على أسره مع بعض تجار السلطان في الإسكندرية وأخذه إلى رودوس كما ذكر ابن أياس ، وقد تحملت البندقية وزر هذه الحادثة فقبض على تجارها في مصر والشام وتعهدت بإطلاق سراح الأسرى المسلمين ووضعت ضمانة لذلك مبلغاً قدره عشرة آلاف دوكا يستعاد حين عودة الأسرى . ولما كانت البندقية على علاقة غير طيبة مع فرسان الاسبتارية في رودوس فإن الأسرى لم يطلق سراحهم إلا بعد دفع الفدية من أموال التجار ولذلك لم ترجع السلطات المصرية إلى البندقية الضمانة التي وضعتها[٥٦] .

لا شك أن غياب الكارمية كوسطاء في بيع التوابل الشرقية أضرّ بهذه التجارة خاصة بعد إقدام السلطات المملوكية على تحديد أسعار البهار وإجبار التجار الإيطاليين على شراء كميات محددة من بهار الذخيرة السلطانية الشريفة . فأحجم الإيطاليون عن شرائها فلاقوا أشد أعمال العسف والهوان على أيدي عمال ونواب السلطان[٥٧] مما دفع البندقية وغيرها إلى إرسال الكتب والسفارات إلى سلاطين المماليك لتسوية هذه الأمور والتهديد أحياناً بالتحول عن أسواق الإسكندرية وبيروت إلى أسواق أخرى .

إن أول تسوية حصلت لموضوع تحديد سعر التوابل الشريفة حصل سنة

---

(٥٦) Ashtor. E, Levant Trade in the Later Middle Ages, pp. 457-8.

(٥٧) نعيم زكي فهمي : طرق التجارة الدولية، ص ١٩٢ - ١٩٣ ؛
سعيد عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام، ٢٩١، ٢٩٥ .

١٤٦١ عندما أرسل السلطان أحمد ابن السلطان إينال خطاباً إلى دوق البندقية يصر فيه على إبقاء سعر التوابل الشريفة ١٠٠ دوكات للحمل الواحد دون تنزيل ، تسليم الإسكندرية[٥٨] . وبعد مفاوضات طويلة تم الإتفاق على تحديد سعر الحمل الواحد من توابل الذخيرة الشريفة بـ ٨٠ دوكات على أن يلزم تجار البندقية بشراء ٢١٠ أحمال من هذه التوابل كل عام[٥٩] . أما في سوريا فالسؤال المطروح كان حول عدد الأحمال من الفلفل التي يتوجب على البنادقة شراؤها . ففي سنة ١٤٦٧ قضي عليهم بشراء ٢٢٩ حملاً من دمشق وفي سنة ١٤٦٨ ، اشتروا ٣٠٨ أحمال[٦٠] . إن قسوة وجشع سلطات المماليك في سوريا خاصة قد أضرا بتجارة التوابل وأفرزا عدة مشاكل كانت تستدعي الحل المناسب عن طريق المراسلات أو السفارات بين المماليك والإيطاليين. وفي اعتقادنا أنه لو بقي تجار الكارم يمارسون نشاطاتهم التجارية ويقومون بدورهم كوسطاء لتجارة التوابل ما بين الشرق والغرب بحرية ودون ضغوطات من قبل السلطات المملوكية لاستمرت تجارة الفلفل مزدهرة دون عراقيل ولما حصلت تلك الإشكالات والنزاعات التي أدت إلى تأزم العلاقات ما بين الإيطاليين والمماليك وإلى تدهور تجارة السلع الشرقية . ولعل غياب طبقة تجار الكارم كان من الأسباب غير المباشرة التي شجعت البرتغاليين لإكتشاف طريق الهند

---

(٥٨) Depping, Histoire du Commerce, T. II, p. 218 and ff ;

نعيم زكي فهمي : المصدر السابق، ص ٣٧٣.

(٥٩) نص اتفاقية السفير البندقي «ترفيزان» والسلطان «الغوري» ١٥١١/١٥١٢ .

Reinaud. M, Journal Asiatique , T. IV ;

- نعيم زكي فهمي : المصدر السابق، ص ٤٠٩، ٤١٠، ٤١٨، ٤١٩ ؛

- Marino Sanuto, Diarii II, cols. 165, 175, 1198 ;

- Ashtor. E, «Levant Trade», p. 451.

(٦٠) - Ashtor. E, Ibid., p. 451 ;

- Senato Mar. VIII, f. 192a.

عبر رأس الرجاء الصالح في محاولـة للحصول على التـوابل دون اللجـوء إلى شـرائها عن طـريق سلطات المماليـك والوقـوع تحت رحمتها إمـا لجهة سـوء المعاملة أم لجهة تحديد الأسعار والكمية المشتراة. ولو ظل التعامل بواسطة تجار الكارم دون قيود أو إكراه لما تشجع البرتغاليون أو غيرهم لمقاطعـة المماليـك والبحث عن سبل أخرى لتأمين وشراء التوابل .

ب ـ الرقـيــق

إن الرقيق كان من الأسس الرئيسية التي قامت عليها سلطنة المماليك ، فكما كان الفلفل والبهار مصـدر ثـراء السلطنـة فإن الـرقيق كان مصـدر قوتهـا واستمرارها .

إن طبيعة تكوين مجتمع المماليك العسكري حملت سلاطين المماليك منذ القرن الثالث عشر إلى تزويد جيوشهم بعناصر بشريـة شابـة استقدمت من آسيا الصغرى وأرمينيا والبلاد المجاورة لشواطىء البحر الأسود وقد دفعهم إلى ذلك اعتباران : الأول أن مجتمع المماليك مجتمع مغلق لا يُدخل إليه إلا عن طريق الرق والثاني أن سكان السلطنة اعتبروا غير مؤهلين لمهنة حمل السلاح . وبالإضافة إلى الفتيان المخصصين للتدريب والانخراط في الجيش والتدرج فيه عمد المماليك إلى استيراد الفتيات والنساء الشـابات من نفس المـواطن لملء قصورهم وسد حاجاتهم الإنسانية والاجتماعية .

ولهذا السبب أرسل المماليك وكلاءهم لجلب الرقيق من كـافة الأنحـاء وحيثما توفر لهم ذلك ولم يهتموا كثيراً لدياناتهم في بلد المنشأ ، فمن تـرعرع مسيحيـاً فبإمكانه إعتناق الإسلام كما فعل كثيـر من أسياده من قبـل ، غير أن المماليك كانوا يفضّلون بالإجمال الرقيق الآتي من البلاد الإسلامية ولهذا كانوا يرسلون وكلاءهم إلى تلك البلاد كما كانوا يشجعون التجار المسلمين القادمين إلى مصر من بلاد إسلامية ومعهم جماعات كثيرة من الرقيق لبيعها . .(٦١) .

(٦١) Ieyd. H, Histoire du Commerce du Levant, vol.II- p. 556.

وهكذا كان مرفأ ستاليا Stalia وكاندلـور Candelore في آسيا الصغـرى التي أخضعها السلاجقة مركز تصدير الفتيان والفتيـات إلى مصر . ولمـا سيطر العثمـانيون على أجـزاء كبيرة من اليـونـان أصبحت أنـدرنـوبـل Andrinople وغاللي بولي Gallipoly مركز إنطلاق المراكب اليونانية أو المسيحية التي كانت تحمل الرقيق إلى دمياط أو الإسكندرية بالمئات .

غيـر أن البلدان المجاورة لضفـاف البحر الأسـود تعتبر من أهم مـراكـز التصدير للرقيق وقد ازدهرت تجارة الرقيق في تلك المناطق نظراً لتعـاظم نفوذ سلطنـة المماليـك ولإنتشار الإسـلام في سلطنة المغـول كيبتشـاك Kiptchak والـواقعة الى الشـرق من البحـر الأسـود حيث تبـادل صـاحبهـا ألخـان بـركـة المراسلات والسفـارات مع سلطنـة المماليـك ، ومنذ تلك الفتـرة دأب وكلاء سلاطين مصر إلى التوجه إلى تلك الجهات من البحر الأسود لشراء الرقيق .

وقد نجح السلطان بيبرس عن طريق السفـارات والهدايـا أن يحصل من ميشال باليـولوج Michel Paleologue أمبـراطور بيـزنطه على تـرخيص لمرور المراكب المصرية التجارية عبر البوسفور ، والترخيص نص على مرور مركب واحد في السنة غير أنه سمح لمركبين بـالتوجـه إلى البحر الأسـود لتحميل مـا يمكن تحميله من الرقيق لدعم جيش السلطان .

إن حالة تلك النواحي وما يسودها من اضطرابات ناجمة عن صراع التتر والقبائل غير المنضوية في سلطنة كيبتشاك كالروس والجركس وغيـرهم جعلت تجارة الرقيق مزدهرة باعتبار أن القبائل كانت تخطف أولاد التتر وتبيعهم كالعبيد كما أن التتر كانوا أيضاً يبيعون أسراهم الذين يجلبونهم في غاراتهم على بـلاد القوقاز بالإضافة إلى أن شظف العيش عند تلك الشعوب وغلاء المواد الغذائية

= - نعيم زكي فهمي، طرق التجارة الدولية، ص ٢٢٠ .
- سعيد عاشور، المجتمع المصري في عصر المماليك، ص ١١ .

والضرائب الفادحة كانت تجبر الأهالي على بيع أولادهم خاصة الفتيات. وما كان يباع سوى الأولاد الأصحاء أصحاب الحيوية وجميلي المحيّا[٦٢] . وقد لعب الإيطاليون دوراً هاماً في هذه التجارة باعتبار أن التتر والقبائل المتصارعة كانوا لا يملكون مرافىء كبيرة على شواطىء البحر الأسود في حين خضعت كافا Caffa وتانا Tana لسيطرة الإيطاليين فتركزت تجارة الرقيق في هذين المرفأين خاصة في كافا حيث كان يتوجه إليها وكلاء سلاطين مصر لشراء الرقيق وكان البعض منهم يقيم فيها بصورة دائمة[٦٣] .

كانت كافا خاضعة لسيطرة الجنويين الذين ساءهم أن يجري تسفير الرقيق إلى مصر عبر هذا المرفأ ولم يكن باستطاعة الجنويين وضع العراقيل أمام وكلاء السلطان مخافة أن يلحقوا الضرر بتجارتهم مع مصر وحتى لا يعرضوا محمياتهم في شرقي المتوسط للخطر والضياع[٦٤] . غير أن السلطات الجنوية تشددت كثيراً في مراقبة هذه التجارة فكان كل عبد يستجوب وكان يسأل عما إذا كان مسلماً أو مسيحياً . فمن كان مسيحياً أو راغباً في اعتناق الديانة المسيحية كان قنصل كافا الجنوي يشتريه ويبقيه لديه وكان لا يسمح بالسفر إلا للأرقاء المسلمين وكان لا يسمح أيضاً باسترقاق سكان كافا وتسفيرهم. وقد عمدت

---

(٦٢) هايد ، المصدر السابق ، ص ٥٥٦ .

Heyd. W, Histoire du Commerce, Tome II, p. 556 ;

Depping, G. B. Histoire du Commerce Entre le Levant et l'Europe Tome II, p. 289 ;

ـ نعيم زكي فهمي، طرق التجارة، ص ٢٢١ .

(٦٣) Piloti. E, Traité d'Emmanuel Piloti de Crète, ed. Dopp., pp. 332, 339 ;

ـ هايد، المصدر السابق، ص ٥٥٦ ـ ٥٥٧ Heyd. W,

(٦٤) في سنة ١٤٣١ ، وبعد عدة مفاوضات مع السلطان وافقت جمهورية جنوى على جلب رقيق سلطان مصر عبر مرفأ كافا.

المصدر السابق ، ص ٥٥٧ Heyd. W,

جمهورية جنوى إلى فرض ضريبة باهظة في سنة ١٤٣١ على تجارة الرقيق بالرغم من اعتراض السلطان برسباي الذي اضطر فيما بعد إلى إتخاذ إجراء مضاد عن طريق فرض غرامة قدرها ١٦٠٠ دوكات على تجار جنوى المقيمين في مصر(٦٥) . ومع ذلك لم تسمح سلطات جنوى إلا بتجارة الأرقاء المسلمين وشرط أن يجري تسفيرهم إلى مصر بواسطة وكلاء مسلمين وعلى متن مراكب إسلامية وقد حرّم على ربابنة المراكب الجنوية وبشكل قاطع وتحت طائلة فرض الغرامات الفادحة أن يقلّوا أياً من الأرقاء الذكور والإناث بهدف تسفيرهم إلى مصر أو شمالي أفريقيا أو جهات الأندلس . ولم يسمح لأي مواطن بالمساهمة بهذه التجارة وبأي شكل من الأشكال(٦٦) .

كما حرّم على المراكب البندقية أن تنقل على متنها من تانا الأرقاء المسلمين بهدف نقلهم إلى سلطنة المماليك(٦٧) .

غير أن هذه القوانين لم تمنع بعض المسيحيين العاملين على ضفاف البحر الأسود من إرسال أرتال من العبيد إلى مصر .

ففي أوائل القرن الرابع عشر قام المواطن الجنوي سغورانو سلفاجو Segurano Salvago شخصياً بسوق أرقاء من كلا الجنسين إلى سلطان مصر ، وهناك مواطن آخر يدعى جانتيل أمبريالي Gentile Imperiali قَبلَ أن يكون وكيل السلطان في كافا لشراء العبيد(٦٨) . وكان كثير من الجنويين يساهم

---

(٦٥) هايد، المصدر السابق، ص ٥٥٧ Heyd. W,

(٦٦) أصدرت جنوى قوانين التحريم هذه سنة ١٣١٦ وسنة ١٣٤٠ وسنة ١٤٠٣ .
هايد، المصدر السابق، ص ٥٥٧ Heyd. W,

(٦٧) هايد، المصدر نفسه، ص ٥٥٨ Heyd. W,

(٦٨) الرحالة برتراندون دي لا بروكيار Bertrandon de la Brocquière شاهده في دمشق سنة ١٤٣٢ .

De la Brocquière. B, Voyage d'outre-mer, éd. Schefer, Paris 1892, p. 510.

بطريقة غيز مباشرة في نقل الرقيق إلى مصر وكانت العملية بسيطة إذ يكفي أن يؤجر هؤلاء مراكبهم لهذه الغاية إلى تجار الرقيق المسلمين .

وكانت إتهامات البابا حنا الثاني والعشرين لها أساس حين أتهم علناً الجنويين بالمساعدة في زيادة قوة (المماليك) الكفار عن طريق تزويدهم بالرقيق[٦٩] . ولم يتورع كثير من المسيحيين واليهود عن التورط بتجارة الرقيق في كافا وتانا فباعوا حتى الأرقاء من أصل مسيحي بهدف جناء الربح الوفير مما حمل البابوية على التنديد بذلك والتهديد بالحرمان الكنسي لكل مسيحي ضليع بتلك التجارة كما هددت بإجبار اليهود بوضع شارات مميزة على ثيابهم في حال تعاطيهم تلك التجارة أيضاً[٧٠] . وهكذا كان يصل إلى سوق الرقيق في القاهرة كل عام وعبر دمياط أو الإسكندرية[٧١] حوالي ٢٠٠٠ مملوك حيث كان يعاينهم خبراء السلطان وكان يعطي للتتر السعر الأعلى فيدفع لشراء كل تتري مبلغ ما بين ١٣٠ و١٤٠ دوكات وسبب ذلك يعود إلى صفة التتر المميزة وهي إخلاصهم وتعلقهم بأسيادهم ولذلك كان مماليك مصر يقدرون هذه الصفة في أشخاص اختيروا لإمتهان حرفة السلاح . أما الجركسي فكان يدفع به ما بين ١١٠ و١٢٠ دوكات في حين كان يدفع للاغريقي حوالي ٩٠ دوكات وللألباني والعربي ما بين ٧٠ و٨٠ دوكات وكان التجار ينعمون بالربح الوفير من جهة وبرضى السلطان لما يقدمونه من خدمات للإسلام من جهة ثانية[٧٢] . ويلاحظ أن قسماً

---

(٦٩) هايد، المصدر السابق، ص ٥٥٨ Heyd. W,
المصدر السابق، ص ٣٣٨، ٣٧٣ piloti
نعت بيلوتي (Piloti) الجنويين بالمسيحيين العاطلين لتورطهم بتجارة الرقيق.

(٧٠) هايد، المصدر السابق، ص ٥٥٨ Heyd. W,
Depping, Op. Cit., Vol. I. p. 179 ;
- نعيم زكي فهمي، المصدر السابق، ص ٢٢٣ .

(٧١) كان في الإسكندرية فندق Fandaco للتتر يرتاده تجار الرقيق.

(٧٢) - Piloti, Op. Cit., p. 339. =

من الرقيق كان يبقى في جهات البحر الأسود ولا يرسل إلى مصر وكـان معظم هؤلاء العبيد من أصل شرقي وكان يبتاعهم رعايا المحميات الإيطالية في الشرق وقد درج الإيطاليون خلال إقامتهم في كافا وتانا وقبرص على حيازة العبيد للقيام بخدمتهم ثم ما لبثوا أن أدخلوا هذه العادة إلى بلادهم وشجعوا مواطنيهم على إدخـال العبيد إلى بيـوتهم لخدمتهم والعمـل لديهم بـدل الخـدم المحليين. وكانت تجارة العبيد أمراً طبيعياً لا حياء فيها ولا قيود طالما أن التاجر لا يتورط بالتعامل مع مصر. وكانت قوانين البندقية وجنوى وفلورنسا لا تحرم إدخال العبيد إليها وقد أصدرت جنوى سنة ١٤٤١ قانوناً منعت بموجبه ربانة المراكب الحربية المتجهة إلى رومانيا وسوريا لجلب البضائع من أخذ أي عبد على متن المراكب بإعتبار أن الأماكن كلها يجب تخصيصها لتحميل البضائع وقد استثنى القانـون من ذلك العبد المخصص لخدمة التاجر المسافر على متن المركب[٧٣].

وقد خصصت المدن الإيطالية بعض المـراكب لنقل الـرقيق ولم تتطرق القوانين المعمول بها آنذاك إلا إلى الإجراءات الواجب إتخاذها لمنـع تحميل وتكديس أعداد كبيرة من الأرقاء حفاظاً على صحة وسلامة الحمولة، فكان لا يسمح لمركب بسطح واحد من تحميل أكثر من ثلاثين عبداً ولمركب بسطحين أكثر من ٤٥ ولمركب بثلاثة سطوح أكثر من ٦٠[٧٤].

وكان من المقبول به في تلك الفترة أي خلال القرن الرابع عشر والخامس

- Heyd, Op. Cit., p. 559 ;
- Clerget, Le Caire , pp. 340 - 341 - 342 ;
- Ency. of Islam, Art. « Abd » ;
- Hakluyt Society, vol. V., p. 274, vol. VI., p. 26 ;

- نعيم زكي فهمي، الطرق التجارية، ص ٢٢٤.

(٧٣) هايد، المصدر السابق، ص ٥٥٩؛

(٧٤) - Pardessus, Collection des lois Maritimes, vol. IV, p. 515 et s ;

- هايد، المصدر السابق، ص ٥٦٠.

عشر أن يسترق مواطنو المدن الإيطالية أي شخص غير مؤمن يقع بين أيديهم. وقد اعتبر الإيطاليون الوثنيين والمسلمين غير مؤمنين فأباحوا استرقاقهم وكانت غالبية هؤلاء العبيد يؤتى بها إلى جنوبي أوروبا من سلطنة كيبتشاك الواقعة في جنوب روسيا وإلى الشرق من البحر الأسود وكانوا إما من التتر أو الجركس أو الروس أو الأتراك وكان من بينهم عدد ضئيل من العرب والبلغار والإغريق. وكان الاغريق من المسيحيين وكانت القوانين تحرم بيعهم غير أن التجار لم يهتموا لذلك بل كانوا يعدون الشبان والفتيات الاغريق بشتى الوعود لمرافقتهم إلى جنوى وهناك كانوا يبيعونهم كالعبيد(٧٥) . وقد تبوأ التجار الجنويون والبنادقة مركز الصدارة في هذه التجارة فكانوا يجلبون العبيد بالمئات والآلاف إلى جنوى والبندقية في حين كانت اعداداً أقل من ذلك بكثير تصل بيزا وفلورنسا(٧٦) .

وكان العبيد من التتر ينقلون إلى البندقية بأعداد كبيرة حتى أن عائلات بأكملها كانت تسترق وتتجمع في البندقية وبشكل أصبحت معه مصدر إزعاج وقلق للمدينة(٧٧) .

غير أن الملفت للنظر في تجارة الرقيق هذه هو تفاوت نسبة الطلب للعبيد الذكور أو الإناث من قبل المماليك أو الإيطاليين .

ففي مصر وبالرغم من جلب أعداد لا بأس بها من الفتيات والنساء لسد حاجة المماليك من الحريم إلاّ أن عدد الذكور فاق بكثير عدد الإناث بهدف

---

(٧٥) Lazari. V, Del traffico e delle condizioni degli schiavi in Venezia nei tempi di mezzo, dans les miscellanea di storia italiana, I, 469 et s ;

هايد، المصدر السابق، ص ٥٦٠ .

(٧٦) يذكر هايد ، ص ٥٦١، انه ما بين العام ١٣٦٦ والعام ١٣٩٦ حصل في فلورنسا حوالي ٣٨٩ عقد بيع من العبيد غالبيتهم من النساء .

(٧٧) Lazari. V, Op. Cit., p. 474 ;

ـ هايد، المصدر السابق ص ٥٦١ .

ملء متطلبات الجيش باعتبار أن الأرقاء الفتيان كانوا المصدر الرئيسي والوحيد للتطوع والإنخراط في الجيش .

أما في إيطاليا فكان الناس يميلون إلى استرقاق الفتيات اليافعات لعدة أسباب : منها طبيعة المرأة الرقيقة التي تؤهلها للعيش في المجتمعات الجديدة والقيام بالخدمات المنزلية المطلوبة والأشغال اليدوية والاستجابة لرغبات أسيادهن .

وكل ما كانت تطمح إليه الفتاة في المدن الإيطالية هو أن تعامل معاملة حسنة وترث مولاها أو مولاتها . ومع ذلك ظل هذا النوع من النساء محط ازدراء المواطنين . أما في مصر فقد كان الوضع مختلفاً ، فالمملوك كان يتدرج من مرتبة إلى مرتبة ، وإن كان في بداية حياته العسكرية يلقي أشد أنواع القسوة الناجمة عن متطلبات التدريب الصارم لزرع أسس الإنضباط والطاعة في نفسه ، إلّا أن المملوك كان بإمكانه أن يصل إلى مراتب عالية في الجيش والدولة وأهمها التربع على عرش السلطنة .

ما هي الصفات التي كانت تتحكم باختيار العبد وتسعيره ؟

الصحة والشباب كانا في المقام الأول فإذا اجتمع إليهما الجمال بلغ سعر العبد أضعاف مضاعفة، ففي إيطاليا قام سيبراريو Cibrario بإجراء إحصائيات عن بيع العبيد خاصة في جنوى والبندقية، فأحصى في القرن الثالث عشر ٥٣ بيعة و٢٩ في القرن الرابع عشر وثمانية وعشرين في القرن الخامس عشر ولاحظ أن أسعار الرقيق كانت في تصاعد مضطرد وكانت تتراوح في القرن الثالث عشر ما بين ٢٠٠ و٣٠٠ لير أما في القرن التالي فإن الأسعار لم تقل عن ٥٠٠ لير للعبد الواحد في حين بلغ سعر العبد في القرن الخامس عشر (١٤٢٩) وفي البندقية ٢٠٩٣ لير (٨٧ دوكات) وقد دفع هذا المبلغ لشراء عبد روسي[٧٨] .

---

(٧٨) Cibrario, M. Della Schiavita e del servaggio. Vol. I, pp. 203 - 227; Heyd, Op. Cit., p. 562.

أما في مصر فكانت أسعار المماليك مختلفة خاصة بالنسبة للذين تدرجوا في مراتب الجيش وتوصلوا إلى مراكز مرموقة. وفي الغالب كانت الأسعار المذكورة فيها كثير من المغالاة. فلقب الألفي الذي كان يحمله السلطان قلاوون كان يشير إلى المبلغ الذي دفع به لدى شرائه وهو ألف دينار(٧٩) . أما السلطان بيبرس فقد دفع به ٤٠ ديناراً فقط لوجود ندبة في عينه(٨٠) . وقد دفع السلطان المؤيد شيخ عندما كان نائباً لطرابلس مبلغ ألف دينار لشراء يشبك المشد (٨١) .

ولا نعلم تماماً إذا كان قانصو خمسائة وجانم خمسمائة والخادم مرجان المجالي المكني بستمائة قد لقبوا بذلك للدلالة على المبالغ الكبيرة التي دفعت عند شرائهم ولا نعلم أيضاً إذا كان بردبك الظاهري قد سمي بالاثني عشر إشارة إلى سعره الزهيد الذي ابتيع به(٨٢) . إن تتبع أدب المماليك يعطينا أمثلة كثيرة عن أسعار المماليك الذين توصلوا إلى مرتبة الأمراء ، وأسعار هؤلاء لا تعطينا فكرة صحيحة عن سعر المملوك العادي الذي يشترى لأول مرة . فالمقريزي ذكر في كتاب المواعظ والاعتبار أن الملك الناصر محمد بن قلاوون قد عرض مبالغ طائلة لشراء المماليك وبشكل جعل أي أب يرضى ببيع ولده إلى تاجر الرقيق ليحمل إلى مصر حيث كان السلطان يدفع حتى مئة ألف درهم لكل مملوك(٨٣) . غير أن ما جاء على لسان المقريزي فيه شيء من المغالاة . فالحالات المعروفة التي دفع بها الملك الناصر مبالغ طائلة كانت

---

(٧٩) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جزء ٧، ص ٣٢٥، جامعة كاليفورنيا ١٩١٥ ؛ ١٩٦٠ ، القلقشندي، صبح الأعشى، جزء ٣، ص ٤٣٥ .

(٨٠) المقريزي، كتاب السلوك، جزء ١ ، ص ٦٣٧ .

(٨١) السخاوي، الضوء اللامع ، جزء ١٠ ، ص ٢٧٩ .

(٨٢) السخاوي، التبر المسبوك، القاهرة ١٨٩٦ ، ص ٢٧٨ « بردبك الظاهري أحد مماليك السلطان وخاصكيته ويعرف بإثني عشر »، الضوء اللامع، جزء ٣، ص ٦ .

(٨٣) المقريزي، كتاب المواعظ والاعتبار، جزء ٢ ، ص ٢١٤ .

عندما اشترى صرغتميش الناصري بمبلغ ٨٠,٠٠٠ درهم أي ٤٠٠٠ دينـار . « صرغتميش الناصري جلبه ابن الصـواف التاجـر سنة بضـع وثلاثين فـاشتراه الناصر بثمانين ألف وهي يومئذ نحو أربعة آلاف دينار . . ولم يسمع بمثل ذلك في ثمن مملوك وذلك لأنه لم يكن في ذلـك الزمـان أجمل صـورة ولا أحسن شكلا منه»[٨٤] وملك تيمور الحجازي النـاصري بمبلغ ١٠٠,٠٠٠[٨٥] درهم أي ٥٠٠٠ دينار وقد دفعت هذه المبالغ الكبيرة نظراً لجمالهما الخارق .

وما يهمنا في دراستنا هو معرفة ما كان يدفع بالتقريب للملوك العـادي . فابن أياس ذكر أن قايتباي قد أُشتـري مع مجمـوعة من رفـاقه بسعـر ٥٠ دينار للمملوك الواحد[٨٦] . وابن تغري بردي يذكر أنه سنة ٨٧١ هـ/ ١٤٦٦ اشترى السلطان مجموعة من الـمـماليك بسعر مئة دينار للملوك الواحد وكان هذا السعر أغلى بكثير مما كان السلطان يدفعه فيما مضى[٨٧] .

وفي سنـة ٨٧٣ هــ/١٤٦٨ اشتـرى السلطان قـايتبـاي كتـابيـة السلطان خشقـدم بسعر ١٠٠٠٠ درهم للمملوك الـواحد أي حـوالي ٢٥ ـ ٣٠ دينار . وهذا سعر بخس[٨٨] بإعتبار أن الكتابية هم صغار المماليك قيد التـدريب في المـدرسة الحـربية وأسعــارهم تظل متـدنية مـا لم ينهوا تـدريباتهم العسكـرية ويلحقوا بإحدى الطباق . وإستناداً لتلك المعطيات يمكننا القول إن متوسط سعر المملوك التقريبي في القرن التاسع للهجري أيام السلطان قايتباي هـو أكثر من

---

(٨٤) ابن حجر العسقلاني ، الدرر الكامنة، جزء ٢ ، ص ٢٠٦ ، جزء ٤ ص ١٤٧ .

(٨٥) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، طبعة بوبر ، جزء ٥، ص ٥٢ .

(٨٦) ابن إياس، بدائع الزهور ، جزء ٣، ص ٢ .

(٨٧) ابن تغري بردي، حـوادث الدهـور، جزء ٢ ، منشـورات جامعـة كاليفـورنيا ١٩٣٠ ـ ١٩٣١ ص ٥٣٤ .

(٨٨) ابن تغري بردي، المصـدر نفسه، جزء ٢ ، ص٦٧٢ ؛ ابن اياس، المصـدر السابق، جزء ٢ ، ص ٩٩ ، جزء ٣، ص ١٦ .

٣٠ دينار وأقل من ١٠٠ دينار أي بسعر وسطي قدره حوالي ٦٥ دينار[٨٩] . إن أي دراسة لعمليات بيع وشراء المماليك لا تكون تامة ما لم نلق أضواء على تجّار الرقيق الذين لعبوا دوراً بارزاً في هذه التجارة وشكلوا حلقة الوصل ما بين بلاد المنشأ للمماليك وسلطنة المماليك وبهم تكنّى كثير من المماليك وانتسب إليهم ، فمن هم هؤلاء التجار ؟

حمل تجار الرقيق لقب الخواجا ولم يكونوا في الغالب من أهل البلاد فالقلقشندي ذكر أنهم من بلاد العجم[٩٠] ودعاهم بالتجار الخواجكية وذكر ألقابهم[٩١]. والسخاوي، ذكر بعضهم في الضوء اللامع وأشار إلى أنهم جلبوا عدداً من المماليك الذين احتلوا مراكز مرموقة في السلطنة[٩٢] .

وفي الغالب كان يذكر لقب التاجر دون ذكر اسمه وإذا ما ذكر الاسم بالكامل فمن النادر أن يذكر موطنه ، وهذه القاعدة لم تطبق على تاجر السلطان المعروف بتاجر المماليك حيث تتوفر لدينا معلومات كثيرة عنه .

فمن التجار الذين عرفوا باسمائهم العربية أو التركية أو الفارسية نذكر الخواجا محمود الذي جلب قايتباي[٩٣] .

والخواجا محمود شاه الذي جلب المؤيد شيخ[٩٤] .

---

(٨٩) Ayalon. D, L'esclavage du Mamelouk, in the Mamluk Military Society, London 1979, pp. 6-9.

(٩٠) القلقشندي، صبح الأعشى، جزء ٦، ص ١٣ .

(٩١) القلقشندي، المصدر نفسه، جزء ٦، ص ٦٩، ٧٣، ١٦٥، جزء ٤ ص ٤٠ .

(٩٢) السخاوي، الضوء اللامع، جزء ٣، ص ٨٤ .

(٩٣) ابن أياس، بدائع الزهو، جزء ٣، ص ٢ ؛
السخاوي المصدر السابق، جزء ٦، ص ٢٠١ .

(٩٤) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، طبعة بوبر، جزء ٦، ص ٧٢٢ ؛
ابن تغري بردي، المنهل الصافي، مخطوطة باريس تحت رقم ٢٠٦٨ - ٢٠٧٢ جزء ٣، الورقة ١٥٤ ب ؛
=

والخواجا بير محمد[٩٥].

والخواجا خليل الذي جلب جركس الخليلي[٩٦] .

والخواجا إبراهيم الذي جلب أرغون شاه الإبراهيمي[٩٧] .

والخواجا سالم الذي جلب يلبغا السالمي[٩٨] .

والخواجا جوبان، الذي جلب برقة الجوباني[٩٩] .

والخواجا باش بغا الذي جلب أرغون وتغري بردي[١٠٠] .

والخواجا كزلك الذي جلب السلطان حقمق[١٠١] .

والخواجا عثمان قراجا[١٠٢] .

ومن التجار الذي عرفوا بالقابهم فقط نذكر المظفّر الذي جلب آق بردي المظفّري[١٠٣] . والخواجا علاء الدين الذي جلب الأشرف إينال[١٠٤] .

= ابن اياس، المصدر السابق، جزء ٢ ، ص ٢٣ .

(٩٥) السخاوي، الضوء اللامع، جزء ٤ ، ص ٢١٣ .

(٩٦) ابن تغري بردي، المنهل الصافي، جزء ٢، الورقة ١٧١ ب.

(٩٧) ابن تغري بردي، المصدر نفسه، جزء ١، الورقة ١٦١ ب.

(٩٨) السخاوي، الضوء اللامع، جزء ١٠، ص ٢٨٩ ؛
ابن تغري بردي، المصدر السابق، جزء ٨، الورقة ٤٤١ أ ؛
المقريزي، المواعظ والاعتبار ، جزء ٢، ص ٢٩١ .

(٩٩) ابن تغري بردي، المنهل الصافي، جزء ٢٢ ورقة ٧٧ أ .

(١٠٠) ابن تغري بردي، المصدر نفسه، جزء ١، ورقة ١٥٨ أ ؛
ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، طبعة بوبر، جزء ٦، ص ٤٥٤ ـ ٤٥٥ .

(١٠١) ابن تغري بردي، المصدر نفسه، جزء ٧، ص ٣٣ ؛
ابن أياس، بدائع الزهور، جزء ٢ ، ص ٢٤ ؛
السخاوي، الضوء اللامع ، جزء ٣، ص ٧١.

(١٠٢) ابن خلدون، كتاب الاعتبار، القاهرة ١٢٨٤ ، جزء ٥، ص ٤٧٢ .

(١٠٣) ابن تغري بردي، المنهل الصافي، جزء ١، ورقة ٢٠٥ ب.

(١٠٤) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جزء ٧، ص ٤٢٢ ؛

وفي زمن السلطان فرج اشتهر الخواجا ناصر الدين ، الذي جلب عدداً كبيراً من المماليك إلى مصر ، كأزدمر الناصري نسبة لجالبه ناصر الدين الظاهري برقوق . ولما كان السلطان فرج يحمل لقب الناصر فقد ظنّ أن كثيراً من المماليك الذين يحملون لقب الناصري هم من مماليك السلطان فرج في حين أنهم كانوا في الواقع من جلب الخواجا ناصر الدين[١٠٥] .

والخواجا مجيد الدين الذي جلب ازدمر المجيدي[١٠٦] .

والخواجا جلال الدين[١٠٧] . وابن الصوّاف التاجر الذي جلب صرغتميش الناصري المشهور[١٠٨] .

أما التجار الذين ذكرت أسماؤهم بالكامل فقد كانوا ذات أهمية خاصة فالخواجا عبد الواحد بن البدّال قد جلب الأمير آق بغا عبد الواحد الذي عرف بحزمه[١٠٩] والتاجر المشهور الخواجا فخر الدين عثمان بن مسافر الذي جلب السلطان برقوق ووالده أنس وقد عرف بالخواجا عثمان وكان من أعيان السلطنة حتى أن السلطان برقوق كان يقف عند دخوله إليه إحتراماً له ويستمع إليه

= ابن تغري بردي، حوادث الدهور، ليدن، ١٩٣٠ ـ ١٩٤٢ ، ص ٥٥٩ ؛
السخاوي ، الضوء اللامع ، جزء ٢ ، ص ٣٢٨ .

(١٠٥) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جزء ٦، ص ٢٥٤ ، ٦٨٧ ؛
حوادث الدهور، ص ٦٥٧ ، المنهل الصافي، جزء ١ ، ورقة ١٦٨ ب ؛
ابن إياس، بدائع الزهور، جزء ٢ ، ص ٧٠ ؛
السخاوي، الضوء اللامع ، جزء ٢، ص ٢٧٦ ، ص ٢٩٠ .

(١٠٦) Zetterstéen Beiträge Zur Geschichte der Mamlukensultane, Leyden, 1919, p. 101 ;
Ayalon. D, The Mamluk Military Society, p. 2.

(١٠٧) ابن تغري بردي، المنهل الصافي، جزء ٢ ، الورقة ١٣٣ ب .

(١٠٨) ابن حجر العسقلاني ، الدرر الكامنة ، حيدر آباد، ١٣٤٨ هـ ـ ١٣٥٠ هـ جزء ٢ ، ص ٢٠٦ .

(١٠٩) المقريزي، كتاب المواعظ والاعتبار، جزء ٢ ، ص ٣٨٤ .

ويستجيب لـطلبه[110] . وقـد قيـل أن الخـواجـا عثمـان كـان لا يحسن العربية[111] .

والتاجر الكثير الشهرة إسماعيل بن محمد بن ياقوت السلاميّ مجد الدين ابن الخواجا تاجر الخاص في الرقيق وكان عربياً وقد اشتهر بما قام به من سفارات لتوطيد العلاقات ما بين مملكة الخانات في بلاد العجم وسلطنة المماليك في مصر . ولما كتب الخان أبو سعيد ملك التتر إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون طالباً عقد إتفاقية تحالف ما بين البلدين ، كان من الشروط التي وضعها الناصر أن يسمح بشراء المماليك من مملكة أبو سعيد وإمكانية السماح للخواجا إسماعيل أن يقيم فيها من أجل هذا الغرض فإزدادت وجاهته وكان يقيم في مملكة التتار السنتين والثلاث . وذكر أن والده الخواجا ياقوت السلامي كان قد قدم لأول مرة إلى مصر ومعه مجموعة من المماليك وقد سمي بالسلامي نسبة إلى قرية السلامة وهي من أعمال الموصل[112] .

ولما كانت تجارة الرقيق ترتدي طابعاً كبير الأهمية وعليها يتوقف مصير السلطنة فقد حرص سلاطين المماليك على تعيين مسؤول للإشراف على هذه التجارة وسمي تاجر المماليك وكان يتمّ اختياره من بين أمراء المماليك وغالباً ما كان أمير عشرة[113] ، وأحياناً كان ذات رتبة أعلى[114] .

---

(١١٠) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جزء ٥ ، ص ٣٦١ ، المنهل الصافي، جزء ٢، ورقة ٢٣ أ .

(١١١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جزء ٥، ص ٣٦٥.

(١١٢) المقريزي ، المصدر السابق، جزء ٢، ص ٤٣ ؛
ابن حجر العسقلاني ، المصدر السابق، جزء ١، ص ٣٨١ ؛
العزاوي، تاريخ العراق، بغداد ١٨٣٥ ـ ١٨٤٨، جزء ١، ص ٤٦٤، ٤٦٨ .

(١١٣) ابن تغري بردي، حوادث الدهور، جزء ٢ ، ص ٢٢٨ ؛
ابن أياس، بدائع الزهور، جزء ٢، ص ٩٢، جزء ٣، ص ٦، ص ١٥٤ .

(١١٤) ابن اياس، المصدر نفسه ، جزء ٣، ص ٤٢٢، جزء ٤، ص ١٣٣، ص ١٩٩ .

ومن أمراء المماليك الذين قاموا بوظيفة تاجر المماليك نذكر إينال المحمودي الساقي[١١٥] ، وتاني بك قرا الاينالي[١١٦] ، وقد تحدث كل من ابن تغري بردي والسخاوي وابن أياس عن الأمراء تجار المماليك فذكروا أسماءهم وألقابهم[١١٧] . غير أن الملفت للنظر هو أن من بين الشخصيات العديدة التي اضطلعت بمهمة تاجر المماليك لم يذكر سوى اسمي تاجرين كانا من غير المماليك . التاجر الأول إبراهيم بن قرمش الذي ورث عن والده هذا المنصب[١١٨] . والتاجر الثاني هو السيد الشريف مرجان الرومي الذي جلب غالبية المماليك الذين عاصرهم المؤرخ ابن أياس[١١٩] .

وقد أعفى السلطان تجار الرقيق من كافة الضرائب والرسوم التي كان يدفعها بقية التجار[١٢٠] . ولا بد من الإشارة هنا إلى سوق الرقيق في القاهرة . فالمقريزي ذكر خان مسرور وغرف العبيد ودكة المماليك التي كان يجلس عليها المماليك من أصل تركي ورومي وغيرهم بانتظار بيعهم وقد ظل خان مسرور سوقاً للرقيق حتى عهد السلطان برقوق[١٢١] .

---

(١١٥) ابن تغري بردي، المنهل الصافي، جزء ٢، الورقة ٤٥ ب.

(١١٦) ابن إياس، المصدر السابق، جزء ٥، ص ١٠٨ .

(١١٧) لمزيد من التفاصيل حول أسماء وألقاب الأمراء تجار المماليك انظر :

ابن تغري بردي، حوادث الدهور، جزء ٢، ص ٢٢٨ ؛

ابن أياس، جزء ٢، ص ٩٢، جزء ٣، ص ٣٣١، جزء ٤، ص ١٠٢ ؛

السخاوي، الضوء اللامع ، جزء ١، ص ١١٨ ؛

(١١٨) السخاوي، الضوء اللامع، جزء ١، ص ١١٨ .

(١١٩) ابن أياس، بدائع الزهور، جزء ٢، ص ١٦١، جزء ٣، ص ١٠٩،

اكتفى ابن إياس بإعطاء مرجان الرومي لقب الشريفي في حين لقّبه السخاوي بمرجان الرومي الشريف تاجر السلطان في المماليك ؛

السخاوي، الضوء اللامع، جزء ١٠، ص ١٥٣ .

(١٢٠) القلقشندي، صبح الأعشى، جزء ٤، ص ١٣٨ ، جزء ١٣، ص ٤٠ .

(١٢١) المقريزي، كتاب المواعظ والاعتبار، جزء ١، ص ٣٧٤، جزء ٢، ص ٩٢.

وقد ذكر ابن أياس أن السلطان قانصو الغوري قد بنى في سنة ٩٢٠ هـ/ ١٥١٤ سوقاً جديدة للرقيق بالقرب من خان الخليلي « ومن الحوادث أن السلطان أنشأ سوقاً بالقرب من خان الخليلي يباع فيه الرقيق ، وأبطل السوق القديم الذي كان يباع فيه الرقيق »[١٢٢] .

والحديث عن سوق الرقيق يدفعنا إلى الحديث عن نوع آخر من الرقيق أقل أهمية من المماليك إنما لعب دوراً لا يستهان به في سلطنة المماليك . عنينا بذلك الموالي وكانوا يعرفون باسم الطواشية ، الخدّام ، أو الصبيان وقد ذكر القلقشندي أن الخدام الصبيان هم المعبّر عنهم الآن بالطواشية[١٢٣] .

وكانوا من الروم[١٢٤] ، والحبش[١٢٥] ، والهند[١٢٦] ، وتكرور[١٢٧] .

---

(١٢٢) ابن أياس، بدائع الزهور، جزء ٤، ص ٤٠٤ .

(١٢٣) القلقشندي، صبح الأعشى، جزء ٥، ص ٤٥٦ .
ذكر ابن خلدون أن « الطواشي في لغة أهل المشرق هو الخصي ويسمونه الخادم أيضاً » ، ابن خلدون، كتاب الاعتبار، جزء ٥، ص ٣٦٢ (القاهرة ١٢٨٤ هـ) .

(١٢٤) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جزء ٦، ص ٤٥٥، جزء ٧، ص ٢٥ ؛
ابن أياس، بدائع الزهور، جزء ٣، ص ٢٤، جزء ٤، ص ١٦٦ ؛
السخاوي، الضوء اللامع، جزء ٣، ص ص ١٧٤ ـ ١٧٧، ٢٩٤، جزء ٤، ص ٣٤٠.

(١٢٥) ابن تغري بردي، المصدر السابق، جزء ٦، ص ٥٦٩، جزء ٧، ص ٣ ؛
ابن أياس، المصدر السابق، جزء ٣، ص ٣٤٧ ؛
السخاوي، المصدر السابق، جزء ٣، ص ص ١٦ ـ ١٧ ـ ٨١ ـ ٨٦، جزء ٦، ص ص ١٦١، ٢٣٩.

(١٢٦) ابن تغري بردي، المصدر السابق، جزء ٦، ص ٥١٤ ؛
ابن أياس، المصدر السابق، جزء ٦، ص ١٦٦ ؛
السخاوي، المصدر السابق، جزء ٣، ص ١٩٣ .

(١٢٧) تكرور هي البلاد الواقعة غرب السودان وتعرف اليوم بمالي، انظر الموسوعة الإسلامية (EI1) . =

وكانت بلاد الروم المصدر الرئيسي للمماليك وللخدم وكـان يجلب منها الطواشية البيض من الجنس القوقازي وقد شملت هذه البلاد الأناضول وأجزاء من بـلاد اليونـان والبلقان وكـانت عمليات جلب الخدم تجري بصـورة ممـاثلة لعمليات شراء المماليك وقـد لعب تجار الـرقيق المسلمون والإيـطاليون نفس الأدوار في تجارة الرقيق إن على صعيد المماليـك أو الخدم الـطواشية . وفي حين اعتبر الطواشيـة والخدم من أربـاب السيوف ومنهم كـان مقدم الممـاليك السلطانية ومقدمو الطبقات إلا أنهم اعتبروا أيضاً من خـاصكية (١٢٨)السلطان. وكان السقاة والجمدارية(١٢٩) والخزندارية(١٣٠) منهم. وقد اشتهروا بإخلاصهم حتى أنه كان يعهد إليهم بتربية وحراسة أبناء السلاطين . وبالـرغم من نفوذهم المستمد من تواجدهم الدائم على مقربة من السلطان غير أنهم اختلفوا عن بقية المماليك في ناحيتين . الأولى : لم يشكل الطواشية والخدام وحدة مقاتلة ولم

= ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جزء ٧، ص ٧٣٨ ؛
ابن إياس، بدائع الزهور، جزء ٣، ص ٢١٩، جزء ٤، ص ١٦٤ ؛
السخاوي، الضوء اللامع، جزء ٣، ص ١٧٣.

(١٢٨) الخاصكية هم حرس السلطان الخاص وحاشيته.
Ayalon. D, The Mamluk Military Society, p. 271.
انظر الموسوعة الإسلامية (Ei2) .

(١٢٩) الجمدارية هم المسؤولون عن خزانة ولباس السلطان.
ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جزء ٦، ص ٤٥٥، جزء ٧، ص ٨١١ ؛
ابن إياس، بدائع الزهور، جزء ٣، ص ١٤٥، ٣٧٧، جزء ٦، ص ٥٣ ؛
السخـاوي، الضوء الـلامـع، جـزء ٣، ص ١٧٤، جـزء ٦، ص ١٧٧، جـزء ١٠ ص ٢٧٠ ؛
ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، جزء ١ ، ص ٣٥٣.

(١٣٠) الخزندارية هم خزنة بيت المال.
ابن تغري بردي، حوادث الدهور، جزء ٢، ص ٢ ؛
ابن أياس، المصدر السابق، جزء ٤، ص ٣٩٨ ـ ٣٩٩.

يكن لهم طموحات سياسية . والثانية : لم يصل أي من الطواشية والخدم إلى رتبة عالية كبقية المماليك .

ولم يوجد منهم أي أمير من أمراء الألوف وأما عدد من وجد منهم في رتبة أمير أربعين أو أمير عشرة فقد كان ضئيلاً أو لا يذكر .

وفيما عدا ذلك كانت أوضاع الطواشية مشابهة لأوضاع المماليك خاصة فيما يتعلق باستعبادهم وجلبهم إلى مصر وتدريبهم ونسبتهم إلى تاجر الرقيق الذي احضرهم أو إلى أستاذهم الذي اعتقهم . كان يقال للمملوك أصله من مماليك فلان كذلك كان يقال للخدم « أصله من خدّام فلان »(١٣١) . و« عتيق فلان » أو « من عتقاء فلان »(١٣٢) .

ونسبة المماليك والخدام بالإجمال وعلاقتهم بسيدهم الذي جلبهم أو الذي أعتقهم كانت إحدى ركائز مجتمع المماليك(١٣٢)مكرر . ومن هنا تنبع الأهمية العظمى التي لعبها تجار الرقيق ، فهم أسياد المماليك الأول وإليهم كانت نسبتهم الأولى وكانت مكانتهم بالنسبة للمملوك تفوق مكانة أسيادهم اللاحقين باستثناء الأستاذ أو السيد الذي أعتقه .

---

(١٣١) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، جزء ٦ ، ص ٨١٤ ؛
ابن أياس ، بدائع الزهور ، جزء ٢ ، ص ٦٨ (طبعة كاليفورنيا) ؛
السخاوي ، الضوء اللامع ، جزء ١٠ ، ص ١٥٣ .

(١٣٢) ابن تغري بردي ، المصدر السابق ، جزء ٧ ، ص ٧٠ ؛
السخاوي ، الضوء اللامع ، جزء ٣ ، ص ٢٤٨ ، جزء ٦ ، ص ٢٢٦ ، جزء ١٠ ، ص ١٦٨ .

(١٣٢)مكرر لمزيد من التفاصيل انظر :

Ayalon . D, «L'esclavage du Mamelouk» in the Mamluk Military Society, London, 1979.

كذلك انظر المقالة عن الجيش المملوكي لنفس المؤلف المنشورة في
BSOAS, XV (1953), pp. 206ff.

وعلاقة الخواجا بالمملوك هي فريدة من نوعهـا ، فهو بـالنسبة للمملوك بديل عن أهله وحاميه وهمزة الوصل بينه وبين وطنه الأصلي وأهله وهذه العلاقة، كانت تمتد من المملوك الفرد حتى تشمل كافة مشتروات الخواجا واجلابه فكان المماليك ينسبون أحياناً كمجموعات وليس كأفـراد إلى الخواجـا التاجـر الذي جلبهم .

فالعلائية كانوا من أجلاب الخواجا علاء الدين(١٣٣) .

والناصرية كانوا من اجلاب الخواجا ناصر الدين(١٣٤) .

ولا شك أن نجاح تجارة الرقيق وازدهارها بفضل حرص السلاطين وهمة ونشاط الخواجات كانا من العوامل الرئيسية لقوة سلطنة المماليك واستمرارها . وإن أية محاولة لعرقلة هذه التجارة أو إيقافها كانت تجابهها السلطنة باتخاذ أشد الإجراءات العسكرية وغيرها بهدف إعادة الأمور إلى نصابها لأن مصير السلطنة كان يتوقف إلى حد بعيد على هذا النوع من التجارة .

وقد ارتبط ازدهار تجارة الرقيق في كل من مصر والبنـدقية وجنـوى بفترة ازدهار هذه التجارة في كل من كافا وتانا . غير أن احتلال تيمورلنك لتانا عـام ١٣٩٥ أنهى نشاط هذه المدينة المـزدهرة بشكـل نهائي، أضف إلى ذلـك أن سقوط القسطنطينية بيد العثمانيين سنة ١٤٥٣ شجع السلطان محمد الثاني على

---

(١٣٣) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جزء ٧، ص ٤٢٢ ؛
السخاوي، الضوء اللامع، جزء ٢، ص ٣٢٨.

(١٣٤) ابن تغـري بـردي، المصـدر السـابق، جـزء ٦، ص ٢٩٩، ص ٤٤٤، جـزء ٧، ص ٥٤ ؛
ابن تغـري بردي، حـوادث الزمـان، ص ٦٥٧، المنهل الصـافي، جـزء ١، ورقـة ١٦٨ ب ؛
ابن أياس، بدائع الزهور، جزء ٢، ص ٧٠ ؛
السخاوي، الضوء اللامع، جزء ٢، ص ٢٧٦.

منع البنادقة من نقل الأرقاء المسلمين في كافة السلطنة ولم يسمح لهم إلا بنقل الأرقاء النصارى[١٣٥] .

وقد أضرّت هذه الإجراءات بتجارة الرقيق حتى أنه في سنة ١٤٥٩ احتج في مجلس الشيوخ البندقي وبشدة من ندرة العبيد المتزايدة[١٣٦] .

غير أن فليكس فابري Felix Fabri قد ذكر أنه حتى نهاية القرن الخامس عشر كان يوجد في البندقية حوالي ثلاثة آلاف من العبيد أصلهم من شمالي أفريقيا وبلاد التتر بالإضافة إلى بعض السلاف دون ان يحدد عددهم[١٣٧] .

وقد انعكس هذا الإجراء أيضاً على العلاقات المملوكية ـ العثمانية فتوترت إذ اعتبر المماليك أن منع العثمانيين الرقيق من القدوم الى مصر كان عمداً بهدف اضعافهم تمهيداً لغزو السلطنة وكان هذا من الأسباب الرئيسية التي حملت السلطان الغوري على التحرك إلى شمالي السلطنة والتصدي للسلطان سليم العثماني الذي كتب إلى سلطان مصر محاولاً تبرير الإجراءات التي اتخذها بشأن تجارة الرقيق عازياً توقف التجارة إلى عزوف التجار عن جلب المماليك بسبب تضررهم من معاملة الغوري في الذهب والفضة « . . وأما التجار الذين يجلبون المماليك الجراكسة فإني ما منعتهم إنما هم تضرروا من معاملتكم في الذهب والفضة فامتنعوا من جلب المماليك اليكم »[١٣٨] . وقد اثبتت الأحداث أن مخاوف السلطان الغوري كانت في محلها .

---

(١٣٥) Heyd. W, Histoire du Commerce du Levant. II. p. 562.

(١٣٦) Heyd. W, Ibid., pp. 562-563.

(١٣٧) Heyd. W, Ibid., p. 563 ;
Felix Fabri, Evagatorium, éd . Hassler , III. p. 432 .

(١٣٨) ابن أياس ، بدائع الزهور، جزء ٥، ص ٤٥ .

ج ـ السلع المتبادلة الأخرى

ـ المواد الطبيعية

إن إعادة تعداد السلع المتبادلة ما بين المدن الإيطالية وسلطنة المماليك في الفترة التي تهمنا لهو نوع من التكرار والإفاضة في الشرح لأن هـذه السلع كـانت كثيرة ومتنوعة وقد أسهب في تعـدادهـا وذكـر مـواصفـاتها المؤرخـون المشهورون الذين عنوا بالتاريخ الاقتصادي للشرق : كسانوتـو Sanuto[١٣٩]، وأمـاري Amari[١٤٠]، وهايـد Heyd[١٤١]، وكليـرجي Clerget[١٤٢]، وداي Day[١٤٣] ، وديبنـغ Depping[١٤٤]، وبـوسـطن Poston[١٤٥]، ولـوبيـز Lopez[١٤٦]، وبـروديـل Braudel[١٤٧]، وأشـتـور Ashtor[١٤٨]، ومتـز Metz[١٤٩].

---

(١٣٩) Marino Sanuti, I Diarii, Venezia. 1879.

(١٤٠) Amari. N, I Diplomi Arabi, Del Archivio Fierentino in Firenze MDCCC (XIII).

(١٤١) Heyd. W, Histoire du Commerce du Levant au Moyen-Age, Leipzig. 1886

(١٤٢) Clerget. M, Le Caire, Etude de Géographie urbaine, et d'Histoire Economique. T. II. Le Caire 1934.

(١٤٣) Day. C, A History of Commerce. London 1950.

(١٤٤) Depping G.B., Histoire du Commerce entre le Levant et l'Europe, Depuis les croisades jusqu'à la fondation des Colonies d'Amérique. T.I and II. Paris 1830.

(١٤٥) Poston. MM, The Cambridge Economic History of Europe. Part II. Cambridge 1952.

(١٤٦) Lopez and Raymond, Medievel Trade in the Mediterranean World in the Age of Philip II, London 1973.

(١٤٧) Braudel. F, The Mediterranean and the Mediterranean World in the Age of Philip II, vol. II. London 1973.

(١٤٨) Ashtor. E, A Social and Economic History of the Near East in the Middle Ages, London 1976; Levant Trade in the Later Middle Ages. Princeton University Press. 1982.

(١٤٩) آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن ٤ هـ Metz. A,
ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة ـ القاهرة، ١٩٤١ .

كما أن المؤرخين والرحالة العرب قديماً وحديثاً كانوا قد ذكروا منتجات الشرق وابرزوا مواصفاتها وخصائصها وفوائد استعمالها ومنهم : الجاحظ(١٥٠) ، ابن بطوطة(١٥١) ، وابن خرداذبة (١٥٢) ، وابن حوقل(١٥٣) ، والجزري(١٥٤) ، وابن البيطار(١٥٥) ، وابن الوردي(١٥٦) ، وناصر خسرو(١٥٧) ، والمسعودي(١٥٨) ، والقلقشندي(١٥٩) ، والمقريزي(١٦٠) ، وابن أياس(١٦١) ، وعاشور(١٦٢)، واسكندر(١٦٣) ، وفهمي(١٦٤)، وزيادة(١٦٥)، وحوراني(١٦٦) ، وغيرهم.

---

(١٥٠) الجاحظ، كتاب التبصر بالتجارة، القاهرة، ١٩٣٥ .

(١٥١) ابن بطوطة، تحفة الأنظار، القاهرة ١٩٢٨ .

(١٥٢) ابن خرداذبة، كتاب المسالك والممالك ـ ليدن ١٨٨٩ .

(١٥٣) ابن حوقل، كتاب صورة الأرض، ليدن ١٩٣٨ .

(١٥٤) ابن الأثير الجزري، تحفة العجائب وطرفة الغرائب، مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم ط ١٣٤٤ .

(١٥٥) ابن البيطار، الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، القاهرة ١٢٩١ هـ .

(١٥٦) ابن الوردي، فريدة العجائب وفريدة الغرائب ، القاهرة ١١٣٦ هـ.

(١٥٧) ناصر خسرو، سفرنامة، القاهرة ١٩٤٥ .

(١٥٨) المسعودي، مروج الذهب، باريس ١٨٦١ ـ ١٨٧٧ م.

(١٥٩) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الانشا، القاهرة ١٩١٩ .

(١٦٠) المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ـ بولاق ١٢٧٠ هـ.

(١٦١) ابن أياس، بدائع الزهور، القاهرة ١٩٥٦ .

(١٦٢) عاشور. س، العصر المماليكي في مصر والشام، القاهرة ١٩٦٥ .

(١٦٣) اسكندر. ت ، نظام المقايضة في تجارة مصر الخارجية في العهد الوسيط ، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، المجلد السادس، ١٩٥٧ .

(١٦٤) فهمي . ز، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب، ١٩٧٣ .

(١٦٥) زيادة، ن Ziadeh. N.A, Urban Life in Syria. American University of Beirut, Beirut, 1953.

(١٦٦) حوراني ج . ف . Hourani, Arab Seafaring. Beirut, 1963.

ولهذا فإنني لا أجد من فائدة تاريخية في إعادة تكرار ما قيل وما كتب عنه الكثير خاصة وان هذه السلع كلها باستثناء الرقيق والفلفل ، وإن كبرت أهميتها، إلا أنها لم تكن ذات إنعكاس خطير على مصير سلطنة المماليك . ومن هنا أرتأيت أن أبرز ما كانت المدن الإيطالية كالبندقية وجنوى وفلورنسا تتبادله مع سلطنة المماليك مشيراً إلى نوعية التبادل والكميات المتبادلة والأرباح والفوائد المحققة والصعوبات الناجمة عن ذلك .

وتجدر الإشارة إلى حصول تغييرات كبيرة في التبادل التجاري ونوعيته وتطور وسائل النقل وظهور طبقة غنية من التجار الإيطاليين على عكس مصر والشام، حيث تلاشى تجار الكارمية وغيرهم بسبب إحتكار السلطان للسلع الشرقية المهمة .

والتغيير في إيطاليا تمظهر ببروز البندقية كدولة رائدة في التبادل التجاري مع السلطنة وظهور عدد من التجار البنادقة الأثرياء الذين كان بإمكانهم في النصف الثاني من القرن الخامس عشر أن يستثمروا حوالي عشرة الاف دوكات سنويا بتجارتهم مع مصر والشام . فعائلة ماليبيروMaliepiero كانت تتبادل السلع مع سوريا بمبالغ تتراوح ما بين ٦٠٠٠ و ١٠٠٠٠ دوكات سنوياً وكان حوالي ثلثا المبلغ المستثمر نقداً(١٦٧) . وعائلة فرنشسكو كونتاريني Francesco Contarini قامت بنشاطات تجارية سنة ١٤٥٠ في حلب والإسكندرية وبلغ مجموع ما تداولته من سلع بقيمة ٨١٠٥ دوكات . كما أن زوان وميكائيل موروزيني Michael Morosini قد اشتريا سنة ١٤٧٥ من الإسكندرية ½٥٥ حملاً من التوابل بقيمة ٦٩٤٥ دوكات(١٦٨). وكان هؤلاء التجار ينتمون إلى نوع من

---

(١٦٧) Ashtor. E, Levant Trade in the later Middle Ages, p. 367.

(١٦٨) Ashtor. Ibid. p. 371;

Ashtor. Ibid. p. 372

الارستقراطية التجارية إذ كانوا يتعاطون تجارة الشرق بمبالغ لا يستهان بها دون أن ينتقلوا من مكان إلى آخر بل كان مندوبوهم ووكلاؤهم يسافرون إلى شرقي المتوسط ويعقدون الصفقات لصالح أسيادهم . وهذا لا يعني أن التجار الصغار قد قضي عليهم بل على العكس فقد كان المساهمون الصغار يسافرون كثيراً إلى الشرق ويستثمرون أموالهم بشكل ملموس خلال القرن الخامس عشر . ففي البندقية ساهم صغار المستثمرين بالأموال والبضائع المرسلة كل سنة إلى سلطنة المماليك . وفي جنوى إستثمر صغار المدخرين في تجارة الشرق بمبالغ لا تتجاوز ال ٢٨ دوكات ومن بين هؤلاء المستثمرين كان هناك أرباب الحرف والرهبان والنساء(١٦٩) .

التطور الثاني حصل في حركة بناء وتصميم السفن فظهرت أنواع جديدة من المراكب في المتوسط إلى جانب المراكب القديمة فتحسنت وسائل النقل خاصة بعد بروز مراكب النقل الكبيرة The Cog والمعروفة عند المسلمين بالمراكب المربعة وذلك في بداية القرن الرابع عشر . ولهذا المركب شراع مربع وصاري واحد وله برج بالمقدمة وبرج بالمؤخرة . وهذا المركب كان دون مجاذيف وكان يعتبر وسيلة نقل رخيصة ومضمونة . وكان يستعمل منذ القرن الرابع عشر وخلال النصف الأول من القرن الخامس عشر في نقل البضائع والسلع الرخيصة وأحياناً كان يستعمل في نقل التوابل . وكان طاقمه قليل العدد وبإمكانه مقاومة القرصان بنجاح(١٧٠) .

---

(١٦٩) خلال فترة وجيزة في القرن الرابع عشر لم يكن يسمح للمواطنين بالمساهمة في التجارة البحرية بأكثر مما كانوا يساهمون باستثمارات عائدة للدولة . انظر :

R. Cessi , « L'officium de Mavigantibus e i sistemi della politica commerciale nel sec. XIV, ». in his politica ed economia di Venezia nel Trecento (Rome , 1952), p. 23 ff .

(١٧٠) Lane. F, Venetian ships and shipbuilders of the Renaissance. Baltimore, 1934. pp. 37-38.

وفي منتصف القرن الخامس عشر إنتشر نوع آخر من المراكب الشراعية في البحر المتوسط وهو القراق أو القرقور Carrack المتعدد الصواري وكان الصاري الرئيسي يحمل شراعاً كبيراً مربعاً وكان القرقور سهل الإقلاع والإبحار(١٧١).

وحصل تغيير أيضاً في الشيني galley المركب الحربي أصلاً والمستعمل لنقل السلع الثمينة. ففي منتصف القرن الخامس عشر أصبح بإمكان الشيني نقل ٢٥٠ طناً. وتحولت الشواني إلى مراكب شراعية بعدما اقتصر إستعمال المجاذيف لدى الدخول أو الخروج من المرفأ أو عند الضرورة وأصبح للشيني ثلاثة صواري فاتفق له مزايا السرعة لأشرعته المتعددة والحيطة لكثرة أفراد طاقمه مما مكنه من مقاومة القرصان(١٧٢).

---

(١٧١) Lane . F, Ibid. pp. 41 - 42.

ويقال إن كلمة قراق مأخوذة من الكلمة الإيطالية Caricare بمعنى حمل. تقول الدكتورة سعاد ماهر في كتاب البحرية في مصر الإسلامية ـ الجيزة ١٩٦٧ ص٣٦٦ :

... «وفي القرن الخامس عشر كان القراق من السفن التجارية الهامة القوية البنيان، فقد كانت مستديرة الشكل ولها نتوءات كثيرة على جانبها تحميها من الاحتكاك بأرصفة الموانىء. كما كانت تحتوي على ساحة قتال على ظهرها ووسط السفينة منخفض نسبياً، أما ساحات القتال في المقدمة والمؤخرة، فمبنية على مستويين أو ثلاث أعلى من الوسط. وقد استطاعت هذه السفينة أن تعوض كل مواضع الضعف في بناء السفن السابقة، فأصبحت قادرة على السير في جميع الظروف الجوية تقريباً، كما استطاعت الرسو على شواطىء ليست ممهدة لرسو السفن. ومن أشهر قراقير القرن السادس عشر، سفينة الملك هنري الثامن التي بنيت سنة ١٥١٢ م والمعروفة باسم (رجينت) أي السفينة الملكية، فقد كانت حمولتها (١٠٠٠) طن ومسلحة بـ (١٥١) مدفعاً من الحديد، (٢٩) مدفعاً من النحاس وعليها (٤٠٠) جندي، (٣٠٠) بحار».

لمزيد من التفاصيل انظر :

Abell. Sir Westcott, The shipwrights trade. Cambridge, 1948.

(١٧٢) = Lane. F, Op. Cit. pp. 12, 22, 24.

وظاهرة بناء المراكب الكبيرة كانت من مميزات حركة النقل في البحر المتوسط خلال القرن الخامس عشر فازدياد سرعة المراكب وكبر حجمها أديا إلى خفض تكاليف النقل وقد إنعكس ذلك إيجاباً على تجارة الشرق(١٧٣) . فتدفقت الأثواب الأوروبية على أنحاء السلطنة وارتفعت كميات البهار المرسلة إلى المدن الإيطالية ، فازدهرت التجارة الشرقية بالرغم من بعض الصعوبات العائدة لجشع السلطات المملوكية التي تجبر التجار الإيطاليين على شراء كميات محددة من البهار من النوع الرديء الغير مغربل ، أو العائدة إلى التجار الإيطاليين الذين كانوا يجلبون أصنافاً من الأقمشة المغشوشة في محاولة لخداع السلطات المملوكية(١٧٤) .

وقد جنى الطرفان من وراء ذلك الأرباح الطائلة . ففي تجارة النحاس المصدر إلى سوريا ومصر حقق الإيطاليون خاصة البندقية أرباحاً جاوزت ال

= انظر سعاد ماهر المصدر السابق ص ٣٥٢ ، ٣٥٣ ؛

Ashtor. E, Op. Cit. p. 384.

(١٧٣) Lane. F, Venice and History, p. 144.

Luzzatto. G, Per la storia della costruzioni navali a Venezia nei secoli XV e XVI, in his studi di storia economica Veneziana, p. 144 ;

(١٧٤) خطاب السلطان قايتباي إلى دوق البندقية بتاريخ ١٠ شعبان ٨٧٧ هـ/ ١٤٨٢ وفيه يقول : « وأما القماش الذي يصل إلى أبوابنا الشريفة من المخمل فغالبه مغشوش كالنحاس ، أما الجوخ فجرت العادة أن يكون ذراع كل خرقة خمسة وخمسين ذراعاً ، وقد صار الجوخ الآن كل خرقة منه لا تبلغ ثلاثين ذراعاً ، وفيه وهو مقطوع من الوسط وتضرر تجار المسلمين بواسطة ذلك» .

هذه الوثيقة منقولة من نسخة مصورة من أرشيف الوثائق بالبندقية باللغة العربية وهي من مجموعة الدكتور توفيق اسكندر.

انظر ، فهمي . زكي ، طرق التجارة الدولية ، ص ٣٧٥ .

Senato Mer VII, f. 1929; Fabri, Evangatorium III, p. 33 ;

Ashtor. E, Op. Cit., p. 399.

٢٥٪ من أسعار الكلفة[١٧٥] في النصف الثاني من القرن الخامس عشر .

وفي تجارة الصابون كانت أسعار الصابون الإيطالي عموماً أقل بنسبة ٥٠٪ من الصابون المباع في الإسكندرية أو طرابلس . وكان يباع القنطار من الصابون البندقي بسعر وسطي قدره ٧ دنانير[١٧٦] .

أما أسعار التوابل والبهارات الشرقية فقد كانت أسعارها بالإسكندرية ودمشق أقل بنسبة ٥٠٪ من أسعارها في جنوب أوروبا . وكانت أسعارها في البندقية وجنوى أقل بنسبة ١٠٪ من باقي المدن الأوروبية عموماً[١٧٧] . في حين كانت أسعار القطن أدنى بنسبة ٨٠٪ في أسواق الإسكندرية ودمشق من أسواق المدن الإيطالية وهذه النسبة فاقت بكثير نسبة فرق أسعار الفلفل والتوابل[١٧٨] .

إن دراسة قائمة أسعار السلع الشرقية تشير بوضوح إلى نسبة الأرباح الطائلة التي كان يجنيها التجار الإيطاليون ، غير أن نسبة كبيرة من هذه الأرباح كانت تدفع كرسوم جمرك ورسوم نقل . وبالإجمال فإن رسوم الجمارك في مصر وسوريا المفروضة على البضائع الإيطالية كانت تقدر بعشرة بالمئة .

وقد ذكر القلقشندي في صبح الأعشي في باب ما يؤخذ من تجار الكفار الواصلين في البحر إلى الديار المصرية فقال : « واعلم أن المقرر في الشرع أخذ العشر من بضائعهم التي يقدمون بها من دار الحرب إلى الإسلام إذا شرط عليهم ذلك »[١٧٩] .

---

(١٧٥) Ashtor. E, Op. Cit. p. 417.
Copper Prices in Venice, see les Métaux précieux, p. 116 ff.

(١٧٦) Ashtor. E, Op.Cit. p. 419.
قنطار الإسكندرية في النصف الثاني من القرن الخامس عشر كان يوازي ٨٥ كلغ .

(١٧٧) Ashtor. E, Op.Cit. pp. 417 - 421.

(١٧٨) Ashtor. E, Op.Cit. p. 420.

(١٧٩) القلقشندي ، صبح الأعشى ، جزء ١ ، ص ٤٦٦ .

وأضاف القلقشندي أن الرسوم المستوفاة في ثغر دمياط وثغر الإسكندرية عن البضائع الأوروبية قد حددت بالخمس أي ٢٠٪ من قيمتها وربما زادت عن ذلك : « ثم الذي ترد إليه تجار الكفار من بلاد الديار المصرية وثغر دمياط المحروستين ، تأتي إليهما مراكب الفرنج والروم بالبضائع فتبيع فيهما أو تمتار منهما ما تحتاج إليه من البضائع وقد تقرر الحال على أن يؤخذ منهم الخمس وهو ضعف العشر على كل ما يصل لهم في كل مرة ، وربما زاد ما يؤخذ منهم على الخمس أيضاً »(١٨٠) .

بالاضافة إلى هذه الرسوم كانت هناك رسوم النقل التي كانت تختلف من سلعة إلى سلعة . فتكاليف نقل الألبسة كانت بسيطة في حين كانت تكاليف نقل النحاس والزيت بحدود ال ١٥٪(١٨١) . وكانت تكاليف إستيراد البهار والتوابل من مصر والشام إلى البندقية تقدر على الوجه التالي :

رسوم للسلطنة	٩٪
بدل أتعاب الوكيل	٣٪
رسوم نقل	١٠٪
رسوم للبندقية	٣٪
المجموع	٢٥٪

ولما كانت أسعار الفلفل والزنجبيل في الشرق هي أقل بنسبة ٥٠٪ مما هي عليه في البندقية فإن نسبة الأرباح المحققة كانت بنسبة ٢٥٪ .

ولما ارتفع سعر حمل الفلفل إلى ١٠٠ دوكات وتطورت المراكب المربعة Cogs (١٨٢)وأصبحت التوابل تنقل عليها انخفضت تكاليف النقل إلى

---

(١٨٠) القلقشندي ، المصدر نفسه ، جزء ١ ، ص ٤٦٦ .

(١٨١) Ashtor. Op.Cit., p. 427.

(١٨٢) Ashtor. E, Op.Cit. p. 428 ;
Kedar, Merchants in Crisis, p. 64.

٨٪ وبـالتالي زادت نسبـة الأرباح . أمـا القطن فكـانت تكاليف استيـراده أكثر وتوزعت على الوجه التالي :

وسوم للسلطات في سوريا	٥٪
بدل أتعاب الوكيل	٣٪
رسوم نقل	٢٣٪
رسوم للبندقية	٣٪
المجموع	٣٤٪

ولمـا كانت أسعـار القطن في سـوريا هي أقـل بنسبة ٨٠٪ فقـد حققت البندقية أرباحاً قدرت بحدود ال ٤٥ ـ ٥٠ ٪ [١٨٣] .

ولا بد من الإشارة هنا إلى عملية نقل المعادن من الغرب إلى الشرق ففي النصف الثـاني من القرن الخـامس عشر تـطورت وسائـل إستخـراج النحـاس والفضـة من منـاجم ألمـانيـا والنمسـا خـاصـة في منـاطق التيـرول وبـوهيميـا وساكسونيا[١٨٤]وقد عمد البنادقة إلى شراء هـذه المعادن خـاصة النحـاس من التيـرول وشحنـوهـا إلى الشـرق حيث كـانت الحـاجـة مـاسـة إليهـا لضـرب الفلوس . وقد لعبت البندقيـة دوراً في مجال تجـارة التوابـل والمعادن وجنت الأرباح الطائلة . وللمحافظة على هذا الدور كـانت البندقيـة لا تتردد في تلبيـة رغبات السلطان الهادفة أبداً إلى إجبار التجار البنـادقة على شـراء المزيـد من التوابل بأسعار مـرتفعة وقـد نجحت البندقيـة في هذا المجـال بعد مفـاوضات مضنية فتم الإتفاق على شراء ٢١٠ أحمال من تـوابـل الـذخيرة السلطانيـة في مصر و ٥٣٠ حملاً في سوريا وبسعر ٨٠ دوكات للحمل الواحد[١٨٥] .

(١٨٣) Ashtor. E, Op.Cit. pp. 428-429.

(١٨٤) Nef.J.U., «Mining and Metallurgy in Mediaeval Civilization», CEHE II (1952), p. 463.

(١٨٥) اتفاقية السفير البندقي «ترفيـزان» والسلطان « الغوري » ١٥١١/١٥١٢ فهمي . ز ، طرق التجارة الدولية ومحطاتها ص ٤٠٦ ـ ٤١٩ ؛
=

وكما اشتكى البنادقة من تدني نوعية الفلفل الغير مغربل ، فقد اشتكت السلطات المملوكية من غش الذهب والفضة الواصلة إلى الديار الإسلامية . ففي خطاب إلى دوق البندقية بتاريخ ١٠ شعبان ٨٧٧هـ/١٤٧٣ م يقول السلطان قايتباي « إن الذهب والفضة التي صارت تصل في القطايع وغيرها إلى الثغر السكندري وغيره يوجد فيها الغش ، بحيث أن الماية درهم من الفضة إذا أضيفت لم تقارب ستين درهماً ، وغالبها نحاس »(١٨٦) .

كما أن السلطان الغوري لدى مقابلة السفير البندقي ترفيزان له أشار إلى تدني كميات النحاس الواصلة إلى الديار المصرية من ٣٠٠٠ قنطار إلى ٨٠٠ قنطار، وقد عزا السفير هذا التدني إلى أن النحاس المصدر إلى السلطنة كان يؤخذ دون رضى التجار ودون موافقتهم في معظم الأحيان ولذا فهم لا يطمئنون إلى تلك المعاملة أو في الحصول على ما يطلبون مقابل نحاسهم ولا يطمئنون إلى أنهم سيبيعون بالأسعار التي يطلبونها . لذا لا يتاجرون في النحاس بعد . وألحّ السفير إلى ضرورة الأخذ بالاعتبار مسألة السلام والعلاقات الطيبة مع الألمان وحرية التجارة معهم(١٨٧) .

وبالرغم من تلك الصعوبات فإن تجارة البندقية مع السلطات المملوكية لم تتأثر كثيراً ولم تنقطع أبداً بل على العكس كانت تتقدم وتزدهر وإن ببطء حتى شملت بالإضافة إلى الإسكندرية ودمشق ، دمياط وبيروت وطرابلس واللاذقية وحماه وحلب. وكانت تجارة الحرير مزدهرة في حلب حيث تجلبه القوافل من إيران وجهات بحر قزوين(١٨٨). وكان التجار البنادقة يبيعون كميات

Marino Sanuto, Diarii II, cols. 165, 172, 175, III, col. 1198 VI col. 1189; ASV Libr. Com. 19, f.26a, 30a.

(١٨٦) فهمي . ز ، المصدر نفسه، ص ٣٧٥ ؛

Wansbrough. J. «A Mamluk letter of 877-1473», BSOAS 24 (1961), p. 200ff.

(١٨٧) اتفاقية السفير البندقي « ترفيزان» والسلطان الغوري ١٥١١/١٥١٢ فهمي . ز، المصدر السابق ص ٤١٣ ـ ٤١٤ .

(١٨٨) Heyd. W, Histoire du Commerce II. pp. 672-673

كبيرة من الألبسة في حلب حيث يوزعها من هناك التجار السوريون والعراقيون في البلدان المجاورة . وعموماً كانت الألبسة الصوفية الإيطالية الرخيصة مرغوبة في السلطنة خاصة في سوريا . وكان البنادقة يجلبونها من مدينة برشيا Brescia الواقعة تحت سيطرتهم . وكان الثوب يباع بحدود ال ١٢ ـ ١٥ دوكات .

وكانت هناك أنواع أخرى من الثياب الإيطالية الرخيصة صنع بادوا Padua وفلورنسا وكانت تباع بأسعار متدنية (٣ ـ ٥)دوكات لعامة الشعب . أما الثياب الحريرية النفيسة صنع البندقية فكانت غالية ولا تباع إلاّ إلى طبقة المماليك الأرستقراطية . (Scarlets)(١٨٩) .

أما النحاس فكان يصدر بكميات ضخمة إلى ديار السلطنة وفي نهاية القرن الخامس عشر انخفضت كميات النحاس المصدرة إلى الثلاثة آلاف قنطار كما لحظ السلطان الغوري ومع ذلك باع البنادقة هذه الكمية بحوالي ٧٠،٠٠٠ دوكات(١٩٠) .

وكانت البندقية تصدر أيضاً زيت الزيتون والعسل والجوز واللوز(١٩١). وفي أوقات الجفاف كانت سوريا ومصر تستورد القمح والشعير والطحين . ففي سنة ١٤٧٠ قام التجار البنادقة بتأمين القمح إلى سوريا من صقلية ونابولي. وفي سنة ١٤٧٨ جلبوا القمح إلى مصر وسوريا من قبرص وفي

---

(١٨٩) Senato Mar VII, f. 1b; Senato Mar VIII, f. 87bf., 151b ;
Ashtor. E, Op.Cit., pp. 462, 464.

(١٩٠) Reinaud, «Traités de Commerce entre la Republique de Venise et les derniers Sultans Mamlouks d'Egypte», JA 1829, II, p.31f;
Ashtor. E, Les Métaux Précieux, pp. 61ff. 64.

(١٩١) Reinaud, «Traités de Commerce», JA 1829, II, p. 32 ;
Churchil. A and J, Collection of Voyages and Travels (London, 1732), p. 437f.
Ashtor. E, Levant Trade, p. 465.

سنة ١٤٨٢ إستوردوا الحبوب إلى مصر(١٩٢) .

أما الصابون فكان يصدر بكميات وافرة إلى السلطنة(١٩٣) . وكان التجار البنادقة يصدرون أيضاً الزجاج والبلور إلى مصر وسوريا وكانت تجارة الزجاج تجارة رابحة(١٩٤) .

أما المرجان فكان التجار البنادقة يجلبونه من مرسى الخرز في تونس شمالي أفريقيا وكان أحياناً ينقل إلى كانديا في جزيرة كريت قبل تصديره إلى سوريا . ولما أصبح المرجان تجارة رائجة خصص له البنادقة المراكب لنقله وسميت هذه المراكب بشواني المرجان Galea di Corallo (١٩٥) .

وكان المماليك يرغبون المرجان ويصدرون قسماً منه إلى الهند وغربي السودان(١٩٦) . وفي النصف الثاني للقرن الخامس عشر أصبحت تجارة المرجان قطاعاً مهماً من تجارة البندقية مع السلطنة وبحيث بلغ ثمن ما صدّره البنادقة من المرجان بسنة ١٤٨٩ إلى الإسكندرية حوالي ٣٠٠ ، ١٨ دوكات(١٩٧) . وكان الكتلان والفلورنسيون يحملونه أيضاً إلى مصر ليصار إلى نقله إلى الشرق فيما بعد(١٩٨) .

---

(١٩٢) Senato Mar IX, f. 16b; Ashtor. E, Op. Cit., pp. 465-466.

(١٩٣) Senato Mar XIII, f. 90b;
Ashtor. E, Op. Cit., p. 466.

(١٩٤) Ashtor. E, Op. Cit. p. 466.

(١٩٥) Ashtor. E, Op. Cit., p. 466;
Senato Mar X, f. 29a.

(١٩٦) Heyd. W, Histoire du Commerce II, p. 610 ;
فهمي . ز ، طرق التجارة، ص ٢٥٣ .

(١٩٧) Ashtor. E, Op. Cit. p. 469.

(١٩٨) Piloti. E, Traité d'Emmanuel Piloti, p. 48 ;
Heyd. W , Op. Cit., p. 610 ;
Amari, I Diplomi Arabi. fior. p. 383.

أما أسعار الفلفل فقد كانت في بداية النصف الثاني من القرن الخامس عشر ٩٠ دوكات للحمل الواحد ثم استقرت على سعر ٨٠ دوكات للحمل الواحد خلال عقدين ثم انخفضت إلى ٧٠ دوكات للحمل خلال السبعينات وفي بداية سنة ١٤٩٠ وصل سعر الحمل إلى ٦٦ - ٦٨ دوكات فقط في الإسكندرية ودمشق(١٩٩) .

أما أسعار الزنجبيل فقد انخفضت هي الأخرى ، ففي حين كان سعر القنطار ٤٠ دوكات في بداية النصف الأول من القرن الخامس عشر إلاّ أنه انخفض إلى سعر ٣٠ دوكات(٢٠٠) في الثمانينات وكان انخفاض سعر الزنجبيل يرجع لأسباب عائدة لأوضاع الهند والسلطنة المملوكية وأهمها تدهور الصناعة في هذه البلاد وحاجتها الماسة لذهب البندقية . وقد أدى ذلك إلى انخفاض سعر بعض السلع الشرقية والتوابل الأخرى ، كالقرفة وحب الهال والشبّة وخشب البرازيل وغيرها(٢٠١) .

وكان لهذا التدني لأسعار الفلفل والتوابل الأخرى انعكاس إيجابي على تجارة البندقية مع شرقي المتوسط فازدهرت وازداد حجم السلع المتبادلة ، ففي العقد الأخير من القرن الخامس عشر اشترى البنادقة من مصر وسوريا سنوياً ما مجموعه ٢٥٠٠ حملاً من الفلفل و ٦٠٠٠ - ٧٠٠٠ قنطاراً من الزنجبيل(٢٠٢) .

---

(١٩٩) Ashtor. E, Op. Cit., p. 469; Secreta 22, f. 93aff.

(٢٠٠) Ashtor. E, Op. Cit., pp. 468 - 469; ASV, PSM. Com. Ba 161, fasc. IX, accounts.

(٢٠١) Ashtor. E, Histoire des prix et des Salaires, dans l'Orient Medieval. Paris 1969, pp. 342, 419, 419 ;

Heyd. W, Histoire du Commerce II, pp. 565, 587-588.

(٢٠٢) Ashtor. E, Levant Trade, p. 472 ;

Wake. C.H.H., «The Changing Pattern of Europe's Pepper and Spice Imports, ca 1400 - 1700», JEEH VIII (1979), 366ff.

ومن الإسكندرية وحدها جرى تصدير الكميات التالية من الفلفل والزنجبيل(٢٠٣) .

السنة	فلفل	زنجبيل
١٤٩٦	١٥٢٠ حمل (٢٢٥ كلغ)	٤٨٠٠ قنطار (٤٥ كلغ)
١٤٩٧	٢٠٠٠ حمل	٦٢٠٨ قنطار
١٤٩٨	١٥٨٨ حمل	٥٦٧٢ قنطار

وقد دفع البنادقة ثمن الأبهار والزنجبيل المشترى من الإسكندرية وبيروت المبالغ التالية(٢٠٤) :

السنة	السلعة	المكان	القيمة المدفوعة
١٤٨٦	فلفل	الإسكندرية	١٠١٨٤٠ دوكات
	فلفل	بيروت	٧٢١٥٠ دوكات
	زنجبيل	الإسكندرية	٦٠٠٠٠ دوكات
	زنجبيل	بيروت	١٤٩٨٧ دوكات
			المجموع ٢٤٨٩٧٧ د .

(٢٠٣) Ashtor. E, A Social and Economic History, p. 328.

(٢٠٤) Ashtor. E, Ibid., pp. 327 ;
Les Métaux Précieux, p. 66f.

السنة	السلعة	المكان	القيمة المدفوعة
١٤٩٧	فلفل	الإسكندرية	١٤٩٠٠٠ دوكات
	فلفل	بيـروت	٣٢١٧٥ دوكات
	زنجبيل	الإسكندرية	٩٠٠١٦ دوكات
	زنجبيل	بيـروت	٢٧٢٠٠ دوكات
			المجموع ٢٩٨٣٩١ د .
١٤٩٨	فلفل	الإسكندرية	١٣٠٢١٨ دوكات
	زنجبيل	الإسكندرية	٧٤٢٢٠ دوكات
			المجموع ٢٠٤٤٣٨ د .

وقـد قدر أرنـولد فـون هارف Arnold V . Harff بحـوالي ٣٠٠,٠٠٠ دوكات قيمة المعادن الثمينة من ذهب وفضة ونحاس التي كانت تحملها مراكب البندقية إلى الإسكندرية وبيروت لشراء الفلفل والزنجبيل والحرير[٢٠٥] . وكان جزء من هذه المعادن نقوداً ذهباً بالدوكات والبـاقي على شكل سبـائك كـانت تقايض بالفلفل وغيره. وقد احتل النحاس مركز الصدارة وكانت البندقية تصدر

(٢٠٥) Harff. A, The Pilgrimage of ... 1496-1499, p. 114

ذكـر هارف أن شـواني البندقيـة الذاهبـة إلى الإسكندريـة سنة ١٤٩٧ حملت مبلغ ٣٠٠,٠٠٠ دوكـات في حين أن تلك الذاهبـة إلى بيـروت حملت مبلغ ٦٠,٠٠٠ دوكـات وفي السنة التي قبلهـا (١٤٩٦) كـانت قـد حملت إلى الإسكـندريـة مبلغ ٢٢٠,٠٠٠ دوكات وإلى بيروت مبلغ ١٢٠,٠٠٠ دوكات.

انظر Heyd. W, Histoire du Commerce II, p. 440 ;
Sanuto. M, I Diarii I, p. 734, p. 270.

منه سنوياً إلى الإسكندرية وبيروت الكميات التالية(٢٠٦) :

السنة	المكان	الكمية من النحاس	القيمة
١٤٩٥	الإسكندرية	٥٥٠٠ قنطار	٣٥٧٥٠ دوكات
١٤٩٦	الإسكندرية	١٠٠٠٠ قنطار	٦٥٠٠٠ دوكات
	بيروت	١٥٠٠ قنطار	٩٧٥٠ دوكات
١٥٠١	الإسكندرية	٤٠٠٠ قنطار	٢٦٠٠٠ دوكات

إن هذه البيانات تشير بوضوح إلى أن ميزان المدفوعات في التجارة الشرقية كان لصالح سلطنة المماليك بغض النظر عن حسبان الأموال العائدة لمبيعات القطن السوري. وكانت السلطات المملوكية تدفع أموالاً طائلة من النقود الذهبية لشراء المماليك الجدد من نواحي البحر الأسود وكمرتبات للجند ونفقات الحملات العسكرية ولشراء كميات لا بأس بها من الفلفل والتوابل للاستهلاك المحلي . وكان سلاطين المماليك يسدون حاجتهم من الذهب ويستعيضون النقص الحاصل به عن طريق ذهب غربي السودان والمعروف بذهب بلاد تكرور حيث كانوا يقايضونه بالملح والصوف والنحاس والودع والخرز . ولهذا ظل ميزان المدفوعات التجاري دائماً لصالح المماليك(٢٠٧) .

أما القطن فكان التجار البنادقة يجلبونه بكميات كبيرة من سوريا خاصة من اللاذقية وطرابلس وبيروت وعكا ويافا . وكانت البابوية قد وضعت القطن

(٢٠٦) Ashtor. E, A Social and Economic History. p. 328.
«The Venetian Supremacy in the Levantine Trade-Monopoly or recolonialism?». Journal of European Economic History III (1974), p. 5ff.

(٢٠٧) القلقشندي، صبح الأعشى، جزء ٤، ص ٢٨٦، ٢٨٧، ٢٨٩ ؛
Ashtor. E, A Social and Economic History. p. 329.

من بين المواد المحرم التعامل بها وشراؤها من المسلمين ، وكان مارينو سانوتو (Torsello) قد اقترح مقاطعة السلع الشرقية خاصة القطن ودعا إلى شراء القطن من صقلية وجزيرة كريت واليونان وجزيرة قبرص وإيطاليا(٢٠٨) ، غير أن اقتراحه لم يؤخذ به وعكفت المراكب الإيطالية عموماً ومراكب البندقية على تحميل القطن من سوريا ومن الإسكندرية(٢٠٩) وكانت هذه المراكب تأتي على شكل قوافل مؤلفة من ٦ ـ ٧ مراكب في الربيع و٢ ـ ٣ مراكب في الخريف وكان مجموع ما يصل إلى سوريا في النصف الثاني من القرن الخامس عشر بمعدل حوالي تسعة مراكب سنوياً . وكانت مراكب القطن المتجهة إلى الإسكندرية هي أقل عدداً من مراكب سوريا .

وقد ذكر أنه في سنة ١٤٦٩ توجهت أربعة منها إلى الإسكندرية(٢١٠) . وبلغ مجموع الشواني (Galleys) المبحرة على خط الإسكندرية وخط بيروت من سنة ١٤٥١ ولغاية سنة ١٤٩٨ ما مجموعه ٣٤٠ شانيا وهذه المراكب المسماة مراكب الخط Galee de trafego لم تكن تنقل القطن فقط بل عموم السلع الشرقية وكان هناك مركبان أو ثلاثة متخصصان بنقل التوابل سنوياً من مصر وسوريا إلى البندقية(٢١١) .

---

(٢٠٨) Heyd. W, Histoire du Commerce II, pp. 611 - 614 ;
Sanuto. M, Secr. Fidel. Cruc., pp. 24, 33 ;
Amari, Storia dei Musulmani di Sicilia, Catania, 1933-39.
II, 448, III, 784 ;
فهمي . ز، طرق التجارة، ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩ .

(٢٠٩) ذكر هايد (II ص ٦١٣) أنه استناداً إلى سانوتو Sanuto (ص ٢٤) كان القطن يزرع في مصر وأيده في ذلك بيلوتي Piloti (ص ٥٨) .

(٢١٠) Ashtor. E, The Levant Trade, p. 471 ;
Senato Mar VI, f. 68a VII, f. 429.
لمعرفة عدد المراكب للسنين الباقية (١٤٩٧ ، ١٤٩٨) .
انظر : Sanuto. M, Diarii I, col. 734, 1032.

(٢١١) Ashtor. E, Op.Cit., p. 471 ;
«The Venetian Supremacy» p. 19 ff.

وقد توزعت مراكب البندقية القاصدة بيروت والإسكندرية خلال النصف الثاني للقرن الخامس عشر على الوجه التالي(٢١٢) :

الفتــرة	بيــروت	الإسكندريـة	مجموع المراكب
١٤٥١ - ١٤٦٠	٣٦	٣٣	٦٩
١٤٦١ - ١٤٧٠	٣٥	٣٠	٦٥
١٤٧١ - ١٤٨٠	٣٢	٣٩	٧١
١٤٨١ - ١٤٩٠	٣٣	٤٩	٨٢
١٤٩١ - ١٤٩٨	٢٤	٣٢	٥٦

وكان سعر القطن منخفضاً في أواسط القرن الخامس عشر إذ بيع القنطار الواحد بحدود سعر ٢٢ دوكات . وخلال النصف الثاني من القرن الخامس عشر ارتفعت أسعار الفلفل والتوابل بنسبة ٥٠٪ إلاّ أن القطن حافظ على أسعاره المعروفة باستثناء زيادات طفيفة فبيع القنطار منه بسعر وسطي قدره ٢٦ دوكات . وسرعان ما تدنت أسعار القطن في نهاية القرن الخامس عشر فبيع

(٢١٢) Ashtor. E, The Levant Trade, pp. 472, 474.
Senato Mar V, f. 105a ;
Senato Mar VI, f. 77b ;
Senato Mar VII, f. 181b;
Senato Mar IX, f. 32b ;
Secreta 29, f. 123a ;
Secreta 33, f. 28a;
Senato Mar XIII, f. 8ab ;
Senato Mar XII, f. 117a, f. 146a;
Senato Mar XIII, f. 20a;
Senato Mar XIV, f. 18a.

القنطار سنة ١٤٨١ بسعر ١٧ دوكات وسنة ١٤٨٨ بسعر ٢١ دوكات(٢١٣) .

وسبب ذلك يعود إلى تحول البنادقة جزئياً عن أسواق سوريا إلى أسواق أخرى كأسواق آسيا الصغرى (كرمان) و (أضنا) حيث كان القطن ينقل إلى لاجازيو Lajazzo ومنها إلى البندقية(٢١٤) .

وقد عمد تجار البندقية إلى استيراد القطن أيضاً من نابولي في إيطاليا(٢١٥) . ولهذا السبب نجد أن عدد المراكب المتجهة إلى بيروت والإسكندرية قد إنخفض إلى أدنى حد له خلال العقد الأخير من القرن الخامس عشر وبلغ ٥٦ مركباً فقط كما تظهره البيانة السابقة .

وليس لدينا احصائيات كاملة عن كميات القطن المستوردة من سوريا أو الإسكندرية وأسعارها خلال النصف الثاني من القرن الخامس عشر . غير أن تقارير وروايات التجار البنادقة تشير إلى عظم هذه الكميات عن طريق المبالغ التي دفعوها . ففي سنة ١٤٧٥ إشترى التاجر ليونادو ماليبيرو L . Malipiero قطناً من سوريا بمبلغ ٢٥١٥ دوكات وفي سنة ١٤٧٦ بمبلغ ٥١٨٨ دوكات وفي سنة ١٤٨٥ بمبلغ ٤٢٤٠ دوكات . أما توماسو ماليبيرو T. Malipiero فقد إشترى قطناً سنة ١٤٨٨ بمبلغ ١٣٣٨ دوكات ، وفي سنة ١٤٨٠ إشترت وكالة

---

(٢١٣) Ashtor. E, Op. Cit., pp. 473 - 474 ;
ASV, PSM Com.m. Ba 161, fasc. 14, letter to Al-Baseggio ;
ASV, PSM Com.m. Ba 161, fasc. VIII. Accounts Thomas Malipiero.

(٢١٤) Heyd. W, Histoire du Commerce, II, pp. 612, 613, 614 ;
Sanuto. M, I Diarii, VI, p. 538.
ويقول هارف (ص ٢٣٧) إن زراعة القطن كانت مزدهرة في آسيا الصغرى خاصة بالقرب من منطقة بروسا (Brousse) .
Harff, The Pilgrimage of... p. 203.

(٢١٥) Senato Mar IX f. 177; f. 133a.

الفيز كارولدو Alvise Caroldo قطناً بمبلغ ٤٢٨٢ دوكات ، وفي سنة ١٤٨١ بمبلغ ٢٦٩٨ دوكات[٢١٦] .

وقد فاقت مشتريات القطن بكثير هذه المبالغ لأن المراكب المتجهة إلى بيروت والإسكندرية كانت تحمل سنوياً ما قيمته حوالي ٤٣٠ ٠٠٠ دوكات تقريباً ، منها حوالي ٣٠٠ ٠٠٠ دوكات من النقد الذهب والسبائك المعدنية الثمينة لدفعها ومقايضتها بالفلفل والتوابل ، وكان الذهب والفلفل ينقل على متن المراكب الطويلة والسريعة والمعروفة بالشواني (Galley)[٢١٧] ، في حين كانت المراكب الكبيرة والسماة بالمربعة (Cog) تحمل إلى سوريا ما قيمته سنوياً حوالي ١٣٠ ٠٠٠ دوكات من معادن ثمينة وأثواب وسلع أخرى لبيعها أو مقايضتها بالقطن السوري والحرير وما إلى ذلك من السلع الشرقية[٢١٨] .

وكانت حمولة الشواني العائدة من الإسكندرية وبيروت إلى البندقية تقدر بحوالي ٤٠٠ ٠٠٠ دوكات[٢١٩] ، في حين كانت حمولة المراكب المربعة العائدة من سوريا وغيرها من مناطق السلطنة المملوكية تقدر بحوالي ٢٠٠ ٠٠٠

---

(٢١٦) Ashtor. E, «The Venetian Cotton Trade», p. 698, p. 699 ;
«The Levant Trade», p. 471.

(٢١٧) Ashtor. E, Ibid., p. 477 ;
Sanuto. M, Diarii I, col. 734.
أكد السلطان الغوري في مقابلته للسفير ترفيزان أن قيمة البضائع الواصلة إلى الإسكندرية سنوياً من البندقية كانت قيمتها لا تقل عن ٣٠٠,٠٠٠ دوكات وقد لاحظ الغوري أن قيمة البضائع المجلوبة قد انخفضت إلى ٢٠٠,٠٠٠ دوكات .
انظر نص اتفاقية السفير البندقي «ترفيزان» والسلطان «الغوري» ١٥١١/١٥١٢ في طرق التجارة لفهمي . ز، ص ٤١١ .

(٢١٨) Senato Mar XIV, f. 28af ;
Sanuto. M, Diarii I, col. 270, 380; I, col. 734 ;
Priuli, I, p. 48.

(٢١٩) Senato Mar XI, f. 185b;
Priuli, I, p. 59f. p. 73, p. 109.

دوكات سنوياً فيكون مجموع ثمن البضائع المنقولة من مصر ودمشق إلى البندقية سنوياً حوالي ٦٠٠٠٠٠ دوكات تقريباً(٢٢٠) .

وتجدر الإشارة إلى أن خط الإسكندرية وسوريا كانا شريان التجارة الحيوي للبندقية ، وان المبالغ المستثمرة في مصر كانت مضاعفة تقريباً للمبالغ المستثمرة في سوريا ، وإن حجم البضائع المتبادلة قد إزداد بشكل ملموس خلال السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر وكانت الزيادة لصالح البندقية التي حققت أرباحاً طائلة حتى أنها كانت تضطر في أحيان كثيرة أن ترسل السفن الحربية لمواكبة وحماية المراكب المحملة بالبضائع الثمينة . وكانت هذه البضائع بنسبة كبيرة (٦٠٪) مكونة من النقود الذهبية (دوكات) وسبائك الفضة والنحاس وغيرها(٢٢١) .

السلع المتبادلة بين سلطنة المماليك والمدن الإيطالية الأخرى

إن نجاح البندقية التجاري الباهر واحتكارها لكثير من السلع الشرقية لم يمنع بقية المدن الإيطالية من التبادل التجاري مع سلطنة المماليك ولكن بنسبة أقل . وفي طليعة هذه المدن الإيطالية جنوى . ولفهم طبيعة العلاقات الجنوية المملوكية علينا أن نأخذ بعين الإعتبار قرارات التحريم التي أصدرتها البابوية

---

(٢٢٠) Ashtor. E, «The Levant Trade», pp. 476, 478 ;
Senato Mar VIf. 136a, VII, f. 47b;
Senato Mar XIV, f. 18a.

(٢٢١) ذكر أشتور أن البندقية أرسلت إلى مصر سنة ١٤٩٣ (آب) مركبين قيمة حمولة كل منهما أكثر من ٥٠,٠٠٠ دوكات.

ASV, PSM Com.m. 161, fasc. 1, Accounts of Tomaso Malipiero ;
Ashtor. E, «The Levant Trade», p. 476.

كما ذكر هارف (The Pilgrimage of) ص ١١٤ ، ان المبالغ المرسلة إلى سلطنة المماليك من نقود فضية وسبائك كانت قيمتها بحدود ٣٠٠,٠٠٠ دوكات كل سنة وكان المماليك يقايضونها بالتوابل والمنتوجات الحريرية وأضاف هارف أن المماليك كان لديهم في بلادهم ما فيه الكفاية من الفضة والذهب.

ضد سلطنة المماليك على أثر سقوط عكا سنة ١٢٩١ .

وقد تشددت جنوى في تطبيق هذه القرارات حتى أن البابا كليمون الخامس Clement V هنأها على ذلك[٢٢٢] . غير أنه إعتباراً من بداية القرن الرابع عشر عمدت جنوى إلى توسيع علاقاتها مع المماليك وخلافاً لقرارات التحريم مما دفع البابا يوحنا الثاني والعشرين Jean XXII إلى الغضب ونعت تجار جنوى بالمسيحيين العاطلين Mauvais chrétiens[٢٢٣]. مما سبب لهم مشاكل مع الحبر الأعظم وفرسان القديس يوحنا في رودوس وملك قبرص. ولم تكن علاقة الجنويين عموماً طيبة مع المماليك بسبب أعمال القرصنة[٢٢٤] وبسبب منافسة البندقية لهم. وهذا لم يمنع جنوى من توريد العبيد البيض إلى مصر من مستعمرتهم المشهورة كافا على ساحل البحر الأسود وبشرط نقلهم على متن سفن إسلامية . غير أن علاقة جنوى بالشرق في النصف الثاني من القرن الخامس عشر قد تأثرت بعدة عوامل أهمها خسارة جنوى لمستعمراتها في بحر إيجة في البحر الأسود ووقوع جنوى نفسها تحت سيطرة ملك فرنسا لويس الثاني عشر وخاصة لاهتمام جنوى الرئيسي بالتجارة في الشطر الغربي من حوض البحر المتوسط والمحيط الأطلسي[٢٢٥] .

المصادر العربية لم تذكر شيئاً عن تجارة جنوى وكل ما ذكر أنه في شهر محرم سنة ٨٦٤ هـ/١٤٥٩ وأثناء عودة الأسطول المصري من حملة إلى خليج

---

(٢٢٢) Heyd. W, «Histoire du Commerce», II. p. 35.

(٢٢٣) Heyd. W, Ibid., II. p. 36.

(٢٢٤) Mallone. C, «Corsari E Pirati» in la storia dei Genovesi Atti del convegno di studi sui ceti dirigenti nelle instituzioni della Repubblica di Genova, Genova 1981. vol. II. p. 298.

(٢٢٥) Giacchero. G, «Le origini della casa di san Giorgio e il suo primo secola di vita» in «La Storia Dei Genovesi,» vol. II, pp. 165 - 167 ;
Musso. G, «Nobili E Mercanti Genovesi nell'occidente Atlantico » in la Storia dei Genovesi, vol. II, pp. 127-130.

أياس في آسيا الصغرى لإحضار الأخشاب (بلاد الجون التركية) قبض على مركب للإفرنج فيه نحو من مائة وخمسين أسير من بينهم قنصل جنوى . وقد طلب السلطان المؤيد من القنصل الجنوي فدية قدرها مائة إلف دينار ثم قبل بمبلغ أقل بعدما ضمن قناصل الإفرنج القنصل الجنوي(٢٢٦) .

وقد سعت جنوى في العقود الأخيرة من القرن الخامس عشر إلى تدعيم مركزها التجاري في كل من مصر وسوريا بعد أن تحول إليها التجار الألمان مجدداً لشراء الفلفل والتوابل. وكانت جنوى تحصل من هؤلاء التجار على مادة النحاس وتحملها بدورها إلى سلطنة المماليك(٢٢٧) . وخلال هذه الحقبة الأخيرة من القرن الخامس عشر طغت مظاهر التنافس التجاري فيما بين البندقية وجنوى على كل شيء وأثرت على علاقتهما مع السلطات المملوكية ، فمن جهة كانت البندقية تراقب حركة المراكب الجنوية الداخلة إلى بيروت والإسكندرية وطرابلس وكان عملاؤها يرفعون التقارير إليها بشكل منتظم عن عدد المراكب وحمولتها من الذهب والبضائع وعما كانت هذه المراكب تأخذه في طريق العودة من توابل وقطن وسلع أخرى(٢٢٨). في حين كانت جنوى تقف إلى جانب الكتلان بهدف طرد التجار البنادقة من أسواق مصر وسوريا(٢٢٩) .

وكان للجنويين جالية مهمة بالإسكندرية(٢٣٠) . وفي سنة ١٤٨٣ زار

---

(٢٢٦) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جزء ١٦، ص ١٣٤، وقد أضاف و . بوبر في هامش ٧ : ٥٢٢ عن كتاب الحوادث « وصحبتهم المركب التي غنمها المسلمون من الفرنج والأسرى وهم نحو من مائة وخمسين أسير ، . . . فعرض السلطان الأسرى وضرب رقاب جماعة منهم وحبس باقيتهم ، وفي المحبوسين قنصل جنوى وقد طلب منه السلطان، لافتداء نفسه من القتل ـ مائة ألف دينار» .

(٢٢٧) Ashtor. E, The Levant Trade, pp. 499 - 480.

(٢٢٨) Giustiniani. A, Annali di Genova, p. CCXXVI, b ;
Heyd. W, Histoire du Commerce, II, p. 490.

(٢٢٩) Sanuto. M, I Diarii, I, 768; II, 171; III, 68, 96, 687.

(٢٣٠) Heyd. W, Op. Cit., p. 432.

فيليكس فابري Felix Fabri فندقهم وأعجب بجماله ومساحته وقد شاهد عدداً كبيراً من التجار وكميات ضخمة من التوابل(٢٣١) . وإذا كان فابـري قد دهش بما رآه في فندق الجنويين إلاّ أن دهشته تحولت إلى مفاجأة غير متوقعة عنـدما رأى أحمال الفلفل والتوابل المكدسة مالئة فندقي البنادقـة(٢٣٢) ! والحقيقة أن السلطات المملوكية كانت تميل إلى التعامل مع تجـار البندقية أكثر من تعاملها مع جنوى بسبب نجاح دبلوماسية البندقية من جهة وتعبّث القرصان الجنوى من جهة أخرى . وكان القرصان الجنوي على نوعين قرصان يأتمر بأمـر الحكومـة والمعروف باسم الكورسارو (Corsaro) وقرصان لا يأتمر بأمر أحد ويعمل من تلقاء نفسه ويسمى بيراتا (Pirata)(٢٣٣) .

وقد أساء القـرصان إلى العـلاقات الجنـوية المملوكيـة ولم تفلح جهود جنوى المتواصلة عن طريق السفارات والهدايا أو دفع فدية الأسرى في إرضاء السلطان(٢٣٤) . غير أن الجنويين كانوا ينشطون إنطلاقاً من مستعمرتين لهم في الشرق الأولى هي جزيرة خيو Chio في بحر إيجه حيث كانت التوابل تنقل إليها من الإسكندرية وبيروت والثانية هي جزيرة كافا على البحر الأسود وكانت سوقاً رائجة لتجارة الرقيق. وقد ظل التجار الجنويون في هاتين المستعمرتين حتى بعد سقوطهما بيد العثمانيين(٢٣٥) . وتجارة الجنويين مع سلطنة المماليك وإن مرت بفتـرات من الركـود إلاّ أنها لم تنقـطع أبداً فخـلال النصف الثـاني من القـرن الخامس عشر كان يصل إلى الإسكندرية أو بيروت مركبـان أو ثلاثـة كل سنـة

(٢٣١) Fabri, III, p. 163.

(٢٣٢) Fabri, Ibid., p. 163.

(٢٣٣) Mallone. C, «Corsari e Pirati», pp. 295-296

(٢٣٤) Musso, «Nuovi doc.,» pp. 448, 453, 460 ;
ASG, Arch, segr., Lit. 1810, 1810, f.69a (a. 1491) ;
Ashtor. E, Op.Cit., 480.

(٢٣٥) Musso, Op.Cit., p. 491.
ASG, Car. Vet. 1553, f. 23a - 49a, 68a ff., 197ff.

وبعض هذه المراكب كان يأتي مباشرة إلى الإسكندرية دون المرور بجزيرة خيو . وكان قسماً من المراكب المخصصة لشمال أفريقيا يصل إلى المرافىء المصرية(٢٣٦) .

وكانت مراكب شمالي أفريقيا الجنوية تنقل إلى الإسكندرية الثياب والبضائع الأخرى والركاب والتجار المغاربة(٢٣٧) .

إن قائمة السلع المباعة من قبل التجار الجنويين في أسواق مصر والشام كانت كبيرة وكانت تشمل الثياب الفلورنسية(٢٣٨)والثياب الإنجليزية الرخيصة والغالية والثياب الفرنسية والكتلانية والثياب الحريرية والمخملية والأقمشة(٢٣٩) . وكانت تشمل أيضاً الورق المصنوع في سمبردرنا Sampier-darena وفي فولتري Voltri(٢٤٠). وكان الجنويون يصدرون إلى مصر وسوريا المرجان الذي يجلبونه من مرسى الخرز في شمال أفريقيا وكانوا يصنعون جزءاً من المرجان في جزيرة رودوس ثم يستبدلونه باللؤلؤ في أسواق سوريا وقد مرّت تجارة المرجان بأزمات نتيجة الإجراءات التي اتخذتها السلطات الجنوية ومنها إجبار التجار على نقل المرجان المجلوب من كورسيكا على متن المراكب الجنوية(٢٤١) ، وإشتهر تجار جنوى بالمصطكي الخيوسي نسبة إلى جزيرة خيو التي يعرفها الرحالة العرب بإسم جزيرة المصطكي(٢٤٢) ، فكانوا

---

(٢٣٦) Heers, J. Gênes au XV° siècle, Paris, 1961, p. 374.

(٢٣٧) Sanuto. M, I Diarii I, col. 768 ;
Ashtor. E, Op. Cit., p. 481 .

(٢٣٨) Musso, «I Genovesi», p. 88.

(٢٣٩) ASG, 2774C, f. 12b, 22b, 23b, 28b, 33b, 35b ;
Senato Mar VI, f. 28b.

(٢٤٠) Musso, « I Genovesi », p. 89.

(٢٤١) Ashtor. E, Op. Cit., p. 482.

(٢٤٢) فهمي . ز، طرق التجارة الدولية، ص ٢٣٣ .

ينقلونه من هناك إلى أسواق القاهرة ودمشق والإسكندرية وغيرها ويجنون في ذلك الربح الوفير(٢٤٣) . ويقال إن ما من سائح أو رحالة كان يمر بهذه الجزيرة إلاّ ويحمل معه بعض المصطكي ذي الرائحة الزكية العطرة(٢٤٤) .

وكان الجنويون يجلبون أيضاً إلى مصر وسوريا العنبر Ambergris وريش النعام Ostrich Feathers والشمع وزيت الزيتون والزبيب والبندق Hazelnuts والحبوب في فترات القحط(٢٤٥) .

وكانت قائمة السلع المستوردة من قبل الجنويين من مصر وسوريا طويلة أيضاً . وأهم هذه السلع الفلفل والزنجبيل والبخور واللّك Gum—lac والنيلة Indigo والرواند Rhubarb(٢٤٦) . وكانت هذه البضائع تصل إلى جنوى وصقلية . كما كان السعد Galingale ينقل إلى مسينا . وانغمس الجنويون في تجارة الجواهر واشتروا الأحجار الكريمة من الإسكندرية بآلاف الدوكات(٢٤٧) . كما اشتروا القطن والثياب القطنية Bocasin والقلي من

---

(٢٤٣) ASG. 2774C, f. 32b.
يقال إن قيمة المصطكي المباع سنوياً كانت بحدود ٩٤٥٠ دوكات.
انظر : Musso, «I Genovesi», pp. 86, 87, 95 ;
Ashtor. E, Op.Cit., p. 482.

(٢٤٤) فهمي . ز ، طرق التجارة الدولية، ص ٢٣٣ ؛
Heyd. W, Histoire du Commerce, II, pp. 633-634.

(٢٤٥) Musso, «I Genovesi», p. 89, 91; «Nuovi doc.,» p. 491 ;
ASG, 2774C, f. 14b, 19B, 32 b;
Heers, Gênes, p. 374 ;
Ashtor. E, Levant Trade, p. 482.

(٢٤٦) ASG, 2774C, f. 14b, 18b, 19a, 25b, 34b, 35 b;
Ashtor. E, Op. Cit., p. 483.

(٢٤٧) ASG, 2774C, f. 21b, 27b, 29b, 34b ;
Musso, «I Genovesi», p. 89; Nuovi doc.,» p. 491.

سوريا[٢٤٨]والكتان Flax من مصر[٢٤٩] .

وكما كانت الإسكندرية مركز نشاط الجنويين في مصر فقد كانت دمشق مركز نشاطهم في سوريا غير أن نشاط الجنويين التجاري تعدى هـذه المراكـز ليشمل القاهرة[٢٥٠]ودمياط[٢٥١] .

وشارك تجار سافونا Savona وهي مدينة على خليج جنـوى في مقاطعـة ليغوريا Liguria في تصدير الورق والثياب[٢٥٢]إلى الشرق إلى جانب جيرانهم الجنويين . وكان عدد الجالية الجنوبيـة والليغوريـة في تناقص مستمـر لتضييق السلطان عليهم بسبب تعبث القرصان . وكان هذا العدد لا يتجاوز حـدود الـ ١٥ مواطناً في الإسكندرية في العقود الأخيرة من القرن الخامس عشر في حين كان عدد أفراد جالية البندقية بحدود ال ٥٠ . أما في دمشق فقد كان هناك حوالي ٥ مواطنين من جنوى يقابلهم حوالي ٢٥ مواطناً من البندقية[٢٥٣] .

والـرحالـة الذين زاروا الإسكنـدرية في الفتـرة مـا بين ١٤٧٠ و ١٤٨٠ أشـاروا إلى فنـدق الجنـويين الجميـل[٢٥٤] . وكـان فيـه راهب وطبيب وتراجمة[٢٥٥]. غير أنه في السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر، اضطربت أحوال الجنويين في الشرق وتعثرت أحوال قنصليتهم في الإسكندريـة فاضـطر

---

(٢٤٨) Musso, «I Genovesi», pp. 88, 90.

(٢٤٩) Ashtor. E, Op. Cit., p. 483.

(٢٥٠) Sanuto. M, Diarii II, cols. 634, 637.

(٢٥١) Musso, Op. Cit., pp. 85, 87, 96.

(٢٥٢) Noberasco. F, «I Commerci Savanesi del sec. XV», Atti della Societa Savanese di Storia Patria VII (1924), p. 120; «Storia di Savona», III, p. 172.

(٢٥٣) Ashtor. E, Op. Cit., p. 484.

(٢٥٤) Breydenbach, «Reyssbuch», p. 205.
Fabri. F, «Evangatorium», III, p. 163 ;
ASG, 2774C, f. 1b, 4b, 6b, 9a, 22b ;

(٢٥٥) Ashtor. E, Op. Cit., p. 485.

القنصل للهرب من جراء تراكم الديون ولاحجام التجار عن دفع المتوجبات عليهم . فتوقفت تجارة جنوى مع مصر والشام ، وفي محاولة منه لرأب الصدع عمد بنك سان جورجيو في جنوى إلى منح القنصلية في الإسكندرية مبلغاً قدره (٥)آلاف دوكات[٢٥٦]كما عمدت سلطات جنوى لتشكيل لجنة لدراسة أحوال الجالية في الإسكندرية والأسباب التي أدت إلى ركود التجارة والحلول المقترحة فكانت أولى إقتراحات اللجنة إعادة تعيين القنصل الجنوي في الإسكندرية[٢٥٧] .

وقد نجحت الإجراءات المتخذة من قبل السلطات الجنوية في إعادة تنشيط التجارة الشرقية . ففي سنة ١٥٠٠ وصل مركب جنوى إلى الإسكندرية محملاً بـ ٥٠,٠٠٠ دوكات من النقد الذهب وبضائع بقيمة ١٠٠,٠٠٠ دوكات وكان في المرفأ مركب جنوي آخر[٢٥٨] .

وكان الذهب الجنوي الشديد الطلب من قبل السلطات المملوكية يستبدل بالفلفل الغالي الثمن والشديد الطلب من قبل المقاطعات الألمانية التي تحصل عليه عن طريق جنوى مقابل النحاس والفضة .

وإذا أردنا أن نقيّم تجارة جنوى مع الشرق يخيل إلينا لأول وهلة أن هذه التجارة قد تقهقرت بالنسبة للسنين السابقة وهذا صح . غير أنه إذا ما قارنا مقدار التبادل التجاري الجنوي مع الشرق مع كامل التبادل التجاري الجنوي لوجدنا أنه خلال الفترة ما بين ١٤٧٠ و ١٤٨٠ كان مقدار هذا التبادل حوالي

---

(٢٥٦) ASG, S. Giorgio, Div. off; no. 26 (2252), f. 197a.
ASG, 2774C, Instruc. sub 24 May 1497 ;
Ashtor. E, Op. Cit., p. 485 ;

(٢٥٧) Ashtor. E, Op. Cit., p. 485 ;
Primi Cancellieri, Ba88, p. 322; Ba. 2, C. 309.

(٢٥٨) Sanuto. M, Diarii III, col. 941.

۰۰۰ ، ۱۳۰ دوكات وهو يشكل بحدود ال ٢٥٪ تقريباً من مجموع تجارة جنوى الدولية . وهي نسبة لا بأس بها وتشير إلى أن الركود هو ركود عام عائد إلى تدني تجارة جنوى الدولية ككل ولأسباب لا تعود إلى سلطنة المماليك فقط وإنما إلى جمهورية جنوى بشكل خاص . وبالإجمال فإن معدل مقدار إستثمارات جنوى في سوريا ومصر معاً في العقدين الآخرين من القرن الخامس عشر كان لا يتجاوز مبلغ ۰۰۰ ، ۸۰ دوكات سنوياً(٢٥٩) .

فلورنسا

لعل ما قاله توماسو موسنيغو Tommaso Mocenigo دوق البندقية وهو على فراش الموت سنة ١٤٣٣ إلى كبار موظفي الجمهورية يعكس ثراء وأهمية فلورنسا فقد اعترف « أن فلورنسا ترسل إلينا كل سنة ١٦ ألف قطعة من القماش نحملها إلى شمالي أفريقيا ومصر وسوريا وقبرص ورومانيا وكانديا وبلاد اليونان كما يجلبون إلينا سلعاً مختلفة بقيمة ۰۰۰ ، ۷۰ دوكات سنوياً أي ٨٤٠٠ دوكات شهرياً ويشترون منا بالمقابل الأصواف والقماش القرمزي والحرير وخيوط الذهب والفضة والأحجار الكريمة »(٢٦٠) .

والواقع أنه حتى العقود الأولى من القرن الخامس عشر كانت فلورنسا تعتمد في تجارتها الخارجية على الأساطيل الأجنبية والمرافىء المجاورة ، فمراكب البندقية ومرفأ بيزان Port Pisan كانت الواسطة لنقل ومرور البضائع الفلورنسية ، غير أنه إعتباراً من سنة ١٤٢١ حصلت فلورنسا على مرفأ ليفورنو Livourno فأنشأت فيه داراً للصناعة البحرية وبنت المراكب الحربية لحمايته والشواني لنقل بضائعها كما أرسلت المبعوثين إلى كل من الإسكندرية

---

(٢٥٩) Ashtor. E, « Il volume del Commercio Levantino », p. 420. «Levant Trade», pp. 485 - 486.

(٢٦٠) Heyd. W, Histoire du Commerce, II, p. 296.

والقسطنطينية للإعلان عن النشاطات والخدمات البحرية المنوي القيام بها والتمهيد لتعيين القناصل لرعاية شؤون مواطنيها(٢٦١) . وقد ساعد وجود رعايا فلورنسا في رودوس وجزيرة خيو لتجعل منها بالإضافة إلى مودون Modon نقاط توقف الشواني والمراكب الفلورنسية المتجهة إلى الإسكندرية وبيروت(٢٦٢) .

كما ساعد فلورنسا في الولوج إلى أسواق مصر وسوريا إضمحلال نفوذ بيزا فورثت عنها مكانها وحقوقها وأصبح لفلورنسا مرفأها ومراكبها وتجارها وقد نجحت سفارة كارلو فدريكي Carlo Federighi وفليتش برانكاتشي Felice Brancacci لدى السلطان برسباي سنة ١٤٢٢ فحصلت فلورنسا على ما للبندقية من إمتيازات ومنها التعامل بالذهب الفلورنتي(٢٦٣) .

وجاءت إتفاقياتها مع السلطان مماثلة لإتفاقيات البندقية ، غير أن الفلورنسيين لم يحصلوا على فندق لهم في الإسكندرية وكانوا يرغبون بالاحتفاظ بفندق البيازنة القديم غير أن هذا الأمر لم يتم بسبب ممانعة السلطان ومعارضة قاضي الشرع(٢٦٤) .

وإعتباراً من شهر آذار سنة ١٤٤٥ سيّرت فلورنسا بإتجاه الإسكندرية والمرافىء المجاورة مركبين تجاريين. وفي سنة ١٤٤٧ حُدّد خط سير المراكب التجارية على الوجه التالي : في الذهاب إنطلاقاً من ليفورنو إلى صقلية ، مودون ، رودوس ، الإسكندرية ، بيروت ويافا . وفي العودة ، رودوس أو قبرص ، كانديا أو جزيرة خيو .

---

(٢٦١) Heyd. W, Ibid., p. 298.
في سنة ١٤٢١ (٢٨ تشرين) شكلت لجنة من كبار الموظفين سموا قناصلة البحر Consoli del Mare مهمتهم تنظيم كل ما له علاقة بالمرافىء والتجارة البحرية.
انظر : هايد ، المصدر نفسه ، ص ٢٩٨ .

(٢٦٢) Amari, I Diplomi Arabi, p. 442.

(٢٦٣) Heyd. W, Op. Cit., II, p. 497.

(٢٦٤) Heyd. W, Op. Cit., II, p. 480

وإعتباراً من سنة ١٤٦٠ ، تبين أن هذا الخط الوحيد هو غير كاف فأعطي الأمر لمراكب شمالي أفريقيا بالتوجه إلى الإسكندرية والعودة عن طريق رودوس وكان هذا الخط الدائري الجديد مماثلاً لخط البندقية المشهور والمعروفة مراكبه بمراكب الخط Galee di traffico (٢٦٥) . ولم تكن تجارة فلورنسا مع سلطنة المماليك منتظمة كتجارة البندقية ، وسبب ذلك يعود إلى اهتمام فلورنسا بتجارتها مع تركيا حيث تصدر إليها الأثواب وتستورد منها الحرير(٢٦٦) .

وهذا لا يعني أن الفلورنسيين كانوا غائبين عن أسواق السلطنة بل على العكس كان في دمشق والإسكندرية عدة تجار من فلورنسا وكانوا يتاجرون بالأثواب ويشترون الفلفل وكانت الأثواب الفلورنسية الدقيقة الصنع مرغوبة من قبل حاشية السلطان والأعيان وكان سعر الثوب الواحد يتراوح ما بين ٤٠ و ٥٠ دوكات في حين كان سعر الثوب الرخيص Pic يتراوح ما بين ٦ و ١٢ دوكات(٢٦٧) .

وكما كانت تجارة فلورنسا غير منتظمة فإن عمل قنصليتها في الإسكندرية كان غير منتظماً أيضاً. فقد توقفت هذه القنصلية عن العمل خلال الثمانينات من القرن الخامس عشر (١٤٨٠) ورافق ذلك تدني النشاط التجاري الفلورنسي إلى مستوى شديد الإنخفاض وكان من مصلحة السلطان ومن مصلحة فلورنسا تنشيط التبادل التجاري فيما بين البلدين فعملت الدبلوماسية على إرسال السفارات وكانت المبادرة هذه المرة من السلطان فأرسل موفده ابن محفوظ سنة

---

(٢٦٥) Heyd. W, Ibid., II, p. 487.

(٢٦٦) Amari, Op. Cit., p. 48 ;
ASF, 3a serie strozziana, no. f. 170, f. 132a, 1746, 1750 ;
Heyd. W, «Le Commerce du Levant», II, pp. 337, 344, 345.

(٢٦٧) ASF, Conv. Soppressi, no. 78, vol. 322, C. 45 ;
Ashtor. E, «Levant Trade», p. 496.
«Exportation de Textiles», p. 361.

١٤٨٧ إلى فلورنسا التي أرسلت بدورها موفدها لويجي دي لا ستوفا Luigi del-la Stufa الذي أبرم مع السلطان إتفاقية ١٤٨٩ وحصل بموجبها الفلورنسيون على كثير من الإمتيازات كحرية التجارة والبيع والشراء والمقايضة والأمن على أن يدفعوا للديوان الشريف ضريبة قدرها أربعة عشر دينار من غير السمسرة وحقوق التراجمة. وهذه الإتفاقية شجعت الفلورنسيين على جلب بضائعهم من جوخ وحرير وصابون وزيت وبندق وكحل وكبريت ومرجان وغيرها إلى ديار السلطنة وعلى شراء الفلفل من أسواق الإسكندرية والقلي من أسواق بيروت ودمشق دون أن يعارضهم أحد . وسمح لهم بصرف ذهبهم الطيب الخالص على حكم ذهب البنادقة .

وسمح لهم بجلب السكر غير المكرر والمعروف بالقطارة أو العسل الأسود على أن يؤخذ منهم أشرفي عن كل برميل وأن يبيعوا ذلك لتاجر الذخيرة الشريفة في الإسكندرية وكان السكر ينقل إلى القاهرة لغرض السلطان ودون أية ضرائب إضافية(٢٦٨) .

والفصل الخامس من هذة الإتفاقية والمتعلق باستيراد السكر يعطينا فكرة عن تقهقر صناعة السكر في مصر نظراً لتعطيل المعاصر ، فما الحاجة إذن لاستيراد هذه المادة لغرض السلطان وحاشيته من مصانع غربي أوروبا ؟

والإتفاقيات مع فلورنسا في سنة ١٤٩٦ وفي سنة ١٤٩٧ كانت مماثلة للإتفاقيات مع البندقية خاصة إتفاقية ١٤٤٢ والجديد فيها كان التاكيد على

---

(٢٦٨) اتفاقية السفير الفلورنسي دي لاستوفا مع السلطان قايتباي ٨٩٤ هـ/ ١٤٨٩ .

Stern, S.M. and Walzer, Oriental Studies, vol. III, Documents from Islamic Chanceries-first series, Bruno-Cassierer-Oxford, 1965, p. 49 .

والاتفاقية الأصلية بالنص العربي المؤرخة بتاريخ ٦ ذي الحجة ٨٩٤ هـ/ ١٣ تشرين الأول ١٤٨٩ هي محفوظة في إيطاليا ـ مكتبة مديكو لورنزيانا تحت رقم 445 A
(Biblioteca Medico - Laurenziano, or. 445A) .

تعيين قنصل للفلورنسيين في الإسكندرية وتنشيط التجارة مع سوريا واتخاذ موقف موحد من موضوع القرصان [٢٦٩] .

والملفت للنظر أن الفلورنسيين كانوا دائماً يسعون إلى تجديد إتفاقيتهم مع السلطان ومحاولة كسب المزيد من الإمتيازات داخل السلطنة ، غير أن هذة الإتفاقيات لم تؤد إلى تنشيط تجارة فلورنسا بشكل واسع مع مصر أو سوريا وسبب ذلك يعود إلى قلة السلع المصدرة أو المستوردة من السلطنة ولتورط فلورنسا القديم بالإتجار مع القسطنطينية حتى بعد سقوطها بيد العثمانيين .

فكميات كبيرة من الأثواب الجميلة والرخيصة كانت تستبدل بالحرير في تركيا وفلورنسا كانت عاجزة عن تصدير كميات كبيرة من النحاس إلى سلطنة المماليك على غرار البندقية حتى الثياب الجوخ والحرير والبندق والصابون كانت تصدر أيضاً بكميات محدودة كما أن الفلفل المستورد والواصل إلى بيزا عبر مرفأ ليفورنو لم تكن كمياته وافرة. وباختصار، فإن حجم التبادل التجاري ما بين فلورنسا وسلطنة المماليك كان صغيراً وان قيمة البضائع التي كانت تجلبها المراكب إلى فلورنسا من سوريا ومصر سنوياً لم تكن تتعدى مبلغ ٢٠ ، ٠٠٠ دوكات تقريباً [٢٧٠] .

نابولي

ذكر القلقشندي مملكة نابولي وسماها بولية وقال إنه « ببولية هذه يعرف

---

(٢٦٩) Amari, I Diplomi Arabi, ser. II, no. 40, no. 41; ASF, MAP, f. 41, no. 384.
إن نص اتفاقية ١٤٩٧ قد نشره ونسبروغ مع ترجمة إلى الإنجليزي وبعض الملاحظات .

انظر : Wansbrough, «Venice and Florence in the Mamluk Commercial Treaties,» p. 497ff.

(٢٧٠) Ashtor. E, «Levant Trade», p. 499 ;
Wansbrough, «A Commercial Treaty», p. 62.

الزيت المعروف بالبولية »[٢٧١] . وكانت نابولي أحد مراكز التجارة الدولية في البحر المتوسط في النصف الثاني من القرن الخامس عشر وكانت لها علاقات تجاربه مع شرقي البحر المتوسط . غير أن تجارة الشرق في نابولي كانت بيد الأجانب كتجار البندقية وتجار راجوزا الذين منحهم الملك فرّانت Ferrante إعفاءات جمركية وتسهيلات مختلفة سنة ١٤٦٥ وسنة ١٤٨١ . وكانت سياسة فرّانت ملك نابولي تهدف إلى إلغاء الضرائب المفروضة على التصدير تشجيعاً للتجارة[٢٧٢] . وبفضل هذه الإجراءات أصبحت نابولي مركزاً مهماً لتجارة الثياب المستوردة ففيها كانت تباع الثياب الفلورنسية الجميلة والمشهورة « باني دي جاربو » Panni di Garbo[٢٧٣] وفيها كانت تباع الثياب الكتلانية والفلامنكية[٢٧٤] . كما كانت تباع فيها الثياب الفرنسية الرخيصة ، إنتاج لانج دوك Languedoc ومونتي فيليه Montevilliers[٢٧٥] كما كانت تباع فيها أيضاً الثياب الإنجليزية . وكان التجار الجنويون يبيعون فيها إيضاً الأثواب الرخيصة[٢٧٦] (Kersey) وكان التجار الفلورنسيون يبيعون أقمشة الحرير والمخمل[٢٧٧] .

---

(٢٧١) القلقشندي ، صبح الأعشى ، جزء ٣ ، ص ٤١ .

(٢٧٢) Ashtor. E, «Levant Trade», p. 500 ;
IL Codice Chigi, ed. Jole Mazzoleni (Naples, 1965), no, 161. Regesta della cancelleria aragonese di Napoli, ed. J. Mazzoleni (Naples, 1951), no. 175.

(٢٧٣) Ashtor. E, Op. Cit., p. 500; Pisani. P, IV, f. 45af., 129 af.

٢٧٤) Pisani. P, Ibid., 81b ;
Della Morte. N, 1471-2 sub. 22, Apr. 1474.

(٢٧٥) Pisani IV, f. 84a.

(٢٧٦) Pisani IV , f. 84 a.

(٢٧٧) Pisani, Ibid., f. 116b, 174 a.
كان بتروشيو بيزاني الكاتب العدل النابوليتاني يكتب عقود البيع والشراء التي كانت تسجل لديه في معرض سلارنو السنوي القريبة من نابولي ، وقد نشر هذه العقود سيلفستري سنة (١٩٥٢) .

=

وكان كثير من الثياب المباعة في نابولي يصدر إلى الشرق ، وإلى جانب تجار البندقية وراجوزا في نابولي كان هناك التجار الكتلان الذين تصدروا قائمة التجار الأجانب وكان أيضاً التجار الجنويون الذي سيطروا تقريباً على حركة إستيراد التوابل إليها .

وقد لعبت المراكب الفرنسية «Galleys of France» دوراً مهماً في حركة التبادل التجاري ما بين نابولي وسلطنة المماليك. فقد كان تجار نابولي ينقلون بضائعهم عليها باتجاه سوريا ومصر(٢٧٨) . غير أن تجار نابولي أنفسهم كان لهم تجارتهم الخاصة والمباشرة مع السلطنة . فقد كانت مراكبهم تنقل كميات ضخمة من البندق إلى الإسكندرية . وقد بلغت قيمة حمولة البندق عشرة آلاف دوكات في سنة ١٤٨٣(٢٧٩) .

وفي سنة ١٤٨٤ غادر الإسكندرية مركب يخص الملك إلى نابولي محمّل بالتوابل والقلي لصالح تجار جنوى(٢٨٠) . وكان ملك نابولي نفسة فرّانت يتجر مع سلطنة المماليك . وكان يرسل مراكبه الخاصة بمعدل مركب كل سنة إلى مرافىء السلطنة ، ففي سنة١٤٧٧ وصل المركب الملكي سان ميكال San Michel وعلية حمولة من الثياب(٢٨١) . وفي نهاية القرن الخامس

= انظر: Silvestri. A, Il Commercio di Salerno nella seconda meta del Quattro Cento (Salerno, 1952), p. 141ff.

انظر أيضاً : Ashtor. E, Op. Cit., p. 501.

(٢٧٨) Della Morte N., 1471-2 sub. 12 May, 1472.

(٢٧٩) Fabri. F, Evagatorium III, p. 315; Breydenbach, p. 204. Ashtor. E, Levant Trade, p. 501.

(٢٨٠) Silvestri. A, Op. Cit ., p. 93 .

(٢٨١) Melis, Origini , p. 18 f.

عشر كانت تنقل من الإسكندرية إلى نابولي كميات كبيرة من الفلفل والكمون والزنجبيل والتوابل الأخرى(٢٨٢) .

ومن مشاهير تجار نابولي فرنشسكو كوبولا كونت دي سارنو Francesco Coppola Conte di Sarno وكان جابي الضرائب في نابولي وشريك الملك في التجارة. وقد أسس كوبولا مع الملك شركة احتكرت التجارة مع الشرق. وقد حظّر على أي تاجر التورط بعمليات الاستيراد أو التصدير دون المرور بكوبولا(٢٨٣) وقد إنسحب الملك من هذه الشركة وتركها لكوبولا بشرط أن يمد الملك بما يحتاج إليه من أموال وعتاد . وقد تجلى ذلك أثناء حرب فرارا War of Ferrara (١٤٨٢ - ١٤٨٣) حيث أمد كوبولا الملك بأموال ضخمة تكفي لتجهيز (٢٠) شانياً و(١٥) مركباً مربعاً و(١١) مركباً آخر(٢٨٤). وكان كوبولا مولعاً بشراء المراكب وكانت التجارة مع الشرق من أهم نشاطات هذا التاجر العظيم . فقد كانت شوانيه ، تزور الإسكندرية وتحمل منها كميات كبيرة من الفلفل والكمون والقرنفل Cloves(٢٨٥) .

وبالإجمال، كانت المواد الغذائية أهم السلع المصدرة من مملكة نابولي إلى الشرق وكان الملك فرّانت نفسه يصدر إلى مصر زيت الزيتون الفاخر والمعروف بالبولية(٢٨٦) . وكان البندق من السلع المهمة المصدرة إلى مصر

---

(٢٨٢) Ashtor, E, Op. Cit., p. 501.

(٢٨٣) Porzio. C, La Conguira dei baroni del regno di Napoli contro il re Ferdinando Primo e gli altri scritti, ed. E. Pontieri (Naples, 1958), p. 21 ;
Ashtor. E, Op. Cit., p. 502.

(٢٨٤) Ashtor. E, Ibid., Cronaca di Napoli di Notar Giacomo (Naples, 1845), p. 150.

(٢٨٥) Schiappoli. I, «IL Conte di Sarno» , Arch. Stor. Prov. Nap., N.S. 22 (1936), pp. 112, 113.

(٢٨٦) القلقشندي، صبح الأعشى ، جزء ٣ ، ص ٤١ .
Schiappoli. I, «La Marina degli Aragonesi di Napoli», p. 30;
Ashtor. E, Op. Cit., p. 502.

والشام وكانت نابولي تصدر الحبوب إلى مصر في سنين الجفاف . كما كان للصابون سوقاً رائجة في مصر وكان يعرف بصابون غاتا «Soap of Gaeta»(٢٨٧) .

وبالرغم من الإتساع النسبي للتبادل التجاري ما بين نابولي والسلطنة في النصف الثاني من القرن الخامس عشر إلا أن جالية التجار من مملكة نابولي والقاطنين في مصر كانت ضئيلة . كما تعاطى تجار نابولي التجارة مع سوريا وكان لوكالة بندتّو سلوتاتي Benedetto Salutati مصالح في مدينة طرابلس في السبعينات من القرن الخامس عشر(٢٨٨) .

ولم يكن للنابوليتانيين ولفترة طويلة أي قنصل أو فندق في الإسكندرية . غير أنه في السنين الأخيرة من القرن الخامس عشر أصبح لنابولي قنصلاً مقيماً في الإسكندرية للإهتمام برعاياها والأمور التجارية(٢٨٩) .

أنكونا Ancona

كانت تربط أنكونا منذ القدم علاقات طيبة مع القسطنطينية وقد حافظت أنكونا على هذه العلاقات حتى بعد سقوط القسطنطينية بيد العثمانيين وكانت

---

(٢٨٧) Ashtor. E, Histoire des prix et des Salaires, p. 292;
Ashtor. E, « Quelques Problèmes », p. 229 .

(٢٨٨) Ashtor. E, «Levant Trade», p. 503.

(٢٨٩) Ashtor. E, Ibid., p. 504
سنة ١٤٩٤ أرسلت نابولي السفير لويس سولر Luis Soler كمبعوث لدى السلطان وبقي في الإسكندرية كقنصل لنابولي . وفي سنة ١٤٩٨ تعين فيليب دي باريتز Philip de Parets قنصلاً للنابوليتانيين في الإسكندرية ، وقد أصبح فيما بعد قنصلاً للكتلان ولفرنسا أيضاً وقد عمل جهده لابعاد البندقية عن أسواق مصر وسوريا وإحلال التجار الفرنسيين محلها .
انظر : Heyd. W, «Histoire du Commerce», II, pp. 541, 542;
Thenaud. J, Le Voyage d'Outremer, p. XLV, 4, 57;
Lucchetta «L'affaire zen», Studi Veneziani, p. 163.

مراكب أنكونا تنقل بضائع الفلورنتيين إلى القسطنطينية أو راجوزا كما كانت هذه المراكب تنقل أيضاً بضائع أنكونا الوطنية . ولمّا كانت أنكونا واقعة تحت سلطة الفاتيكان فقد أمر البابا سيكتوس الرابع (sixte Iv) سنة ١٤٧٥ أنكونا أن توقف إرسال مراكبها إلى تركيا مخافة أن يصادرهـا ويستعملها السلطان العثمـاني في حربه ضد المسيحية(٢٩٠) .

وقد إنعكست هذه العلاقة مع العثمانيين بصورة سلبية على علاقة أنكونا مع البندقية فنشب الصراع بين الجمهـورية وأنكـونا وأدى ذلـك إلى إضطراب تجارة أنكونا مع الشرق باعتبار أن البندقية أصدرت أوامـرها بمصـادرة بضائـع أنكونا أينما كانت في البحر الأدرياتيكي أو البحر الإيجي. وقد انتقـل الخلاف أحياناً حتى إلى مصر كما حدث عام ١٤٦١(٢٩١) . ولم تنجح وساطات البابـا في أحيـان كثيرة لأن البندقية كانت تتهم أنكونـا بمساعـدة الأتراك وتـزويدهم بالمواد والأعتدة الحربية . ولما كانت الحرب قـائمة بين البنـدقية والعثمـانيين (١٤٦٣ ـ ١٤٧٩) فقد كانت الجمهورية حـريصة على منـع وصول أيـة مواد حربية إلى الأتراك ولذلك عمدت منذ سنة ١٤٦٧ إلى مصـادرة مراكب أنكـونا أينما كانت. وبالفعل كانت شكوك البندقية في محلها إذ وجد على متن المراكب المصادرة الخشب والنحاس والأسلحة وأدوات لصب الحديد فتشددت البندقية في موقفها من أنكونا ولم تنفع وساطات البابا لرفع الحصار عن أنكونا ومصادرة مراكبها في البحر(٢٩٢) .

---

(٢٩٠) Heyd. W, Histoire du Commerce, II, pp. 345, 346.

(٢٩١) Secreta 20, f. 75a (a. 1455), 157 af. (a. 1458);
Senato Mar VII, f. 42a;
Ashtor. E, «Levant Trade», p. 505.

(٢٩٢) Secreta 25, f. 58a ff., 65aff ;
Secreta 26, f. 45a ff., 171a ;
Ashtor. E, Op. Cit., p. 506.

وبالرغم من هذه الإجراءات واظبت أنكونا على تزويد الأتراك بالحديد والأسلحة كما عمد بعض التجار البنادقة على التورط في عمليات التهريب لهذه الغاية عبر مرفأ أنكونا(٢٩٣) . وفي حين ازدادت حركة تجارة أنكونا مع تركيا في النصف الأول من القرن الخامس عشر وأحياناً قل حجم التبادل التجاري مابين أنكونا والسلطنة بسبب الصراع مع البندقية وكانت حركة المراكب الأنكونية المتجهة إلى تركيا نشطة ومضاعفة لحركة المراكب القاصدة مرافىء السلطنة. ولم تنشط هذه الحركة إلاّ خلال سنة ١٤٧٠ وذلك لنقل الحبوب إلى مصر وسوريا عندما ضرب القحط تلك المناطق(٢٩٤) . وقل ما كانت أنكونا ترسل إلى ديار السلطنة أكثر من مركب واحد في السنة .

غير أن مراكب جنوى وراجوزا كانت تأتي إلى أنكونا قبل إبحارها إلى الشرق حاملة السلع المختلفة ، كما كانت مراكب أنكونا تتوقف في راجوزا قبل توجهها إلى شرقي المتوسط(٢٩٥) . وكانت مراكب أنكونا المتجهة إلى سوريا لا تزور بيروت فقط بل كانت تتوقف في طرابلس واللاذقية لشحن القطن والقلي وكانت تجارة هاتين السلعتين رائجة في أنكونا وتستعمل كمواد أولية في صناعة الثياب (Fustian) والصابون(٢٩٦) . وبالإجمال كانت السلع التي تصدرها أنكونا إلى ديار السلطنة هي ذاتها السلع المصدرة قديماً وأهمها الصابون وورق فابريانو المشهور (Paper of Fabriano)(٢٩٧) والأقمشة والثياب الفلورنتية

---

(٢٩٣) Braunstein. P, «Le marché de fer à Venise au XVe Siècle», Studi Veneziani VIII (1966), pp. 275, 289.

(٢٩٤) Ashtor. E, «Levant Trade», p. 507

(٢٩٥) Earle. P, «The Commercial Development of Ancona (1974-1511)», Ec. Hist. Rev., 2 series, 22 (1969), p. 34.

(٢٩٦) Ashtor. E, Op. Cit., p. 507; «Il Commercio Levantino di Ancona», p. 245.

انظر فيما يتعلق بتجارة القطن :

Ang. di Domenico VIII, f. 162 a; 57 a X, f. 836 f.

(٢٩٧) Ang. di Domenico VIII, f. 54b.

(Gorbo Cloth) والثيـاب المطرزة. وكـانت أنكـونـا تصـدر أيضـاً الثيـاب الرخيصة من صنعها[٢٩٨] ، والنبيذ . وكانت المراكب الأنكونية تعـود من مصر محملة بالفلفل[٢٩٩]والتوابل الأخرى في حين كانت المراكب العائدة من سوريا تحمل القطن والقلي[٣٠٠] .

أما ماذا عن الجالية الأنكونية في ديار سلطنة المماليك ؟

قلائل هم التجار من أنكونا والقاطنـون في الإسكندريـة . وكان بعضهم يتـواجد في دميـاط لشراء التـوابل والسكـر ولبيع الصابون والزيت[٣٠١]. وكان البعض الآخر يتواجد في دمشق وحلب[٣٠٢] .

غير أن الإسكندرية كانت مركز تجارة الأنكونيين الـرئيسي ومع ذلـك لم يكن لهم فيها فندق أو قنصل خاص بهم . وبـالإجمال كـان حجم إستثمارات أنكونا في الشرق صغيراً نسبياً وكان تجارها لا يستثمرون أفراديـاً مبالـغ تتعدى إلى ١٧٥ دوكات سنوياً في تجارتهم مع سوريـا أو مصر[٣٠٣]. ونادراً ما كانت القروض المعطاة للتجار والبحارة الذاهبين للشرق لإستثمارها بالتجارة تتعـدى ال ١٠٠٠ دوكات ولكن هذه المساهمات كانت إفرادية ولا تشكل إلا ناحية من إستثمارات أنكونا في الشرق وأن مجمـوع هذه الإستثمـارات في ديار سلطنـة المـماليك كـانت بحدود ال ٢٥٠٠٠ دوكـات سنويـاً باستثنـاء السنين العجاف

---

(٢٩٨) Ang. di Domenico X, f. 78af. (a. 1471) ;
Ashtor. E, «Levant Trade», p. 508.

(٢٩٩) Ashtor. E, Ibid; ASG, 2774C, f. 29b, 31a

(٣٠٠) Ashtor. E, Ibid; «Il Commercio Levantino di Ancona», p. 245. Ang. di Domenico XI, f. 209 a.

(٣٠١) Ashtor. E, Op. Cit., p. 239

(٣٠٢) Ang. di Domenico X , f. 206b.

(٣٠٣) Ang. di Domenico IX, f.207bf., 231 af.
Ashtor, E, «Levant Trade», p. 510.

١٤٦٩ ـ ١٤٧٠ حيث إشتدّ الطلب على الحبوب في مصر وسوريا فتعدى قيمة السلع المتبادلة سنوياً سقف الـ ٠٠٠ , ٢٥ دوكات(٣٠٤) .

صقلية

كانت لصقلية علاقات تجارية مع الشرق الإسلامي منذ أن غزاها زياد الله الأغلبي سنة ٨٢٧ وبعد أن استولى عليها النورمان وخلال النصف الثاني من القرن الخامس عشر لم تنقطع هذه العلاقات إنما تحولت صقلية إلى شبه قاعدة لدول جنوبي أوروبا حيث يتوقف في مدن تلك الجزيرة التجار الإيطاليون والكتلان والفرنسيون لبيع سلعهم وشراء منتوجات الجزيرة لحملها في طريقهم إلى الشرق . وهذا الدور الجديد لصقلية قد خفّف من علاقاتها التجارية المباشرة مع شرقي البحر المتوسط ولكنه لم يلغ هذه العلاقات تماماً (٣٠٥) .

وقد لعب الكتلان دوراً بارزاً في تجارة صقلية الخارجية غير أن هذا الدور قد تأثر إلى حد بعيد بنشوب الحرب الأهلية في كاتالونيا Catalonia في سنة ١٤٦٠ وما بعدها وقد تحول الصقليون إلى التعامل مع البندقية في تلك الفترة خاصة بعدما أنشأت الجمهورية شواني الخط Galee di Trafego فكانت مراكبها تزور سيراقوسة بإنتظام قبل ذهابها إلى تونس والإسكندرية(٣٠٦) . كما كانوا يحمّلون عليها بضائعهم من المرجان والحرير الخام والجبن والبهرجان Tinsel والخضاب للصباغ Verdigris وغيرها(٣٠٧) .

وكانت بالرمو Palermo ومسينا Messina نقطتي توقف لشواني فرنسا (Galleys of France) وكان تجار بالرمو وغيرها من مدن صقلية يبحرون عليها

---

(٣٠٤) Ashtor. E, Op. Cit., p. 510.
(٣٠٥) Heyd. W, «Histoire de Commerce», I, pp. 48, 122, 188, 408, 420.
(٣٠٦) Ashtor. E, Op. Cit., p. 504.
(٣٠٧) Ashtor. E, Ibid ;
Piduni. A, 10245, f. 92a ff.

بإتجاه الشرق وبالطبع كانت مراكب البندقية وجنوى تتوقف أيضاً في بالرمو في طريقها إلى الإسكندرية لتحمل البضائع الصقلية وأهمها السكر غير المكرر (Molasses) لحاجة السلطان وحاشيته[٣٠٨] . وكان التجار البنادقة والجنويون المسافرون على متن تلك المراكب يحصلون على مبالغ من المال من تجار صقلية تعرف بالقراض Commenda للمتاجرة والمقارضة فيها بالشرق[٣٠٩] . غير أن المراكب الصقلية كانت بدورها تقوم بالإبحار ما بين الجزيرة وشواطىء شرقي المتوسط وقد زارت هذه المراكب الإسكندرية رابطة بعض المدن الإيطالية بالشرق ، ففي سنة ١٤٧٠ أبحر المركب الصقلي سانتا ماريا ـ سانتو كريستوفرو ـ سان نيقولو «Santa Maria - Santo Christoforo - San Niccolo» من البندقية إلى أنكونا ثم إلى سوريا حاملاً إليها الحبوب بسبب القحط[٣١٠] .

إن قائمة السلع المتبادلة ما بين صقلية ومصر كانت كبيرة والجدير بالملاحظة أن صقلية كانت تصدر إلى ديار سلطنة المماليك أكثر مما كانت

---

(٣٠٨) كان السكر غير المكرر (Molasses) يعرف بالقطارة ولا تؤخذ عليه ضرائب إضافية باستثناء أشرفي عن كل برميل وكانت فلورنسا تأتي بهذا النوع من السكر من صقلية ، انظر اتفاقية السفير الفلورنسي دي لاستوفا مع السلطان قايتباي المؤرخة بتاريخ ٦ ذي الحجة ٨٩٤ هـ/١٣ تشرين الأول، ١٤٨٩ .

(٣٠٩) Ashtor. E, Op. Cit., p. 505.
Travelogue of Obadiah of Bertinoro, p. 108.
القراض (Commenda) هو ترتيب يقوم بموجبه المستثمر (أو المستثمرون) بإعطاء وكيل أو عميل له مبلغاً من المال (أو بضاعة) للسفر والاتجار به ثم إعادة رأس المال عند الانتهاء مضافاً إليه نسبة من الأرباح متفق عليها . لمزيد من المعلومات حول القراض والمقارضة (Commenda) والمضاربة
انظر : Udovitch. A, Partnership and Profit in Medieval Islam, Princeton, New Jersey, 1970 , p. 170 .

(٣١٠) Musso, « Nuovi doc .», p. 461.
Domenico. A, VIII, f. 2946 ff; Ashtor. E, Op. Cit., p. 505.

تستورد منها فبالإضافة إلى السكر غير المكرر (القطارة) Molasses والمنتجات الأخرى المرسلة إلى الشرق كانت صقلية تصدر أيضاً إلى السلطنة الثياب المختلفة صنع الدول الأخرى . وكانت الثياب الكتلانية في طليعة السلع المصدرة ، غير أنه خلال النصف الثاني من القرن الخامس عشر حلّت مكانها الثياب والأقمشة الفرنسية والإنجليزية[٣١١] . وفي هذه الفترة كانت الثياب الفلامنكية تشرى وتباع في المدن الصقلية[٣١٢] . كما كانت تجارة الحديد مزدهرة وكانت كميات كبيرة منه تنقل بحراً إلى مصر وسوريا بسبب ندرته هناك[٣١٣] .

إستثمارات المدن الإيطالية لدى سلطنة المماليك في نهاية القرن الخامس عشر .

وبالإجمال فإن التقديرات لإستثمار المدن الإيطالية لدى سلطنة المماليك

---

(٣١١) Ashtor, E, Op. Cit., p. 505.
فيما يتعلق بالثياب الفرنسية انظر : As Pal, Secrezia, Atti 553, f. 75a (a. 1471), 72a.
فيما يتعلق بالثياب الإنجليزية انظر : As Pal, Secrezia, Atti 555, sub. 7 Feb., 1477.

(٣١٢) Ashtor. E, Op. Cit., p. 505 .
فيما يتعلق بالثياب من (ورفيك ـ Wervicq) انظر : Giacomo Camito 849, sub. 27, Nov. 1454; AS Mess, Pagliarino, Mettea VIa, f. 80a, 81b (a. 1468).

(٣١٣) Ashtor. E. Op. Cit., p. 505
فيما يتعلق بحديد جنوى انظر : Giacomo Comito 849, sub. 12, June 1454; Randisi. G, 1150, fasc., II, f. 81 b (a. 1453).
فيما يتعلق بحديد البندقية انظر : Randisi. G, Ibid., III, f. 8a 1152, f. 64b (a. 1460).
فيما يتعلق بحديد بيزا انظر: Randisi. G, 1150, II, f. 23b (a. 1452).
وفي حديثه عن بلاد البيازنة قال القلقشندي : « وهم فرقة من الفرنج وقاعدة ملكهم (مدينة بيزة). . . وإلى بيزة هذه تنسب الفرنج البيازنة والحديد البيزاني» .
انظر القلقشندي : صبح الأعشى ، جزء ٣، ص ٤١١ .

في نهاية القرن الخامس عشر تشير إلى أنها جاوزت تلك الإستثمارات في نهاية القرن الرابع عشر، ففي العقدين الأخيرين من القرن الرابع عشر كانت بحدود الـ ٠٠٠ ، ٨٠٠ دوكات وقد زادت بنهاية القرن الخامس عشر فأصبحت بحدود ٠٠٠ ، ٨١٠ دوكـات . كـانت مسـاهمـة البنـادقـة فيهـا لـوحـدهم أكثـر من ٠٠٠ ، ٦٠٠ دوكات[٣١٤] . وبالرغم من أن استثمارات جنوى قد تراجعت ألا أنها قد بلغت حدود الـ ٠٠٠ ، ٨٠ ألف دوكات[٣١٥] . كما بلغت إستثمارات كل من فلورنسا ونابولي وأنكونا وصقلية بحدود ٠٠٠,٢٠ ـ ٠٠٠,٢٥ دوكات سنـويـاً[٣١٦] فيكـون المبلغ الإجمـالي لـلإستثمـار حـوالي ٠٠٠ ، ٨٠٠ دوكات[٣١٧] .

والحقيقة أن هذا المبلغ قد جاوز سقف الـ ٠٠٠ ، ٨٠٠ دوكات باعتبـار أن التجار الإيطاليون كانوا يعمدون إلى شراء أنواع من السلع بطريقة غير مباشرة عن طريق تحويل المبالغ اللازمة إلى وكلائهم في فترة لاحقـة فقد كـان هؤلاء الوكلاء يعمدون إلى الشراء عن طرق الإقتراض وذلك بالتـوقيع على سنـدات الشراء أو المقايضة ولذلك فقد كان حجم الإستثمارات يفوق دائماً قيمة البضائع التي تحملها الشواني والمراكب[٣١٨] .

والدليل على ذلك أن ديوان المكوس في الإسكندرية كان يكرى بحدود ٠٠٠,٢٥٠ أشرفي سنوياً[٣١٩] في السنوات الأخيرة من أيام سلطنة المماليك وكانت المكوس تدفع بنسبة لا تقل عن ١٠٪ من قيمة البضائع . وإذا ما أخذنا

---

(٣١٤) Senato Mar VI f.136a, VII, f.47b;Senato Mar XIV,f.18a.

(٣١٥) Ashtor. E, «Il volume del Commercio Levantino», p. 420; «Levant Trade», pp. 485-486.

(٣١٦) Ashtor. E, Ibid; pp. 499, 510
Wansbrough, «A Commercial Treaty», p. 62.

(٣١٧) Ashtor. E, Op. Cit., p. 511.

(٣١٨) Ashtor. E, Ibid., p. 511.

(٣١٩) Thenaud. J, «Le Voyage d'Outremer», p. 27.

بعين الإعتبار الأرباح التي يحققها من يكرى ديوان المكوس وان هذه المكوس تشمل الجمارك والرسوم المفروضة على بضائع بقية الدول الأوروبية وعلى البضائع الواردة من شمالي أفريقيا وتركيا وغيرها لوجدنا أن قيمة البضائع المتبادلة عبر مرفأ الإسكندرية تجاوز المليون دوكات سنوياً وقد تصل إلى حدود المليون و٤٠٠ ألف دوكات. ولا يغربن عن بالنا أنه بالإضافة إلى ذلك فإن قيمة البضائع المتبادلة عبر مرافىء سوريا كانت أقل بقليل من نصف قيمة البضائع المتبادلة عبر الإسكندرية وكانت بالتالي قيمتها بحدود الـ ٥٠٠ ، ٠٠٠ دوكات . وفي كلتي الحالتين كانت المدن الإيطالية تتمتع بحصة الأسد خاصة البندقية . وكان ميزان المدفوعات دائماً لصالح سلطنة المماليك . فقد كانت المدن الإيطالية تدفع مبالغ ضخمة سنوياً تقدر بحدود ٨٠ ، ٠٠٠ دوكات[٣٢٠]كانت تفرضها السلطات المملوكية كمكوس ورسوم على تجارة التوابل كما كانت السلطات المملوكية تبيع المدن الإيطالية كثيراً من منتجات سوريا ومصر كالقطن والقلي وغيرهما. وكانت قيمة ما تصدره السلطنة إلى أوروبا بحدود ٣٥٠,٠٠٠ دوكات أكثر من ٦٥٪ منها لصالح المدن الإيطالية[٣٢١]. ولما كانت سلطنة المماليك تدفع أموالاً طائلة لشراء التوابل لصالح الإستهلاك المحلي ، ولشراء المماليك العبيد لصالح الجيش فإن مدفوعاتها لهذه الغاية كانت أحياناً كثيرة تتجاوز الـ ٥٠٠ ، ٠٠٠ دوكات[٣٢٢] تذهب إلى جهات الهند

---

(٣٢٠) كانت السلطات المملوكية تجني أرباحاً من الرسوم والمكوس المفروضة على تجارة الهند من الفلفل والتوابل تقدر بحوالي ١٠٠,٠٠٠ دوكات سنوياً .

انظر : Ashtor. E, «Levant Trade», p. 511.

(٣٢١) لمزيد من التفاصيل انظر : Lopez. R, «Il problema della bilancia dei pagamenti nel commercio di Levante» , in Venezia e il Levanto fino al XV sec., p. 449.

(٣٢٢) رأى Udovitch أن مشتريات مصر من المماليك كانت تتراوح في تلك الفترة ما بين ١٠٠,٠٠٠ و ٢٨٠,٠٠٠ دوكات سنوياً .

انظر : Lopez. R, -Miskimin. H,- Udovitch. A, «England to Egypt, long-term trends and long distance trade», in Studies in the Economic History of the Middle East, ed. M.A. Cook, London, 1970, p. 126 f .

وتركيا وغيرها . غير أن السلطات المملوكية كانت تعوض النقص وتضبط هـذا الخلل في ميزان مدفوعاتها عن طريق جلب الذهب من المناطق الواقعة غربي السودان والمعروفة ببلاد التكرور(٣٢٣) . وهكذا ظلت سلطنة المماليـك تعمل جاهدة ليكون ميزان المدفوعات التجاري لصالحها لسد المبالغ المتوجب عليها دفعها خاصة لجهة شراء العبيد . . . لأن المماليك العبيد كانوا أشبه بالخلايـا التي تتكون منها الـدولة وبـدونها لا تتحقق إستمـراريتها ولـذلك كـانت تتشدد السلطات المملوكية بفرض الـرسوم والمكـوس(٣٢٤) وإجبار التجـار الإيطاليين على شراء أحمال معلومة من التوابـل(٣٢٥) بهدف تـأمين حاجتهـا الماسـة إلى الأموال .

---

(٣٢٣) قال القلقشندي في حديثه عن بلاد التكرور :
« وأكثر ما يسافر به تجار الغرب الأقصى إليها الصدف والنحاس ويخرجون منها بالتبر والخدم » .
انظر القلقشندي : صبح الأعشى ، جزء ٤، ص ٢٦٨ .

(٣٢٤) منذ أيام القلقشندي كانت المكوس تفرض على التجار والناس وبشكل لا يطاق « وقد عمت البلوى بهذه المكوس ، وخرجت في التزايد عن الحدود ودخلت الشبهـة في أموال الكثير من الناس بسببها ».
القلقشندي ، صبح الأعشى ، جزء ٥، ص ٤٧٠ .

(٣٢٥) اتفاقية السفير البندقي «ترفيزان» والسلطان «الغوري» ١٥١١/١٥١٢ .
انظر : فهمي. ز، : طرق التجارة الدولية ومحطاتها، ص ٤٠٩ ـ ٤١٠ .



الفصل السادس

مصير سلطنة المماليك

سوف نتطرق في هـذا الفصل إلى العـوامل المؤثـرة على مصير سلطنـة المماليك وهي كثيرة ومتعددة الجوانب منها ما يعود إلى أمـور داخلية ومنهـا ما يعود إلى أمور خارجية. غير أننا سوف نكتفي بمعالجة العوامل المرتبـطة بتجارة السلطنـة مع المـدن الإيطاليـة والتي كان لهـا إنعكـاسـات مؤثـرة على طبيعـة العلاقات ما بين مصر وسوريا وجنوبي أوروبا. وفي طليعـة هذه العـوامل تـأتي مواقف البابوية ازاء التعـامل مـع سلطنة المـماليك وقـرارات التحريم التي اتخـذتها بحق كـل من يتعـامـل معهـا ويـزودهـا بشكـل خـاص بـالمـواد الاستـــراتيجيـة كالأسلحة والحديد والأخشاب والرقيق . ونتيجة لمواقف البابوية إتخذت المدن الإيطالية وغيرها مـواقف مختلفة ومتعـددة كانت تـرمي بغالبيتهـا إلى الحد من الاتجار مع سلطنة المماليك بهدف حرمانها من مصدر ثروتها وقوتها في مرحلة أولى وللتغلب عليها في مرحلة ثـانية . ولـذلك عمـدت هذه الـدول إلى عدم تصدير الموارد الإستراتيجية إلى مصر وسوريا وامتنعت عن شراء التوابل والسلع الشرقية الأخرى منها ولم تكتف بذلك بل سعت إلى الاتجار مباشرة مع أقاليم الهند عبر رأس الرجاء الصالح ودون اللجوء إلى السلطات المملوكية .

وكانت ردة فعل سلاطين مصر اللجوء إلى سياسة الترغيب والترهيب؛ فمن جهة أعطوا التجـار الإيطاليين وغيـرهم الإمتيازات الكثيـرة لجذبهم إلى مصـر وسوريا للتجارة ، ومن جهة ثانية تشـدّدوا في معاملة هـولاء التجار وقنـاصلهم

وأجبروهم على شراء الفلفل والتوابل بأسعار باهظة حتى أنهم لم يترددوا في إلقائهم في غياهب السجون في محاولة للتأثير على مواقف مدنهم وحكوماتهم.

غير أن هناك عاملاً مهماً كان له الإنعكاس الأكبر على مصير سلطنة المماليك ألا وهو طبيعة تكوين مجتمع المماليك العسكري ورفضه لكل شكل من أشكال التغيير والتطور التكنولوجي خاصة لجهة إستعمال الأسلحة الجديدة وعنينا بذلك إستخدام السلاح الناري. ففي رأينا تعنت المماليك في بغض التكنولوجيا الجديدة واحجام المدن الإيطالية عن تقديم هذه التكنولوجيا المتوفرة لديها إلى سلطنة المماليك أديا إلى سقوط هذه السلطنة أمام ضربات العثمانيين الذين أحسنوا إستخدام السلاح الناري.

أ ـ موقف وقرارات البابوية

منذ الحملات الصليبية الأولى والبابوية ما فتئت تلهب حماس الملوك والأمراء والناس في أوروبا للقيام بالمزيد من الحملات إلى الشرق لاحتلال المزيد من ديار الإسلام[١] . وقد عمدت البابوية إلى وضع الكثير من القيود في

---

(١) من أجل تشجيع الناس على الاشتراك في الحروب والحملات الصليبية أصدرت الكنيسة البابوية المراسيم الصليبية المسماة بولّا كروشياتا Bulla Cruciata أدرجت فيها كافة الامتيازات المعطاة للذين يشتركون أو يساهمون في الحرب ضد المسلمين. وكانت هذه الامتيازات تعطى في الأصل لتسهيل استرجاع الأندلس وكان أولها ما أعطاه البابا الكسندر الثاني إلى رميرو صاحب أرغونيا Ramiro of Aragon سنة ١٠٦٣ .
وقد تأثر البابا آربان الثاني Urban II بذلك ومنح الحملة الصليبية الأولى إلى الأراضي المقدسة (١٠٩٥) امتيازات كثيرة كما جدد البابا كاليستوس الثاني Callistus II في مجمع لاتران الأول Lateran Council (1123) امتيازات الحملات إلى الشرق. وبمناسبة الحملة الصليبية الثانية أصدر البابا أوجين الثالث Eugene III مرسوماً مفصلاً Quantum Praedecessores (١١٤٥) أعطى بموجبه الحماية لعائلات المقاتلين وممتلكاتهم وأعفاهم من الضرائب وأجلّ ما يتوجب عليهم من ديون . وقد طبّقت هذه الامتيازات بقرار من البابا أنوسنت الثالث Innocent III (١٢١٣) حتى على المساهمين بالحملات والذين ليس بإمكانهم الاشتراك بها شخصياً .

=

وجه التجارة مع الشرق بهدف إفقار المسلمين وحرمانهم من كل ما يمكن أن يستخدموه ضد المسيحين .

ولذلك حرّم على التجار نقل الأسلحة إليهم ومواد بناء الأساطيل وحتى الأقوات. وقد أخذت تجارة الرقيق نصيبها من قرارات التحريم باعتبار أن الرقيق كان مصدر قوة سلاطين المماليك ضد المسيحيين. حتى أن بعض البابوات وبالهام من الكتاب الشديدي التعصب أمثال مارينو سانوتو Marino Sanuto[٢] إتخذوا مواقف أكثر تشدداً ازاء التعامل مع المسلمين ودعوا إلى وقف كل أنواع التجارة مع الشرق خاصة تجارة الأسلحة .

ففي سنة ١١٧٨ أصدر البابا الكسندر الثالث[٣] في مجمع لاتران Lateran Council حكم الحرمان الكنسي Ex-Communication ومصادرة الأملاك والاستعباد الشخصي لكل من يزود المسلمين بالأسلحة والحديد وخشب بناء السفن ، وبالإجمال كل المواد الحربية وكل من يقود مراكبهم التجارية أو مراكب القرصان التابعة لهم[٤] .

= وبعد انتهاء الحملات الصليبية إلى الشرق خصصت هذه المراسيم البابوية Bulla Cruciata لتشجيع الناس على محاربة المسلمين في اسبانيا .

New Catholic Encyclopedia , Washington D.C. 1967, vol. I, pp. 881-882.

(٢) Sanuto. M, Liber Secretorum Fidelium Crucis, Super Terrae Sanctae,Recuperation et Conservatione, Massada Press, Jerusalum, 1972.

(٣) الكسندر الثالث ١١٥٩ ـ ١١٨١ .

يعتبر من أهم البابوات الذين اهتموا بالتشريع الكنسي Canon Law

Depping G. Histoire du Commerce, vol. II, pp. 172-173.

(٤) عقد مجمع لاتران Lateran Council في الخامس من نيسان سنة ١١٧٩ برئاسة البابا الكسندر الثالث وبحضور عدد كبير من الرهبان (٣٠٠) ومن المندوبين من إيطاليا وفرنسا وإنجلترا والدانمارك وإيرلندا واسكتلندا وألمانيا وأسبانيا وهنغاريا والممالك الصليبية في الشرق وقد أقرّ في هذا المجمع ٢٧ تشريعاً كنسياً منها التشريع =

وبالرغم من قرارات الكنيسة المتشددة والهادفة إلى وقف كل إتصال ما بين الشرق والغرب إلاّ أن حب الربح الوفير والعلاقات القديمة والمتأصلة ما بين المسلمين والمسيحيين حملت شعوب جنوب أوروبا على التجرؤ ومخالفة قرارات الحبر الأعظم عن طريق التعامل التجاري مع الشرق المسلم . فكانوا يشترون ويقايضون الفلفل والتوابل والأحجار الكريمة والأقمشة المذهبة بالحبوب والأخشاب والحديد والنحاس وغيرها . وكانوا يعمدون إلى مختلف الأساليب والحيل التجارية لإيصال بضائعهم سراً إلى الشرق الإسلامي عن طريق الجزر المتعددة والمتناثرة في شرقي البحر المتوسط وكانوا يعودون إلى مدنهم وهم مرتاحو الضمير حسب تعبير مارينو سانوتو(٥) .

غير أنه لدى سقوط عكا مجدداً بأيدي المسلمين سنة (١٢٩١)(٦) ثارت الحمية العارمة في الغرب المسيحي ووقعت الملامة الكبرى على المدن التجارية التي ظلّت حتى اللحظة الأخيرة تقيم علاقات تجارية مع مصر وساهمت بالتالي بزيادة موارد الخصم .

ولذلك عمدت البابوية في روما على إلهاب وإثارة حماس المسيحيين

= الرابع والعشرين المتعلق بالعقوبات المفروضة بحق المتعاملين مع المماليك والقراصنة والتشريع الخامس والعشرين المتعلق بالإجراءات المتميزة بحق المخالفين لقرارات الكنيسة ، والتشريع السادس والعشرون والمتعلق بأحكام خاصة بالمماليك واليهود، والتشريع التاسع المتعلق بتنظيمات عائدة لفرسان الاسبتارية وفرسان الهيكل Hospitallers and Templars .

New Catholic Encyclopedia, Washington D.C., 1967, vol. VIII p. 407.

(٥) «Cum Quadam Conscientia sua larga».
Sanuto. M, Secreta Fidelium Crucis, part III, chap. V., p. 29; Depping. G, Op. Cit. p. 174.

(٦) عكا فتحها بغدوين الأول سنة ١١٠٤ فتوسعت وتحسنت ثم أخذها صلاح الدين سنة ١١٨٧ بعد معركة حطين واستعادها الصليبيون سنة ١١٩١ فصارت قاعدتهم ومقر فرسان القديس يوحنا . استرجعها الملك الأشرف وضربت عام ١٢٩١ .

بهدف تنظيم حملات صليبية جديدة غير أن إحتلال فلسطين مجدداً كان من الصعوبة بمكان لأن الفرنج لم يعد لهم موطىء قدم فيها وكانت البابوية تعرف ذلك وتعرف أيضاً موقف الأمراء والشعوب المتردد مما يعيق تشكيل الجيوش الجرارة للاضطلاع بهكذا مهمة .

وللوصول إلى هذا الهدف إرتأت البابوية في مرحلة أولى العمل على اضعاف الخصم عن طريق حرمانه من مصادر قوته ورفاهيته . ووجدت البابوية في أحياء مراسيم وقرارات الكنيسة القديمة الداعية إلى حرمان المماليك من المواد الإستراتيجية أنجح الوسائل لتحقيق هذا الهدف . والواقع حسب رأي الكنيسة ، أن سكان مصر الأصليين كانوا غير مؤهلين لمهنة السلاح ولذلك عمد سلاطين مصر إلى إستقدام الرقيق لتعبئة جيوشهم وكان تجار الرقيق الإيطاليون وغيرهم يمدون السلاطين بما يحتاجونه من الأرقاء القادمين من على ضفاف شواطىء البحر الأسود .

فإذا حرّمت هذه التجارة وأوقفت عن طريق إرسال الحملات لاضطر سلاطين مصر حكماً إلى تطويع السكان المحليين الأقل قيافة بدنية في جيوشهم[٧] . النقطة الثانية المهمة : بما أن مصر لا تنتج الحديد ولا الخشب فكيف يتسنى لسلاطين مصر تسليح جيوشهم وبناء المراكب الحديثة إذا توقفت هذه المواد الأولية عن الوصول ؟ ولا يغربن عن البال أن الخشب كان لا يستخدم فقط في النواحي العسكرية بل منه كانت تبنى المراكب الشراعية والزوارق المستخدمة في النقل عبر النيل ومنه وبه كانت تقام وتدعم القنوات للري والسقاية. وإذا ما طبّقت قرارات الكنيسة بمنع تصدير الحديد والخشب والأسلحة لحصل الأذى الكبير ليس فقط على صعيد الناحية العسكرية لمصر بل

(٧) Heyd. W., Histoire du Commerce, vol. II, p. 24.
Mas Latrie, Histoire de Chypre, vol. II, pp.120 - 126 ;
Sanuto. M., Secretorum Fidelium Crucis, p. 27 ;

أيضا على صعيد إزدهار ورفاهية المواطنين . وإذا ما طبق المنع بجدية تامه لشمل كل شيء حتى المواد الغذائية والحبوب وأكثر من ذلك فإذا كانت هذه القرارات تطبق على مصر فمن المنطق أن تطبق أيضاً على الشعوب المتعاملة مع مصر كالأتراك وسكان شمالي أفريقيا وأهالي الأندلس ولكن بدرجة أقل خاصة إذا إكتشف أو كان هناك نوعاً من الشك بأن هذه الشعوب تستورد المواد من مصر وتعيد تصديرها إلى الغرب . وتعدى الأمر ذلك إلى منع شراء المواد والبضائع المصرية والمكدسة في الجزر اليونانية أو جزيرة جربا(٨) .

ولما كانت ثروة مصر ترتكز على تجارتها مع الغرب خاصة وأن مصر كانت تقوم بدور الوسيط فيما يتعلق بتجارة الشرق (تجارة التوابل وغيرها) فإن توقف هذه التجارة سيحرم مصر من جزء كبير من مصدر ثرائها ويؤدي بالتالي إلى إفقارها(٩) .

وكانت هذه الأفكار هي الحافز الذي دفع البابا نيقولا الرابع Nicolas IV (١٢٨٨ - ١٢٩٢) إلى نشر قرار في نفس السنة لسقوط عكا يمنع بموجبه تزويد البلاد الواقعة تحت سيطرة السلطان بالأسلحة والخيل والحديد والخشب والأغذية والسلع الأخرى المختلفة (alia quoecumque mercimonia) وذلك تحت طائلة الحرمان الكنسي Ex—Communication لكل من يخالف هذا القرار في مرحلة أولى وتحت طائلة اعتبارهم فاسقين إلى أبد الآبدين في مرحلة ثانية وحرمانهم من حقوقهم المدنية والشرعية ومنعهم من الشهادة والإرث(١٠) .

---

(٨) Heyd. W., Op. Cit., p. 25.

(٩) استناداً إلى مارينو سانوتو (Sanuto) الذي أحصى مداخيل مصر من الجمارك وعدّد التعاريف الجمركية لكل سلطة فقد ذكر أن الرسوم الجمركية والمكوس المفروضة على كل ثلاثة أو أربعة مراكب كانت تعادل ثمن حمولة سفينة واحدة.

Heyd. W., Op. Cit., p. 25.

(١٠) Sanuto. M., Op. Cit., pp. 23, 24, 25; Heyd. W., Op. Cit., p. 25.

وفي كتاب موجه إلى جنوى جدّد البابا قرار المنع معتبراً أن روح القرار توجب المنع الشامل والتام لزيارة ديار السلطنة بهدف اضعاف السلطان وإفقاره وقد إعتبرت جنوى أن هذا القرار في غاية القسوة(Sententia durissima)

وبالرغم من أن البابا نيقولا الرابع قد عدّل قراره وجدّد فترة منع إرسال المواد الغذائية بمدة عشرة سنوات إلا أن هذا التخفيف لم يكن ذا فائدة لأن البابا بونيفاس الثامن Boniface VIII مدد فترة منع إرسال المواد الغذائية لمدة عشر سنوات أخر (١٢٩٤ - ١٣٠٣) . كما أن البابا بنوا الحادي عشر Benoit XI (١٣٠٣ - ١٣٠٦)قد حافظ على قرارات المنع في مراميها العامة[١١] . وأعلن أن بإمكان البنادقة تزويد مصر بالسلع التي لا تشملها قراراته كالقماش والأثواب[١٢] .

غير أن مجيء البابا كليمون الخامس Clément V (١٣٠٥ - ١٣١٤) أعطى قرارات التحريم زخماً جديداً لأن هذا البابا بدأ عهده بالتحضير لحملة صليبية جديدة وبدأ إعتباراً من خريف سنة ١٣٠٨ إصدار سلسة من القرارات يمنع بموجبها ودون تمييز إرسال كافة السلع إلى مصر وكل من يخالف هذه القرارات يتعرض للمصادرة وفقدان الحرية الشخصية وإلى الإستعباد وإلى إعتباره فاسقاً وما يتبع ذلك من حرمانه من حقوقه المدنية والشرعية بالإضافة إلى حرمانه الكنسي ، الذي لا يرفع عنه إلا في حال إقدامه على وهب كل أرباحه من تلك التجارة لصالح الحملة الصليبية التي يجري الإعداد لها وبإذن خاص

---

(١١) Heyd. W., Ibid., p. 26.

(١٢) هذا الإعلان أعطي للبندقية بواسطة راهب دومنيكي مقيم في روما (٨ نيسان، ١٣٠٤).
وبالإجمال يعتبر البابا بنوا الحادي عشر أكثر تساهلاً من غيره فقد أعفى كثيراً من البنادقة والجنويين من الحرمان الكنسي لتعاملهم سابقاً مع مصر .

Registres de Benoît XI, ed. Grandjean, pp. 84-87, 249.

انظر: Heyd. W., Op. Cit., p. 26.

فقط من قداسة البابا[١٣] . وقد تضررت البندقية من قـرارات البابـا الذي إتهم بعض تجارها بالفسق وحرمهم من حقوقهم المدنية والشرعية[١٤] .

وفي سبيل تحقيق طموحاتة والإعداد للحملة الصليبية المقترحة دعا البابا كليمـون الخامس إلى مجمـع فينـا Council of Vienna الـذي إنعقـد مـا بين السـادس عشر من تشـرين الأول ، ١٣١١ والسادس من أيـار ، ١٣١٢ ، وفيه جـرى البحث والإعداد لحملة صليبيـة إلى الأراضي المقدسـة وقد تعهـد في الجلسة الثانية والثالثة كل من ملك فرنسا وملك إنجلترا وغيرهـم بالإشتراك في هذه الحملة خلال سنة كما حاكم المجمع فرسان الهيكل Knights Templers وألغي تنظيمهم وأعطى ممتلكاتهم لفرسان مالطا[١٥] .

وقد عرفت مختلف التشـريعات والقـرارات الصادرة عن البـابا كليمـون الخامس باسم Clementinae بما فيها تشـريعات مجمـع فيـينا Vienna. وقد نشرها فيما بعد البابا يوحنا الثاني والعشرون John XXII سنة ١٣١٧[١٦] .

وتجـدر الإشارة هنـا إلى أن قرارات البـابا كليمـون الخـامس المتعلقـة بمقاطعة مصر قد تأثرت بأفكار الكاتب البندقي مارينو سانوتو Marino Sanuto الملقب بترسللو Torsello الذي رفع إليه كتـابه المشهـور Secreta Fidelium crucis قبل انعقاد مجمع فيـينا كمشروع لاستعادة الأراضي المقـدسة - Recu peration of the Holly Land .

---

(١٣) Heyd. W., Ibid. p. 27 ;
Raynold. Annales écclésiastiques, a. a. 1308, no. 36.

(١٤) Depping. G., Histoire du Commerce, vol. II, p. 187.

(١٥) New Catholic Encyclopedia. Vol. XIV p. 660.

(١٦) لمزيد من التفاصيل حول تشريعات Clementinae انظر :

New Catholic Encyclopedia. Vol. III pp. 945-946.

وقد عين البابا لجنة لدراسة مقترحات سانوتو وغيرها[١٧] .

وكان قرار اللجنة إيجابياً وكوفىء سانوتو من قبل الحبر الأعظم بسخاء وجمعت المقترحات المتعددة تحت عنوات De Recuperation Terrae Sanctae . هذا القرار لم يعجب سانوتو كثيراً لأنه كان يعتقد أن مقترحاته هي الفضلى وهي تستمد منطلقاتها من النواحي الاقتصادية ولذلك فقد أطلق سانوتو شعاره القائل : « خرّبوا القوة الاقتصادية لمصر » باعتبار أنه إذا ما تمت السيطرة على مصر أصبحت الأراضي المقدسة مسيحية[١٨] . ولتحقيق ذلك يقتضي العمل على خلق أزمة اقتصادية حادة في مصر تسبق الحملة العسكرية . والأزمة تكون بعزل مصر عزلاً تاماً عن الأسواق الأوروبية عن طريق البضائع القادمة من الشرق وعن طريق تحويل التبادل التجاري ما بين مصر وأوروبا المسيحية . وعن طريقة تنفيذ ذلك يقتضي إقامة حصار بحري ضد مصر تنفذه وتشرف عليه الأساطيل الأوروبية . والحصار سيؤدي ولا شك إلى إفراغ خزينة السلطان الذي يحقق ثروته وغناه عموماً من المكوس والعشور المفروضة على التجار

---

(١٧) استشار البابا كليمون الخامس بنفس الوقت رئيس فرسان الهيكل (مولاي Molay) الذي كتب له رسالة (Un Memoire) سنة ١٣٠٦ حول الموضوع ذاته ولكن أكثر اقتضاباً وتوصل في الخلاصة إلى ضرورة وقف الدول التجارية تعاملها مع المماليك .
انظر : Heyd. W., Op. Cit., p. 27
كما أن ريمون لول Raymond Lulle عرض في رسالته De fine المكتوبة في مونبلليه Montpellier سنة ١٣٠٦ أفكاراً مماثلة مفادها أنه يتوجب على المسيحيين عدم شراء التوابل من مصر لمدة ٦ سنوات ووضع موطىء قدم للصليبيين في الإسكندرية أو سوريا لتخريب سلطنة المماليك وبشكل تتم معه الحملة الصليبية المقترحة دون صعوبات تذكر .
وقد ذكر Depping أن Lulle قد أعطى مقترحات مماثلة للبابا نيقولا الرابع سنة ١٢٨٨ .
انظر : Depping. G., Histoire du Commerce, vol. II. p. 192.

(١٨) Sanuto. M., Secretorum Fidelium Crusis, p. VIII.

الأوروبيين. وهذا الإجراء سيؤدي حتماً إلى إفقار المصريين وبالتالي انهيار اقتصاد مصر[١٩] . وأضاف سانوتو أن طريقاً برية من الهند عبر بلاد العجم وأرمينيا يمكن استخدامها لنقل البضائع التي تنقل حالياً من الهند بحراً إلى مصر عبر عدن وهكذا يمكن إبعاد مصر عن كونها مركز الترانزيت بالنسبة لتجارة الشرق . أما بالنسبة لمنتوجات مصر الأصلية المصدرة إلى أوروبا ، فإن سانوتو قد شرح وبرهن أنه بالإمكان إيجاد هذه المنتجات في البلاد المسيحية وهكذا فإن اتباع مقترحاته يجعل أوروبا مستقلة عن ديار الإسلام . وقد شدّد سانوتو على إمكان المقاطعة الاقتصادية خاصة ما تستورده مصر من مواد حربية استراتيجية كالحديد والأسلحة والخشب لصناعة المراكب وما تجلبه من رقيق كالغلمان خاص جيش السلطان والفتيات خاص الحريم ، فإذا ما أوقف تدفق الرقيق من نواحي البحر الأسود لتحوُّل السلطان إلى تزويد جيوشه بالعناصر المصرية المحلية الغير مؤهلة للحياة العسكرية ومهنة السلاح ولأمكن تحويل مصر إلى قوة عسكرية غير فاعلة . هذا ما شرحه سانوتو في الجزء الأول Con- ditiones Terrae Sanctae من كتابه .

أما الجزء الثاني من كتابة فهو يتعلق بتنظيم الحملة الصليبية العظيمة التي سماها بأل Passagium أي العبور وهي تقوم على مرحلتين : المرحلة الأولى مؤلفة من حوالي خمسة عشر ألفاً من المشاة وثلاثمائة من الفرسان يتم إنزالهم بواسطة الأسطول في نواحي منطقة رشيد لإقامة رأس جسر على الأراضي المصرية .

المرحلة الثانية مؤلفة من خمسين ألف مقاتل من المشاة وألف فارس يشكلون الحملة الأساسية مهمتهم إحتلال مصر والأراضي المقدسة ، وقد أوضح سانوتو أن الهدف من الحملة هو إحتلال مصر ولذلك فهو يعارض أي إنزال مسبق في أرمينيا أو سوريا كما أنه لا يتحمس إلى الغزو عن طريق البر بل

(١٩) Sanuto. M., Ibid. pp. VIII.

هو يفضل الضرب مباشرة في قلب مصر بجنود يقودهم بندقي وتتحمل نفقاتهم الكنيسة لمدة ثلاث سنوات بدفع ما مجموعه مليونان ومئة ألف فلورن ذهبي أي بمعدل ٧٠٠٠٠٠ ، فلورن كل سنة . وهو بعد الحديث عن تنظيم القوة ووصف الأسطول والمعدات وإعطاء إيضاحات حول الثغور الإسلامية يشير إلى سهولة تحقيق النصر والتغلب على المصريين لأنهم حسب رأيه ليسوا بالمقاتلين الأشداء .

أما الجزء الثالث والمسمى Opus Magnum فهو يعطي فيه التعليمات اللازمة للصليبيين الجدد حول كيفية إدارة الأراضي المحتلة ويحذرهم من المصير المحتوم الذي آلت إليه المملكة اللاتينية[٢٠] .

طبعاً تطلعات وخطط سانوتو لم تتحقق ، غير أن البابا كليمون الخامس كلّف فرسان القديس يوحنا سنة ١٣٠٨ بمراقبة الجزء الشرقي من البحر المتوسط وبتعقب المسيحيين العاطلين Mauvais Chrétiens المتعاملين مع مصر وذلك لقاء عطاءات سخية مقابل هذا التكليف[٢١] .

وبعد أن نقل فرسان القديس يوحنا مقر قيادتهم من قبرص إلى رودوس (١٣١٠)وورثوا كل ما كان يؤول لتنظيم فرسان الهيكل، تفرغوا لمهمتهم الجديدة وبدأوا بتعقب الشواني والمراكب المتجهة من وإلى مصر فأضر ذلك بتجارة الشرق ونشأت خلافات بينهم وبين المدن الإيطالية خاصة جنوى . وبتشجيع من البابا عمد ملوك قبرص إلى القيام بأعمال القرصنة والتعبث في شرقي المتوسط خاصة ضد السفن الأوروبية المتواجدة على الطريق البحرية المؤدية من وإلى مصر . وقد صرح سفراء الملك هنري الثاني ملك قبرص إلى مجمع فيينا أن الشواني القبرصية قد أوقفت كثيراً من المراكب التجارية المتعاملة مع

---

(٢٠) Sanuto. M., Ibid. pp. XIII-XIV.

(٢١) Raynold, Annales écclésiastiques, a. a. 1308, no 34; Heyd. W., Histoire du Commerce, vol. II, p. 29.

مصر وأعطوا الدليل على أنهم حجزوا حديثاً مركباً جنوياً كان يتجه من آسيا الصغرى إلى مصر وعليه حمولة من خشب البناء وأضافوا أن ما من أحد في الجوار يجرأ بالتوجه إلى مصر مخافة أن تتعرض له مراكب الملك الذي يقوم بتنفيذ المهمة الموكولة إليه من البابا شخصياً(٢٢) .

أعمال القرصنة هذه لم ترق لسانوتو بإعتبار أنها لا تغني عن الحملات المنظمة ولذلك فقد تحدث عنها وقال أنها غير مطلوبة(٢٣) . والواقع أن هذه الأعمال كانت مطلوبة فكما أن البابا بونيفاس الثامن Boniface VIII قد أوعز لهنري الثاني Henri II ملك قبرص سنة ١٢٩٩ بالاضطلاع بهكذا مهمة كذلك أمر البابا يوحنا الثاني والعشرون هيغ الرابع Hugues IV ملك قبرص سنة ١٣٢٣ بمواصلة أعمال القرصنة والتعبث مما جعل إعتراضات ونداءات جمهورية جنوى المتضررة تذهب أدراج الرياح(٢٤) . وقد استغل هذا الواقع عدد من القراصنة وربابنة السفن فقاموا بأعمال المطاردة بإسم الكنيسة ولا ندري إذا كان الدافع لذلك عائداً لالهام ديني أم ببساطة محبة بحيازة الغنائم . ومثال على ذلك ما كان يقوم به القرصان مارينو بولغارو Marino Bulgaro سنة ١٣٠٣ ويقال أنه من أصل جنوى وكان يتجول بمركبه في مياه جزيرة كريت ويطارد كافة المراكب المتجهة إلى الإسكندرية(٢٥) .

ازاء هذا الواقع الصعب إضطربت تجارة الشرق بفضل إجراءات الكنيسة التي حاولت تعطيل هذه التجارة تعطيلاً شاملاً عن طريق إصدار مزيد من قرارات المنع . ما هو موقف المدن الإيطالية ازاء هذه القرارات ؟

---

(٢٢) Mas Latrie , Histoire de Chypre, vol. II, p. 121 ; Heyd. W., Op. Cit., pp. 29-30.

(٢٣) «Non requisitus», Sanuto. M., Op. Cit., p. 31.

(٢٤) Mas Latrie, Op. Cit., p. 156.

(٢٥) Heyd. W., Op. Cit., p. 30.

هل عملت على إصدار التشريعات اللازمة لمنع التجار من دخـول ديار السلطنة؟ أم قبلت برضى تدابير الحبر الأعظم الهادفة إلى تعطيل تجارة الشرق؟ هذه مسائل سوف ندرسها بالنسبة لكل جمهورية أو مدينـة إيطاليـة لها عـلاقة تجارية مع سلطنة المماليك .

ب ـ موقف المدن الإيطالية إزاء قرارات البابوية

جنوى

في البداية وعلى أثر سقوط عكـا (١٨ أيار ، ١٢٩١) وبنـاء على نداء البابا المباشر للجنويين للتسلح من أجل تخليص الأراضي المقدسة ووقف كافة العلاقات مع مصر تقيدت جمهورية جنوى بقرارات منع التعامل التجـاري مع سلطنة المماليك وأصدرت القوانين الخاصـة بذلـك . وبالـواقع فقـد حكمت سلطات جنوى بالغرامة على وكالة لركاري Lercari بذات السنة لاقدامها على إرسال البضائع من جنوى إلى الإسكندرية على متن مركب مسلح مخالفة بذلك تشـريعات الجمهـورية بهـذا الصدد ولاظهـارها عـدم الـطاعـة تجـاه قـداسـة البابا[٢٦] .

وتشير المعلومات إلى أن المدعو تـديزيـو دوريا Tedisio Doria الـذي عمل فيما بعد في خدمة الحبر الأعظم قد أوقف سفينة تابعة لمدينة بيزا كانت عائدة من الإسكندرية وعليها حمولة ثمينة وعدد من التجار البيازنة ومن مـدينة مرسيليا ونـاربون Narbonne. وقد رحبّت سلطات جنوى بهـذا العمل وطبقت على المـركب الموقـوف وركابـه قوانين الكنيسـة التي تتيح لأي كـان أن يلقي القبض على كل من يوقف بالجرم المشهود وهو يتعـامل تجـارياً مـع مصر وأن

---

(٢٦) In devetum factum per comune januae apud Alexandrum.
انظر : Heyd. W., Op. Cit., p. 34.

يستعبد وأن تصادر بضاعته . غير أن السلطات الجنوية أطلقت لهذه المرة سراح هؤلاء التجار مع جزء من بضاعتهم(٢٧) .

وهكذا فإن جنوى في البداية قد إعتمدت وجهات نظر الحبر الأعظم حتى أن البابا كليمون الخامس المعروف بتشدده قد هنأها بدون تحفظ(٢٨) . غير أن القوانين الجنوية المحفوظة لغاية اليوم لا يوجد فيها أي قانون يمنع بشكل عام التجارة مع مصر . والواقع أن القوانين التي سنت أثناء الحملات الصليبية وخاصة بعد سقوط عكا قد حرّمت إرسال الأسلحة والمواد الحربية إلى مصر ؛ غير أن هذا الحظر لم يشمل بقية السلع التجارية ، بل على العكس فإن قانون ١٢٩٠ قد حدد فقط الأسلحة كسلع يمنع تصديرها . والواقع أن جنوى وإن رغبت في قطع التعامل مع مصر بشكل كلي إلا أنها عدلت عن ذلك بإعتبار أنها أصدرت منذ ١٣٠٤ القوانين الخاصة بمستعمراتها باليونان (قانون بيرا Code de Pera) وفيها حظّر فقط إرسال المواد الحربية إلى مصر . كما أبقى على هذا الحظر في قانون ١٣١٦ Denetum Alexundriae المعمول به في مستعمرة كافا Caffa على البحر الأسود . كما أبقى هذا الحظر في قانون ١٣٤٠ Denetum Ispaniae et barbaria المتعلق بالتعامل مع بلاد الأندلس وشمال أفريقيا . وفي مختلف هذه القوانين كان الحديد والخشب الصالح لبناء السفن والأسلحة والرقيق من الإناث والذكور هي السلع المحظر بيعها للمسلمين في الشرق والغرب(٢٩) .

أما عن العقوبات والغرامات هل كانت تفرض كلها بحق كل المخالفين؟ الواقع أن الأمور كانت تجري على عكس ذلك ولدرجة أن البابا

(٢٧) Heyd. W., Ibid. p. 35.

(٢٨) Heyd. W., Ibid. p. 35 ;
Paoli., Cod. dipl. dell' ordine gerosolim, vol. II, p. 33.

(٢٩) Heyd. W., Op. Cit., p. 35.
Canale, Nuomo Istoria della repubblica di Genova, vol. III, p. 173.

يـوحنا الثـاني والعشرين(١٣١٦ ـ ١٣٣٤) كـان يشتكي من تصرف الجنـويين ويتهمهم بمسـاعدة المـماليك عن طـريق تزويـدهم بالـرقيق والمواد الحـربيـة والتقرب من السلطان[٣٠] .

وعلى كـل حال كـانت السلطات في جنوى والـوكالات التجـارية تعتبـر القوى المكلفة من قبل البابـا القيام بـالدوريـات البحريـة في شرقي المتـوسط لمطاردة وإلقاء القبض على المتعاملين مع مصر هي قوى عدوة وليست بصديقة وقد حصلت بينها وبين جنوى عدة مسائل .

ففي سنة ١٣١٢ أقدم فرسان القديس يوحنـا على مصادرة مـركب جنوى كان في طريق العودة من الإسكندرية وهو محمل بالتوابل والسلع الأخرى وقد حاولت جنوى إستعادة المركب الموقوف عن طريق إرسال السفير أنطونيوسبينولا Antonio Spinola إلى رودوس ولكن فـرسـان الأسبتـاريـة Les hospitaliers رفضوا تسليم المركب دون موافقة البابا وحصل من جراء ذلك بعض المناوشات ما بين جنوى وبين فرسان القديس يوحنـا فوقـع للفرسـان بعض الأسرى لـدى الجنويين الذين رفضوا إطلاق سراحهم مما إستوجب تدخل البابا فأصدر تحذيراً إلى جنوى بوجوب إطلاق سراح الرهائن[٣١] .

وضمن هذا النطاق أقدم أيضاً ملك قبرص على ملاحقة المراكب الجنوية وتوقيفها وهي في طريقها من وإلى مصر . وكما إصـطدمت جنوى مـع فرسـان الاسبتارية في رودوس.كذلك إصـطدمت مع ملك قبـرص ورفع الخـلاف إلى التحكيم لدى قداسة البابا يوحنا الثاني والعشرين الذي أصدر حكماً سنة ١٣٣١

---

(٣٠) يذكر رينالد أن أحد الجنويـين المدعو سغورانو سلفاجو Segurano Sulvago كان يقودُ مركباً يستخدم لنقل الرقيق وكان يرفع راية السلطان .
انظر : Raynold, Annales écclésiastiques, a. a. 1317, no. 36.
Heyd. W., Op. Cit., p. 36.

(٣١) لمزيد من التفاصيل انظر : Mas Latrie. Histoire de Chypre vol. II, pp. 31 - 33; Sanuto. M., Secr. fidel. Cru. p. 31.

أوجب فيه الطرفين أن يدفع كل منهما للآخر فدية متساوية(٣٢) .

والسؤال المطروح ما هو مصير الجالية الجنوية في الإسكندرية ؟

لا شك أن نتائج سقوط عكا وقرارات الكنيسة بحظر التعامل مع سلطنة المماليك قد عصفت إلى حد ما بالجالية الجنوية في الإسكندرية على الأقل في السنوات الأولى لما بعد سقوط عكا . غير أن ما من شيء يثبت توقف التجارة الجنوية بشكل نهائي مع السلطنة خاصة وإن هناك مستنداً جنوياً مؤرخاً بتاريخ ٢٤ تشرين الأول ، ١٣٠٤ ، يشير إلى وجود قنصل جنوى مقيم في تلك الفترة في الإسكندرية كما أن الرحالة سيمون سيمونس Simon Simeonis قد شاهد في الإسكندرية سنة ١٣٢٢ قنصلية وفندقاً لجنوى يعملان كالسابق بصورة عادية(٣٣) .

أما بيـزا

فقد حافظت على التقيد بقرارات الكنيسة العامة ، فقوانين غرفة التجارة البحرية الصادرة بتاريخ ١٣٠٥ و١٣٢٢ قد جددت الحظر المفروض قديماً على تصدير المواد الحربية إلى مصر . كما أن المعلومات تشير إلى وجود قنصلية للبيازنة في الإسكندرية سنة ١٣٠٥ وإلى وجود جالية هناك . وكان على قنصل البيازنة أن يدفع عائدات فرن جاليته في الإسكندرية إلى صندوق كاتدرائية بيزا قربى للسيدة العذراء(٣٤) .

أما البندقية

فلا يعرف عما إذا كانت علاقاتها مع مصر قد توقفت عقب سقوط عكا وكل ما نعرفه أن البندقية كانت حانقة على سلاطين مصر بسبب مصادرة أحد

(٣٢) Mas Latrie, Op. Cit., p. 156.

(٣٣) ذكر هايد أن القنصل الجنوي في الإسكندرية كان يدعى غيزولفو دي غيزولفي Ghisolfo dei Ghisolfi

انظر: Heyd. W., Histoire du Commerce , vol. II, p. 37.

(٣٤) Heyd. W., Ibid. p. 37.

مراكبها في غزة وعليه حمولة ضخمة من المعادن الثمينة وبسبب القبض على مواطنيها وزجهم في غياهب سجون القاهرة . غير أن توتر العلاقات هذه لم يستمر طويلاً ففي سنة ١٣٠٢ أرسلت البندقية سفيرها غيدودي قنالي Guido de Canali إلى الملك الناصر محمد الذي جدّد له الامتيازات المعطاة سابقاً من قبل السلطان قلاوون بشرط أن تقوم البندقية بتوريد السلع الشديدة الطلب في مصر والتي حظّر عموماً على مسيحيي الغرب تصديرها إلى الشرق على أن يسمح للبنادقة بإخراج السلع من مصر معفاة من الرسوم والمكوس وعلى أن يدفع ثمنها مقايضة بالسلع التي يبيعها البنادقة[٣٥] . وهذا الإجراء لا يشمل الإسكندرية فقط وإنما كافة المرافىء التابعة للسلطان . واستناداً إلى ديبنغ Depping فإن البنادقة كانوا وراء هذا الإقتراح بتزويد مصر ببعض المواد الحربية المحظرة كالأسلحة وخشب بناء السفن والحديد لقاء إعفائهم من قبل السلطان من المكوس والرسوم المفروضة على البضائع الخارجة من الإسكندرية إلى غربي أوروبا وهذا يتطابق مع مواقف البندقية المعارضة لقرارات البابوات بشأن حظر التجارة مع مصر[٣٦] .

أما فيما عدا ذلك فإن سلطات البندقية كانت تتشدد في تصدير بقية السلع الممنوعة والتي لا تحصل بموجبها وبالمقابل على إعفاءات من المكوس والرسوم كالرقيق التي حظرت البندقية تصديره إلى خارج أراضيها أو مستعمراتها . ففي سنة ١٣٠٣ ورد إلى جزيرة كريت عدد من الأرقاء القادمين من القسطنطينية على متن مركب جنوي في طريقهم إلى مصر فأقدم دوق كريت البندقي على توقيفهم ومنعهم من السفر . وقد أدى هذا الحادث الى توتر العلاقات المصرية البندقية مما دفع الجمهورية إلى إرسال السفير جيوفاني

---

(٣٥) Heyd. W., Ibid. p. 39 ;
Mas Latrie , traités , p. 83 , no 8 .

(٣٦) Depping. G., Histoire du Commerce, vol. II, pp. 117 - 118 ;
Heyd. W., Op. Cit., p. 39.

سورانزو سنة ١٣٠٤ إلى إعادة الأمور إلى نصابها وإطلاق سراح القنصل البندقي المعتقل في الإسكندرية(٣٧) . ولا حاجة بنا هنا إلى أن نشير إلى وجود قنصلية للبندقية في الإسكندرية وإلى وجود جالية بندقية لا يستهان بها وكان التبادل التجاري مزدهراً فكانت المراكب التجارية ترد الإسكندرية ودمياط وتحمل منها ليس فقط منتجات مصر وإنما منتجات الشرق المعروفة وكان هذا التبادل قانونياً طالما لا يشمل السلع المحظرة (Prohibita portari et permissa Alexandriam) . وقد نشرت في تلك الفترة التعليمات العائدة للمراكب على خط البندقية ـ مصر كمواعيد الإبحار ونوعية الحمولة وفترات الإقامة . . . الخ . ولم تتأخر البندقية في طرق مرافىء سوريا كالسابق وخصصت لسوريا مراكب Galea Syriae أسوة بمراكب مصر Galea Alexandriae . وكانت تتوقف في مرافىء الشام لمدد محددة(٣٨) . وكل ذلك يغدوه رغبة أكيدة أظهرتها البندقية من أجل المحافظة على أسواق مصر وسوريا . طبعاً هذا التقارب ما بين المماليك والبندقية لم يرق للفاتيكان في روما . وقد حاول دوج البندقية الحصول بشتى الوسائل على ترخيص من البابا يسمح بموجبه للتجار البنادقة تصدير الذهب والفضة والقصدير والنحاس والأقمشة والزعفران والسلع الأوروبية الأخرى إلى مصر حتى أنه أوعز إلى سفيره دفع مبلغ ٥٠٠٠ قطعة ذهبية مقابل الحصول على الترخيص المطلوب .

لكن الكنيسة في روما كانت أكثر تشدداً وطلبت من سلطات البندقية أن تصدر القوانين المناسبة تطبيقاً لقرارات البابا القاضية بمعاقبة كل المتعاملين تجارياً مع سلطنة المماليك . ولما كان البنادقة أكثر المتعاملين مع مصر ولما كانت الغرامات المفروضة من قبل الكنيسة تقدر بمبالغ ضخمة قد توازي أحياناً

---

(٣٧) Heyd. W., Op. Cit., p. 39 ;
Archives Venetiennes, XVIII, p. 315; XIX, pp. 103-111.

(٣٨) Ibid., XVII., p. 260; XVIII, pp. 351-317; XIX, p. 103 ;
Heyd. W., Op. Cit., pp. 40-41.

مجموع قيمة الأملاك التي تركها المحروم كنسياً بعد مماته ، لذا عارض البنادقة بالإجمال هذه القرارات المجحفة بحقهم خاصة الورثة وغيرهم . ولم تكتف الكنيسة بذلك بل عمد البابا يوحنا الثاني والعشرون إلى إرسال سنة ١٣٢٢ اثنين من الأحبار إلى البندقية لجمع أموال الكنيسة المستحقة وإصدار أحكام الحرمان الكنسي بحق من يثبت أنه يتعامل مع المماليك . وقد قام مندوب البابا الراهب تارجا Targa بإصدار قرارات الحرمان الكنسي ضد عدد كبير من أعيان البندقية مما حمل سلطات البندقية على كتابة عريضة أرسلت إلى البابا بمثابة شكوى على إجراءات تارجا التعسفية كما توضح فيها أنه لها الحق من حيث المبدأ أن تحمل إلى ديار السلطنة البضائع التي لا يمكن أن تدعم قوة المماليك العسكرية . غير أن البابا يوحنا الثاني والعشرين أعلن أن مقترحات البندقية هي نوع من الهرطقة وإن كافة السلع المختلفة يحظر تصديرها إلى مصر(٣٩) . ولم يكن بإمكان البندقية سوى الخضوع لقرارات الكنيسة . ولذلك فقد أصدرت في مؤتمر بريغادي Pregadi وكارنتا Quaranta في ١٨ كانون الثاني ، ١٣٢٣ وبالإتفاق مع ممثلي الحبر الأعظم وبضغط منهما قراراً يحظر بصورة عامة التعامل التجاري مع مصر أو البلاد الخاضعة لنفوذ السلطان(٤٠) . ولم يرفع هذا الحظر بل كان يتجدد بعد كل فترة كما حصل عام ١٣٥٠ وعام ١٣٧٤ حين ذكّرت البندقية عمالها في المستعمرات الشرقية بوجوب التقيد بصرامة بقرار الحظر(٤١) .

---

(٣٩) Heyd. W., Ibid. p. 43 ;
Cecchetti. B., La Repubblica Venezia et la corte di Roma nei rapporti della religione, I (Venez. 1874), p. 286.

(٤٠) Archives Venetiennes, XVII, p. 137; XIX, p. 113; XXIV, pp. 313 - 315 ;
Depping. G., Histoire du Commerce, Vol. II, pp. 6 - 7.

(٤١) هذه التعليمات أعطيت لعمال البندقية ومندوبيها في جزيرة كريت (١٣٥٠) وفي القسطنطينية (١٣٧٤) .

ولذلك فإنه ولفترة عشر سنوات من تاريخ إصدار قرار الحظر لم يصدر مجلس الشيوخ في البندقية أية قرارات أو قوانين تتعلق بالتجارة مع مصر حتى أن سلطان مصر قد لاحظ ذلك وأعلن أنه منذ ثلاث وعشرين سنة لم يرَ أي مركب بندقي في سلطنته[٤٢] . وهذا لا يعني أن العلاقات البندقية ـ المملوكية قد قطعتِ تماماً بل على العكس كانت البندقية تسعى جاهدة دائماً إلى الحصول على التراخيص من البابا لإستئناف العلاقات التجارية مع مصر . كما أنها كانت تعمل بطريقة غير مباشرة إلى إرسال البضائع إلى مصر وجلبها منها عن طريق قبرص وكريت وآسيا الصغرى وهذا ما يفسر وجود قنصلية دائمة للبندقية في الإسكندرية لرعاية شؤون الجالية البندقية التجارية المتواجدة هناك[٤٣] . غير أن الأحداث التي عصفت بإيران في تلك الفترة والخلافات الحاصلة مع صاحب تانا Tana على البحر الأسود جعلت الطريق البري عبر قلب آسيا محفوفاً بالمخاطر مما دفع البندقية إلى التماس السماح من قداسة البابا كليمون السادس Clément VI بمعاودة التعامل التجاري مع مصر لئلا يؤدي ذلك إلى خراب الجمهورية وبالفعل سمح البابا للبندقية بإرسال ستة شواني Galères وستة مراكب Vaisseaux إلى الإسكندرية وبقية ديار السلطنة على شرط أن لا

انظر : Thomas. M., Instruction pour un conseiller nommé pour l'Ile de Crète. Vol. XIV, p. 215.
Diehl, mélanges d'archéol et d'hist. de l'Ecole française de Rome, 3e ann ; 1883, p. 130 ;
Heyd. W., Op. Cit., p. 43.

(٤٢) «Che li no haveva vintitre anni navigado a le nostre parte ».

انظر: Taf et Thom, vol. IV, p. 291
Heyd. W., Op. Cit., p. 44.

(٤٣) رأى الرحالة سيمون سيمونيس Simon Simonis في الإسكندرية في شتاء ١٣٢٢ جالية تجارية وقنصلية للبندقية .

انظر : Simon Simonis, Itinerar, ed. Nasmith, pp. 21, 43 ;
Heyd. W., Op. Cit., p. 44.

تنقل سوى البضائع المرخصة (٢٧ نيسان ، ١٣٤٤). وفي سبيل الحصول على هذا الترخيص عمدت البندقية إلى دفع مبالغ طائلة إلى حاشية البابا . وقد أعقبت الجمهورية ذلك بإرسال سفارة إلى القاهرة للحصول من السلطان الملك الصالح إسماعيل (١٣٤٢ - ١٣٤٥) على ضمانات وامتيازات لمواطنيها . رحب السلطان بالسفير البندقي نيقولوزينو Niccolo Zeno ودعا التجار بالعودة بأمان إلى الاسكندرية ودمياط(٤٤) .

وتتالت السفارات البندقية إلى القاهرة وسمح السلطان للجمهورية بإرسال القناصل ليس إلى الإسكندرية وحسب وإنما إلى أي مكان تشاء. وهكذا عادت الأمور إلى مجاريها بالنسبة للبندقية فأرسلت اثنين من الشواني محملين بالبضائع على خط الإسكندرية Galeae Alexandriae المعروف (١٣٤٥)(٤٥) . وهذا لا يعني أن حظر التعامل مع مصر قد رفع ، بل على العكس كانت الكنيسة البابوية تتشدد دائماً في موقفها ازاء اضعاف مصر وحرمانها من مصادر قوتها وبقائها . ولما كانت فكرة إرسال حملة صليبية جديدة إلى الشرق تتضاءل يوماً بعد يوم ، ولما كان دعاة إستعادة الأراضي المقدسة المتطرفين أمثال مارينو سانوتو قد عدلوا عن أفكارهم (١٣٢٦) ، فقد كان من المنتظر أن تتساهل البابوية في مواقفها إزاء التعامل التجاري مع مصر ، غير أن الواقع كان عكس ذلك تماماً وتفسير ذلك أن مواقف البابوية هذه كانت نتيجة العناد والأنانية والهدف من ذلك هو إجبار الجمهوريات والمدن التجارية على دفع مبالغ طائلة لقاء الحصول على تراخيص وأذونات التعامل مع سلطنة المماليك . وكانت هذه الأموال تدفع إما مباشرة إلى خزينة البابوات وأما إلى حاشيتهم والأمثلة على ذلك كثيرة ففي سنة ١٣٦١ دفع دوج البندقية جيوف

---

(٤٤) Taf et Thom, vol. IV, pp. 277, 289 ;
Heyd. W., Op. Cit., p. 45.

(٤٥) Heyd. W., Ibid. p. 46 ;
Taf et Thom, Op. Cit., pp. 296; 308.

دلفينو Giov. Delfino مبلغ ٩٠٠٠ قطعة ذهبية إلى خزينة البابا كمبادرة شكر لحصوله على الترخيص المطلوب(٤٦) .

ولم تتوقف الأمور عند هذا الحد بل أصبحت التراخيص تتناقلها الأيدي وتباع وتشترى كأية سلعة تجارية أخرى . فقد أعطى البابا أنوسنت السادس (١٣٥٢ - ١٣٦٢) ترخيصاً للمدعو جيراردو دي روستيشللو Gerardo di Rustichello الذي تنازل عنه لمواطن من جنوى الذي باعه لأحد أمناء السر العاملين في خدمة دوج البندقية لقاء ٥٠٠ دوكات ومرة أخرى أعطى البابا كليمونت السادس (١٣٤٢ - ١٣٥٢) ترخيصاً لأحد أقاربه المدعو غيوم روجيه الثالث Guillaume Roger III كونت دي بوفور Comte de Beaufort وهو من كبار أغنياء فرنسا ، لقاء مبلغ من المال بلغ مقداره « ١٢٠٠٠ » قطعة ذهبية وقد سمح البابا بموجب هذا الترخيص بإرسال ما مجموعه ٣٠ شانيا و١٠ مراكب كبيرة إلى مصر .

ولما كانت أملاك روجيه الثالث بعيدة عن البحر ولم يكن بإستطاعته الإستفادة من الترخيص فقد باعه تحت علم البابا ونظره إلى المدعو ستيفانو بطوطو Stephanus Batuto الذي سلّمه بدوره إلى دوج البندقية(٤٧) . وكانت البابوية ترفق هذه التراخيص بشرط مفاده أن يقسم صاحب السفينة أو وكيلها أمام أحد الرهبان المنتدبين بأن المركب هو خال تماماً من أية سلعة حربية . وكان الراهب يتأكد بنفسه من صحة هذا القسم كما كان يرسل نسخة منه إلى قداسة البابا على سبيل الإفادة . وكان هذا الإجراء الصارم مكملاً للقوانين التي

---

(٤٦) Heyd. W., Op. Cit., p. 46.

(٤٧) Mas Latrie, Histoire de Chypre, vol. III, Compléments, p. 749 ;
Heyd. W., Op. Cit., p. 47 ;
Anselem. V., Histoire Générale de la Mission Royale de France, 3ème éd. Vol. IV, p. 317 ;
Thomas. M., Archives Venetiennes, XVII, p. 99-125.

أصدرتها البندقية بشأن إرسال المواد الحربية إلى مصر . وقد استغلته البابوية لتنفيذ مشيئتها وتثبيت كلمتها، ففي سنة ١٣٥٩ نمي إلى البابا أنوسنت السادس عن وجود تلاعب في البندقية في حمولة المراكب المتجهة إلى ديار السلطنة ، فسحب البابا كافة التراخيص الممنوحة إلى مصر وسوريا والمعطاة من قبله ومن قبل البابوات السابقين معتبراً كغيره من البابوات أن هذه التراخيص يمكن دائماً سحبها لإعادة تطبيق قوانين تحريم التعامل التجاري مع المماليك في حال استغلال هذه التراخيص أو في حال نشوب نزاع مسلح بين المسيحيين والمماليك(٤٨) .

وباستثناء هذه الحادثة التي ذكرت أعلاه فإن التراخيص كانت تعطى للبنادقة دورياً. فاعتباراً من سنة ١٣٦٤ كانت التراخيص تعطى بانتظام من سنة لسنة وأحياناً تعطى عدة تراخيص في سنة واحدة. وكانت هذه التراخيص تشمل عدداً كبيراً من المراكب وكان البنادقة يعملون جهدهم للإستفادة القصوى من ذلك مع مراعاة التقيد التام بعدم تجاوز عدد المراكب المسموح بها أو المهل المقررة(٤٩) . وكما نجح البنادقة بالأموال التي بذلوها وبلباقتهم وحسن تصرفهم في تذليل كافة الصعوبات الناجمة عن قرارات الكنيسة بشأن تحريم إرسال السلع الحربية إلى مصر ، كذلك نجحوا باستعمال نفس الوسائل للمحافظة على علاقات طيبة مع سلطنة المماليك والدليل على ذلك الإتفاقيات المتعددة التي عقدوها مع سلاطين مصر في سنة ١٣٤٤ وسنة ١٣٥٥ وسنة ١٣٦١(٥٠) . وقد رحبت السلطات المملوكية بعودة تجار البندقية وقناصلها وأوعزت إلى نائب الإسكندرية بوجوب حسن معاملتهم ، حتى أن الأمير يلبغا ، أيام السلطان

---

(٤٨) Taf et Thom, vol. IV, pp. 278-307 ;
Heyd. W., Op. Cit., p. 47.

(٤٩) Heyd.W., Ibid. p.48; Commemorial reg. II, p.237, no. 116,117.

(٥٠) Mas Latrie, Traités, suppl., pp. 88-92.

القاصر ، الملك المنصور ، قد سمح لقنصل البندقية بشراء سلع مختلفة تصل قيمتها إلى ٢٠٠٠ دينار دون دفع المكوس والرسوم المترتبة ، بالإضافة إلى إعطاء تسهيلات للبنادقة المقيمين في فندقهم بالإسكندرية(٥١).

أما جنوى مجدداً

فعلى خلاف البندقية فقد فضلّت في النصف الثاني من القرن الرابع عشر تدعيم تجارتها وذلك بإيجاد أسواق جديدة على الطرق المؤدية إلى كافا وتانا على البحر الأسود والمارة عبر سوريا وإيران العجم . وبالرغم من احتفاظ جنوى بفندقها وقنصليتها في الإسكندرية إلا أنها لم تعمد إلى تجديد اتفاقياتها التجارية مع السلطان . غير أنها كانت تطلب من حين لآخر من البابا إعطاءها التراخيص والأذونات للسفر إلى ديار سلطنة المماليك . ففي سنة ١٣٢٦ وعلى أثر خلافات مع إمبراطور القسطنطينية أندرونيك الثاني Andronic II ومع مستعمراتها في البوسفور والبحر الأسود أصبحت المياه اليونانية مغلقة بوجه البحرية الجنوية، فاضطرت الحكومة للتوجه إلى قداسة البابا يوحنا الثاني والعشرين من أجل السماح لها بإرسال بحريتها إلى اللاذقية ليتسنى لتجارها القيام بالتبادل التجاري مع إيران وبلاد الهند . وقد أعطى البابا موافقته على هذا الطلب ولمدة سنتين(٥٢) . ولما كانت طريق إيران والهند محفوفة بالأخطار نظراً لتواجد المغول فقد توجهت أنظار الجنويين مجدداً نحو مصر ولم يعارض البابا كليمون السادس هذا التحول بل سمح للجنويين بمعاودة الإتجار مع مصر تقديراً للجهود والأموال التي بذلوها في الدفاع عن كافا على البحر الأسود ضد هجمات التتار (١٣٤٦)(٥٣). وقد استغل الجنويون هذا التحول واستفادوا منه .

---

(٥١) Mas Latrie, Ibid., p. 93 ;
Heyd. W., Op. Cit., p. 48.

(٥٢) Raynold, a. a. 1326, no. 25 ;
Heyd. W., Op. Cit., p. 49.

(٥٣) Canale, Storia dei Genovesi, (1ère ed.), vol. IV, p. 346 ;
Heyd. W., Op. Cit., p. 49.

وإذا أردنا أن نقيّم نتائج قرارات البابوية القاضية بمنع التعامل التجاري مع سلطنة المماليك لوجدنا أن هذه القرارات قد نجحت بشكل عام في منع تصدير المواد الحربية والسلع التجارية كالرقيق والحديد وخشب بناء السفن والأسلحة وغيرها ولكنها لم توقف التبادل التجاري بشكل عام ونهائي . والحظر في بدايته خاصة بعد سقوط عكا كان نافذاً وشاملاً نظراً لقوة الكنيسة وتقيد الدول والتجار بقراراتها غير أن حب الربح الوفير والأوضاع الأمنية المضطربة العائدة إلى ما كان يجري حول المستعمرات الإيطالية على ضفاف البحر الأسود وفي عمق إيران جعلت المدن الإيطالية وتجارها تعاود التعامل مع المماليك باعتبار أن الإسكندرية ومرافىء الشام ظلّت في فترة الاضطرابات هذه الأماكن الآمنة التي بإمكان التجار الإيطاليين الحصول منها على مختلف السلع الشرقية ولذلك نجد الإسكندرية حتى في أوقات الحظر العصيبة لم تفقد مكانتها التجارية بل ظلّت مركز تجارة الفلفل والتوابل وغيرها وكانت الجاليات والقناصل الإيطالية تقيم فيها باستمرار تحت حماية السلطان وترحيبه وبشكل لم يدع أي مجال للمدن التجارية كالبندقية وجنوى أن تغلق قنصلياتها وفنادقها أو تستدعي تجارها .

ومع أن البابوية قد تساهلت في النصف الثاني من القرن الرابع عشر إزاء التعامل مع مصر وذلك بإصدار المزيد من الأذونات والتراخيص مما جعل التجار الإيطاليين يتهافتون على الإسكندرية وغيرها، إلا أن هذه الفترة قد عرفت فترة اضطرابات ناجمة عن وجود الملك بيار الأول ذي الأطباع العدوانية على عرش قبرص(٥٤) . وقد عمد هذا الملك في جولاته الأوروبية سنة ١٣٦٢ وسنة ١٣٦٥ مدعوماً من البابا أوربان الخامس على جر الدول الأوروبية خاصة البندقية وجنوى للقيام بحملة صليبية ضد مصر . لم تتحمس المدن الإيطالية بادىء الأمر للموضوع لكنها تحت ضغوطات البابا وتأثير موفدي ملك قبرص

---

(٥٤) Heyd. W., Histoire du Commerce, vol.II, pp. 51 - 52 ; Depping. G., Histoire du Commerce, vol. II, p. 195.

خضعت البندقية أولاً للأمر الواقع ووعدت بتجهيز عدد من المراكب بالتعاون مع الملك بيار الأول لنقل ألفي فارس ثم تلتها جنوى فوعدت بتجهيز ثلاث مراكب للحملة .

ومع أن المدن الإيطالية لم تف بكامل وعودها إلا أن ملك قبرص تسرّع وهاجم بغتة الإسكندرية في العاشر من تشرين الأول سنة ١٣٦٥ وعمل فيها القتل والنهب لعدة أيام ولما شعر بوصول طلائع القوات المملوكية إنسحب على جناح السرعة من الإسكندرية وعاد إلى قبرص[٥٥] .

كانت هذه الحادثة بمثابة الفاجعة بالنسبة للبندقية لأن بيار الأول قد قام بها دون إعطاء الجالية البندقية في الإسكندرية فرصة لأخذ الاحتياطات اللازمة مما تسبب في تعرض القنصل والتجار البنادقة للسلب والنهب ، أما جنوى فقد كان لها في مرفأ الإسكندرية إبان الحملة (٦) مراكب ولكنها لم تشترك بالعدوان غير أن طواقم المراكب لم يتمالكوا أنفسهم إزاء الفلتان فاندفعوا وشاركوا في نهب المدينة[٥٦]. وكان من نتيجة ذلك أن تحملت البندقية وجنوى بالدرجة الأولى وزر هذا العدوان إذ عمد الملك الأشرف شعبان إلى توقيف قناصل المدن الإيطالية وتجارهم وزجهم في السجون والتنكيل بهم ومصادرة أموالهم وبضائعهم فتضررت التجارة من جراء ذلك أشد الضرر فأمتنعت المراكب عن المجيء إلى الإسكندرية فارتفعت أسعار الفلفل والسلع الشرقية في أوروبا[٥٧] . غير أن السلطان عاد وتغير خاطره وفكر باستئناف التبادل التجاري والإفراج عن القناصل والتجار الإيطاليين فتبادل الكتب والرسائل مع سلطات البندقية وجنوى اللتين أرسلتا السفراء والموفدين إلى مصر . ولم ترق هذه الأمور للبابا إربان الخامس فكتب إلى كل من البندقية وجنوى محذراً إياهما من

(٥٥) Machaut , La Prise d'Alexandrie, pub. par Mas Latrie (1877), pp. 68-109.

(٥٦) Mas Latrie, Histoire de Chypre, vol. II, p. 388.

(٥٧) المقريزي، كتاب الخطط، جزء ٢ ص ٢٤ ؛ Heyd.W., Op. Cit., p. 53

اقتراحات وكتب السلطان الهادفة، حسب اعتقاده، إلى بذر الشقاق في الصف المسيحي(٥٨) . لم تستجب الجمهوريتان لنداءات البابا يحذوها في ذلك رغبتها في الإفراج عن الرهائن واستئناف العلاقات التجارية فأرسلت البندقية السفيرين فرنشسكو بومبو Francesco Bembo وبيترو سورنزو Pietro Soranzo إلى جانب السلطان فاستقبلهما وأكّد لهما ضمان تطبيق الإتفاقيات القديمة . فعاجلت البندقية على إطلاع البابا على ذلك مؤكدة أن ما تم الإتفاق عليه هو بحت تجاري وليس هناك من اتفاق سلام منفرد مع السلطان الذي يرفض إبرام أي اتفاق سلام قبل إحلال السلام ما بينه وبين عدوه الأول ملك قبرص . وضمن هذا الإطار أرسلت البندقية مبعوثيها إلى قبرص لإقناع الملك بإجراء مفاوضات مع سلطان مصر وبالعدول عن مشروعاته الصليبية الهادفة إلى الاعتداء على شواطىء سوريا هذه المرة(٥٩). كما أنها أبلغت قداسة البابا بأنها عازمة على معاودة الاتجار مع مصر دون الإهتمام لما يقوم به ملك قبرص غير أنه يهمها أن تحصل على ترخيص مسبق من قداسته(٦٠) . فمنحها الترخيص المطلوب لأربعة مراكب وثمانية شواني شرط أن تبرم إتفاقيات سلام من شأنها أن توقف استمرار الحملات ضد المماليك . ولما تناهى إلى سمع البابا أن المماليك يعدون العدة لاجتياح قبرص ورودوس أصدر قرارات بتطبيق الحظر الشامل فتضايقت البندقية وأعلنت أنها بالمقابل سوف تمنع وصول الجيوش والأسلحة والخيول الأوروبية إلى قبرص ورودوس فطلب منها البابا إلغاء هذا القرار تحت ضغط ملك قبرص الساخط(٦١) . وإزاء توتر العلاقات ما بين

---

(٥٨) Mas Latrie, Op. Cit., vol. III, p. 756.

(٥٩) Heyd. W., Op. Cit., pp. 53-54;
Mas Latrie, Op. Cit., vol. II, pp. 285, 292;
Raynal, a.a. 1366, no. 16.

(٦٠) Mas Latrie, Op. Cit., vol. III, p. 754.

(٦١) Heyd. W., Op. Cit., p. 55;
Mas Latrie, Op. Cit., vol. II, pp. 285-289.

سلطان مصر وملك قبرص اضطربت التجارة مجدداً في شرقي حوض البحر المتوسط خاصة بعد الغارات العدوانية التي قام بها هذا الملك ضد الثغور السورية (كانون الثاني ١٣٦٦ و أيلول ١٣٦٧)[٦٢]، وبعد ردة فعل سلطان مصر القاسية والقاضية بالقاء القبض على القناصل والتجار الأوروبيين المقيمين في ديار السلطنة وزجهم في السجون وتعذيبهم بعد مصادرة بضائعهم وأموالهم وقد عمدت كل من البندقية وجنوى بالقيام بمساعي المصالحة وبمباركة البابا وضمن شروط خاصة وضعها الحبر الأعظم[٦٣].

ومع سقوط بيار الأول ملك قبرص صريعاً تحت طعنات أحد أخصامه (١٧ كانون الثاني، ١٣٦٩) إلا أن السلام لم يتحقق لعدم استجابة السلطان لطلب إطلاق الرهائن فعمدت جنوى والبندقية إلى التخلي عن دور الوساطة وعقدت إتفاقية فيما بينهما ودعتا رودوس وقبرص الإنضمام إليهما للقيام بعراضة بحرية أمام الإسكندرية لإجبار السلطان على ترك الرهائن (إتفاقية ٢٨ تموز، ١٣٦٩). وتعهدت البندقية وجنوى بإيقاف التبادل التجاري مع مصر طالما بقي الخلاف قائماً وقد رافق ذلك صدور قرار من البابا يحظر على بقية الدول التجارية التعامل مع مصر[٦٤] (٢٧ تموز، ١٣٦٩) ، كما رافق ذلك محاولة ٤ مراكب قبرصية التعدي على ثغر الإسكندرية غير أنها ردت على أعقابها بعد تدخل قوات المماليك[٦٥]. ولم تغير هذه الإجراءات من موقف السلطان فانسحبت الوحدات البندقية والجنوية (٨ شواني) من أمام شواطىء الإسكندرية

---

(٦٢) Heyd. W., Op. Cit., p. 56.

(٦٣) انظر ماس لاترى في تاريخ قبرص الجزء ٢ ، ص . ص . ٢٩١ - ٣٠٢ حيث أورد الاتفاق وشروطه بتاريخ ١٩ و ٢٠ أيار، ١٣٦٨ .

Mas Latrie, Histoire de Chypre, vol. II, pp. 291-302.

(٦٤) Commemoriali Reg., III, pp. 82-86, no. 503, 506, 509, 510, 512, 515; Heyd. W., Op. Cit., pp. 56.

(٦٥) Mas Latrie, Op. Cit., vol. II, pp. 347-350. Heyd. W., Op. Cit., pp. 56-57.

وأفسح المجال لتحيكم العقل والروية مخافة نشوب صراع كبير ودموي فأرسلت مجدداً البندقية وجنوى السفراء إلى بلاط السلطان في القاهرة لتدبير أمر الصلح وإعادة الأمور إلى نصابها وكان من نتيجة ذلك أن وافق الملك الأشرف شعبان على إطلاق سراح الرهائن والتجار الأوروبيين المعتقلين في سجون مصر والشام كما وافق على عودة المراكب الأوروبية إلى ثغور السلطنة واستئناف التبادل التجاري في ظل من الأمن والسلام[٦٦] .

حتى أن البابا أوربان الخامس ، في بادرة طيبة منه ألغي قرار حظر التعامل التجاري مع مصر الذي جدده سنة ١٣٦٩ ومنح للمدن التجارية الإيطالية تراخيص جديدة[٦٧] فاندفع الإيطاليون وغيرهم إلى أسواق سلطنة المماليك للاتجار بكثرة وجني الربح الوفير . كان ذلك كلّه نتيجة لتصميم المدن الإيطالية على متابعة التعامل التجاري مع سلطنة المماليك خاصة وأن علماء الفقه والشرع فيها قد أفتوا بأن تزويد المماليك بالمواد الحربية هو خطيئة غير أن ليس هناك ما يمنع المسيحيين من الاتجار مع بلاد المسلمين ويحملون منها منتجات الشرق دون أن يكونوا عرضة لأحكام الكنيسة . إزاء هذا الوضع ، ولما خف الحماس الديني وفشلت الكنيسة في تحقيق الحملة الصليبية الخامسة (١٣٦٥) ، تراجعت البابوية عن مواقفها المتصلبة وتم الاتفاق على استئناف التجارة مع المماليك بشرط أخذ موافقة الحبر الأعظم المسبقة ، فتكاثرت التراخيص والأذونات فانتعشت تجارة الشرق من جهة وتكدست الدوكات في خزينة الكنيسة البابوية من جهة أخرى . واستمرت الأمور هكذا حتى تلاشى تأثير البابوية على تجارة المدن الإيطالية خلال القرن الخامس عشر[٦٨] . والحقيقة تقال أن قرارات البابوية وإن لم تستطع قطع الشريان التجاري ما بين

(٦٦) Heyd. W., Op. Cit., p. 57.

(٦٧) Heyd. W., Op. Cit., p. 57;
Commem. Reg., III, p. 94, no. 587.

(٦٨) Depping. G., Histoire du Commerce, Vol. II, p. 196.

الشرق والغرب لأنه حركة عالمية طبيعية لا تقوى أية سلطة على إيقافها ، غير أن مواقف البابوية قد نجحت بصورة أكيدة في منع التطور التكنولوجي خاصة في مجال الأسلحة النارية والمعدات الحربية من الانتقال والوصول إلى مصر وبالتالي حرمتها من الوسائل التقنية التي كان من الممكن أن تمكّنها من الوقوف بثبات في وجه البرتغاليين في جبهة البحر الأحمر وفي وجه العثمانيين في جبهة حلب .

ج ـ ظهور البرتغاليين في المحيط الهندي
وأثره على العلاقات الإيطالية المملوكية :

ليس الهدف في هذا المجال التحدث عن مراحل اكتشاف طريق الهند من قبل البرتغاليين وما رافق ذلك من تطورات إنما ما يهمنا هو إبراز الإنعكاسات الخطيرة لهذا الحدث خاصة فيما يتعلق بمواقف المدن الإيطالية منه وعلاقاتها إزاء سلطنة المماليك فيما يتعلق بالتجارة عموماً وبتجارة البهار خصوصاً والإجراءات المتخذة من قبل المدن الإيطالية وسلطان مصر للتصدي لهذا الحدث وما نتج عنه من أمور هددت مصير السلطنة المملوكية من جهة ومستقبل تجارة البندقية التي تعتبر مصدر ثروتها وقوتها من جهة أخرى . وكما فكرت البابوية بتحريم التعامل التجاري مع مصر بهدف اضعافها ، كذلك فكر البرتغاليون بإكتشاف طريق جديدة تؤدي إلى الهند للتعامل معها مباشرة دون المرور بديار سلطنة المماليك بهدف جني الأرباح الوفيرة من تجارة التوابل وغيرها وحرمان مصر من مصدر ثروتها وقوتها .

وقد نجح فاسكو دي غاما Vasco de Gama في العشرين من أيار ، سنة ١٤٩٨ وبعد عدة محاولات سبقته في إكتشاف طريق الهند والوصول إلى كلكوتا بحراً على متن ثلاثة مراكب برتغالية . كان هذا الاكتشاف حدثاً عظيماً لم تلمس نتائجه إلا فيما بعد ، وبالرغم من كون فاسكودي غاما لم يتمكن من شراء الكثير من التوابل والسلع الشرقية الأخرى بسبب ممانعة ملك كلكوتا تحت

ضغط التجار المسلمين إلا أن ملك البرتغال امانويل Emmanuel اعتبر أن نتائج هذه الحملة هي مشجعة وملؤها الأماني(٦٩) ولذلك فقد أمر بإرسال حملة ثانية في التاسع من آذار، سنة ١٥٠٠ قوامها ثلاث عشرة سفينة بأمرة القائد كابرال Cabral الذي عمد بعد وصوله إلى كلكوتا إلى قصف المدينة والسفن التجارية المصرية مدعياً بأن التجار المسلمين قد قاموا بتحريض الملك والأهالي ضده. وقد وقف إلى جانب كابرال ملوك كوشن Cochin وكانانور Cananore المعادين لملك كلكوتا وباعوه كميات كبيرة من الفلفل والقرفة Cannelle والزنجبيل وعاد إلى بلاده ومعه ٣٠٠٠ قنطاراً من التوابل فيها ٣٠٠ قنطاراً من الفلفل و١٢٠ قنطاراً من القرفة Cannelle وكميات أخرى من التوابل المختلفة اشتريت لحساب الفلورنتي برتيلوميو ماركيوني B. Marchionni. وأحد الجنويين وإيطالي آخر اسمه هيرونيمو(٧٠). وكان ماركيوني أحد مشاهير الفلورنتيين المقيمين في لشبونة وقد ساهم أيضاً في الحملة الثالثة إلى الهند بأن جهز مركباً وعهد بأمرته إلى الفلورنتي فرناندو فينتّي Fernando Vinetti كما ساهم بتجهيز حمولة نصف مركب في الحملة الرابعة(٧١). أما الحملة الثالثة وقوامها أربعة مراكب فقد أقلعت من لشبونة بتاريخ الخامس من آذار، ١٥٠١، بامرة القائد جواودانوفا

---

(٦٩) Heyd. W., Histoire du Commerce, vol. II, p. 511;
Sanuto. M., I Diarii, vol. III, p. 862;
Depping. G., Histoire du Commerce, vol. II, p. 266.

(٧٠) Heyd. W., Op. Cit., p. 512;
Sanuto. M., Op. Cit., vol. IV, p. 66;
Depping. G., Op. Cit., p. 266;
Priuli. G., Diarii, Archives Venetiennes, XXII, 1er part., p.163.
ذكر بريولي Priuli أن الحملة عادت بـ ٢٠٠٠ قنطار من الفلفل و ٦٠٠ قنطار من القرفة و ٤٠٠ قنطار من الزنجبيل أي ما مجموعه ٣٠٠٠ قنطار من الأفاويه عدا عن الأخشاب والعيدان الهندية المنوعة. وقد لحظ الكاتب عودة ٤ مراكب فقط من أصل ثلاثة عشر.

(٧١) Sanuto. M., Diarii, vol. IV, p. 544; vol V, p. 130

Joao'da Nova . وقد عادت هذه الحملة وعليها حمولة بسيطة تقدر بـ ١٥٥٠ قنطاراً من التوابل غير أنها أثبتت لملوك الهند مرة ثانية تفوق البحرية البرتغالية[٧٢] . وقد قرر الملك إمانويل إرسال حملة رابعة لإثبات عزمه على المشاركة في تجارة الهند ولتأكيد رغبته في قطع أي إتصال ما بين سواحل الملابار Malabar ومصر وضمان بلاده لاحتكار تجارة السلع الشرقية في الغرب ولذلك فقد أعطى الأمرة لفاسكو دي غاما وطلب منه أن يرسل وحدات من أسطوله للمرابطة على مدخل البحر الأحمر لمنع خروج المراكب المصرية إلى الهند ولمنع دخول المراكب الهندية إلى مصر[٧٣] . كما أعرب الملك عن ترحيبه بمساهمة الوكالات الإيطالية بتجهيز الحملة عن طريق دفع مبالغ ضخمة وبالفعل فقد ساهم بها التاجر الفلورنتي ماركيوني والتاجر الإيطالي جيوف أفاتاتو Gio Affaitato من كريمونا Cremona[٧٤] . وكان الظهور المسلح البرتغالي في شواطىء الهند مصدر قلق بالنسبة لسلطان مصر وبالنسبة للبندقية . وقد وردت أول أخبار هذا الظهور إلى البندقية من مصر على شكل إشارات مقتضبة حول تحركات البرتغاليين في الهند (آب ١٤٩٩)[٧٥]. وقد عمدت السلطات المملوكية عن قصد أو غير قصد إلى التقليل من أهمية النجاحات التي حققها البرتغاليون وإلى المغالات في ذكر فشلهم . ازاء هذا الوضع وبغية جلاء الحقيقة طلبت البندقية من سفيرها إلى أسبانيا ويدعى دمنيكو بيزانو Domenico Pisano المكلف بإجراء مفاوضات مع ملك البرتغال أن يزودها بالمعلومات حول تحركات البرتغاليين في الهند . وبالفعل أرسل السفير معلومات خطيرة حول هذا الموضوع وكتب بتاريخ ٢٤ حزيران، ١٥٠١ أنه ذهب لتهنئة الملك بمناسبة عودة الأميرال كابرال من الهند وإن الملك طلب إليه إبلاغ الجمهورية

---

(٧٢) Sanuto. M., Ibid. vol. IV, pp. 544, 545-547, 663-666.

(٧٣) Sanuto. M., Diarii, vol. IV, p. 665.

(٧٤) Sanuto. M., Ibid. vol. III, p. 1042.

(٧٥) Heyd. W., Op. Cit., vol. II, p. 115.

هذا النبأ السعيد وأنه من الآن فصاعداً ليس هناك من حاجة للمراكب البندقية أن تذهب إلى مصر لجلب التوابل ولن يتأخر الوقت بحيث لن تجد هناك من شيء وما عليها إلا أن تأتي إلى البرتغال لتأخذ هذه التـوابل وحيث سُيعـامل التجـار البنـادقة معـاملة حسنة[٧٦] . وللحصـول على مـزيـد من المعلومـات أرسلت البندقية موفداً إلى البلاط البرتغالي هو بياترو بـاسكاليجـو Pietro Pasqualigo حيث رأى هناك بأم عينه (٧ تشرين الثاني ، ١٥٠١) موفـدين من قبل بعض ملوك الهند (كانانور Cananore وكـوشن Chochin) وقد أدرك المـوفد البندقي أن ملك البرتغال ماضي في مشروعاته في الهند وأنه يتحرق شوقـاً ليتمكن من قطع طريق الهند أمام سلطان مصر وبحيث يضطر التجار البنادقـة إلى المجيء إلى البرتغال لشراء التوابل[٧٧] .

وفي تقرير لاحق (كانون الثاني ، ١٥٠٢) أفاد الموفد البندقي أن حملة فـاسكو دي غـاما الثـانية هي مـوجهة خصيصـاً ضد سلطان مصـر[٧٨] . كانت الصدمة عظيمة في البندقية من جراء توارد أخبار الحملات البرتغالية إلى الهند وقد وجدت البندقية في ذلـك تهديـداً خطيـراً لتجارتهـا الشرقيـة مصدر قـوتها وثروتها . وما كان يقلق البندقية هو السيطرة على السوق من حيث يتمون الغرب بالتوابل ، هل ستبقى هذه السوق بيدها أم سوف تنتقل إلى لشبونة ؟ وقد أدرك الحكماء في البندقية خطورة الأمر[٧٩] خاصة وأن البرتغال قد استأثرت بكميات وفيـرة من ذهب مالي (سـوفالا Sofala)، المعـروفة ببـلاد غربي السـودان ،

---

(٧٦) Heyd. W., Op. Cit., vol. II, pp. 515-516;
Sanuto. M., Diarii, vol. III, pp. 1080, 1597.

(٧٧) Heyd. W., Op. Cit., p. 517;
Sanuto. M., Op. Cit., vol. IV, p. 200

(٧٨) Sanuto. M., Ibid. p. 206.

(٧٩) Priuli. G., Diarii, p. 159;
Heyd. W., Op. Cit., p. 518.

ساعدتها على شراء كميات ضخمة من السلع الشرقية كما أن بحارتها قد اكتسبوا من رحلاتهم المتعددة خبرة عظيمة مما شجع ملك البرتغال على بناء المزيد من السفن وتحمل المزيد من التضحيات بهدف منع وصول التوابل من الهند إلى مصر . ولم تلبث نتائج ذلك أن ظهرت فيما بعد في أسواق الإسكندرية وبيروت وبدأت التوابل يعز وجودها في مصر وسوريا حتى أنه في سنة ١٥٠٢ عادت شواني البندقية من بيروت ومن الإسكندرية وعليها كميات ضئيلة من الفلفل . ونتيجة لذلك ارتفعت الأسعار حتى وصل سعر الحمل الواحد من الفلفل في البندقية إلى ١٠٠ دوكات (١٥٠١ ـ ١٥٠٢) مما اضطر كثيراً من التجار الألمان إلى التوجه إلى أسواق لشبونة أو أسواق أخرى كانت السفن البرتغالية تحمل الفلفل إليها(٨٠) .

ازاء هذا الوضع أرسلت البندقية في خريف سنة ١٥٠٢ موفداً لدى سلطان مصر هو بندتّو سانوتو Benedetto Sanuto لشرح أخطار الحملات البرتغالية إلى الهند وما تسببه من تهديد لتجارة الشرق ومن خسارة للسلطان وأن ملك البرتغال قد دعا الانجليز والشعوب المسيحية الأخرى للمجيء إلى بلاده والتزود بالتوابل وأن البندقية قد تضطر مرغمة إلى مجاراة هذا التحول العام وأنه إذا كان بالإمكان إغلاق أسواق الهند بوجه البرتغاليين وإجبارهم على العودة صفر اليدين وإذا ما تكرر هذا الأمر مرة أخرى لامتنع البرتغاليون عن العودة مرة ثالثة. وللوصول إلى هذه النتيجة ما على السلطان سوى إرسال السفراء إلى ملوك الهند والطلب إليهم باسمه أن يمتنعوا عن التعامل مع البرتغاليين من أجل مصلحتهم لأن هؤلاء الدخلاء لن يشتروا سوى التوابل في حين أن التجار المسلمين يشترون أشياء كثيرة جداً غير الفلفل من هذه البلاد(٨١). كما أن على

---

(٨٠) Heyd. W., Ibid. p. 519;
Priuli. G., Op. Cit., p. 165, 167, 174, 182, 191, 203.

(٨١) Mas Latrie, Traités, p. 262; Sanuto. M., Diarii, vol. V, pp. 92, 116.

السلطان أن يراعي البنادقة ويبيعهم التوابل بأسعار معقولة ليتمكنوا من منافسة البرتغاليين الذين يجلبون الفلفل مباشرة من الهند ودون دفع أية رسوم(٨٢) .

لم تلق أقوال المبعوث البندقي آذاناً صاغية لدى السلطان قانصو الغوري وكل ما فعله أن أمر ببناء أربعة مراكب في بولاق لنقلها إلى السويس لتكون نواة الأسطول الذي سيجري إعداده لمواجهة البرتغاليين(٨٣). غير أن ورود أنباء إلى القاهرة عن إغراق مركب كبير يخص السلطان كان في طريق عودته من ساحل الملابار إلى البحر الأحمر وعليه حمولة كبيرة من القرفة والزنجبيل والتوابل الأخرى وكثير من الحجاج الهنود إلى مكة وعرف أن فاسكو دي غاما كان وراء نهب وحرق هذا المركب قبل إغراقه ، هذه الحادثة إثارت غضب السلطان خاصة وأنه كان مستاء أيضاً لما كان يتعرض له المسلمون من اضطهاد في إسبانيا فكلّف الراهب مارو دا سان برناردينو Fra Mauro da San Bernardino رئيس دير جبل صهيون للسفر إلى البندقية وروما واسبانيا والبرتغال لوقف ما يجري في المحيط الهندي وإسبانيا وإلا سيعمد السلطان إلى قتل كافة التجار والقناصل من طائفة الفرنج المتواجدين في ديار سلطنته كما سيعمد إلى تهديم كنيسة القيامة ودير صهيون(٨٤).

وصل الراهب مورو إلى البندقية في نيسان سنة ١٥٠٤ وعرض عليها وجهة نظر السلطان طالباً إليها تزويده برسائل توصية إلى قداسة البابا وملوك أوروبا . كان جواب الجمهورية بلسان مجلس العشرة (I Dieci) جواباً سلبياً

---

(٨٢) Heyd. W., Op. Cit., p. 521.

(٨٣) أشار قنصل البندقية في دمياط دمنيكو كابللو Dominico Capello في تقرير له بتاريخ ٢٤ تشرين الثاني ، ١٥٠٣ أن الغوري قد نقل هذه المراكب مفككة قطعاً قطعاً إلى البحر الأحمر .

انظر : Sanuto. M., I Diarri, vol. V, p. 1000; Mas Latrie Traités, p. 257.

(٨٤) Thenaud. J., voyage d'outremer, p. XLVII; Superiori Di Terra Santa. Nuova Serie compilata dal P. Girolamo Golubovich. Gerusalemme 1898, p. 39.

باعتبار أن البندقية كانت لا تريد الظهور بأنها وراء مهمة مورو كما أن أي دعم لخطوات السلطان قد يعطي نتائج عكسية بالإضافة إلى أن إسبانيا والبرتغال هي دول صديقة ولا ترغب الجمهورية الدخول في مواجهة مباشرة معها(٨٥).

ولعلّ البندقية كانت تلعب لعبة مزدوجة كانت قد اعتادت عليها فهي من جهة ترغب في مساعدة السلطان حفاظاً على مصالحها ولكنها من جهة ثانية لا تريد أن تغضب إسبانيا والبرتغال ومثل هذا الأمر حدث عام ١٤٥١ و١٤٥٢ حين طلب امبراطور بيزنطة مساعدة البندقية ضد العثمانيين ولكنه لم يلق آذاناً صاغية بل على العكس عقدت البندقية إتفاقيات تجارية مع العثمانيين ضاربة عرض الحائط نداءات الأمبراطور، ولكنها أخيراً عندما قررت المساعدة كان قد فات الأوان(٨٦). كذلك عندما دخلت البندقية في حرب مع العثمانيين شجعت حسن الطويل ١٤٧٣ بمهاجمة العثمانيين من الجنوب عن طريق احتلال شمالي سوريا التابعة لسلطنة المماليك دون الاهتمام بمصالح السلطان وسلامة أراضيه(٨٧).

ونحن لا نعجب من مواقف البندقية هذه فهي لا تهمها إلا مصالحها التجارية وهي تعتبر سيدة المواقف المزدوجة Double game ولذلك كان على الموفد السلطاني مورو أن يتقدم من قداسة البابا في ربيع ١٥٠٤ ويبين له جدية

(٨٥) Thenaud. J., Op. Cit., p. XLIX; Heyd. W., Op. Cit., 522;
Sanuto. M., Diarri, vol. V. pp. 947, 948, 952.

للاطلاع على جواب الجمهورية إلى موفد السلطان.
انظر: Sanuto. M., I Diarii, vol. VI, p. 11;
Priuli, Diarii e diaristi Veneziani, p. 175.

(٨٦) Zakythinos. D., «L'attitude de Venice face au déclin et à la Chute de Constantinople», in Venezia, Centro di mediazione I, p. 61 ff;
Ashtor. E., Levant trade, p. 446.

(٨٧) Ashtor. E., Ibid., p. 448;
Secreta 25, f. 175b; Cornet. E., Le guerre de Veneti nell'Asia (1470-74), Vienna, 1856, pp. 23, 25, 30.

تهديدات السلطان . ولما كان البابا جول الثاني Jules II (١٥٠٣ - ١٥١٣) أكثر استجابة لنداءات السلطان مخافة التفريط بأرواح المسيحيين ومحافظة على الأماكن المقدسة فقد حمّل مورو إلى ملك البرتغال وملك إسبانيا رسالة يطلب فيها وقف الحملات إلى الهند[٨٨] ، ووقف اضطهاد المسلمين في إسبانيا . غير أن ملك البرتغال كتب إلى البابا يطمئنه بعدم جدية تهديدات السلطان ويطلب منه مباركته لتوحيد الصف المسيحي ليتمكن (الملك امانويل) من احتلال مكة والوصول إلى قبر الرسول[٨٩] عليه السلام .

أزاء فشل سفارة مورو وقبل إنتهائها أرسلت البندقية إلى بلاط السلطان موفداً هو السفير فرنشسكو تالدي[٩٠] Francesco Teldi (٢٤ أيار، ١٥٠٤) وحملته التعليمات التالية إلى السلطان وهي أن البرتغاليين سوف يواصلون حملاتهم إلى الهند دون أن تستطيع البندقية أن تفعل شيئاً حيال ذلك وأن التوابل التي يجلبها البرتغاليون هي أرخص بكثير من تلك المتواجدة في الإسكندرية ودمياط مما يتيح لهم تسويقها إلى إنجلترا وفرنسا وبلاد الفلاندر وإيطاليا وأن مجموعة من التجار البنادقة يرغبون بالاستجابة إلى دعوة ملك البرتغال للذهاب إلى لشبونة لشراء التوابل معفاة من الرسوم وإن البندقية لا ترغب في قطع علاقاتها التجارية مع السلطان وتأمل أن يتمكن السلطان من إعادة الأمور إلى مجراها السابق ولهذا فهي تقترح عدة وسائل لذلك ، أولها أن يعمد السلطان على استقدام كميات كبيرة من التوابل لطرحها في الأسواق

---

(٨٨) Priuli, Op. Cit., p. 179.

(٨٩) انظر رسالة أمانويل إلى البابا بتاريخ ١٢ حزيران، ١٥٠٥ في :

Goes, Chronica do Rey Emanuel, fol. 72;
Heyd. W., Op. Cit., pp. 522 - 523;
Thenaud. J., Op. Cit., p. XLIX.

(٩٠) Mas Latrie, Traités, p. 259;
Romanin, Storia di Venezia, vol. IV, p. 535.

لضمان نجاح المنافسة ضد البرتغاليين وعلى السلطان أن يرسل الموفدين إلى كانانور Cananore وكوشن Cochin لإقناع ملكيهما بعدم التعامل مع البرتغاليين وإلى كلكوتا Calcut وكمباي Cambaye من جهة أخرى لتشجيع ملكيهما على مقاومة البرتغاليين وأن على السلطان أن يرسل مزيداً من المراكب إلى جهة البحر الأحمر. لم يكمل السفير مهمته بسبب مرضه ولم تنجح سفارته ولا السفارات التي لحقته وكل ما فعلته البندقية هو إطلاع السلطان على تحركات البرتغاليين وعما إذا كان باستطاعة السلطان إتخاذ تدابير دفاعية[٩١].

كانت البندقية تعتمد في تجارتها مع مصر ليس على الفلفل والتوابل فحسب بل على كافة السلع الشرقية وكانت تسوّق هذه السلع إلى أوروبا كافة. وكانت البندقية سيدة هذه التجارة في البحر المتوسط وكان من غير المعقول أن تتنحى عن هذا الدور وتتخلى عن مكانتها للبرتغال وتصبح كغيرها من الدول التي تسعى للحصول على الفلفل بطريق غير مباشرة. أضف إلى أن ملك البرتغال لم يدع البندقية للمشاركة كدولة في مشروعاته بل دعا الوكالات والتجار البنادقة للتعامل معه. بالإضافة إلى أن البندقية كانت غير قادرة في هذه الفترة على القيام بحملات بحرية إلى الهند نظراً لبعد المسافة ونظراً لعدم رغبة البندقية بإبعاد وحداتها البحرية عن البحر المتوسط مخافة أن ينشب الخلاف مجدداً بينها وبين العثمانيين. ولذلك حافظت على علاقاتها مع سلطان مصر مخافة أن يعمد السلطان في حال تحولها إلى أسواق أخرى على التحفظ على تجارتها وقناصلها المتواجدين بكثرة في ثغور السلطنة[٩٢]. وازاء حياد البندقية وتردد السلطان تابعت البرتغال إرسال حملاتها البحرية إلى شواطىء الهند جانية الأرباح الطائلة من تجارة الفلفل، وقد عمدت إلى إشراك البيوتات التجارية الإيطالية والألمانية في الحملة الثانية

(٩١) Heyd. W., Op. Cit., p. 524;
Instructions du 21 Août 1505: Archives Venetiennes, Vol. II, p. 211.

(٩٢) Heyd. W., Op. Cit., pp. 524 - 525;
Priuli, Op. Cit., p. 177.

والرابعة والخامسة . غير أنه في الحملة السادسة عمد ملك البرتغال إمانويل إلى ابعاد التجار الأجانب واحتكر تجارة الهند احتكاراً تاماً وقرر إبقاء أسطول حربي بصورة متواصلة في الهند لحماية تجارته كما قرر تعيين نائب له هناك لرعاية شؤون التجارة ومواطىء الأقدام البرتغالية في الهند وكان أول من اضطلع بهذا المنصب فرنشيسكو دالميدا Francisco d'Almeida (١٥٠٥)[٩٣] الذي أصطحب معه اسطولاً كبيراً ومواد كافية لبناء عدة قلاع في الهند . كما قرر الملك أن يبعث بمراكبه التجارية إلى الهند مرة في السنة . وبناء لرغبة الملك أبحر في ربيع ١٥٠٦ أسطول مشترك كانت الوحدات الحربية بقيادة الفونس دالبوكرك Alphonce d'Albuquerque والمراكب التجارية بقيادة داكومبا Tristan Da Cumba ، كما سمح الملك لبعض مواطنيه والتجار الأجانب أصحاب البيوتات الفلورنسية والجنوية من الاشتراك في هذه الحملة التي كان من نتيجتها تكدس كميات كبيرة من التوابل في مستودعات لشبونة Maison de la Mina بحيث قدرت كميات التوابل الواصلة سنوياً إلى لشبونة في تلك الفترة بحدود ٢٥,٠٠٠ إلى ٣٥,٠٠٠ قنطار. وكان الفلفل يشكل حوالي ثلثا تلك الحمولات[٩٤] . وبالرغم من ذلك ليس بإمكاننا أن نعتبر بعد البرتغاليين أسياد تجارة الهند بلا منازع لأن المسلمين كانوا يتدبرون أمورهم ويحصلون أيضاً على التوابل والفلفل من أسواق ملقا Malaca المشهورة . ومن أجل الوصول إلى هذا الهدف (إحتكار تجارة الهند) عمد البرتغاليون إلى توسيع تجارتهم عن طريق إيجاد أسواق جديدة في الهند من جهة وعن طريق شل تجارة المسلمين المزدهرة هناك وذلك بضرب وإغراق المراكب التجارية الإسلامية .

ونتيجة لذلك تكاثر عدد المراكب الإسلامية التي تمّ الاعتداء عليها

---

(٩٣) Sanuto M., I Diarii, vol. VI, pp. 363, 373, 383;
Priuli, Op. Cit., pp. 199, 201;
Heyd. W., Op. Cit., p. 529.

(٩٤) Heyd. W., Op. Cit., vol. II, p. 533.

وحرقها وإغراقها بعد نهبها وقتل ركابها ، فخاف التجار المسلمون من ولوج شواطىء الملابار أو الدخول إلى مرفأ كالكوتا وأثروا التوقف في طريق العودة من ملقا بإتجاه عدن أو هرمز في شمالي جزيرة سيلان أو جزر الملديف Maldives . وبهذه الطريقة نجح المسلمون من تعديات البرتغاليين الذين ما كان بإمكانهم اعتراض كل المراكب المبحرة في عرض المحيط الهندي الواسع .

وللوصول إلى نفس النتيجة رأى الملك امانويل أنه يكفي أن يسدّ منافذ البحر الأحمر ولذلك كلف تريستان داكومبا باحتلال جزيرة سوقطرا (١٥٠٥) حيث كان المسلمون يتوقفون للتزويد بالماء . في سوقطرا أقام البرتغاليون حامية قومية عرفت باسم سان ميكال ومن هذه الجزيرة تحكموا بطريق الهند البحرية وكان بإمكانهم اعتراض أي سفينة إسلامية[٩٥] .

---

(٩٥) Heyd. W., Ibid. p. 535.

Depping. G., Histoire du Commerce, vol. II. pp. 268-269.

ذكر س . دي ساسي S. de Sacy في الجزء الرابع من :

Notices et Extraits des Manuscrits عن تاريخ مكة «Histoire de la Mecque» .

إن الشيخ قطب الدين الحنفي قد قال في مخطوطة «تاريخ مكة» عن البرتغاليين « إن هؤلاء الغرباء الملاعين قد استولوا على ثغور الهند وتعبثوا بثغور اليمن ووصلوا حتى بندر جدة وبندر السويس الذي لا يبعد سوى يومين عن القاهرة وكانوا يأخذون المراكب التي تنقل الحجيج والشواني التجارية وينهبون أموال المسلمين ويأخذونهم أسرى » .

انظر : Depping, Op. Cit., vol. II, pp. 268 - 269

الذي أضاف أن مراكب البرتغاليين كانت تجوب البحر الأحمر لمنع توابل الهند من الوصول إلى مصر ولإجبار البندقية على شرائها من لشبونة بدلاً من الإسكندرية وكانوا قد منعوا أصحاب الثغور الهندية تحت طائلة الاستعباد أو الموت ، تصدير التوابل دون موافقتهم . وقد وضعوا المسلمين تحت المراقبة الشديدة . كما ذكر ابن اياس في بدائع الزهور ، جزء ٤ ، ص ١٠٩ «لكن تزايد الضرر من الفرنج فيما بعد وترافدت مراكب الفرنج ببحر الحجاز حتى بلغوا عشرين مركباً وصار يعبثون على مراكب تجار الهند ويقطعون عليهم الطريق في الأماكن المخفية ، ويأخذون ما معهم من البضائع حتى عزّ وجود الشاشات والأزر من مصر وغيرها من البلاد » .

د ـ تعزيز جبهة الهند

أزاء هذا الوضع وبتشجيع من البندقية عمد السلطان إلى تجميع قوة بحرية في جدة بسبب تعبث الفرنج بسواحل الهند[٩٦] وقد نفق السلطان على من تعيّن من العسكر صحبة التجريدة المعينة إلى بلاد الهند فأعطى لكل مملوك عشرين ديناراً وصرف لهم جامكية أربعة أشهر معجلاً « وكان العسكر الذي خرج في هذه التجريدة ملفقاً ما بين أولاد ناس وبعض مماليك سلطانية ، الغالب فيهم مغاربة وعبيد سود رماة تراكمة وغير ذلك ، وأرسل السلطان صحبتهم جماعة كثيرة من البنائين والنجارين والفعلاء بسبب تلك الأبراج التي أنشأها السلطان في جدة وإنشاء الصور »[٩٧] .

وقد خرجت تلك التجريدة المعينة إلى بلاد الهند في السادس من جمادي الآخرة ٩١١/ الخامس من تشرين الأول ١٥٠٥ وكان باش المماليك والتركمان والعبيد حسين المشرف وباش المغاربة الخواجا نور الدين علي المسلاتي : « فلما خرجوا توجهوا إلى نحو السويس ونزلوا من هناك مراكب إلى جدة وقد جهز لهم السلطان عدة مراكب مشحونة بالزاد والسلاح وغير ذلك »[٩٨] وفور وصول الأمير حسين إلى جدة شرع ببناء الأبراج على ساحل بندر جدة ثم انتقل إلى سواكن فملكها بالأمان واحتاط على ما فيها من بهار وغيره فانشرح السلطان لهذه الأخبار[٩٩]. وفي محاولة من السلطان للحصول على العون والمساعدة العسكرية من البندقية ولكسب تأييدها في وقف تعدي البرتغاليين في المحيط الهندي، أرسل كبير التراجمة لديه الأمير تغري بردي إلى إيطاليا وقد حمله كتاباً من بطرك الإسكندرية « وفيه (ذي القعدة

---

(٩٦) ابن اياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، جزء ٤ ص ٧٦ .
(٩٧) ابن اياس ، المصدر نفسه ، ص ٨٤ .
(٩٨) ابن اياس ، المصدر نفسه ، ص ٨٥ .
(٩٩) ابن اياس، المصدر نفسه ، ص ٩٥ .

٩١١/ آذار، ١٥٠٦)، سافر تغري بردي الترجمان إلى نحو بلاد الفرنج وأخذ معه كتاب البترك ، وكان قد تزايد تعبث الفرنج بالسواحل وأخذ أموال التجار »(١٠٠).

ولم تشر المصادر صراحة إلى الهدف الغير المعلن من سفارة تغري بردي إلى البندقية إلا وهو طلب الحصول على الأسلحة منها . وبالرغم من أن تغري بردي قد اجتمع إلى دوق البندقية في خلوة سرية في الثالث من شباط سنة ١٥٠٧ إلا أن شيئاً عن موضوع طلب الأسلحة لم يرشح أبداً وكل ما أعلن أن السفير تغري بردي ليس لديه الصلاحيات الكافية للبت بموضوع استبدال الفلفل بالنحاس البندقي . حتى بنود الإتفاقية التي عقدت في الثامن عشر من محرم ٩١٣/٣١ أيار ١٥٠٧ لم تشر لا من قريب ولا بعيد عن الخطر البرتغالي ولا عن جهود البندقية في حث السلطان على درء هذا الخطر ولا عن طلب تغري بردي لأية أسلحة . غير أن الجدير بالملاحظة أن العلاقات ما بين السفير تغري بردي وسلطات البندقية قد ساءت كثيراً فيما بعد. وذكرت المصادر أن تغري بردي الترجمان قد غدا فيما بعد معادياً لمصالح البندقية ولهذا كانت الجمهورية توعز دائماً إلى تجارها وقناصلها وموفديها بوجوب أخذ الحذر من تغري بردي الذي كان يدعى ويتهم البندقية بأنها أخفقت في إرسال الأسلحة والهدايا إلى السلطان التي وعدته بها(١٠١) .

والسؤال المطروح هل ساعدت البندقية صراحة السلطان فأمدته بالأسلحة

(١٠٠) ابن اياس ، المصدر نفسه ، ص ٩١ .

(١٠١) Sanuto. M., I Diarii, vol. XII, pp. 210 - 12, 235, 237-8; Wansbrough. J., A Mamluk Ambassador to Venice in 913-1507 in B.SO. A. S., vol. XXVI, 1963; Heyd, Histoire du Commerce, vol. II, pp. 536-7.

غير أن هايد قد رفض أن تكون الجمهورية قد وعدت سلطان مصر عبر موفده الأمير تغري بردي بتزويده بالأسلحة . غير أن النجاح الكبير الذي حققته البندقية لصالحها من خلال اتفاقية ٩١٣/١٥٠٧ قد يكون نتيجة لوعود قطعتها لمبعوث السلطان.

والمدافع وسدنتها وزودته بالأخشـاب والنجارين لبنـاء المراكب ؟ الـواقع ليس هناك من دلائل مادية ملموسة سوى بعض الإتهامـات . ففي سنة ١٥٠٤ تلقى ملك البرتغال من فلورنسا أخباراً مفادها أن البندقية قد أرسلت إلى مصر مركبين محملين بـالمـدافـع لـوضعهـا تحت تصـرف السلطان لإستخـدامهـا ضـد البرتغاليين[١٠٢] . وفي سنة ١٥٠٩ وجه امانويل ملك البرتغال مجدداً إحتجاجاً إلى البندقية بسبب شحن هذه المدافع[١٠٣] . غير أن هذه الإتهامات كانت دون أساس بإعتبار أنه في سنـة ١٥٠٤ لدى ورود الإتهـامات من فلورنسـا لم يكن سلطان مصر يحلم بمحاربة البرتغاليين وبالتالي لم يكن لدية أية حاجة للمدافع كما أنه في سنة ١٥٠٩ كانت البندقية مشغولة بحربها ضد حلف كمبراي Ligue de Cambrai وبالتالي لم يكن باستطاعتها التفريط باسلحتها وقواها . كما أنـه في سنة ١٥١٠ إتهم ملك فرنسا لويس الثاني عشر البندقية بمساعدتها عسكرياً لمصر. والواقع أن كل هذه الاتهامات كـانت لا تستند إلى أيـة دلائل. وكـل ما في الأمر أنه في سنة ١٥١١ ألقى السلطان القبض على التجار البنادقة وأودعهم السجن كما أمر بالقبض على الرهبان في كنيسة القيامة بالقدس وذلك بسبب مقتل الأمير محمد قريب السلطان على يد فرسـان الأسبتاريـة في خليج اسكنـدرونة حيث كان يقطع الأخشاب من أجل بناء المراكب المخصصة لجبهة المحيط الهندي . ولم يكتف فرسان القديس يوحنا بمقتل الأمير بل إستـولوا على المـراكب التي كانت معه وعلى الأخشاب المقطوعة على الشاطىء وسحبوها كلها مع الأسرى إلى رودوس. « وفيه (جمادى الآخرة ٩١٦/ أيلول، ١٥١٠) أرسل السلطان بالقبض على الرهبان الذين بالقيامة التي بالقدس وكذلك سائـر الفرنـج الذين بالإسكندرية ودمياط وغير ذلك من السـواحل وهـذا بسبب الفرنـج الذين قتلوا

---

(١٠٢) Heyd. W., Op. Cit., vol. II, p. 536; Massari, dans l'Arch. Sto. Ital., app. 2, p. 36.

(١٠٣) Heyd. W., Op. Cit., vol. II, p. 536; Priuli, p. 204.

الأمير محمد وأخذوا مراكب السلطان »[١٠٤] .

وقد طلب السلطان عبر التراجمة من التجّار والقناصل والرهبان مكاتبة ملوك الفرنج وإبلاغ دولهم وجمهورياتهم أنه يقتضي إرجاع المراكب والأسلحة مقابل الإفراج عنهم وقد إختلط الأمر على البعض منهم وعلى بعض المؤرخين كهايد Heyd فظنوا أن السلطان يريد الحصول على مساعدة الغرب له ومدّه بالمدافع والشواني والمجاذيف التى هو بحاجة إليها لمحاربة البرتغاليين[١٠٥]. والواقع أن السلطان ما كان يبغي سوى إسترجاع مراكبه والأسلحة التي إستولى عليها « الفرسان »في معركة الجون « وفيه (رجب ٩١٦ / تشرين أول ، ١٥١٠) حضر إلى الأبواب الشريفة رهبان القيامة التي بالقدس ، وكان السلطان أرسل خلفهم بسبب الفرنج الذين قتلوا الأمير محمد بيك قريب السلطان ، ونهبوا ما في المراكب التي جهزها السلطان صحبته ، فلما وقفوا بين يدي السلطان وبخهم بالكلام على لسان تغري بردي الترجمان وقال لهم : كاتبوا ملوك الفرنج بأن يردوا ما أخذوه الفرنج من المراكب والسلاح وإن لم يردوا ذلك هدمت القيامة وأشنق الرهبان . . . . وفي عقيب ذلك قبض نائب الإسكندرية على جماعة من تجّار الفرنج الذين كانوا بثغر الإسكندرية وبعث بهم إلى السلطان وكانوا نحواً من خمسين إنساناً »[١٠٦] .

ونحن لا ننفي أن السلطان لم يطلب مساعدة البندقية ومدّه بالأسلحة والمدافع الحديثة غير أن البندقية لم تستجب له على الأقل مباشرة بل كانت حذرة في تعاملها العسكري مع سلطنة المماليك مخافة تألب الكنيسة والدول

---

(١٠٤) ابن اياس، بدائع الزهور، جزء ٤، ص ١٩٢ ؛
Heyd. W., Op. Cit., vol. II, p. 537.

(١٠٥) Heyd. W., Ibid., p. 537.

(١٠٦) ابن اياس، المصدر السابق ، ص ١٩٥ .

الأوروبية عليها . وكل ما في الأمـر أن البندقيـة حثت السلطان على إستخدام نفوذه لدى ملوك وأمراء الهند بهدف رفض التعامل مع البرتغاليين لإبعادهم واعداً إياهم بالـدعم والحمايـة عن طريق إرسـال الأسطول . ولهـذا نجد تحـولاً في سياسة سلطان مصر وإهتماماً زائداً في جبهة المحيط الهندي وقد تمظهـر هذا الإهتمام بتبادل الموفدين والمراسلات بين سلطان مصر وملوك الهند من جهـة وتجهيز الأسطول الإسلامي لدرء خطر البرتغاليين في المحيط الهندي والبحـر الأحمر من جهة ثانية .

ففي شهر صفر سنة ٩١٦ / أيار ، ١٥١٠ حضر موفد الملك محمود شاه صـاحب كنبايـة وآخرون من قبـل ملوك الهند وعلى أيـديهم كتابـات للسلطان تتضمن سرعة تجهيز تجريـدة إلى جهات الهنـد بسبب تعبث البرتغـاليين هناك الـذين تزايـد أمرهم وطمعـوا في أخـذ البـلاد من الأميـر حسين الـذي أرسله السلطان[١٠٧] . وفي شهر ربيع أول ، ٩١٦ / حـزيران ١٥١٠ طلب السلطان من ملوك الهند أن تصمد وتقف إلى جانبه في مقاتلة البرتغـاليين « وفيه خـرج الطواشي بشير رأس السقاة وقد عينه السلطان بأن يتوجه إلى بلاد الهند . وقـد كاتب السلطان جماعة من ملوك الهند بأن يكون مـع السلطان عونـة على قتال الفرنج الذين صاروا يتعبثون بسواحـل بلاد الهنـد وقد كثـر منهم الفساد هنـاك وبلغت عدة المراكب التي يعبثون في السواحل نحواً من خمسين مركباً والأمـر لله في ذلك »[١٠٨] .

أما ماذا عن أخبار حملة الأمير حسين ، الواقع أن هذه الحملة قد حققت في بدايتها نجـاحاً ملمـوساً إذ تمكن الأميـر حسين من مفاجئـة بعض وحدات الأسطول البرتغالي سنة ١٥٠٨ في منطقة شـول القريبـة من سواحـل الملابـار وأغـرقها كلهـا وتمكن من قتل قـائـدهـا الأميـرال لـورانـزو دالميدا Lorenzo

(١٠٧) ابن اياس ، المصدر السابق، ص ١٨٢ .

(١٠٨) ابن اياس، المصدر نفسه ، ص ١٨٥ .

d'Almeida » وفيه (شعبان ٩١٤ / كانون الثاني ، ١٥٠٨) جاءت الأخبار بأن العسكر الذي توجه إلى نحو الهند صحبة الأمير حسين قد إنتصر على الفرنج الذين كانوا يتعبثون في البحر وغنم منهم العسكر غنائم كثيرة ، فسّر السلطان لهذا الخبر وأمر بدق الكوسات فدقت ثلاثة أيام متوالية ، ثم أن حسين أرسل يطلب عسكراً ثانياً حتى يتقوى على من بقي من الفرنج »[١٠٩] . لم تكن هذه المعركة فاصلة باعتبار أن نائب ملك البرتغال في الهند شخصياً فرنشسكو دالميدا Francesco d'Almeida وهو والد الأميرال لورنزو القتيل أعد العدة للإنتقام من الأسطول المملوكي فهاجمه سنة ١٥٠٩ في خليج ديو Diu وكانت معركة حاسمة تمكن فيها البرتغاليون من تدمير وأسر معظم المراكب الإسلامية . وعلى أثر هذه الهزيمة الشنعاء إنسحب الأمير حسين ومن معه إلى جدة[١١٠] .

ونتيجة لذلك تمكن فيما بعد البرتغاليون من إحتلال كمران ومحاصرة سواكن وتهديد جدة « وفي يوم السبت ثاني عشرينه (ربيع أول ٩١٩ / أيار ، ١٥١٣) حضر هجّان من مكة في مسافة تسعة أيام وأخبر بأن الفرنج قد ملكوا كمران وإنهم يحاصروا مدينة سواكن ، وإن الشريف بركات أمير مكة خرج إلى جدة هو وباش المجاورين وجماعة من المماليك المجاورين الذين هناك بمكة ، وأقاموا بجدة خوفاً على البندر من الفرنج أن يهجموا عليه فأرسلوا يعلمون السلطان بذلك ، فلمّا جاء هذا الخبر تنكد له السلطان إلى الغاية[١١١] » .

هذه الوقائع لم تثن السلطان عن عزمه في بناء أسطول جديد في السويس

---

(١٠٩) ابن اياس ، المصدر نفسه ، ص ١٤٢ .

(١١٠) ماهر. س، البحرية في مصر الإسلامية. القاهرة، ١٩٦٧، ص ١٣٢ ؛

Heyd. W., Op. Cit., vol. II, p. 536.

(١١١) ابن اياس ، المصدر السابق ، جزء ٤، ص ٣٠٧ .

لمقاومة البرتغاليين في جبهة البحر الأحمر والمحيط الهندي خاصة بعد ورود المكاتبات بهذا الصدد من ملوك الهند الذين طلبوا سرعة تجهيز تجريدة إلى بلاد الهند بسبب تعبث البرتغاليين هناك . « وقد تزايد أمرهم وطمعوا في أخذ البلاد من حين كسروا حسين الذي أرسله السلطان باش التجريدة التي أرسلها إلى هناك[١١٢] » . وخاصة بعد عودة الأمير تغري بردي الترجمان من سفارته إلى البندقية (جمادى الأول ٩١٣ / أيلول ، ١٥٠٧) دون الحصول فيها على أية مساعدة عسكرية مباشرة أو غير مباشرة[١١٣] ، لذلك أمر السلطان بإرسال تجريدة إلى خليج إسكندرونة (الجون) لجلب الأخشاب من هناك وقد كلّف القاضي علاي الدين ناظر الخاص بتجهيز المراكب في الإسكندرية ورشيد . كما عين الأمير محمد قريبه قائداً لهذه الحملة « وفي يوم الخميس تاسع عشره (ذي الحجة ٩١٣ / نيسان ، ١٥٠٨) توجه ناظر الخاص علاي الدين إلى نحو الإسكندرية ورشيد بسبب تجهيز المراكب التي عينها السلطان للتجريدة صحبة محمد بيك[١١٤] » .

كما أمر السلطان بإرسال سفارة صحبة موفده الأمير علان إلى إسطمبول لدى السلطان العثماني لطلب المساعدة والحصول على التجهيزات الحربية المتعلقة ببناء المراكب وتسجيلها : « وفيه سافر ناظر الخاص والأمير محمد بيك قريب السلطان إلى ثغر الإسكندرية ، بسبب تجهيز المراكب التي يتوجه فيها الأمير علّان إلى بلاد ابن عثمان[١١٥] » .

أما ماذا عن أخبار تجريدة الأمير محمد إلى إسكندرونة ، الواقع أن الأمير محمد قد نجح في الوصول إلى الجون وقطع الأخشاب منه وهناك إلتقى

---

(١١٢) ابن اياس ، المصدر نفسه ، ص ١٨٢ .
(١١٣) ابن اياس ، المصدر نفسه ، ص ١٢٠ .
(١١٤) ابن اياس ، المصدر نفسه ، ص ١٣٠ .
(١١٥) ابن اياس ، المصدر نفسه ، ص ١٥٦ .

مراكب لفرسان الاسبتارية فتقاتل معهم وإنتصر عليهم وأسـر نحواً من خمسين نفراً وغنم ما كـان معهم في المراكب وهـو أشياء كثيـرة تقدر بنحـو مائـة ألف دينار[116] .

وفي الرابع عشر من ربيع الأول ٩١٦ / حزيران ، ١٥١٠ ، خرج الأمير محمد بيك إلى الجون مرة ثانية بسبب قطع الأخشاب لأجـل عمارة المـراكب المعينـة إلى تجريـدة الهنـد ألا أن الحظ لم يحـالفـه إذ انقض عليـة فـرسـان الاسبتارية وقتلوه وإستولوا على مراكبه وسحبوها مـع الأخشاب المقـطوعة إلى رودوس كما مر معنا[117]. وقد تأثر السلطان كثيـراً لهذه الحـادثة وصب خـام غضبه على القناصل والتجار الفرنج وخاصة البنادقة المقيمين في ديـار سلطنته فأودعهم السجون وتحفظ على أموالهم وممتلكاتهم وقـد نمي إلى السلطان أن أربعة من شواني البندقية قـد إشتركت إلى جـانب الفرسـان في مجزرة خليـج إسكندرونة[118] .

وكانت هذه الحادثة من أهم الأسبـاب في اعتقال كبيـر التراجمـة الأمير تغري بردي وإيداعه السجن فهو كسفير السلطان إلى البندقية قد اعتبر والبنادقة مسؤولاً عن موت الأمير محمد بالإضافة إلى اتهامه بمكاتبته ملوك الفـرنج عن أحوال السلطنة وأن السلطان ليس له همة إلى إرسـال تجريـدة وإن السواحـل خالية ليس بها مانع فغضب عليه السلطان ووضعه في الترسيم[119]. وقد بلغ غضب السلطان ذروتـه حين قبض أميـر حلب على مـراسـلات مـا بين الشـاه

(١١٦) ابن اياس، بدائع الزهور، جزء ٤ ، ص ١٦٣ .

(١١٧) ابن اياس، المصدر نفسه، جزء ٤ ، ص ١٨٥ ؛

Heyd. W., Commerce du Levant, vol. II, p. 538 ;

Priuli , p. 212 ;

Sanuto. M., Diarii, vol. XI. pp. 570, 639, 645.

(١١٨) Heyd. W., Op. Cit., p. 538.

(١١٩) ابن اياس ، المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ٢٠٩ .

إسماعيل الصفوي وجمهورية البندقية وقد اعتبر السلطان هذه المراسلات بمثابة مؤامرة ضده وغضب على قنصل البندقيـة في دمشق بياتـرو زينو Pietro Zeno لعلمه بهذا الأمـر ولإحـجـامـه عن إطلاع السلطان عليـه(١٢٠). فأمـر السلطان باعتقاله هو وعشرة من تجار دمشق وأربعـة من تجار طـرابلس وثلاثـة من تجار حلب بالإضافة إلى توماسو كونتاريني Tomasso Contarini قنصل البندقية في الإسكنـدرية وبعض التجـار البنادقـة الآخرين(١٢١). «وفي يـوم السبت ثـالث عشرينه (ذو القعدة ٩١٦/ شباط ١٥١١) نـزل السلطان إلى الميدان وعـرضوا عليه قناصلة الفرنج، منهم القنصـل الذي بثغـر الإسكندريـة والقنصل الـذي بـدمشق، والقنصل الـذي بطرابلس، فلمـا وقفوا بين يـديه وبخهم بـالكـلام ووعدهم بالشنق، وسبب ذلك أن نائب البيرة (قبض) على دواسيس من عند إسماعيل الصوفي وعلى أيديهم مكاتبات إلى القناصل بأن يكاتبوا ملوك الفرنج بأن يأتوا في مراكب من البحر، وأن يزحف هو ومن معه من العساكر من البـر على سلطان مصر وعلى ابن عثمان ملك الروم، فانكشف رخهم وافتضحوا في هذه الواقعة ، فرسم السلطان بتسليمهم إلى ناظر الخاص، ليقرر عن حقيقة ذلك، وإن لم يقروا يسلمهم إلى الوالي فأنفضوا على ذلك»(١٢٢) .

أزاء هذا الوضع اضطرت البندقية إلى إرسـال سفارة جـديدة إلى مصـر لإعادة الأمور إلى مجاريها والفـوز برضى السلطان خـاصة بعـدما شعـرت بأن السفير فيليب دي باريتز Philippe de Paretes موفد الكتلان وجنوى وفرنسا كان يـوغر صـدر السلطان لإبعاد البنـادقة عن أسـواق مصـر وسـوريـا واستبـدالهم بالفرنسيين. لذلك قررت البندقية إرسال السفير دومنيـكو ترفيزان Domenico

(١٢٠) Heyd. W., Op. Cit., p. 539;
Sanuto. M., Diarii, vol. XI, pp. 470, 480, 646, 825, 827.
vol. Xii, pp. 207, 211, 234.

(١٢١) Sanuto. M., Ibid. vol. XI, pp. 645, 648, 681, 696, 825, 827.
vol. XII, pp. 207, 211, 234.

(١٢٢) ابـن اياس، المصدر السابق، جزء ٤، ص ٢٠٥ .

Trevisan لدى سلطان مصر لترطيب الأجواء والإفراج عن التجار والقناصل البنادقة المعتقلين كما أرفقت هذه البادرة بإرسال المزيد من المراكب والشواني التجارية إلى الإسكندرية وبيروت لتبدو البندقية في نظر السلطان إنها ما زالت نشطة ومزدهرة من جهة ولتمكن السلطان من إحراز المزيد من الربح والفائدة من جهة ثانية ، وكانت البندقية محقة في توقعاتها إذ بادر السلطان فوراً وقبل الإنتهاء من حسم النزاع إلى فتح بنادر وثغور السلطنة أمام المراكب البندقية(١٢٣). ولسنا هنا في مجال ذكر تفاصيل سفارة موفد البندقية الذي تقدم من السلطان قانصو الغوري (صفر ٩١٨/ أيار، ١٥١٢)(١٢٤) وتمكن بعد عدة مقابلات من إطلاق الرهائن وعقد إتفاقية جديدة مع السلطان وما يهمنا أن نشدد عليه ونبرزه التعليمات التي أعطيت للسفير والتي اعدها مجلس العشرة البندقي Conseil des Dix ومجلس البرغادي Pregadi وهي مؤرخة بتاريخ ٣٠ و٣١ كانون الأول ، ١٥١١(١٢٥). وقد عكفت اللجنة المكلفة لكتابة هذه التعليمات على تحضير الأجوبة المناسبة في حال طلب السلطان الحصول من البندقية على مراكب ومدافع ومعدات حربية وقد أوصت اللجنة بأن الجمهورية ليس بإمكانها الإستجابة إلى طلب السلطان وتزويده بالأعتدة الحربية لأن ذلك سوف يضعها في موقف حرج أزاء الدول المسيحية الأخرى والكنيسة مما يؤدي إلى عزلها ووحدتها وهي تنصح السلطان بالتوجه إلى اسطمبول كما تنصحه بالحصول على الأخشاب لبناء السفن من خليج اسكندرونة Lajazzo (١٢٦) .

---

(١٢٣) Heyd. W., Op. Cit., pp. 540 - 541 ;
Sanuto. M., Diarii, vol. XII, pp. 68, 77, 163, 232, 245, 257.
vol. XIII, pp. 346, 355, 364.

(١٢٤) ابن اياس، المصدر السابق، ص ٢٥٩ .

(١٢٥) Sanuto. M., Ibid., vol. XIII, p. 359, 362, 364 ;
Priuli, p, p. 245;
Mas Latrie, Traités, pp. 271-273; Thenaud, voyage d'outremer, pp. 237-248.

(١٢٦) = Heyd. W., Op. Cit., vol. II, p. 538.

طبعا لم ينتظر السلطان الغوري وصول السفير ترفيزان ليعمل بنصائحه بل عمد كما رأينا منذ ١٥٠٧ إلى قطع الأخشاب من « الجون » لبناء الأسطول كما أرسل الموفدين ومنهم الأمير علاّن إلى بلاد ابن عثمان لطلب وشراء مواد حربية لتجهيز الأسطول(١٢٧) . وقد وعد السلطان العثماني بتقديم المساعدة هبة ودون مقابل « وفيه (رجب ٩١٦/ تشرين الأول ، ١٥١٠) حضر يونس العادلي وكان السلطان أرسله إلى بلاد ابن عثمان ليشتري له أخشاباً وحديداً وباروداً ، فلما بلغ ابن عثمان ذلك رد المال الذي كان مع يونس العادلي وقال : أنا أجهز من عندي زردخاناه للسلطان ، فحضرت فيما بعد »(١٢٨) وبالفعل وصلت في شهر شوال ٩١٦/ كانون الثاني ، ١٥١١، عدة مراكب إلى بولاق قادمة من اسطمبول محملة بالأسلحة والأعتدة الحربية، «وفيه وصلت عدة مراكب من عند ابن عثمان ملك الروم فيها زردخاناه للسلطان ، فوصلت إلى بولاق عند الرصيف وشرعوا يحولون ما فيها إلى القلعة ، فكان من جملة ذلك مكاحل سبقيات العدة ثلاثمائة ، ونشاب ثلاثين ألف سهم ، وبارود مطيب أربعون قنطاراً ، ومقاذيف خشب العدة ألفي مقذاف، وغير ذلك من نحاس وحديد وعجل وحبال وسلب ومراسي حديد وغير ذلك مما تحتاج إليه المراكب ، فشكره السلطان على ذلك»(١٢٩). ومرة ثانية وبناء على طلب قانصو الغوري أرسل السلطان العثماني مدافع نحاسية وأخشاباً وحبالاً إلى مصر ودون مقابل : « وفيه (رمضان ٩١٨/ كانون الأول ، ١٥١٢) حضر إلى الأبواب الشريفة الرئيس حامد المغربي وكان السلطان أرسله إلى بلاد ابن عثمان ليشتري أخشاب وحبال ومكاحل نحاس ، فلما بلغ ابن عثمان مجيئه أكرمه وأرسل

= Sanuto. M., Diarii, vol. XIII, p. 362;
Priuli, p. 225.

(١٢٧) ابن اياس ، المصدر السابق ، ص ١٥٦ .
(١٢٨) ابن اياس، المصدر السابق ، ص ١٩٦ .
(١٢٩) ابن اياس ، المصدر نفسه ، ص ٢٠٠ .

صحبته إلى السلطان عدة مكاحل نحاس وحديد وأخشاب وحبال ، وغير ذلك أشياء كثيرة في مراكب موسوقة »[١٣٠]. بالإضافة إلى ذلك قرر السلطان الغوري توسيع استخدام الأسلحة النارية لاستخدامها بشكل رئيسي على جبهة البحر الأحمر والمحيط الهندي وكانت خطته تستند إلى نقطتين :

أولاً : زيادة عدد مسابك المدافع بكثرة .

ثانياً : إنشاء وحدات عسكرية مسلحة بالبنادق .

هـ ـ سبك المدافع في عهد السلطان الغوري

شرع السلطان الغوري بسبك المدافع بكميات كبيرة وعلى نطاق لم تعرف السلطنة له مثيلاً، وأقام قرب الميدان مسبكاً للمدافع أنتج عدداً كبيراً من قطع المدفعية خلال وقت قصير . وعند إنتاج كل مجموعة من المدافع في المسبك كان يجري نقلها إلى خلف القلعة لتجربتها ، ففي المرة الأولى جربوا قدامة مكاحل نحاسية : « وفيه (رجب ٩١٣/ كانون الأول، ١٥٠٧) نزل السلطان إلى خلف القلعة عند قبة الهوى وجربوا قدامه مكاحل نحاسية كان سبكها ، فأقام هناك ساعة يسيرة ثم عاد الى القلعة »[١٣١]. وفي مرة ثانية نقلت المدافع المسبوكة إلى تربة العادل لتجربتها والوقوف على صلابتها « وفي يوم الأربعاء سادسه (جمادي الآخرة ٩١٦/ أيلول، ١٥١٠) إنتهى العمل من مكاحل سبكها السلطان فرسم بنقلها إلى نحو تربة العادل التي بالريدانية فسحبوها على العجل وكانوا نحواً من خمسة عشر مكحلة فقاسوا في نقلها ما لا خير فيه »[١٣٢]. وكان السلطان يشرف شخصياً على جميع هذه التجارب التي لم تكن ناجحة في مراحلها الأولى: « وفي يوم الأربعاء ثالث عشرة (جمادي الآخرة ٩١٦/ أيلول، ١٥١٠) نزل السلطان إلى نحو تربة العادل التي

---

(١٣٠) ابن اياس ، المصدر نفسه ، ص ٢٨٥ .

(١٣١) ابن اياس ، المصدر نفسه ، ص ١٢٣ .

(١٣٢) ابن اياس ، المصدر نفسه ، ص ١٩١ .

بالريدانية وجربوا قدامه تلك المكاحل التي سبكها كما تقدم فلما أطلقوا فيهم البارود تفرقعوا أجمعين وبقي نحاسهم طاير مع الهوى ولم تصح منه واحدة ، وكانوا نحوا من خمسين مكحلة ، فتزايد نكد السلطان في ذلك اليوم إلى الغاية ورجع إلى القلعة سريعاً ، وكان عولّ أن يمدّ هناك ، اسمطة للأمراء وينشرح في ذلك اليوم فلم يتم ذلك »[١٣٣] .

واستمر السلطان في سبك وتجربة المدافع الى أن نجح الاختبار « وفي يوم الأحد عشرينه (جمادي الآخرة ٩١٧/ أيلول، ١٥١١) نزل السلطان وتوجه نحو مطعم السلطاني، فجربوا هناك عدة مكاحل ، فصح منها بعض شيء ثم عاد إلى القلعة »[١٣٤] . وبعد نجاح التجربة عمد السلطان إلى زيادة الإنتاج فسبك نحواً من أربعين مكحلة من مختلف الأحجام ما بين كبيرة وصغيرة من نحاس وحديد :

« وفي يوم تاريخه (ربيع أول ٩١٨/ أيار ، ١٥١٢) رسم السلطان بنقل المكاحل التي سبكها في المسبك الذي بجوار الميدان فأمر بأن يتوجهوا بها إلى نحو تربة العادل حتى يجربها هناك ، فوضعوهم على عجل وسحبتهم الأبقار فنزلوا بهم من الصليبة، فرجت لهم الأسواق وصاروا يتصلبون بين الدكاكين فما خصلوا إلا بعد جهد كبير ، فلما وصلوا إلى بيت الأمير تاني بيك قرا الذي عند حمام الفارقاني فانخسف بإحداهم سراب هناك ، فوقعت تلك المكحلة الكبيرة في السراب فأعيي الناس طلوعها ، وأقامت على ذلك إلى قريب المغرب وهي على حالها وقيل أن السلطان سبك نحواً من أربعين مكحلة ما بين كبار وصغار من نحاس وحديد ، فكان منهم أربعة كبار فقيل وزن كل واحدة منهم ستماية قنطار شامي ، فكان طول كل واحدة نحواً من عشرة أذرع ، فحصل في ذلك اليوم غاية المشقة بسبب ذلك ، وكان صحبة المكاحل الأمير

---

(١٣٣) ابن اياس ، المصدر نفسه ، ص ١٩٢ .

(١٣٤) ابن اياس ، المصدر نفسه ، ص ٢٣٨ .

مغلباي الشريفي الزردكاش فما قاسي في ذلك اليوم خيراً من التعب الزائد والمشقة »[١٣٥] .

وفي التجربة التالية نجح الاختبار وصحت المدافع كلها باستثناء مدفع واحد أو اثنين فأنشرح صدر السلطان : « وفي ربيع الآخر في يوم الأحد سادسه (ربيع الآخر ٩١٨/ تموز، ١٥١٢) نزل السلطان وتوجه إلى نحو تربة العادل التي بالريدانية ، وجلس هناك ونصب له سحابة واجتمع حوله الأمراء على المصطبة وحضر الجم الغفير من العسكر ومن الناس المتفرجين ، ثم جربوا قدامه مكاحل كبار وصغار التي كان سبكها بالميدان فكان عدتهم سبع وخمسين مكحلة ، فلم يخطىء منهم سوى واحدة وقيل إثنان ، والذي صح من المكاحل منهم من عدّى من حجره إلى قريب بركة الحاج ، فأنشرح في ذلك اليوم إلى الغاية »[١٣٦] .

وتتابعت تجربة المدافع بإشراف السلطان في تربة العادل وكان عددها أربعة وسبعين مدفعاً « وفي يوم الخميس سابعه (ربيع الآخر ٩٢٠/ حزيران، ١٥١٤) نزل السلطان وتوجه إلى تربة العادل التي بالريدانية وجلس هناك على المصطبة ونصب له سحابة ثم ضربوا قدامه مكاحل نحاس وحديد فكان عدتهم نحو أربع وسبعين مكحلة فصح منهم شيء وتفرقع شيء »[١٣٧] .

وفي جميع هذه التجارب المتواصلة والمتعددة لم يذكر ابن أياس وكأنه تعمد ذلك ، عدد المدافع التي كانت تخضع للاختبار في كل مرة . لكنه خالف هذه القاعدة في أربع مرات فقط . فقد ذكر كما مر معنا أنه تم اختبار خمسة عشر مدفعاً في إحدى المرات وخمسة وأربعين مدفعاً في مرة ثانية وسبعة وخمسين مدفعاً في مرة ثالثة وأربع وسبعين مدفعاً في مناسبة رابعة .

---

(١٣٥) ابن اياس ، المصدر نفسه ، ص ٢٦٠ .
(١٣٦) ابن اياس ، المصدر نفسه ، ص ٢٦٤ ، ٢٦٥ .
(١٣٧) ابن اياس ، المصدر نفسه ، ص ٣٧٤ .

إن استعراضنا لمراحل تجارب المدفعية في سلطنة المماليك يبـرز عدة نقاط أهمها تأخر المماليك في مجال الأسلحة النارية وخاصة المدفعية بالنسبة لأوروبا والعثمانيين ولذلك جاءت المدافع التي سبكها وجـربها المماليك في أحيان كثيرة غير متقنة ولا تصلح للاستعمال وهذا يعود إلى قلة خبرة المماليك في مجال صنع هذه الأسلحة واستخدامها . والملفت للنظر أن المماليك قد اعتمـدوا على أنفسهم في هذا الميـدان ، فلا الغـرب ولا البندقيـة خاصـة قد أمدتهم بأي نوع من الأسلحة خاصة المدافع ولا حتى المعونة التقنية عن طريق إرسال الخبراء والتقنيين للمساهمة على الأقل في سبك المدافع سبكاً صحيحاً وتجربتها . ولو فعلت البندقية ذلك لما عانى المماليك من مشاكل عدة عائـدة إلى قلة خبرتهم في مجال صنع واستعمال المدافع ، والواضح أن البندقية كانت ما تزال تتقيد بقرارات البابوية التي تحظر إرسال الأسلحة والمواد الاستراتيجية إلى سلطنـة المماليـك . وإذا استثنينا مـا قدمـه السلطان العثمـاني من هبـات لتسليـح الأسطول المصـري بتاريـخ كانـون الثاني، ١٥١١، وبتـاريخ كـانون الأول ، ١٥١٢ ، والمكحلة النحـاسية الكبيـرة التي أرسلهـا صـاحب جـربـة بـالمغرب بمنـاسبة انتصـاره على الفـرنـج في شهـر صفـر سنـة ٩١٧/ أيـار، ١٥١١[١٣٨]، لـوجدنـا أن اعتماد المـماليك على أنفسهم كـان تقريبـاً اعتماداً كلياً .

وبـالإضافـة الى المدافـع فقد اهتم السلطان بتـأمين البارود أيضـاً وقـد سنحت له هذه الفرصة عندما أخبره شخص أنه وجد مادة البـارود بالقـرب من الكـرك فكافـأه على ذلك وأعـطاه مبلغ عشـرة دنـانيـر : « وفيـه (ذي القعـدة ٩١٦/شباط، ١٥١١) جاء إلى السلطان شخص شريف وأخبره أنه وجد معدن البـارود في بلد خراب بـالقرب من الكـرك ، وترابهـا كـله من ذلـك البارود فطبخوه فوجدوه بارودأ جيداً ، ففرح السلطان بذلـك وأنعم على ذلك الـرجل

(١٣٨) ابن اياس ، المصدر نفسه ، ص ٢١٨ .

الذي أحضره بعشرة دنانير وأرسل يحضر منه أشياء كثيرة »[١٣٩] .

ولما كان المماليك قليلي الخبرة في التعامل مع مادة البارود فقد أدى ذلك إلى احتراق سقف الزردخاناه ومقتل ثلاثة من الصنّاع : « ومن الحوادث (ربيع الآخر ٩١٩/ حزيران، ١٥١٣) إن جماعة من الصنّاع دخلوا إلى الزردخاناه ليصنعوا البارود ، فصعد منه الدخان فأحترق سقف الزردخاناه وعملت فيه النار ، فأضطربت القلعة لذلك ، وكان السلطان في شباك الأشرفية فقام واختفى من عظم الدخان، فاحترق من الصنّاع ثلاثة أنفار حتى ذاب لحمهم عن عظمهم من النار فنزلوا بهم إلى بيوتهم فقاموا ثلاثة أيام وماتوا الثلاثة قاطبة ، فتفاءلوا الناس بأن حرق الزردخاناه فأل على السلطان »[١٤٠] .

و ـ أحداث وحدات حملة البنادق

أما إنشاء وحدات عسكرية مسلحة بالبنادق فلم يكن بالأمر الجديد في سلطنة المماليك ، فالبندقية أو السلاح الناري اليدوي ، فقد استخدمت لأول مرة خلال ولاية الأشرف قايتباي في شهر صفر ٨٩٥/كانون الثاني، ١٤٩٠، عندما عرض السلطان فرقة من أولاد الناس مسلحة بالبنادق وطلب منهم الرماية بحضوره فأعطوا نتيجة حسنة[١٤١] .

وتعبير « أولاد الناس » كان يتردد غالباً لدى الحديث عن الأسلحة النارية في جيش المماليك فمن هم « أولاد الناس » ؟

كان أولاد الناس أبناء الأمراء المماليك وقد ولدوا أحراراً ومسلمين في سلطنة المماليك وحملوا أسماء عربية . ولهذا السبب لم يكونوا يقبلون في طبقة المماليك العليا التي كانت تتألف من رجال ولدوا كفاراً وجلبوا إلى سلطنة

---

(١٣٩) ابن اياس ، المصدر نفسه ، ص ٢٠٤ .

(١٤٠) ابن اياس ، المصدر نفسه ، ص ٣١٤ .

(١٤١) ابن اياس ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٦٣ .

المماليك كعبيد من بلدانهم الأصلية . وكان جميع هؤلاء تقريباً يحملون أسماء تركية أو أخرى غير عربية . وقد اعتنق الإسلام جميع هؤلاء المماليك وكانوا يُعتقون عند تدريبهم في المدارس العسكرية . أما « أولاد الناس » المسلمون الأحرار بالمولد، فقد كانوا ينضمّون إلى وحدة خاصة تعرف باسم أجناد الحلقة . في هذه الوحدة التي كانت مهمة في بداية حكم المماليك كان « أولاد الناس » يشكلون النخبة ، لكن وحدة أجناد الحلقة إنحدرت تدريجياً نحو الانحطاط وأصبحت مع مرور الزمن ، ضئيلة الرواتب ، وغير مزودة بالخيول وسيئة التدريب .

وقبل نهاية حكم المماليك بسنوات توقف إرسال هذه الوحدات بمهمات وتدريجياً أخذ الخط الفاصل بين أفراد أجناد الحلقة وبين « أولاد الناس » بالزوال حتى بطّل في النهاية استخدام تعبير أجناد الحلقة وأصبحت كلمة « أولاد الناس » تشمل جنباً إلى جنب أولاد الأمراء المماليك وتجار القاهرة والحرفيين وجميع أنواع حديثي النعمة الذين حاولوا شق طريقهم عبر تلك الوحدة بهدف تحسين إنتمائهم الاجتماعي . ورغم كونهم ظلّوا يعرفون بالأجناد أي الجنود إلا أنهم كانوا فقراء في الواقع .

وهكذا يتضح أن وحدة حملة البنادق المؤلفة من أبناء الناس كانت ثانوية من حيث الأهمية ، فالنفقة التي كان يتقاضاها المقاتل من أبناء الناس كانت أقل من ثلث المبلغ الذي يتقاضاها المملوك عادة وهو مبلغ مئة دينار . أما الخيول فكانت ممنوعة ، وكان يستعاض عن ذلك بالسماح لكل اثنين منهم بالركوب في إحدى العربات التي تجرها الثيران ، وهذا ما كان يشكل بالفعل مشهداً يحط من الشأن بالمقارنة مع المملوك الذي بالإضافة إلى حصانه كان يعطى جملاً واحداً على الأقل لحمل أمتعته .

من هنا نستخلص أن أوضاع أولاد الناس لا سيما حملة البنادقة منهم كانت مما لا شك فيه أوضاعاً دنيا .

غير أنه في السنوات الأخيرة فقط من عهد سلطنة المماليك (١٥١٠ ـ ١٥١٦) وتحت ضغط ظروف حرجة أملتها الحرب ضد البرتغاليين في البحر الأحمر والمحيط الهندي أمر السلطان الغوري بتسليم السلاح الجديد ثانية إلى أولاد الناس ووحدات مشابهة منها الطبقة الخامسة وفي إحدى الحالات لبعض المماليك أيضاً . وفي مطلق الأحوال كان أولاد الناس يعاملون دون معاملة المماليك ، إن لجهة المرتبة الاجتماعية أو النفقة أو الجامكية . حتى إذا مرض أحدهم ولم يعد بإمكانه السفر إلى الهند كان السلطان يسجنه حتى يعيد النفقة : « وربما رسم على بعض أولاد الناس حتى يعيد الخمسين أشرفياً التي أخذها نفقة وقال لهم : الذي ما يقدر على السفر وهو ضعيف يعيد النفقة ولا يسافر »[١٤٢] .

ولقد ارتبط معظم « أولاد الناس » بوحدة جديدة مسلحة بالبنادقة أنشأها الغوري خصيصاً بسبب الحرب مع البرتغاليين في البحر الأحمر والمحيط الهندي ودعيت الطبقة الخامسة وأرسلت خصيصاً لذلك إلى السويس فما هي هذه الطبقة الخامسة ؟

ز ـ الطبقة الخامسة :

خلال القسم الأكبر من السنوات السبع والعشرين لاستخدام البندقية في سلطنة المماليك لم يكن لدى المماليك فرقة خاصة تحمل اسماً مميزاً ، ومشتقاً من هذا السلاح وفي أواخر سنة ٩١٦ هـ/ ١٥١٠ م أي بعد دخول الأسلحة النارية بعشرين سنة تقريباً أنشأت وحدة من هذه النوع وكان وجودها غير ثابت. وفي إحدى المناسبات حلّت هذه الوحدة بكاملها؛ وقد أعيد إنشاؤها في موعد لاحق بسبب الضغط الذي تسببه الحرب الدائرة على الجبهة البرتغالية حيث تميز القتال الدائر على تلك الجبهة بالاستعمال المكثف للأسلحة النارية على اختلاف أنواعها . وكانت هذه الوحدة تعرف باسم « الطبقة الخامسة »، واسمها

(١٤٢) ابن اياس ، المصدر نفسه ، جزء ٤ ، ص ٤٦٠ .

بحد ذاته يشير إلى درجتها الحقيقية في هرمية المماليك العسكرية وهذه الدرجة تستوجب قليلاً من التوضيح .

كان كل مملوك يستمر رسمياً بالانتساب ، بعد تدريبه الكامل وتأهيله لرتبة جندي ، إلى الطبقة (الثكنة) التي تلقى فيها تدريب التجنيد ، وكان المملوك يحافظ على العلاقة بطبقته القديمة بطرق مختلفة ، منها الانتظام في صفوف قبض الرواتب . وكان المماليك يتلقون رواتبهم حسب طبقاتهم التي كانت تناهز الاثنتي عشرة طبقة . وكان الراتب ، (الجامكية) يدفع حوالي منتصف الشهر، يتم الدفع خلال أربعة أيام، يخصص كل يوم منها لمجموعة من الطبقات . وقد حدد يوم خامس وخاص لدفع رواتب وحدة حملة البنادق الذين لم تكن رواتبهم تدفع لهم ضمن مجموعة من الطبقات ، بل تدفع لهم على حدة ، في آخر الشهر أو بداية الشهر التالي .

وفي الواقع ، في الفترة التي أعقبت مباشرة تشكيل الطبقة الخامسة لم تعرف هذه الوحدة باسمها على الاطلاق ، فابن أياس يتحدث إلى حد ما عن جنود اقيمت منهم طبقة ويقبضون الجامكية الخامسة تصرف لهم على إنفراد : « وفيه (شوال ٩١٦/ كانون الثاني ، ١٥١١) نفق السلطان الجامكية على العسكر ، وجعل للمماليك الذين استجدهم طبقة جامكية خامسة في أواخر الجوامك تصرف لهم على انفرادهم»[١٤٣]. وبعد ذلك التاريخ ذكر دفع الجامكية الخامسة في أربع حالات متتالية وقد أشار ابن أياس إلى نوعية وتركيبة هذه الطبقة التي شملت مجموعة مختلطة من التراكمة والأعجام وأولاد الناس وغيرهم من الطوائف، كما أشار إلى تزايد أمر هذه الطبقة والمح إلى عدم معرفة أفرادها بأصول الفروسية التقليدية التي تعتمد على القوس والرمح :

« وفي أواخر هذا الشهر (شوال ٩١٦/ كانون الثاني ، ١٥١١) نفق

---

(١٤٣) ابن اياس المصدر نفسه ، جزء ٤ ، ص ٢٠٠ .

السلطان الجامكية الخامسة التي استجدها بسبب المماليك الذين استجدهم ما بين تراكمة وأعجام وأولاد ناس وغير ذلك من الطوائف فجعل لهم جامكية خامسة تصرف لهم على انفرادهم دون جوامك ، العسكر ، وقد تزايد أمر هذه المماليك الأراذل الذين صار يستكثر منهم في الديوان ففيهم من لا يعرف يجذب القوس ولا يمسك الرمح وهذا أمر عجيب يشح فيمن يستحق الجامكية ويعطيها لغير مستحقيها »(١٤٤) .

وفي شهر ربيع أول ، سنة ٩١٨/ أيار ، ١٥١٣ ، ورد لأول مرة ذكر اسم الطبقة الخامسة التي أمر السلطان بعرضها وهي بكامل أسلحتها المختلفة من سيوف وغيرها وكان من بين أفرادها « رماة بالبندق الرصاص » وذلك بغية إرسالها إلى السويس لحماية المراكب الحربية هناك :

« وفيه نزل السلطان إلى الميدان وجلس به وأمر بعرض العسكر الذين استجدهم في الطبقة الخامسة ، فأعرضهم وهم لابسون الزرديات والخوذ وفي أوساطهم السيوف ، وكان منهم رماة بالبندق الرصاص ، فلما أعرضهم كتب منهم جماعة نحواً من ثلاثمائة إنسان ، وعين باشهم الأمير أركماس أمير مجلس ومعه الأمير قانصوه أبو سنة أحد المقدمين ، وعين معهم جماعة من المماليك السلطانية ، ورسم لهم بأن يتوجهوا إلى السويس ويقيموا بسبب عمارة المراكب التي عمّرها السلطان هناك »(١٤٥) .

ومنذ ذلك التاريخ ، بقي هذا الاسم الوحيد للوحدة الجديدة وغالباً ما يتردد ذكره وكان السلطان ينفق على عناصر الطبقة الخامسة بسبب الحرب مع البرتغاليين وكان يعطي لكل عنصر مبلغاً يتراوح ما بين ثمانية دنانير وعشرة دنانير. وهذا المبلغ هو ثلث ما يتقاضاه المملوك العادي تقريباً « وفي يوم الاثنين تاسع

---

(١٤٤) ابن اياس ، المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٢٠٦ .

(١٤٥) ابن اياس ، المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٣٠٨ .

عشرينه (جمادي الأول ٩١٩/ آب، ١٥١٣) نفق السلطان على أولاد الناس والتراكمة الذين في الطبقة الخامسة المستجدة فأعطى لكل مملوك عشرة أشرفية وأعطى لجماعة منهم ثمانية أشرفية ، ونفق عليهم النفقة مع الجامكية »[١٤٦]. وقلة الرواتب هذه كانت على علاقة وثيقة بالتدني الاجتماعي لعسكر الطبقة الخامسة الذي وصف أحياناً بالعسكر الملفق أي العسكر المزيف أو الملون .

« وفي يوم الخميس تاسع عشرينه (رجب ٩١٩/ تشرين الأول ١٥١٣) عرض المماليك الذين قررهم في الطبقة الخامسة وهو العسكر الملفق ، فرسم بأن يعملوا يرقهم ويتوجهوا إلى السويس لأجل حفظ المراكب التي أنشأها هناك »[١٤٧] .

وقد وقف المماليك حتى ابن أياس موقفاً عدائياً من الطبقة الخامسة . ورغم ضآلة رواتب الطبقة الخامسة ، كانت الشكوى تتكرر عن حق أو باطل من أن احداث هذه الوحدة كان من الأسباب الرئيسية لفراغ الخزينة ولقلة مختلف الأمدادات في الجيش : « وكان العسكر كثيراً ولا سيما ما جدده السلطان من العسكر في الطبقة الخامسة فانشحتت الدواوين من الجوامك واللحوم والعليق بسبب ذلك »[١٤٨] .

أما مدى نقمة المماليك السلطانية على إنشاء الطبقة الخامسة فقد كانت كبيرة وقد كانت هذه النقمة تزداد كلما حصل تأخير في دفع الرواتب ونتيجة لذلك توترت العلاقات كثيراً بين السلطان ومماليكه، وسرت إشاعات تفيد أن هؤلاء يعتزمون العصيان ، ولدرء ذلك دعا السلطان مجموعة من خاصكيته وأنبهم على أعمالهم المعيبة فأجابوه بأنه هو الذي أفرغ الدواوين بجمعه هذا العسكر العديد الذي أحدث منه الطبقة الخامسة ، وانه بسبب هذه الطبقة قد

---

(١٤٦) ابن اياس ، المصدر نفسه ، جزء ٤ ، ص ٣٢٤ .
(١٤٧) ابن اياس ، المصدر نفسه ، جزء ٤ ، ص ٣٣١ .
(١٤٨) ابن اياس ، المصدر نفسه ، جزء ٤ ، ص ٣٦٩ .

بدد رواتب اليتامى والأرامل ونددوا بهذا العسكر الملفق وقالوا عنه إنه يحوي تراكمة واعجاماً وفرساً وأولاد ناس منهم أسكافيون وخياطون . فأجابهم السلطان بأنه أنشأ هذا الجيش الجديد فقط لاعفائهم من الحملات والأسفار فاعترض المماليك بأن هذه لم تكن طريقة عمل السلطان الأشرف قايتباي ، وإن المعيشة قد اصبحت غالية وإن الرواتب غير كافية .

وبعد أن وعد السلطان بتعجيل الدفع ومد المماليك بعلف أحسن خف غضبهم نوعاً ما وخمدت تلك الفتنة قليلاً [١٤٩] .

ولم تهدأ الحال بين المماليك وعناصر الطبقة الخامسة فقد تطورت الأمور إلى حد أقدم معها بعض المماليك على فرض الخوة على عسكر الطبقة الخامسة في يوم دفع الرواتب وأحياناً على خطف راتب بعض الطبقة الخامسة بكاملة[١٥٠] .

ولم يكتف المماليك بهذا القدر بل ثاروا ورجموا الأمراء في الطباق وزعموا أن ما أصابهم من ضرر وقلة كان بسبب إنشاء الطبقة الخامسة[١٥١] .

ولعل حديث ابن أياس عن هذا العمل يعطي القارىء الانطباع بأن الحل كان قاتماً بالنسبة للطبقة الخامسة والأسلحة النارية . في الواقع استمرت الطبقة الخامسة في الوجود لأنها كانت لازمة بإلحاح على جبهة حيوية جداً واضطر السلطان إلى إقامة نوع من التوازن ما بين مصلحة الدولة ورغبة المماليك .

والحقيقة أن الدراسة الدقيقة لتاريخ ومهام وعمليات الطبقة الخامسة لا تترك مجالاً للشك بأن هذه الوحدة قد أنشأت بصورة رئيسية إن لم نقل خصيصاً لمحاربة البرتغاليين . ولم يكن لهذه الوحدة أية علاقة مباشرة أو غير مباشرة

---

(١٤٩) ابن اياس ، المصدر نفسه ، جزء ٤ ، ص ٣٦٩ .
(١٥٠) ابن اياس ، المصدر نفسه ، جزء ٤ ، ص ٣٧٠ .
(١٥١) ابن اياس ، المصدر نفسه ، جزء ٤ ، ص ٤٢٧ .

بالاستعدادات ضد العثمانيين . فقد وجه السلطان الطبقة الخامسة إلى الجنوب الشرقي من السلطنة لأنهم كانوا يقاتلون هناك بأسلحة تختلف تماماً عن الأسلحة المستعملة على الجبهة الشمالية. وللغوري نظرة مختلفة إلى هاتين الجبهتين ، فقد تنبه السلطان إلى الدور الكبير الذي تقوم به الأسلحة النارية في نزاعه مع البرتغاليين ولذلك عمد إلى إرسال عسكر الطبقة الخامسة وغيرهم من ذوي الاختصاص بالمدفعية والفنون البحرية إلى جبهة المحيط الهندي. وقد وعد السلطان بمكافأة الذين يبلون بلاء حسناً ، وذلك برفع مرتباتهم من ألف وخمسمائة درهم إلى ألفي درهم[١٥٢] .

بالإضافة إلى ذلك قرّر السلطان أن يتفقد شخصياً المراكب التي يعمرها في السويس. وكان السلطان قد منع بيع الخشب السند بسبب ذلك فعز وجوده وارتفعت أسعار الكبريت : « وكان السلطان حرّج على بيع الخشب السند بسبب عمارة المراكب ، وصاروا يقطعون أشجار الناس من الغيطان غصباً باليد ويرسلونه إلى السويس لأجل عمارة المراكب التي هناك وعزّ الكبريت أيضاً حتى أبيع كل رطل بثمانية أنصاف ولا يوجد إلاّ قليلاً »[١٥٣] .

وبالفعل خرج السلطان إلى السويس للكشف على المراكب يوم السبت الثالث عشر من محرّم ٩٢٠/ آذار ١٥١٤ وأخذ صحبته نحواً من ثلاثمائة خاصكي ورسم للعسكر بأن يأخذوا معهم اللبس الكامل من زرديات وبركستونات وخوذ وغير ذلك من آلة السلاح . فلما وصل السلطان إلى السويس أراد إظهار العظمة فأمر العسكر بالدخول وهو لابس آلة الحرب من أجل التأثير على جماعة من الاختصاصيين العثمانيين الذين يعملون في بناء الاسطول وتسليحه تحت إشراف الرئيس سلمان العثماني .

---

(١٥٢) ابن اياس ، المصدر نفسه ، جزء ٤ ، ص ٤٣٦ .

(١٥٣) ابن اياس ، المصدر نفسه ، جزء ٤ ، ص ٣٥٥ .

وقد كشف السلطان على تلك المراكب وكان عددها نحو عشرين مركباً وقد انزل إلى الماء ما كان جاهزاً منها بحضور السلطان الذي دفع من ماله الخاص أكثر من أربعماية ألف دينار بدل تكاليف المراكب .

« فلما وصل السلطان إلى هناك كشف على تلك الأغربة التي عمرها هناك وكانوا نحو عشرين غراباً . فالذي انتهى منه العمل انزلوه إلى البحر الملح بحضرة السلطان وكان ذلك اليوم مشهوداً ، وقيل كان مصروف تلك الأغربة بما فيهم من مكاحل نحاس وحديد وغير ذلك من آلة السلاح وصُرف على ذلك من مال السلطان نحو من أربعماية ألف دينار وكسور على ما قيل »(١٥٤) .

وقد كافأ السلطان الرئيس سلمان العثماني المشرف على عمارة المراكب، كما كافأ بعض النجارين والحدادين والقلافطة . غير أن حادثة وقعت فاحترق عدد كبير من العمال الذين كان يطحنون البارود فمات منهم نحو عشرين شخصاً كما وصلت النار إلى شراع أحد المراكب فاحترق هذا الشراع :

« وقيل إن في ذلك اليوم احترق جماعة من الصناع الذين يطحنون البارود فمات منهم نحو عشرين إنساناً ، وقيل إن النار تعلقت في قلع غراب من الأغربة فأحرقته عن آخره فكان مصروف ذلك القلع نحو خمسماية دينار »(١٥٥) .

وهذه الحادثة تدل أيضاً على عدم خبرة المماليك الكافية في التعامل مع الذخائر (البارود) وما له علاقة بالأسلحة النارية .

وبالفعل بدأ السلطان بإرسال التعزيزات إلى السويس خاصة بعد ورود الأخبار من الأمير حسين نائب جدة يعلم السلطان فيها عن استفحال خطر البرتغاليين وتهديدهم لجدة بعد أن احتلوا كمران .

---

(١٥٤) ابن اياس ، المصدر نفسه ، جزء ٤ ، ص ٢٦٥ .

(١٥٥) ابن اياس ، المصدر نفسه ، جزء ٤ ، ص ٢٦٥ .

« وأرسل الأمير حسين نائب جدة يعلم السلطان بذلك وأن الفرنج قد زاد تعبثهم بسواحل الهند وملكوا كمران من ضياع جهات الهند . وأرسل يستحث السلطان في إرسال تجريدة بسرعة قبل أن تملك الفرنج سواحل الهند وربما خاف على جدة من أمر الفرنج »(١٥٦) .

وبناء على ذلك كتب السلطان نحو ستماية مملوك من الطبقة الخامسة إلى الهند . « وفي يوم الاثنين ثاني عشره (جمادي الأول ٩٢١/ حزيران ١٥١٥) جلس السلطان في الميدان وعرض العسكر أصحاب الطبقة الخامسة فكتب منهم جماعة نحو ستماية مملوك ، وقيل أكثر من ذلك ، وعينهم إلى جهات الهند ، وكان فيهم جماعة من مماليك السلطان الجلبان وجماعة من المماليك القرانصة وأولاد الناس وغير ذلك »(١٥٧) .

وقد نفق السلطان على العسكر المعين للهند نفقة السفر فأعطى لكل مملوك خمسين ديناراً كما نفق لكل مملوك جامكية أربعة أشهر معجلاً .

وفي شهر رجب ٩٢١/ آب ١٥١٥ عرض السلطان الحملة القوية التي عينها إلى الهند وكانت مؤلفة من نحو ستة آلاف رجل موزعين على الوجه التالي :

ـ مماليك خاصكية	: ٥٠
ـ مماليك جمدارية	: ١٥٠
ـ طبقة خامسة	: ٤٥٠
ـ بحارة، مقاتلين ، تركمان، مغاربة	: ٥٣٤٤

وكان قائد الحملة القبطان العثماني الرئيس سلمان .

« وفي يوم الاثنين عاشره جلس السلطان في الميدان وعرض العسكر

(١٥٦) ابن اياس ، المصدر نفسه ، جزء ٤ ، ص ٣٨٣ .
(١٥٧) ابن اياس ، المصدر نفسه ، جزء ٤ ، ص ٤٥٨ .

المعين إلى جهة الهند ، فعرضهم وهم باللبس الكامل واستدعاهم كل واحد باسمه ، فلما فرغ من عرض العسكر اخلع على الرئيس سلمان العثماني كاملية مخمل أحمر بصمور وقرره باش المراكب المجهزة للهند، وقرّر الباش الثاني شخصاً يسمّى بشبك وهو أمير عشرة ، وقرر الباش الثالث شخصاً يقال له دمرداش الاقريطش ، وكان أصله افرنجي يبيع النبيذ الاقريطش فاشتهر بذلك ، فأنعم عليه السلطان بأمرة وجعله باش العسكر ، وكان ذلك من غلطات الزمان ، فلما انتهى أمر العرض بسط السلطان يده وقرأ سورة الفاتحة ودعى بالنصر للعسكر ، ثم أن العسكر خرج من الميدان ونزل وشّق من القاهرة وقدامهم الطبول والزمور ومكاحل النفط والبندقيات وعلى رؤوسهم الصنجق السلطاني وكان لهم يوم مشهود.

وكان مجموع هذا العسكر المتوجه إلى الهند على ما تحرر أمره نحو ستة آلاف إنسان تفصيله : خاصكية خمسين ، جمدارية مائة وخمسين ، ومن الطبقة الخامسة المتجددة ما بين أولاد ناس ومماليك وغير ذلك أربعماية وخمسين ، وبحارة ومقاتلين تراكمة ومغاربة وغير ذلك خمسة آلاف وثلاثمائة وأربعة وأربعين على ما قيل ، فلما خرجوا من القاهرة توجهوا إلى الريدانية إلى أن يرحلوا من هناك إلى السويس ، فكان السلطان في مدة إقامتهم في الريدانية يمدّ لهم أسمطة حافلة من ماله بكرة وعشية إلى أن رحلوا من هناك وتوجهوا إلى نحو السويس ، وكان عدة المراكب التي أنشأها السلطان بالسويس عشرين مركباً وقد اشحنها بالمكاحل والمدافع والبارود وغير ذلك من الزاد بسبب العسكر »(١٥٨).

وتجدر الإشارة إلى أن عدم اشتراك أي امير مملوك من أمرة الألف في هذه الحملة الكبيرة لأمر له مدلول كبير وخاصة أن امراء من نفس المرتبة كانوا يشتركون في حملات أقل أهمية كانت ترسل إلى سوريا وما ورائها .

إن تَوقْفنا هنا لعرض تشكيل هذه الحملة فلان لهذا التشكيل مدلولاً خاصاً

(١٥٨) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جزء ٤ ، ص ٤٦٦ ـ ٤٦٧ .

فهـو يعطينـا صورة أكمـل للاختـلاف الكبير بين نـظرة المماليـك إلى الجبهـة البرتغالية من جهة ونظرتهم إلى الجبهة العثمـانية التي اضـطروا إلى فتحها في الشمال من جهة أخرى .

إن وجود الأسلحة النارية هو واضح وجلي في كل مرحلة من مراحل سرد ابن أياس لحملات السويس ، فالمدفعية والبنادق هي مذكورة في الواقع في كل مقطع يتناول الجبهة البرتغالية . بينما نلاحظ بشكل فاضح في حديث المؤرخ نفسه عن حملة مرج دابق أن ذكر الأسلحة النارية في جيش المماليك كان قريباً من العدم وليس هذا هو الاختلاف الوحيد بين الجبهتين .

لمحاربة البرتغاليين وباستثناء مجموعة صغيرة من المماليك كانت ترسل وحدات من غير المماليك خفيضة الوضع الاجتماعي وضئيلة الراتب . وعندمـا ذهب السلطان بنفسه إلى السويس فقط رافقه فريق من المماليك النخبة . غير أن هؤلاء الخاصة والذين كانوا يشكلون حرس السلطان الشخصي ، عادوا معه إلى القاهرة . ودون شـك ، كانت هنـاك علاقـة وثيقة بين التـدني الاجتماعي للوحدات المرسلة ضد البرتغـاليين وبين استخدام الأسلحـة الناريـة على تلك الجبهة ولهذه العلاقة عاملان على الأقل :

الأول : إن القوة العددية لجيش المماليك كانت ضئيلة العدد نوعاً ما، وكانت سلطنة المماليك مهددة بصورة متناوبة من قبل عدوين عظيمين . وفي ظروف صعبة كهذه اضطر المماليك إلى حشد قوتهم الرئيسية ضد أخطر العدوين .

وحسب مفهـوم المماليـك ، كان المـماليـك السلطانيـة والأمـراء المماليك متفوقين على الوحدات المزودة بالأسلحة النـارية ، ليس اجتماعياً فقط وإنما بالمفهوم العسكري أيضاً . ومن هنا نستخلص أن جميع وحدات المماليك الصرفة كانت محشودة ضد العثمانيين وإن اعتمـاد الأسلحة النـارية فيهـا كان شبـه معدوم . وكـانت هذه

الـوحدات مجهـزة فقط بالأسلحـة التقليديـة التي اصبح المـماليك أسيـاداً في استخدامهـا ، نتيجة للتـدريب الذي تلقـونـه ، بـدافـع الغوري إحياء تمارين الفروسية .

الثاني : نظراً لكون الحرب ضد البرتغاليين حرباً بحرية في الأساس، فقد أصبح المملوك غريباً عن هذه الحرب التي لا يستمزجها ، باعتبـار أن الفرسان المماليك المفطورين على البر ، كانوا يمقتون البحرية وكـل ما يعـود إليها . وعبـر تاريخهم كله خـاض المماليـك القليل القليل من المعارك البحرية وعندما لا يجدون من الأمر بدا ، كانوا فقط ينقلون جنودهم بحراً إلى ساحة القتـال . هذا مـا كانت عليـه الحال في الهجمات التي شنوها على قبـرص ورودوس . والواقـع كان هناك اختلاف جوهري بين هذين الهجومين وبين الحرب ضد البرتغاليين وذلك لأن الحملة ضد الجزر في المتوسط كانت تتطلب رحلة بحرية قصيرة نسبياً ، تخاض بعدهـا المعارك على اليـابسة ، بينما الحرب في البحر الأحمر والمحيط الهندي كانت تتطلب اجتياز مسافات طويلة على متن السفن بحثاً عن العـدو ، فضلاً عن عـدم إمكانية التنبوء بخوض المعركة الرئيسية على اليابسة أو في عـرض البحر .

ومن ناحية أخرى ، كان من المتعذر على المماليك أن يجدوا في السفن القليلة العدد المساحة اللازمة لبناء غرف تكفي لاستيعاب عدد كبير من الأحصنة مع العلف المخصص لها ، باعتبار أن إرسال المملوك إلى الحرب دون حصانه كان أمراً غير وارد أبداً .

بالإضافة إلى ذلك لم تكن عملية المرابطة في موانيء البحر الأحمر تروق للمماليك . فقد كانت مهمات المرابطة خارج العاصمة أمراً غير مرغوب به في شتى أنحاء مصر ، وكانت منطقة البحر الأحمر تعتبر من أسوأ مراكز المرابطة ، حتى أن الوحدات الوضيعة قد حاولت التملص من الذهاب إليها. وكان هذا الأمر

يحدث أيضاً وبكثرة في صفوف المماليك . وإذا ما تقرر إرسـال مماليـك إلى البحر الأحمر فإن اختيارهم يتّم عادة من بين غير ذوي الخطوة .

- هذان هما السببان الرئيسيان للاختلاف البارز في تشكيل وتجهيز الوحدات التي تحارب البرتغاليين من جهة والوحدات التي تحـارب العثمانيين من جهة أخرى . والـواقع أن الممـاليك كـانوا مضـطرين إلى توجيـه معظم وحداتهم المجهزة بالأسلحة النارية ضد البرتغاليين لذلـك ازداد التناقض الهائل بين جيش المماليك وجيش العثمانيين .

ولـو فرضنـا جدلاً أنـه لو أفسـح المجال أمـام المماليـك لحشد جميـع الأسلحة النارية التي بتصرفهم ضد العثمانيين ، لكان باستطاعتهم التأثير على مجرى الأحداث الى حد ما .

إن مصير الطبقة الخامسة يلقي ضوء باهتاً على هذا الافتراض ، وهو دليل ساطع على مدى استيعاب الجبهة البرتغالية للطاقة المتوافرة من الأسلحة النارية لأن القسم الأعظم من الطبقة قد أرسل ضد البرتغاليين ، ضمن حملة الغوري الكبيرة ولأنه بعد إبحار هـذه الوحـدة لم يرد اسمهـا مرة واحـدة لا فيما يتعلق بالمعركة الحاسمة في مرج دابق ولا في المعركة الأخرى في الريدانية ولا في أية مناسبة أخرى .

وهذا لا يعني أن الطبقة الخامسة كان مصيرها العدم ، بل على العكس فقد حققت هذه الوحدة بفضل اسلحتها النارية انتصارات عدة وبفضلها تمكن الأمير حسين والريس سلمان العثماني من احتلال كمران وزبيد وهي من ضياع الهند وغنما الشيء الكثير ، غير أن أخبار هذه الحملة لم تصل إلى مصر إلّا بعد شهرين من معركة مرج دابق وموت السلطان الغوري .

« وفيه (شعبان ٩٢٢/ آب ١٥١٦) وردت الأخبار من عند الأمير حسين نائب جدة والريس سلمان العثماني ، انهما لما توجها إلى الهند صحبة العسكر المقدم ذكرهم ، وصلا إلى كمران وهي ضيعة من ضياع الهنـد فأنشـأوا هناك

قلعة ذات أبراج فكمل بناؤها في نحو خمسة أشهر . ثم أن الأمير حسين أرسل طائفة من العسكر نحو مكـان يسمى اللحية ، وأرسـل طائفـة من العسكر إلى مكان يسمى مَوّر ، وأقام الأمير حسين هو وبقية العسكـر في مكان يسمى بيت الفقيه فأقاموا به نحو شهر . ثم أن الأمير حسين والريس سلمان والعسكر توجهوا إلى نحو زبيد من ضيـاع الهند ، وحـاصروا صـاحبها عبـد الملك أخا الشيـخ عامر ، فملكوا منه زبيد وذلك صبيحـة يوم الجمعـة في العشرين من جمـادي الآخرة سنة اثنتين وعشـرين وتسعمايـة ، فوجـدوا بها من الأمم مـا لا يحصى عددهم ، ثم ذكروا في الكتاب أن الأمير حسين بعـد أن فتح زبيـد توجـه إلى حصار مدينة عدن وأنه أشرف على أخذها ، ولما ملكوا زبيد أقام بهـا شخص من ممـاليك الأشـراف الغوري وأولاد النـاس الذين كـانـوا صحبتهم ، والتف عليهم جماعة من العربان نحو عشرة آلاف إنسـان ، فلما ملك بـرسباي زبيـد تسلطن بها ورتب له دوادارا وخازندارا وأرباب وظائف كعادة السلاطين ، وغنم منهـا أموالاً جـزيلة هو ومن معـه وقيل تـوجـه إلى حصـار عـدن وملكهـا كمـا قيل »(١٥٩) .

وتتابعت الأخبار وذكر أن الأسطول قد غرقت مراكبه بما فيها من مكاحل ومدافع وآلات الحرب ولم تذكر المصادر أن غـرق الأسطول كـان نتيجة لأيـة معركة مع البرتغاليين . وعلى أثر ذلك وقع الخلاف ما بين الأمير حسين نائب جدة والريس سلمان العثماني فذهب كل في حال سبيله .

« وَفيه (شوال ٩٢٢/ تشرين الثاني ١٥١٦/ وردت الأخبار من الهند بأن المراكب التي كان أرسلهـا السلطان الغوري قـد غرقت بمـا فيها من مكـاحل ومدافع وآلات السلاح وغير ذلك ، وان قد وقـع بين الريس سلمـان العثماني

---

(١٥٩) ابن اياس ، بدائع الزهور ، الجزء الخامس ، ص ٨٣ .

وبين الأمير حسن نائب جدة ، وان كلا منهما توجه إلى جهة من جهات الهند ولم يعلم له خبر »[١٦٠] .

وتبيّن فيما بعد أن الريس سلمان هو الذي أغرق المراكب بسبب عداوته للأمير حسين نائب جدة . وقد ذكر أن الريس سلمان قد عاد إلى القاهرة في شهر شعبان ٩٢٣/ آب ١٥١٧ أي بعد غزو العثمانيين لمصر بثمانية أشهر وذكر أنه قد أحضر معه بعض الأسرى البرتغاليين ممن كانوا يتعبثون في شواطىء المحيط الهندي وقد غنم هو والأمير حسين ، قبل أن يفتك به ، الشيء الكثير وصحبتهما عسكر الطبقة الخامسة التي جددها الغوري :

« وفيه حضر الريس سلمان العثماني الذي كان قد توجه صحبة المراكب التي كان أرسلها السلطان الغوري إلى الهند ، فلما حضر أشيع أن الريس سلمان هو الذي أغرق حسين نائب جدة ، وكان بينهما عداوة من أيام الغوري ، فلما مات الغوري ظفر سلمان بحسين وقتله على ما قيل ، ولما حضر الريس سلمان أحضر صحبته جماعة من الفرنج الذين كان أسرهم من بحر الهند ممن كان يتعبث به ، ويقطع الطريق على مراكب التجار الذين يمرون من هناك . واشيع ان الريس سلمان وحسين نائب جدة كانا فتحا عدة بلاد بالهند من بلاد الشيخ عامر وغنموا منها أموالاً جزيلة لا تحصى ، هم والعسكر الذي توجه صحبتهما ، في أيام السلطان الغوري ، وهم من عسكر الطبقة الخامسة التي كان قد جددها الغوري في أيامه »[١٦١] .

ويعود ذكر الطبقة الخامسة وحدها من بين مختلف الوحدات التي كانت تؤلف الحملة الكبيرة إلى الهند إلى الدور الكبير الذي لعبته هذه الوحدة والذي تجاوز قوتها العديدة (أقل من عشر الحملة بكاملها) .

---

(١٦٠) ابن اياس ، المصدر نفسه ، جزء ٥ ، ص ١١٥ .

(١٦١) ابن اياس ، المصدر نفسه ، جزء ٥ ، ص ٢٠٣ .

والسؤال المطروح : هل عاد قسم من الطبقة الخامسة إلى مصر مع الريس سلمان ؟ سؤال يبقى دون جواب . . .

غير أن تتبع أخبار الهند يشير إلى أن عساكر الطبقة الخامسة الذين ملكوا كمران وزبيد وعدن من ديار الشيخ عامر قد تمكنوا من احتلال بلاد الشيخ عامر كلها ونصّبوا عليهم سلطاناً يقال له اسكندر وهو من مماليك السلطان الغوري ، فعصى أمر السلطان الغوري ولم يدخل تحت طاعة السلطان سليم العثماني لمّا ملك الديار المصرية .

وكان اسكندر هذا قوياً شجاعاً استمد قوته من عناصر الطبقة الخامسة الذين بقوا معه والتفوا حوله ولم يستطع نائب جدة الذي دخل في طاعة العثمانيين من التغلب عليه وقتله إلّا بالحيلة .

« وفي يوم السبت ثالثه (ذي الحجة ٩٢٧/ كانون الأول ١٥٢١) حضر قاصد من مكة وصحبته رأسان في علبة ، زعموا أن أحدهما رأس شخص يقال له إسكندر ، وكان أصله من مماليك السلطان الغوري ، وكان أرسله صحبة التجريدة التي أرسلها إلى بلاد الهند بسبب محاربة الشيخ عامر فتملك زبيد وعدن وكمران ، فلما توجهوا إليه العسكر الذين أرسلهم السلطان الغوري تحاربوا معه فانكسر منها وقتل في المعركة فملكوا منه بلاده وأمواله ، ثم أن إسكندر المذكور ملك بلاد الشيخ عامر وتسلطن بها وعصى على سلطان الغوري، وجعل له أمراء وعسكراً وخطب باسمه على منابر بلاد الشيخ عامر .

واستمر على ذلك ، ولم يدخل تحت طاعة الخوند كار سليم شاه بن عثمان لما ملك الديار المصرية ، ولم يخطب باسمه ولا ضرب السكة باسمه هناك ، فلم يزل نائب جدة يتحيل عليه حتى قتله وحزَّ رأسه وأرسلها إلى القاهرة .

وكان إسكندر هذا شجاعاً بطلاً مقداماً في الحرب قوي القلب ، ملك

بلاد الشيخ عامر واحتوى على أمواله وفرقها على عسكره ، وجعل له أمراء وحجاباً داوادارية ولولا احتالوا عليه حتى قتلوه لما كانوا يقدرون عليه من شجاعته وحيله »[١٦٢] .

ح ـ غياب الطبقة الخامسة عن الجبهة العثمانية

إن ذكرنا لهذه التفاصيل ما هو إلا للدلالة على قوة الطبقة الخامسة وفعالية اسلحتها النارية التي غابت كلياً في ظل السلطان قانصو الغوري عن الجبهة العثمانية خاصة في مرج دابق . والواقع أن المماليك قد تنبهوا إلى خطر العثمانيين أثناء استعدادات السلطنة لقتال البرتغاليين حين وصل إلى القاهرة موفد من قبل السلطان سليم العثماني ولديه رسالة يخبر فيها السلطان الغوري بنية السلطان سليم محاربة الشاه إسماعيل الصفوي ويطلب من السلطان قانصوه الغوري الوقوف إلى جانبه[١٦٣] .

تلك كانت الإشارة الأولى التي نبهت المماليك إلى خطر العثمانيين وجعلتهم يتخوفون من نوايا العثمانيين والصفويين على السواء فقرروا بعد التشاور فيما بينهم إرسال قسم من قواتهم إلى حلب لرصد نتائج المعركة .

ولما وصلت التجريدة إلى حلب جرى على أهل حلب من مماليك السلطان الجلب ما لا خير فيه ، فقد نزلوا في بيوتهم ونهبوا امتعتهم وفسقوا في حريمهم فضج الناس واضطربت الأحوال. وفي هذه الأثناء وردت الأخبار من حلب أن السلطان قد انتصر على الشاه إسماعيل الصفوي ويعزى انتصاره إلى استعمال السلاح الناري بشكل كثيف.

« ثم ان ابن عثمان احضر اثني عشر ألف رامي بالبندق الرصاص وتلاقى

---

(١٦٢) ابن اياس ، المصدر نفسه ، جزء ٥ ، ص ٤١٤ ـ ٤١٥ .

(١٦٣) ابن اياس، المصدر نفسه ، جزء ٤ ، ص ٣٧٢ .

مع الصوفي ، فكسر الصوفي كسرة قوية وقيل إنه جرح وولي مهزوماً فلم يعلم له خبر »[١٦٤] .

وقد تنكد السلطان الغوري بسبب الفتنة في حلب وبسبب انتصار السلطان سليم على الشاه إسماعيل الصفوي فأمر بجمع الأموال من أجل إرسال حملة ثانية (تجريدة) لقتال العثمانيين وكتب مراسيم بمعنى ذلك ولكنه لم يستوعب مدى أهمية استعمال السلاح الناري في المعركة القادمة التي كان لا بد منها بسبب توتر العلاقات ما بين العثمانيين والسلطنة لتعصب السلطان سليم لأحد أولاد شاه سوار بن ذا الغادر وسبب ذلك أن دولات باشا قد استولى على أراضي ابن شاه سوار، فأرسل السلطان سليم يسأل السلطان قانصوه الغوري أن يعمل على رد الأراضي إلى صاحبها فلم يوافق . وقد ازدادت ريبة السلطان الغوري من نوايا السلطان سليم لدى ورود أخبار مفادها أن السلطان العثماني قد جهز حوالي أربعماية مركب لمهاجمة الإسكندرية، كما جهز عدة فرق من جيوشه لمهاجمة السلطنة المملوكية عن طريق حلب ، فجمع الغوري امراءه وحلفهم بأن يكونوا كلمة واحدة ولا يخرجوا عن طاعته ظاهراً وباطناً وقد اشيع بأن السلطان هو الذي يسافر بنفسه لمحاربة السلطان العثماني .

وبالفعل بدأ السلطان الغوري تحركه لمهاجمة العثمانيين بأن توجه أولاً إلى الاسكندرية لتفقدها والإشراف على ترميم أبراجها . وفي حين عمد السلطان إلى إرسال المدافع إلى الإسكندرية التي بلغ عددها نحو مائتي مدفع ، « وفيه (محرم ٩٢٢/ شباط ١٥١٦) أرسل السلطان مكاحل جديدة ومدافع صوان إلى ثغر الإسكندرية وتمضي في مراكب إلى هناك فكانوا نحو مائتي مكملة »[١٦٥] . إلا أنه لم يرسل أياً من المدافع التي سبكها إلى حلب بل

---

(١٦٤) ابن اياس ، المصدر نفسه ، جزء ٤ ، ص ٤٠٠ .

(١٦٥) ابن اياس ، المصدر نفسه ، جزء ٥ ، ص ١٠ .

أقـدم على تفريق الأسلحـة التقليديـة فقط من سيـوف ونشـاب وغيـرهـا على مماليكه .

وقد أخرج السلطان خرجاً من مماليكه الغورية ففرق عليهم في ذلك اليوم زرديات وسيوفاً وتراكيش وقسياً ونشاب وكانوا نحواً من ثلاثمائة مملوك . كمـا أقـدم السلطان على تفريق ثمن الخيـول وعلى عرض العسكـر كافـة استعداداً للذهاب إلى حلب . وكان العسكر مؤلفاً من أربع طباق وقد غابت عنه الطبقـة الخامسة . وهذا يعني غياب الأسلحة النارية .

« وفي يـوم الخميس ثانيـة (صفـر ٩٢٢/ آذار ١٥١٦) جلس السلطان بالميدان وعرض العسكر من كبير وصغير وكتب الجميع . فعرض في ذلك اليوم أربع طباق ولم يعف من العسكر أحداً »[١٦٦] .

وتابع السلطان التحضير لحملة حلب كما تابع توزيع الأسلحة التقليديـة المختلفة ولم يرد أي ذكر للأسلحة النارية إذ وزّع السلطان سروج عقيق وذهب ولبـوس خيل حـرير ملون وخـوذ فـولاذ وغيـر ذلـك من آلـة السـلاح التي في الزردخاناه .

وكان عديد هذه التجريدة نحـواً من خمسة آلاف نفـر وكان على رأسهـا السلطان الغوري نفسه الذي وصل حلب ودخلها في العاشر من جمادي الآخرة سنة ٩٢٢/ تموز ١٥١٦ .

ولسنا هنا في مجال وصف معركة مرج دابق وكل ما أردنا أن نشير إليه هو أنه لدى احتدام المعركة انشغل المماليك بالنهب فعمد العثمانيون إلى استعمال السلاح الناري فكسروهم وتغير مجرى المعركة كلياً لصالحهم . « كانت النصرة أول النهار لسلطاننا ، وفي وقت الظهر اشتغل عسكره بالنهب فرجع عليهم ملك

---

(١٦٦) ابن اياس ، المصدر نفسه ، جزء ٥ ، ص ١٣ ، ص ١٥ ، ص ٣١ .

الروم بالبندق الرصاص فكسرهم »(١٦٧) .

وقد مات السلطان الغوري من شدة قهره ، وتمّ النصر للعثمانيين فقتلوا الكثير من المماليك ثم تحولوا عن مرج دابق ودخلوا حلب فملكوها من غير مانع . وقد اظهرت هذه المعركة فعالية السلاح الناري كما أظهرت تخاذل المماليك الجلبان الذين « لم يقاتلوا في هذه الوقعة شيئاً ولا ظهر لهم فروسية فكأنهم خشب مسندة »(١٦٨) .

ط ـ جهود طومان باي اليائسة

بعد سقوط حلب ودمشق عمد الأمير طومان باي نائب الغيبة في جهود يائسة إلى الاستعداد لمعركة طويلة الأمد مع العثمانيين . فكتب بعد أن تسلطن وتلقب بالملك الأشرف أبو النصر طومان باي من قانصوه الناصري ، نحو ألفي مملوك إلى غزة لملاقاة العثمانيين . وقد عرض السلطان الجديد هذا العسكر المتوجه إلى غزة وقد زوده بكثير من البنادق والعربات والمدافع .

« وفي يوم الأحد ثالث عشرة (ذو القعدة ٩٢٢/ كانون الأول ١٥١٦) جلس السلطان بالميدان وعرض العسكر الذي كان مسافراً إلى التجريدة ، فكتبهم إلى السفر ثانية ولم يترك منهم إلا القليل . فعرض في ذلك اليوم أربع طباق وكتب غالب من فيها من المماليك . ثم في ذلك اليوم عرض السلطان عجلات من خشب تجرها الأبقار وفيها رماة بالبندق الرصاص ، فكانوا نحواً من ثلاثين عجلة أو فوق ذلك ، وعرض جمالاً وفوقها مكاحل ورجال يرمون بالبندق الرصاص من المكاحل فوق ظهور الجمال ، وعرض طوارق خشب بسبب الرماة بالنشاب فقوى قلب العسكر في ذلك اليوم على القتال »(١٦٩) .

---

(١٦٧) ابن طولون: اعلام الورى ، بمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق ، دمشق ١٩٦٤ ص ٢١٣ ص ٢١٤ .

(١٦٨) ابن اياس ، المرجع السابق ، جزء ٥ ، ص ٧١ .

(١٦٩) ابن اياس ، المصدر نفسه ، جزء ٥ ، ص ١٢١ .

ولم يكن حظ طومان باي سعيداً فقد تمكن العثمانيون من سحق هذه الحملة في غزة ويعود ذلك لكثرة عددهم وحسن استعمالهم للسلاح الناري من جهة ، ولغياب الطبقة الخامسة من صفوف المماليك ولقلة خبرة المماليك في استعمال الأسلحة النارية التي جهزت على عجل من جهة ثانية .

« وفي يوم الاثنين خامسه (ذي الحجة ٩٢٢/ كانون الأول ١٥١٦) دخل الأمراء والعسكر الذين توجهوا إلى غزة وانكسروا من عسكر ابن عثمان . . . وحكوا عن عسكر ابن عثمان أنهم مثل الجراد المنتشر لا يحصى عددهم ، وانهم معهم رماة بالبندق الرصاص على عجلات خشب تسحبها أبقار وجاموس في أول العسكر »(١٧٠) .

بعد هزيمة غزة ، عمد طومان باي إلى تحصين مدخل القاهرة ، ورجح أن معركته المقبلة مع العثمانيين ستكون حصاراً وليس معركة حاسمة قصيرة الأمد ، فعرض العسكر الذاهب إلى الريدانية وأشرف بنفسه على تركيب العربات التي تحمل المدافع النحاسية فارتفعت له الأصوات بالدعاء وقد تأثر الناس لدى مشاهدتهم الأسلحة النارية :

« وفي يوم الاثنين ثاني عشره (ذي الحجة ٩٢٢/ كانون الثاني ١٥١٧) أخرج السلطان الزردخاناه الشريفة التي يرسلها صحبة العسكر ، فجلس بالميدان وانسحب قدامه العجلات الخشب التي كان صنعها بسبب التجريدة فإن عدتها مائة عجلة وكل عجلة يسحبها زوج أبقار ، وفيها مكحلة نحاس ترمي بالبندق الرصاص ، فنزل السلطان من المقعد وركب وفي يده عصا ، فصار يرتب العجل في مشيها في الميدان ، ثم انسحب بعد العجل مائتا جمل محملة طوارق نحو ألف وخمسماية طارقة ومحملة أيضاً بارود ورصاص وحديد ورماح خشب وغير ذلك . . . وقدامها من الرماة نحو مائتي إنسان ما بين تركمان

---

(١٧٠) ابن اياس ، المصدر نفسه ، جزء ٥ ، ص ١٣٠ .

ومغاربة وجماعة من النفطية ما بين عبيد ونفطية يرمون بالنفط قدام العجلات . . . وكان يوماً مشهوداً ، وارتفعت الأصوات من الناس بالدعاء للعسكر بالنصر على ابن عثمان الباغي ، وتباكت الناس لما عاينوا تلك العجلات والمكاحل والهمة العالية التي من السلطان فيما صنعه . . وتوجهوا إلى الريدانية عند تربة العادل التي هناك »(١٧١) .

وبالفعل فقد نقلت العربات والأسلحة النارية المختلفة إلى الريدانية وصفّت في تربة العادل. وقد جاءت الأمراء فيما بعد. وقد فاقت هذه الحملة عدّة وعدداً الحملة التي قام بها السلطان الغوري إلى مرج دابق ويعود الفضل في ذلك إلى الهمة العالية التي تميز بها السلطان طومان باي الذي كان شخصية فذة فأطلق يده في محاولة يائسة لإنقاذ السلطنة ومضى في مشاريعه المتعلقة بالأسلحة النارية. وقد استحق عن جدارة مديح ابن أياس له الذي ذكر في إحدى المناسبات أن هذا السلطان له عزم شديد في صنع العربات وسبك المدفع وعمل البندق الرصاص وكان له همة عالية ومقصده جميل :

« وهذه التجريدة أكثر عسكراً من التجريدة التي خرجت مع السلطان الغوري ، وكان هذا السلطان له عزم شديد في عمل هذه العجلات وسبك المكاحل وعمل البندق الرصاص وجمع من الرماة ما لا يحصى وكانت له همة عالية ومقصده جميلاً ولعل الله أن ينصره على ابن عثمان »(١٧٢) .

وقد عمد السلطان إلى حفر الخنادق ونصب عليها المدافع وصف حولها العربات كما بنى حائطاً بالريدانية لإخفاء تلك المدافع وقد شارك في بناء الحائط بنفسه(١٧٣) .

---

(١٧١) ابن اياس، المصدر نفسه ، جزء ٥ ، ص ١٣٤ .
(١٧٢) ابن اياس ، المصدر نفسه ، جزء ٥ ، ص ١٣٨ .
(١٧٣) ابن اياس ، المصدر نفسه ، جزء ٥ ، ص ١٤١ .

ولا بـد من الإشـارة إلى مـوقف المغـاربـة حملة البنـادق ازاء هـذه الاستعدادات الضخمة ورفضهم الاشتراك في القتال ضد العثمانيين المسلمين باعتبار أن المغاربة كانوا قد اعدوا لقتال الفرنج (البرتغاليين) فقط :

« فأرسلوا يقولون للسلطان : نحن ما لنا عادة نخرج مع العسكر ونحن ما نقاتل إلا الفرنج ما نقاتل مسلمين . واظهروا التعصب لابن عثمان »[١٧٤] .

هذا الموقف يلقي ضوءاً على كون الأسلحة النارية على اختلاف أنواعها والعناصر المـدربة كـانت قد اعـدت في الأصل لقتـال البرتغـاليين على جبهة السويس . ولدى تهديد السلطان ذعن المغاربة ولكن على غير رضى .

ولمـا تحقق السلطان طـومـان بـاي من وصـول العثمـانيين إلى بلبيس والعكرشة وكانوا في غالبيتهم من المشاة عمد إلى حرق الإهراءات وما فيها من حبوب وعلف .

ولدى وصول العثمانيين إلى بركة الحاج قرب الريدانية استعد المماليك ونظموا صفوفهم فكانوا نحواً من عشـرين ألف فارس وأشـرف السلطان بنفسه على تـرتيب الأمراء على قـدر منازلهم وصف العسكـر من الجبل الأحمـر إلى غيطان المطرية وكان للسلطان همة عالية في هذه الحركة[١٧٥] .

وظن السلطان أن المعركة سوف تطول بينـه وبين العثمانيين فجـاء الأمر خلاف ذلك . . ونشب القتال بمبادرة من العثمانيين لدى تقدمهم إلى الريدانية فجرت معركة عظيمة خاطفة استعمل خلالها العثمانيون السلاح الناري بكثـافة وبشكل مكّنهم من هزيمة المماليـك الذين لم يتمكنـوا من استخدام المـدافع والأسلحـة الناريـة المختلفة التي اعـدوها ولم يثبت في هـذه الموقعـة سوى السلطان في نفر قليل من العبيد الرماة بالبندق الرصاص فأبلوا بلاء حسناً ولكن

(١٧٤) ابن اياس ، المصدر نفسه ، جزء ٥ ، ص ١٣٧ .
(١٧٥) ابن اياس ، المصدر نفسه ، جزء ٥ ، ص ١٤٤ .

السلطان لدى انفضاض العسكر من حوله آثر الأنسحاب خوفاً على حياته ويقال إنه توجه إلى مكان يقال له طرا .

وبذلك انهزم المماليك وعمد العثمانيون إلى الاستيلاء على كافة الأسلحة والمعدات التي في الريدانية .

« ثم أن العثمانية تحايوا وجاءوا أفواجاً أفواجاً ثم انقسموا فرقتين فرقة جاءت من تحت الجبل الأحمر وفرقة جاءت للعسكر عند الوطاق بالريدانية فطرشوهم بالبندق الرصاص. فقتل من عسكر مصر ما لا يحصى عددهم . . فلم تكن إلّا ساعة يسيرة مقدار خمس درجات حتى انكسر عسكر مصر وولى مدبراً وتمّت عليهم الكسرة .

فثبت بعد الكسرة السلطان طومان باي نحو عشرين درجة وهو يقاتل بنفسه في نفر قليل من العبيد والرماة والمماليك السلحدارية ، فقتل من عسكر ابن عثمان ما لا يحصى عددهم ، فلما تكاثرت عليه العثمانية ، ورأى العسكر قد قلّ من حوله ، خاف على نفسه ، أن يقبضوا عليه فطوى الصنجق السلطاني وولى واختفى ، قيل إنه توجه إلى نحو طرا ، وهذه ثالث كسرة وقعت لعسكر مصر .

وأما الفرقة العثمانية التي توجهت من تحت الجبل الأحمر ، فإنها نزلت على الوطاق السلطاني وعلى وطاق الأمراء والعسكر فنهبوا كل ما كان فيه من قماش وسلاح وخام وخيول وجمال وأبقار وغير ذلك .

ثم نهبوا المكاحل التي نصبهم السلطان هناك ، ونهبوا تلك الطوارق والتساتير النخشب والعربات التي تعب عليهم السلطان وأصرف عليهم جملة مال ولم يفده من ذلك شيء ، ونهبوا البارود الذي كان هناك ، ولم يبقوا بالوطاق شيئاً لا قليلاً ولا كثيراً »[١٧٦] .

---

(١٧٦) ابن اياس ، المصدر نفسه ، جزء ٥ ، ص ١٤٥ .

وعلى أثر هذه المعركة دخل العثمانيون القاهرة وصحبتهم أمير المؤمنين محمد المتوكل على الله . وقد خطب باسم السلطان سليم على منابر القاهرة التي دخلها من باب النصر يوم الاثنين الثالث من محرم سنة ٩٣٣/ كانون الثاني ١٥١٧ ، فارتفعت له الأصوات بالدعاء من الناس قاطبة .

ولم يستسلم السلطان طومان باي بل ظهر وانتفض يقارع العثمانيين ويهاجمهم فاضطربت الأحوال إلى الغاية ، ونزل السلطان طوماي باي في جامع شيخو الذي بالصليبية وقد خطب باسمه على منابر القاهرة في يوم الجمعة وكان قد خطب في الجمعة الماضية باسم السلطان العثماني . واستمر طومان باي يقاتل العثمانيين وحده بمفرده في نفر قليل من العبيد الرماة وبعض الأمراء منهم الأمير شاد بك الأعور وبعض المماليك السلطانيّة. إلاّ أن السلطان طومان باي كان قليل الحظ ، غير مسعود الحركات في أفعاله ، فشدد عليه العثمانيون الخناق واضطر إلى الهرب إلى بركة الحبش . وعلى أثر ذلك أحرق العثمانيون جامع شيخو والبيوت حوله ونكلوا بالناس والزعر وطاردوا المماليك أينما وجدوا في البيوت والحارات والجوامع والمدارس والمزارات : « وصارت الجثث مرمية في الرملة الى سوق الخيل إلى الخيميين وقد تناهشت الكلاب أجسادهم . وصارت الخيول مرمية في الرملة وفي الأسواق والأزقة ، وقد قتلوا بالبندق الرصاص في الواقعة »(١٧٧) .

وبعد تلك المجزرة استتب الأمن للسلطان سليم في القاهرة فنصب في وطاقه سنجقين أحدهما أحمر والآخر أبيض وذلك لرفع السيف عن أهل المدينة بعد أن ملكها.

أما السلطان طومان باي فقد لجأ إلى الجيزة وجمع الجمّ الغفير من المماليك والعربان والتقى مجدداً بالعثمانيين عند كوم الحمام وكانت الكسرة هذه المرة على المماليك أيضاً بفضل استعمال العثمانيين للسلاح الناري .

---

(١٧٧) ابن اياس ، المصدر نفسه ، جزء ٥ ، ص ١٥٧ .

« ثم بعد ذلك تكاثرت العثمـانية على الاتـراك (المماليـك) وطرشتهم الـرماة بـالبندق الـرصاص ، فهـزموهم ووقعت الكسـرة على الاتـراك ، وولى السلطان طـومـان بـاي مهـزومـاً ، فتـوجـه إلى بلدة تسمى البـوطـة في أعـلا تروجه »[١٧٨] .

وهذه المعركة وصفها ابن زنبل في كتابه فتح مصر وأشار فيها إلى طريقة استعمال العثمانيين للأسلحة النارية كما أشار إلى مـدى فعاليـة هذه الأسلحـة فقال :

« ثم حملت العسـاكر على بعضهـا وشدت الحملة في رفعهـا وخفضها وطلبت كل طايفة إلى الأخرى هلاكها وفضها وقد تقدم بنا القول في غير هـذا الموضع إن الانكشارية لا يزيدوا على ثلاث صفوف وكـانوا يمشـون لا يخرج الرجل على الرجل كأنهم بنيان مرصوص فـإذا رمى الصف الأول تصيح عليـه الجاويشية فيقعد إلى الأرض ويقوم الصف الذي من ورائه ويرمي ثم يقعد إلى الأرض ويكون الصف الأخير محرر على الأطلاق فتأمرهم الجاويشية بـالرمي فإذا انتهى الصف الثالث من الرمي فيكون الصف الأول قد عبى وأرمى وكذلك يفعلون وما زالوا على مثل ذلك الـرمي إلى أن انقلبت الدنيـا بالـدخان وصـار عسكر الروم وعسكر الجراكسة والعربان ما فيهم أحد ينظر ما يصنع وصار غالب المشاة يقوم ويقع والخيل لا تدري أقدامها في أين تضع واندفعت الفرسان على بعضها بعضاً كالماء إذا كان محبوساً في وضيع وخرج واندفع »[١٧٩] .

ولعل أدق قول في وصف العثمانيين قول السلطان طومان باي : « فإنهم ليسوا بفرسان خيل وإنما هم اعتمادهم على النار لا على السيف »[١٨٠] .

---

(١٧٨) ابن اياس ، المصدر نفسه ، جزء ٥ ، ص ١٧١ .
(١٧٩) ابن زنبل، فتح مصر ، جزء ٢ ، ص ١٧١ .
(١٨٠) ابن زنبل، المصدر نفسه ، جزء ٢ ، ص ١٨٣ .

وفي الواقع فإن الدور الحاسم الذي لعبته الأسلحة النارية العثمـانية في سحق آلة المماليك الحربية لم يصور في أي مكان آخر بالوضوح الذي صور فيه عند ابن زنبل ، وإذا كان وصف المعارك قد غلب عليه أحياناً طـابع المغـالاة واللون الأسطوري ، إلاّ أنه ابرز بوضوح تأثير الأسلحة النارية المادي والمعنوي في تقرير مصير المعركة :

« نزلت عليهم الانكشارية مثل العقبان ورموا عليهم طلقاً مما عبـوه من النيران أقلب الدنيا ومـلأ الآفاق بالـدخان وكـان كجهنم إذا فاضت لا يمنعهـا حيـطان ولا بيان فكنت تـرى البنـدق من البنـدقيـات والحجـارة من المـدافـع السبقيات نازلة كالسحاب الماطرات التي وقعت في كل مكان »[١٨١] .

أما الأسباب الرئيسية لهزيمة المماليك حسب قول ابن زنبل فهي تتلخص فيما يلي :

أولاً : ـ لم يكن هناك تضامن في صفوف المماليـك ويعود ذلـك إلى الحظوة التي منحها قانصوه الغوري لمماليكه من الجلبان إلى حد أن وطيس المعركة في مرج دابق قد قام على أكتاف المماليك القرانصة الذين كـان السلطان يعتزم تخفيف عـددهم وقـد أورد ابن أيـاس الاتهـام نفسه .

ثانياً : ـ التفوق العددي العثماني الهائل على المماليك واستعمالهم لـلأسلحة النارية .

ثالثاً : ـ خيانة بعض كبار الأمراء لا سيما خاير بك وجان بردي الغـزالي الذين انضموا إلى العثمانيين وساهموا في الحط من معنويات المماليك .

رابعاً : ـ خيانة القبائل العربية للمماليك ومساعدتهم للعثمانيين .

---

(١٨١) ابن زنبل ، المصدر نفسه ، جزء ٢ ، ص ١٦٨ .

وقد أوضح ذلك الأمير شاد بك مخاطباً السلطان طومان باي فقال :

« العربان صارت كلها أعداء لنا وليس فيهم من يقاتل معنا ولا يكافح عنا لأنهم ما منهم إلّا من قتلنا له إمّا أباه إمّا أخاه إمّا ابن عمه أو أحداً من أقاربه . . .

وأما عدونا . . . ليس بينه وبينهم (شيئاً) من العداوات ولا نالهم منه إلّا الخيرات فانه تذهب إليه كبارهم فيعطيهم ويعلق آمالهم بديل المطامع ويحلف لهم أنه لا يؤذيهم ولا يقتل منهم ولا يأخذ خراجاً وإنما يأخذ منهم العشر ويحكم بينهم بالعدل وإقامة الشريعة المطهرة ولا سيما معه هذان الشيطانان خاير بك والغزالي وهما كل من أتاهما يقولان هذا الملك عادل أهل الخير والانصاف ويكره الظلم والاسراف ويستميلان قلوب الناس إليه »[١٨٢] .

وفي موضع آخر ينشد الأمير شاد بك ويشير إلى كثرة عدد العثمانيين واستعمال المدافع وخيانة خاير بك والغزالي فيقول :

«فجاؤنا من الأروام قوم ... لهم عدد كما عدد الجرادي
لقينا منهم حرباً شديداً ... ورمى مدافع كل نادي
وما فادتهم مدافعهم ولكن ... أذانا بعضنا بعض يعادي
وخير بك الذي مواصل هذا ... وتابعه الغزالي بالعنادي
وجانم ثم خشقدم الملاخي ... فلا يجزوا بخير في العمادي »[١٨٣]

وعن تحول العربان ضد المماليك وخيانة حسن بن مرعي شيخ قبائل البحيرة للسلطان طومان باي، ذكر ابن أياس أن طومان باي لما «انكسر توجه نحو تروجه في الغربية فلاقاه حسن بن مرعي وابن أخيه شكر مشايخ البحيرة في ضيعة تسمى البوطة فعزم حسن بن مرعي وشكر على السلطان طوماي باي

(١٨٢) ابن زنبل ، المصدر نفسه ، جزء ٢ ، ص ١١٥ .
(١٨٣) ابن زنبل ، المصدر نفسه ، جزء ٢ ، ص ١٦٩ ـ ١٧٠ .

هناك . . فلما استقر عنده احتاطت به العربان من كل جانب وأرسل أعلم السلطان سليم شاه بذلك ، فأرسل إليه جماعة من عسكره قبضوا عليه ووضعوه في الحديد وتوجهوا به إلى ابن عثمان . فلما رأى من كان مع السلطان طوماي باي من الأمراء والعسكر أنهم قبضوا عليه تفرقوا من حوله وتشتتوا في البلاد »[١٨٤] .

ولقد شنق السلطان طومان باي على باب زويلة في القاهرة يوم الاثنين في الثاني والعشرين من ربيع الأول ٩٢٣ / نيسان ١٥١٧ ، وبذلك استتبت الأمور للعثمانيين في مصر .

ي ـ موقف مجتمع المماليك العسكري من الاسلحة النارية

والحقيقة تقال أن نقطة الضعف الأساسية لدى المماليك لم تكن في كمية الأسلحة وإنما في كيفية استخدامها . ففي حين غابت الأسلحة النارية عن مرج دابق إلّا أن وجودها كان جلياً وواضحاً في معركة الريدانية ، غير أن ضيق الوقت وبالرغم من جهود طومان باي اليائسة لم يفسح المجال أمام وحدات المماليك الصرفة للتدرب على هذه الأسلحة الجديدة وبالتالي حسن استعمالها ولذلك جندّت الوحدات المتدنية اجتماعياً لاستخدامها في حين تَرفَّعت كامل وحدات المماليك الصرفة بكبرياء عن اعتمادها ومن هنا كان الخلل في مسألة استخدام الأسلحة النارية في سلطنة المماليك .

إن هذا الموقف السلبي من الأسلحة النارية كان مدعوماً إلى حد بعيد بقلة الانضباط والخلافات الداخلية وهي عوامل ناجمة عن البنية المميزة لمجتمع المماليك العسكري . وقد تضافرت هاتان النزعتان ، العداء للسلاح الناري والخلافات الداخلية ، وكل واحدة عظيمة بحد ذاتها وخنقت في المهد أية محاولة لفرض السلاح الناري على وحدات المماليك الأساسية .

---

(١٨٤) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جزء ٥ ، ص ١٧٤ .

إن مـراجعة الفن العسكـري التقليدي في سلطنـة المماليـك تؤدي إلى الاستنتاج التالي :

ارتكز أساساً الفن العسكري التقليدي لجيش المماليك وتمارين الفروسية على السيف والرمح والقوس وتمحور ذلك حول امتطاء الخيل وما يتبع ذلك من مبادىء ومفاهيم كانت من الناحية الأولى ركيزة مجتمع المماليـك العسكري ، ومن الناحية الثانية من العقبات الرئيسية أمام دخول الأسلحة النـارية إلى ذلـك المجتمع .

والنظرة الخاطفة إلى هذه الظاهرة في مجتمع المماليك هي مهمة بحـد ذاتها لأنها تعطي تفسيراً لمحاولة قانصوه الغوري أحياء الفن العسكري التقليدي إلى جانب التشديد على الأسلحة النارية .

فالمماليك توهموا أن وحداتهم التي تمسكت بأسلحتها التقليدية القديمة كان بإمكانها القضاء على أي خطر تتعرض له السلطنة ولذلك أدى اهتمام الدولة بتمارين الفروسية إلى زيادة احترام الجيش لهذه التمارين وتعلقه بهـا وبالتـالي عدم تقبله واهتمامه بالسلاح الناري الجـديد بـالإضافـة إلى أن احياء تمـارين الفروسية قد نما وترعرع على حساب تطور الأسلحة الناريـة ، فقد كـان جزءاً جوهرياً من إمكانيات السلطنة الحربية يحـول من مجال الأسلحـة الناريـة إلى مجالات أخرى عديمة الفائدة .

إن إحدى المميزات الرئيسية لتاريخ الأسلحة النارية في سلطنة المماليك هي استخـدام المدفعيـة في الحصار فقط (كسـلاح دفـاعي وهجـومي معـاً) والاصرار على رفض استخدامها في ساحة القتال حتى نهاية حكم المماليك . وهذا يشكل تناقضاً صارخاً لتاريخ المدافع في أوروبا .

إن التزايد المستمر لاشتراك المدفعية في أعمـال الحصار ، في سلطنـة المماليك ، وغيابها الكـامل عن سـاحة القتـال ليس مجرد صـدفة إذ أن سبب

اعتماد المدفعية المتواصل كسلاح للحصار يعود إلى كونها لا سيما في سنواتها الأولى لم تؤد عملياً إلى أية تغييرات جذرية في الأساليب التقليدية للحصار . وسبقت المدافع آلة حصار أخرى هي المنجنيق ، الذي كان يقوم تماماً بنفس المهمة والذي بقي متفوقاً على الأسلحة النارية لمدة طويلة .

ولقد ذكر القلقشندي آلات الحصار هذه وتحدث عن المنجنيق والمدافع وغيرها : « آلات الحصار وهي عدة آلات منها المنجنيق ، السهام ، الخطايا ، ومنها مكاحل البارود ، وهي المدافع التي يرمي عنها بالنفط وحالها مختلف : فبعضها يرمى عنه بأسهم عظام تكاد تخرق الحجر ، وبعضها يرمى عنه ببندق من حديد من زنة عشرة أرطال بالمصري إلى ما يزيد عن مئة رطل »(١٨٥) . على كل حال كانت الظروف تختلف كل الاختلاف ، فقد كانت المدفعية تجديداً كاملاً لم يسبقه أي سلاح مشابه ، وأوجبت تعديلات فعالة من حيث التكتيك والأساليب الحربية دفعت بالهرمية العسكرية عند المماليك إلى اعتماد خط معارض للتجديد التكنولوجي المطلوب ، ومع ذلك وفي مناسبات عدة عمد المماليك عندما دعت الحاجة إلى استعمال المدافع في الرمي على القلاع أو الدفاع عنها(١٨٦) .

ولا بد لنا أن نتساءل ما هو موقف المماليك ازاء استخدام البندقية ؟ الواقع كان ازدراء المماليك للبندقية يفوق كرههم للمدفعية . وتفسير ذلك أن المدفعية كانت قطاع الفنيين المتخصصين الذين لا يشكلون من حيث العدد سوى قسم يسير من عديد الوحدات المقاتلة ، وعددهم هذا كان لا يؤدي إلى أي تغيير جوهري في هيكلية الجيش .

بينما كانت البندقية عبارة عن سلاح فردي تسلح به مجموعات كبيرة من الجيش واعتماد مثل هذا السلاح كان يتطلب عدداً كبيراً من القوات . وفي حال

---

(١٨٥) القلقشندي ، صبح الأعشى ، جزء ٢ ، ص ١٤٣ .

(١٨٦) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جزء ٣ ، ص ٦٦ ، ١٥٦ ، ٣٤٣ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٤٥٨ .

اعتماد هذا السلاح على نطاق واسع كان لا بد من احداث تغييرات في الأنظمة والأساليب الحربية .

إن تجهيز المملوك بالبندقية كان يعني انتزاع قوسه وحرمانه من حصانه وهذا ما كان المماليك يعتبرونه تدبيراً لا يحتمل . فبهذه الطريقة يتحول المملوك إلى عديد الهوان أي المشاة ويرغم على السير .

فالفروسية وكل ما يعود إليها كانت المحور الذي يدور حوله نمط الطبقة العليا من المماليك والذي استقت منه هذه الطبقة كبرياءها وشعورها بالتفوق . وهذه الأمور هي التي كانت تستحوذ الأهمية وبدونها تصبح الحياة باهتة وفارغة من كل معنى .

فالعلاقة الوثيقة بين المملوك والحصان والقوس لم تنشأ فقط في المدارس العسكرية في العاصمة بل كانت عميقة الجذور وبدأت في حداثته الباكرة عندما كان في هضاب وجبال البلاد التي نشأ فيها حيث كان الفارس العمود الفقري للمجتمع في زمن الحرب وزمن السلم معاً .

وعندما تكون الخلفية النفسية على هذا النحو، لا يؤثر إنحطاط الفروسية نفسه على ميول وتطلعات المملوك ؛ قد يصبح المملوك كسولاً أو مشاغباً أو غير منضبط أو سيء التدريب لكنه مع ذلك يبقى فارساً تتأصل فيه جذور التفوق على الطبقات الأخرى المجردة من الفروسية .

وليس هناك أية دلائل مباشرة أو غير مباشرة ، تفيد أن الهوة العريضة بين طبقة المماليك الحاكمة وبقية الشعب بما فيها الجنود والمدنيين ، قد ضاقت إلى حد ما ، خلال سنوات إنحطاط الجيش . بل على العكس ، إذ يبدو أن الهوة قد ازدادت عرضاً ؛ ففي عهد المماليك البحريين (١٢٥٠ ـ ١٣٨٢) كانت ما تزال هناك ، إلى جانب الفرسان المماليك ، عناصر قوية من غير المماليك ، وقد ضعفت هذه العناصر كثيراً ، وربما اختفت تماماً خلال عهد

الشراكسة (١٣٨٢ ـ ١٥١٧) إذ منع لأغراض شتى من كان من غير المماليك من ركوب الخيل .

وبهـذه الطريقـة أصبح المماليك طبقـة الفرسـان الوحيـدة المتبقية في العاصمة المصرية ، ولكون كلمة فـارس قد اصبحت الى حـد ما خـلال عهد الشراكسة مرادفة لكلمة مملوك في أوساط المدنيين في القاهرة ، فقد أدى ذلك إلى تعزيز الشعور بالتفوق عند المماليك لا سيمـا على الذين كـانوا سـابقاً من عديد الفرسان . وكان لهذه المسألة مغزا خاصاً لأن هؤلاء الفرسان السابقين قد حولوا لتشكيل العديد الرئيسي الذي جند منه حملة البنادق .

من هنا نستخلص أن المماليك الذين احتفظوا بخيولهم لم يعد بالامكان تحويلهم إلى حملة بنادق . وتركزت كل محاولة لتوسيع نطاق استخدام البنادق على غير المماليك من الطبقة الاجتماعية الدنيا في الجيش ، وهذا مـا اعتمده سلاطين المماليك في بداية عهدهم . ونتيجة لذلك حصل تضارب بين مصلحة السلطة ومصالح الهرمية العسكرية .

أما الخطر الخارجي المتزايـد فقد مكن السلطان الغـوري دون شك من توسيع الحدود الضيقة التي كانت مفروضة على استخدام البندقية من جراء كره المماليك لها ، ومكنه ذلك من دمج رجال من وحدات أخرى في وحدة حملة البنادق . وقد كان هؤلاء الرجال الجدد ينتسبون إلى طبقات اجتماعية أرفع من طبقة حملة البنادق الأوائل . لكن هذا النجاح لم يتعد تلك الخطوة .

ومن ذلك نستخلص أن البندقية لم تتمكن من تفادي قـدرها المشؤوم . والحقيقـة أن نظرة المماليك إلى البنـدقية كـانت أسوأ ممـا نتوقـع . وتاريـخ اعتمادها له مدلوله .

إن أول ذكر للبندقيـة ورد سنة ٨٩٥/ ١٤٩٠[١٨٧] أي قبـل زوال سلطنة

---

(١٨٧) ابن اياس ، المصدر نفسه ، جزء ٣، ص ٢٦٣ .

المماليك بسبعة وعشرين عاماً فقط ، وبعد اعتماد البندقية في أوروبا بنحو مئة وخمس وعشرين سنة (بدأ استخدام البندقية في أوروبا سنة ١٣٦٥) .

أما المدفعية فقد أدخلت سلطنة المماليك بعد حوالي أربعين سنة من اعتمادها في أوروبا[١٨٨] . من هنا نلاحظ أن الفرق الزمني لم يكن وليد الصدفة !

إن كره المماليك لاستخدام السلاح الناري في ساحة القتال يعطينا فكرة عن مدى اتساع الهوة غير القابلة للردم بين نمط الحياة عند المماليك وبين استخدام الأسلحة النارية . وللوقوف على مدى اتساع هذه الهوة يجدر بنا دراسة تاريخ سلطنة المماليك خلال عقودها الأخيرة . فطالما لم يظهر خطر آني محدق يهدد السلطنة فقد بقي النفور كابياً . وبإمكاننا القول بصدق أن المماليك لم يعتمدوا الأسلحة النارية على نطاق واسع لأنهم كانوا يتدبرون شؤونهم الحربية بصورة مرضية وبدون هذه الأسلحة .

وعندما توجب على السلطنة أن تستعد لصراع الحياة أو الموت ضد العثمانيين في الشمال والشمال الغربي ، وضد البرتغاليين في الجنوب الشرقي ، لم يعد هناك مجال للتسويف والمماطلة ، واضحى على الدولة اتخاذ قرار بشأن استخدام الأسلحة النارية .

ولذلك كان لابد للسلطان الغوري (٩٠٦/ ١٥٠٠ ـ ٩٢٢/ ١٥١٦) من انتهاج خط جديد تعطى بموجبه أهمية أكبر للأسلحة النارية على اختلاف أنواعها . وصحيح أن السلطان الغوري قد قدّم بعض التنازلات الهامة ظاهرياً لاستخدام الأسلحة النارية لكنها كانت في الحقيقة ضئيلة الأهمية إذ فرض في جميع هذه التنازلات شرطاً واحداً وهو أن الهيكلية الحالية لمجتمع المماليك لن تكون عرضة لأي تغيير مهم .

---

(١٨٨) Ayalon. D., Gunpowder and Firearms in the Mamluk Kingdom, London , 1956, p. 63.

بالطبع كان قرار السلطان نصراً كبيراً للنظام القـديم الوقـور على النظام الجديد وبالتالي كان بمثابة حكم الإعدام لفكرة إعادة تـنظيم جيش المماليـك حسبما يفرضه التطور التكنولوجي .

فبدون تطوير مجتمع المماليك مع المفاهيم المتشبث بها ، إنعدم الأمل باستخدام الأسلحة النارية بصورة فعالة .

وعندما أدرك السلطان طومان باي هذا الواقع وحشد أسلحته النـارية في محاولة يائسة للدفاع عن القاهرة كان الآوان قد فات لسـرعة تحـرك العثمانيين واطباقهم عليه باسلحتهم النارية من جهة ولعدم تمكن المماليـك من التـدرب على الأسلحـة الجديـدة وبالتـالي حسن استعمالهـا من جهة ثـانية بـاعتبار أن العناصر المدربة من المماليك خاصة الطبقة الخامسة كـانت تقاتـل في جهات الهند وفي أمكنة بعيدة جداً عن القاهرة وضواحيها . ولو فرضنا جدلاً تواجد هذه الـطبقـة ومن رافقهـا من حملة البنـادق إلى جبهـة السـويس في مـرج دابق أو الريدانية لكانت نتائج العمليات الحربية ربما لصالح المماليك وهذا الطرح هو مسألة فيها نظر .

ك ـ موقف البندقية Venice إزاء ما يجري في شرقي المتوسط

ولا بد لنا هنا من التساؤل ، ما هو موقف جمهورية البندقيـة ازاء سلطنة المماليك التي كانت تخوض معركة الحياة أو الموت ؟

الواقع أن البندقية في الأيام العصيبة والأخيرة من عهد سلطنة المماليـك لم تحرك ساكناً ولـم تساعد السلطان لا بالسلاح ولا بالخبراء ولا الفنيين من أجل التدريب. وكل مـا فعلته هـو تشجيع الغـوري على قطع الأخشـاب من خليـج الاسكندرونة لبناء الأسطول لتجهيز حملة إلى السويس لدرء خطر البرتغاليين في المحيط الهندي .

وهذه الخطوة كانت تهدف إلى حماية طـريق الفلفل والتـوابل والتجـارة

الشرقية عموماً من تهديد البرتغاليين وبالتالي تأمين مصالح البندقية وتجارتها مع الشرق التي هي مصدر ثرائها وقوتها .

وفي هذا الإطار عمدت البندقية إلى اعتماد لعبتها المزدوجة المعهودة عن طريق الانتظار والتريث لترى لمن تكون الغلبة لتتعامل معه ولذلك لم تتدخل في الحرب الدائرة ما بين المماليك والعثمانيين .

وإذا ما تفحصنا المصادر المتوفرة لدينا لما وجدنا أي دليل لضلوع البندقية بمساعدة سلطنة المماليك عسكرياً عن طريق إرسال الأسلحة أو الخبراء وكل ما لدينا إشارة أولى إلى إشاعة سرت في القاهرة ومفادها أن صاحب رودوس قد أرسل إلى السلطان طومان باي في الحادي والعشرين من ذي الحجة ٩٢٢/ الخامس عشر من كانون الثاني ١٥١٧/ معونة من عدة مراكب تضّم ألف رام بالبندق الرصاص وذخائر لمواجهة السلطان سليم العثماني . غير أن ابن أياس نفى هذه الإشاعة التي ليس لها صحة :

« وفي ذلك اليوم اشيع أن صاحب رودس أرسل إلى السلطان ألف رام من جماعته يرمون بالبندق الرصاص ، وأرسل إليه عدة مراكب فيها بارود ، فدخلت تلك المراكب إلى ثغر دمياط ، وأرسلوا يعلمون السلطان بذلك ، وهذه معونة من صاحب رودس إلى سلطان مصر حتى يستعين بذلك على قتال ابن عثمان الباغي على أهل مصر ، فلم يظهر لإشاعة هذه المعونة خبر ولا نتيجة وإنما هي إشاعة ليس لها صحة فيما نقل عنها »[(١٨٩)] .

أما الإشارة الثانية فقد وردت حين أتهم العثمانيون أنفسهم البندقية بمساعدة السلطان عن طريق مدّه بالأموال اللازمة لمحاربتهم. والواقع أنه لدى سقوط القاهرة ومقتل السلطان طوماي باي كان يتواجد في الإسكندرية مراكب بندقية قليلة وعليها كميات لا يستهان بها من الفضة قيل أنها أرسلت لمساعدة

---

(١٨٩) ابن اياس، المصدر السابق، جزء ٥ ، ص ١٣٩ .

السلطان في مقاومته للعثمانيين . غير أن البندقية نجحت في إثبات براءتها من هذه التهمة عن طريق إرسال السفيرين برتولوميو كونتاريني Bartolommeo Contanarini والفيز ماسنيجو Alvise Macenigo لدى السلطان سليم في القاهرة وأكدا له أن الأموال المرسلة ما هي إلّا ثمن الفلفل والتوابل المتوجب شراؤها من ذخيرة السلطان حسب الاتفاقيات المعقودة(١٩٠) .

في الحقيقة كانت البندقية في وضع لا يسمح لها كثيراً بمساعدة مصر أو بإرسال مراكب عديدة إلى سلطنة المماليك لأسباب تعود إلى حالة السلطنة نفسها ولأسباب تعود إلى الجمهورية ذاتها .

إن أكتشاف طريق الهند عبر رأس الرجاء الصالح كان ضربة قاسمة لتجارة الهند المارة في ديار سلطنة المماليك خاصة بعد أن احتل البرتغاليون جزيرة هرمز (١٥١٥) ومنعوا بذلك قسماً مهماً من السلع الشرقية من المرور عبر الخليج الفارسي (العربي) وبلاد ما بين النهرين وبالتالي الوصول إلى الثغور السورية حيث كان الإيطاليون وغيرهم يأتون إلى دمشق وحلب وبيروت وطرابلس لشرائها .

أما في البحر الأحمر فلم يكن تدخل البرتغاليين حاسماً لوجود الأسطول المصري هناك ولذلك كانت المراكب التجارية الإسلامية تجوب هذا البحر بحرية وأمان ، غير أن الملاحة في المحيط الهندي وبالقرب من سواحل الملابار كانت على جانب عظيم من الخطورة بسبب تعبث البرتغاليين ، غير أن هذا لم يمنع عدداً من المغامرين المسلمين الأشداء من النجاح في تمرير كميات محددة من السلع الشرقية عبر طرق بحرية ملتوية .

والواقع أن هذه البضائع لقلتها ونوعيتها ما كانت تملأ إهراءات

---

(١٩٠) Heyd. W., Histoire du Commerce, vol. II, pp. 564.

الإسكندرية -أو بيروت وما كانت تفي بحاجة مراكب البندقية التي كانت تغادر بيروت والإسكندرية وعنابرها شبه فارغة .

لذلك خففت البندقية كثيراً من إرسال مراكبها إلى مرافىء السلطنة لخلو تلك الثغور من البضائع المطلوبة ولسوء معاملة المماليك وسلطات الثغور المصرية والشامية للتجار الأجانب .

وقد أشار ابن أياس إلى وضع السلطنة في أيامها الأخيرة وذكر حالة البلاد وفراغ الخزينة وخراب كل من بندر جدة بسبب الحصار الذي فرضه البرتغاليين وبندر الإسكندرية بسبب عدم دخول المراكب التجارية إليه :

« وكان في تلك الأيام (محرم ٩٢٠/ شباط ١٥١٤) ديوان المفرد وديوان الدولة وديوان الخاص في غاية الانشحات والتعطيل . فإن بندر الإسكندرية خراب ولم تدخل إليه القطائع في السنة الحالية ، وبندر جدة خراب بسبب تعبث الفرنج على التجار في بحر الهند ، فلم تدخل المراكب بالبضائع إلى بندر جدة نحواً من ست سنين وكذلك جهة دمياط »[١٩١] .

وقد عزا ابن أياس انشحات الدواوين بسبب ما جدده السلطان من العسكر حملة البنادق في الطبقة الخامسة المخصصة لجبهة السويس وهذا موقف عدائي آخر من السلاح الناري : « وكان العسكر كثيراً ولا سيما ما جدده السلطان من العسكر في الطبقة الخامسة فانشحتت الدواوين من الجوامك واللحوم والعليق بسبب ذلك »[١٩٢] .

وقد توسع ابن أياس في وصف حالة الإسكندرية ، فذكر أن أعيان التجار من المسلمين والفرنج قد هجروها بسبب ظلم النائب وجور القبّاض :

---

(١٩١) ابن اياس، بدائع الزهور، جزء ٤ ، ص ٣٥٨ .

(١٩٢) ابن اياس ، المصدر نفسه ، جزء ٤ ، ص ٣٦٩ .

« وكان ثغر الإسكندرية يومئذ (ذو الحجة ٩٢٠/ كانون الثاني ١٥١٥) في غاية التزحل والخراب. . . .

ولم يكن بثغر الإسكندرية يومئذ أحد من أعيان التجار لا من المسلمين ولا من الفرنج ، وكانت المدينة في غاية الخراب بسبب ظلم النائب وجور القبّاض ، فإنهم صاروا يأخذون من التجار العشر عشرة أمثال ، فامتنع تجار الفرنج والمغاربة من الدخول إلى الثغر ، فتلاشى أمر المدينة وآل أمرها إلى الخراب »[١٩٣] .

وكان في الإسكندرية بعض تجار البندقية في تلك الفترة ولقد نثروا على رأس السلطان الغوري بعض الذهب والفضة لدى زيارته لثغر الإسكندرية في شهر ذي الحجة ٩٢٠/ كانون الثاني ١٥١٥ : « فنثر بعض تجار الفرنج البنادقة على رأسه بعض ذهب وفضة »[١٩٤] .

وهذا مبلغ ضئيل فيه من الذهب والفضة وهو يشير إلى وضع التجار البنادقة المتردي بسبب اضطراب التجارة ، وكان من عادة هؤلاء التجار البنادقة أن ينثروا بكثرة الذهب البندقي الخالص على رؤوس السلاطين لدى زيارتهم للإسكندرية وقد ذكر انهم نثروا ألف دوكات (دينار) بندقي ذهب على رأس السلطان قايتباي لدى دخوله الإسكندرية سنة ١٤٧٧/٨٨٢ : « ثم دخلها بعد ذلك الأشرف قايتباي في سنة اثنتين وثمانين وثمانماية وأوكب بها وحملت القبة والطير على رأسه ، فلما شق المدينة نثر عليه بعض تجار الفرنج البنادقة الف بندقي ذهب »[١٩٥] .

وقد أدى خراب بندر جدة وبندر الإسكندرية ليس فقط إلى امتناع التجار من الدخول اليهما بل إلى فقدان البضائع التي كانت تجلب من الشرق والغرب

(١٩٣) ابن اياس ، المصدر نفسه ، جزء ٤ ، ص ٤٢٤ .
(١٩٤) ابن اياس ، المصدر نفسه ، جزء ٤ ، ص ٤٢٣ .
(١٩٥) ابن اياس ، المصدر نفسه ، جزء ٤ ، ص ٤٢٠ .

على السواء وبدل الحديث عن التوابل والسلع الثمينة التي كانت تتداولها التجار في ثغور السلطنة ، ذكر ابن أياس سلعاً رخيصة كالشاش والأزر والانطاع فقط والتي بدورها عزّ وجودها .

«وكان حسين نائب جدة يأخذ العشر من تجار الهند المثل عشرة أمثال فامتنعت التجار من دخول بندر جدة وآل امره إلى الخراب وعزّ وجود الشاشات من مصر والأزر والانطاع ، واخرب البندر .

وكذلك بندر الإسكندرية وبندر دمياط ، فامتنعت تجار الفرنج من الدخول الى تلك البنادر من كثرة الظلم وعزّ وجود الاصناف التي كانت تجلب من بلاد الفرنج »[١٩٦] .

وبالإضافة إلى الحالة الإقتصادية المتردية في سلطنة المماليك وخراب البنادر وفقدان السلع الشرقية منها ، كان للبندقية أسباباً خاصة وملحة تمنعها من إرسال مراكبها إلى الثغور الإسلامية في شرقي المتوسط وفي طليعة هذه الأسباب تورط الجمهورية في حربها الدائرة ضد حلف كمبراي League of Cambray الذي تشكل في فرنسا سنة ١٥٠٩ من غالبية الدول الأوروبية بهدف السيطرة على إيطاليا . وتفسير ذلك أن البابا يوليوس الثاني (١٤٤٣ - ١٥١٣) قد ترأس حلف كمبراي هذا في محاولة لتحضير حملة صليبية ضد الأتراك وتقضي هذه الحملة لنجاحها حسب مزاعم فرنسا بحرمان البندقية أولاً من كافة ممتلكاتها ومستعمراتها وسبب ذلك أن لويس الثاني عشر كان يتهم دائماً البندقية بمحاولة تفشيل مشروعات البرتغال الضخمة وبمساعدة سلطان مصر ضدها عن طريق مدّه بالخبراء والإختصاصيين والامدادات الحربية وذلك إنتقاماً من البرتغال لرفضها إشراك البندقية في مشاريعها في تجارة الشرق[١٩٧] .

---

(١٩٦) ابن اياس، المصدر السابق ، جزء ٥ ، ص ٩٠ .

(١٩٧) Depping. G., Histoire du Commerce, vol. II, p. 279.

طبعاً نفت البندقية كل هذه الإتهامات واستعدت لمواجهة أعدائها الراغبين في تفتيتها وإبتلاع ممتلكاتها وتقسيم أراضيها فيما بينهم على الوجه التالي : تكون حصة البابا رومانيا كلها ، في حين يأخذ إمبراطور النمسا ، فريولي Friuli وفنتو Veneto وترفيزو وبادوا Padua . أما حصة ملك هنغاريا فهي دلماسيا Dalmatia وحصة دوق سافواي فهي قبرص في حين يضع ملك فرنسا يده على لمبارديا Lombardy وملك إسبانيا على أبوليا Apulia(١٩٨) .

المعركة الأولى ضد ملك فرنسا جرت بتاريخ ١٤ آيار ١٥٠٩ في أغنادلّو Agnadello بالقرب من مدينة ميلانو وكانت نتيجتها هزيمة نكراء للبندقية التي أخذت تستعد للدفاع عن نفسها ، فتحضرت لحصار طويل قد يجريه ملك فرنسا فجلبت كثيراً من القمح على متن مراكبها وسلّحت المزيد من الشواني galleys لتكون جاهزة للتدخل عند المعركة . وقد عمدت البندقية إلى بذل الجهود الكافية لدفع البابا وإمبراطور النمسا على الانسحاب من الحلف . كما ناقش بعض أعضاء مجلس الشيوخ البندقي بجدية مسألة طلب مساعدة الأتراك ! وقد بذل تجار وأعيان المدينة أموالاً طائلة لتجهيز الجيش ولتمكين دار الضرب من متابعة إرسال النقود إلى المعسكرات .

وقد إرتفعت معنويات البنادقة عندما وصلت إليهم أنباء إنتفاضة الفلاحين والعمال في الأماكن والمدن التي إحتلها الفرنسيون وغيرهم فتشجعوا وهاجموا بزوارقهم مدينة بادوا Padua فاحتلوها في حين كانت مراكبهم تسد منافذ خليج البندقية . ولم تفلح محاولة إمبراطور النمسا في إسترجاع المدينة وعلى أثر ذلك غيّر قداسة البابا وملك إسبانيا موقفهما وإنضما إلى البندقية لتوحيد الجهد بهدف طرد الفرنسيين. ولما تمّ ذلك قلبت البندقية المعاهدات وانضمت إلى فرنسا من أجل إستعادة برشيا Brescia وفرونا Verona . وبعد سبع سنوات من الحرب

---

(١٩٨) Lane. F., Venice, A Maritime Republic, p. 243.

تمكنت الجمهورية سنة ١٥١٦ من إسترجاع تقريباً كافة ممتلكاتها وأراضيها السابقة[١٩٩] .

وهذه الحرب قد أثرت بطريقة مباشرة على موقف البندقية مما كان يجري في الجهة الشرقية من البحر المتوسط .

فمن جهة لم يكن بإمكان البندقية التخلي عن أي مركب حربي أو عتاد أو سلاح وإرساله للمساعدة إلى سلطنة المماليك لحاجة الجمهورية إليه في حربها الدائرة ضد حلف كمبراي . ومن جهة ثانية لم تكن الأموال متوفرة للجمهورية لإرسال كثير من المراكب إلى ثغور السلطنة لشراء ما تحتاجه من السلع الشرقية ، فالمراكب التجارية بغالبيتها والأموال بمعظمها كانت مكرسة للمجهود الحربي بالإضافة إلى أن وضع البنادر في السلطنة وسوء المعاملة للتجار الأجانب وخلو هذه البنادر من السلع الشرقية كان لا يشجع البنادقة على المخاطرة والمجيء إلى الإسكندرية وبيروت أو غيرها .

والواقع أن البندقية كعادتها ، كانت تتريث لترى لمن تكون الغلبة في الصراع الدائر في الشرق ، فلما تحققت من أن الغلبة هي للسلطان سليم ، أسرعت وأرسلت إلى القاهرة سفيريها الفيز ماسنيجو وبرتولوميو كونتاريني لمقابلة السلطان العثماني والطلب إليه تأكيد إمتيازات الجمهورية القديمة في كل من سوريا ومصر . وقد تعهدت البندقية أن تدفع للسلطان الجديد الفدية المفروضة على قبرص والتي كانت تدفع لسلاطين المماليك وقدرها ثمانية آلاف دوكات . ولما كانت هذه الفدية تدفع عيناً فقد اشترط السلطان سليم أن تدفع ذهباً وفي اسطمبول . ولما أثبتت البندقية براءتها وعدم تورطها في مساعدة السلطان الغوري عن طريق مده بالأموال التي ضبطت على متن بعض المراكب التابعة لها والتي كانت تتواجد في الإسكندرية لدى دخول العثمانيين إلى مصر وافق السلطان العثماني على تجديد الإمتيازات القديمة للبندقية

---

(١٩٩) Lane. F. Ibid., pp. 244 - 245.

ووقعها بتاريخ ٨ أيلول سنة ١٥١٧ وقد تمّ تسليم الإتفاقية الجديدة إلى قنصل البندقية في الإسكندرية نيقولو براغادينو Niccolo Bragadeno(٢٠٠) .

وبالرغم من أن مصر وسوريا ظلت مفتوحتان في وجه التجار الإيطاليين عامة والبنادقة خاصة؛ وبالرغم من بقاء القناصل في الإسكندرية تحت ظل النظام الجديد إلّا أنه اعتباراً من منتصف القرن السادس عشر نقل مركز قنصل البندقية إلى القاهرة وعين في الإسكندرية نائب للقنصل بسبب إنحطاط وركود التجارة فيها . وسبب ذلك يعود إلى إجبار السلطات العثمانية لكبار التجار في القاهرة ودمشق على الإنتقال إلى العاصمة إسطمبول بالإضافة إلى تحويل طريق التوابل والحرير إليها . وهكذا فقدت أسواق مصر وسوريا التجارية أهميتها لحساب عاصمة السلطنة الجديدة ولم يعد بمقدرة البندقية إرسال الكثير من المراكب التجارية إليها بسبب إرسالها المزيد منها إلى العاصمة إسطمبول وبسبب تقهقر تجارة البندقية نظراً لتحقيق البرتغال المزيد من التقدم والنجاح في جهات الهند(٢٠١) .

وفي ختام هذه الدراسة لا بد لنا من القول أن العلاقات ما بين المدن الإيطالية خاصه البندقية وشرقي المتوسط ما بين سنة ١٤٥٠ وسنة ١٥١٧ قد أدت إلى تنشيط وازدهار التجارة الدولية مع سلطنة المماليك حيث كانت تتكدس منتجات الهند والصين في المرافىء المصرية والشامية . وقد فضل التجار الإيطاليون طرقات المتوسط البحرية في تعاملهم مع سلطات المماليك ، لسهولة هذه الطرقات البحرية وأمانها وقد أنشأ الإيطاليون خطوطاً « دائمه » ومشهورة تربط مختلف المدن الإيطالية بشرقي المتوسط. وكان لهذه الخطوط مواعيد ومسالك تتحكم فيها فتره التحميل المسموح فيها للمراكب الإيطالية في ثغر الإسكندرية وغيره والمعروفه بالمده Muda والتي كانت ترتبط

---

(٢٠٠) Heyd. W., Histoire du Commerce, vol. II, pp. 545-546.

(٢٠١) Heyd. W., Op. Cit., p. 547.

بموعد وصول مراكب الهند المحمله بالتوابل والسلع الشرقية إلى البحر الأحمر في شهر أيلول وشهر آذار .

إن مجمل الخطوط البحرية العائده للبندقية وجنوى وفلورنسا وسينا تشكل شبكة ممتازة من الطرقات البحرية في المتوسط ربطت هذه المدن بالمرافىء الإسلامية في شرقي المتوسط كالإسكندرية ودمياط وبيروت وطرابلس وساعدت على التبادل التجاري ما بين الشرق والغرب. والجدير بالملاحظة أن الأساطيل الإيطالية احتكرت في المتوسط نقل البضائع المتبادلة ما بين المدن الإيطالية وسلطنة المماليك في حين عمدت المراكب الإسلامية إلى نقل المنتوجات الشرقية خاصة التوابل من الهند والصين وسيلان إلى البحر الأحمر ومنه براً إلى الإسكندرية وغيرها حيث كانت تصدر هذه المنتوجات مجدداً إلى المدن الإيطالية . وقد ظلت هذه القاعدة معمولاً بها حتى أوائل القرن السادس عشر حين ظهر البرتغاليون في المحيط الهندي وبدأوا ينقلون التوابل مباشرة إلى جنوبي أوروبا ومنها إلى إيطالية . هذا التغيير دفع البندقية إلى تشجيع المماليك لبناء أسطول حربي في البحر الأحمر الهدف منه إبعاد خطر البرتغاليين عن المحيط الهندي وتأمين حرية الملاحة هناك وبالتالي ضمان وصول السلع الشرقية من مراكز إنتاجها إلى المدن الإيطالية عبر سلطنة المماليك .

طبعاً ، طموحات البندقية لم تتحقق لأن مشاريع السلطان الغوري البحرية لم تنجح لعدم تمرس المماليك في ركوب البحر وبسبب إختلاف نظرتهم إلى الأسطول ففي حين كان الأسطول هو عماد وعصب حياة المدن الإيطالية ، فهو موضع إهتمام الدولة لأنه يؤمن حماية البلاد ويوطد سلطتها في مستعمراتها ويحمي تجارتها وبالتالي مواردها ومصالحها. أما المماليك الفرسان فقد عزفوا عن الإهتمام بالأسطول بصورة دائمة ومتواصلة إلا في المناسبات التي إضطروا لإستخدام الأسطول في غزواتهم التي قاموا بها ضد قبرص

ورودوس أو في درء الاخطار التي حاقت بتجارتهم ومصالحهم من جراء وصول البرتغاليين إلى المحيط الهندي والبحر الأحمر .

والملفت للنظر أن المراكب التجارية الكبيرة إسلاميه كانت أم إيطالية كانت تشحن بالمقاتلة والأسلحه لتأمين حمايتها الذاتية من أخطار القرصان أو الأعداء وأحياناً كانت المراكب الحربية تواكب المراكب التجارية لحمايتها وفي أحيان كثيره كانت السلع الثمينة تنقل على متن الشواني الحربية الصغيرة والسريعة .

ومع تتابع حركة النقل والشحن تمت عمليات البيع والشراء في الثغور الإسلامية وعلى نطاق واسع ففي حين كان الإيطاليون يدفعون ثمن المنتجات الشرقية والمحلية في غالب الأحيان نقداً، كانت سلطات المماليك تعمد إلى بيع ما لديها من توابل وسلع شرقية ومحلية نقداً وتسعى إلى شراء المنتجات الإيطالية عن طريق المقايضه خاصة مادة النحاس لزوم دور الضرب في السلطنة . ولذلك كانت المدن الإيطالية وخاصة البندقية تجهد لتأمين المبالغ الكافية من الذهب والفضة لشراء ما تحتاجة من الفلفل والبهار والقطن وغيرها كما كانت سلطات المماليك تعمد إذا ما ضاقت بها المحن إلى فرض مبالغ إضافية على التجار الإيطاليين لتأمين السيوله اللازمة لدفع مرتبات الجند أو لسد حاجة دور الضرب من مادة الذهب ومعدن الفضة . والحقيقة تقال أن مدفوعات المدن الإيطالية وخاصة البندقية من الذهب والفضة كانت من الأهمية بمكان إذ أتاحت لسلطات المماليك أن تتمكن من سد عجزها المالي عن طريق سبك ما يتحصل من النقود الذهبية الإيطالية الفيورينو والدوكاتو وضربها دنانير ذهبية مملوكية كانت تدفع بكثرة لسد حاجات السلطنة من الأرقاء القادمين من جهات البحر الأسود ولتأمين إحتياجاتها من التوابل الشرقية للإستهلاك المحلي والإستهلاك الأوروبي . وبذلك إستغل المماليك تدفق الذهب الإيطالي (البندقي) لتدعيم إقتصادهم ولجعل ميزان التجارة الشرقية دائماً

لصالحهم . وإذا كانت السمة المميزة للنقود المملوكية هي اضطرابها وخفتها وعدم إستقرار أسعار صرفها بسبب ما أصابها من الزغل نتيجة التلاعب بها إلا أن ما عرف عن النقود الإيطالية خاصة الدوكاتو هو ما تميزت به من ثبات وزنها وخلوصها Fineness وإستقرار أسعار صرفها ولذلك لعب الدوكاتو البندقي في النظام النقدي القائم آنذاك دور النقد الدولي المتداول بلا منازع والذي إستحق عن جدارة لقب دولار القرون الوسطى .

أما فيما يتعلق بالعلاقات الدبلوماسية فإن الدراسة الدقيقة وبالعمق لطبيعة هذه العلاقات الدبلوماسية قد أظهرت أن المدن والجمهوريات الإيطالية كانت تسعى جاهده للإبقاء على الأسواق السورية والمصرية مفتوحة بوجهها عن طريق إرسال التجار والسفارات وتعيين القناصل بهدف المحافظة على الأرباح الوفيرة التي كانت تجنيها من الاتجار معها . وقد تبين أن سلطنة المماليك كانت غالباً لا تجد مصلحة مميزة في أي تبادل للتمثيل الدبلوماسي مع المدن والجمهوريات الإيطالية . وقد أرسلت السلطات المملوكية بعثات قلائل إلى إيطاليا بهدف تسوية أمور خطيرة وملحه كمسألة الإفراج عن الأسرى المسلمين ، والصراع مع البرتغاليين في المحيط الهندي والبحر الأحمر وحل بعض الإشكالات التجارية بهدف الحصول على مزيد من الأموال . بعثتان مهمتان تستدعيان الإنتباه : الأولى تمت في عهد السلطان قايتباي عندما أرسل مبعوثة الخاص الخواجا محمد بن محفوظ المغربي إلى فلورنسا في سنة ١٤٨٧ وقد حملة كثيراً من الهدايا الطريفة والحيوانات الفريدة والغربية إلى حاكمها لورنزو العظيم .

والبعثة الثانية حصلت في عهد السلطان قانصو الغوري الذي أرسل الأمير تغري بردي ، كبير التراجمة إلى البندقية سنة ١٥٠٦ لشراء الخشب وطلب معونة لبناء أسطول بحري يمكن السلطان من مقاومة البرتغاليين في البحر الأحمر والمحيط الهندي. إن تتبع هاتين السفارتين يلقي أضواء كاشفة حول طبيعة

العلاقات المملوكية الإيطالية وتعطينا صورة كيف كانت تبدو سلطنة المماليك وكيف كانت تبدو المدن الإيطالية وجمهورياتها من خلال ما كتب عن تلك البعثات وما قيل عن المبعوثين . سفارة ابن محفوظ أعقبتها سفارة دي لاستوفا الفلورنسي إلى القاهرة ونتج عنها إتفاقية ١٤٨٩ مع فلورنسا .

أما سفارة الأمير تغري بردي فقد نتج عنها إتفاقية ١٥٠٧ مع البندقية التي أحجم السلطان الغوري عن إبرامها بسبب ما ألحقته من الضرر بمصالحه .

غير أن السلطان الغوري عاد وأبرم إتفاقية جديدة مع البندقية سنة ١٥١٢ على أثر بعثة السفير دومنيكو ترفيزان البندقي وقد عرفت هذه الإتفاقية بالإتفاقية الشاملة وهي من أهم الإتفاقيات التي عقدت بين جمهورية البندقية وسلاطين المماليك .

إن قراءة الإتفاقيات الثلاث بإمعان توضح بأن العلاقات ما بين سلطنة المماليك والمدن والجمهوريات الإيطالية قد مرت بمراحل متطورة لغير صالح السلطنة. ففي إتفاقية السفير الفلورنسي دي لاستوفا مع السلطان قايتباي (٨٩٤ هـ / ١٤٨٩) تظهر عظمة السلطان المترفع الذي يعطي ويهب طائفة وتجار الفرنتيين الذين دخلوا في حمايته وجاؤوا يسألون صدقاته الشريفة.

أما في إتفاقية السفير تغري بردي الترجمان مع البندقية (٩١٣ هـ/ ١٥٠٧) فقد جاءت فصولها مخالفة للعادة المتبعة في سلطنة المماليك وكانت مجحفة بحق السلطان الذي ظهر وكأن سفيره لم يراع مصالح سيده كما يجب. ولذلك أحجم السلطان عن إبرام هذه الاتفاقية التي أعطت للبندقية فرصة إعادة كتابة القوانين الجارية والتي تضبط تجارتها في مختلف أرجاء السلطنة وثغورها والاتفاقية شكلت انتصاراً للبنادقة في كل نقطة من نقاطها وكان من نتيجتها أيضاً عزل الأمير تغري بردي كبير التراجمة من منصبه الذي لم يغب طيفه عن المفاوضات لعقد إتفاقية ١٥١٢ المعروفة بالاتفاقية الشاملة ما بين البندقية والسلطان الغوري فجاءت فصولها نتيجة لمناقشات متجاذبة ما بين فريقين كانا

ينظران إلى بعضهما نظرة الند للند . فالسفير البندقي دومنيكو ترفيزان الذي وقع الإتفاقية المشهورة في القاهرة لم يظهر في مقابلاته مع السلطان الغوري بالرغم من لباقته وتهذيبه وكأنه كغيره من السفراء سائل متواضع في حضـرة حاكم مترفع وتبرز أهمية هذه الإتفاقية بما حوته من النظم التجارية المعمول بها في السنين الأخيرة من سلطنة المماليك وهي تعطي فكرة واضحة عـن التجـارة في مصر وسوريا بعد وصول البرتغاليين إلى المحيط الهندي والبحر الأحمر .

والحديث عن الإتفاقيات يقودنا إلى الحديث عن السلع المتبادلة. ويعتبر النصف الثاني من القرن الخامس عشر من أنجح فترات التبادل التجاري ما بين الشـرق والغرب وقـد عمل الممـاليك في مصـر والشام كـوسـطاء لأهم السلع التجارية من الشرق وأهمها التوابل والأفاويه والعبيد والأحجار الكريمة والعقاقير والبخور والصيني والأخشاب وغيـرها حتى أن تجـارة الشرق ارتبـطت ارتباطـاً وثيقـاً بـثـروة السلطنة وقوتها وهيبتها .

سلعتـان اثنتان ارتبط بهمـا ثراء وقـوة سلطنـة الممـاليـك وهمـا الفلفـل والرقيق .

فالسلطات المملوكية جنت الأرباح الطائلة من الـرسوم المفـروضة على السلع الشرقية وفي طليعتها التوابل والأفاويه وعلى رأس قائمة التوابل والأفاويه وأكثرها طلبـاً الفلفـل وقد اشتدت الرغبة في الحصول عليه أكثر من أي تابـل آخر على الرغم من ارتفاع ثمنه . وكانت تجارة التوابل حرة حتى أوائل القرن الخامس عشر وقد سيطر عليها جماعة التجار الكارمية الذين قاموا بالعبء الأكبر في استيرادها من الشرق ونقلها من اليمن إلى مصر وسوريا وتسويقها إلى إيطاليا وغيرها . وقد شكل التجار الكارمية مجتمعـاً خـاصاً بهم وكانوا على جـانب كبير من الغنى والجاه ، وقـد تنبه سـلاطين المماليـك إلى أهمية مـوارد تجارة التوابل فعمدوا إلى الاشتغال بها لحسابهم ثم اتبعـوا سياسـة الاحتكار لتجـارة الفلفل فضيقوا على تجار الكارم ثم اقصـوهم نهائيـاً عنهـا . وقـد أضرّ هـذا

الاحتكار بالتجارة الشرقية عموماً فارتفعت أسعـار التوابـل ارتفاعـاً فاحشـاً مما أنزل الضرر بمصالح التجار الإيطاليين خاصة البنادقة وغيـرهـم ونتج عن ذلـك تحديداً لأسعار التوابل الحرة ولأسعار توابـل الذخيـرة السلطانية الشـريفة على أساس ٨٠ دينـاراً للحمـل الواحد واجبر التجار الأجانب على شرائها بالأسعار المفروضة مما دفع الكثير منهم إلى التحول إلى أسواق أخرى .

وفي اعتقـادنا أنـه لو بقي تجـار الكارم يمـارسون نشـاطاتهم التجـاريـة ويقومون بدورهم كوسطاء لتجارة التوابل مـا بين الشرق والغـرب بحريـة ودون ضغوطات من قبل السلطات المملوكية لاستمـرت تجارة الفلفـل مزدهـرة دون عراقيل ولما حصلت تلك الإشكالات والنزاعات التي أدت إلى تأزيم العلاقات ما بين الايطاليين والمماليك وإلى تدهور تجارة السلع الشرقية .

ولعـل غياب طبقـة تجار الكـارم كان من الأسبـاب غير المبـاشـرة التي شجعت البرتغاليين لاكتشاف طريق الهند عبر رأس الرجاء الصالح في محـاولة للحصول على التوابل دون اللجوء إلى شـرائها عن طـريق سلطات المماليـك والوقوع تحت رحمتها إن لجهة سوء المعاملة أم لجهة تحديد الأسعار والكمية المشتراة. ولو ظل التعامل بواسـطة تجار الكـارم دون قيود أو إكـراه لما تشجـع البرتغاليون أو غيرهم لمقاطعة المماليك والبحث عن سبل أخرى لتأمين وشراء التوابل . وكما كان الفلفل والبهار مصدر ثراء السلطنة فإن الـرقيق كان مصـدر قوتها واستمرارها فالرقيق بلا شك كان من الأسس الرئيسية التي قامت عليهـا سلطنـة المماليـك . إن طبيعة تكـوين مجتمـع المـماليـك العسكـري حملت سلاطين المماليك منذ القرن الثالث عشر إلى تزويد جيوشهم بعنـاصر بشـرية شابة استقـدمت من آسيا الصغـرى وأرمينيا والبـلاد المجاورة لشـواطىء البحر الأسود وقد دفعهم إلى ذلك اعتباران : **الأول** : إن مجتمع المماليـك مجتمع مغلق لا يدخل إليه إلا عن طريق الـرق . **والثاني** : إن سكان السلطنة اعتبروا غير مؤهلين لمهنة حمل السلاح .

ولهذا السبب أرسل المماليك وكلاءهم (الخواجكية) لجلب الرقيق من كافة الأنحاء وحيثما توفر لهم ذلك غير أنهم كانوا يفضلون بالاجمال الرقيق الآتي من البلاد الإسلامية وقد ازدهرت تجارة الرقيق في البلدان المجاورة لضفاف البحر الأسود نظراً لتعاظم نفوذ سلطنة المماليك ولانتشار الإسلام في سلطنة المغول كيبتشاك الواقعة إلى الشرق من البحر الأسود . وقد لعب الإيطاليون دوراً هاماً في هذه التجارة باعتبار أن التتر والقبائل المتصارعة هناك كانوا لا يملكون مرافىء كبيرة على شواطىء البحر الأسود في حين خضعت كافا Caffa وتانا Tana لسيطرة الإيطاليين فتركزت تجارة الرقيق في هذين المرفأين خاصة في كافا حيث كان يتوجه إليها وكلاء سلاطين مصر لشراء الرقيق وكان البعض منهم يقيم فيها بصورة دائمة .

وبالرغم من قوانين تحريم تجارة الرقيق بهدف اضعاف سلطنة المماليك عن طريق حرمانها من مصدر قوتها إلا أن المدن والجمهوريات والتجار الإيطاليين ضربوا عرض الحائط تهديدات البابوية وآثروا جناء الربح عن طريق التورط بتجارة الرقيق في كافا وتانا . وهكذا كان يصل إلى سوق الرقيق في القاهرة كل عام وعبر دمياط أو الإسكندرية حوالي ٢٠٠٠ مملوك حيث كان يعاينهم خبراء السلطان فيدفع لشراء كل مملوك مبلغ يتراوح ما بين ١٤٠ و٧٠ دوكات . وكان الإيطاليون يجلبون العبيد أيضاً إلى بلادهم وقد تبوأ التجار الجنويون والبنادقة مركز الصدارة في هذه التجارة فكانوا يجلبون العبيد بالمئات والآلاف إلى جنوى والبندقية في حين كانت أعداداً أقل من ذلك بكثير تصل بيزا وفلورنسا .

غير أن الملفت للنظر في تجارة الرقيق هذه هو تفاوت نسبة الطلب للعبيد الذكور أو الإناث من قبل المماليك أو الإيطاليين . ففي مصر فاق عدد الأرقاء الذكور بكثير عدد الأناث بهدف ملىء متطلبات الجيش . أما في إيطاليا فإن الناس كانوا يميلون إلى استرقاق الفتيات اليافعات لأسباب معروفة شتى .

أما السلع المتبادلة الأخرى ما بين المدن الإيطالية وسلطنة المماليك فهي كثيرة ومتنوعة وأنا لا أجد من فائدة تاريخية في إعـادة تكرار ما قيـل وما كتب الكثير عنه وكل ما ارتأيت أن أبرزه هو حصول تغييرات كبيرة في التبادل التجاري ونوعيته وتطور وسائل النقل وظهور طبقة غنية من التجار الإيطاليين على عكس مصـر والشام ، حيث تـلاشي تجار الكـارمية وغيـرهم بسبب إحتكار السلطان للسلع الشرقية المهمة .

وقد تمظهـر التغيير في إيـطاليا ببـروز البندقيـة كدولـة زائدة في التبـادل التجاري مع سلطنـة المماليـك وظهور عـدد من التجار البنـادقة الأثـرياء كـان بإمكانهم في النصف الأول من القرن الخامس عشر أن يستثمروا حوالي عشرة آلاف دوكات سنوياً بتجارتهم مع مصر والشام وحصل التغييـر الثاني في حـركة بنـاء وتصميم السفن فـظهرت أنـواع جديـدة من المراكب في المتـوسط إلى جانب المراكب القديمة فتحسنت وسائل النقل خاصة بعـد بروز مراكب النقل الكبيرة the Cog ذات الصاري الواحد والمعروفـة عند المسلمين بـالمراكب المـربعة وانتشار القراق أو القرقور Carrack المتعدد الصواري .

وحصل تغيير آخر في الشيني Galley المستعمل في نقـل السلع الثمينة وتحولت الشواني إلى مراكب شراعية .

وظاهرة بناء المراكب الكبيرة كانت من مميزات حركـة النقل في البحـر المتوسط خلال القرن الخامس عشر فازدياد سرعة المراكب وكبر حجمها أديـا إلى خفض تكاليف النقل وقد انعكس ذلك إيجاباً على حركة التجارة فتدفقت الأثـواب الأوروبية على أنحـاء السلطنة وارتفعت كميـات البهار المـرسلة إلى المدن الإيطالية ، فازدهرت التجارة الشرقية ازدهاراً ملحوظاً .

إن دراسة قائمة أسعار السلع الشـرقية تشيـر بوضـوح إلى نسبة الأربـاح الطائلة التي كان يجنيها التجار الإيطاليون ، غير أن نسبة كبيرة من هذه الأرباح كانت تدفع كرسوم جمرك ورسوم نقل . وبالاجمال فان رسوم الجمارك في مصر

وسوريا المفروضة على البضائع الإيطالية كانت تقدر بعشرة بالمئة وكانت غالبية هـذه البضائـع الإيطاليـة مكونـة من المعادن الثمينـة من ذهب وفضه ونحـاس والمعدة لشراء الفلفل والزنجبيل والحرير والقطن .

فمـراكب البندقيـة كـانت تحمـل إلى الإسكنـدريـة وبيـروت مـا قيمتـه ٣٠٠,٠٠٠ دوكات من المعادن الثمينـة وتعود بمـا قيمته ٦٠٠,٠٠٠ دوكـات سنوياً من مصر وسوريا منها ٤٠٠,٠٠٠ دوكات قيمة حمولة الشواني العائدة من الإسكندرية وبيروت و٢٠٠,٠٠٠ دوكات قيمة حمولة المراكب المربعة العائدة بالقطن وخلافه من سوريا وغيرها من مناطق السلطنة .

أما جنوى فقد انخفض معدل مقـدار استثماراتهـا في مصر وسـوريا من ١٣٠,٠٠٠ دوكـات حوالي سنـة ١٤٨٠ إلى حدود٨٠,٠٠ دوكـات في نهايـة القرن الخامس عشر وسبب ذلك يعود إلى خسارة جنوى لمستعمراتها في بحر إيجه وفي البحر الأسود ولوقوع جنوى نفسها تحت سيطرة ملك فـرنسا لـويس الثاني عشر وخـاصة لاهتمـام جنوى الـرئيسي بالتجـارة في الشطر الغـربي من حوض البحر المتوسط والمحيط الأطلسي .

أما فلورنسا فإن حجم التبادل التجاري بينها وبين سلطنة المماليـك كان صغيراً ولم تتعد قيمة البضائع التي كانت تجلبها المراكب إلى فلورنسا من مصر وسوريا سنوياً مبلغ ٢٠,٠٠٠ دوكات تقريبـاً وسبب ذلك يعـود إلى قلة السلع المتبادلة مع السلطنة ولتورط فلورنسا القديم بالاتجار مع القسطنطينية حتى بعد سقوطها بيد العثمانيـين .

ونـابـولي لم يتجـاوز تبـادلهـا التجـاري مـع سلطنـة الممـاليـك حـدود ال٢٠،٠٠٠ دوكات تقريبـاً وكانت المـواد الغذائيـة أهم السلع المصدرة من مملكة نابولي إلى الشرق وفي طليعتها البندق والزيت والصابون .

أما أنكونا فقد بلغت استثمـاراتها في السلطنـة سنويـاً حدود الـ ٢٥٠٠٠ دوكات وكانت السلع التي تصدرها أنكـونا إلى ديـار السلطنة معـروفة وأهمهـا

الصابون والورق والأقمشة والثياب وأحياناً كانت أنكونا تصدر الحبوب إلى مصر وسوريا حين كان يضرب القحط السلطنة .

وكانت لصقلية علاقات تجارية قديمة مع الشرق الإسلامي وكان التجار الصقليون يبحرون على مراكب البندقية وغيرها لشراء التوابل من الإسكندرية وكانوا يحملون إليها السكر غير المكرر (القطاره Molasses) والمرجان والحرير الخام والجبن والثياب والحديد وقد بلغت إستثمارات صقلية في ديار السلطنة بحدود ٠٠٠ ، ٢٠ـ٠٠٠ ، ٢٥ دوكات سنوياً .

وبالإجمال فإن التقديرات لإستثمار المدن الإيطالية لدى سلطنة المماليك في نهاية القرن الخامس عشر كانت بحدود ٠٠٠، ٨١٠ دوكات وكانت مساهمة البنادقة فيها لوحدهم أكثر من ٠٠٠ ، ٦٠٠ دوكات والحقيقة، كان حجم الإستثمارات يفوق دائماً قيمة البضائع التي تحملها الشواني والمراكب بسبب لجوء التجار الإيطاليين إلى شراء أنواع من السلع بطريقة غير مباشرة عن طريق تحويل المبالغ اللازمة إلى وكلائهم في فترة لاحقة. وكان هؤلاء التجار يعمدون إلى الشراء عن طريق الاقتراض وذلك بالتوقيع على سندات الشراء أو المقايضة .

وكانت قيمة ما تصدر السلطنة إلى أوروبا بحدود ٠٠٠, ٣٥٠ دوكات ، أكثر من ٦٥ ٪ منها لصالح المدن الإيطالية .

ولما كانت سلطنة المماليك مجبرة على دفع أموال طائلة لشراء التوابل لصالح الإستهلاك المحلي ، ولشراء المماليك العبيد لصالح الجيش فإن مدفوعاتها لهذه الغاية كانت أحياناً كثيرة تتجاوز الـ ٠٠٠ ، ٥٠٠ دوكات تذهب إلى جهات الهند وتركيا وضفاف البحر الأسود وغيرها .

غير أن السلطات المملوكية كانت تعوض النقص وتضبط هذا الخلل في ميزان مدفوعاتها عن طريق جلب الذهب من المناطق الواقعة غربي السودان (مالي) المعروفة ببلاد التكرور .

وأخيـراً لا بـد لنـا من التسـاؤل عن نـتيـجـة العـلاقـات المملوكية ـ الإيطالية ؟ الواقع أن العلاقـات المملوكية الإيـطالية بمجملهـا من اقتصادية وسياسية وحضارية، وبـالرغم من مسـاعدتهـا في تنشيط التجارة مـا بين الشرق والغرب، وبالرغم من إسهامها في تبادل السفارات ما بين السلطنة والمدن الإيـطالية، إلا أنهـا لم تؤدِ بشكل كـاف إلى التمازج الحضـاري مـا بين الشـرق والغرب. فالشرق بقي شـرقـاً والغـرب بقي غـربـاً وتفصيـل ذلـك أن سلطنة المماليك لم تسع إلى المدن والجمهـوريات الإيـطالية إلا في منـاسبات قليلة وبـالتـالي لم يكن لهـا هنـاك سفـارات ولا قنـاصـل بشكـل دائم لانتفـاء الموجبات . ومـع أن المدن الإيـطالية قـد سعت لإرسال السفـارات الدائمـة والقناصل إلى ديار السلطنة للإهتمام بأمور تجارها ورعاياها، وبالرغم من وجود جاليات إيطالية في الإسكندرية وبيروت وطرابلس والقاهرة ودمشق وتقيم في فنادق خاصة بها، إلا أن هذه الجاليات (طوائف الإفرنج) كانت موضع مراقبة وتشدد من قبل السلطات المملوكية التي كانت تضيق عليها وتمنع خروج الأجانب من فنادقهم ليلاً. وصحيح أن الإيطاليين قد تـأثروا بـالشرق الإسـلامي في حبهم للتوابـل واقتنائهم للجواري والرقيق وفي استعمالهم لكلمات كثيرة من أصل عربي كتعبير المدة Muda والقبان Gaban والسمسرةSanaria والسكبةSchibe وناظر الخاص madracas والغرابلة Garbelli والمقدمين Machademi وغيرها . وصحيح أن الشرق الإسلامي قد تأثر بالمدن الإيطالية فأحب الناس في السلطنة لبس الجوخ والثياب الإيطالية وأكل البندق والقطارة والزيت النابوليتاني وتعاملوا بـالدوكـات البندقية كتعامل الناس هذه الأيام بالدولار غير أن هـذه العلاقـات بمجملها لم تكن متينه وثابتـه لأن المصالـح الشخصية وضعت فـوق كل إعتبـار فالسلطنـة عمدت أحيانـاً كثيـرة إلى التنكيل بالتجار والقناصل الإيطاليين لتحقيق أغراض سياسية؛ والمدن الإيطالية ضربت مرات عديدة عرض الحائط بمصالـح السلطنة في سبيـل تحقيق أرباح طـائلة بصورة غيـر مشروعة. ولذلك كانت العـلاقات المملوكية الإيطالية غير متكاملة وجاء التمازج فيما بينهـا ناقصـاً ولـم يـؤد إلى

تحالفات راسخة وهذا الأمر يرجع إلى أسباب عـائدة لسلطنـة المماليـك ذاتها وإلى المدن والجمهوريات الإيطاليـة نفسها . فسلطنـة المماليـك كانت تعتبـر جيشها لا يقهر وهي قادرة على تدبير أمورها العسكرية على خير مـا يرام ودون مساعدة أحد. ولذا تشبث جيشهـا بأسلحته التقليديـة ورفض كل أنـواع التغيير والتجديد التي يتطلبها إدخـال وإستعمال الأسلحـة الناريـة فمجتمع المماليك العسكري إرتكز على مبادىء ومفاهيم الفن العسكري التقليدي الـذي تمحور حول إمتطاء الخيل والتي كانت من أهم العقبات الرئيسية أمام دخول الأسلحة النارية إلى ذلك المجتمع .

أما المدن الإيطالية وفي طليعتها البندقية وجنوى فقد تعاملت مع سلطنة المماليك آخذة بعين الإعتبار مواقف البابوية ازاء التعامل مع السلطنة وقرارات التحريم التي إتخذتها بحق كل من يتعامل معها ويزودها بشكل خاص بالمواد الإستراتيجية كالأسلحة والحديد والأخشاب والرقيق . ونتيجة لمواقف البابويـة إتخذت المدن والجمهوريات الإيطالية مواقف مختلفة ومتعددة رمت بغالبيتهـا إلى الحد من الاتجار مع السلطنة بهدف حرمانها من مصدر ثروتها وقوتها. وإذا ما تساهلت المدن الإيطالية خاصة البندقية في الاتجار مع السلطنة وشراء الفلفل والسلع الشرقية منها وبيعها المعادن والمواد الغذائية ونقل الرقيق إليهـا ؛ إلا أن المدن الإيطالية في غالبيتها لم تتساهل أبداً في الإلتزام بتطبيق قرارات البابوية المتعلقة بمنع نقل الأسلحة والأخشاب إلى السلطنة .

ولدى ظهور البرتغاليين في المحيط الهنـدي والبحر الأحمـر وتهديـدهم لتجـارة الشرق إكتفت البنـدقية بتشجيـع سلطان مصر ببنـاء أسطول للتصـدي للبرتغاليين دون مساعدته عملياً عن طريق تزويده بالعتـاد أو الرجـال . وعندمـا توجب على السلطنة إن تستعـد لصراع الحيـاة أو الموت ضـد العثمانيـين في الشمال والشمال الغربي وضد البرتغاليين في الجنوب الشرقي ، عمد السلطان الغوري إلى إنتهاج خط جديد أعطى بموجبة أهمية أكبر للأسلحة النارية على

إختلاف أنواعها ولكنه فرض شرطاً ،واحداً يقضي بعدم المساس بالهيكلية الحالية لمجتمع المماليك. وكان قرار الغوري بمثابة حكم الإعدام لفكرة إعادة تنظيم الجيش حسبما يفرضه التطور التكنولوجي .

ولا بد لنا هنا من الإشارة إلى ملاحظتين هامتين تتعلقان بموقف البندقية .

أولاً : قامت البندقية بتشجيع ودفع السلطان الغوري بقطع الأخشاب من خليج إسكندرونة وبناء الأسطول وتجهيز حملة السويس لدرء خطر البرتغاليين في المحيط الهندي بهدف حماية طريق الفلفل والتجارة الشرقية التي هي مصدر ثرائها وقوتها وربما قد تكون البندقية قد بالغت حفاظاً على مصالحها، في تقدير مدى خطر البرتغاليين في المحيط الهندي ، وتكون بذلك قد دفعت السلطان إلى ارتكاب خطأ استراتيجي عن طريق حشده كافة الأسلحة النارية والوحدات الجديدة من طبقة خامسة وغيرها في جبهة الهند دون غيرها .

ثانياً : في جبهة مرج دابق التي غابت عنها الأسلحة النارية وفي معركة الريدانية لم تتدخل البندقية في الحرب الدائرة ما بين المماليك والعثمانيين بل عمدت إلى اعتماد لعبتها المزدوجة المعهودة عن طريق الانتظار والتريث لمن تكون الغلبة لتتعامل معه .

إن موقف البندقية القاضي بعدم رغبتها الفعلية في مساعدة سلطنة المماليك مادياً وعسكرياً وبالتالي إحجامها عن نقل التطور التكنولوجي المتوفر لديها إلى هذه السلطنة بالإضافة إلى رفض مجتمع المماليك العسكري تقبل التغيير الناجم عن استعمال السلاح الناري وبالتالي اعتماد هذا السلاح كانا من أهم الأسباب ، وهي كثيرة ، التي أدت إلى زوال تلك السلطنة التي كانت تعتبر لحقبة طويلة من الزمن مركز الحضارة والسلطة في شرقي المتوسط .

المصادر والمراجع

١ ـ المصادر والمراجع العربية

أ ـ المراجع القديمة

Primary sources

- ابن الأثير ، تحفة العجائب وطرفة الغرائب ، مخطوطة بدار الكتب المصريّة برقم ط ١٣٤٤ ؛
- ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، القاهرة ١٣٠٣ هـ ـ ١٨٨٥ م.
- ابن أياس ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، جزء ١ ، القاهرة ، بولاق ١٣١٢ هـ ؛

  بدائع الزهور في وقائع الدهور ، جزء ٢ ، القاهرة ، ١٩٧٢ ؛

  بدائع الزهور في وقائع الدهور ، جزء ٣ ، القاهرة ، ١٩٦٣ ؛

  بدائع الزهور في وقائع الدهور ، جزء ٤ ، القاهرة، ١٩٦٠ ؛

  بدائع الزهور في وقائع الدهور ، جزء ٥ ، القاهرة، ١٩٦١ .
- ابن بطوطة ، تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، باريس ١٨٧٤ .
- ابن البيطار ، الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ، القاهرة ، ١٢٩١ هـ.
- ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، جزء ١٤ ، تحقيق الدكتور جمال محرز والأستاذ فهيم شلتوت القاهرة ١٣٩١ هـ ـ ١٩٧١ ؛

، النجوم الزاهـرة في ملوك مصر والقـاهرة ، جـزء ١٥ ، تحقيق الدكتـور إبراهيم علي طرخان ، القاهرة ١٣٩١ هـ ـ ١٩٧١ م ؛
، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، جزء ١٦ ، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيّال والأستاذ فهيم شلتوت ، القاهرة ١٣٩٢ هـ ـ ١٩٧٢ م ؛
، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، الأجزاء : ٥ ـ ٧، ١٣، ١٤، ١٧ ـ ١٩، ٢٢ ، تحقيق وليم پوپير ، باركلي ، مطبعة جامعة كاليفورنيا ١٩١٥ ـ ١٩٦٠ .
ـ ابن تغري بردي ، حوادث الدهور ؛ ليدن ، ١٩٣٠ ـ ١٩٤٢ ؛
حوادث الدهور في مضى الأيام والشهور ـ منشورات جامعة كاليفورنيا ، ١٩٣٠ ـ ١٩٣١ ؛
المنهل الصافي ، القاهرة ١٩٧٥ .
المنهل الصافي ، مخطوطة باريس تحت رقم ٢٠٦٨ ـ ٢٠٧٢ .

ـ ابن تيميّة ، الحسبة في الإسلام ، القاهرة ١٣١٨ هـ.
ـ ابن جبير ، رحلة ابن جبير ، ليدن ، ١٨٥٢ .
ـ ابن حجر العسقلاني ، مخطوطة أنباء الغمر في أبناء العمر ـ متحف اسطمبول M.S. Constantinople, Yeni Cami 814;
الدرر الكامنة ، حيدر آباد ، ١٣٤٨ هـ ـ ١٣٥٠ هـ.

ـ ابن حوقل ، كتاب صورة الأرض ، ليدن ، ١٩٣٨ .
ـ ابن خرداذبة ، كتاب المسالك والممالك ، ليدن ، ١٨٨٩ .
ـ ابن خلدون ، كتاب الاعتبار ، القاهرة ١٢٨٤ هـ.
، مقدّمة ابن خلدون ، القاهرة ١٩٠٩ .

ـ ابن زمبل ، واقعة السلطان سليم خـان في فتوح مصـر مع السلطان الغـوري وطومان باي ، نسخة ١٧٠١ م ـ ١١١٣ هـ. جزء ٢ ، المخطوط رقم ٨٢٤ ، الجامعة الأميركية ـ بيروت .

- ابن طولون ، إعلام الورى بمن ولّى نائباً من الأتراك بدمشق ، الشام الكبرى ، دمشق ١٩٦٤ .
، فاكهة الخلّان في حوادث الزمان ، القاهرة، ١٩٦٤ .
- ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، مخطوطة أيا صوفيا - استامبول رقم ٣٤٣٣ .
توجد صورة ميكروفيلم عنها في جامعة بيروت الأميركية برقم - Mic. - A - 89 .
- ابن ماجد، كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد .
باريس ١٩٢١ - ١٩٢٣ .
- ابن مماتي ، قوانين الدواوين، (نشر عزيز سوريال ١٩٤٣) .
- ابن الوردي، فريدة العجائب وفريدة الغرائب، القاهرة ١١٣٦ هـ .
- ابن يحيى ، صالح ، تاريخ بيروت ، بيروت ١٩٦٩ .
- بيري رئيس ، بحرية ، براين ١٩٢٦ .
- البوريني ، تراجم الأعيان ، دمشق ١٩٥٦ .
- الجاحظ ، كتاب التبصّر بالتجارة ، القاهرة ١٩٣٥ .
- الإدريسي ، كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، روما ١٩٥٥ .
- السخاوي، الضوء اللامع، ١٢ جزء ، القاهرة ١٩١٤ - ١٩٢٨ .
، التبر المسبوك، القاهرة ١٨٩٦ .
- السيوطي ، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ، القاهرة ١٩٦٧ - ١٩٦٨ .
- العيني ، عقد الجمان ، مخطوطة في متحف اسطمبول
M.S. Constantinople, Carullah 1591.
- القزويني ، عجاب المخلوقات وغرائب الموجودات ، بيروت ١٩٧٨ .
- القلقشندي ، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ، ١٤ جزء ، القاهرة ١٩١٤ - ١٩٢٨ .

، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ، الجزء الرابع ، القاهرة ١٩١٤ - ١٩٢٨ .

، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ، الجزء الخامس ، القاهرة ١٩١٥ .

- المسعودي ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، باريس ١٨٦١ - ١٨٧٧ ؛

، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، جزء ٢ ، بيروت ١٩٦٦ .

، كتاب التنبيه ، ليدن ١٨٩٣ .

- المقدسي ، كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ليدن ١٩٦٧ .

- المقريزي ، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، القاهرة ١٩٣٦ - ١٩٥٨ ؛

، كتاب الخطط والآثار في مصر والقاهرة والنيل وما يتعلّق بها من الأخبار بولاق - القاهرة ١٢٧٠ هـ - ١٨٥٣ م .

، كتاب إغاثة الأمّة بكشف الغمة ، القاهرة ١٩٥٧ .

- ناصر خسرو، سفرنامة ، القاهرة ١٩٤٥ .

- اليعقوبي ، كتاب البلدان ، طبعة ليدن ١٨٩٢ .

ب - المراجع الثانوية Secondary Sources

- اسكندر ، ت ، نظام المقايضة في تجارة مصر الخارجية في العهد الوسيط ، مجلّة الجمعيّة المصريّة للدراسات التاريخيّة ، المجلد السادس ، ١٩٥٧ .

- الخادم، س ، السلاح الناري وأثره في الشرق في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، بيروت ١٩٨٠ .

- دراج . أ ، المماليك والفرنج في القرن التاسع الهجري - الخامس عشر الميلادي ، القاهرة ١٩٦١ .

- ديل . ش ، البندقيّة جمهوريّة الارستقراطيّة ، تعريب أحمد عزت عبد الكريم ، القاهرة ١٩٤٨ .

- زيادة ، م.م، المحاولات الحربيّة للاستيلاء على جزيرة رودوس ، مجلّة الجيش ، القاهرة ١٩٤٦ .
- طرخان . أ ، مصر في عصر المماليك الشراكسة (١٣٩٢ - ١٥١٧)، القاهرة ١٩٦٠ .
- عاشور. س، مصر في دولة سلاطين المماليك البحرية، القاهرة، ١٩٥٩ .
  ، العصر المماليكي في مصر والشام، القاهرة ١٩٦٥ .
- العبادي . أ . م - سالم. س. ع ، تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام ، بيروت ١٩٧٢ .
- العزاوي، تاريخ العراق، بغداد ١٨٣٥ - ١٨٤٨ .
- عنّان. م، مصر الإسلامية، القاهرة ١٩٣١ .
- فهمي . محمد . ع، موسوعة النقود العربيّة وعلم النميّات، فجر السكّة العربيّة ، القاهرة ١٩٦٥ .
- فهمي . ن. ز، طرق التجارة الدوليّة ومحطاتها بين الشرق والغرب ، القاهرة ١٩٧٣ .
- ماهر. س، البحريّة في مصر الإسلاميّة ، القاهرة ، ١٩٦٧ .
- متز . أ، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة - القاهرة ١٩٤١ .
- المنجد في اللّغة والإعلام - بيروت ١٩٦٠ .



٢ ـ المصادر والمراجع الأجنبية

٢ ـ المصادر والمراجع الأجنبية

أ ـ المراجع القديمة

Primary Sources

- **Bin Majid Sihāb Ad-Dīn Ahmad.** Dit « le lion de la mer » . Le pilote des Mers de l'Inde de la Chine et de l'Indonesie. Texte Arabe. Reproduction phototypique du Manuscrit 2292 de la Bibliothèque Nationale de Paris Publié par Gabriel Ferrand, Paris. Librairie Orientale - Paul Genthmer 1921 - 1923.
- **Fabri. F,** Evagatorium, 1480 - 1483, from the library of Palestine Pilgrim's text society, vol. VII.
- **Fabri. F,** The Book of the Wanderings of Brother Felix Fabri in Palestine and Arabia, Translated by Aubrey Sheward in publications of Palgrave Pilgrims Text Society, London, vol. I,
- **Fabri. F,** Fratris Felicis Fabri Evagatorium in Terram Sanctam, Arabi et Aegypti peregrinationes, éd. C.D. Hassler, t. I-III, Stuttgart, 1843-1849.
- **Frescobaldi . L,** Viaggio di Leonardo di Niccolo Frescobaldi Fiorintino in Egitto e in Terra Santa. Ed. G. Manzi, Rome, 1818.
- **Harrf. A. V,** The Pilgrimage of A. V. Harff 1496 - 1499, ed. by M. Letts, London, (Hakluyt Society, 1946), 2d, ser .
- **Marco Polo Travels,** London 1903.
- **Piloti. E,** Traité d'Emmanuel Piloti de Crète, éd. Dopp., Le Caire, 1950.

- **Piri Reis, BAHRIJE**
Dasturkishe Segelhandbuh für das Mihelländische Meer vam Juhre 1521 Heruvgegeben, Übersctzt und erklärt Von.
Paul Kahle
Berlin und Leeipzig 1926 .

- **Priuli. G,** I Diarii di Girolamo Priuli 1949-1512, published in Rerum Italilarum Scriptores (ed., vol. XXIV, pt 3 ; Citta di Castello, 1911), vol. I.
- **Priuli. G,** Diarii e Diaristi Veneziani, Arshivio Veneto, II, 1873.
- **Sanuto. M, «Torcello» L'ancien,** Liber Secretorum Fidelium Crucis, Super Terrae Sanctae, Recuperatione et Conservatione. Massada Press, Jerusalem, 1972 .

Sanuto. M, I Diarii di Marino Sanuto vol. I, vol. II, vol. III, vol. IV, vol. V, vol. VI, vol. VII, vol. XII, vol. XVIII, vol. XXXVI. Venezia, 1877 - 1903.
- **Thenaud. J,** Le Voyage d'Outremer (Egypte, Mont Sinay, Palestine), suivi de la Relation de l'Ambassade de Domenico Trevisan auprès du Soudan d'Egypte, publié et annoté par Ch. Schefer, Paris, MD CCC LXXXIV.

Secondary Sources — ب ـ المراجع الثانوية

- **Abell. Sir Westcott,** The Shirpwrights Trade. Cambridge,1948.
- **Afetinan. A,** Life and Works of Piri Reis. Ankara, 1975.
- **Amari. N.,** I Diplomi Arabi, Del Archivio Fierentino in Firenze, MDCCCXIII;
- **Amari. N.,** Storia dei Musulmani di Sicilia, Catania, R. Prampolin, 1933-39.
- **Ashburner. W,** The Rhodian Sea-Law, Oxford, 1909.
- **Ashtor, E,** Levant trade in the later Middle Ages,Princeton University Press, 1984 ;

Ashtor. E, A Social and Economic History of the Near-East in the Middle Ages. London, 1976 ;

- **Ashtor. E,** Les métaux précieux et la balance des payements du Proche-Orient à la basse époque Paris 1971·
- **Ashtor. E,** The Karimı Merchants, Journal of the Royal Asiatic Society , London 1956 ;
- **Ashtor. E,** Histoire des prix et des Salaires dans L'Orient Médiéval. Paris 1969;
- **Ashtor. E,** «The Venetian Supremacy in the Levantine Trade-Monopoly or recolonialism ?»
  Journal of European Economic History III (1974);
- **Ashtor. E,** «Le Coût de la vie dans l'Egypte Médiévale», JESHO III (1960), pp. 56-77.
- **Ayalon. D,** Gunpowder and Firearms in the Mamluk Kingdom, London 1956;
- **Ayalon. D,** L'esclavage du Mamelouk, Jerusalem, 1951;
- **Ayalon . D,** L'esclavage du Mamelouk , in the Mamluk Military Society, London 1979 ;
- **Ayalon. D,** The Mamluk Military Society, Variorun Reprints, London 1979.
- **Ayalon. D,** «Studies on the Structure of the Mamluk Army ». Bulletin of the School of Oriental and African Studies, XV (1953), pp. 203 - 228, 448 - 467; XIV (1954), pp. 57-90.
- **Becharach-Gordus,** «Studies on the Fineness of Silver Coins» JESHO II (1968).
- **Baloq. P,** «History of the Dirham in Egypt», Revue Numismatique ser. VI, t. 3 (1961).
- **Boscolo. A,** Sardegna, Pisa E Genova Nel Medisevo. Genova 1978.
- **Braudel. F,** The Mediterranean and the Mediterranean World in the Age of Philip II, vol. I, New York, 1972.
- **Braunstein P,** «Le marché de fer à Venise au XVème siècle», Studi Veneziani VIII (1966).
- **Cessi. R,** «L'officium de Navigantibus et sistemi della politica com-

merciale nel sec. XIV». In his politica ed economia di Venezia nel Trecento (Rome, 1952).

- **Churchil. A, A and J,** Collection of Voyages and Travels, London, 1732.
- **Cipolla. C,** Money, Prices and Civilization in the Mediterranean World, Princeton, 1956.
- **Cipolla. C,** Guns, sails and Empires: Technological Innovation and the Early Phases of European Expansion 1400-1700. New York, 1965.
- **Clerget. M,** Le Caire, Etude de Géographie Urbaine, et d'histoire Economique. Tome II. Le caire 1934.
- **Cornet. E,** La Guerre de Veneti nell'Asia (1470 - 74), Vienna, 1856.
- **Cecchetti. B,** La Republica Venezia et la Carte di Roma mei rapporti della religione, I (Venezia, 1874).
- **da Mosto,** «Navigatione di Messer Alvise de la da Mosto», Ramuso I (Venice 1550).
- **Day. C,** A History of Commerce. London 1950.
- **De Bouärd. M,** L'Egypte Contemporaine, Revue de la Société Fouad 1er d'économie politique, de statistique et de legislation, tome XXX, Le Caire, 1939.
- **De Bouärd. M,** Les Origines des Guerres d'Italie. La France et l'Italie au Temps du Grand Schisme d'Occident. Paris, E. de Boccard. 1936.
- **De la Brocquière. B,** Voyage d'Outre-mer, ed. Schefer, Paris 1892.
- **Depping. G,** Histoire du Commerce entre le Levant et l'Europe depuis les Croisades jusqu'à la fondation des colonies d'Amériques, Paris, 1830.
- **Diehl,** Mélanges d'archéologie et d'histoire de l'Ecole Française de Rome. 3ème année, 1883.
- **Du Cange. C,** Glossarium Mediae et infimae latinitatis (Viort, 1885).
- **Dopp. P. - H,** L'Egypte au Commencement du Quinzième siècle d'après le Traité d'Emmanuel Piloti de Crète, Le Caire, 1950.

- **Dozy. R,** Supplément aux dictionnaires arabes, 2e éd. t. I - II. Leiden, 1927.
- **Earle. P,** «The Commercial Development of Ancona (1479 - 1551)», Ec. Hist. Rev., 2 series, 22 (1969).
- **Edler. F,** Glossary of Medieval Terms of Business (Italian series, 1200 - 1600; Cambridge, Mass, 1934).

The Encyclopedio of Islam, New Edition. vol. II, London, 1965.

New Catholic Encyclopedia, Washington D.C. 1967. vol. I, vol. VIII, vol. XIV.

- **Febvre. L,** Annales d'histoire sociale, IIth January, 1940.
- **Fischel. W.J.** «Uber die Gruppe der Karimi-Kauflente», Analecta Orientalia, no. 14, of the Pontifilal Bible Institute, published in 1937.
- **Fischel. W. J.** »The Spice Trade in Mamlūk Egypt». Journal of the Economic and Social History of the Orient, I (1958). pp. 157-174.
- **Fulin,** «Il Canale di Suez a la Republica di Venezia», Archivio Veneto, II, 1873.
- **Fulin,** Girolamo Priuli e i Suoi diarii: «I Portighesi nell'India e i Veneziani in Egitto», Archivio Veneto, XXII, 1881.
- **Gabrieli. G.** Manoscritti e carte orientali nelli biblioteche e negli archivi d'Italia, Florence 1930.
- **Gennep. V, A,** Le Ducat Vénitien en Egypte... dans la Revue numismatique, 4ème série, tome I, 1897.
- **Giaccbero. G,** «Le origini della casa di san Giorgi e il Suo Primo Secola di Vita» in «La Storia dei Genovesi», Genova 1981.
- **Goitein. S.D.,** «New light on the beginnings of the Karimı Merchants». Journal of the Economic and Social History of the Orient, I (1958), pp. 157-174, «Slaves and Slaves Girls in the Cairo Geniza Records». Arabia, IX (1962), pp. 1-20.
- **Goluboreich. G,** Superiori Di Terra Santa. Nuova Serie Compiluta dal P. Girolamo Goluboreich. Gerusalemme 1898.

- **Hasluck. F. W,** «Constantinate», in Essays and Studies presented to Ridgeway. W (Cambridge, England, 1913).
- **Heers (J),** Gênes, au XV[e] siècle, Paris, 1961.
- **Heyd. W,** Histoire du Commerce du Levant au Moyen-âge, Leipzig, 1886-88.
- Histoire du Commerce de Marseille, Tome I par R. Pernoud and R. Busquet. Tome II parE. Baratier and F. Raynaud, Tome III par R. Collier and J. Billioud, Paris - Librairie Plon. 1951.
- **Hourani. G.F.,** Arab Seafaring in the Indian Ocean in Ancient and Early Medieval Times, Beirut, 1963.
- **Issawi. C,** «The Decline of Middle Eastern Trade, 1100-1850», in Islam and the Trade of Asia, pp. 245-266, Edited by D. Richards. Oxford, 1970.
- **Ives. H.E,** The Venetian Gold Ducat and its imitations, edited and annotated by P. Grierson, New York, 1954.
- **Jorga. N,** Notes, et extraits pour servir à l'histoire des Croisades au XV Siècle., Paris, 1899-1902.
- **Jorga. N,** Rhodes sous les Hospitaliers. Extraits de la Revue Historique, VIII Paris. Bucarest. 1931.
- **Kedar Di Benjamin. Z,** Mercanti in Crisi
  A Genova E Venezia
  N E 300′
  Roma-Societa Editoriale Jouvence 1981.
- **Labib. S,** «Egyptian Commercial Policy in the Middle Ages». Studies in the economic History of the Middle East, pp. 63-77. Edited by M.A Cook. London 1970.
- **Landucci. L,** Diario Fiorentino 1450-1516, Florence 1883.
- **Lane. F,** Venice and History, Baltimore, 1966;
- **Lane. F,** Venice, A Maritime Republic, The Johns Hopkins, University Press, Baltimore, 1981;
- **Lane. F,** Venetian Ships and Shipbuilders of The Renaissance, Baltimore, the Johns Hopkins Press. 1934 ;
- **Lane. F,** «Venice and Florence in the Mamluk Commercial Pri-

vileges», Bulletin of the School of Oriental and African Studies (1965), PP. 487 - 497;
- **Lane. F,** Andrea Barbarigo, Merchant of Venice, 1418 - 1419. The Johns Hopkins University Studies in Historical and Political Siences. Baltimore-1944;
- **Lane. F,** I Mercanti di Venezia, Torino, 1982;
- **Lane. F,** Storia di Venezia, Torino, 1878;
- **Lane. F,** «The Mediterranean Spice Trade». American Historical Review, XLV (1940). PP. 581-590;
- **Lane. F,** «Venetian Shipping during the Commercial Revolution». American Historical Review, XXXVIII (1933), PP. 219-237;
- **Lane. F,** «Sailing from Egypt». American Historical Review, LXVIII (1963);
- **Lapidus. I,** Muslim Cities in the Later Middle Ages, Cambridge University Press, Cambridge 1982.
- **Lewis. B,** Notes and documents from the Turkish archives, Jerusalem, 1952.
- **Lewis. B and P.M. Holt,** Historians of the Middle East, London, Oxford University Press. 1962.
- **Lopez. R.S,** Medieval Trade in the Mediterranean World, New York, Columbia University Press, 1955;
- **Lopez, R.S,** «Il problem della bilancia dei pagamenti nel Commercio di Levante», in Venezia e il Levante fino al XV sec.
- **Lopez. R, - Miskimin. H, - Udovitch. A,** «England to Egypt, 1350 - 1500: longterm trends and long distance trade», in Studies in the Economic History of the Middle East, ed. M.A. Cook, London 1970.
- **Malipiero,** Annali Veneti, Archivio Storio Italiano, vol. III, 1843.
- **Mallone. C,** «Corsari E Pirati» in la storia dei Genovesi atti del Convegno di studi sui ceti dirigenti nelle instituzioni della Repubblica di Genova, Genova 1981.
- **Mas Latrie. L,** Traitée de paix et de commerce et documents divers concernant les relations des Chrétiens avec les Arabes de l'Afrique septentrionale au Moyen-âge, Paris, H. plon. 1865.

- **Mas Latrie, L,** Histoire de Chypre, Tome II, Paris. 1882.
- **Mas Latrie. L,** Documents nouveaux servant à l'histoire de l'Ile de Chypre sous le règne des princes de la maison de Lusignan. Paris - 1882.
- **Mas Latrie. L,** Traités de paix et de commerce et documents divers concernant les relations des Chrétiens avec les Arabes de l'Afrique Septentrionale au Moyen-Age. Paris. H. Plon. 1865.
- **Mayer. L,** Mamlūk Costume, Geneva, 1952.
- **Miskimin and Harry,** The Medieval City, New Haven and London, Yale University Press, 1977.
- **Mollat. M,** Les Sources de l'Histoire Maritime, S.E.V.P.E.N., 1962. Sociétés et Companies de Commerce en Orient et dans l'Océan Indien, Paris, 1970.
- **Montu. C,** Storia della artigliera italiana, Rome, 1933.
- **Muller. G.** Documenti sulle relazioni delle citta toscane coll' Orient Cristiano et Coi Turchi fino all' anno 1531, Florence 1879.
- **Musso. G,** «Nobili E Mercanti Genovesi nell' Occidente Atlantico» in «La Storia dei Genovesi», Genova 1981.
- **Nef. J.U,** « Mining and Metallurgy in Mediaeval Civilization», CEHE II (1952).
- **Newton. A.P,** Travel and travellers of the Middle Ages. 3rd edition. London, 1945.
- **Noberasco. F,** «I Commerci Savanesi del sec. XV», Atti della Societa Savanese di Storia Patria VII (1924).
- **Oppenheim. M,** A History of the Administration of the Royal Navy and of the Merchant Shipping in Relation to the Navy, London, 1896.
- **Orsini, I,** Storia delle monete della Republica Fiorentina, Florence, 1760.
- **Parr. v.J. and Yapp M.E,** War, Technologie and Society in the Middle East, London 1975.
- **Parry. J.H,** The Age of Renaissance, New York, 1964.
- **Pernaud. R,** «Les villes Marchandes au XIVème et XVème siècles». Imperialisme et Capitalisme au Moyen-âge, Paris, 1948.

- **Porzio. C,** La Congiura dei baroni del regno di Napoli contro il re Ferdinando Primo e gli altri scritti, ed. E. Pontieri, Naples, 1858.
- **Poston. MM,** The Cambridge Economic History of Europe part II. Cambridge 1952 .
- **Rabie. H,** The Financial system of Egypt 1169-1341, London-Oxford University Press, 1972.
- **Reinaud. M,** Journal Asiatique, Traités de Commerce entre la Republique de Venise et les derniers Sultans Mamelouks d'Egypte. Tome IV, Paris, 1852 (Nouveau Journal Asiatique, 2ème série).
- **Richards. D.S,** Islam and Trade of Asia, Oxford 1970.
- **Risciani. N,** Documenti e Firmani. Gerusalemme. 1936.
- **Romola and R.C. Anderson,** The Sailing Ship, London, 1926.
- **Sacerdoti. A.,** Note sulle galere da mercato veneziane nel sec. XV, in Bolletino dell'istituto di storia della societo o dello state veneziano, 6 (1962).
- **Sapori. A,** Studi di storia economica medievale, Florence, 1946.
- **Sauvaire,** Matériaux pour servir à l'Histoire de la Numismatique et de la Métrologie Musulmanes, Paris 1882.
- **Silvestri A,** Il Commercio di Salerno nella seconda meta del Quatro Cento, Salerno, 1952.
- **Staffa. S.J.,** Conquest and Fusion, The Social Evolution of Cairo. A.D. 642-1850. Leiden 1977.
- **Stern. S.M.,T. Walzer,** Oriental Studies - vol.III. Documents from Islamic Chanceries - first series, Bruno-Cassierer-Oxford, 1965.

— La Storia dei Genovesi I° - II° volume.
Atti Convegno di studi sui ceti dirigenti nelle istituzioni della Republica di Genova-Genova 7-8-9 Novembre 1980.

- **TAUZIA.de,** Notice des tableaux exposés dans les galeries du Musée National du Louvre, par le vicomte de Tauzia. Paris. 1877.
- **Udovitch. A,** Partnership and profit in Medieval Islam, Princeton, New Jersey, 1970.

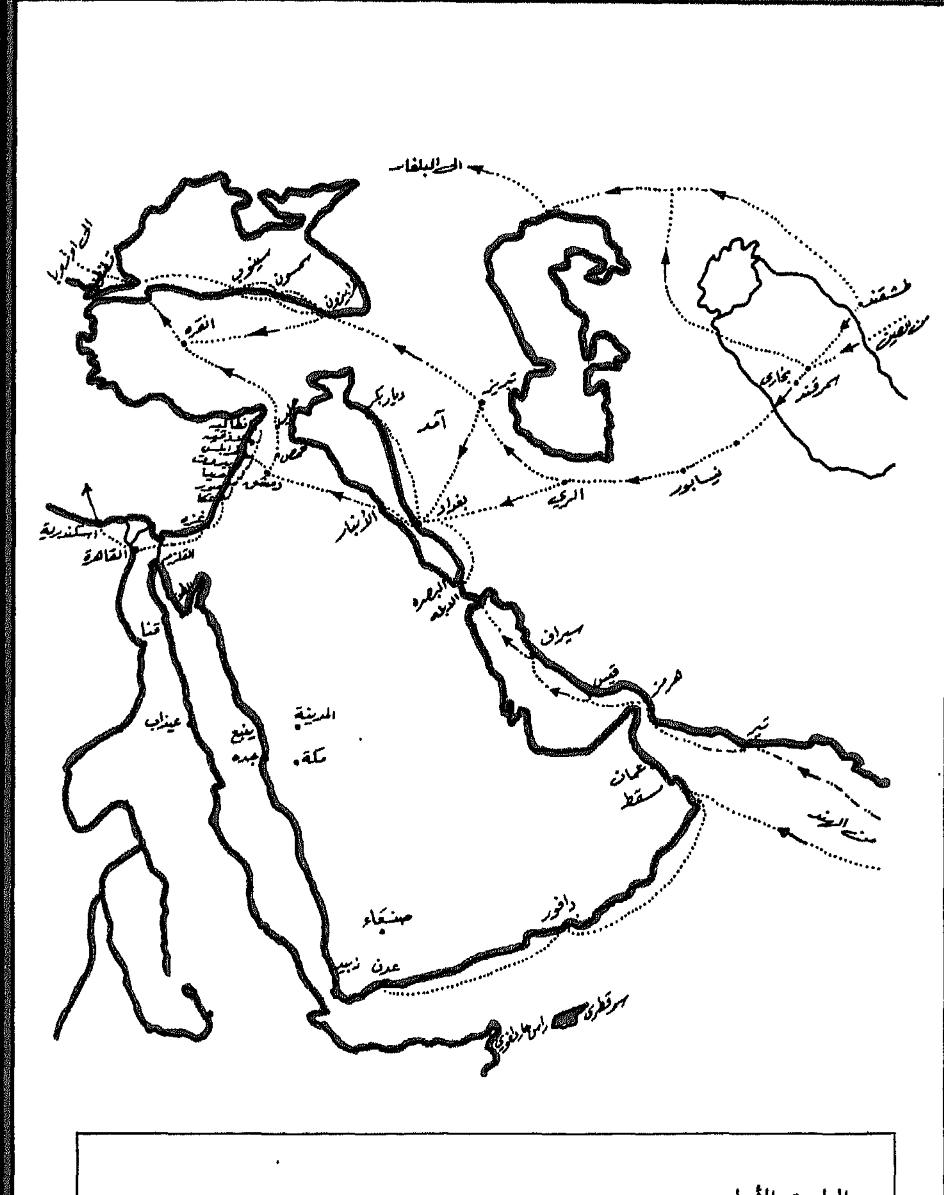
- **Uzzano. G,** «Prattica della Mercatura, in Pagnini, Della decima (Lisbon - Lucca - 1766).
- **Villain - Gandossi,** Méditerranée et Océan Indien.
Travaux du Sixième Colloque International d'Histoire Maritime - S.E.V.B.E.V. 1970.
- **Villani. G,** Cronica, Lib. XI, Florence 1823.
- **Wake.C.H.H,** «The Changing Pattern of Europe's Pepper and Spice Imports , Ca 1400 - 1700 », JEEH VIII (1979).
- **Wansbrough. J,** «A Mamlūk letter of 877/1473», in BSOAS, 1961; A Mamlūk Commercial Treaty concluded with the Republic of Florence 894/1489, in Oriental Studies vol. III. Documents From Islamic Chanceries, first series edited by S.M. Stern and Walzer, Bruno-Cassierer, Oxford, 1965;
- **Wansbrough. J,** A Mamlūk Ambassador to Venice in 913 H/1507, in Bulletin of the School of Oriental and African Studies, vol. XXVI, 1963.
- **Wansbrough. J,** «Venice and Florence in the Mamlūk Commercial Treaties», BSOAS, 28 (1865), pp. 483-523.
- **Wiet. G,** Les marchands d'épices sous les sultans mamlouks, Cairo, 1955.
- **Wiet. G,** Cairo: City of Art and Commerce.
The Centers of Civilization series. Norman, Oklahoma, 1964.
« Les Communications en Egypte aux Moyens Ages ». L'Egypte Contemporaine, 24 (1933), pp. 264.
- **Wittek,** The Rise of the Ottoman Empire, London 1958.
- **WÜSTENFELD-MAHLER'SCHE,** VERGLEICHUNGS-TABELLEN,
Zur Muslimischen und Iranischen Zeitrechnung mit Tafeln zur umrechunung Orient -CHRISTLICHER Aren-Wiesbaden, 1961.
- **Zurb. M,** Les privilèges de la ville de Marseille du Xe siècle à la Révolution. Paris, 1961.
- **Zakytinos . D,** «L'attitude de Venise face au déclin et à la chute de Constantinople», in Venezia, Centro di Mediazione I.

- **Ziadeh. N.A,** Urban Life in Syria. American University of Beirut, Beirut, 1953 ;
Damascus under the Mamlūk. University of Oklahoma Press. Norman, 1964.



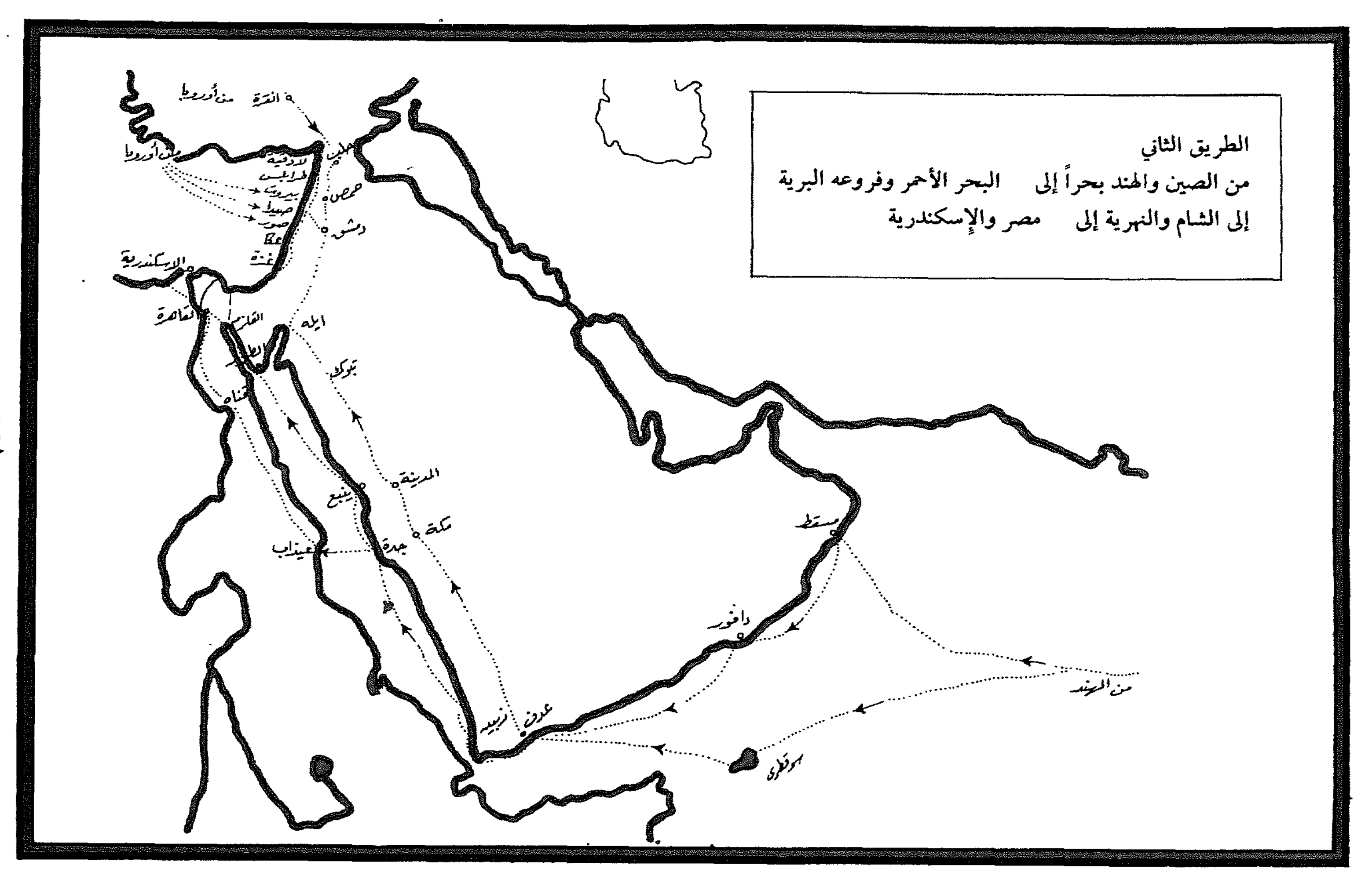
Abbreviations مصطلحات

ASF	Archivio di stato, Florence
ASG	Archivio di stato, Genoa
ASV	Archivio di stato, Venice
BSOAS	Bulletin of the School of Asian and African Studies, London
EI	Encyclopedia of Islam (éd. anglaise)
EI^2	Encyclopedia of Islam, 2e ed.
JESHO	Journal of Economic and Social History of the Orient



الطريق الأول

من الصين والهند بحراً إلى الخليج «العربي» الفارسي وفروعه البرية والنهرية إلى آسيا الصغرى وموانىء شرق البحر المتوسط

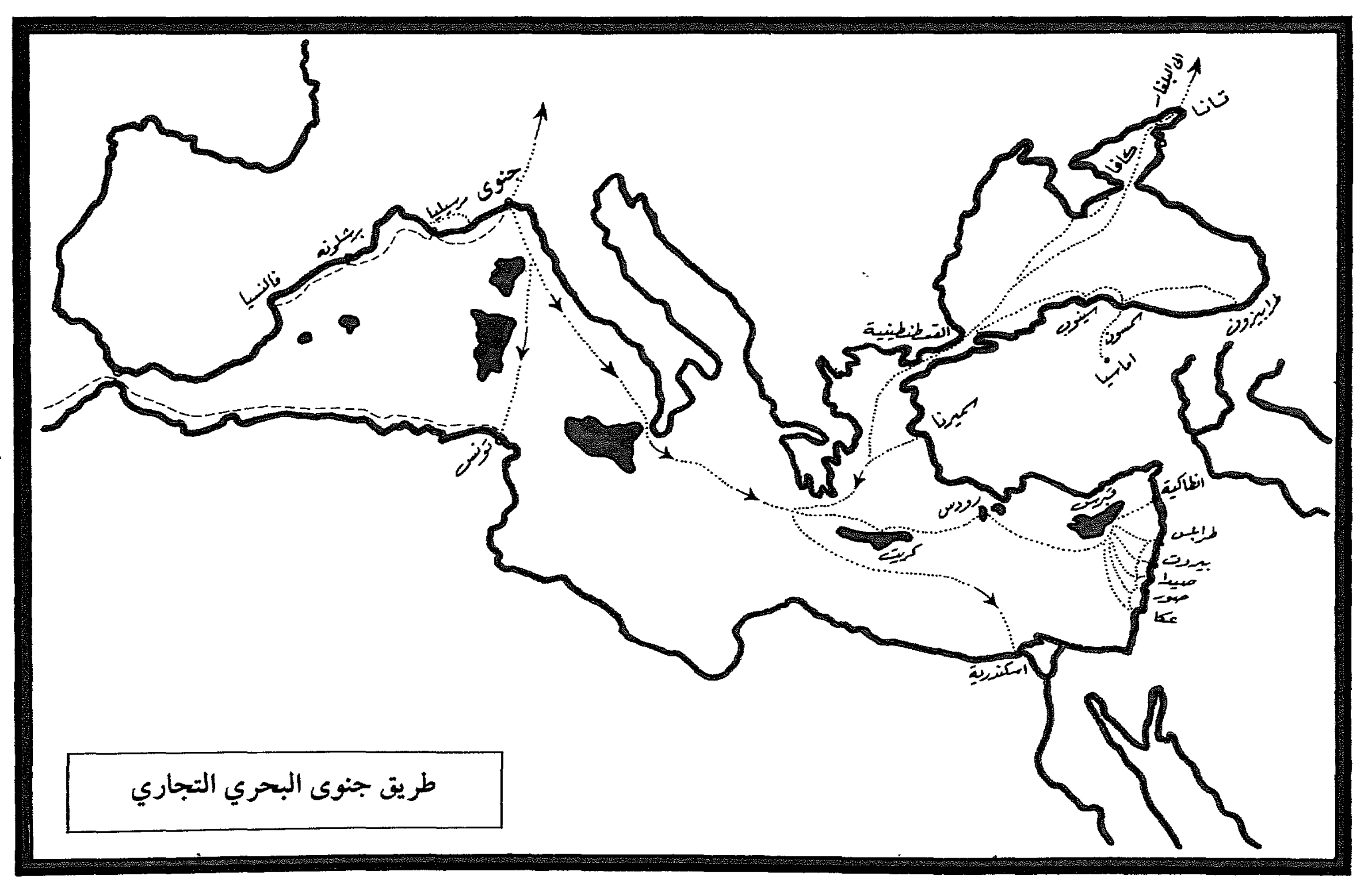

الطريق الثاني
من الصين والهند بحراً إلى البحر الأحمر وفروعه البرية
إلى الشام والنهرية إلى مصر والإسكندرية
من أوروبا
حلب
حمص
دمشق
بيروت
صيدا
صور
غزة
الإسكندرية
القاهرة
القلزم
ايله
تبوك
المدينة
ينبع
مكة
جدة
عيذاب
مسقط
من الهند
عدن
زبيد



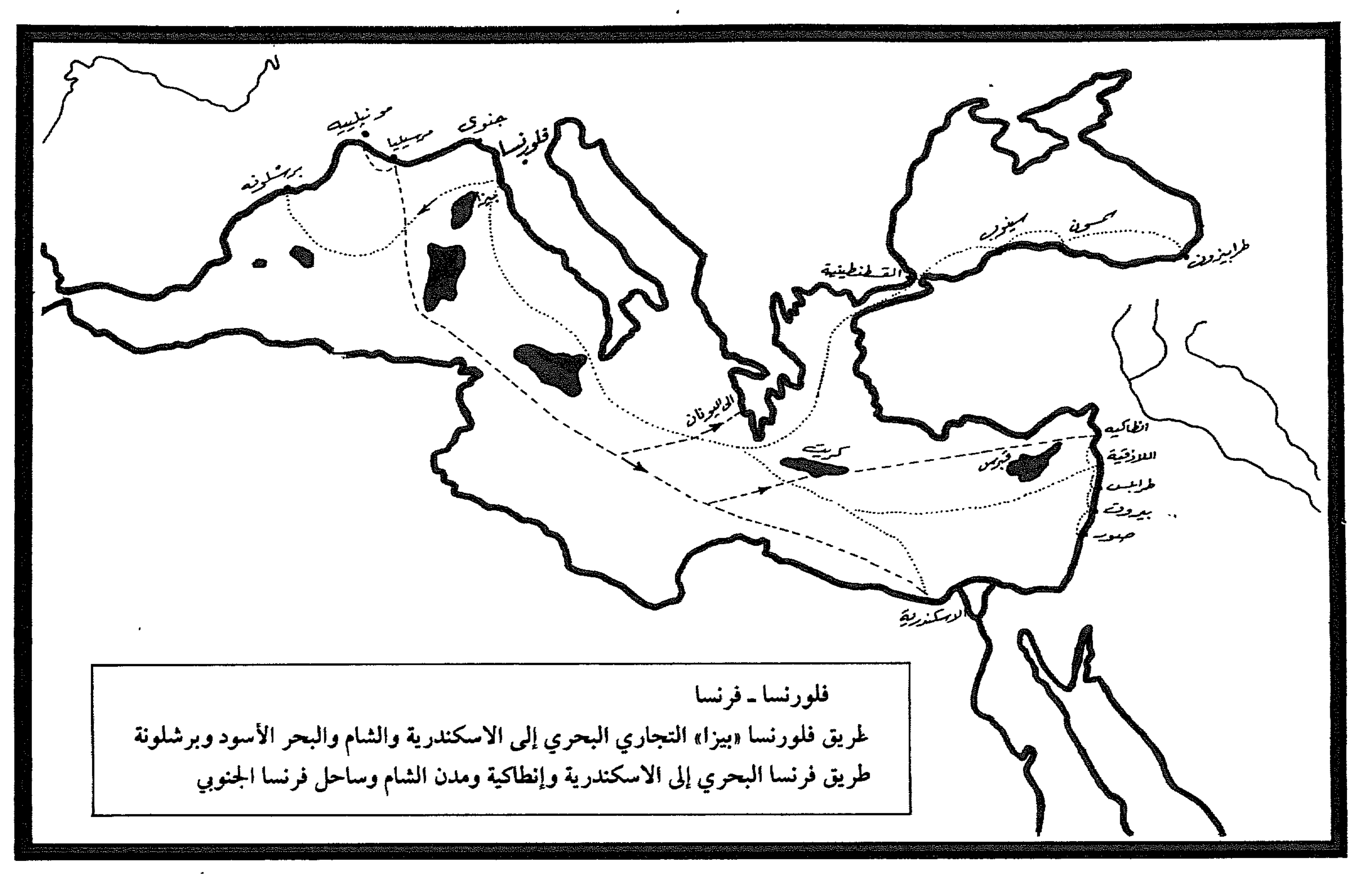
الطريق البحري الرابع من الصين والهند إلى الخليج الفارسي «العربي» ومراكزه التجارية.

أساطيل الشواني للبندقية في القرن الخامس عشر

تظهر هذه الخطيطة طرقات الشواني في الذهاب إما في العودة فتتوقف الشواني في نفس المرافىء باستثناء شواني شمالي افريقيا التي تعود من فالانسيا إلى تونس ومنها إلى البندقية، أما شواني الخط فتذهب من تونس إلى الشرق وتعود إلى البندقية برفقة شواني الاسكندرية وبيروت .



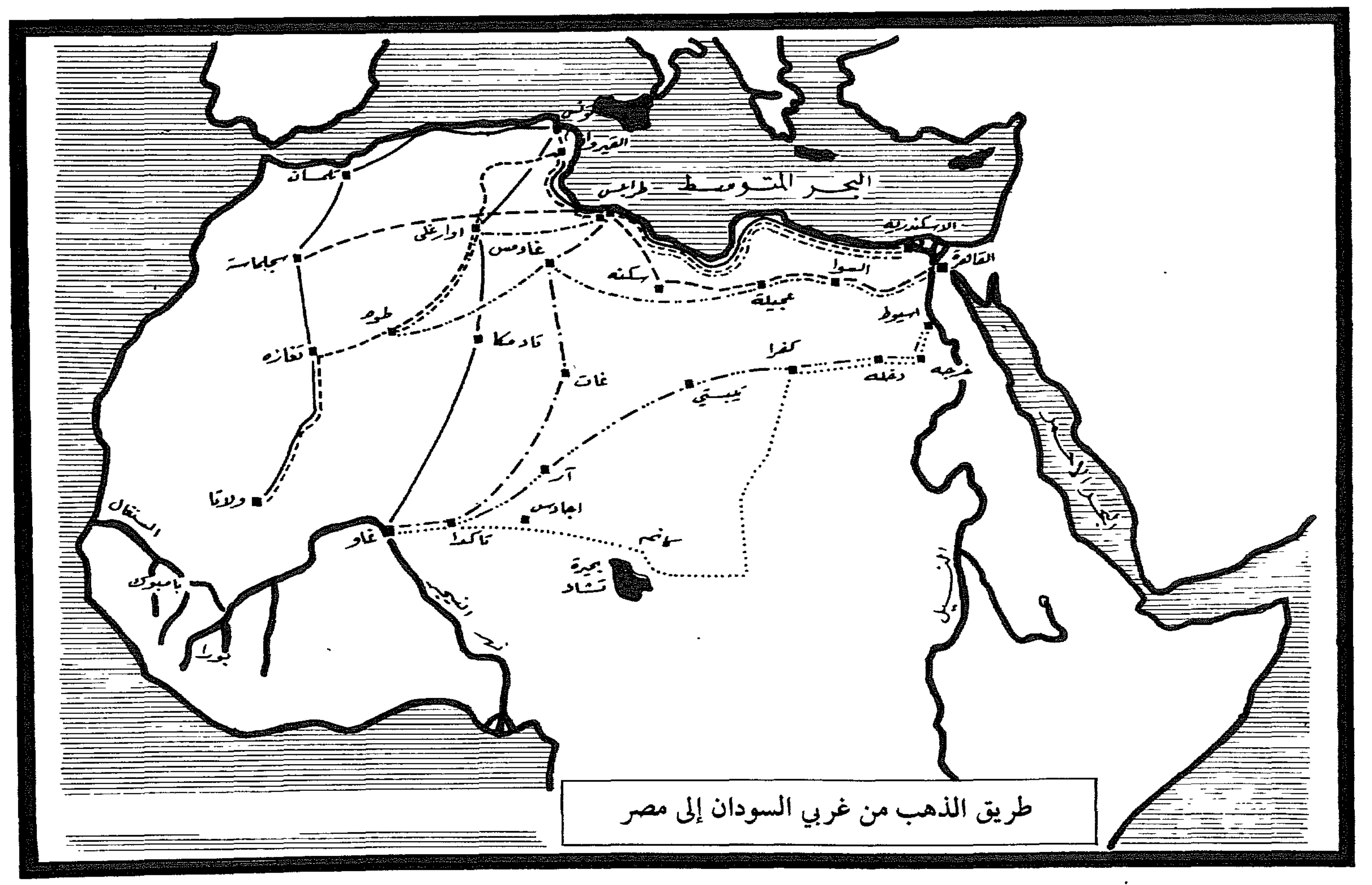
طريق جنوى البحري التجاري



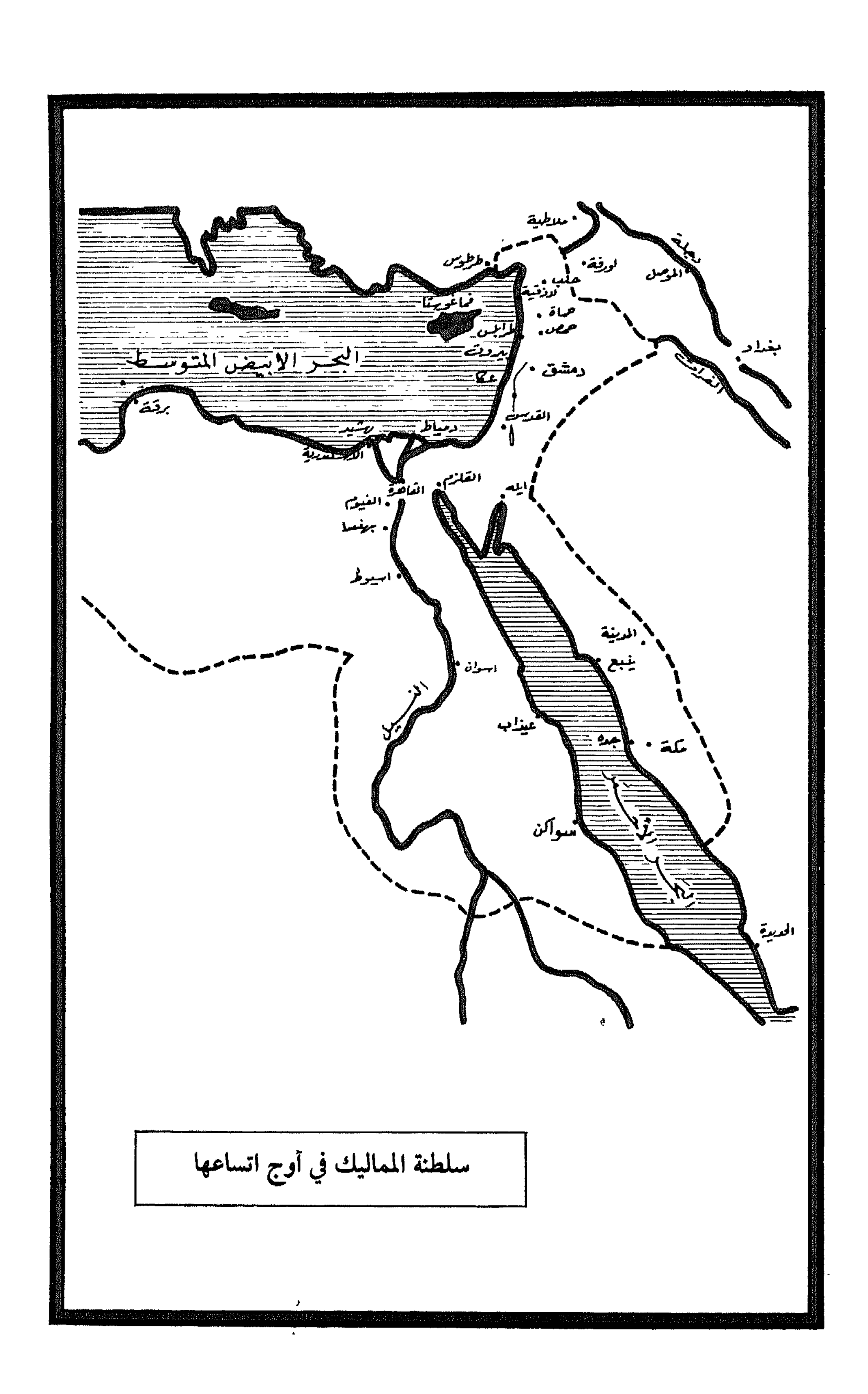
فلورنسا ـ فرنسا

طريق فلورنسا «بيزا» التجاري البحري إلى الاسكندرية والشام والبحر الأسود وبرشلونة

طريق فرنسا البحري إلى الاسكندرية وإنطاكية ومدن الشام وساحل فرنسا الجنوبي



طريق الذهب من غربي السودان إلى مصر



سلطنة المماليك في أوج اتساعها



فهرس الأعلام

حرف الألف

حرف الباء

حرف الدال

حرف الراء

حرف الزين

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الطاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف اللام ألف

حرف الياء



فهرس المدن والأماكن

حرف الألف

حرف الباء

حرف التاء

حرف الثاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الذال

حرف الراء

حرف الزين

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الطاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف اللام ألف

حرف الياء

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع **الصفحة**

الموضوع **الصفحة**

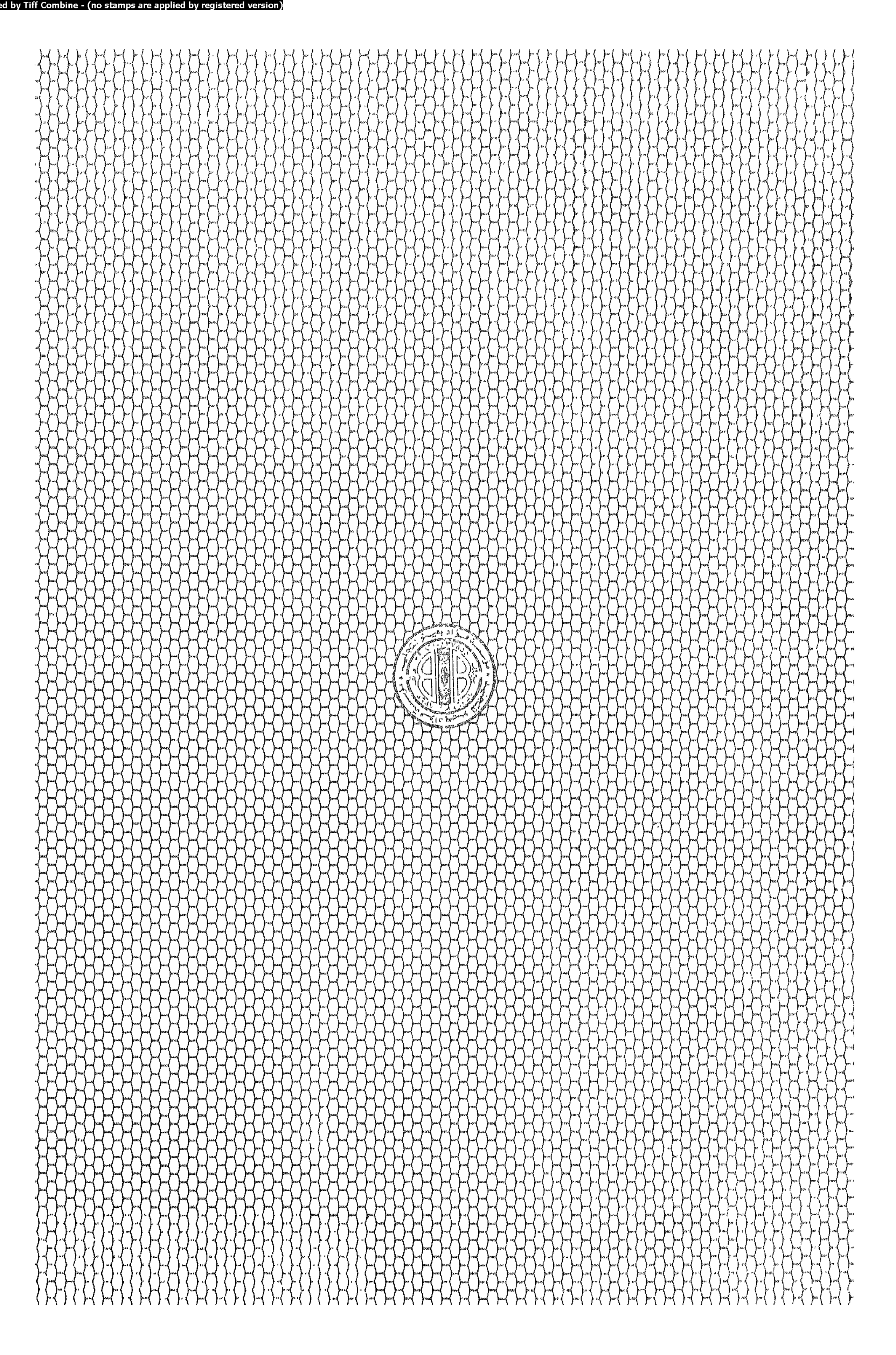
الموضوع | الصفحة

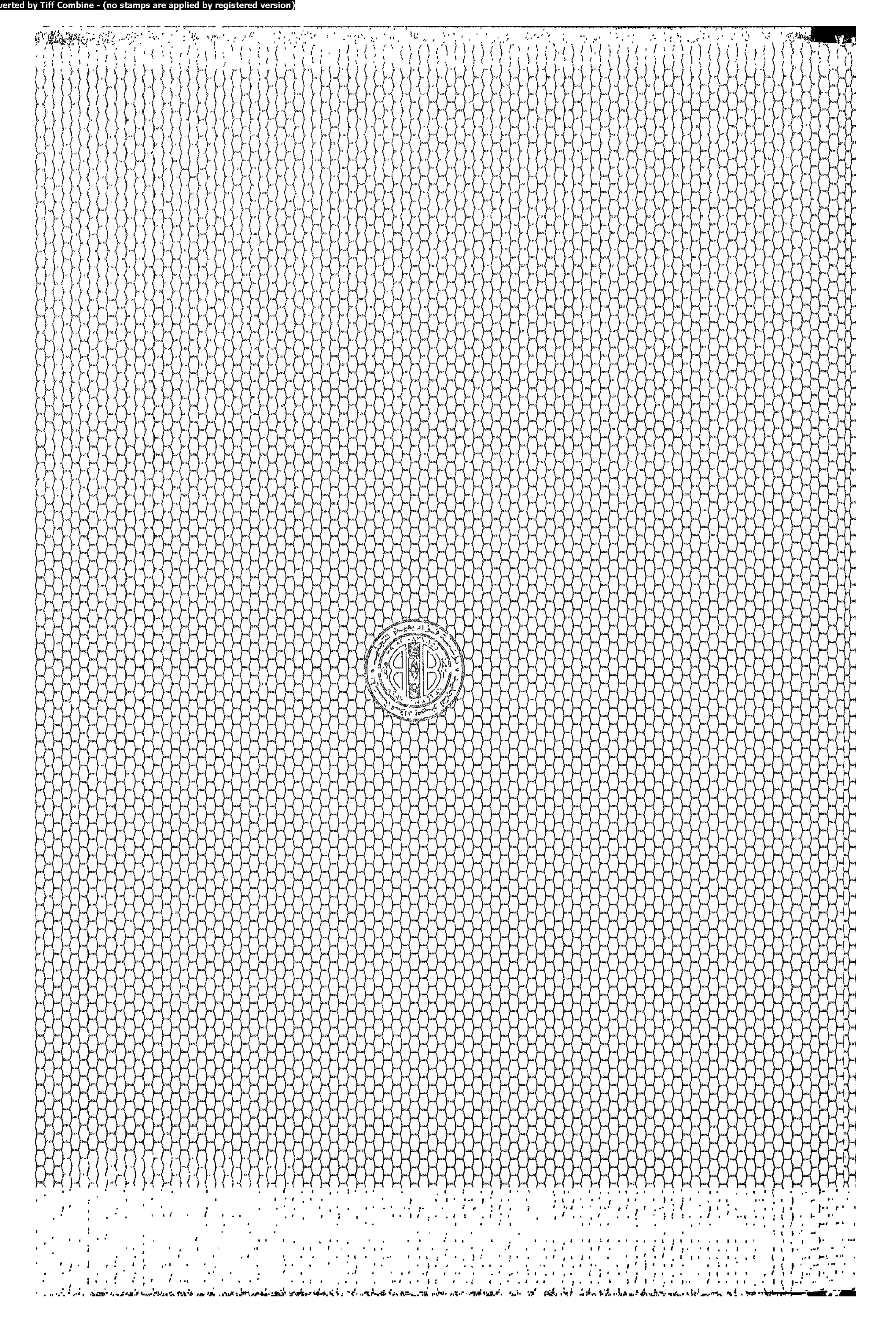
الموضوع	الصفحة











هو على الأصح خدمة كبيرة للعلم والحضارة وليس هو مجرد وصف لفترة أسرة من تاريخ المتوسط. لقد كان كل من الشرق والغرب في حالة من الاستقلالية ولكنهما كانا في الوقت نفسه متحدين في الحقيقة والواقع، هكذا كانا بالأمس ولا يزالان في أيامنا الراهنة!

Historia magistra Vitae!

البروفسور
مرتيشيانو بيلليغرينو رونكاليا

عضو المركز الألماني للدراسات الشرقية - بيروت.
وعضو مجمع بحوث البحر المتوسط سابقاً.

